

شَرَح مَقَامَاتِ بَدِيعِ الزَّمَانِ الرَّهْمَذَانِيِّ

أَبِي الْفَضْلِ أَحْمَدَ بْنَ أَحْسَيْنَ، بَدِيعِ الزَّمَانِ، الرَّهْمَذَانِيِّ
الْمُتَوَفَّى فِي ٣٩٨ هـ مِنْ الْهَجْرَةِ

مُحَمَّدُ مَجِيدُ الدِّينِ عَمَّادُ أَحْمَدَ

عَفَا اللَّهُ عَنْهُ

شَهِج
مَقَامَاتُ بَدِيعِ الزَّمَانِ الْهَمْدَانِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رُسلِ الله ، وعلى آلهم وأصحابهم
وبعد ، فقد كان مما جرى به القدرُ أنني نَشَرْتُ منذ قريب من أربعين
عامًا شرحًا على مقامات أبي الفضل أحمد بن الحسين ، بديع الزمان الهمداني
بيئت فيه معاني ما غمض من مفرداته ، وأشرتُ إلى مُرادِه من تراكيبه ، بعبارة
سهلة وأسلوب قريب من مَدَارِك نابتة البلاد العربية ، وتوخَّيتُ جَزَالَةَ العبارة
وبراعةَ الأسلوب . وغبَرَ على ذلك أمدًا طويل وكانَت نسخ هذا الكتاب قد
نفذتْ بعد ظهورها بوقتٍ قصيرٍ ، وتقاضاني كثير من الإخوان الذين يحسنون
بي الظن أن أعيد نشره ، ولكنني لم أكن أَلْبِي طَلِبَتَهُمْ مخافةً أن أجده إذا
عدتُ إلى قراءته على غير ما أَحِبُّ ، فلما كثرت تقاضيهم واشتدَّ إلحافُهُم رجعت
إليه فإذا أنا أجد فيه ما تَوَسَّموهُ من الذنَاء والسكفَاية .

وقد رأيتُ أن أخرجَه على الوجه الذي خرج عليه أول مرة - إلا مالا بُدَّ
لتحقيق النصِّ منه - لأسباب ثلاثة : أولها أنه يمثل فترة من فترات حياتي في
طلب العلم والحرص عليه ، فأستطيع - إذا نظرتُ فيه اليوم - أن أتبين كيف
كنت أقرأ ، وكيف كنت أفهم ، وكيف كنت أكتب في زمن الشباب ،
ولن يمتنعني أن الإنسان مفتون بأثاره عن الحكم الصادق والرأي السليم . وثانيها
أنني كنت قدَّمْتُ هذا الشرح للوالد رضى الله تعالى عنه ^(١) فتقبَّله قبولًا حسنًا ،

(١) انتقل الوالد رضى الله عنه لى جوار ربه وهو يصلى عصر يوم الثلاثاء الرابع
والعشرين من صفر سنة ١٣٤٣ (الموافق ٢٣ من سبتمبر ١٩٢٤) ولم يكن قد أكمل العقد
الخامس من عمره المبارك ، وقد كان - بشهادة أقرانه وعارفيه - مثلاً عاليًا للعالم العامل التقى الزرع
تتفمه الله برضوانه ، وأسبغ على جدته الطاهر شأبيب رحمة وغفرانه ، آمين .

ورضى عنه وعنى به ، وأنا أعلم أنه قد يكون منشأ رضاه العطف الذى كان يغمرنى به أو رغبته فى تشجيعى لأواصل الدأب والعمل ، ولكنى على ثقة من أنه لو لم يره صالحاً خليقاً بالإذاعة لما أظهر تحفيبه به ، وأنا خاليقٌ لذلك أن أبقيه على ما رآه عليه اعتزازاً برأيه ووفاء له ؛ وثالثها أن أنشدَ للذين لا يعملون ويؤذيهم أن يعمل الناسُ قولَ مروان بن أبي حفصة :

ما ضرَّنى الحُسْدُ البغيضُ ، ولم يزلْ ذُو الفِضْلِ يحسُدُه ذُو التَّصِيرِ
وقولَ أبى تمام حبيب بن أوس الطائى :

لَقَدْ آسَفَ الأعداءَ مَجْدُ ابنِ يوسُفِ

وَذُو النَّقْصِ فى الدُّنيا بِذِي الفِضْلِ مَوْلِعِ

وأسأل الله - جلَّت قدرته - أن ينفع به ، وأن يكتبه لى فى سجل الحسنات ،

إنه ولم ذلك م

محمد محي الدين عبد الحميد

ترجمة أبي الفضل بديع الزمان الهمداني

من هو؟

الكتاب المرسل ، والشاعر المجيد ، قُدوة الحريري ، وقريع الخوارزمي ووارث مكنياته ، مُعجزة همدان ، ونادرة الفلك ، وفريد دهره رواية وحفظاً ، وغرة عصره بديهته وذكاء ، أبو الفضل أحمد بن الحسين بديع الزمان الهمداني .
نشأته ، ونباهة شأنه ، ووفاته :

نشأ بهمدان إحدى مدن فارس الشمالية ، ودرس العربية والأدب ، وبرع فيهما ، ثم غادرها سنة ثمانين وثلثمائة وهو فتى السن غض الشباب ، وقد درس على أبي الحسين بن فارس ، وأخذ عنه جميع ما عنده ، واستنزف علمه ، واستنفد بجره ، وورد حضرة الصاحب أبي القاسم ، فتزود من أدبه الجم وحسن آثاره ، ثم قدم جرجان وأقام بها مدة على مداخلة جماعة الإسماعيلية ، والتعميش في أكنافهم ، والاقتراب من أنوارهم ، واختصه أبو سعد محمد بن منصور بمزيد الفضل وإسداء اللعروف ، ثم اعتزم نيسابور وشد إليها رحله ، فأعانه أبو سعد وأحسن إمداده ، فوافاها سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة ، ونشر فيها برّه ، وأظهر طرزه ، وأملى أربعمائة مقامة تحملها أبا الفتح الإسكندري في السكديّة ونحوها ، بلفظ رشيق ، وسجع رقيق . نسج الحريري على منوالها ، وهيهات أن يدرك الظالم شأوَ الظالم^(١) ، ثم شجر بينه وبين أبي بكر الخوارزمي ما كان سبباً لهبوب ريح الهمداني ، وعلو أمره ، وقرب تبحره ، وبعدي صيته ، إذ لم يكن في الحساب أن أحداً من الأدباء والكتّاب والشعراء يتبرى لمباراة الخوارزمي ، أو يجترى على مجاراته ، فلما تصدّى البديع لمساجلته ، وجرت بينهما مكاتبات ،

(١) هذه الجملة من كلام الحريري في مقدمة مقاماته .

ومباهات ، ومناظرات ، ومناضلات ، وأفضى السَّنَان إلى العنان ، وَقَرَعَ النَّبْعَ بالنَّبْعِ ، وجرى من الترجيح بينهما ما يجرى بين الخصمين المتحاكين ، والقرنين المتصاولين - طار ذكرُ الهمداني ، وارتفع عند الملوك والرؤساء . ثم مات الخوارزمي ؛ فخلَّ له الجوُّ ، وحسنت حاله ، ونعمَ بأله ، ورفهَ عيشه ، ولم يبق من بلاد خراسان وسجستان بلدةٌ إلا دخلها ، واستفاد خيرها ، ثم استوطن هَرَاةَ ، وخار له الله في مصاهرة أبي علي الحمين بن محمد أحد أعيانها العلماء فانظمت أحواله ، وقَرَّتْ عينه ، وقوى ساعدهُ ، ولكن المنية عاجلته وهو في سن الأربعين سنة ثمانٍ وتسعين وثلثمائة .

شئ من أخلاقه وصفاته :

لئن كان شعره يَنِمُّ عن بديهة حاضرة ، وذكاء واسع ، فإنه يَدُلُّ أيضاً على خُلقٍ فاضل ونفسٍ عالية . قال عنه صاحب اليتيمة : وكان مقبول الصورة ، خفيف الروح ، حسن العشرة ، ناصح الطرف ، عظيم الخلق ، شريف النفس ، كريم العهد ، خالص الودِّ ، حلو الصداقة ، مُرَّ العداوة ، اه . وتلك خلال لم يذكرها أبو منصور جزأفا ، ولكنه عرَّفها عنه . وهذا شعره - وللشعر حديث النفس ووحى الضمير - ناطقٌ بذلك

مختارات من كلامه :

البديع شاعر نائر ، وهو في كليهما قد ضَرَبَ بِسَهْمِ بَعِيدِ الْمَرْمِي ، واغترف من بحر عميق العُور ، إلا أنه البَحْرُ العَذْبُ القُرَات ، وإن مقاماته التي بين أيدينا والتي عُنِينَا بالتعليق عليها خيرٌ مثال من الفتر البارع ، وله سواها رسائل ربما أمكنتنا الظروف من نشرها ، ولكننا نوردُ منها قطعة تنبئ عن اقتداره وتفوفه .

كتب إلى الأمير أبي نصر الميكلاني يقول :

كتابي - أطال الله بقاء الأمير - وبودّي أن أكونه ، فأسعدَ به دونه ،
ولكن الحريص محروم ، لو بلغ الرزق فاه ، لولاه قفاه . وبعد فإن لي في مفاحمته
ثقةٌ تعد ، وبدأ ترتمد ، ولم ذاك ، والبحر وإن لم أره ، فقد سمعت خبره ؟ ومن
رأى من السيف أثره ، فقد رأى أكثره ، وإذ لم ألقه ، فلم أجهل إلا خلقه ،
وما وراء ذلك من تالد أصلٍ ونسب ، وطارف فضل وأدب ، فعلومٌ تشهد به
الدّفاتر ، واختبر المتوانر ، وتنطق به الأشعار ، كما تخلف عليه الأنار ، والأمين
أقلّ الخواسٍ إدراكا ، والأذن أكثرها استمساكا .

وهو في شعره لم يقصر عن نثره ، وربما كان شعره أمتن لفظاً ، وأروع

معنى ؛ فنه من قصيدة مدح بها الأمير أبا علي :

أَبِي الْمَقَامِ بِدَارِ الذَّلِّ بِي كَرَمٍ وَهَمَّةٌ تَصِلُ التَّوْحِيدَ وَالْحَبِيبَا
وَعَزَمَةٌ لَا تَزَالُ الدَّهْرَ ضَارِبَةً دُونَ الْأَمِيرِ وَفَوْقَ الْمُشْتَرَى طُنْبَا
يَأْسَيْدَ الْأَمْرَاءِ أَخْرُ؛ فَلَا مَلِكُ إِلَّا تَمَنَّاكَ مَوْلَى، وَاشْتَهَاكَ أَبَا
وَكَادَ يَحْكِيكَ صَوْبُ الْقَيْثِ مُنْسَكِبًا

لَوْ كَانَتْ طَلَقَ الْمُحَيَّا يُمْطَرُ الذَّهَبَا

وَالدَّهْرُ لَوْ لَمْ يَحْنُ، وَالشَّمْسُ لَوْ نَطَقَتْ،

وَاللَّيْثُ لَوْ لَمْ يُصَدِّ، وَالْبَحْرُ لَوْ عَذَّبَا

وكم وددت لو استقصيت عنه كثيراً ، ولكني أرجىء ذلك إلى

مرة أخرى إن شاء الله .

١ - المَقَامَةُ الْقَرِيضِيَّةُ^(١)

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ^(٢) قَالَ :

طَرَحْتَنِي النَّوْمَى مَطَارِحَمًا^(٣) حَتَّى إِذَا وَطِنْتُ جُرْجَانَ الْأَفْقَى .
فَاسْتَظْهَرْتُ كُلِّي الْأَيَّامِ بَضِياعٍ أَجَلْتُ فِيهَا يَدَ الْعِمَارَةِ^(٤) ، وَأَمْوَالَ وَقَفْتَهَا
عَلَى التَّجَارَةِ^(٥) ، وَحَانُوتٍ جَعَلْتُهُ مَثَابَةً^(٦) ، وَرُقْفَةً أَخَذْتُهَا صَحَابَةً^(٧) ،
وَجَعَلْتُ الدَّارَ ، حَاشِيَتِي النَّهَارِ^(٨) ، وَاللِّحَانُوتِ بَيْنَهُمَا ، فَجَلَسْنَا يَوْمًا

(١) المقامة في أصل اللغة : المجلس يجتمع فيه الناس ، ثم استعمالها الأدباء في الخطبة أو العظة ، وكأنهم أرادوا أن الشأن في هذين الإقائهما في الأندية والمحافل ، ثم خصوها بالتخصص التي يتحدثون بها عن السنة قوم يسمونهم رواة - إن حقيقة أو خيالاً - ويبحثون فيها بالأغراض المختلفة .

(٢) اعتاد أصحاب المقامات أن يتخذوا لهم راويًا يتحدثون باسمه - كما ذكرنا - وقد جعل البديع راويه عيسى بن هشام ، كما اتخذ الحريري الحارث ابن همام ، واصطاحوا على أن تكون ملحمهم ونواديرهم عن رجل آخر ، وهو هنا أبو الفتح الإسكندري ، وفي المقامات الحريرية أبو زيد السروجي .

(٣) طَرَحَهُ وَطَرَحَ بِهِ : رماه وأبعده ، والنوى : أراد بها هنا الغربة .

(٤) جُرْجَان : مدينة كانت قديمًا عاصمة بلاد خوارزم ، وتعتبر الآن من بلاد التتار ، واستظهر عليه : استعان ، والضِّياع : جمع ضَيْعة ، وهي العقار والأرض المَغْلَّة ، وأجال : حَرَكَ .

(٥) حبس أمواله : وقفها ، أي جعلها خاصة بالتجارة .

(٦) الحانوت : دكان الخمار ، وهذا الموضع مثابة فلان : أي مكان إقامته

ومرجعه .

(٧) صحابة ، بفتح أوله وكسره : خُلطاء .

(٨) حاشيتنا النهار : أوله وآخره ، أي طَرَفَاهُ .

نَتَدَا كَرُّ الْقَرِيضِ وَأَهْلَهُ ، وَتِلْقَاءَنَا شَابٌ قَدْ جَلَسَ غَيْرَ بَعِيدٍ يُنْصِتُ وَكَأَنَّهُ
يَفْهَمُ ، وَبَسْكَتُ وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ (١) حَتَّى إِذَا مَالَ الْكَلَامُ بِنَا مِثْلَهُ ، وَجَرَّ
الْجِدَالَ فِينَا ذَيْلَهُ ، قَالَ : قَدْ أَصَبْتُمْ عَذِيقَهُ ، وَوَأَفَيْتُمْ جُدَيْلَهُ ، وَلَوْ شِئْتُ
لَلْفَقْتُ وَأَفْضْتُ ، وَلَوْ قُلْتُ لَأَصْدَرْتُ وَأُورِذْتُ ، وَجَلَلْتُ الْحَقَّ فِي
مَعْرِضِ بَيَانَ يُسْمِعُ الْعُصْمَ ، وَيُنْزِلُ الْعُصْمَ ، فَقُلْتُ : يَا فَاضِلُ أَدْنُ فَقَدْ
مَنَيْتَ ، وَهَاتِ فَقَدْ أَتَيْتَ ، فَدَنَا وَقَالَ : سَلُونِي أُجِيبْكُمْ ، وَاسْمَعُوا
أُنْجِبْكُمْ (٢) .

(١) يقول : إنه ما زال رهين أسفار، وأليف حل وترحال، تُعْقِدُهُ النوى
وَتُقِيمُهُ، حتى إذا أناخ ركبته بجرحان، وألقى فيها عَصَاهُ ، استمان على الدهر
بإصلاح ضِيَاعِ جعلها موردا، وبالأتجار في أموال اتخذها رِفْدًا ومعينا .

وإنه لم ينس نفسه من لذة الرفاق والنَّدَمَانِ ، فجعل إقامته في حانوب يختلف
إليه بين طَرَفِي النهار ، وإنهم ليتذاكرون الشعر يوما - وقد جاس أمامهم فتى
علم من أساريه أنه يفهم ما يقولون لأنه يُصْنَعِي إِضْعَاءَ الذي يَعْلَمُ ، ولكنه كان
صامتًا حتى ليتوهمه الناظر جاهلا لا يستطيع الإبانة - إذ تشعبت أمامهم طرق
المذاكرة ، واستفاض الحديث ، وكثرت فنون القول ، وطال بينهم الجدال في
موضوعات مذكراتهم .

(٢) العَدْقُ - بفتح أوله - : النخلة بما عليها ، والمُدَيِّقُ : مصغره ، والمقصود
التعظيم ، والجَذْلُ : بالفتح والكسر - عود ينصب للجربى لتحتك به ، وهو
يشير إلى قول الحلباب بن المنذر : « أَنَا عَذِيقُهَا الْمَرْجَبُ ، وَجُدَيْلُهَا الْحَكَّكَ »
يريد أنه الذي يُرْجَعُ إليه ويُعْتَمَدُ عليه ، وتقول : أفاض في الحديث ؛ إذا اندفع فيه ،
وتكلم فأفاض : أي أفصح وأبان ، والورود : الإشراف على الماء وإتيانه ، والصدور :
الرجوع عنه ، يريد أنه سيحدثهم حديثًا مختلفًا ، وسيجعل كلامه ذا فنون =

فَقَلْنَا: مَا تَقُولُ فِي امْرِئِ الْقَيْسِ؟^(١) قَالَ: هُوَ أَوَّلُ مَنْ وَقَفَ بِالذِّبَارِ
وَعَرَصَاتِهَا^(٢)، وَأَغْتَدَى وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا^(٣)، وَوَصَفَ الْخَلِيلَ بِصِفَاتِهَا،
وَلَمْ يَقُلِ الشُّعْرَ كَأَسِيًّا^(٤).

= وأصاليب متفاوتة ، وقوله « بسمع الصم » مأخوذ من قول المتنبي :

أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدْبِي وَأَسْمَعْتُ كَلِمَاتِي مَن يَدِي صَمُّهُ

يقول: إنه حينما كثرت بيننا الجدل ، وتمددت أماننا مناحي الكلام ، واختلفت
مَوَارد الأحاديث ، وتمددت أطراف القول ، قال لنا ذلك الفتى : لقد وجدتم
صاحب الأمر في البيان ، وإني لو شئت أن أتكلم لما تركت شاردة ولا واردة ،
ولجئتكم بالذي يأخذكم العجب منه

(١) هو ذوالقُروح الملك الضليل أبو الحارث حنُذُج بن حُجْر الكِنْدِي
شاعر اليمانية ، ورأس شعراء الجاهلية وأميرهم ، وقادهم إلى التفنن في أبواب الشعر
وضروبه ، والمقدّم في الطبقة الأولى منهم .

(٢) من ذلك قوله :

قِفَانَبِكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَعِرْفَانٍ وَرَبِيعٍ عَمَّتْ آيَاتُهُ مُنْذُ أَزْمَانٍ
وقوله :

قِفَانَبِكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ بِسِقْطِ اللَّوِيِّ بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ .

(٣) الوُكُنَاتُ : أعشاش الطير ، ومن ذلك قوله وفيها يصف الخليل :

وَقَدْ أَغْتَدَى وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلٍ
مِكْرَرٍ مِقْرَرٍ مُقْبِلٍ مُسْذِرٍ مَعَا كَجَلْوِدٍ صَخْرٍ حَطَّه السَّيْلُ مِنْ عَلٍ
كَمَيْتٍ يَزِلُّ اللَّابُدُّ عَنْ حَالٍ مَتْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاهُ بِالْمَتَنَزَّلِ

(٤) يريد أنه لم يقصد بشعره المال ، ولم يقله رغبة في الدنيا وحباً في الجمع

كمادة الشعراء المتكسبين بشعرهم .

وَلَمْ يُجِدِ الْقَوْلَ رَاغِبًا^(١) ، فَفَضَلَ مَنْ تَفَتَّقَ لِلْحِيلَةِ لِسَانُهُ ، وَأَنْتَجَعَ لِلرَّغْبَةِ بِنَانُهُ^(٢) ، قُلْنَا : فَمَا تَقُولُ فِي النَّابِغَةِ؟^(٣) ، قَالَ : يَثْلِبُ إِذَا حَنَقَ^(٤) ، وَيَمْدَحُ إِذَا رَغِبَ^(٥) ، وَيَمْتَدِّرُ إِذَا رَهَبَ^(٦) ، فَلَا يَرْمِي إِلَّا صَانِبًا قُلْنَا : فَمَا تَقُولُ فِي رُهِيرٍ؟^(٧) قَالَ : يُذِيبُ الشَّعْرَ وَالشَّعْرُ يُذِيبُهُ ، وَيَدْعُو الْقَوْلَ

(١) يعنى أنه كانت ثواتيه الألفاظ وتجيئه عفوا ، فلم يكن يتعمد الإجابة ، ولكنه أجاد عن غير قصد ، واستوى على عرش البيان دون مجهود ، وإنما الطبيعة والسليقة كانتا سبب نبوغه وتفوقه .

(٢) فَضَلَ : زاد رفة وقدرًا ، يعنى أنه سما على هؤلاء الذين لم تحرك ألسنتهم غير الرغبة في المال ، ولم ينفقهم بالشعر إلا انتجاع السكرماء والذهاب إلى المياسير وأناف على غواربهم ؛ فكان أبعدهم شأوا ، وأفضلهم مقولا ، وأجودهم شعرا .
(٣) هو النابغة الذبياني : أبو أمامة زياد بن معاوية ، أحد فحول الشعراء في الجاهلية ، وزعيمهم وحكمتهم بمكاظ ، أحسنهم ديباجة وجلاء معنى وأطفأ اعتذار ، وإنما لقب بالنابغة لتفوقه في الشعر فجاءة وهو كبير بعد أن امتنع عليه وهو صغير .
(٤) أى أنه يسب ويشتم ويُقدِّع في الهجاء إذا اشتدَّ به الغضب وثارَت في نفسه الحدَّة .

(٥) يعنى أنه إذا أراد مدح المديح الذى يُخرِس الألسنة ويُعجز الفصحاء .
(٦) النابغة أكثر الشعراء تفننا في الاعتذار ، وأبرعهم سبكا ، وأرقهم عذرة ، وأطفهم تدخلا إلى القلب ، ومن بدع اعتذاراته قوله :

أَتَانِي أَيْتَ اللَّغْنِ أَزْكَ لَمْتَنِي وَتِلْكَ الَّتِي أَهْتَمُّ مِنْهَا وَأَنْصَبُ
فَيْتَ كَأَنَّ الْعَائِدَاتِ فَرَشْنَ لِي هَرَّاسًا بِي يُغْلَى فِرَائِي وَيُقَشَّبُ

(٧) هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني ، ثالث فحول الطبقة الأولى من الجاهلية ، وأعفهم قولا ، وأوجزهم لفظا .

وَالسَّحْرُ مُجِيهٌ^(١) ، قُلْنَا : فَمَا تَقُولُ فِي (طَرْفَةَ ؟ قَالَ : هُوَ مَاءُ الْأَشْعَارِ
 وَطَيْبَتُهَا ، وَكَنَزُ الْقَوَافِي وَمَدِينَتُهَا ، مَاتَ وَلَمْ تَنْظُرْ أَسْرَارُ دَفَائِنِهِ ،
 وَلَمْ تَنْفُتِحْ أَغْلَاقُ خَزَائِنِهِ^(٢) ، قُلْنَا : فَمَا تَقُولُ فِي جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقِ ؟^(٣)
 أَيُّهُمَا أَسْتَبِقُ ؟ فَقَالَ : جَرِيرٌ أَرْقُ شِعْرًا ، وَأَغْزَرُ غَزْرًا^(٤)

(١) يريد أنه سلس القياد للشعر، وأنه ملك زمامه ، فإذا قال سحر القلوب
 واستهوى الأفتدة ، واستزعى الأسماع .

(٢) طرفة بن العبد : هو عمرو بن العبد ، البكري ، أقصر فحول الجاهلية
 عمراً ، وأجودهم طويلاً ، وأوصفهم للناقة .

(٣) جرير : هو أبو حذرة جرير بن عطية بن الخطمي ، التيمي ، البربوعي
 أحد فحول الشعراء الإسلاميين ، وبلغاء المداحين الهجائين ، وأنسب ثلاثتهم
 (هو ، والفرزدق ، والأخطل) المفلقين ، ولد باليمامة سنة ٤٢ هـ من بيت اشتهر
 بالشعر ، ونشأ بالبادية ، وفيها قال الشعر ونبغ فيه .

والفرزدق : هو أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة ، التيمي ، الدارمي ،
 أفخر ثلاثة الشعراء الأمويين ، وأجزل المقدمين في الفخر والمدح والهجاء ، ولد
 سنة ١٩ هـ ، ونشأ بالبصرة بين فصحاء آبائه وقومه منذ أول تمصيرها - وهي يومئذ
 حاضرة العرب - فلم تختلط لهجته بمجمة ولا لحن ، فأراده أبوهِ على رواية الشعر
 ونظمه ، فرَوَاهُ ونظمه وبرع فيه .

والمفاضلة بينهما كالمفاضلة بين كل شاعر بين عسرة لا يتهم عليها ولا تجوز
 لناقيد ، ونعنى المفاضلة بحيث يقال : إن فلانا أشعر من فلان ، على الإطلاق ،
 وعندى أن الذى ذكره البديع من الإذعان لأحدهما بنوع وللآخر بفن خير
 ما يذكركم - حككم منصف .

(٤) أغزر : أكثر ، والمعنى : أن جريراً يفوق صاحبه فى كثرة معانيه .

وَالْفَرَزْدَقُ أَمْتَنُ صَخْرًا ، وَأَكْثَرُ فَخْرًا^(١) وَجَرِيرٌ أَوْجَعُ هَجْوًا ، وَأَشْرَفُ
يَوْمًا^(٢) وَالْفَرَزْدَقُ أَكْثَرُ رَوْمًا ، وَأَكْرَمُ قَوْمًا ، وَجَرِيرٌ إِذَا نَسَبَ أَشْجَى ،
وَإِذَا ثَلَبَ أَرْدَى ، وَإِذَا مَدَحَ أَشْنَى ، وَالْفَرَزْدَقُ إِذَا افْتَخَرَ أَجْزَى ،
وَإِذَا احْتَمَرَ أَرْزَى ، وَإِذَا وَصَفَ أَوْفَى ، قُلْنَا : فَأَنْتَ تَقُولُ فِي الْمُخَدَّثِينَ مِنَ
الشُّعْرَاءِ وَالْمُتَقَدِّمِينَ مِنْهُمْ ؟ قَالَ : الْمُتَقَدِّمُونَ أَشْرَفُ لَفْظًا ، وَأَكْثَرُ مِنْ
الْمَعَانِي حَظًّا ، وَالْمُتَأَخِّرُونَ أَلْطَفُ صُنْعًا ، وَأَرْقُ نَسْجًا^(٣) ، قُلْنَا : فَلَوْ أَرَيْتَ
مِنْ أَشْمَاكِ ، وَرَوَيْتَ لَنَا مِنْ أَخْبَارِكَ ، قَالَ : خُذْهَا فِي مَعْرِضٍ وَاحِدٍ ،
وَقَالَ :

أَمَا تَرَوْنِي أَنْتَشَى طِمْرًا مُمْتَطِيًا فِي الضَّرِّ أَمْرًا مَرًّا^(٤)

- (١) أى أنه متمكن من القول ، قادرٌ على صقله وتصريفه ، وهو فخور بنسبه
صَلَفَ بِمَجْدِهِ ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ مَجِيدٌ فِي الْفَخْرِ بِأَيَّامِ قَوْمِهِ الْمَاضِيَةِ ، وَأَنَّهُ وَجَدَ مِنْ
قَوْمِهِ أَحْسَابًا عَالِيَةً وَأَمْجَادًا شَامِحَةً فَاسْتَطَاعَ أَنْ يَشِيدَ بِهَا .
- (٢) يريد أنه أكرم من صاحبه حاضرا ، أى أنه أفضل في نفسه من صاحبه
وقد فسره الأستاذ الإمام بمعنى أنه أشرف ذكر الأيام قومه ، وما ذكرناه أدق
- (٢) شجر بين الأدباء وصيَّارف الكلام خلاف : أي الفريقين خير منزلة
في الأدب ، وأحسن مقامًا فيه ؟ القدماء وهم شعراء دولة بني أمية وما قبلها أو
المتأخرون وهم شعراء الدولة العباسية وما وليها ؟ وتعمَّصَ جماعة لهؤلاء ، ورأى
قوم الفضل لأولئك ، غير أن القول الفضل هو الذى ذكره أبو العباس المبرِّدُ في
الكامل حيث يقول : « وليس لِقِدَمِ المهدِ يَفْضَلُ القائل ، ولا لِحَدَثَانِ المهدِ يهْتَمُّ
المصيب ، ولكن يعطى كل ذى حق حقه » وذلك رأى البديع في حكمه .
- (٤) أَنْتَشَى طِمْرًا : أَجْمَلَ غِشَائِي ثَوْبًا خَلَقًا ، وَمَمْتَطِيًا أَمْرًا مَرًّا : رَاكِبًا
المسرة والشدة ، ملاقيا منهما مثل ما يلقاه راكب الصغبة من الآلام .

مُضْطَبِنًا عَلَى اللَّيَالِي غَمْرًا مُلَاقِيًا مِنْهَا صُرُوفًا جَمْرًا^(١)
 أَفْصَى أَمَانِي طُلُوعُ الشُّعْرَى فَقَدَّ عُنَيْنًا بِالْأَمَانِي دَهْرًا^(٢)
 وَكَانَ هَذَا الْحُرُّ أَعْلَى قَدْرًا وَمَاءَ هَذَا الْوَجْهِ أَعْلَى سِعْرًا
 ضَرَبْتُ لِلِسْرَا قِبَابًا خَضْرًا فِي دَارِ دَارًا وَإِوَانِ كِسْرَى^(٣)
 فَانْقَابَ الدَّهْرُ لِبَطْنِ ظَهْرًا وَعَادَ عُرْفُ الْعَيْشِ عِنْدِي نُسْكَرًا^(٤)
 لَمْ يُبْقِ مِنْ وَفْرِي إِلَّا ذِكْرًا ثُمَّ إِلَى الْيَوْمِ هَلُمَّ جِرًا^(٥)
 لَوْلَا عَجُوزٌ لِي بَسْرٌ مَنْ رَا وَأَفْرُخٌ دُونَ جِبَالِ بَصْرَى
 قَدْ جَلَبَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ ضَرًّا قَتَلْتُ بِأَسَادَةٍ نَفْسِي صَبْرًا^(٦)

- (١) مضطبنا: حاملًا، غمراً: غلاً وحقدًا، والصروف البحر: أشد الكوارث وأصعبها، والمعنى أنه يحمل الموجدة على الليالي لطول مارمته بالبلايا، وشدة ما يجد من كربها وآلامها، وما ترميه به من النكبات التي يشق احتمالها.
- (٢) أبعد ما أتمناه أن يظهر ذلك النجم المسمى بالشعري؛ لأنه إنما يظهر حين يشتد الحر، وتلك أمنية العاري الذي لا يجد ثوباً يقيه زمهرير البرد.
- (٣) أي كفت مثيراً إذا بسطة من المال، وكانت النعمة ظاهرة على، والوفر تشهد لي دلالاته وتحتج لي علاماته.
- (٤) ثم تحوّل الدهر عني، وأصبح طيب العيش ولا صلة له بي، وما أمت إلا للفاقة والمؤز الذين كنت أنسكركها.
- (٥) ولم تبق لي من ثروتي وجاهي غير الذكريات المؤلمة.
- (٦) ولولا زوجي العجوز التي تقيم بسرّ من را وأبنائي الذين يقطنون قريبا من جبال بصرى، ولولا كراهيتي أن يموت هؤلاء يموتى ولا يجدوا عائلا بعدى لما وسعني المقام في هذه الحياة الفانية مع هذا البؤس الأليم والضنك الملازم، بل كفت أقتل نفسي صبراً، وذلك بأن أمنعها التصرف حتى تموت.

قال عيسى بن هشام: فأنلته ماتاح^(١). وأعرض عنا فرأح. فجعلت
 أنفيه وأثبته^(٢)، وأنكره وكأني أعرفه، ثم دلتني عليه ثناياه^(٣)،
 فقلت: الإسكندري والله، فقد كان فارقنا خشفًا^(٤)، ووافانا جلفًا^(٥)،
 وهضت على إثره، ثم قبضت على خصره، وقلت: أأنت أبا الفتح؟ ألم
 زربك فينا وليدًا وأبنت فينا من عمرك سنين؟ فأى عجوز لك بسر من
 را؟ فضحك إلي وقال:

(وَيْحَكَ هَذَا الزَّمَانُ زُورٌ فَلَا يَغُرُّكَ الْفُرُورُ
 لَا تَلْتَزِمَ حَالَهُ، وَلَكِنْ دُرٌّ بِاللَّيَالِي كَمَا تَدُورُ)

(١) أنلته: أعطيته، وتاح: أى تهبأ، وتيسر، وأمكن أن أعطيه إياه.
 (٢) أنفيه وأثبته: يريد أنه تردد في التعرف عليه، فتارة ينفي معرفته،
 وتارة يثبتها..

(٣) أصل الخشف: بكسر الخاء وسكون الشين - ولد الطيبة، وأراد هنا
 أنه فارقه صغيراً جميل الرواء بهي المنظر.

(٤) الجلف - بكسر الجيم وسكون اللام - الجاني الغليظ. يقول: إن
 السبب في عدم تعرفهم عليه من أول وهلة أنه قد تغير حاله، واختاف سمته عما
 كنا نمهده.

٢ - المَقَامَةُ الْأَزَادِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :
 كُنْتُ بِبَغْدَادَ (١) وَفَتَّ الْأَزَادِ (٢) ، فَخَرَجْتُ أَعْتَامَ (٣) مِنْ أَنْوَاعِهِ
 لِأَبْتِيَاعِهِ ، فَسَرْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ إِلَى رَجُلٍ قَدْ أَخَذَ أَصْنَافَ الْفَوَاكِهِ وَصَنَّفَهَا (٤)
 وَجَمَعَ أَنْوَاعَ الرُّطْبِ وَصَنَّفَهَا ، فَكَبَّضْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْسَنَهُ ، وَقَرَضْتُ
 مِنْ كُلِّ نَوْعٍ أَجْوَدَهُ ، فَحِينَ جَمَعْتُ حَوَاشِيَ الْإِزَارِ ، عَلَى تِلْكَ الْأَوْزَارِ
 أَخَذَتْ عَيْنَايَ رَجُلًا قَدْ لَفَّ رَأْسَهُ بِرُفْعِ حَيَاءٍ ، وَنَصَبَ جَسَدَهُ ، وَبَسَطَ يَدَهُ . وَاحْتَضَنَ

(١) بغداد : مدينة السلام التي اختط فيها أبو جعفر المنصور قاعدة المملكة
 العباسية سنة ٥١٤٥ هـ ، وكانت قبل ذلك من بناء الفرس ، ولم يتخذوها حاضرة ،
 وتسمى أيضاً : مدينة المنصور ، والزوراء ، وبغداد - بدالين مهملتين ، أو ذالين
 مهمجتين ، أو بمجمة فمثلة ، أو عكسه - وبغدان ، وبغدام - بالمجمة أو المهملة
 فيهما - وبغدين ، وبغدان ، وبها محلات كثيرة ، وكانت مشهورة بالحمامات
 والبساتين ، وقد أقيم فيها نيف وثلاثون مدرسة استفتت الأمة فيها يومذاك عذب
 العلم ، وكوثره الصافي ، وماده العمير ، وهوؤها عليل ، وريحها رخاء ، وجؤها
 معتبر الأرجاء .

(٢) الأزاد : نوع من التمر .

(٣) أعتام : أقصد ، أو أنتقى .

(٤) صَنَّفَ الْفَاكِهَةَ : جعل كل نوع منها على حدة ، يقول : إنه خرج
 إلى سوق بغداد ينتقى نوعاً من التمر ليشريه ، فلما كان هناك التي رجلاً ميز أنواع
 الفاكهة ، واجتمعت عنده صنوف الرطب ، فأخذ أطيب ما عنده ، وأبتاع
 أجواده ، فلما جمع أمره ، ونهياًً ليحمل وقره ، وهم بأن يرجع ، بصر برجل انتحى
 ناحيةً واجتهد في إخفاء نفسه ، وإظهار مسغفته وبؤسه .

عِيَالَهُ ، وَتَأَبَّطَ أَطْفَالَهُ ، وَهُوَ يَقُولُ بِصَوْتٍ يَدْفَعُ الضَّعْفَ فِي صَدْرِهِ ،
وَالْحَرَضُ فِي ظَهْرِهِ (١) :

وَبَلِي عَلَى كَفَّيْنِ مِنْ سَوِيْقِ أَوْ شَحْمَةٍ تُضْرَبُ بِالذَّقِيقِ (٢)
أَوْ قِصْمَةٍ تُمَلَأُ مِنْ خَرْدِيقِ يَفْتَأُ عَنَّا سَطَوَاتِ الرَّيْقِ (٣)
يُقِيمُنَا عَنْ مَنَهْجِ الطَّرِيقِ يَا رَازِقَ التَّرْوَةِ بَعْدَ الضَّيْقِ (٤)
سَهْلٌ عَلَى كَفِّ فَتَى لَبِيقِ ذِي نَسَبٍ فِي تَجْدِهِ عَرِيقِ
يَهْدِي إِلَيْنَا قَدَمَ التَّوْفِيقِ يُنْقِذُ عَيْشِي مِنْ يَدِ التَّرْنِيقِ (٥)
قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : فَأَخَذْتُ مِنَ السِّكِّيسِ أَخْذَةً وَنُلْتُهُ بِأَبَاهَا ، فَقَالَ :
يَا مَنْ عَنَانِي بِجَمِيلِ بَرِّهِ أَفْضِلُ إِلَى اللَّهِ بِمُحْسِنِ مِرِّهِ

(١) الحرَضُ - بفتح الحاء والراء جميعاً - هو الضعف الشديد المودى بصاحبه
(٢) السويق : جريش الشعير أو القمح يُقْلَيَانِ قَلِيًّا خَفِيفًا ، وتضرب :
تخلط ، وإذا خلط الشحم بالذقيق كان عصيدة . يتلَفُّفُ على ملء كفيه من السويق
أو قليل من العصيدة .

(٣) الخرديق : المرق ، وَيَقْدَأُ : يُسَكِّنُ ، والرقيق : اللقاب وهو ماء الفم ،
يقول : إني أغمي قسمة مملأ من المرق ويغمر فيها العيش حتى يكون ثريدا ؛ ليسكن
صَوَلَةَ الرِّيقِ ، وعادة الجوعان أن يجرى لعابه إذا اشم رائحة القدور أو تذكر
أنواع المأكول .

(٤) يقول : إنه لو حصل على مُشْتَهَاهُ لكان في ذلك إقالة له من عثرته ،
وانتقال له من وهدة انطراحه على الطريق .

(٥) اللبيق : الحاذق ، والترنيق : التسكدير ، يدعو الله لنفسه أن يدل
عليه فق حاذقا رحيم القلب ؛ ليمطف على حاله ويشفق به ، فيسُدُّ خَلَّتَهُ ، ويُذْهَبُ
عَوَزَهُ ، ويهبه رشفة من الراحة لتصفو حاله ويقذب مؤرده .

وَاسْتَحْفَظَ اللهُ جَمِيلَ سِتْرِهِ إِنْ كَانَ لَا طَاقَةَ لِي بِشُكْرِهِ
 * فَاللهُ رَبِّي، مِنْ وَرَاءِ أَجْرِهِ *

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: قُلْتُ لَهُ: إِنَّ فِي الْكَيْسِ فَضْلًا ^(١) فَأَبْرُزْ
 لِي عَنْ بَاطِنِكَ أَخْرُجْ إِلَيْكَ عَنْ آخِرِهِ ^(٢)، فَأَمَاطَ لثَامَهُ ^(٣)، فَمَاذَا وَاللهُ
 شَيْخُنَا أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَندَرِيُّ، قُلْتُ: وَيُنْحَكَ أَيْ دَاهِيَةً أَنْتَ؟ فَقَالَ:

فَقَضَّ الثَّمَرَ تَشْبِيهَا عَلَى النَّاسِ وَتَمْوِيهَا ^(٤)
 أَرَى الْأَيَّامَ لَا تَتَّبِقِي عَلَى حَالٍ فَأَخْكِهَا
 فَيَوْمًا شَرُّهَا فِي وَيَوْمًا شِرَّتِي فِيهَا ^(٥)

(١) أي: إنني لم أعطك كل ما معي، وإن في كيسى لبقية .

(٢) ابرز: اظهر، وأخرج لك عن آخره: أعطيك كل ما فيه، يريد لآدم
 على استتارك وإخفاء نفسك، بل أظهر لي حقيقةك؛ لأعطيك ما أبقيته .

(٣) الإمامة: الإزالة، وأماط لثامه: كشف عن وجهه بإزالة الحجاب .

(٤) تشبيها: تلبيسا، وتمويها: إخفاء، وأصله أن يُطلى النحاس بالفضة
 أو الذهب؛ فلا يبين أمره ولا تظهر حقيقته، واستعير لـكل شيء يبدو في غير
 منظره .

(٥) الثمرة: النشاط والقوة، يقول: أفنٍ عمرك في التلبيس على الناس،
 ولا تبدُ أمامهم بمظهرك، وحاول أن تتخذ عنهم بلبوس غير لبوسك، وتغرم
 بتمويهك وخلافتك، فإن الأيام سريعة الثقاب، وشبكة التغير، لا تدوم على
 صفة، ولا تمنج خطة واحدة، حتى تشبه بها في نباتك؛ لأنها تناوئني حيناً
 فتقهرني، وتارة أناؤها فأقهرها .

٣ - المَقَامَةُ الْبَلْخِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

نَهَضْتُ بِي إِلَى بَلْخٍ (١) تِجَارَةَ الْبُرِّ فَوَرَدْنَاهَا وَأَنَا بِعُدْرَةِ الشَّبَابِ وَبَالَ
الْفَرَاغِ وَحَلِيَّةِ التَّرْوَةِ ، لَا يُهْمُنِي إِلَّا مَهْرَةٌ فِكْرٌ اسْتَقِيدُهَا ، أَوْ شُرُودٌ مِنَ
السَّكِيمِ أُصِيدُهَا ، فَمَا اسْتَأْذَنَ عَلَيَّ سَمِعِي مَسَافَةَ مُقَامِي ، أَفْصَحُ مِنْ كَلَامِي ،
وَلَمَّا حَتَّى الْفِرَاقُ بِنَاقُوسُهُ أَوْ كَادَ دَخَلَ عَلَيَّ شَابٌّ فِي زِيٍّ مِلءِ الْعَيْنِ ،
وَحَلِيَّةٍ تَشُوكُ الْأَخْدَعَيْنِ ، وَطَرْفٍ قَدْ شَرِبَ مَاءَ الرَّافِدَيْنِ ، وَلَقِينِي مِنَ الْبُرِّ
فِي السَّنَاءِ ، بِمَا زِدْتُهُ فِي الْغَنَاءِ ، ثُمَّ قَالَ : أَظْفَنًا تُرِيدُ ؟ قُلْتُ : إِي وَاللَّهِ ،
فَقَالَ : أَخْصَبَ رَائِدُكَ ، وَلَا ضَلَّ قَائِدُكَ ، قَمَعْتِي عَزَمْتَ ؟ قُلْتُ : غَدَاةُ
غَدٍ ، فَقَالَ :

صَبَّاحُ اللَّهِ لَا صَبِيحُ أَنْطِلَاقٍ وَطَيْرُ الْوَضَلِ لَا طَيْرُ الْفِرَاقِ (١)

(١) بلخ : مدينة واقعة في شمال جبال هندكوش ، غربي بدخشان ،
جنوبي نهر جيحون ، ونهض بي ، ومثله أنهضني : أقامني ، والبز : الثياب
أو ما نسج من القطن خاصة ، وبال الفراغ : إبانته ، وأستقيدها : أطلب انقيادها
وحَتَّى : عطف ، والأخدعان : عرقان في صفحة العنق ، والسناء - بكسر أوله -
المقابلة والمداناة ، وأخصب رائدك : أى لقيت خصبا ونزلت مرةً بعداً معشياً ،
والبيت الذي أنشده معناه الدعاء بالبركة والثمين ، والمعنى : بعثني التجارة إلى
بلخ ، فحبتها وأنا فتى القوة ، مؤفور النعمة ، ناعم البال ، لا أبحث إلا عن
الشوارد من السكام والجوامح من الأفكار ، لملى أكتسب من سفرى ما أنا
كلفت به ، شديد الحرص عليه ، ولم أزل بسيد الإجابة نائى الطليبة إلى أن
أوشكت العودة ، وإذا شابُّ دخل على حسن اللبزة ، جميل الطلعة ، صافى العين
كأنها ماء دجلة والفرات ، طويل الاحية ، فلقينى لقاء محفوفاً بالكرامة ، محوطاً =

فَأَيْنَ تُرِيدُ؟ قُلْتُ: الْوَطْنَ، فَقَالَ: مُبَلِّغَتِ الْوَطْنَ، وَقَصَبَتِ الْوَطَرَ،
 فَمَتَى الْعَمُودُ؟ قُلْتُ: الْقَابِلَ، فَقَالَ: طَوَيْتُ الرَّيْطَ، وَثَنَيْتُ الْخَيْطَ (١)،
 فَأَيْنَ أَنْتَ مِنَ الْكِرَامِ؟ فَقُلْتُ: بِحَيْثُ أَرَدْتَ، فَقَالَ: إِذَا أَرَجَمَكَ اللَّهُ
 سَالِمًا مِنْ هَذَا الطَّرِيقِ، فَاسْتَضَجِبْ لِي عَدُوًّا فِي بُرْدَةِ صَدِيقِي، مِنْ نِجَارِ
 الصُّغْرِ، يَدْعُو إِلَى الْكُفْرِ، وَيَرْقُصُ عَلَى الظُّفْرِ (٢)، كِدَارَةَ الْعَيْنِ، يَحُطُّ
 ثِقَلَ الدِّينِ، وَيُنَافِقُ بَوَجهَيْنِ (٣).

= بالتجيلة، مما جعلني أزيده تزكية ومدحها، وما زال يسألني عن سفرى وأجيبه
 فيدعوني بالرغد، بأسلوب بديع وعبارات جزلة .

(١) الرّيطة: اللامة، والخيطة: معروف، والمقصود بالجلتين اللعاب له
 بالعودة إلى بلخ في قابل: أي طويت أيام البعد، وثنيت خيطها، ليكون
 طرفها الأخير مكان طرفها الأول .

(٢) البردة: الثوب، والنّجار: الأصل، ومعنى كونه عدوا في ثياب
 صديق أن ظاهره يمدح ويأخذ بالألباب، فإذا اغتر به المرء قلب له ظهر المجن،
 وقد أخذ هذه العبارة من قول أبي نؤاس:

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَيْبُ تَكَشَّفَتْ لَهُ عَنْ عَدُوِّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِ
 ويدعو إلى الكفر: لأن من تعامل بالدينار في غير وجوه الحلّ ربما انحدر إلى
 الكفر، ويرقص على الظفر: لأن عادة الشقاق من الصيارفة أن يجعلوا الدينار
 فوق أظفر إبهامهم ويضربوه بئان لينكشف لهم حاله، وأرجع - بالهمزة -
 لغة في رجّع رديئة والفصيح رجّعه، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ﴾ .

(٣) كدارة العين: مستدير مثلها، وينافق بوجهين: لأن على كل من
 وجهيه نقوشا ليست على الوجه الآخر، فهو يشبه المنافق الذي يلقاك بوجهه ويلقى
 عدوك بوجهه .

قال عيسى بن هشام: فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يَلْتَمِسُ دِينَارًا، فَقُلْتُ: لَكَ ذَلِكَ نَقْدًا، وَمِثْلُهُ وَعُدًّا، فَأَنْشَأُ يَقُولُ:

رَأَيْكَ مِمَّا خَطَبْتُ أَعْلَى لَأَزِلَّ لِلْمَكْرُمَاتِ أَهْلًا
صَلَبْتَ عُدًّا، وَدُمْتَ جُودًا وَقُتَّ فَرَعًا، وَطَبْتَ أَضْلًا
لَا أَسْتَطِيعُ الْعَطَاءَ سَحْلًا وَلَا أُطِيقُ الشُّوَالَ نِقْلًا^(١)
قَصُرْتُ عَنْ مُنْتَهَاكَ ظَنًّا وَطَلْتُ عَمَّا ظَنَنْتُ فِعْلًا
يَارُبُّجَةَ الدَّهْرِ وَالْعَمَالِي لَا لَقِيَ الدَّهْرُ مِنْكَ تُكْلًا^(٢)

قال عيسى بن هشام: فَنَلْتَهُ الدِّينَارَ، وَقُلْتُ: أَيْنَ مَنَيْتُ هَذَا الْفَضْلُ؟
فَقَالَ: نَمَتْنِي قُرَيْشٌ وَمُهَدَّبِي الشَّرْفُ فِي بَطْأِ حَيْهَا، فَقَالَ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ: أَلَسْتَ
بِأَبِي الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيِّ؟ أَلَمْ أَرْكَ بِالْعِرَاقِ، تَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ،
مُكَدِّبًا بِالْأَوْزَاقِ^(٣)؟ فَأَنْشَأُ يَقُولُ:

إِنَّ لِلَّهِ عَيْبِدًا أَخَذُوا الْعُمَرَ خَلِيطًا
فَهُمْ يُمَسُّونَ أَعْرَا بَا، وَيُضْحُونَ نَبِيطًا^(٤)

(١) يثنى عليه ويتمدحه بأنه أجابه إلى أكثر من طلبته، وأدى إليه فوق ما يريد منه.

(٢) الرجة، كعرفة: السناد، وأصله أن يُبْنَى للبخلة عند جذعها شيء لترتكز عليه.

(٣) مكديبًا: سائلا، ومعنى تكديته بالأوراق أنه كان يكتب للناس بحاجته، ويسألهم لإجابته إلى ملتمسه.

(٤) النبيط: جماعة من المعجم يقطنون بين العراقيين، ومنه قول
أبي العلاء الأعمري:

== أَيْنَ امْرُؤُ الْقَيْسِ وَالْمَدَارِي إِذْ مَالَ مِنْ تَحْتِهِ الْغَبِيطُ ؟
اسْتَعْجَمَ الْعُرْبُ فِي الْمَوَامِي بَعْدَكَ وَاسْتَعْرَبَ لِلنَّبِيطِ

بشير أبو العلاء إلى قول امرئ القيس في لاميته المعلقة :

وَيَوْمَ دَخَلْتُ الْخِذْرَ خِذْرَ عُنَيْرَةٍ فَقَالَتْ : لَكَ الْوَيَالَتُ إِنَّكَ مُرْجِلِي
تَقُولُ ، وَقَدْ مَالَ الْغَبِيطُ بِنَا مَعَا : عَقَرْتَ بَعِيرِي يَا امْرَأَ الْقَيْسِ فَأَنْزِلِ

وقد ورد في الحديث « تَمَعَّدُوا وَلَا تَسْتَنْبِطُوا » أي تشبهوا بمعدّة - وهو

أبو العرب المدنانية - ولا تشبهوا بالنَّبِطِ ، وقد سأل عمر بن الخطاب عمرو بن

معد يكرب عن سعد بن أبي وقاص ، فأجابته « أَعْرَابِيٌّ فِي حَبْوَتِهِ ، نَبِطِيٌّ

فِي حَبْوَتِهِ » أراد أنه في جباية الخراج وعمارة الأرضين كالنبت حذفاً بها
ومَهَارَةً فِيهَا .

والمعنى : إن بعض الناس لا يثبتون على حال ، ولا يستقرون في زى واحد؛

فينا ترام أعراباً إذ تجدم أعجاماً ، والمراد مطلق التقلب في مطلق الأزمان .

٤ - المَقَامَةُ السَّجِسْتَانِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

حَدَانِي إِلَى سَجِسْتَانَ أَرَبُّ ، فَأَقْتَعَدْتُ طَيْبَتَهُ ^(١) ، وَامْتَطَيْتُ مَطِيئَتَهُ ،
وَاسْتَحْزَرْتُ اللَّهَ فِي الْعَزْمِ جَعَلْتُهُ أَمَامِي ، وَالْحَزْمِ جَعَلْتُهُ إِمَامِي ، حَتَّى هَدَانِي
إِلَيْهَا ، فَوَافَيْتُ دُرُوبَهَا ^(٢) وَقَدَّ وَافَتِ الشَّمْسُ غُرُوبَهَا ، وَاتَّفَقَ الْمَبِيتُ حَيْثُ
انْتَهَيْتُ ، فَلَمَّا انْتَضَى نَضْلُ الصَّبَاحِ ، وَبَرَزَ جَيْشُ الْمِصْبَاحِ ، مَضَيْتُ إِلَى
السُّوقِ أُخْتَارُ مَنَزِلًا ، فَحِينَ انْتَهَيْتُ مِنْ دَائِرَةِ الْبَلَدِ إِلَى تَقْطِعَهَا ^(٣) ، وَمِنْ قِلَادَةِ

(١) أصل الهداء - بضم أوله وكسره - الغناء ، ويكون في الإبل يتبع بعضها بعضاً ، كي تنشط للسير ، والمراد هنا : ساقني ، ويقال : حداه ، وحدأ به ، وسجستان : إقليم بفارس الشرقية ، والأرب : الحاجة الشديدة ، واقتعدت : ركبت ، وطية الشيء : نيته ، والمعنى مجازي .

(٢) الدروب : جمع درب ، وهو أول الطريق ، وكل مدخل إلى الروم فهو درب ، ومنه قول امرئ القيس :

بَكِي صَاحِبِي لِمَا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ وَأَيُّقِنَ أَنَا لَاحِقَانَ بِقَيْصَرَ

(٣) وافى المريض أجله : أى مات ، ووافت الشمس الغروب : غربت ، والبلد والبلدة : كل قطعة من الأرض مستحيزة عامرة ، يُذَكَّرُ لفظها ويؤنث ، فمن تذكيره قول النابغة الذبياني :

هَإِنِّ ذِي عِدْرَةٍ ، إِلاَّ تَكُنْ نَفَقَتْ فَإِنَّ صَاحِبَهَا قَدْ تَاَهَ فِي الْبَلَدِ
ومن تأنيث لفظه قول بعضهم :

وَبَلَدَةٍ لَيْسَ بِهَا أُنَيْسٌ إِلاَّ الْيَعْفِيرُ وَإِلاَّ الْعَيْسُ

وفي القرآن الكريم ﴿ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ ﴾ وفيه ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ ﴾ .

السوقِ إِلَى وَاسِطَتِهَا^(١) ، خَرَقَ سَمِعِي صَوْتٌ لَهُ مِنْ كُلِّ عِرْقٍ مَعْنَى ،
فَانْتَحَيْتُ وَفَدَهُ^(٢) حَتَّى وَقَفْتُ عِنْدَهُ ، فَإِذَا رَجُلٌ عَلَى فَرَسِهِ ، مُخْتَنِقٌ
بِنَفْسِهِ ، قَدْ وَلَا بِنِي قَدَالَهُ^(٣) ، وَهُوَ يَقُولُ : مَنْ عَرَفَنِي قَدَّ عَرَفَنِي ،
وَمَنْ لَمْ يَعْرِفَنِي فَأَنَا أَعْرِفُهُ بِنَفْسِي : أَنَا بَا كُورَةُ الْيَمَنِ^(٤) وَأَحْدُوْتُهُ الزَّمَنُ^(٥)

(١) دائرة البلاد : مساحتها المحيطة بها ، ونقطة الدائرة : مركزها الذي تدور
حولها ؛ فهو وسطها ، والقلادة : المقد ، أو كل ما يحيط بالعنق مما انتظم من فرائد
الهدر ، والواسطة فيها : أفضل درة جمعها القلادة ، والمادة أن تجعلها الغواني في
المنتصف حيث تتوسط أخواتها وتتدلى على الصدر .

(٢) خَرَقَ سَمِعِي : أراد وصل إليه ، وعرق كل شيء : أصله ، وانتحيت :
قصدت ، وامست مثلها في قول امرئ القيس :

فَلَمَّا أَجْرْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى بِنَا بَطْنُ خَبْتِ ذِي حِقَابٍ عَمَقَلِ
ووفده : يحتمل أن يكون أراد به الوصول إليه ، وأن يكون أراد الجماعة
المطمئنين إليه المتسارعين في بلوغه والوفود عليه .

(٣) النَّفْسُ ، بالتحريك : واحد الأنفاس ، ومعنى كونه مختنقا بِنَفْسِهِ أنه
رَدَّدَ أُنْفَاسَهُ كَثِيرًا فتنادفت إلى حلقه ، وأنه حبسها حتى كأنه لا يطبق الحديث
ولا يستطيع الإبانة ، والقَدَالُ : جماع مؤخر الرأس ، ومعقد العذار من الفرس
خلف الناصية ، والمعنى أنه جاءه من خلفه .

(٤) كل مَنْ بَادَرَ إِلَى شَيْءٍ فَقَدْ أَبْكَرَ إِلَيْهِ فِي أَيِّ وَقْتٍ كَانَ ، والبَا كُورَةُ :
أول الفاكهة ، أو هو عام في كل شيء . . . وكان اسم الرجل « أبا الفتح »
والفتح ابتداء ، فكأنه يعنى اسمه ، إلخاذاً وتَمِيمِيَّةً .

(٥) الأحدوثه - بضم أوله - ما يتحدث به كثيراً لغرابته وابتداه ، أي
أنه نسجٌ وَحْدَهُ بَرَاةً وَشَجَاعَةً ، حتى لقد جعله الناس حديثهم في سَمَرِم ،
وضبت بذكره ألسنتهم .

أَنَا أَدْعِيَةُ الرَّجَالِ ، وَأُحْجِيَةُ رَبَّاتِ الْجِبَالِ (١) ، سَلَوَاعِي الْبِلَادِ
وَحُصُونَهَا ، وَالْجِبَالَ وَحُزُونَهَا ، وَالْأَوْدِيَةَ وَبُطُونَهَا ، وَالْبِحَارَ وَعُيُونَهَا ،
وَالْحَيْلَ وَمُتُونَهَا ، مِنَ الَّذِي مَلَكَ أَسْوَارَهَا ، وَعَرَفَ أَسْرَارَهَا ، وَنَهَجَ سَمْتَهَا ،
وَوَلَّجَ حَرَّتَهَا (٢) ؟ سَلُوا الْمُلُوكَ وَخَزَائِنَهَا ، وَالْأَغْلَاقَ وَمَعَادِنَهَا ، وَالْأُمُورَ
وَبَوَاطِنَهَا ، وَالْعُلُومَ وَمَوَاطِنَهَا ، وَالْخَطُوبَ وَمَعَالِقَهَا ، وَالْحُرُوبَ وَمَصَابِقَهَا ،
مَنْ الَّذِي أَخَذَ مُخْتَزِنَهَا ، وَلَمْ يُؤَدِّ ثَمَنَهَا ؟ وَمَنْ الَّذِي مَلَكَ مَفَاتِحَهَا ، وَعَرَفَ
مَصَالِحَهَا (٣) ؟

(١) الأُحْجِيَّةُ والأُحْجُوتَةُ : الكلمة يُرَادُ بِهَا غير ظاهر مدلول ألفاظها ،
والأُدْعِيَّةُ مثلها ، والمعنى أنه يستتر تحت مناظر عدَّة ، ويخفي حقيقة نفسه عن
نَاطِرِيهِ ، وكأنه يدعوهم إلى أعمال الفكرة والتروى في إظهار مكنونه .

(٢) الأسوار : جمع سُورٍ ، وهو ما أحاط بالمدينة من حائط أو نحوه ،
والسَّمْتُ : الطريق ، والحرة : القطعة المستديرة ، وأراد به بطون الأودية ؛ لأن
الجبال تحوطها وتستدير عليها ، والضمير في أسوارها للبلاد ، وفي أسرارها
للحصون ، وفي سَمْتِهَا للجبال ، وفي حرتها للوديان ، يريد أنه خير بمخيمات
الأمر ، عالم بما خفي منها ، شديد على اقتحام الكرُّباتِ ، نزال بمواطن
الغوف والذعر . .

(٣) الأغلاق : جمع غَلَقٍ ، وهو ما توَصَّد به الأبواب ، ومثله المغلاق جمع
مِفْلَحة كـمَكْنَسَة ، وربما كانت « الأغلاق » بالمين مهملة جمع غَلَقٍ وهو النفيس
من كل شيء ، ومعادنها : مواطنها التي تسكون فيها ، والمخترن - بزنة اسم
المفعول - المودع في الخزان لوقت الحاجة ، والضمير يعود على الملوك وخزائنها
والأغلاق ومعادنها ، وأراد بأنه لم يؤد ثمنها أنه غلب أهلها عليها فصلبها
قهرًا ، والمفتاح : جمع مفتاح ، والقياس من اتبيح ، غير أن الهاء قد تحذف تحتها

أَنَا وَاللَّهِ فَعَلْتُ ذَلِكَ ، وَسَفَرْتُ بَيْنَ الْمُلُوكِ الصَّيِّدِ ، وَكَشَفْتُ أُسْتَارَ الْخَطُوبِ
السُّودِ ، أَمَا وَاللَّهِ شَهِدْتُ حَتَّى مَصَارِعِ الْعُشَاقِ ، وَمَرَّضْتُ حَتَّى لِمَرَضِ
الْأَخْدَاقِ ، وَهَضَمْتُ الْفُصُونَ النَّاعِمَاتِ ، وَأَجْتَنَيْتُ وَرْدَ الْخُدُودِ
الْمُورَدَاتِ ^(١) ، وَنَفَرْتُ مَعَ ذَلِكَ عَنِ الدُّنْيَا نَفُورَ طَبِيعِ الْكَرِيمِ عَنِ وُجُوهِ
اللَّثَامِ ^(٢) ، وَنَبَوْتُ عَنِ الْمُخْزِيَاتِ نُبُوَ السَّمْعِ الشَّرِيفِ عَنِ شَنِيعِ
الْكَلَامِ ^(٣) وَالْآنَ لَمَّا أَصْفَرَ صَبِيحُ الْمَشِيبِ ، وَعَلَّتْنِي أَبْهَةٌ الْكَبِيرِ ، عَمَدْتُ

= كما في قوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴾ أو هي جمع مَفْتِاحٍ على أصله ،
والضمير فيه عائد على الأمور وبواطنها والعلوم ومواطنها والخطوب ومقاتلها كما
أنه في مصالحتها عائد على الحروب ومضايقتها .

(١) السَّفَارَةُ بَيْنَ الْمُلُوكِ : السَّمَايَةُ فِي الصَّلْحِ لَهُمْ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ لِلتَّقْدِيرِ
الْعَارِفِ بِعَمَالِ الْقُلُوبِ وَأَدْوَانِهَا ، وَهَضَرَ الْفَضْنَ : أَمَالَهُ وَأَخَذَهُ إِلَى نَفْسِهِ ، عَنَى بِمَا
ذَكَرَ أَنْ لَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ بَدَأٌ ، وَأَنَّهُ لَا يَفُوتُهُ أَمْرٌ حَقٌّ ، بِأَخْذِ بَحْظِهِ مِنْهُ ، وَأَنَّهُ
اقْتَطَفَ مِنْ كُلِّ شَجَرَةٍ ثَمْرَةً ، وَاعْتَرَفَ مِنْ كُلِّ نَهْرٍ دَلْوًا ، وَشَرِبَ مِنْ كُلِّ كَأْسٍ
جُرْعَةً ، فَلَمْ يَتْرِكْ مِنْ شَأْنٍ الْحَيَاةِ شَأْنًا إِلَّا عَرَفَهُ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ لَدَاتِهَا وَشَهْوَاتِهَا
شَيْءٌ لَمْ يَنْلِ مِنْهُ بِغَيْبَتِهِ .

(٢) نَفَرٌ - كَنَصْرٍ وَضَرْبٍ - نَفُورًا وَنِفَارًا ، وَهُوَ نَافِرٌ وَنَفُورٌ : تَبَاعُدٌ ،
وَاللَّثَامُ : جَمِيعٌ لَثِيمٌ ، وَهُوَ مَنْ خَبِثَ طَبِيعُهُ وَسَفَلَ أَصْلُهُ .

(٣) نَبَا بَصْرَهُ عَنِ الشَّيْءِ نُبُوءًا وَنَبِيًّا وَنَبُوءَةً : ابْتَعَدَ ، وَالْمُخْزِيَاتُ : الْأَعْمَالُ
الَّتِي يَنْجَلُ مِنْهَا الْمَرْءُ وَيَنْدَى لَهَا وَجْهَهُ ، وَأَرَادَ أَنَّهُ لَمْ تَخْذَعِ الدُّنْيَا بِرُخْفِهَا ،
وَلَمْ تَقْرَهُ بِزِينَتِهَا ، وَإِنْ مَظَاهِرُهَا الَّتِي نَالَ مِنْهَا بِسَبَبِ وَأَخَذَ بِطَرْفِ لَمْ تَسْكُنْ
لِتَجْمَعِهَا مَحَلًّا لِإِكْبَارِهِ ، أَوْ مَوْطِنًا لِإِجْلَالِهِ وَإِعْظَامِهِ ، لِأَنَّهُ أَشْرَبَ نَفْسَهُ الصَّدْفَ
عَنْهَا ، وَالْمِيلَ إِلَى مَا يَكْسِبُ جَمِيلَ الْأَحْدُوتَةِ وَطِيبَ الثَّنَاءِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَقْتَرَفْ إِثْمًا ،
وَلَمْ يَكْتَسِبْ حُوبًا ، بَلْ صَحِبَ بِسْرَهُ زَهَادَةً وَشَجَاعَتَهُ خَشِيمَةً .

لإصلاح أمر الآباد ، بإعداد الزاد^(١) ، فلم أرَ طريقاً أهدي إلى الرشاد
 مما أنا سالكه^(٢) ، يراني أحدكم راكب قرس ، نائر هوس^(٣) ، يقول :
 هذا أبو العجب ، لا وليكي أبو العجائب^(٤) ، عاينتها وعانيتها ، وأم الكيائر
 قاينتها وقاسيتها^(٥) ، وأخو الأغلاق : صنبا وجدتها ، وهونا أصفتها ،
 وغاليا اشتريتها ، ورخصا ابتعتها^(٦) ، فقد والله صحبت لها المواكب ،

(١) أسفر الصبح : ظهر نوره ، وإضافته للشيب من قبيل قول الشاعر :
 والريح تمبث بالفضون ، وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء
 والأبهة : الجلال والوقار ، والمآد : زمان العود ، وأراد به يوم القيامة .
 (٢) أبو الفتح كان يدعو إلى الله ، ويبدل النصح للناس ، ويرشدهم ،
 وذلك أفضل الطرق وأعدلها وأقربها هداية ورشداً .

(٣) نثر النظم : حل عقده ، وجعله بدداً ، ورماء متفرقا ، والهوس : خفة
 الثقل لدرجة تقرب من الجنون ، ومعنى أنه نائر هوس ، أنه يقول كلاما غير
 صحيح ولا مقبول ، لما يداخله من جنّة ، وما يعتره من خبال .

(٤) يقول : إنه ليس عجيباً في شأن واحد ، بل هو عجيب في الشؤون
 كلها ؛ فلا يجوز أن يسمى أبا عجب ، وإنما الذي يوافق حاله أن يكنى
 «أبا العجائب» .

(٥) الأفعال المذكورة كلها مصدرها المفاعلة التي تستدعى تدافعا من
 الجانبين غالبا ، غير أن المقاسة كالمعانة مع زيادة الشدة ، والمعانة أظهر في باب
 التفاعل منها ، وعان مصدره المعاينة وهي المشاهدة ، وقابس مصدره المقايسة
 وهي ردّ الأشياء إلى أشباهها ، ومصدر عانى المعانة ومصدر قاسى المقاسة .

(٦) يريد بصعوبة وجدانها وغلاء شرائها ما بذله في سبيل الحصول عليها
 من نصّب البدن وتحميل نفسه المشقة ، كما يريد بهون إضاعتها ورخص بيعها
 تساهله في تركها ، وقد بين ذلك فيما بعده .

وَرَأَيْتُ الْمَنَّاكِبَ ، وَرَعَيْتُ الْكَوَاكِبَ ، وَأَنْصَبْتُ الْمَرَائِبَ ، دَفَعْتُ
إِلَى مَكَارِهِ نَذَرْتُ مَعَهَا أَلَا أَدْخِرَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مَنَافِعَهَا ، وَلَا بَدَّ لِي أَنْ أَخْلَعَ
رِبْقَةً هَذِهِ الْأَمَانَةَ مِنْ عُنُقِي إِلَى أَعْنَاقِكُمْ^(١) ، وَأَعْرِضْ دَوَائِي هَذَا
فِي أَسْوَاقِكُمْ ، فَلَيْسَتْ مِنِّي مَنْ لَا يَتَقَرَّرُ مِنْ مَوْفِقِ الْمَيْبِدِ^(٢) ، وَلَا يَأْنَفُ
مِنْ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ^(٣) ، وَلَيْصَنُهُ مَنْ أُنْجَبَتْ جُدُودُهُ ، وَسُقِيَ بِالْمَاءِ
الطَّاهِرِ هُودُهُ^(٤) .

قال عيسى بن هشام : فذرت إلى وجهه لأعلم علمه^(٥) فإذا هو والله
شيخنا أبو الفتح الإسكندراني ، وانتظرت إجمال النعمة بين يديه^(٦) ،
ثم تعرضت فقلت : كم يُحِلُّ دَوَاءَكَ هَذَا ؟ فقال : يُحِلُّ الْكَيْسُ مَا شِئْتَ ،
فَكَرَّ كَتُّهُ وَانْعَمَرَتْ^(٧) .

(١) الرُبْقُ : حَبْلٌ فِيهِ عِدَّةٌ عَرَى يُشَدُّ بِهِ الْبَهْمُ ، وَكُلُّ عُرْوَةٍ رِبْقَةٌ
بِالْكَسْرِ وَالْفَتْحِ .

(٢) تَقَرَّرْتُ نَفْسِي : امْتَنَعْتُ مِنَ الشَّيْءِ وَأَبَتُ أَنْ تَفْعَلَ أَفْعَةً وَكَرَاهِيَةً لَهُ .

(٣) أَيْ لَا يَرَى فِي نَفْسِهِ غَضَاظَةً مِنْ إِفْرَادِ اللَّهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَالْخُضُوعِ لَهُ .

(٤) بِعَنَى أَنَّهُ لَا يَهْرُصُ عَلَى هَذَا الْمَوْقِفِ غَيْرُ كَرِيمٍ الْأَصْلُ ، شَرِيفِ النَّجَّارِ ،

طَيِّبِ الْمَنْبِتِ .

(٥) الْعَرَبُ يَجْمَعُونَ الْمَصَادِرَ مَفَاعِيلَ أَحْيَانًا وَيُرِيدُونَ أَحْبَابَهَا ، وَرَبَّمَا

جَمَلُوهَا فَاعِلًا كَمَا فِي جَدِّ جِدِّهِ ، وَهُوَ أَهْلُ عِلْمِهِ الْمُرَادُ بِهِ : لِأَعْلَمَهُ أَيْ إِنْسَانَ هُوَ .

(٦) تَقُولُ : أَجْفَلَ الظَّلِيمُ ؛ إِذَا أَسْرَعَ وَذَهَبَ فِي الْأَرْضِ ، وَأَرَادَ بِالنِّعْمَةِ

الْعَامَّةِ الَّتِي أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ ، عَلَى التَّشْبِيهِ .

(٧) أَحَلَّ كَذَا : جَمَلَهُ حَلَالًا ، وَالْمَعْنَى أَيْ مَقْدَارًا إِذَا أَخَذْتَهُ حَلًّا لِي

الِاتِّفَاعِ بِدَوَائِكَ الَّتِي ذَكَرْتَهُ ؟ فَقَالَ : إِنْ الْمَسْأَلُ يَجْعَلُ كُلَّ شَيْءٍ حَلَالًا ، فَإِذَا

أَفْرَضْتَ الثَّمَنَ حَلًّا لَكَ الْمَبِيعِ ، وَلَا يَرَى عِبَارَةَ السُّؤَالِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ .

٥ - المَقَامَةُ الكُوفِيَّةُ (١)

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

كُنْتُ وَأَنَا فِي السَّنِّ أَشَدَّ رَحْلِي لِكُلِّ عَمَايَةٍ ، وَأَزْكَضُ طِرْفِي إِلَى
كُلِّ غَوَايَةٍ (٢) ، حَتَّى شَرِبْتُ مِنَ الْمَمْرِ سَائِمَةً ، وَلَبِسْتُ مِنَ الدَّهْرِ سَائِمَةً (٣)
فَلَمَّا أَنْصَحَ النَّهَارُ بِجَانِبِ لَيْلِي ، وَجَمَعْتُ لِلْمَقَادِ ذَيْلِي ، وَظَمْتُ ظَهْرَ
الْمَرْوُضَةِ ، لِأَدَاءِ الْمَرْوُوضَةِ (٤) ، وَصَحَبْتَنِي فِي الطَّرِيقِ رَفِيقٌ لَمْ أَنْكِرْهُ مِنْ

(١) الكوفية : نسبة إلى الكوفة ، وهي بلد بالعراق مشهور ، بينه وبين بغداد ثلاثون فرسخا ، وهي مدينة العراق الكبرى ، والمصر الأعظم ، وقبة الإسلام ، ودار هجرة المسلمين ، وأول مدينة اختطها المسلمون بالعراق ، يذكرون أنه على مسافة فرسخ منها من الجهة الغربية يقع المشهد الأكبر حيث بركت ناقة على رضى الله عنه وكرم الله وجهه وهو محمول عليها بعد قتله ، وأن قبره فيه ، ونحن لا نكاد نعتد ذلك لأن المؤرخين لم يجزموا بمكان قبر على من الأرض حتى يقال إنه بالكوفة ، وعند الله علم ذلك كله .

(٢) الفتَاء : طَرَاءة السن وحدائنه ، والعماية : احتجاب القلب عن إدراك صالحه ، وأراد به لازمه ، وهو الملاذ المزديّة والشهوات المهلكة ، وشدّ الرجل إليها كناية عن اقترافها والخوض في مضارها ، ومثل هذا في الفقرة بعدها .
(٣) يقال : ثوب سابع ؛ إذا كان يشمل البدن جميعه ، وعنى بالجلتين أنه تمتع من عمره بما اشتهى ، ونال من دهره ما أراد .

(٤) انصاح النهار والفجر والبرق : ظهر ، وأراد بالنهار الشيب ، وبالليل الشعر الأسود ، ومثله قول الفرزدق :

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي الشَّبَابِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارًا
وَالْمَرْوُوضَةُ : العذابة ، أو هي الأرض لأنها مُدَلَّلة مُعَبَّدة للإنسان ، والمَرْوُوضَةُ : الحج

سوء، فلما تجالينا ، وخبرنا بجالينا ، سقرت القصة عن أصل كوفي ،
ومذهب صوفي^(١) ، وسيرنا فلما أحلتنا الكوفة ملنا إلى داره ، ودخلناها
وقد بقل وجه النهار واخضر جانب^(٢) ، ولما اغتمض جن الليل وطرا
شاربه ، قرع علينا الباب ، قلنا : من القارع المنتاب ؟ فقال : وقد
الليل وبريده ، وفل الجوع وطريده^(٣) ، وحر فاده الضر ، والزمن المر^(٤) ،
وصيف وطوه خفيف ، وضالته رغي^(٥) ، وجار يستعدي على الجوع ،

(١) تجالينا- بالجيم التحية- تكاشفنا ، ومن هذه المادة قوله تعالى (والنهار
إذا جلاها) أى كشفها ، والمعنى حين كشف كل واحد منا لأخيه عن حاله
وأخبره بأمره ، وسقرت : ونحت وظهرت ، والصوفية : جماعة رغبوا عن الدنيا
وزهدوا فى متاعها ، ولبسهم الغالب الصوف ، وإليه ينسبون ، وقد قال بعضهم :
ليس التمسوف لبس الصوف ترقمه ولا بكأوك إن عني المؤمنونا
(٢) هم دخلوا عند الغروب ، وحينئذ تكون الشمس موشكة أن تزول ،
ويكون الظلام آخذا فى الظهور من الجانب الثانى ، ويكون اللون للغالب على
الأفق من جهته الاخضرار ، وإذ كان إقبال وجه الغلام معناه ظهور الشعر فيه
وبدؤه يكون اخضارا عبر عنه بذلك ، تشبيها بهذه الهيئة .

(٣) قوم قل : منهزمون ، ورجل قل كذلك ، والطريد : الطرود ،
والمعنى : لا يزال الجوع ينشب فيه أظافيره ، ولا تزال المسغبة تلحف عليه وتعمل
فيه ، حتى فر يطلب منها مهربا ، ولكنه لا يجد الطريق إليه .

(٤) أى أنه لولا سوء الحال وما أجده من آلام الإعواز ما سألتكم شيئا

(٥) يريد أنه لا يُحشهم عظيما ، ولا يطلب منهم جسيما ، ولا يتقل

كواهلهم ، بل إنما يؤد أن يشبع بطنه فحسب .

وَالْجَنِّيبِ الْمَرْقُوعِ ^(١) ، وَغَرِيبِ أَوْقَدَتِ النَّارُ عَلَى سَفَرِهِ ، وَنَبَّحَ الْعَوَاءَ عَلَى
أَثَرِهِ ^(٢) ، وَنَبَذَتْ خَلْفَهُ الْخَصِيَّاتُ ، وَكُنِسَتْ بَعْدَهُ الْمَرْصَاتُ ^(٣) ، فَانْضَوُّهُ
طَلِيحٌ ، وَعَيْشُهُ تَبْرِيحٌ ، وَمِنْ دُونِ فَرَخَيْهِ مَهَامُهُ ^(٤) .

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : فَتَقَبَّضْتُ مِنْ كَيْسِي قَبْضَةَ اللَّيْثِ ، وَبَعَثْتُهَا إِلَيْهِ
وَقُلْتُ : زِدْنَا سُؤَالَ ، نَزِدْكَ تَوَالًا ^(٥) ، فَقَالَ : مَا عَرِضَ عَرَفُ الْعُودِ ،

(١) يستعدى : يستنصر ، أى يطلب مَنْ يَنْصُرُهُ ، وَالْجَنِّيبِ : أراد به
الثوب ، والمعنى أنه جمع إلى الجوع العُرَى ، واصطَلَحَ عَلَيْهِ الْأَمْرَانِ ، وَلَزِمَهُ أَلْمُ
ظَاهِرِ الْجِسْمِ وَأَلْمُ الْأَمْعَاءِ .

(٢) معنى الجلتين أنه لا أمل له فى العودة إلى وطنه ، والأولى مأخوذة من
قولهم للمسافر « أبعد الله داره ، وأوقدَ الناسُ نَارَهُ » .

(٣) من عادتهم أنه إذا نزل بهم من لا يَحْبُونُ يرمون الحصى خلفه متى
ارتحل ، وكأنهم يعنون عدم عودته والاستخفاف به كما لا تعود الحصاة ولا يبعأ لها ،
وكذلك إذا مات الميت كَنَسُوا بَعْدَهُ فِنَاءَ الدَّارِ إِيَّاسًا مِنْ رَجْمَتِهِ وَتَنْظِيفًا لِلدَّارِ
مِنْ بَعْدِهِ ، وَكُنِيَ بِهِمَا عَن أَنَّهُ لَا يُؤُوبُ .

(٤) النضو - بكسر أوله - وجمعه الأنضاء : البعير المهرزول ، وَالطَّلِيحُ :
التَّعْبُ الَّذِي لَا يَقْوَى عَلَى السَّيْرِ ، وَالتَّبْرِيحُ : الشَّدَّةُ ، وَالْمَهَامَةُ : جَمْعُ مَهْمَةٍ وَهُوَ
الصَّحْرَاءُ ، وَفِيحٌ : أَى مَتَسَعَةٌ ، وَأَرَادَ أَنْ يَصِفَ شِدَّةَ بَعْدِهِ عَنِ بَنِيهِ . يَصِفُ
مَا نَالَهُ مِنَ وَقِيعةِ الدَّهْرِ بِهِ ، وَيَشْكُو مَا يَلِاقِيهِ مِنْ مَضَضٍ وَإِعْيَاءٍ ، وَقَدْ أَخَذَ الْجُمْلَةَ
الْأَخِيرَةَ مِنْ قَوْلِ عَوْفِ بْنِ مَحْمَلٍ :

تَنُوحُ وَقَرَّحَاهَا بِحَيْثُ تَرَاهَا وَمِنْ دُونِ أَفْرَاحِي مَهَامِهِ فِيحُ
(٥) إِنَّمَا يَقْبِضُ اللَّيْثُ عَلَى مَعْظَمِ أَجْزَاءِ فَرَيْسَتِهِ ، فَذَلِكَ كِنَايَةٌ عَنِ

السكنة ، والنوال : المطاء .

عَلَى أَحْرَرٍ مِنْ نَارِ الْجُودِ ، وَلَا لَقِيَّ وَفَدُ الْبِرِّ ، بِأَحْسَنَ مِنْ بَرِيدِ الشُّكْرِ ،
وَمَنْ مَلَكَ الْفَضْلَ فَلْيُؤَاسِ ، فَلَنْ يَذْهَبَ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ ^(١) ،
وَأَمَّا أَنْتَ فَحَقَّقَ اللَّهُ أَمَالَكَ ، وَجَعَلَ الْيَدَ الْعُلَمِيَا لَكَ ^(٢) .

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : فَفَتَحْنَا لَهُ الْبَابَ وَقُلْنَا : ادْخُلْ ، فَإِذَا هُوَ
بِاللَّهِ شَيْخُنَا أَبُو الْقَمَحِ الْإِسْكََنْدَرِيُّ ، فَقُلْتُ : يَا أَبَا الْقَمَحِ ، شَدَّ مَا بَلَغَتْ
مِنْكَ الْخُصَاصَةُ ^(٣) . وَهَذَا الزِّيَّ خَاصَّةً ، فَتَبَسَّمَ وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

لَا يَغْرُبُكَ الَّذِي أَنَا فِيهِ مِنَ الطَّلَبِ
أَنَا فِي قِرْوَةٍ تَشُقُّ لَهَا بُرْدَةَ الطَّرَبِ
أَنَا لَوْ شِئْتُ لَأَتَّخَذْتُ سُقُوفًا مِنَ الذَّهَبِ ^(٤)

(١) العُرْفُ - بالفتح - الرامحة الزكية ، والعودُ : طيبٌ معروف ، والمعنى
المقصود هنا أن المزيدي من شكرانه لهم وثنائه عليهم واجبٌ يؤدِّيه إذا زادوه
إحساناً وكرماً ، وأراد بالعودِ نفسه ، ويؤاسى : من المؤاساة ، وهى المساعدة
وبذلُ المعونة ، والعرف - بالضم - المعروف ، وأخذ الجملة الأخيرة من قول الخطيئة :
من يصنع الخير لا يعدم جوازياً لا يذهب العُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
(٢) اليد العلياءى : يَدُ الْمُعْطَى ، والعبارة كناية عن الدعاء له بأن يكون
معطياً لا آخذاً ، وأصل الجملة قوله عليه الصلاة والسلام « اليد العليا خير من
اليد السفلى » .

(٣) شد : من صيغ التعجب ، أصلها ما أشد ، حذف حرف التعجب
لكثرة استعمال الكلمة ، والخصاصة : الفقر والحاجة الشديدة الماسة .

(٤) أى : أن حقيقة غير ظاهره الذى يَرَوْنَهُ ، وأنه إذا أبدى مَرْتَبَةً
أو كشف لهم عن عَوَزٍ فذلك اتشاح بما ليس من لبوسه ، وارتداء بغير بُرْدِهِ ؛ لأنه
ذو ميسرة ورخاء حال ، ولو أراد لاتخذ لنفسه بيتاً سقوفه من ذهب .

٦ - المَقَامَةُ الأَسَدِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

كَانَ يُبْلَغُنِي مِنْ مَقَامَاتِ الإسْكَندَرِيِّ وَمَقَالَاتِهِ مَا يُضَعِي إِلَيْهِ النَّفُورُ ،
وَيَنْتَفِضُ لَهُ العُصْفُورُ^(١) ، وَيُرَوِّى لَنَا مِنْ شِعْرِهِ مَا يَمْتَزِجُ بِأَجْزَاءِ النَّفْسِ
رَقَّةً ، وَيَغْمُضُ عَنِ أَوْهَامِ الكَهَنَةِ دِقَّةً^(٢) ، وَأَنَا أَسْأَلُ اللهُ بَقَاءَهُ ، حَتَّى
أُرْزَقَ لِقَاءَهُ ، وَأَتَعَجَّبُ مِنْ قُعودِ هَمَّتِهِ بِحَالَتِهِ ، مَعَ حُسْنِ آلتِهِ ، وَقَدْ ضَرَبَ
الدَّهْرُ شُؤْنَهُ ، بِأَسْدَادٍ دُونَهُ ، وَهَلُمَّ جَرًّا^(٣) ، إِلَى أَنْ أَنْفَقْتُ لِي حَاجَةَ

(١) صَغِي كَرَضِي : مَالٌ ، وَالنَّفُورُ : الَّذِي يَبَالِغُ فِي النَّفْرَةِ وَالإِبْتِعَادِ ،
وَلَنْ يَمِيلُ مِثْلُ هَذَا إِلَى شَيْءٍ حَتَّى يَأْتِسِرَهُ وَيَمْلِكَ عَلَيْهِ قَلْبُهُ ، فَهُوَ نَعْتُ الكَلَامِ
الإِسْكَندَرِيِّ بِالإِبْلَغَةِ الفَائِقَةِ وَالفِصَاحَةِ الرَّائِعَةِ ، وَانْتِفَاضِ العُصْفُورِ : اهْتِزَازُهُ ،
وَلِعَمْرِكَ إِذَا كَانَ الحَيَوَانَ الَّذِي لَا يَدْرِكُ أَمْرَارَ المَقَالِ يَهْتِزُ اهْتِزَازَ الطُّرُوبِ ،
فكَيْفَ أَنْتَ بِالإِنْسَانِ وَهُوَ مَنْ أَعْطَاهُ اللهُ المَدْرَكَةَ وَوَهَبَهُ التَّمْيِيزَ بَيْنَ غَثِّ
الأَسَالِيبِ وَثَمِينِهِ ؟ وَأَخَذَ هَذِهِ الجُمْلَةَ مِنْ قَوْلِ أَبِي صَخْرٍ المَهْدَلِيِّ :

وَإِنِّي لَتَعْرِوْنِي لِذِكْرِكَ هِزَّةً كَمَا انْتَفَضَ العُصْفُورُ بِلَلَّةِ القَطْرِ

(٢) التَّسْكِينُ : ادْعَاءُ عِلْمِ الغَيْبِ وَمَعْرِفَةُ المَسْتَقْبَلِ مِنْ غَيْرِ قَاعِدَةٍ ، وَمِنْهُ
أُخِذَ اسْمُ الكَاهِنِ لِمَا كَانَ يَدْعِيهِ مِنْ نَحْوِ ذَلِكَ ، وَلِلرَّادِ أَنَّ شِعْرَ أَبِي الفَتْحِ كَانَ
جَلِيلَ القَدْرِ ، دَقِيقَ الصَّنْعَةِ ، لَا عِنَ إِغْزَاؤٍ أَوْ تَعْمِيقَةٍ ، وَلَا مِنْ تَعْمِيقٍ أَوْ تَنَافُرٍ ،
فَلَمْ يَكُنْ يَدْرِكُهُ غَيْرُ أَرْبَابِ الصِّيَاغَةِ مِنْ نَقْدَةِ الكَلَامِ .

(٣) ضَرَبَ الدَّهْرُ : أَرَادَ أَحْدَثَ ، وَالشُّؤْنُ : المِحْنُ وَالعُشْرُوفُ وَالنَّوَابِثُ ،
وَالأَسْدَادُ : جَمْعُ سَدٍّ ، وَهُوَ مَا يَجْمَلُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ لِيجُولُ دُونَ إِخْتِلَاطِ أَحَدِهِمَا
بِالأَخْرِ ، وَالمَعْنَى : إِنْ الزَّمَنُ عَاكَسَهُ فَلَمْ يَمُكِّنْهُ مِنْ إِدْرَاكِ الرِّقَّةِ وَالسَّعَادَةِ .

بمِخَصٍ ، فَشَحَذَتْ إِيْنَهَا الحِرْمَانَ ، فِي صُحْبَةِ أفرَادٍ كَنُجُومِ الأَيْلِ ، أَخْلَاسِ
لِظُهُورِ الخَيْلِ^(١) ، وَأَخَذْنَا الطَّرِيقَ نَنْتَهِبُ مَسَافَتَهُ ، وَنَسْتَأْصِلُ شَأْفَتَهُ ،
وَلَمْ نَزَلْ نَقْرِي أَسْنِمَةَ النَّجَادِ ، بِيَتْلِكَ الجِيَادِ ، حَتَّى صِرْنَا كَالْمِصِيِّ ، وَرَجَعْنَا
كَالْقِسِيِّ^(٢) ، وَتَأَخَّجْنَا لَنَا وَادٍ فِي سَفْحِ جَبَلٍ ذِي أَلَاءٍ وَأَثَلٍ ، كَالْمَدَارِيِّ
يُسْرِحُونَ الضَّفَائِرَ ، وَبَنَشْرُونَ الفَدَائِرَ^(٣) ، وَمَالَتْ الهَاجِرَةُ بِنَا إِيْنَهَا ،
وَنَزَلْنَا نَقُورٌ وَنَقُورٌ^(٤) ، وَرَبَطْنَا الأَفْرَاسَ بِالأَمْرَاسِ^(٥) ، وَمِلْنَا مَعَ النَّمَّاسِ ،

(١) الأُحْلَاسُ : جَمْعُ حِلْسٍ - بِكسْرِ أولِهِ - وَهُمُ الَّذِينَ يَلْزَمُونَ الشَّيْءَ
لَا يَنْفَكُونَ عَنْهُ ، يَرِيدُ أَنَّهُمْ فُرْسَانٌ لَا يَفَادِرُونَ مَتُونِ الخَيْلِ وَلَا يَفْتَقِرُونَ
عَنْ رُكُوبِهَا .

(٢) نَقْرِي : نَقَطُ ، وَأَسْنِمَةُ : جَمْعُ سَنَامٍ ، وَأَصْلُهُ المَرْتَفَعُ مِنْ ظَهْرِ البَعِيرِ ، ثُمَّ
اسْتَمِيرَ لِلنَّجْدِ ، وَهُوَ هُنَا مَا أُشْرِفَ مِنَ الأَرْضِ : أَيْ عِلَاً وَارْتَفَعُ ، وَالمَعْنَى : إِنَّهُمْ
طَفِقُوا يَسِيرُونَ سِيراً حَثِيثاً ، بِمِثِّ فَتَقَتُوا أَعَالِي الجِبَالِ بِمُحَافِرِ خَيْلِهِمْ ، حَتَّى لَقِدَ
صَبْرَتِ الخَيْلِ ، وَهَزَلَتْ ، وَتَمَطَّطَتْ ، وَلَانَتْ ، فَصَارَتْ كَالْمِصِيِّ (جَمْعُ عَصَا)
هُزَّالاً وَنَحَافَةً وَالقِسِيِّ لِيناً وَائْتِنَاءً .

(٣) تَاحَ يَتَيْحُ وَيَتَيْحُ : تَهَيَّأَ ، وَسَفْحُ الجَبَلِ : عَرْضُهُ وَأَصْلُهُ وَأَسْفَلُهُ ،
وَالْأَلَاءُ - بِوزنِ سَمَاءَ - شَجَرٌ مُرٌّ لَكِنَّهُ بِهِيجُ النُّظَرِ ، وَالْأَثَلُ : شَجَرٌ عَظِيمٌ
لَا يَثْمُرُ ، وَقَدْ شَبِهَ الأَلَاءُ وَالْأَثَلُ لَاسْتِقَامَتَهُ وَتَدَلَّى أَغْصَانُهُ - بِالكَوَاعِبِ ، وَهِيَ
الجَارِيَاتُ الحِسانُ حِينَ تَكُونُ ضَفَائِرَ شَعْرَهُنَّ مُتَدَلِّيةً .

(٤) مَالَتْ بِنَا : جَمَلْتَنَا نَمِيلًا ، مِنْ إِسْنَادِ المَسْبَبِ إِلَى السَّبَبِ فِيهِ ، وَالمَاجِرَةُ :
شِدَّةُ الحَرِّ عِنْدَ مُنْتَصَفِ النِّهَارِ ، وَغَارُ الرِّجْلِ : نَامٌ ، وَغَوَّرٌ - بِالتَّضْعِيفِ - جَاءَ
الغَوَّرُ ، وَهُوَ المَسْتَوِيُّ مِنَ الأَرْضِ .

(٥) الأَمْرَاسُ : الجِبَالُ ، وَمِنْهُ قَوْلُ امرئِ القَيْسِ :
كَأَنَّ الثَّرِيًّا عَلِقَتْ فِي مَصَامِيهَا بِأَمْرَاسٍ كَتَّانٍ إِلَى صُمِّ جَنْدَلٍ

فَمَا رَاعِنَا إِلَّا صَهِيلُ الْخَيْلِ ، وَنَظَرْتُ إِلَى فَرَسِي وَقَدْ أَرْهَفَ أُذُنَيْهِ ، وَطَمَحَ
بِعَيْنَيْهِ ، يَجِدُّ قَوْيَ الْخَيْلِ بِمَشَافِرِهِ ، وَيَخُذُّ خَدَّ الْأَرْضِ بِحَوَافِرِهِ (١) ،
ثُمَّ اضْطَرَبَتِ الْخَيْلُ فَأَرْسَلَتِ الْأَبْوَالَ ، وَقَطَعَتِ الْجِبَالَ ، وَأَخَذَتْ نَحْوَ
الْجِبَالِ (٢) ، وَطَارَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا إِلَى سِلَاحِهِ ؛ فَإِذَا السَّبْعُ فِي فَرَوَةِ الْمَوْتِ ،
قَدْ طَلَعَ مِنْ غَايِهِ ، مُنْتَفِخًا فِي إِهَابِهِ ، كَأَثَرِ أَعْنِ أَنْيَابِهِ ، بِطَرْفٍ قَدْ مُلِئَ
صَلْفًا ، وَأَنْفٌ قَدْ حُشِيَ أَنْفًا ، وَصَدْرٌ لَا يَبْرَحُهُ الْقَلْبُ ، وَلَا يَسْكُنُهُ
الرُّعْبُ (٣) ، وَقَلْنَا خَطْبٌ مُلِمٌ ، وَحَادِثٌ مُهِمٌّ ، وَتَبَادَرَ إِلَيْهِ مِنْ سُرْعَانِ
الرُّفْقَةِ فَتَى :

(١) أرهف أذنيه : أى حدّدها ، من قولهم « سيف رهيف الحد ،
ومرهف » ويجذ - بجيم تحتية فذال معجمة - يقطع ، ويجذ - بجاء فوقية فهملة -
يشق ، وخذّ الأرض : وجّهها وظهرها .

(٢) إذا اشتد الخوف تفككت مفاصل الجسم وتراخت أعصابه ، فلم يكن
في المقدور حبس الأطراف ، فقد يبول المرء وهو المميز العاقل ، فكيف بالأعجم
من الحيوان ؟

(٣) إنما يلبس فروة الموت نفس الموت ، فكأنه شبه الأسد بالموت في
قهر النفوس واغتيالها ، وهو عكس تشبيهه أبي ذؤيب في قوله :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

فقد شبه أبو ذؤيب المنية بالسبع بقرينة أنه أضاف الأظفار إلى ضمير المنية
والغاب : الشجر الملتف الكثير ، وكثيرا ما يكون مأوى للوحوش ،
والإهاب : الجلد ، و « منتفخا في إهابه » كناية عن الكبرياء والصّلف ، ومن
عادة الذى نزل به الخوف أن يضطرب قلبه فيشتدّ خفقانه ، حتى ليخيل أنه
انتقل من وعائه ، وهو فى الصدر خلف جهاز التنفس ، فإذا قيل « إن قلب
فلان لا ينتقل من صدره » فعناه أنه لا يدخل الخوف إلى قلبه ، وهى كناية بديعة .

أَخْضَرُ الْجِلْدَةِ فِي بَيْتِ الْعَرَبِ يَمْلَأُ الدَّلْوَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ^(١)
 بِقَلْبِ سَاقِهِ قَدْرًا ، وَسَيْفِ كُفْلِهِ أَثْرًا^(٢) ، وَمَلَكَتُهُ سَوْرَةُ الْأَسَدِ
 فَخَانَتُهُ أَرْضُ قَدَمِهِ ، حَتَّى سَقَطَ لِيَدِهِ وَفِيهِ^(٣) ، وَتَجَاوَزَ الْأَسَدُ مَضْرَعَهُ ،
 إِلَى مَنْ كَانَ مَعَهُ ، وَدَعَا الْحَيْنُ أَخَاهُ ، بِمِثْلِ مَا دَعَا^(٤) ، فَصَارَ إِلَيْهِ ، وَعَقَلَ

(١) سرعان : جمع سريع ، أى أنهم جميعاً تسارعوا إلى قتال الأسد لمكاتتهم فى الشجاعة والإقدام ، ولكن واحدا منهم تبادر فوصل إليه قبلهم .
 والبيت ملفق من بيتين من قول الفضل بن العباس اللّهبيّ ، وأصل الكلام هكذا :

وَأَنَا الْأَخْضَرُ مَنْ يَعْرِفُنِي أَخْضَرُ الْجِلْدَةِ مِنْ بَيْتِ الْعَرَبِ
 مَنْ يُسَاجِلُنِي يُسَاجِلُ مَا جِدَا يَمْلَأُ الدَّلْوَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ
 (٢) أثر السيف - بفتح أوله أو كسره ، وسكون الثاء فيهما - فرنده ،
 وجمعه أثور ، ومعناه : أن السيف لصقائه وصفاء جوهره كأنه كله جوهر .

(٣) السّورة : الحِدّة ، ومثلها السّوار - كقُرَاب - والمعنى أن رُعبه من
 الأسد وهيبته له تملك عليه قلبه ، فتراخت مفاصله ، واضطربت أعضاؤه ، حتى
 إنه ليخيل للرأى أن الأرض لم تثبت به ، ومثل هذا فى التعبير قولهم عند اشتداد
 الخوف : « سَاحَتِ الْأَرْضُ تَحْتَ قَدَمِي » وقوله : « سَقَطَ لِيَدِهِ وَفِيهِ » كناية
 عن انكبابه على وجهه ، وهو مأخوذ من قول قاتل محمد بن طلحة بن عبيد الله :
 وَأَشْعَثَ قَوَامٍ بِآيَاتِ رَبِّهِ قَلِيلِ الْأَذَى - فِيمَا تَرَى الْعَيْنُ - مُسْلِمٌ
 ضَمَّتْ إِلَيْهِ بِالسِّنَانِ قَمِيصَهُ فَخَرَّ صَرِيحًا لِلْيَدَيْنِ وَاللِّفْمِ
 أو هو مأخوذ من قولهم « سَقَطَ فِي يَدَيَّ فُلَانٌ » إِذَا سِيفٌ وَاشْتَدَّ حَزَنُهُ ،
 ولكنه بعيد .

(٤) الحين : الهلاك والموت ، والمعنى : إن الأسد حينما قتل الأول تجاوز
 مكانه ، ويمم نحو باقى رفاقه ، فتقدم إليه أحدهم ، فلم يلبث أن حلّ به مثل
 ما حل بمن تقدمه .

الرُّغْبُ يَدِيهِ ، فَأَخَذَ أَرْضَهُ ، وَافْتَرَشَ اللَّيْثُ صَدْرَهُ ، وَلَكِنِّي رَمَيْتُهُ
بِعِمَامَتِي ، وَشَغَلْتُ قَهْهُ ، حَتَّى حَقَنْتُ دَمَهُ ، وَقَامَ الْفَتَى فَوْجًا بَطْنُهُ ، حَتَّى
هَلَكَ الْفَتَى مِنْ خَوْفِهِ ، وَالْأَسَدُ لِلْوَجْأَةِ فِي جَوْفِهِ ^(١) ، وَنَهَضْنَا فِي أَثَرِ
الْخَيْلِ فَتَأَلَّفْنَا مِنْهَا مَا ثَبَتَ ، وَتَرَكَنَا مَا أَفَلَّتْ ، وَعُدْنَا إِلَى الرَّفِيقِ لِنُجَهِّزَهُ
فَلَمَّا حَوَّنَا التُّرْبَ فَوْقَ رَفِيقِنَا جَزَعْنَا وَلَكِنِ أَى سَاعَةٍ تَجْزَعُ
وَعُدْنَا إِلَى الْفَلَاةِ ، وَهَبَطْنَا أَرْضَهَا ^(٢) ، وَسِرْنَا حَتَّى إِذَا ضَمِرْتَ الْمَزَادُ ،
وَنَفِدَ الزَّادُ أَوْ كَادَ يَذْرِكُهُ النَّفَادُ ^(٣) ، وَلَمْ نَمَلِكِ الذَّهَابَ وَلَا الرَّجُوعَ ،
وَخَفْنَا الْقَاتِلِينَ الظُّلْمَاءَ وَالْجُوعَ ، عَنَّا لِنَأْفَاسُ فَصَمَدْنَا صَمَدُهُ ^(٤) ، وَقَصَدْنَا
قَصْدَهُ ، وَلَمَّا بَلَّغْنَا نَزَلَ عَنَّا حُرٌّ فَرَسِهِ يَنْقُشُ الْأَرْضَ بِشَفْتَيْهِ ، وَيَلْقَى

(١) المعنى : إن ذلك الرفيق نزل به الخوف ، وأخذ منه الجزع ، فسقط
كما سقط الذي قبله ، وهم الأسد ليقضى عليه ، فتداركتهم بمشاة الأسد حتى
ستطاع الفتى أن يقوم فيبقر بطن السبع ، ولكنه أشرف على الهلاك من الرعب
(٢) الفلاة : الصحراء ، وهبطنا : نزلنا .

(٣) الضمر والضمور : أصله الهزال ، وللزاد : جمع مزادة ، وهي قرية الماء
ومعنى ضمورها اصق الجلود ببعضه كما يكون في هزال الحيوان لعدم وجود مايباعد
بين بعضه وبعض ، فهو كناية عن فقدان الماء ، ونفد : فني ، والمراد أنهم
صاروا في حالة شديدة .

(٤) عن : ظهر ، وصمدنا : قصدنا ، ويقال : صمد فلان صمدا كذا ، أى
اتجه إليه واعتمده ، والمعنى : إننا حين خشينا على أنفسنا الهلاك في هذه الصحراء
المجدبة حيث لا نبات ولا ماء ظهر لنا رجل يركب فرسه ، فاتجهنا إليه ، والرء
في مثل هذه الحال يتلمس من يكشف كربتته ويخفف عنه ، ولا أقل من أن
يدلهم على مورد الماء .

الْتَرَابَ بِيَدَيْهِ ، وَعَمَدَنِي مِنْ بَيْنِ الْجَمَاعَةِ ، فَجَبَلَ رِكَابِي ، وَتَحَرَّمَ بِجَنَابِي ^(١) ،
وَنَظَرْتُ إِذَا هُوَ وَجْهُ يُبْرِقُ بَرَقَ الْعَارِضِ الْمُهَلَّلِ ، وَقَوَامٌ مَتَى مَا تَرَقَّى الْعَيْنُ
فِيهِ تَسَهَّلَ ^(٢) ، وَعَارِضٌ قَدْ اخْضَرَ ، وَشَارِبٌ قَدْ طَرَّ ، وَسَاعِدٌ مَلَانٌ ،
وَقَضِيبٌ رِيَّانٌ ، وَنِجَارٌ نُزْرِكِيٌّ ، وَزِيٌّ مَدَكِيٌّ ^(٣) ، فَقُلْنَا: مَالِكٌ لَا أَبَالَكَ ^(٤) ؟
فَقَالَ : أَنَا عَبْدُ بَعْضِ الْمُلُوكِ ، هَمٌّ مِنْ قَتْلِي بِهِمْ ^(٥) ، فَهَمْتُ عَلَى وَجْهِهِ إِلَى

(١) عمدني ، وعمدني إلى : قَصَدَنِي وَاتَّجَهَ نَحْوِي ، والمراد من تقبيل الركاب
والتحرم بالجناب الاحترام والتأدب فيه ، والإجلال مع إظهار الخشوع .
(٢) أخذ هذه الجملة من أبيات امرئ القيس في وصف الفرس ، وذلك
قوله في المعلقة :

وَرُحْنَا وَرَاحَ الطَّرْفُ يَرْفَعُ رَأْسَهُ مَتَى مَا تَرَقَّى الْعَيْنُ فِيهِ تَسَهَّلَ

(٣) العارض : أصله السحاب المعترض في الأفق ، ومن عباراتهم تشبيه
الوجه بالماء في صفائه ، وقد يضيفونه إليه تارة فيقولون « ماء الوجه » ومنه :
إِلَّا بَقِيَّةُ مَاءٍ وَجْهِ صُنْتُهُ عَنْ أَنْ يُبَاعَ وَقَدْ أَبْحَثْتُكَ فَاشْتَرِ
ومن هذا القبيل تسميتهم صفحتي الخلد - أي جانبيه - بالعارضين ، وهو
المراد هنا . واخضراره : ظهور الشعر فيه ، ويقال « طرَّ الشاربُ طرا وطورا »
إذا طلع جديدا .

(٤) كان بعض شيوخنا يمتقد أن هذه الكلمة لا تقال إلا عند الدم ،
وناقشته في ذلك كثيرا مستشهدا بكثير من أشعار العرب ، فيتأولها بالدم أو
بوقوعها حشواً ، ونحن نمتقد أن العرب يستعملونها في المدح وفي الذم ، وأصدق
شاهد من النثر قول سخيلة الراعية لعامر بن ظرب العدوانى وكان سيدها : مَالِكُ
- لا أَبَالَكَ - ما عَرَكَ في ليلتك هذه ؟ ثم قولها له : سبحان الله ! لا أَبَالَكَ ، أتبع
القضاء المبالِ إلخ ، في قصة رواها ابن هشام في سيرته (جزء أول صفحة ١١٦
طبع مصر) .

(٥) هَمٌّ مِنْ قَتْلِي بِهِمْ : أي أنه عزم على قتلي ونوآه .

حَيْثُ تَرَانِي، وَشَهَدْتُ شَوَاهِدُ حَالِهِ، عَلَى صِدْقِ مَقَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: أَنَا الْيَوْمَ عَبْدُكَ، وَمَالِي مَالُكَ، فَقُلْتُ: بُشْرَى لَكَ وَبِكَ^(١)، أَدَاكَ سَيْرُكَ إِلَى فِنَاءِ رَحْبٍ، وَعَيْشِ رَطْبٍ^(٢)، وَهَنَاتِنِي الْجَمَاعَةُ، وَجَعَلَ يَنْظُرُ فَتَقْتَلِنَا أَلْحَاطَهُ، وَيَنْطِقُ فَتَقْتَلِنَا أَلْفَاطَهُ، فَقَالَ: يَا سَادَةَ إِنْ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ عَيْنًا، وَقَدْ رَكِبْتُمْ فَلَاةَ عَوْرَاءَ، فَخُذُوا مِنْ هُنَالِكَ الْمَاءَ^(٣)، فَلَوْ بِنَا الْأَعِنَّةَ إِلَى حَيْثُ أَشَارَ، وَبَلَّغْنَاهُ وَقَدْ صَهَرَتِ الْأَهْجَرَةُ الْأَبْدَانُ، وَرَكِبَ الْجَنَادِبُ الْعَيْدَانَ^(٤)، فَقَالَ: أَلَا تَقِيلُونَ فِي الظِّلِّ الرَّحْبِ، عَلَى هَذَا الْمَاءِ الْعَذْبِ؟ قَلْنَا: أَنْتَ وَذَلِكَ^(٥) فَنَزَلَ عَنْ فَرَسِهِ، وَحَلَّ مِنْطَقَتَهُ، وَنَحَى قُرْطَقَتَهُ^(٦) فَمَا اسْتَتَرَ عَنَّا إِلَّا بَغْلَالَةَ تَيْمٍ عَنْ بَدَنِهِ^(٧)،

(١) أى أنك ستأنس بي كما أننى سأرتاح إليك .

(٢) الفِنَاءُ، ككسَاء: ما اتسع أمام الدار، وجمعه أَفْنِيَةٌ كَأَكْسِيَةِ، وَفِي - بضم فكسر فياء مشددة - والرَّحْبُ: المتسع، وَعَيْشُ رَطْبٍ: ناعم رغيد، والمعنى: إنه بوصوله إليه قد وصل إلى النعمة الموفورة والعيشة الراضية الهنيئة .

(٣) سفح الجبل: أصله أو أسفله، وأراد بالعين الماء، وفلاة عوراء: لا تجدون فيها عَيْنًا، والمراد من ركوبها السير فيها .

(٤) الْأَعِنَّةُ: جمع عَيْنَانٍ - بكسر أوله - وهو سير اللجام، وصهرت: أحرقت، والمهاجرة: حر الظهيرة، والجنادب: الجراد، وركوبه العيدان عند شدة الحر .

(٥) قال يقيل - من باب باع يبيع - قَيْلًا وَقَائِلَةً وَقَيْلُولَةً وَمَقَالًا وَمَقِيلًا، وَتَقَيْلٌ: نام في نصف النهار، والرَّحْبُ: الواسع، وَأَنْتَ وَذَلِكَ: كلمة يقولونها عند الموافقة على ما يعرضه المقترح، وكان المعنى: أنت مطاع ولك ذلك .

(٦) المنطقة - بوزان مكسنة - حِزَامٌ يَشُدُّ بِهِ الْوَسْطَ، وَالْفِعْلُ مِنْهُ انْتَطَقَ: أى لبسها، وَنَحَى: أبعد، والقُرْطُقُ - بوزان جنذب - نوع من اللباس، وفعله « قرطق » كدحرج .

(٧) استتر: احتفى واحتجب، والبغْلَالَةُ - بكسر أوله - شعار يلبس تحت =

فَمَا شَكَّكُنَّا أَنَّهُ حَامِمَ الْوِلْدَانِ ، فَفَارَقَ الْجِنَانَ ، وَهَرَبَ مِنْ رِضْوَانِ^(١) ،
 وَعَمَدَ إِلَى الشَّرُوجِ فَحَطَّهَا ، وَإِلَى الْأَفْرَاسِ فَجَشَّهَا^(٢) ، وَإِلَى الْأُمِّكَتَةِ
 فَرَشَّهَا ، وَقَدْ حَارَتِ الْبَصَائِرُ فِيهِ ، وَوَقَفَتِ الْأَبْصَارُ عَلَيْهِ ، قَعَلْتُ : يَا فَتَى
 مَا أَلْطَفَكَ فِي الْخِدْمَةِ ، وَأَحْسَنَكَ فِي الْجُنَّةِ^(٣) ، قَالُوا لَيْلٌ لِمَنْ فَارَقْتَهُ ،
 وَطُوبَى لِمَنْ رَافَقْتَهُ^(٤) ، فَكَيْفَ شَكَرَ اللهُ عَلَى النِّعْمَةِ بِكَ ؟ قَعَالَ :
 مَا سَتَرْتَهُ مِنِّي أَكْثَرَ ، أَتُعْجِبُكُمْ خِفَّتِي فِي الْخِدْمَةِ ، وَحُسْنِي فِي الْجُنَّةِ ؟
 فَكَيْفَ لَوْ رَأَيْتُمُونِي فِي الرِّفْقَةِ^(٥) ؟ أَرَيْكُمْ مِنْ حِدْقِي طُرُقًا^(٦) ، لَتَزْدَادُوا

= الثوب ، ومثلها الغلة ، وتم : تكشف عنه وتدلُّ عليه ، والمعنى إنه ما كان
 يخفى عليهم شيء من بدنه ؛ لأن الغلالة شفاقة لا تجب منه شيئاً .

(١) أى أننا حينما تأملنا بديع تركيبه ونظرنا محاسنه لم نظن إلا أنه أحد
 الولدان الذين يكونون فى الجنة فارقها هارباً من رضوان خازنها والموكل بمجراتها
 لأنه ممه لا تقع عليهم العين فى هذه الحياة الدنيا ، ومن أبدع ما قيل فى وصف
 العلمان قول سبط بن التماوى يذى فى غلمان الإمام الناصر لدين الله :

غُرٌّ إِذَا صِينَ الْجَمَالَ بِبُرْقُعٍ سَتَرُوا بِجَمَالٍ وَجُوهِهِمْ بِمَغَافِرٍ
 مِنْ كُلِّ خَوَاضِ الْعِمَارِ مَلْجِجٍ مَرِنٍ عَلَى سَفْكَ الدَّمَاءِ مُقَامِرٍ
 أَضْمَى الْكُمَاةَ بِمُقْصِدٍ مِنْ كَفِّهِ وَرَمَى الْقُلُوبَ مِنَ اللَّحَاطِ بِمَآثِرِ
 إِيْمَاضٍ مُنْصَلِهِ وَضَوْءِ جَبِينِهِ بَرَقَانَ فِي لَيْلِ الْعَجَاجِ الثَّائِرِ

(٢) أى وَضَعَ لها الحشيش .

(٣) أى أن جملة أحوالك ومجموع صفاتك جميلٌ مستحسنٌ .

(٤) أى أن هذه الخلال بما يأنس بها من يرافقتك وبأسف عليها من تفارقه

(٥) يروى بدل الرفقة « الوقعة » وهى تقرب تفسير الرفقة بالأس والشدة

والمدافة ، وذلك أن الصداقة هى المواساة فى شدائد الأمور وعظيم الوقائع .

(٦) الحذق: المهارة ، والطرف: جمع طرفة ، وهى الشيء النادر العديم المثال

بِي شَفَقًا؟ فَقُلْنَا : هَاتِ ، فَعَمَدَ إِلَى قَوْسٍ أَحَدِنَا فَأَوْتَرَهُ^(١) ، وَفَوْقَ صَحْمًا فَرَمَاهُ فِي السَّمَاءِ^(٢) ، وَأَتْبَعَهُ بِأَخْرَفِ شَقَمِهِ فِي الْهَوَاءِ ، وَقَالَ : سَأُرِيكُمْ نَوْعًا آخَرَ ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى كِنَانَتِي فَأَخَذَهَا ، وَإِلَى فَرَسِي فَعَمَلَهُ ، وَرَمَى أَحَدِنَا بِسِهِمٍ أَثْبَتَهُ فِي صَدْرِهِ ، وَآخَرَ طَيْرَهُ مِنْ ظَهْرِهِ^(٣) ، فَقُلْتُ : وَيْحَكَ مَا تَصْنَعُ^(٤) ؟ قَالَ : اسْكُتْ يَا لَكْعَمِ^(٥) ، وَاللَّهِ لَيَسُدَّنَّ كُلُّ مِثْمِكُمْ يَدَ رَفِيقِهِ ، أَوْ لِأَعْيَنَهُ بِرِيقِهِ^(٦) ، فَلَمْ نَدْرِ مَا نَصْنَعُ وَأَفْرَأَسْنَا مَرْبُوطَةً ، وَسُرُوجَنَا مَحْطُوطَةً ، وَأَسْلِحَتَنَا بَعِيدَةً ، وَهُوَ رَاكِبٌ وَنَحْنُ رَجَالَةٌ ، وَالْقَوْسُ فِي يَدِهِ يَرْتَشِقُ بِهَا الظُّهُورَ ، وَيَمْتَشِقُ بِهَا الْبَطُونَ وَالصُّدُورَ^(٧) ، وَحِينَ

(١) أوتر القوس : جعل لها وترًا ، وهو بفتح أوله وثانيه : شرعة القوس ومعلقها .

(٢) فوق السهم - بالتضهيف - سدده .

(٣) الكيفانة : جُمُعة تجمل فيها السهام ، والمعنى : أنه أمتطى فرسه بعد أن أخذ كيفانته ليتمكن من النجاة إذا أعوزته الحال واضطر إليها ، وكان منه أن رمى واحداً منهم بسهم بقي مرشوقاً في صدره ، ورمى ثانياً بسهم نفذ من ظهره ليربهم قدرته على الرماية .

(٤) وَيْحَ ، وَوَيْبَ ، وَوَيْلَ : كدمات تقال في الدعاء بالثبور والهلاك .

(٥) اللكع - بوزن صرد - اللثيم ، والأحقق ، وقد شاع هذا الوزن في سب المذكر كعذر وفسق كما شاع وزان فعّال في سب المؤنث ، ومنه قول الشاعر :
أَطُوفُ مَا أَطُوفُ مُمَّ آوِي إِلَى يَدَيْ قَعِيدَتِهِ لِكَاعِ

(٦) أي إما أن يربط كل واحد يدي رفيقه ليتعذر عليه الدفاع عن نفسه .

فما أفعّل بعد أولأجعلنه يفض بريقه ، وهي كناية عن إزهاق نفسه .

(٧) أي إننا تحيرنا في أمرنا معه ، فلم ندر ماذا نصنع ، وليس فينا من هو =

رَأَيْنَا الْجِدَّ ، أَخَذْنَا الْقَدَّ (١) ، فَشَدَّ بَعْضُنَا بَعْضًا ، وَبَقِيتُ وَحْدِي ،
لَا أَحَدٌ مِّنْ بَشَدُ يَدِي ، فَقَالَ : أَخْرِجْ بِأَهَابِكَ (٢) ، عَنِ ثِيَابِكَ ، فَخَرَجْتُ
مِمَّنْ نَزَلَ عَنِ فَرَسِهِ ، وَجَعَلَ يَضَعُ الْوَاحِدَ مِنَّا بَعْدَ الْآخِرِ ، وَيَنْزِعُ ثِيَابَهُ
وَصَارَ إِلَى وَعَلَى خَفَانِ جَدِيدَانِ ، فَقَالَ : اخْلَعْهُمَا لِأُمِّ لَكَ ، فَقُلْتُ : هَذَا
خُفٌّ لَيْسَتْهُ رَطْبًا فَلَيْسَ يُمَسِّكُنِي نَزْعُهُ ، فَقَالَ : عَلَى خَلْمِهِ ، ثُمَّ دَنَا إِلَى
لِيَنْزِعَ الْخُلْفَ ، وَمَدَدَتْ يَدِي إِلَى سَكِّينَ كَانَ مَعِيَ فِي الْخُلْفِ وَهُوَ فِي شُغْلِهِ
فَأَثَبَتْهُ فِي بَطْنِهِ ، وَأَبْنَتْهُ مِنْ مَتْنِهِ (٣) ، فَأَزَادَ عَلَيَّ فَمَّ فَعَرَهُ (٤) ، وَالْقَمَّةَ
حَجَرَهُ (٥) ، وَقُمْتُ إِلَى أَصْحَابِي فَحَلَلْتُ أَيْدِيَهُمْ ، وَتَوَرَّعْنَا سَلَبَ
الْقَتِيلَيْنِ (٦) ، وَأَدْرَكْنَا الرَّفِيقَ وَقَدَّ جَادَ بِنَفْسِهِ (٧) ، وَصَارَ لِرَمْسِهِ ، وَصِرْنَا
إِلَى الطَّرِيقِ ، وَوَرَدْنَا حِمَصَ بَعْدَ لَيْالٍ خَمْسٍ ، فَلَمَّا أَتَيْنَا إِلَى فُرُضَةِ مَن سُوِّقَهَا (٨)
رَأَيْنَا رَجُلًا قَدَّ قَامَ عَلَى رَأْسِ ابْنِ وَبَيْتَةٍ ، بِجِرَابٍ وَعُصِيَّةٍ (٩) ، وَهُوَ يَقُولُ :

= متجهز مثله ، إذ أننا مترجلون وهو راكب ، وبيده القوس يقتل من قدم عليه
أو هرب منه .

(١) القِدُّ : سير من الجلد تربط به الأسارى .

(٢) الإهاب : الجلد ، والمعنى أنهم فعلوا ما أمرهم به ، وشدَّ كل واحد
فيقه ، فبقى عيسى وحده ، فأراد منه الفتى أن يتجرَّد عن ثيابه ليأخذها بلا عناء .

(٣) المتن : الظاهر .

(٤) فعره : فتحه .

(٥) كناية عن السكوت التام .

(٦) تورَّعنا : اقتسمنا ، والسَّاب : ثياب القتيل ومتاعه .

(٧) جاد بنفسه : مات .

(٨) الفرضة كالفرجة وزنا ومعنى .

(٩) عصية : تصغير عصا ، وفي أمثالهم « تلك العصا من العصية » . =

رَجِمَ اللهُ مَنْ حَسَا ، فِي جِرَابِي مَكَارِمَهُ
رَجِمَ اللهُ مَنْ رَنَا لِسَعِيدٍ وَفَاطِمَةَ
إِنَّهُ خَادِمٌ لَكُمْ وَهِيَ لَا شَكَّ خَادِمَتُهُ

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : قُلْتُ إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ هُوَ الْإِسْكَندَرِيُّ الَّذِي
سَمِعْتُ بِهِ ، وَسَأَلْتُ عَنْهُ ، فَإِذَا هُوَ هُوَ ، فَدَلَّغْتُ إِلَيْهِ ^(١) ، وَقُلْتُ :
اِحْتِكِمُ حُكْمَكَ ^(٢) فَقَالَ : دِرْهَمٌ ، قُلْتُ :

لَكَ دِرْهَمٌ فِي مِثْلِهِ مَا دَامَ يُسْعِدُنِي النَّفْسُ ^(٣)
فَأَحْسُبُ حِسَابَكَ وَالتَّمِيسُ كَيْبًا أَنْيَلُ الْمَلْتَمَسَ

وَقُلْتُ لَهُ : دِرْهَمٌ فِي اثْنَيْنِ فِي ثَلَاثَةٍ فِي أَرْبَعَةٍ فِي خَمْسَةٍ ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى

= والمعنى إنهم بعد أن انتهوا من ذلك الفتي سلكوا الطريق إلى حمص
فوردها بعد سفر خمس ليال ، وبيناهم بسيرون إذ وجدوا رجلا قد انتحى ناحية
واتخذله مكانا فُرْجَةً من السوق ، ووقف وأمامه فتاة وفتى ، ومعه جراب ليضع
فيه ما يُحَصِّله ، وعصا يتوكأ عليها كمادة السابلة والتسولين .

(١) دلفت إليه : سرت نحوه .

(٢) أى إننى جعلت مالى تحت حكمك ، فاحكم بما شئت فإني أعطيكه .

(٣) قال الإمام إن معنى « مادام يسعدنى النفس » مدة دواى حيا ، أو أى
أكرر لك ذلك كل عام ، وما أشبه هذا ، ونحن نقول : لعله أراد لك درهم
مضروبا فى مثله مضروبا فى العدد التالى له ثم الذى بعده وهكذا ما دام نفسى
مُتَمَسِّعا للعدد ، بدليل أنه سأله بعد ذلك بقوله : درهم فى اثنين فى ثلاثة وهكذا ،
وقوله « حتى انتهيت إلى العشرين » أى أنه لم يساعده نفسه الواحد إلى عد
ما فوق العشرين ، ولسنا نشك فى أن هذا هو المعقول ، وسبحان ملهم الصواب .

العشرين ، ثمّ قلتُ : كمّ ممك ؟ قال : عشرون رغيفاً ، فأمرتُ له بها ،
وقلتُ : لا نصر مع الخذلان ، ولا حيلة مع الحرمان^(١) .

(١) أى أنه حينما عرض عليه هذه العطية وسأله حسبتهما لم يساعده الحظ
إلا بذكر العشرين رغيفاً ، وذلك من نكد الطالع ، وهو يريد بهذا أن يدلّ
على أن الجوع قد أنك قواه ، وأنه لا يفكر فى غير ملء بطنه ، ونظيره قول
الشاعر :

قالوا : افتريخ شيتنا نجد لك طبخه
قلتُ : أطبخوا لي جبّة وقميصا

٧ - المقامة الغيلانية

حدّثني عيسى بن هشام قال :

بينما نحن بجزّان ، في مجتمع لنا نتحدّث ، ومَعَنَا يَوْمَئِذٍ رَجُلُ الْعَرَبِ
حِفْظًا وَرَوَايَةً ، وَهُوَ عِصْمَةُ بْنُ بَدْرِ الْفَزَارِيُّ ، فَأَفْضَى ^(١) بِنَا الْكَلَامُ إِلَى
ذِكْرٍ مِنْ أَعْرَضَ عَنْ خَصْمِهِ حِلْمًا ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ خَصْمِهِ اخْتِقَارًا ،
حَتَّى ذَكَرْنَا الصَّلْتَانَ الْعَبْدِيَّ وَالْبَيْعِيَّ ^(٢) ، وَمَا كَانَ مِنْ اخْتِقَارِ جَرِيرٍ
وَالْفَرَزْدَقِ لِهَمَا ، فَقَالَ عِصْمَةُ : سَأَحَدُّكُمْ بِمَا شَاهَدْتُهُ عَيْنِي ،
وَلَا أَحَدُّكُمْ عَنْ غَيْرِي ، بَيْنَمَا أَنَا أُسِيرُ فِي بِلَادِ تَمِيمٍ مُرْتَحِلًا نَجِيبَةً ،
وَقَائِدًا جَنِيبَةً ، عَنْ لِي رَاكِبٌ عَلَى أَوْرَقِ جَمَدِ اللَّغَامِ ، فَحَاذَانِي حَتَّى إِذَا

(١) أفضى بنا الكلام : اتسع حتى ذكرنا كيت وكيت ، مأخوذ من
قولهم « فضا المكان ، وأفضى » إذا اتسع .

(٢) الصلتان على وزان خفتان ، والبيعث بوزان كريم : شاعران من
شعراء الدولة الأموية ، كانا يهجون جريرا والفرزدق ، وقد ورد في شعر
الفرزدق وجرير هجاء لهما ، فعمل معنى أنهما تركاها أنهما لم ينازلاهما مفازلة
القرناء ، ولم يستغلا بمهاجتهما ومناقضتهما كما اشتغل كل من جرير والفرزدق
بأخيه ، والصلتان العبدي هو قثم بن خبيثة بن عبد القيس وهو القائل :

نَرُوحُ وَنَعْدُو حَاجَاتِنَا وَحَاجَةَ مَنْ عَاشَ لَا تَنْقُضِي
تَمُوتُ مَعَ الْمَرْءِ حَاجَاتُهُ وَتَبْقَى لَهُ حَاجَةُ مَا بَقِيَ

وفيه يقول جرير حينما قضى بينه وبين الفرزدق قضاء لم يرقّ عنده :

أَقُولُ وَلَمْ أَمْلِكْ سِوَابِقِ عَبْرَةٍ مَتَى كَانَ حُكْمُ اللَّهِ فِي كَرْبِ النَّخْلِ؟
والبيعث : هو خِدَاشُ بْنُ بَشِيرٍ ، أَحَدُ بَنِي مُجَاشِعٍ .

صَكَ الشَّبَّحُ بِالشَّبَّحِ (١) رَفَعَ صَوْتَهُ بِالسَّلَامِ عَلَيْكَ ، فَقُلْتُ : وَعَلَيْكَ
السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، مِنَ الرَّائِكِ الْجَهِيرِ السَّلَامِ (٢) الْمُحِبِّي بِنَحْيَةِ
الإِسْلَامِ ؟ فَقَالَ : أَنَا غَيْلَانُ بْنُ عُمَةَ (٣) ، فَقُلْتُ : مَرَّحِبًا بِالسَّكْرِيمِ حَسْبِهِ ،
الشَّهْرِ نَسْبُهُ ، السَّائِرِ مَنَظِقُهُ ، فَقَالَ : رَحْبَ وَادِيكَ ، وَعَزَّ نَادِيكَ ، فَمَنْ
أَنْتَ ؟ قُلْتُ : عِصْمَةُ بْنُ بَدْرِ الْفَزَارِيِّ ، قَالَ : حَيَّاكَ اللَّهُ نَعَمَ الصَّدِيقُ ،
وَالصَّاحِبُ وَالرَّفِيقُ ، وَسِرْنَا قَلَمًا هَجَرْنَا قَالَ : أَلَا نَعُورٌ يَا عِصْمَةُ فَقَدْ
صَهَرْتَنَا الشَّمْسُ ؟ (٤) ، فَقُلْتُ : أَنْتَ وَذَاكَ ، فَمَلْنَا إِلَى شَجَرَاتِ أَلَاءِ
كَأَنَّهُنَّ عُدَارِي مُتَبَرِّجَاتٌ ، قَدْ نَشَرْنَ غَدَائِرَهُنَّ ، لِأَثَلَاتٍ تَنَاوَحْنَ (٥) ،

(١) النجبية : الناقة الكريمة ، والجنبية : الناقة تأخذها جانب ناقتك التي
تركبها لتستريح إليها إذا تعبت الأولى ، والأورق : الجمل فيه سواد وبياض ،
وجعد اللغام : كثير الزبد .

(٢) الجهير السكلام : المرتفع الصوت به .

(٣) غَيْلَانُ : هو ذو الرمة ، وكنيته أبو الحارث ، ينتهي نسبه ليزار ، والرمة ،
بالضم : قطعة من جبل ، وتسكسر الراء ، ولقب بذلك لقوله في الوند : * أَشَعَثَ
بِأَبِي رُمَةَ التَّقْلِيدِ * سأل الفرزدق يوماً فقال : مالي لا أذكر مع فحول الشعراء ؟
فأجابه بقوله : قَصَّرَ بِكَ عَنْ غَايَتِهِمْ بِكَأُوكَ فِي الدَّمَنِ ، وَوَصَفَكَ الأَبْعَارَ وَالعَطْنَ .
(٤) هَجَرْنَا - بالتضعيف - دخلنا في وقت الهجرة ، وهو أشد الأوقات
حرا ، ونعور : أى نقيم ، مأخوذ من العور ، وهو المكان المنخفض ، وأكثر
ما يكون أن تلفيه ظليلا .

(٥) الألاء : شجر وريف الظل بهي المنظر ، والعداري : النساء الأبقار ،
والغدائر : جمع غديرة ، وهي الخصلة من الشعر ، والأثل : شجر ضخيم مرتفع كثير
الظل ، وتناوحن : أى تقع في مقابلتهن ، والضمير الظاهر للألاء .

فَعَطَطْنَا رِحَالَنَا ، وَنَلْنَا مِنَ الطَّعَامِ ، وَكَانَ ذُو الرِّمَّةِ زَهِيدَ الْأَكْلِ ،
 وَصَلِينَا بَعْدُ ، وَآلَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا إِلَى ظِلِّ أَثَلَّةٍ يُرِيدُ الْقَائِلَةَ ، وَاضْطَجَعَ ذُو
 الرِّمَّةِ ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَصْنَعَ مِثْلَ صَنِيعِهِ ، فَوَائَيْتُ ظَهْرِي الْأَرْضَ ، وَعَيْنَايَ
 لَا يَمْلِكُهُمَا غَمَضٌ ، فَنَظَرْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ إِلَى نَاقَةٍ كَوْمَاءَ قَدْ وَخَّيْتُ وَعَبَّيْتُهَا
 مُلْقَى^(١) ، وَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ يَكْلَاهَا كَأَنَّهُ عَسِيفٌ أَوْ أُسَيْفٌ^(٢) فَلَمَّيْتُ عَنْهُمَا ،
 وَمَا أَنَا وَالسُّؤَالَ عَمَّا لَا يَفِينِي ؟ وَنَامَ ذُو الرِّمَّةِ غِرَارًا^(٣) ، ثُمَّ انْتَبَهَ ،
 وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَيَّامِ مُهَاجَاتِهِ لِذَلِكَ الْمُرْتَى ، فَرَفَعَ عَقِيرَتَهُ^(٤) وَأَنْشَدَ يَقُولُ :
 أَمِنْ مَيَّةِ الطَّلُّ الدَّارِسُ أَلْظَّ بِهِ الْعَاصِفُ الرَّامِسُ^(٥)
 فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا شَجِيجُ الْقَذَالِ وَمُسْتَوْقَدٌ مَا لَهُ قَابِسُ^(٦)
 وَحَوْضٌ تَتَلَّمُّ مِنْ جَانِبِيهِ وَمُحْتَفَلٌ دَارِسٌ طَامِسُ^(٧)

- (١) ناقة كوماة : أى مرتفعة عالية السنام ، وَخَّيْتُ : أى أصابتها الشمس ،
 وإنما يظهر ذلك إذا عَرِبْتُ ، وفي القرآن الكريم : ﴿ إِنْ لَكَ إِلَّا تَظْمَأُ فِيهَا
 وَلَا تَضْحَى ﴾ ، والغبيط : هو الرجل الذى يوضع عليه الهودج ، قال امرؤ القيس :
 تَقُولُ ، وَقَدْ مَالَ الْغَبِيطُ بِنَا مَمَّا : عَقَرْتُ بِمَيْرِي يَا أَمْرَأَ الْقَيْسِ فَأَنْزَلَ
 (٢) يكلأها : يرعاها ويحفظها ، والعسيف : الأجير ، والأسيف : العبد .
 (٣) غرارا : أى قليلا .
 (٤) رفع عقيرته : أراد أنه صاح بصوت مرتفع .
 (٥) الدارس : الذى فئت آثاره ، وألظ به : أى لازمه ولم يفارقه ،
 والعاصف : الريح الشديدة ، والرامس : الذى يجلب عليه التراب ليخفيه .
 (٦) شجيج القذال : مكسور الرأس ، وأراد به الوتد ، والمستوقد : مكان
 إشعال النار ، وايس له قابس : أى ليس له من يلتمس منه النار لعدم وجودها .
 (٧) تتلَّمُّ : تهدم ، والمحتفل : مكان الاجتماع .

وَعَهْدِي بِهِ وَبِهِ سَكَنُهُ وَمِيَّةٌ وَالْإِنْسُ وَالْإِنْسُ (١)
 كَأَنِّي بِمِيَّةٍ مُسْتَنْفِرٌ غَزَا لَأَ تَرَأَى لَهُ عَاطِسٌ (٢)
 إِذَا جِئْتَهَا رَدَّنِي عَابِسٌ رَقِيبٌ عَلَيْهَا لَهَا حَارِسٌ
 سَتَأْتِي أَمْرًا الْقَيْسِ مَأْتُورَةٌ يُغْنِي بِهَا الْعَابِرَ الْجَالِسُ (٣)
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ أَمْرًا الْقَيْسِ قَدْ أَلْظَ بِهِ دَاوُهُ النَّاجِسُ (٤)
 هُمُ الْقَوْمُ لَا يَأْتُمُونَ الْمُهْجَاءَ وَهَلْ يَأْلَمُ الْحَجْرُ الْيَابِسُ ؟
 - فَسَاءَ لَهُمْ فِي الْعُلَا رَاكِبٌ وَلَا لَهُمْ فِي الْوَعَى فَارِسٌ (٥)
 مُمْرِطَةٌ فِي حِيَاضِ الْمَلَامِ كَتَادَعَسَ الْأَدَمَ الدَّاعِسُ (٦)
 - إِذَا طَمَحَ النَّاسُ لِلْمَكْرُمَاتِ فَطَرَفُهُمُ الْمَطْرُقُ النَّاعِسُ

(١) السكن: الساكن، أى أنه يعرفه أهلا بالسكان، وَمِيَّةٌ: اسم معشوقته.

(٢) العاطس: الصبح، يقول: إن حاله مع مية في عدم وصوله إليها كحال

من يستنفر غزالا وقد لاح له الصبح، فهو لا يستطيع إمساكه.

(٣) امرؤ القيس مَهْجُورٌ، وهو من نبي رُرة بن حجر، مأتورة: أى

قصيدة يروى بها الناس حتى بمظم خَطَرُهَا عَلَيْهِ، وَيُغْنِي بِهَا الْجَالِسَ لِلْعَابِرِ،

والمراد أنها تسير وتذبح حتى تحط من قدر امرئ القيس.

(٤) الداء الناجس: الذى لا يَفْتَأُ مَلَاذِمًا صَاحِبَهُ، ولا يَنْجَعُ فِيهِ الطَّبُّ.

(٥) أى أن هذا المهجو وقبيلته لا يتألمون من الهجاء، ولا يتوجهون له،

كما لا يتألم الحجر ولا يتوجع الصخر، وأنهم لم يمتثوا إلى الفضائل بنسب، ولم

تسكن لهم في الوقائع والحروب يَدٌ، لعدم وجود الأ كفاء الصفايد منهم.

(٦) ممرطة: ملطخة، ودعس: وطىء برجله، والأدم: الجلد، والمعنى أن

هذه القبيلة ملطخة باللوم كتلطخ الجلد الذى يراد دباغه؛ لأنهم تجافوا عن

كل محمّدة، ونأوا عن جميع المكارم، فلا يذكرون لهم فضل، ولا يتحدث الناس

لهم بخلة من خلال البر.

تَمَافُ الْأَكْرَامِ إِصْهَارَهُمْ فَكَلُّهُ أَيَامَهُمْ عَانِسُ (١)
 فَلَمَّا بَلَغَ هَذَا الْبَيْتَ تَنَبَّهَ ذَلِكَ النَّائِمُ، وَجَعَلَ يَمْسُحُ عَيْنَيْهِ، وَيَقُولُ:
 أَذُو الرُّمَيْمَةِ يَمْنَعُنِي النَّوْمَ بِشِعْرِ غَيْرِ مُتَّقِفٍ وَلَا سَائِرٍ ؟ فَقُلْتُ : يَا غَيْلَانَ ،
 مَنْ هَذَا ؟ فَقَالَ : الْفَرَزْدَقُ ، وَحَمِيَّ ذُو الرُّمَّةِ فَقَالَ :

وَأَمَّا مُجَاشِعُ الْأَرْزَدُلُونَ فَلَمْ يَسْقِ مَنَدِيَّتَهُمْ رَاجِسُ (٢)
 سَيَعْقِلُهُمْ عَنْ مَسَاعِي الْأَكْرَامِ عِقَالٌ ، وَيَجْبِسُهُمْ حَابِسُ (٣)
 فَقُلْتُ : الْآنَ يَشْرِقُ فَيُثُورُ (٤) ، وَيَعْمُ هَذَا وَقَبِيلَتَهُ بِالْهَجَاءِ ، فَوَاللَّهِ

(١) تعاف : تـكـرهه باشمئزاز ، وإصهارهم : تزويجهم ، والأيامي : النساء ،
 والعانس : التي كبرت عند أهلها دون زواج ، والمعنى : إن كرام الناس ينفرون
 من مصاهرتهم ، ولذلك تجد بناتهم قد كبرن بدون أن يتقدم لخطبتهن أحد .

(٢) مجاشع : قبيل الفرزدق ، والراجس : المسحاب الذي يصعبه رعد شديد ،
 والمراد الدعاء على هذه القبيلة بعدم السقيا ، وبدوام القحط والإجمال .

(٣) يعقل : يمنع ، وعقال وحابس : من آباء الفرزدق ، أي أن هؤلاء
 الناس لن يتقدموا في المسكرات وشريف الخصال ؛ لأن خستهم تمنعهم من
 ذلك ، ولثوم طباعهم يجبسهم عنه ، والجناس في البيت الأخير من هذه الأبيات
 أصله من قول جرير :

وَمَا زَالَ مَقُولًا عِقَالٌ عَنِ الْغَدَى وَمَا زَالَ مَجْبُوسًا عَنِ الْمَجْدِ حَابِسُ

ولـكـون بيت ذي الرمة مسبقاً ببيت جرير في معناه وفي أم ألفاظه قال
 الفرزدق : إن شعره مُتَّحَلٌّ ، أي مأخوذ من كلام غيره ، ومسروق .

(٤) يشرق : يفتش ، ويثور : يهيج ، والمعنى أن الفرزدق سيجد هذا
 الكلام كالتشجأ في حلقه ، فيحتاجه ذلك إلى هجاء غيلان وقومه .

مَا زَادَ الْفَرَزْدَقُ عَلَيَّ أَنْ قَالَ : فَبِحَاكَ يَا ذَا الرَّمِيْمَةِ ! أَتَعْرِضُ لِمِثْلِي بِمِقَالٍ
مُنْتَحَلٍ ^(١) ؟ ثُمَّ عَادَ فِي نَوْمِهِ كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْ شَيْئًا ، وَسَارَ ذُو الرُّؤْيَةِ وَسِيرَتُهُ
مَعَهُ ، وَإِنِّي لَأَرَى فِيهِ انكِسَارًا حَتَّى افْتَرَقْنَا ^(٢) .

(١) الرميمة : تصغير الرمة لقب غيلان ، وتعريض : تتعرض ، والمقال المنتحل :
المسروق ، وقد يكون «تَعْرِضُ» من التعريض الذي هو بمذم التصريح ، وموضع
التعريض في قوله : يعقلهم عقال ، ويحبسهم حابس .

(٢) أى أن غيلان ابتأس كثيرا حين لم يعبأ به الفرزدق ، ولم يقم له وزنا ،
وهذا مثال لمن أعرض عن خصمه احتقارا لشأنه واستخفافا به ، وكمن الشعراء
تعرضوا لجرير ، وكانوا يتمنون أن يرد عليهم بأغش المجاء وأقذعه ، لأن في
ذلك تنويها بشأنهم ورفقا لأقدارهم ، فكان سكوتهم عنهم إمانة لهم ومبالغة
في الخط من شأنهم .

٨ - المَقَامَةُ الْأَذْرَبِيَّجَانِيَّةُ

قَالَ عَيْسَى ابْنُ هِشَامٍ : لَمَّا نَطَقَنِي الْغَنِي بِفَاضِلِ ذَيْلِهِ (١) ، أَتَيْتُ بِمَالٍ
سَلْبَتُهُ ، أَوْ كَنْزٍ أَصْبَتُهُ (٢) ، فَحَفَزَنِي اللَّيْلُ (٣) ، وَصَرْتُ بِي الْخَيْلُ ،
وَسَلَكْتُ فِي هَرَبِي مَسَالِكَ لَمْ يَرْضَهَا السَّيْرُ (٤) ، وَلَا اهْتَدَتْ إِلَيْهَا الطَّيْرُ ،
حَتَّى طَوَيْتُ أَرْضَ الرُّعْبِ وَتَجَاوَزْتُ حَدَّهُ ، وَصَرْتُ إِلَيَّ جَمَى الْأَمْنِ
وَوَجَدْتُ بَرْدَهُ ، وَبَلَغْتُ أَذْرَبِيَّجَانَ وَقَدْ حَفَيْتِ الرَّوَاحِلُ (٥) ، وَأَكَلَتْهَا
الْمَرَاحِلُ ، وَلَمَّا بَلَغْتُمَا :

نَزَلْنَا عَلَى أَنَّ الْمَقَامَ ثَلَاثَةٌ فَطَابَتْ لَنَا حَتَّى أَقْنَا بِهَا شَهْرًا
فَبَيْنَمَا أَنَا يَوْمًا فِي بَعْضِ أَسْوَاقِهَا إِذْ طَلَعَ رَجُلٌ بِرَكْوَةٍ قَدْ اعْتَصَدَهَا (٦)
وَعَصَا قَدْ اعْتَمَدَهَا (٧) ، وَدَنِيَّةٍ قَدْ تَقَلَّسَهَا (٨) ، وَفَوْطَةٍ قَدْ تَطَلَّسَهَا (٩) ،

- (١) نطقتني بفاضل ذيله : أى البسنى الزائد من ثوبه ، وجمله لى كالمِنْطَقَةِ .
- (٢) المعنى أن الناس كانوا فى تأويل ثرائى على قسمين ؛ قوم يقولون :
إنه استلب هذه الأموال ؛ وجماعة تقول : بل عثر على كنز ، أى مال محبوب .
- (٣) حفزنى : دفعنى بشدة وحثنى طلباً للهرب .
- (٤) لم يرضها السير : لم يذللها ، أى أن الناس لم تسكن تطرق هذه الشُّبُلِ ،
وهى كناية عن وعورة المسلك وخطورته .
- (٥) حفيت : أصابها الخلفا ، وهو رقة القدم من كثرة السير ، والرواحل :
الركائب ، واحدها راحلة ، وأكَلَتْهَا : أجهدتها وأعبتها .
- (٦) الركوة : وعاء يجمع فيه ما يُحَصِّلُهُ ، واعتصدها : أى جعلها فى عَضُدِهِ .
- (٧) اعتمدها : توكأ عليها ، يُرَى النَّاسَ أَنَّهُ ضَعِيفٌ لِيَشْفِقُوا عَلَيْهِ .
- (٨) الدنيَّةُ : القلنسوة ، وتقلَّسَهَا : لبسها .
- (٩) الفوطة : ثوب سندي ، وتطلَّسَهَا : اتخذها طيلساناً .

فَرَفَعَ عَقِيرَتَهُ وَقَالَ: اللَّهُمَّ يَا مُبْدِيَ الْأَشْيَاءِ وَمُعِيدَهَا (١)، وَنُحْيِي الْعِظَامَ
وَمُيَبِّدَهَا، وَخَالِقَ الْمَصْبَاحِ وَمُدِيرَهُ (٢)، وَفَالِقَ الْإِصْبَاحِ وَمُنِيرَهُ، وَمُوَصِّلَ
الْآلَاءِ سَابِغَةَ الْيَمِينِ (٣)، وَمُمْسِكَ السَّمَاءِ أَنْ تَقَعَ عَلَيْنَا، وَبَارِيَّ النَّسَمِ أَرْوَاجًا
وَجَاعِلَ الشَّمْسِ سِرَاجًا، وَالسَّمَاءِ سَقْفًا وَالْأَرْضِ فِرَاشًا، وَجَاعِلَ اللَّيْلِ سَكَنًا
وَالنَّهَارِ مَعَاشًا، وَمُنْشِئَ السَّحَابِ نِقَالًا، وَمُرْسِلَ الصَّوَاعِقِ نِكَالًا، وَعَالِمَ
مَا فَوْقَ السَّجُومِ، وَمَا تَحْتَ التَّخُومِ (٤)، أَسْأَلُكَ الصَّلَاةَ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ،
مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ، وَأَنْ تُعَيِّنَنِي عَلَى الْعُرْبَةِ أُنْبِي حَبْلَهَا (٥)، وَعَلَى الْمُسْرَةِ
أَعْدُو ظِلْمًا (٦)، وَأَنْ تُسَهِّلَ لِي عَلَى يَدَيَّ مَنْ فَطَرْتَهُ الْفِطْرَةَ، وَأَطْلَعْتَهُ الظُّهْرَةَ،
وَسَعِدَ بِالدِّينِ الْمُتَمِّينِ (٧)، وَلَمْ يَعَمْ عَنِ الْحَقِّ الْمُبِينِ، رَاحِلَةً تَطْوِي هَذَا
الطَّرِيقَ، وَزَادًا يَسْعُنِي وَالرَّزِيقَ.

- (١) مبدى الأشياء : خالقها أول مرة ، ومعيدها : رادها بعد الفناء إلى
مثل حالها الأول ، ومبيد العظام : مهلكها ومميتها .
- (٢) المصباح : الشمس ، ومديره : محركه .
- (٣) الآلاء : العطايا ، وهي النعم ، واحدها إلى ، وسابغة : شاملة .
- (٤) التخوم في الأصل : الحدود ، والمراد أنه سبحانه هو العالم بما تحت
الأرض السفلى ، أى بما استتر عنا .
- (٥) أى تقدرنى على العربة فأكبح جماحها ، كأنه جعلها دابة حرونا .
- (٦) المسرة : الفقر والضيقة ، وأعدو : أفاق .
- (٧) فطرته : أنشأته ، والفطرة : هنا الدين ، لحظ فيه قول الرسول
« الإسلام دين الفطرة » وقوله « كل مولود يولد على الفطرة » أى اجعل يا الله
تفريج كرتى وتيسير أمرى على يدى رجل شب على الدين الذى يأمر بالخير
وإسداء الجميل .

قال عيسى بن هشام : فَنَاجَيْتُ نَفْسِي بِأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ أَفْصَحُ مِنْ
إِسْكَندَرِ بْنِ أَبِي الْفَتْحِ ، وَالتَّقْتُ أَفْتَةً فَإِذَا هُوَ وَاللَّهُ أَبُو الْفَتْحِ ، فَقُلْتُ :
يَا أَبَا الْفَتْحِ بَلِّغْ هَذِهِ الْأَرْضَ كَيْدُكَ ، وَانْتَهَى إِلَى هَذَا الشَّعْبِ صَيْدُكَ^(١) ؟
فَأَنشَأُ يَقُولُ :

أَنَا جَوَّالَةٌ الْبِلَادِ دِ جَوَّابَةٌ الْأَفْقِ
أَنَا خُذْرُوفَةٌ الزَّمَا نِ وَعَمَّارَةٌ الطَّرِيقِ
لَا تَلْمِئْنِي لَكَ الرَّشَاءَ دُ عَلَى كُدَيْتِي وَذُقْ^(٢)

(١) أى أنك أنجذت في البلاد وأتهمت ، فلم تبقى بلدة لم تحط بها
رَحْلَكَ ، ولم تنصب فيها شباكك .

(٢) الجوّالة : صيغة مبالغة فعماها جال يجول جولا نا ، أى طاف ، فالجوّالة
هو الكثير الطواف ، والجوّابة : الذى يقطع في سيره كثيراً ؛ والخذروفة : لعبة
تتخذها الصبيان تُشَبَّه بها الخليل عند شدة عدوها وسرعة جرياتها ، ومن ذلك قول
امرئ القيس في وصف الفرس :

دَرِيرٌ كَخُذْرُوفِ الْوَالِدِ أَمْرَهُ تَتَابَعُ كَفَنِيهِ بِحَيْطٍ مُوَصَّلِ

والعمارة : الذى يعمّر الطرقات ويكثر من ذلك فلا تراها تخلو منه ، والكديبة :
سؤال الناس واستدراار أكفهم ، يقول له : إننى كثير الجولان ، فلا نعتب على .

٩ - المقامة الجزائية

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

بَيْنَا نَحْنُ بِبَجْرَجَانَ ، فِي تَجْمَعٍ لَنَا نَتَحَدَّثُ وَمَا فِيْنَا إِلَّا مَنَا^(١) ، إِذْ وَقَفَ عَلَيْنَا رَجُلٌ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْمْتَمَدِّ ، وَلَا الْقَصِيرِ الْمْتَرَدِّ^(٢) ، كَثُ الْمُشْنُونِ^(٣) ، يَتْلُوهُ صِفَارٌ ، فِي أَطَارِ^(٤) ، فَافْتَتَحَ الْكَلَامَ بِالسَّلَامِ ، وَتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ ، فَوَلَانَا جَمِيلًا ، وَأَوْلَيْنَاهُ جَزِيلًا^(٥) ، فَقَالَ : يَا قَوْمُ إِنِّي أَمْرٌ مِنْ أَهْلِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ ، مِنْ الثُّغُورِ الْأُمَوِيَّةِ^(٦) ، تَمَنَّى سُلَيْمٌ وَرَحَبْتُ بِي عَبَسَ^(٧) ، جُبْتُ الْأَفَاقَ ، وَتَقَصَّيْتُ الْعِرَاقَ^(٨) ، وَجُلْتُ الْبَدْوَ وَالْحَضَرَ ، وَدَارَى رَيْبَةً وَمُضَرَ ، مَا هُنْتُ ، حَيْثُ كُنْتُ^(٩) ، فَلَا يُزِيرُنِي بِي عِنْدَكُمْ

(١) أى ليس بيننا من نُنْكِرُه .

(٢) المتردد : البالغ نهاية القصر .

(٣) أى كثير شعر اللحية .

(٤) الأطار : جمع طمر ، وهو الثوب البالى .

(٥) أى أنه جاملنا بالتحية ، فأجبناه بأحسن منها .

(٦) الأموية : المنسوبة إلى بنى أمية ، وهذا من قبيل أنه يعنى إسكندرية

الأندلس ، لا إسكندرية مصر .

(٧) سُلَيْمٌ وَعَبَسٌ : قبيلتان من قبائل العرب ابتاعم ، ونمته : رفمته

ومجدته ، أى أنه ينتسب إليها .

(٨) أى بلغت أفضاه وأبعد مسافة فيه .

(٩) أى أننى لم أخلع ثوب العز ، ولم يكتنفي الذل ولا الهوان فى أى مكان

فَزَلْتُ بِهِ ، بل ظلت عزيز الجانب على النفس أيتها أينما ميرت وحيثما

حطت .

ما تَرَوْنَهُ مِنْ سَعَى وَأَطَارِي (١) ، فَلَقَدْ كُنَّا وَاللَّهِ مِنْ أَهْلِ نَمِّ وَرَمِّ (٢) ،
نُرْغِي لَدَى الصَّبَاحِ ، وَنُثْفِي عِنْدَ الرَّوَّاحِ (٣)

وَفِينَا مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وَجُوهُهُمْ وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفِعْلُ (٤)
عَلَى مُكْثَرِهِمْ رَزَقٌ مَنْ يَغْتَرِبُهُمْ وَعِنْدَ الْمُقْلِينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَدْلُ

نَمٌّ إِنْ الدَّهْرَ يَا قَوْمُ قَلْبِي مِنْ بَيْنِهِمْ ظَهَرَ الْمِجَنُّ (٥) ، فَاغْتَضَتْ
بِالنَّوْمِ السَّهْرَ ، وَبِالإِقَامَةِ السَّفَرَ ، تَبْرَأِي بِي الْمَرَامِي ، وَتَتَهَادَى بِي
الْمَوَامِي (٦) ، وَقَلَعْتَنِي حَوَادِثُ الزَّمَنِ قَاعَ الصَّمْفَةِ (٧) ، فَأُضِيحُ وَأُضِي

(١) يَزْرِي: أَي يَحْطُنُ مِنْ قَدْرِي ، وَالسَّمَلُ ، وَالْأَطَارُ: الثِّيَابُ الْبَالِيَةُ .

(٢) نَمٌّ وَرَمٌّ: مَعْنَاهَا الإِصْلَاحُ ، أَي أَنَا كُنَّا جَمَاعَةً نَصْلِحُ شُؤُونَ غَيْرِنَا ،

وَنَدَاوِي عِيَالَتِهِمْ ، وَنَجْرُ كَسْرِهِمْ .

(٣) أُرْغِي: أَعْطَى الرَّاغِيَةَ وَهِيَ الإِبِلُ ، وَأَثْفِي: أَعْطَى الثَّاغِيَةَ وَهِيَ الْفَنَمُ ،

وَالْمُرَادُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَجُودُونَ فِي جَمِيعِ أَوْقَاتِهِمْ بِمُخْتَلَفِ أَنْوَاعِ الْمَالِ .

(٤) الْبَيْتَانُ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سَلَى ، وَمَعْنَاهُمَا أَنَّ لَنَا أَمَكْنَةَ يَطْرُقُهَا الْعَافُونَ

فَنَمْنَحُهُمْ ، وَتَجْتَمِعُ فِيهَا لِتُدِيرُ شُؤُونََنَا ، وَأَنَّ حَقًّا عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مَنَا أَنْ يَجُودَ ، فَأَمَّا

الْمِيَّاسِيرُ فَلَسْكَلُ شَارِدٌ وَوَارِدٌ ، وَأَمَّا الْحَاوِيحُ فَلَمْ يَقْصُرْ بِهِمُ الْكُورُ طَبْعًا ، وَأَوَّلُ

الْقَصِيدَةِ قَوْلُهُ :

صَحَّاحًا الْقَلْبُ عَنْ سَلْمَى وَقَدْ كَانَ لَا يَسْلُو وَأَقْفَرٌ مِنْ سَلْمَى التَّعَانِيقُ فَالْتَقَلُّ

(٥) أَي إِنْ الدَّهْرَ أَنْكَرَنِي وَعَادَانِي ، وَلَمْ يَتْرِكْ لِي سَبْدًا وَلَا لَبْدًا ، فَأَمَّا

قَوْمِي فَهَمُّ بِحَيْثُ وَصَفْتُ : لَمْ يَنْزِلْ بِهِمْ مِثْلُ مَا نَزَلَ بِي ، وَلَمْ يَدْهَمِهِمُ الَّذِي دَهَمَنِي .

(٦) الْمَوَامِي: جَمْعُ مَوْمَاتَةٍ وَهِيَ الصَّحْرَاءُ ، وَالْمَعْنَى لَنْ كُلِّ صَحْرَاءٍ تُسَلِّفُنِي

إِلَى أَخْتِهَا فَسَكَانُهَا تَهْدِيهَا بِي .

(٧) إِذَا أَقْتَلَعْتَ الصَّمْفَةَ مِنْ شَجَرَتِهَا لَمْ يَبْقَ لَهَا أَثَرٌ ، وَهُوَ يَرِيدُ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ

عَلَيْهِ مِنْ بَهْجَةِ الثَّرَاءِ وَرُؤَاثِهِ مَسْحَةٌ .

أُنْقَى مِنَ الرَّاحَةِ وَأَعْرَى مِنْ صَفْحَةِ الْوَلِيدِ (١) ، وَأَصْبَحْتُ فَارِغَ الْفِنَاءِ ،
صِفْرَ الْإِنَاءِ ، مَالِي إِلَّا كَأَبَهُ الْأَسْفَارِ ، وَمُعَاقِرَةَ السَّفَارِ (٢) ، أَعَانِي الْفَقْرَ ،
وَأَمَانِي الْفَقْرَ ، فِرَاشِي الْمَدْرَ (٣) ، وَوَسَادِي الْحَجْرَ .

بِأَمْدِ مَرْءٍ وَبِرَأْسِ عَيْنٍ . وَأَحْيَانًا بِمِيَا فَارِقِينَا
لَيْلَةً بِالسَّامِ نُمَّتْ بِالْأَهْ . وَأَزْرَحِي وَلَيْلَةً بِالْعِرَاقِ (٤)
فَمَا زَالَتِ النَّوَى تَطْرَحُ بِي كُلَّ مَطْرَحٍ ، حَتَّى وَطِئْتُ بِلَادَ الْحَجْرِ
وَأَحَلَّتْنِي بِلَدَ هَمْدَانَ ، فَحَبَلْنِي أَحْيَاؤَهَا ، وَأَشْرَابَ إِلَى أَحْيَاؤَهَا (٥) ، وَلَكِنِّي
مِلْتُ لِإِعْظَمِهِمْ جَفَنَةً ، وَأَزْهَدِهِمْ جَفْوَةً (٦) :

لَهُ نَارٌ تُشَبُّ عَلَى يَفَاعٍ إِذَا النَّيْرَانُ أَلْبَسَتْ الْفِنَاعَا
فَوَطَّأَ لِي مَضْجَعًا ، وَمَهَّدَ لِي مَهْجَعًا (٧) ، فَإِنْ وَتَى لِي وَنِيَّةً هَبَّ لِي ابْنُ

(١) أى فقيراً جداً ليس عندي من المال إلا مثل ما في وجه الوليد أو باطن الكف من الشعر، وهو ليس بوجود، فالكلام كناية عدم وجود شيء من المال.
(٢) السَّفَارُ : جلدة توضع عند أنف البعير ليقاد منه ، أى أنه مصاحب لها دائماً ، فهي كناية عن استمرار أسفاره .

(٣) الْمَدْرُ : صغار الحصى .

(٤) مثل هذين البيتين في المعنى قول الشاعر :

يَوْمًا بِحُزْوَى ، وَيَوْمًا بِالْعَقِيقِ ، وَبِأَلِّ مُذَيَّبِ يَوْمًا ، وَيَوْمًا بِالْخَلِيصَاءِ
وكل هذه أسماء مواضع بعينها .

(٥) أَحْيَاؤَهَا : أهلها ، وَأَشْرَابٌ : تطلع ، وَأَحْيَاءٌ : جمع حبيب .

(٦) أى أكثرهم قرى للضيفان ، وأبعدهم من الغلظة والجفاء .

(٧) المراد من «وطأ - إلخ» و«مهّد - إلخ» أعدّ لي محلاً أنام فيه ،

واليفاع : ما ارتفع من الأرض ، وتشب : توقد . والمعنى : إذا بخل الناس جميعاً فإنه لا يبخل ؛ لأن ناره موقدة دائماً ولو خفيت نيرانهم .

كَأَنَّهُ سَيْفٌ يَمَانٍ^(١) ، أَوْ هِلَالٌ بَدَأَ فِي غَيْرِ قَتْمَانَ ، وَأَوْلَانِي نِعْمًا ضَاقَ
عَنْهَا قَدْرِي ، وَاتَّسَعَ بِهَا صَدْرِي ، أَوْ لَهَا فَرَشُ الدَّارِ ، وَآخِرُهَا أَلْفُ دِينَارٍ ،
فَمَا طَيَّرْتَنِي إِلَّا الذُّعْمُ حَيْثُ تَوَالَّت^(٢) ، وَالذِّيمُ لَمَّا أَنْثَأَتْ^(٣) ، فَطَلَعْتُ
مِنْ هَمْدَانَ طُلُوعَ الشَّارِدِ ، وَتَفَرَّتُ نِفَارَ الْآيِدِ ، أَفْرِي الْمَسَالِكِ ، وَأَقْتَفِرُ
الْمَمَالِكِ ، وَأَعَانِي الْمَمَالِكُ^(٤) ، عَلَى أَنِّي خَلَّيْتُ أُمَّ مَثْوَايَ وَرَزْغُولًا لِي^(٥) .
كَأَنَّهُ دُمْلُجٌ مِنْ فِضَّةٍ نَبَهُ فِي مَلْعَبٍ مِنْ عَذَارَى الْحَيِّ مَفْصُومٍ^(٦)

(١) وَنَى : فَتَرَ ، أَى : إِذَا فَتَرْتَ هَمَّتْ لِحِظَةً أَسْرَعَ ابْنُ يَشْبَةَ السَّيْفِ فِي
مَضَاهِةٍ وَسُرْعَةٍ نَفَاذَةٍ .

(٢) أَى : مَا جَمَعَنِي أَتَرَكَ ذَلِكَ النِّعْمِ إِلَّا الْحَيَاءُ مِنْ تَتَابِعِ الْكِرَامَةِ
وَتَرَادِفِ النِّعْمَةِ .

(٣) الذِّيمُ : جَمْعُ ذِيمَةٍ ، وَأَصْلُ مَعْنَاهَا الْمَطَرُ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ ، وَأَرَادَ الْمَطَايَا
السَّكِينَةَ .

(٤) الشَّارِدُ : النَّافِرُ ، وَأَفْرِي : أَقْطَعُ ، وَالْمَسَالِكُ : الطَّرِيقُ ، وَأَقْتَفِرُ :
أَقْتَفِي ، أَى أَتْبِعُهَا كَأَنَّهَا دَلِيلِي ، وَمَعَانَاةُ الْمَمَالِكِ : اسْتِعْمَابُ مَا يَجِدُهُ مِنَ الْمَشَقَّةِ
فِي التَّجْوَالِ بِهَا .

(٥) الْمَثْوَى : الْإِقَامَةُ ، وَكُنِيَ بِأُمِّ مَثْوَاهِ عَنْ زَوْجِهِ ، لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي مِنْ
شَأْنِهَا أَنْ تَحْمَلَ الرَّجُلَ عَلَى الْبَقَاءِ بِدَارِهِ ، وَأَرَادَ بِرَزْغُولِهِ وَلَدَهُ .

(٦) الدُّمْلُجُ : حَلِيَّةٌ تَلْبَسُهَا الْمَرْأَةُ فِي مَعْصَمِهَا ، وَالنَّبِيَّةُ : النِّفْيَسُ ، وَمَفْصُومٌ :
مَكْسُورٌ مِنْ غَيْرِ أَنْفِصَالٍ ، وَالْمَعْنَى أَنَّ هَذَا الطِّفْلَ الَّذِي تَرَكَتَهُ يَشْبَهُ فِي جَمَالِهِ
وَحُسْنِهِ الدَّمْلَجَ النَّفِيسَ الْمَتَّخِذَ مِنَ الْفِضَّةِ ، وَاسْكَنَهُ لِنَفْيِ عَنِهِ وَعَدَمِ قِيَامِي عَلَيْهِ
مَنْصَدَعِ الْقَلْبِ مَكْسُورِ الْفَوَادِ ، لِأَنَّهُ لَا يَجِدُ مِنْ يَرْعَاهُ وَيَحْنُو عَلَيْهِ وَيَحْوِطُهُ بِالْعُنَايَةِ
وَطَوْلِ النَّظَرِ فِي شُؤْنِهِ وَتَفَقُّدِ أَحْوَالِهِ .

وَقَدْ هَبَّتْ بِي إِلَيْكُمْ رِيحُ الْأَحْتِيَا حِ ، وَنَسِمُ الْإِلْفَا حِ (١) ، فَانظُرُوا
رَحِمَكُمُ اللَّهُ لِنَقْضٍ مِّنَ الْأَنْقَاضِ مَهْزُولٍ (٢) ، هَدَّتَهُ الْحَاجَّةُ ، وَكَدَّتَهُ
الْفَاقَةُ :

أَحَاسِرٌ ، جَوَابَ أَرْضٍ ، تَقَادَفَتْ بِهِيَ فَلَواتٌ ؛ فَهِيَ أَشَعْتُ أَغْبِرُ
جَعَلَ اللَّهُ لِلْخَيْرِ عَلَيْكُمْ دَلِيلًا ، وَلَا جَعَلَ لِلشَّرِّ إِلَيْكُمْ سَبِيلًا .
قالَ عيسى بنُ هشامٍ : فَرَقَّتْ وَاللَّهِ لَهُ الْقُلُوبُ ، وَأَعْرَوزَرَقَتْ لِلطُّفِ
كَلَامِهِ الْعَيُونُ (٣) ، وَنُلْنَاهُ مَا تَاحَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ (٤) ، وَأَعْرَضَ عَنَّا حَامِدًا
لَنَا ، فَتَدَمَّتُهُ ، فَإِذَا هُوَ وَاللَّهِ شَيْخُنَا أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيُّ .

(١) الإلفاح : الاحتياج إلى غير الأهل .

(٢) النقض - بكسر النون وسكون القاف - أصله المنقوض من الغزل
والبناء ونحوهما ، والمراد به ههنا المهزول من إيمان السفر وتتابع السير والانتقال
من بلد إلى بلد ، يريد أنه قد أنهكه التعب وهدده الجولان ، ومعنى « هَدَّتَهُ
الحاجة » دلته على الذين يدفعون عنه شرها وكيدها ، وأراد بقوله « كدته
الفاقة » أن الفقر أتعبه ، والإملاق أنصب بدنه ، ويروى : « هَدَّتَهُ » ويروى أيضاً
« حَدَّتَهُ » أى ساقته .

(٣) أى أن القلوب عطفت عليه ، والعيون بكت حزناً له .

(٤) نُلْنَاهُ : أعطيناه ، وتاح : تهيأ ، أى أعطيناه ما تهيأ لنا حين كان .

١٠ - المَقَامَةُ الْأَصْفَهَانِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :
 كُنْتُ بِأَصْفَهَانَ ^(١) ، اُعْتَزِمُ الْمَسِيرَ إِلَى الرَّيِّ ^(٢) ، فَحَلَلْتُهَا حُلُولَ
 النَّوِيِّ ^(٣) ، أَتَوَقَّعُ الْقَافِلَةَ كُلَّ لَمَحَةٍ ، وَأَتَرَقَّبُ الرَّاحِلَةَ كُلَّ صَبْحَةٍ ^(٤) ، فَلَمَّا
 حَمَّ مَا تَوَقَّعْتُهُ ، نُودِيَ لِلصَّلَاةِ نِدَاءً سَمِعْتُهُ ^(٥) ، وَتَمَيَّنَ فَرَضُ الْإِجَابَةِ ،
 فَانْسَلَّتْ مِنْ بَيْنِ الصَّحَابَةِ ، اُعْتَمِمُ الْجَمَاعَةَ أُذْرِكُهَا ، وَأَخْشَى قُوَّةَ الْقَافِلَةِ
 أَتْرُكُهَا ، لِكَيْ اسْتَعْنَتْ بِبَرَكَاتِ الصَّلَاةِ ، عَلَى وَعْتَاءِ الْفَلَاةِ ^(٦) ، فَصِرْتُ
 إِلَى أَوَّلِ الصُّنُوفِ ، وَمَثَّاتُ لِلْوُقُوفِ ، وَتَقَدَّمَ الْإِمَامُ إِلَى الْمِحْرَابِ ، فَقَرَأَ
 فَاتِحَةَ الْكِتَابِ ، بِقِرَاءَةِ حَمْزَةٍ ، مَدَّةً وَهَمْزَةً ^(٧) ، وَبِالْقَمِّ الْمَقِيمِ الْمُتَعَدِّ

(١) أصفهان : إحدى مدن إيران العظيمة ، ظلت قاعدة ملكها قبل
 طهران أمداً طويلاً ، ويقال فيها « أصبهان » أيضاً .

(٢) اعتزم : أنوى ، والري : مدينة من مدن إيران أيضاً .

(٣) النوي : هو النوى ، وهو الظل ، ولما كان سريعاً للتفعل لا يثبت متى
 تحولت الشمس ، شبه نفسه به .

(٤) القافلة : الجماعة تتألف في السفر وتعاون على شقته بالصحبة ، والراحلة
 بهذا المعنى عينه ، واللامحة : اللحظة ، والصبحة : وقت الصبح ، وأراد عموم الأوقات .

(٥) حم - بالبناء للمجهول - : قُضِيَ وَقُدِّرَ ، والمعنى أنني لم أزل أنتظر جماعة
 الظاعنين لأسير معهم ، حتى إذا تهيأ لي السفر سمعت النداء للصلاة ، فلم يكن لي
 بُدٌّ من شهودها .

(٦) وَعْتَاءُ : مشقة ، والفلانة : الصحراء .

(٧) حمزة : أحد القراء ، وأراد أن الإمام كان يطيل في القراءة ويدبها
 صوته فيأخذ وقتاً طويلاً لا فيشتغل بالي وتمتري بنى المهموم والخوف من أن تسافر القافلة .

فِي فَوْتِ الْقَافِلَةِ ، وَالْبُعْدِ عَنِ الرَّاحِلَةِ ، وَأَتَمَّعَ الْفَاحِشَةَ الْوَاقِعَةَ ، وَأَنَا أَنْصَلِي نَارَ
 الصَّبْرِ وَأَتَصَلِّبُ^(١) ، وَأَتَقَلَّى عَلَى بَحْرِ الْغَيْظِ وَأَتَقَلِّبُ^(٢) ، وَلَيْسَ إِلَّا السُّكُوتُ
 وَالصَّبْرُ ، أَوْ الْكَلَامُ وَالْقَبْرُ ؛ لِمَا عَرَفْتُ مِنْ خُشُوعِ الْقَوْمِ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ ،
 أَنْ لَوْ قُطِعَتِ الصَّلَاةُ دُونَ السَّلَامِ ، فَوَقَفْتُ بِقَدَمِ الضَّرُورَةِ ، عَلَى تِلْكَ الصُّورَةِ
 إِلَى أَنْتِهَاءِ الشُّورَةِ^(٣) ، وَقَدْ قَنَطْتُ مِنَ الْقَافِلَةِ ، وَأَيْسْتُ مِنَ الرَّحْلِ وَالرَّاحِلَةِ ،
 ثُمَّ حَتَّى قَوَسَهُ لِلرُّكُوعِ ، بِنُوعٍ مِنَ الْخُشُوعِ ، وَضَرَبَ مِنَ الْخُضُوعِ ،
 لَمْ أَعْهَدُهُ مِنْ قَبْلُ^(٤) ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَيَدَهُ ، وَقَالَ : سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ ،
 وَقَامَ ، حَتَّى مَا شَكَّكَتُ أَنَّهُ قَدْ نَامَ^(٥) ، ثُمَّ ضَرَبَ بِيَمِينِهِ ، وَأَكَبَّ
 لَجَبِينِهِ ، ثُمَّ أَنْكَبَ لَوَجْهِهِ^(٦) ، وَرَفَعْتُ رَأْسِي أَتَهَيَّرُ فُرْصَةً ، فَلَمْ أَرَبِّينَ
 الصُّفُوفِ فُرْجَةً^(٧) ، فَعَدْتُ إِلَى السُّجُودِ ، حَتَّى كَبَّرَ لِلْقُعُودِ ، وَقَامَ إِلَى الرَّكْعَةِ

(١) صَلَّى اللّٰحْمَ بِصَلِيهِ صَلِيًا ، وَأَصْلَاهُ ، وَصَلَاةً - بِالْتَضْعِيفِ - : شَوَاهُ ،
 وَتَصَلَّى النَّارَ : اصْطِلَاحًا وَأَنْشَأَ بِهَا ، وَتَصَلَّبَ : تَقَوَّى وَتَشَدَّدَ .

(٢) قَلَى اللّٰحْمَ : أَنْضَجَهُ فِي الْمَقَلَى ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ كَانَ شَدِيدَ التَّأْدِي مِنْ تَطْوِيلِ
 الْإِمَامِ الَّذِي يَفُوتُ عَلَيْهِ مَصَاحِبَةُ الْقَافِلَةِ .

(٣) أَيْ أَنِّي عَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ لِي إِلَّا إِحْدَى الْخَلْتَيْنِ ، فَإِنَّمَا أَنْ أَصْبِرُ
 فَتَفُوتَنِي الرَّفْقَةُ ، وَإِنَّمَا أَنْ أَسْتَعِجَلَ بِالْخُرُوجِ مِنَ الصَّلَاةِ لِذَرَكِهِمْ فَيَنْقُضُ الْقَوْمُ
 عَلَى مَتَحَرِّجِينَ مِنْ خُرُوجِي ، فَالْتَزَمْتُ السُّكُوتَ عَلَى مَضْضٍ .

(٤) حَتَّى : عَطْفٌ وَثْنِي ، وَأَرَادَ بِالْقَوْسِ ظَهْرَهُ .

(٥) أَيْ : أَنَّهُ أَطَالَ فِي قِيَامِهِ حَتَّى اعْتَقَدْتُ أَنَّ النَّوْمَ قَدْ أَخَذَهُ .

(٦) ضَرَبَ بِيَمِينِهِ : أَهْوَى بِهَا إِلَى الْأَرْضِ لِيَتَمَدَّ عَلَيْهَا فِي سَجُودِهِ ،
 وَأَكَبَّ لَجَبِينِهِ : سَقَطَ فِي السُّجُودِ مَائِلًا إِلَى أَحْدَشَقِيهِ ، وَقَوْلُهُ « أَنْكَبَ لَوَجْهِهِ » مَعْنَاهُ
 اعْتَدَلَ فِي سَجُودِهِ ، وَوَجَّهَهُ نَحْوَ الْأَرْضِ وَجْهَهُ ، لِأَنَّ الْجُمْلَةَ الْأُولَى تَعْطَى أَنَّهُ كَانَ مَنْحَرَفًا .

(٧) أَيْ أَنَّهُ لَمَّا ضَاقَ صَدْرُهُ عَيَّتْ بِهِ الْحِيلَةُ ، فَأَرَادَ أَنْ يَتَهَيَّرَ فُرْصَةً سَجُودَ

لِلْقَوْمِ لِيَهْرَبَ ، فَنَظَرَ حَوْلَيْهِ وَخَلْفَهُ فَلَمْ يَجِدْ طَرِيقًا لِلْخُلَاصِ .

الثَّانِيَةِ ، فَقَرَأَ الْفَاتِحَةَ وَالْقَارِعَةَ ، فَرَأَتْهُ أَسْتَوْفِي بِهَا عُمَرَ السَّاعَةَ ، وَاسْتَمْتَزَفَ
أَرْوَاحَ الْجَمَاعَةِ (١) ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ رَكْعَتَيْهِ ، وَأَقْبَلَ عَلَى التَّشَهُّدِ بِلَحْيَيْهِ ،
وَمَالَ إِلَى التَّحِيّيفِ بِأَخْذِ عَيْهِ ، وَقُلْتُ : قَدْ سَهَّلَ اللَّهُ الْمَخْرَجَ ، وَقَرَّبَ الْفَرَجَ ،
فَأَمَ رَجُلٌ وَقَالَ : مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُحِبُّ الصَّحَابَةَ وَالْجَمَاعَةَ ، فَلْيَمِرْ نِي سَمْعَهُ
سَاعَةً .

قال عيسى بن هشام : فلزمت أروصي ، صيانة ليرصى (٢) ، فقال :
حقيقٌ عليّ أن لا أقول غير الحقّ ، ولا أشهد إلا بالصدق ، قد جئتكم
ببشارة من نبيكم ، لكنني لا أودّيها حتى يطهر الله هذا المسجد من
كلّ نذليّ يخذل نبوءته (٣) .

قال عيسى بن هشام : فربطني بالقيود ، وشدني بالحبال السود (٤) ،
ثم قال : رأيتُه صلى الله عليه وسلم في المنام ، كالشمس تحت الغمام ،
والبدر ليل التمام (٥) ، يسير والنجوم تتبعه (٦) ، وبسحب الدليل

(١) يريد أن إطالة الإمام في صلاته تجاوزت الحد ، وبلغت أقصى
درجاتها ، حتى إنه لتعتبر مسافة صلاته بالأمد الذي بيننا وبين قيام الساعة .

(٢) ولو أنه خرج بعد تلك المقالة لمزقوا عرضه ، واتهكوا ستره .

(٣) حقيقٌ عليّ كخليفة في معناها حتمٌ عليّ ، وواجب ألا يكون كذا مثلاً .

(٤) الحبال السود : السلاسل المتخذة من الحديد ، وأمى أمرى يستطيع

أن يغادر مكانه في مثل هذا الظرف ، فيسجل على نفسه النذالة ، ولؤم الطبع ،
وخسة النفس ، ويرضى بنكران النبوة ويخذ الرسالة ؟

(٥) إذا كانت الشمس محتجبة بالغمام كان نورها ساطعاً ولم يفرق البصر ،

فلمل هذا وجه التقييد في تشبيه النبي عليه السلام بها .

(٦) لعله أراد بالنجوم جماعة أصحابه صلى الله عليه وسلم ، أخذاً من قوله عليه

الصلاة والسلام « أصحابي كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

وَالْمَلَائِكَةُ تَرْفَعُهُ ، ثُمَّ عَلَّمَنِي دُعَاءَ أَوْصَانِي أَنْ أَعْلَمَ ذَلِكَ أُمَّتَهُ ، فَكَتَبْتُهُ
عَلَيَّ هَذِهِ الْأُورَاقَ بِخُلُقٍ وَمِسْكِ ، وَزَعْفَرَانٍ وَسُكِّ (١) ، فَمَنْ اسْتَوْهَبَهُ مِنِّي
وَهَبْتُهُ (٢) ، وَمَنْ رَدَّ عَلَيَّ نَمَنَ الْقِرْطَاسِ أَخَذْتُهُ .

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : فَلَقَدِ انْتَالَتْ عَلَيْهِ الدَّرَاهِمُ حَتَّى حَيْرَتْهُ (٣) ،
وَخَرَجَ فَتَبِعْتُهُ مُتَعَجِّبًا مِنْ حَذْفِهِ زَرْقَهُ (٤) ، وَتَمَحُّلِ رِزْقِهِ ، وَهَمَّتْ بِمَسْأَلَتِهِ
عَنْ حَالِهِ فَأَمْسَكَتُ ، وَبِمَسْأَلَتِهِ فَسَكَتُ (٥) ، وَتَأَمَّلْتُ فَصَاحْتُهُ فِي
وَقَاحَتِهِ (٦) ، وَمَلَّاحَتُهُ فِي اسْتِبَاحَتِهِ (٧) ، وَرَبَطَهُ النَّاسَ بِحِيلَتِهِ (٨) ، وَأَخَذَهُ

(١) الخلق والخلق - بوزني صبور وكتاب - نوع من الطيب صناعي ،
والسك - بالضم - ضرب من الطيب كذلك .

(٢) أي من طلب مني أن أهبه له فأعطيه إياه بغير عوض فملت .

(٣) أي أن الناس طفقوا يلقون إليه بالدرهم من كل جهة ، حتى احتار في
أمره ، ولم يدر أين يتجه ليأخذها .

(٤) أصلُ الزَّرْقِ رَمَى الصَّائِدِ صَيْدَهُ بِالْمِزْرَاقِ ، وَأَرَادَ هُنَا حَيَاتَهُ الَّتِي
رَمَى بِهَا النَّاسَ لِاصْطِيَادِ دَرَاهِمِهِمْ .

(٥) أي أنه أراد أن يسأله عن أمره ويطلب منه كشف القناع عن حقيقة
حاله ، ولكنه رأى خيراً به ألا يفعل .

(٦) الوقاحة : سوء الأدب وقلة الحياء ، وأراد أنه خرج كثيراً عن حدود
الآداب في كلامه ، ولم يراع الحياء في مقاله ، فلرب معذور كعيسى ألزمه ترك شؤونه
ورب عَجَلَانٌ مثله قيده عن السعي إلى صالحه .

(٧) استباح : طلب العطاء ، وأصله مأخوذ من « مَاحَ يَمِيجُ » إِذَا كَانَ
عِنْدَ الْمَاءِ لَسْكَي يَمَلَأُ الدَّلَاءَ مِنَ الْبَيْتِ ، قَالَ الرَّاجِزُ :

يَأْيُهَا الْمَاحُجُ دَلْوِي دُونَكَ إِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ يَحْمَدُونَكَ
(٨) لم نجد أغرب من حيلة أبي الفتح هذه ، وكيف لا وهي التي فوّتت

عيسى طلبته ، وأخرته عن قضاء لُبَّانته ؟

المال بوسيلته ، ونظرتُ فإذا هو أبو الفتح الإسكندريُّ ، فقلتُ :
كيف أهدتِ إلى هذه الحيلة ؟ فتبسّمَ وأنشأ يقول :

الناسُ مُخَرَّبَةٌ فَجَوَّزَ وَأَبْرَزَ عَلَيْهِمْ وَبَرَّزَ (١)
حَتَّى إِذَا نِلْتَ مِنْهُمْ مَا تَشْتَهِيهِ فَرَّوَزَ (٢)

(١) مُخَرَّبَةٌ: جمع حمار ، وهو معروف ، وأصل الجمع مُخَرَّبٌ بضم الحاء وفتح الميم جميعاً ، ولكنه سكن الميم تخفيفاً ، وجَوَّزَ : معناه قُدَّ ، وَبَرَّزَ فلان فلاناً - مضعفاً - تفوق عليه ، وَبَرَّزَ بالتخفيف : ظهر ، والمعنى إن هؤلاء الناس الذين ترام يشبهون الحمار في الجهالة والحق ، فقدّم حيث نشاء ، وسرّبهم أنى أردت ، وأظهر عليهم ، وأنبئه بينهم .

(٢) فَرَّوَزَ معناه : مات ، أى لا تقصّر في رفعة شأنك وظهورك على الناس حتى تنال أمانيك وتبلغ آمالك ، فإذا انتهت أغراضك فقارهم ولو بالموت .
(• - شرح مقامات البديع)

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

كُنْتُ بِالْأَهْوَازِ (١) ، فِي رُفْقَةٍ مَتَى مَا تَرَقَّ الْعَيْنُ فِيهِمْ تَسَهَّلَ (٢) ، لَيْسَ
فِيهَا إِلَّا أَمْرٌ دُ بَكَرُ الْأَمَالِ ، أَوْ مُخْتَطٌّ حَسَنُ الْإِقْبَالِ ، مَرْجُوُّ الْأَيَّامِ
وَاللَّيَالِ (٣) ، فَأَفْضُنَا فِي الْعِشْرَةِ كَيْفَ نَضَعُ قَوَاعِدَهَا ، وَالْأَخْوَةَ كَيْفَ
نُحْكِمُ مَعَاقِدَهَا ، وَالشُّرُورَ فِي أُمَّيِّ وَقْتٍ نَتَقَاضَاهُ ، وَالشَّرْبَ فِي أُمَّيِّ وَقْتٍ
نَتَعَاطَاهُ ، وَالْأَنْسَ كَيْفَ نَتَهَادَاهُ ، وَقَائِتِ الْخَطِّ كَيْفَ نَتَلَقَاهُ ، وَالشَّرَابَ
مِنْ أَيْنٍ مُخَصَّلُهُ ، وَالْمَجْلِسَ كَيْفَ نُزِينُهُ (٤) . فَقَالَ أَحَدُنَا : عَلَى الْبَيْتِ

(١) الأهواز : بلد بين البصرة وفارس ، تشمل تسع كُورٍ ، لكل كُورَةٍ

منها اسم يخصها ، وهي تجمهين ، وهن : رامهرمز ، وعسكر مكرم ، وتستر ،
وجند بسابور ، وسوس ، وسرق ، ونهر تيرى ، وأيدج ، ومناذر .

(٢) تقدم شرح هذه الفقرة ، وهي شطر بيت لامرئ القيس أوله :

وَرُحْنَا يَكَادُ الظَّرْفُ يَقْضِرُ دُونَهُ مَتَى مَا تَرَقَّ الْعَيْنُ فِيهِ تَسَهَّلِ

ويروى بدل تسهل « تَسَفَّلَ » وهذه الرواية تساعدنا على المعنى الذي

أخترناه هناك ، والمعنى متى نظرت العين لأعلاه نظرت إلى أسفل ، وذلك يحتمل
وجهين ، الأول أن أعلاه يروق العين ويستهوئها وأسفله كذلك ، فإذا نظرت
العين أعلاه شاقها أن تنظر إلى أسفله ، والثاني أن أعلاه يبهر العين بهراً شديداً ،
فإذا نظرت إليه خافت أن تحسده فأغضت إلى أسفل كي لا تؤثر فيه .

(٣) يريد أن أفراد هذه الجماعة كلهم كانوا من الأحداث صفار السن ؛

فإما أمر لم يثبت عذاره ، وإما فتى خط شاربه ، ولكنه لا يزال غضا فتى القوة
مفتول الساعد ، نافعا في الكروب ، مأمولا عند الشدائد .

(٤) أى أنهم أرادوا أن ينظموا أوقات سمرهم ، ويُعيّنوا ساعات لهوهم ،

ويضعوا نموذج الصداقة والمواخاة ، بحيث تكون أعمالهم جارية على مقتضاه .

وَالنُّزْلُ^(١) ، وَقَالَ آخَرُ : عَلَى الشَّرَابِ وَالنَّقْلِ^(٢) ، وَمَا أَجْمَعْنَا عَلَى الْمَسِيرِ
 اسْتَقْبَلْنَا رَجُلًا فِي طَيْرَيْنِ فِي يُمْنَاهُ عُمَاةٌ ، وَعَلَى كِتْفَيْهِ جَفَاةٌ^(٣) ،
 فَطَيْرِنَا لَمَّا رَأَيْنَا الْجِنَاةَ وَأَعْرَضْنَا عَنْهَا صَفْحًا ، وَطَوَيْنَا دُونَهَا كَشْحًا^(٤) ،
 فَصَاحَ بِنَا صَيِّحَةً كَادَتْ لَهَا الْأَرْضُ تَنْفِطِرُ ، وَالنُّجُومُ تَنْكَدِرُ^(٥) ، وَقَالَ :
 لَتَرُونَهَا صُفْرًا ، وَلَتَرَنَّ كَبَيْبَهَا كَرْمًا وَقَسْرًا^(٦) ، مَا لَكُمْ تَطِيرُونَ مِنْ مَطِيئَةٍ
 رَبَّكُمَا أَسْلَافَكُمْ ، وَسَيَرَّ كَبَيْبَهَا أَخْلَافَكُمْ^(٧) ، وَتَنْتَقِدُونَ مَسِيرًا وَطَائِفَةً
 آبَاؤَكُمْ ، وَسَيِّطُوهُ أَبْنَاؤُكُمْ ، أَمَا وَاللَّهِ لَتُحْمَلَنَّ عَلَى هَذِهِ الْعِيدَانِ ، إِلَى

- (١) النزول - بوزن قفل ، وبضمتين - للنزل ، أو المكان التهيء للضيافة .
 (٢) النقل - بفتح أوله ، وقد يضم أوله ، وقيل : الضم فيه خطأ ، وثانيه ساكن - ما يتخذه جماعة الشاربين لينتقلوا من الشراب إليه وبالعكس .
 (٣) طمرين : ثوبين خَلَقَيْنِ ، والمكازة : العصا الغليظة يكون في آخرها زُجٌّ ، والجنابة - بكسر أوله - النعش والميت معا ، وبالفتح : السرير خاصة ، وبهما الميت وحده ، والنعش : الخشبة ، ولا يقال له سرير حتى يكون فيه الميت .
 (٤) تطيرنا : تشاءمنا ، وطوينا دونها كَشْحًا : أى انحرفنا عنها ، ولم تمل نفوسنا إليها ، ونَرْنَا منها .

- (٥) فَطَرَهُ يَفْطِرُهُ وَيَفْطُرُهُ - من باب ضرب ونصر - شَقَّهُ ، وانفطر : انشقَّ ، وانكدرت النجوم : تناثرت ، والمراد شدة الصيحة ، وقوة فعلها فيهم .
 (٦) الصفر - يضم أوله - مصدر صَفُرَ كَكْرَمَ ، ومثله الصَّغَرُ كَعَنَبَ ، والصَّغَارُ والصَّغَارَةُ - بفتحهما - والصُّفْرَانُ بالضم ، ومعناه : الذلة والهوان ، والقَهْرُ والقَسْرُ بمعنى .

- (٧) تطيرون : أى تشاءمون ، وأصلها تَطَّيْرُونَ ، ويجوز فيها وجهان : الأول أن تحذف إحدى التامين ، والثانى أن تقلب الثانية طاء وتدغمها في الطاء ، والأسلاف : الآباء ومن في حكمهم ، والأخلاف : الأبناء ومن شابههم .

تَلِكُمْ أَلْدِيدَانِ ، وَلَتَتَقَنَّ بِهَذِهِ الْجِيَادِ ، إِلَى تَلِكُمُ الْوَهَادِ (١) ، وَنَحْمُكُمْ
تَطِيرُونَ ، كَأَنَّكُمْ مَحْيِرُونَ ، وَتَتَكْرَهُونَ ، كَأَنَّكُمْ مُنْزَهُونَ ، هَلْ تَنْفَعُ
هَذِهِ الطَّيْرَةَ ، يَا فَجْرَةَ ؟

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : فَلَقَدْ نَفَضَ مَا كُنَّا عَقْدَانَاهُ ، وَأَبْطَلَ مَا كُنَّا
أَرْدَانَاهُ (٢) ، فَمَلْنَا إِلَيْهِ وَقَلْنَا لَهُ : مَا أَحْوَجَنَا إِلَى وَعْظِكَ ، وَأَعْشَقْنَا لَلْفُظِّكَ ،
وَلَوْ شِئْتَ ، لَزِدْتِ ، قَالَ : إِنْ وَرَاءَكُمْ مَوَارِدٌ أَنْتُمْ وَارِدُوهَا ، وَقَدْ سِرْتُمْ
إِلَيْهَا عِشْرِينَ حِجَّةً :

وَإِنْ أَمْرًا قَدْ سَارَ عِشْرِينَ حِجَّةً إِلَى مَنَهَلٍ مِنْ وَرْدِهِ لَقَرِيبٍ (٣)
وَمِنْ فَوْقِكُمْ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ ، وَلَوْ شَاءَ لَكُنْتَ أَشْتَارَكُمْ ،
يُعَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا بِحَيْلِهِ ، وَيَقْضِي عَلَيْكُمْ فِي الْآخِرَةِ بِعِلْمِهِ (٤) ، فَتَيْسِكُنِ

(١) تتقدرون : تجدون قذرا وتشمئزون منه ، ووطئه : ركيه وجلس عليه ،
والعيدان والأعواد : النمش ، قال بعض الشعراء :
أَرَأَيْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ ؟ أَرَأَيْتَ كَيْفَ خَبَا ضِيَاءُ النَّادِي ؟
والوهاد : جمع وهدة ، وهي ما اطمان من الأرض وانخفض ، وأراد بها
المقابر لانخفاضها عادة .

(٢) أى أنه حل بعقله وزجره الذى كنا اتفقا عليه من حضور مجالس اللهو
(٣) موارد : جمع مؤرد ، وهو مكان الورد ، وأراد بها الموت وما يتبعه ،
وأنكم سائرون فى طريقكم إليها ؛ لأن الدنيا مجاز الآخرة ، وقطعتم فى سيركم
عشرين سنة هى مقدار أعماركم .

(٤) أى أن الله لا يخفى عليه شئ مما تكتُمونه الناس ، وهو لو شاء لفضح
أمركم ، وأفضى سركم ، وأذاع حديثكم ، فعرفه الصادر والوارد ، ولكنه يحلم
عليكم فى الدنيا مع علمه بما تفعلون ، وسيحاسبكم فى الآخرة بمقتضى هذا العلم .

اللَّوْتُ مِنْكُمْ عَلَى ذُكْرٍ ، لِئَلَّا تَأْتُوا بِنُكْرٍ ، فَإِنَّكُمْ إِذَا اسْتَشْمَرْتُمْ مَوَهُ
 لَمْ تَجْمَحُوا ، وَمَتَى ذُكْرْتُمْ مَوَهُ لَمْ تَمْرَحُوا^(١) ، وَإِنْ نَسِيتُمْ مَوَهُ فَهُوَ ذَاكِرُكُمْ ،
 وَإِنْ نِمْتُمْ عَنْهُ فَهُوَ نَائِرُكُمْ ، وَإِنْ كَرِهْتُمْ مَوَهُ فَهُوَ زَائِرُكُمْ ، قُلْنَا :
 فَأَحَابَتُكَ ؟ قَالَ : أَطْوَلُ مِنْ أَنْ تُحَدَّ ، وَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُعَدَّ ، قُلْنَا : فَسَافِحُ
 الْوَقْتِ^(٢) ، قَالَ : رَدُّ قَائِمِ الْعُمْرِ ، وَدَفْعُ نَازِلِ الْأَمْرِ^(٣) ، قُلْنَا : لَيْسَ ذَلِكَ
 إِلَيْنَا ، وَلَكِنْ مَا شِدَّتْ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا^(٤) ، قَالَ : لَا حَاجَةَ لِي فِيهَا ،
 وَإِنَّمَا حَاجَتِي بَعْدَ هَذَا أَنْ تَخِدُوا أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَعُوا^(٥) .

(١) جَمَحَ : نَفَرَ ، وَمَرَحَ : اشْتَدَّ فَرَحُهُ ، وَالْمَعْنَى إِنْكُمْ إِذَا جَمَعْتُمْ لِلْوَتِ
 نَصَبَ أَعْيُنِكُمْ وَلَمْ تَفْعَلُوا عَنْهُ لَمْ تَفْرُوا مِنَ الطَّاعَةِ ، وَلَمْ تَفْرَحُوا بِلَذَّةِ عَاجِلَةٍ تَتَّبِعُهَا
 عَقُوبَةٌ بَاقِيَةٌ دَائِمَةٌ ؛ لِأَنَّ مِنْ يَتَذَكَّرُ لِلْوَتِ لَا يَنْسِي مَا بَعْدَهُ مِنْ أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ
 وَوَشَادَتُهَا .

(٢) أَى إِذْ كَرَلْنَا مَا يَسْمَحُ لَكَ بِهَ الْوَقْتِ ، وَلَا تَحْرَمْنَا لَذَّةَ الْإِنصَاتِ لَكَ .

(٣) يَتَمَنَّى عَلَيْهِمْ أَنْ يَمِيدُوا إِلَيْهِ مَا فَاتَ مِنْ عَمْرِهِ ، وَأَنْ يَدْفَعُوا عَنْهُ السَّكَوَارِثَ

الَّتِي تَنْزِلُ بِهِ .

(٤) أَحَابُوهُ بِأَنَّهُ لَيْسَ فِي اسْتِطَاعَتِهِمْ أَنْ يَنْبَلُوهُ رَغْبَتَهُ هَذِهِ أَوْ يَحْقُقُوا لَهُ

أَمْنِيَّتَهُ ، وَلَكِنَّهُمْ عَلَى اسْتِعْدَادٍ أَنْ يَطْوَهُ مِنَ الْمَادَّةِ مَا شَاءَ .

(٥) وَخَدَّ يَخْدُ وَخَدَا : أَسْرَعَ فِي مَشْيِهِ ، وَوَعَى يَعَى : فِطَنَ وَحَفِظَ ، وَالرَّادُ

أَنَّهُ يَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يَجِدُوا السَّيْرَ فِي الْعَمَلِ ؛ لِأَنَّهُ خَيْرُ لِمَنْ مِنْ حَفِظَ مَا يَقُولُهُ دُونَ

أَنْ يَمْلُوكَ بِهِ ؛ فَإِنَّ الْعَمَلَ بِغَيْرِ عَمَلٍ يَشْبَهُ الشَّجَرَةَ الَّتِي لَا ثَمْرَةَ لَهَا .

١٢ - المَقَامَةُ البَغْدَادِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :
 اشْتَهَيْتُ الْأَزَادَ (١) ، وَأَنَا بَبْغَدَادَ ، وَلَيْسَ مَعِيَ عَقْدٌ ، عَلَى نَقْدٍ (٢) ،
 فَخَرَجْتُ أَنْتَهَزُ مَحَالَهُ حَتَّى أَحْلَنِي الْكَرْخَ (٣) ، فَإِذَا أَنَا بِسَوَادِي يَسُوقُ
 بِالْجَهْدِ حِمَارَهُ (٤) ، وَيُطَرِّفُ بِالْعَقْدِ إِزَارَهُ ، فَقُلْتُ : ظَفِرْنَا وَاللَّهِ بِصَيْدِي ،
 وَحَيَّاكَ اللَّهُ أَبَا زَيْدٍ ، مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ وَأَيْنَ نَزَلْتَ ؟ وَمَتَى وَافَيْتَ ؟ وَهَلُمَّ
 إِلَى الْبَيْتِ (٥) ، فَقَالَ السَّوَادِيُّ : لَسْتُ بِأَبِي زَيْدٍ ، وَاسْكِنِي أَبُو عُبَيْدٍ ،
 فَقُلْتُ : نَعَمْ ، لَعَنَ اللَّهُ الشَّيْطَانَ ، وَأَبْعَدَ النَّسْيَانَ ، أَنْ سَانِيكَ طُولُ الْعَهْدِ ،
 وَاتَّصَالَ الْبُعْدِ (٦) ، فَكَيْفَ حَالُ أَبِيكَ ؟ أَشَابَ كَعْمَهْدِي ، أَمْ شَابَ بَعْدِي ؟

(١) تقدم في المقامة الأزادية أن الأزاد نوع من التمر الجيد .

(٢) أي والحال أني مُتَدِمٌ لِمَالٍ عِنْدِي .

(٣) المحالُّ : جمع محلة ، والمراد بها الأماكن التي يوجد بها الأزاد ، وأنتهز :
 المراد منه أتلمس وأقصد ، ولكنه جعلها كالغنيمة التي يسارع لانتهازها اللبِقُ ،
 والكرخ : محل ببغداد ، والضمير في «أحلني» راجع إلى الأزاد ، من باب إسناد
 الفعل للسبب .

(٤) السواد : ريف العراق وقراه ، والنسبة إليه سَوَادِيٌّ ، والمراد رجل من

أهل السَّوَادِ ، وهم - في أغلب الأحوال - أغرار لا يفظنون لدقيق الخيل .

(٥) أراد بالصيد ذلك الرجل ، ثم أقبل عليه بمحادثته ويكلمه ، ويتدخل

معه ، لينال منه ما أراد .

(٦) أخذ يُدْخِلُ بِحِيلَتِهِ فِي رُوعِ السَّوَادِيِّ أَنَّهُ أَلِيفٌ قَدِيمٌ وَمُصَاحِبٌ مِنْ عَهْدِ

بَعِيدٍ ، فَلَمَّا أَخْطَأَ تَسْكِينَتَهُ ، وَخَشِيَ أَنْ تَجُوزَ حِيلَتُهُ ، عَمِدَ إِلَى انْتِحَالِ الْمَآذِيرِ ،

بَطُولِ أَمَدِ الْفِرَاقِ ، وَبَعْدِ عَهْدِ التَّلَاقِ .

فَقَالَ: قَدْ نَبَتَ الرَّبِيعُ عَلَى دِمْنَتِهِ^(١)، وَأَرْجُو أَنْ يُصَيِّرَهُ اللَّهُ إِلَى جَنَّتِهِ،
فَقُلْتُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ،
وَمَدَدْتُ يَدَ الْبِدَارِ، إِلَى الصَّدَارِ، أُرِيدُ تَمْزِيْقَهُ^(٢)، فَقَبِضَ السَّوَادِيُّ عَلَى
خَصْرِي بِجُمُعِهِ^(٣)، وَقَالَ: نَشَدْتُكَ اللَّهُ لَا مَرْقَتَهُ، فَقُلْتُ: هَلُمَّ إِلَى الْبَيْتِ
نُصِبْ غَدَاءً، أَوْ إِلَى السُّوقِ نَشْتَرِ شَوَاءً، وَالسُّوقُ أَقْرَبُ، وَطَعَامُهُ أَطْيَبُ،
فَاسْتَفْرَزْتُهُ حُجَّةَ الْقَرَمِ، وَعَطَفْتُهُ عَاطِفَةَ اللَّقَمِ^(٤)، وَطَمِعَ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ
وَقَعَ، ثُمَّ أَتَيْنَا شَوَاءً يَنْقَاطِرُ شِوَاؤُهُ عَرَقًا، وَتَدَسَّيْلُ جُودَابَاتِهِ مَرَقًا^(٥)،
فَقُلْتُ: افْرِزْ لِأَبِي زَيْدٍ مِنْ هَذَا الشَّوَاءِ، ثُمَّ زِنْ لَهُ مِنْ تِلْكَ الْخُلُوءِ،
وَأَخْتَرْ لَهُ مِنْ تِلْكَ الْأَطْبَاقِ، وَأَنْضِدْ عَلَيْهَا أُرَاقَ الرَّقَاقِ، وَرُشَّ عَلَيْهِ
شَيْئًا مِنْ مَاءِ السَّمَاقِ^(٦)، لِيَأْكُلَهُ أَبُو زَيْدٍ هَنِيئًا، فَأَنْخَى الشَّوَاءَ

(١) المراد بالدِّمْنَةُ القبر، والربيع هنا: النبات، وكنى بذلك عن موته منذ

عهد ليس بالقصير.

(٢) البِدَار: المبادرة والمسارة، والصَّدَار: ثوب يلبس مما يلي الجسد،

والمعنى أنه حين سمع بموت أبيه بادَرَ إلى ثوبه ليمزقه؛ إظهاراً للجزع. وتأ كيداً
للحيلولة بأنه صديق أبيه.

(٣) جُمِعَ اليَدُ، بضم الجيم: قَبِضَتَهَا، والمعنى أنه قبض بكل يده عليه ليمنع

من تمزيق صدره.

(٤) استفرزه: استهوته وحركته بشدة، والحمة في الأصل: إبرة القرب

التي تلسع بها، ثم حملت على الشدة مطلقاً، والقَرَم: الشهوة الباقية لأكل
اللحم، والقَم: السرعة في الأكل، والمعنى أن شدة حبه للطعام وعظيم شوقه
إليه أسرَعَا به إلى موافقتي.

(٥) الجودابة: رغيف يخبز وفوقه طائر أو قطعة لحم.

(٦) السماق: حب صغير أحمر حامض يعتبر من المُسَهِّبَاتِ.

بِسَاطُورِهِ^(١)، عَلَى زُبْدَةِ تَنْوَرِهِ، فَجَعَلَهَا كَالْكُحْلِ سَخْفًا، وَكَاطَّحْنَ دَقًّا،
 ثُمَّ جَلَسَ وَجَلَسَتْ، وَلَا يَنْسَ وَلَا يَنْسَتْ، حَتَّى اسْتَوَفَيْنَا، وَقُلْتُ
 لِصَاحِبِ الْخُلُوعِ: زَيْنَ لِأَبِي زَيْدٍ مِنَ اللُّوزِ يَبِجِ رِطْلَيْنِ فَهَوَّ أَجْرِي فِي الْخُلُوعِ،
 وَأَمَضَى فِي الْعُرُوقِ، وَلَيْسَ كُنْ لَيْلَى الْعُمَرِ، يَوْمِي النَّشْرِ^(٢)، رَقِيقَ الْقَشْرِ،
 كَيْفِ الْخَشْوِ، لُؤْلُؤَى الدَّهْنِ، كَوَكْبَى اللُّونِ، يَدُوبُ كَالصَّنْغِ، قَبْلَ
 التَّمْضِغِ، لِيَأْكُلَهُ أَبُو زَيْدٍ هَنِيئًا، قَالَ: فَوَزَنَهُ ثُمَّ قَعَدَ وَقَعَدْتُ، وَجَرَّدَ
 وَجَرَّدْتُ^(٣)، حَتَّى اسْتَوَفَيْنَاهُ، ثُمَّ قُلْتُ: يَا أَبَا زَيْدٍ مَا أَحْوَجَنَا إِلَى مَا
 يُشْفَعُ بِالثَّلْجِ، لِيَقْمَعَ هَذِهِ الصَّارَةَ، وَيَقْفَأَ هَذِهِ اللَّقْمَ الْحَارَّةَ^(٤)، أَجْلِسْ
 يَا أَبَا زَيْدٍ حَتَّى نَأْتِيكَ سَقَاءً، يَا تَيْكَ بِشَرْبَةِ مَاءٍ، ثُمَّ خَرَجْتُ وَجَلَسْتُ
 بِحَيْثُ أَرَاهُ وَلَا يَرَانِي أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُ، فَلَمَّا أَبْطَأَتْ عَلَيْهِ قَامَ السَّوَادِيُّ إِلَى

(١) الساطور: سكين عظيمة، وبهذا الاسم تعرف عند العامة من أهل مصر إلى اليوم.

(٢) اللوز ينج: نوع من الحلوى يتخذ من الخبز، ويسقى بدهن اللوز، ويحشى بالنقل، ومعنى كونه ليلي العمر أنه صنع ليلا، ومعنى كونه نهاري النشر أنه قد ظهر نهارا، ليكون - بعد مضي هذا الوقت - قد شرب دهنه وعسله.

(٣) جرَّد: أي شمر عن ساعده ليسرع في الأكل.

(٤) يشفع: يخلط، ومن ثم قيل للخمر: مشعشة؛ لأنها تشرب مخلوطة بالماء كثيرا، قال عمرو بن كلثوم:

مُشَفَّعَةٌ كَأَنَّ الْحَصَّ فِيهَا إِذَا مَا الْمَاءَ خَالَطَهَا سَخِينًا

ويقمع: يقهر، والصاراة: شدة الحر، ويقفأ: يكسر ويخفف، والمعنى إننا في حاجة إلى الماء المخلوط بالثلج، ليرد عنا سطوات الحر، ويخفف من حدة هذا الأكل في أجوافنا.

حَارِهِ ، فَأَعْتَلَقَ الشَّوَاهِ بِإِزَارِهِ ^(١) ، وَقَالَ : أَيْنَ يَمْنُنُ مَا أَكَلْتَ ؟ فَقَالَ
 أَبُو زَيْدٍ : أَكَلْتُهُ ضَيْفًا ، فَلَسَكْتُ لِكَلِمَةٍ ، وَتَنَّى عَلَيَّ بِلَطْمَةٍ ^(٢) ، ثُمَّ قَالَ
 الشَّوَاهِ : هَاكَ ، وَمَتَى دَعَوْنَاكَ ^(٣) ؟ زِنْ يَا أَحَا الْقِحَّةِ عِشْرِينَ ^(٤) ، فَجَعَلَ
 السَّوَادِيُّ يَبْكِي وَيَجْلُ عُقْدَهُ بِأَسْنَانِهِ وَيَقُولُ : كَمْ قُلْتُ لِذَلِكَ الْفَرِيدِ ،
 أَنَا أَبُو عُبَيْدٍ ، وَهُوَ يَقُولُ : أَنْتَ أَبُو زَيْدٍ ، فَأَنْشَدْتُ :

أَعْمَلُ لِرِزْقِكَ كُلَّ آلَةٍ لَا تَقْعُدَنَّ بِكُلِّ حَالَةٍ ^(٥)
 وَأَنْهَضَ بِكُلِّ عَظِيمَةٍ فَالْتَمَرَهُ يَعْجِزُ لَا مَحَالَةَ ^(٦)

(١) اعتلق : تعلق وأمسك ، أى أن الشَّوَاهِ لم يتركه يخرج ، بل أمسك به
 ليستوفى حقه منه .

(٢) أكلته ضيفًا : أى كنت مدعوا لتناول هذا الطعام ، فلا يحل لك أن
 تطالبني بتمنه ؛ لأن الضيف لا يدفع ثمن ما يأكل .

(٣) هاك : اسم فعل بمعنى خذ ، والمعنى : تناول من الضرب والاسم
 ما أنت به خليق .

(٤) القِحَّةُ : الوقاحة وسوء الأدب ، ومعنى زن عشرين : أعطى وزن
 عشرين درهما .

(٥) المعنى : لا تكن خائر القوى فتعقد عن طلب الرزق وأنت تعلم أنه
 لا يأتيك حتى تعمل له ، ولا يُقبل عليك حتى تسير إليه ، بل أجهد نفسك ،
 وادأب في السعي إليه ، ولا تدخر وسعا في تحصيله .

(٦) أى أنه لا بد أن يأتي على المرء يوم يعجز فيه عن القيام بحاجته ؛
 فانهز فرصة شبابك وقوتك ، واغتنم من فتوتك وحدائة سنك ما يساعذك على
 القيام بمعظائم الأمور ، وجلانها .

١٣ - المَقَامَةُ البَصْرِيَّةُ

حَدَّثَنِي عِيسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :
 دَخَلْتُ البَصْرَةَ وَأَنَا مِنْ سِنِّي فِي فِتَاءٍ ، وَمِنَ الزَّمَانِ فِي حَبْرٍ وَوِشَاءٍ ،
 وَمِنَ الْغَنَى فِي بَقَرٍ وَشَاءٍ ^(١) ، فَأَتَيْتُ الْمُرَبَّدَ فِي رُفْقَةٍ تَأْخُذُهُمُ الْعُيُونُ ،
 وَمَشِينَا غَيْرَ بَعِيدٍ إِلَى بَعْضِ تِلْكَ الْمُتَنَزَّهَاتِ ، فِي تِلْكَ الْمُتَوَجِّهَاتِ ^(٢) ،
 وَمَلَكْتْنَا أَرْضٌ فَحَلَلْنَاهَا ^(٣) ، وَعَمَدْنَا لِقِدَاحِ اللُّهُوِّ فَأَجَلْنَاهَا ^(٤) ، مُطَّرِحِينَ
 لِلْحِشْمَةِ إِذْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا إِلَّا مِنَّا ^(٥) ، فَمَا كَانَ بِأَسْرَعٍ مِنْ أُرْتِدَادِ الطَّرْفِ

(١) فتاء السن : ميمته وشبابه ، قال الشاعر :

إِذَا عَاشَ الْفَتَى مَا تَتَيْنِ عَامًا فَقَدْ ذَهَبَ اللَّذَاذَةُ وَالْفِتَاءُ

والوشاء ، بوزان كساء : نوع من اللباس مُطَّرَزٌ ، والمراد أن عليه ثياب أهل
 النعمة ومنظرهم ، والشاء : الشياه ، والغنم والبقر هما مال العرب ، فن أخذ بنصيب
 منهما كان موسرا غنيا .

(٢) المرَبَّد - بوزن منبر - موضع بالبصرة ، والمتنزه : الحديقة والروضة
 يختلف الناس إليها ترويحاً للنفس ، وإنعاشاً للروح ، وتجديداً للمسرة ، وأصل
 « المتنزّهات » مصدر ميمي فعله « تنزّه يتنزّه » بوزان تكلم وتقدّس ، والمراد به
 في مثل هذه العبارة مكان التنزه ، وتقديم الذنون على التاء خطأ ، وقد وقع في أصل
 المقامات هكذا .

(٣) ملكتنا : أخذ حُسْنَهَا بِالْبَابِنَا ، وَأَسْرَرَ رَوْتَقَهَا قُلُوبَنَا .

(٤) عمدنا : قصدنا ، وقداح : جمع قِدْح ، وأصلها قِدَاحُ الميسر ،
 وأجلناها : حر كفاها وأدرناها بنقنا .

(٥) متى كانت الرفقة ليس فيها أجنبي لم يكن للحشمة موضع ، لأن شدة

الألفة تسقط الكلفة .

حَتَّىٰ عَنَّا لَنَا سَوَادٌ تَحْفِضُهُ وَهَادٌ ، وَتَرْفَعُهُ نَجَادٌ ^(١) ، وَعَلِمْنَا أَنَّهُ يَهْمُ بِنَا ،
فَأَتَلَمْنَا لَهُ ^(٢) ، حَتَّىٰ أَدَاهُ إِلَيْنَا سَيْرُهُ وَلَقِينَا بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ ، وَرَدَدْنَا عَلَيْهِ
مُقْتَضَى السَّلَامِ ، ثُمَّ أَجَالَ فِينَا طَرْفَهُ وَقَالَ : يَا قَوْمُ مَا مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ يَلْحَظُنِي
شِزْرًا ، وَيُوسِيَنِي حِزْرًا ^(٣) ، وَمَا يَنْبِئُكُمْ عَنِّي ، أَصْدَقُ مِنِّي ، أَنَا رَجُلٌ
مِنَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ كَنَدَرِيَّةٍ مِنَ الثُّغُورِ الْأَمْرِيَّةِ ، قَدْ وَطَّأ لِي الْفَضْلُ كَنَفَهُ ^(٤) ،
وَرَحَّبَ بِي عَيْشٌ ، وَتَمَانَى بَيْتٌ ، ثُمَّ جَمَعَجَ بِي الدَّهْرُ عَنِّي وَرَمَهُ ^(٥) ،
وَأَتَلَانِي زَغَالِيلُ مَحْرُ الْحَوَاصِلِ :

كَأَنَّهُمْ حَيَاتُ أَرْضٍ مَحَلَّةٍ فَلَوْ يَعْضُونَ لَدَغِي سَمِّهِمْ
إِذَا نَزَلْنَا أَرْسَلُونِي كَأَسِيًّا وَإِنْ رَحَلْنَا رَكِبُونِي كَلِّهِمْ ^(٦)

- (١) الْوِهَادُ : جَمْعُ وَهْدَةٍ وَهِيَ الْمَطْنُ مِنَ الْأَرْضِ ، وَالنَّجَادُ : الْمُرْتَفِعُ مِنْهَا .
(٢) أَتَلَمْنَا : مَدَدْنَا لِعُنَاقِنَا نَظَرَ إِلَيْهِ .
(٣) يَلْحَظُنِي شِزْرًا : يَنْظُرُ إِلَيَّ بِمَوْخِرِ عَيْنِهِ ، وَهِيَ نَظَرَةُ الْغَاظِبِ السَّخِطِ ،
وَالْحِزْرُ : الْخُدْسُ وَالنَّخْمِينَ ، وَالْمَعْنَى إِنَّهُ لَيْسَ فَيْكُمْ أَحَدٌ لَمْ يَفْضُبْ لِقَدْوِي
عَلَيْكُمْ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْكُمْ مَنْ لَمْ يَجْهَدِ نَفْسَهُ ، وَيَكْدُ قَرِيحَتَهُ فِي اسْتِكْشَافِ سِرِّي ،
وَاسْتِطْلَاعِ أَمْرِي ، وَتَبِينِ حَقِيقَتِي .
(٤) وَطَّأ لِي كَنَفَهُ : جَعَلَ جَانِبَهُ لِي وَطَاءً ، كَنَافَةٌ عَنِ سَمَةِ عَيْشِهِ .
(٥) جَمَعَجَ بِي الدَّهْرُ : أَهَانَنِي وَأَذَانَنِي ، وَصَبَّ عَلَى جَامِ غَضَبِهِ ، وَأَنْزَلَ
بِي مَحَنَهُ وَشِدَائِدَهُ ، وَثَمَّهُ وَرَمَهُ : أَيْ قَلِيلَهُ وَكَثِيرَهُ ، وَالْمَعْنَى : إِنْ الْحَالُ قَدْ تَغَيَّرَ ،
وَانْقَلَبَتِ الْبِسْرَةُ عَسْرَةً ، وَأَخْجَى الْغَنَى فَقْرًا .
(٦) أَتَلَانِي : أَتَبَعَنِي ، وَزَغَالِيلُ : عَنَى بِهِمْ أَطْفَالَهُ ، وَمَحْرُ الْحَوَاصِلِ : كَنَافَةٌ
عَنِ الْجُوعِ ، وَالْأَرْضُ الْمَحَلَّةُ : الْقَاحِلَةُ الَّتِي لَا نَبَاتَ فِيهَا وَلَا مَاءَ ، وَحَيَاتُهَا أَخْبَثُ
الْحَيَاتِ وَأَرْدُؤُهَا ، وَ« ذَكِّي سَمِّهِمْ » أَيْ لَمْ يُرْجَ مِنْهُ شِفَاءٌ ، وَذَلِكَ تَأْكِيدٌ لَوْصِفِهِمْ
بِشِدَّةِ الْجُوعِ .

وَنَشَرَتْ عَلَيْنَا الْبَيْضُ، وَشَمَسَتْ مِنَّا الصَّفْرُ، وَأَكَلْتَنَا السُّودُ، وَحَطَمْتَنَا
الْحُمْرُ، وَأَنْتَابَنَا أَبُو مَالِكٍ، فَأَيُّ بُلْقَانَا أَبُو جَابِرٍ إِلَّا عَنْ عُفْرِ (١)، وَهَذِهِ الْبَصْرَةُ
مَأْوَاهَا هَضُومٌ، وَفَقِيرُهَا مَهْضُومٌ، وَالْمَرْءُ مِنْ ضِرْسِهِ فِي شُغْلٍ، وَمِنْ نَفْسِهِ فِي
كَلِّ (٢)، فَكَيْفَ بَيْنَ :

يُطَوِّفُ مَا يُطَوِّفُ مُمَّ يَاوِي إِلَى زُغْبٍ مُحَدَّدَةٍ الْعُيُونِ
كَسَاهُنَّ الْبَلْبَى شُعْمًا فَتُمَسِّي جِيَاعَ النَّابِ ضَامِرَةَ الْبُطُونِ (٣)
وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا الْيَوْمَ وَمَرَّخْنَا الطَّرْفَ فِي حَيِّ كَمَيْتٍ، وَبَيْتٍ كَلَّا بَيْتٍ،
وَقَلْبَيْنَ الْأَكْفَ عَلَى لَيْتٍ، فَفَضَضْنَا عُقَدَ الضُّلُوعِ، وَأَفَضْنَا مَاءَ الدُّمُوعِ،
وَتَدَاعَيْنَا بِأَسْمِ الْجُوعِ .

وَالْفَقْرُ فِي زَمَنِ اللَّئَاءِ . مِ لِكُلِّ فَي كَرَمٍ عَلَامَةٌ

(١) نشرت علينا: كرهتنا ولم ترض. مصاحبتنا. والبيض: الدرام،
وشمست: نفرت واشتد جماحها، والصفرة: الدنانير، والسود: اللبالي المهلكة
ببردها وشدتها، وحطمتنا: كسرتنا وفلتت من عزيمتنا وأوهنت قوانا، والحر:
السنون المجدبة، وأبو مالك: الفقر والكبر والمهرم، وأبو جابر: الخبز، ولم
يلقنا إلا عن عُمر: أي أنه لا يزورنا إلا في كل حين مرة.

(٢) ماء هضوم: أي يُسرع في هضم المأكَل، ورجل مهضوم: غير
مرعى الجانب ولا منظور إليه، ومن نفسه في شغل: أي أنه قد ألهاه أمرٌ نفسه
وتحصيل قوته عن النظر إلى غيره، وأنه يتعب في ذلك، فكيف يكون حال
من يسعى لنفسه وعياله؟

(٣) زغب: جمع أزغب، والمراد الأطفال الصغار، ومحددة العيون: كثيرة
الشخوص والنظر لعودته ينتظرون ما في يده، وشعث: أي غبر متغيرون، لعدم
من يرعاهم ويحافظ عليهم، وهذان البيتان يلحظان قول الحطيئة:
ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ زغب الحواصيل لآمالاً ولا شجر

رَغِبَ الْكِرَامُ إِلَى اللَّهِ ، وَتِلْكَ أَشْرَاطُ الْقِيَامَةِ (١)
 وَلَقَدْ اخْتَرْتُمْ يَأْسَادَةَ ، وَدَلَّتَنِي عَلَيْكُمْ السَّعَادَةُ ، وَقُلْتُ قَسَمًا ، إِنْ فِيهِمْ
 لَدَسَمًا (٢) ، فَهَلْ مِنْ قَتَى يُعَشِّينَ ، أَوْ يُفَشِّينَ ؟ وَهَلْ مِنْ حُرٍّ يُفَدِّينَ ،
 أَوْ يُرَدِّينَ (٣) ؟

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : فَوَاللَّهِ مَا اسْتَأْذَنَ عَلَيَّ حِجَابٍ سَمِعِي كَلَامَ
 رَائِعِ ابْرَعُ ، وَأَرْفَعُ وَأَبْدَعُ ، مِمَّا سَمِعْتُ مِنْهُ ، لَا جَرَمَ أَنَا اسْتَمَحْنَا الْأَوْسَاطَ ،
 وَتَفَضَّلْنَا الْأَكْنَافَ ، وَنَحْنُ الْجُبُوبُ ، وَنُلْتُهُ أَنَا مُطْرَفِي (٤) ، وَأَخَذَتْ الْجَاعَةُ
 إِخْذِي ، وَقَلْنَا لَهُ : الْخَلْقُ بِأَطْفَالِكَ ، فَأَعْرَضَ عَنَّا بِمَدِّ شُكْرِ وَقَاهُ ، وَنَشَرَ
 مَلَأَ بِهِ فَاهُ .

(١) رغب الكرام إلى اللثام : طلبوا منهم ، ووجهوا إليهم بمحاجاتهم ،
 وأشراط : أى علامات ، والمعنى : إن الفقر وسوء المنظر في عهد يرتفع فيه اللثيم
 ويسود الخبيث دليل على الكرم ، وحسن الخليم ، وطيب العنصر ؛ لأن الكرام
 قد أمثلوا ، وذوى الفضل قد أتربوا ، ولأن الأدياء وصغار النفوس وضعاف
 الأحلام قد ارتفعوا ونبه شأنهم ، وذلك من شارات الساعة وعلامات دنوِّها ،
 وهو إشارة لحديث جبريل حين سأل النبي عن علامات الساعة فقال :
 « وأن تجد الخفأة العرأة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان » .

(٢) « إن فيهم لدسما » هذه العبارة كناية عن كونهم مُنتَجَمًا يَدِ ذَهَبِ الْعَاقِي ،
 وهو من قولهم لمن يخبى فيه الظن : « اسْتَسَمَّتْ ذَا وَرَمٍ » .

(٣) يعشيين : أى يطعمهن العشاء ، ويفشيين بالمعجمة : يكسوهن ،
 ويفدئين : يطعمهن الغداء ، ويردئين : يلبسهن الرداء .

(٤) لاجرم : كلمة تقع موقع حقا أو ثبت ، ويروى استمحلنا الأوساط : أى
 حللنا ما عليها من المناطِق ، وهى أجزمة يجعل فيها بعض الناس نفودهم ، ويروى
 « استمحلنا » وهذه أظهر ، والمطرف : رداء من خز مُعَلَّم .

١٤ - المَقَامَةُ القَزَارِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

كُنْتُ فِي بَعْضِ بِلَادِ نَزَارَةَ مَرَّةً تَحِلًّا نَجِيبَةً، وَقَائِدًا جَنِيبَةً، يَسْبَحَانِ بِي سَبْحًا^(١)
وَأَنَا أُمُّ بِالْوَطَنِ^(٢)، فَلَا اللَّيْلُ يَنْدِينِي بِوَعِيدِهِ، وَلَا الْبَعْدُ يَلْوِينِي بِبَيْدِهِ^(٣)،
فَظَلَّتْ أَخْبَطُ وَرَقِ النَّهَارِ، بَعْصًا التَّسْيَارِ^(٤) وَأَخْوَضُ بَطْنِ اللَّيْلِ، بِحَوَافِرِ الْخَيْلِ،
فَبَيْنَا أَنَا فِي تَيْلَةٍ يَضِلُّ فِيهَا الْفَطَاطُ^(٥)، وَلَا يُبْصِرُ فِيهَا الْوَطَاطُ^(٦)، أَسِيحُ
سَيْحًا، وَلَا سَائِحٌ إِلَّا السَّبْعُ، وَلَا بَارِحٌ إِلَّا الضَّبُعُ^(٧)، إِذْ عَنَّ لِي رَاكِبٌ تَامٌ

(١) فزارة : إحدى قبائل العرب ، والنجبية : الكريمة من الإبل ، والجنبية :

الطلية تأخذها معك في أسفارك لتستريح عليها إذا كأت الأولى، وتقدم مثل ذلك ،

و بسبحان : أى أنهما لسرعة جريهما وخفة حركتهما يشبهان السابح في اليم

(٢) أم بالوطن : أى أعزم السير إليه .

(٣) ينديني : يعطفي ويصدني عن مقصدي ، والوعيد : الزجر ، والمراد به الشدة

والأهوال التي تكون في الليل ، والبيد : جمع بيداء وهي الصحراء ، والمعنى أننى

عزمت عزماً صادقاً لم يرحز حتى عنه خطر الليل وشدته، ولاطول المسافة وبعدا الشقة .

(٤) شبه النهار بدوحة قال : إنه كان يخبط ورقها بعصا التسيار ، أى بالسير

الشبيه بالعصا ، بإضافة انعصا إلى التسيار من إضافة المشبه به إلى المشبه .

(٥) الفطاط - حلى وزان سحاب - القعطأ ، وهو يضرب به المثل في الهداية ،

فإذا كان يضل فلا شك أنه لا ينجو من الضلالة أحد ، قال الشاعر :

تَمِيمٌ بِطُرُقِ اللُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ الْقَطَا وَلَوْ سَلَكَتْ سُبُلَ الْمَكَارِمِ ضَلَّتْ

(٦) الوطواط : الخفاش ، وهو طائر معروف بأنه يبصر ليلاً ولا يرى نهاراً .

(٧) السائح من الطير: الذى يمر عن يمينك ، والبارح : الذى يمر عن شمالك ،

والمعنى أنه لم يكن يقع نظره إلا على الوحوش من سبع وضبع مرة عن يمينه ومرة عن يساره

الآلاتِ ، يُؤْمُ الْأَثَلَاتِ ، يَطْوِي إِلَى مَنشُورِ الْفَلَوَاتِ ، فَأَخَذَنِي مِنْهُ مَا يَأْخُذُ
 الْأَعْزَلَ مِنْ شَاكِي السَّلَاحِ ، لَكِنِّي تَجَلَّدْتُ قَهْلْتُ : أَرْضَكَ لَا أَمَّ لَكَ ،
 فَدُونَكَ شَرَطُ الْحِدَادِ ، وَخَرَطُ الْقَتَادِ ، وَخَصَمُ ضَخْمٍ ، وَحَمِيَّةُ أَرْضِيَّةٍ ،
 وَأَنَا سَلِمٌ إِنْ شِدَّتْ ، وَحَرْبٌ إِنْ أَرَدَتْ ، فَقُلْ لِي : مَنْ أَنْتَ (١) ؟ فَقَالَ :
 سَلِمًا أَصَبْتَ ، قَهْلْتُ : خَيْرًا أَجَبْتَ ، فَمَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : نَصِيحٌ إِنْ شَاوَرْتَ
 فَصِيحٌ إِنْ حَاوَرْتَ ، وَدُونَ أَسْمَى لِثَامٍ ، لَا تَمِيطُهُ الْأَعْلَامُ (٢) ، قُلْتُ :
 فَمَا الطَّمَعَةُ ؟ قَالَ : أَجُوبُ جُيُوبِ الْبِلَادِ ، حَتَّى أَقَعَ عَلَى جَفْنَةِ جَوَادٍ ،
 وَوَلِي فُوَادٍ يَحْدُمُهُ إِسَانٌ ، وَبَيَانٌ يَرْقُمُهُ بَنَانٌ (٣) وَقُصَارَايَ كَرِيمٍ يُخَفِّضُ لِي
 جَنَابِيَّتَهُ ، وَيَنْفِضُ إِلَيَّ حَقِيْبِيَّتَهُ (٤) ، كَأَبْنِ حُرَّةٍ طَلَعَ عَلَى بَالَأَمْسِ ، طُلُوعِ
 الشَّمْسِ ، وَعَرَبَ عَنِّي بِغُرُوبِهَا ، لَكِنَّهُ غَابَ وَلَمْ يَغِبْ تَذْكَارُهُ ، وَوَدَّعَ
 وَشَيْقَتِي آتَارُهُ ، وَلَا يُبْدِيكَ عَنْهَا (٥) ، أَقْرَبُ مِنْهَا ، وَأَوْمَأُ إِلَى مَا كَانَ

(١) المراد أنه واجه بكل ما ذكر من الكلام والسؤال لثلاث بظن به الضعف فيحمل عليه ، ثم تدخل معه في الحديث ليعرف من هو .

(٢) نصيح إن شاورت : أى لا يخذلك ولا يفضك ، بل ينصحك ويفيدك ، وفصيح إن حاورت : أى إذا كلمته لم تجد إلا خلاصة وذراية ، وقوة عارضة ، وهذه أوصاف ونموتى ، ولكن لا سبيل إلى اسمى ، ولا طريق لعرفانه ؛ لأننى لم آخذ لنفسى علماً أجمله شعارى .

(٣) الطعمة : أى المكسب والحرفة التى تطعم منها ، وأراد بما ذكره أن حرفته التجوال والطواف لعله يجد كريماً يدعوه إلى جفنته .

(٤) قصاراي : أى أنه منتهى أملى ، وجنابيته : أحد شقائى محمله ، أو الدابة التى تسير جنب دابته ، والحقيبة : وعاء اللباس ونحوه .

(٥) أى لا ينهرك بما أسداه إلى "مُخْبِرٍ صادق كنفسى الذى نالنى منه ، وأوماً : أى أشار .

لَبِسَهُ ، فَقُلْتُ : شَجَذُ وَرَبِّ السَّكْمِيَّةِ أَخَاذُ ، لَهُ فِي الصَّنْعَةِ نَفَازٌ ، بَلْ هُوَ
 فِيهَا أَسْتَاذٌ (١) ، وَلَا بَدُّ مِنْ أَنْ تَرْشَحَ لَهُ ، وَتَسِحَّ عَلَيْهِ (٢) ، فَقُلْتُ :
 يَا فَتَى قَدْ جَلَيْتَ عِبَارَتَكَ ، فَأَيْنَ شِعْرُكَ مِنْ كَلَامِكَ ؟ قَال : وَأَيْنَ كَلَامِي
 مِنْ شِعْرِي ؟ ثُمَّ اسْتَمَدَّ غَرِيزَتَهُ (٣) ، وَرَفَعَ عَقِيرَتَهُ (٤) ، بِصَوْتٍ مَلَأَ
 الْوَادِي ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

وَأَرْوَعٌ أَهْدَاهُ لِي اللَّيْلُ وَالْفَلَا وَخَمْسٌ تَمَسُّ الْأَرْضَ لَكِنْ كَلَا وَلَا (٥)

(١) له في الصنعة نفاذ : أي أنه قدير ماهر ، وهو فيها أستاذ : أي معلم
 تؤخذ عنه أساليبها وفنونها .

(٢) الرشح : خروج الماء نقطة بعد نقطة كالعرق ، والسح : تدفقه من أعلى ،
 والمراد لا مناص لك من إعطائه .

(٣) الغريزة : السجية ، واستمدها : طلب منها المدد والمعونة لتظهر كفاءته
 ويتضح مقدارها .

(٤) رفع عقيرته : صاح ، وقد تكررت هذه العبارة

(٥) أروع : شهيم ، أهداه لي الليل : دلني عليه الشرى ، والفلا : الصحراء
 وخمس تمس الأرض : المراد بها الأرجل ؛ لأن أصابعها خمسة ، ولأنها تلامس
 الأرض ، ويروى « خمس » بالحاء المهملة المضمومة والشين - جمع أحمش :
 أي سريع خفيف ، والمراد بها قوائم الفرس ، وقوله « كلا ولا » كناية عن سرعة
 السير وتقارب ملامستها للأرض ، ومنه قول الشاعر :

• يَكُونُ نَزُولُ الْقَوْمِ فِيهَا كَلَا وَلَا •

وربما قالوا « كلا » من غير تكرار وهم يريدون معنى قصر المدة أيضاً ،
 ومنه قول ذي الرمة :

أَصَابَ خِصَاصَةً فَبَدَا كَلِيلًا كَلَا ، وَانْفَلَّ سَائِرُهُ أَنْفِلًا لَا

عَرَضْتُ عَلَى نَارِ الْمَكَارِمِ عُدُوهُ فَكَانَ مُعَمِّاً فِي السِّيَادَةِ مُخَوِّلاً^(١)
وَوَخَّادَعْتُهُ عَنْ مَالِهِ فَخَدَعْتُهُ وَسَاهَلْتُهُ مِنْ بَرِّهِ فَتَسَهَّلَا^(٢)
وَلَمَّا تَجَالَيْنَا وَأُحْمَدَ مَنْطِقِي بِلَابِي مِنْ نَظْمِ الْقَرِيضِ بِمَا بَلَا^(٣)
فَأَهَزَّ إِلَّا صَارِمًا حِينَ هَزَّنِي وَلَمْ يَلْقِنِي إِلَّا إِلَى السَّبْقِ أَوْلَا^(٤)
وَلَمْ أَرَهُ إِلَّا أَعْرًا مُجَجَّلَا وَمَا تَخَّعْتُهُ إِلَّا أَعْرًا مُجَجَّلَا^(٥)
فَقُلْتُ لَهُ: عَلَى رِسْلِكَ يَا فَتَى^(٦)، وَلَكَ فِيمَا يَصْحَبُنِي حُسْنُكُمْ، فَقَالَ:

= ور بما أضافوا إلى « لا » حرفاً آخر ، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة :

فَبِتُّ وَلَيْلِي كَلَّلاً أَوْ بَلِي لَدَيْهَا ، وَبَلُّ لَيْلِي أَقْصَرُ

فقد جمع بين لا وبلى ، ونظيره قول السكيت :

كَلَّلاً وَكَذَا تَغْمِيضَةً ثُمَّ هَجْتُمُ لَدَى حِينَ أَنْ كَانُوا إِلَى النَّوْمِ أَفْقَرَا

(١) العودُ: أصله عام في كل ما يصيبه الإحراق ، ثم اختلفت بنوع معروف ،

ومعنى « مما نحولاً » أى له عم وخال : يعنى أنه عريقٌ فى السيادة ، قد نالها من قبل آباءه وأمهاته .

(٢) خدعه : أى خالسه واحتال عليه ، فانخدع : أى جازت عليه الحيلة ،

والأصل أن السكريم يستهين بماله ويمتقره ، فلا يعرف أساليب جمه والتحفظ به

(٣) تجالينا : أى أوضح كل منا نفسه للآخر ، وأحمد منطقي : وجده محموداً

فرضى عنه وأثنى عليه ، وبلاني : أى اختبرنى .

(٤) الصارم : السيف المسلول القاطع ، أى أنه حين اختبرنى وجدنى

كالسيف مضاء وسرعة نفاذ ، وألفانى سبأقا إلى ما يراد .

(٥) أصل الأعر : الذى فى جبهته بياض ، والحجل : الذى فى قوائمه ذلك ،

وينعت بهما الفاضل البالغ الغاية ، وفى الحديث « أنا قائد الأعر المحججين يوم القيامة »

(٦) على رسلِكَ : أى انتظر وتأن .

الْحَقِيبَةُ بِمَا فِيهَا ، فَقُلْتُ : إِنَّ وَحَامِلَتَهَا ^(١) ، ثُمَّ قَبِضْتُ بِجُمُعِي عَلَيْهِ ، وَقُلْتُ :
لَا وَالَّذِي أَلْهَمَهَا لِمَسَا ، وَشَقَّهَا مِنْ وَاحِدَةٍ خَمْسًا ^(٢) ، لَا تَزَايِلُنِي أَوْ أَعْلَمَ
عِلْمِكَ ^(٣) ، فَحَدَّرَ لِثَامَهُ عَنْ وَجْهِهِ ^(٤) ، فَإِذَا هُوَ وَاللَّهِ شَيْخُنَا أَبُو الْفَتْحِ
الْإِسْكَانْدَرِيُّ ، فَمَا لَبِثْتُ أَنْ قُلْتُ :

تَوَشَّحْتَ أَبَا الْفَتْحِ بِهَذَا السَّيْفِ مُحْتَآلًا ^(٥)
فَمَا تَصْنَعُ بِالسَّيْفِ إِذَا لَمْ تَكُ قَتَّالًا؟ ^(٦)

(١) إنَّ : حرف يراد بها الجواب بمعنى نعم ، أى لك الحقيبة والناقبة التي
تحملها ، ومن استعمال إن بمعنى نعم قول ابن قيس الرقيات :

بَكَرَ الْعَوَازِلُ فِي الصَّبُو ح يَلْمَنِي وَالْوَمُنَّةُ
وَيَمُنُّنَ : شَيْبٌ قَدْ عَرَا كَ وَقَدْ كَبُرَتْ ، فَقُلْتُ : إِنَّهُ

(٢) ألهمها لمسا : جعل فيها القدرة على الإدراك بوجه اللبس ، وشقها من
واحدةٍ خمسا : أى جعلها فروعا خمسة لأصل واحد ، والضمير للأصابع ، واكتفى
بما سيذكر من نعوتها وأوصافها عن تقدمها لأنها تتعين بذلك ، أو يقال : إن
تقدمها فى ضمن الجمع المذكور أنه قبض به عليه مسوِّغ للاضمار .

(٣) زايله : برح مكانه ، وعلم علمه : عرفه ، والمعنى لا تبرح مكانك ولا تفارقنى
حتى تعرفنى بنفسك .

(٤) حَدَّرَ لِثَامَهُ عَنْ وَجْهِهِ : أى أزاله وكشف عن نفسه ليوضح لى شخصه
ويظهر خفيته .

(٥) توشحت : أى اتخذته وشاحا أو تقلده ، وأختال : أى زهى وأعجب
بنفسه ، والمعنى : إنك تقلدت هذا السيف فأعجبت وتكبرت .

(٦) المعنى : ما يفيدك لبس ان سيف؟ وما يفنيك تقلده؟ وهو لا يتخذ إلا
للقتال به والدفاع عن النفس ، ولست من هذا فى العير ولا فى النفير .

فَصُغْ مَا أَنْتَ حَلَّيْتِ بِهِ سَيْفَكَ خَلْخَالًا (١)

(١) الخخال: نوع من الخلى تلبسه المرأة في ساقها، والمراد السخرية منه، والاستهزاء به، أى أنه خير لك أن تجعل هذه الخلية خالخالاً يفيدك ويفنيك، من أن تجعلها لسيف لا تستعمله، ولا أنت له وللمه أهل.

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

أَنَارَتْنِي وَرُقِقَةً وَوَلِيمَةً^(١) فَأَجَبْتُ إِلَيْهَا ، لِاحْدِيثِ الْمَأْتُورِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَعْبَلْتُ » فَأَفْضَى بِنَا السَّيْرِ إِلَى دَارٍ^(٢) .

تُرِكَتُ وَالْحُسْنَ تَأْخُذُهُ تَنْتَقِي مِنْهُ وَتَنْتَخِبُ
فَأَنْتَقَتْ مِنْهُ طَرَائِفُهُ وَأَسْتَزَادَتْ بَعْضَ مَا تَهَبُ^(٣)

قَدْ فُرِشَ بِسَاطِطِهَا ، وَبُسِطَتْ أُنْمَاطُهَا ، وَوُدَّ سِمَاطُهَا^(٤) ، وَقَوْمٌ قَدْ أَخَذُوا
الْوَقْتَ بَيْنَ آسٍ مَخْضُودٍ ، وَوَرْدٍ مَنضُودٍ ، وَدَنَّ مَفْضُودٍ ، وَنَائِي وَعُودٍ^(٥) ،

(١) أنارتني : حركتني ، مأخوذ من قولهم « أنارت الريح الغبار » أي هيجته ،

والوليمة : الدعوة للطعام .

(٢) أفضى بنا السير : انتهى .

(٣) أي أن هذه الدار جامعة لأنواع الحاسن ، فكانها خلّيت بالحسن ،
وعرض عليها أن تنتقي منه خياره ، وتنتخب أطايبه ، فأخذت طريفة ، أي حديثه ،
وطلبت المزيد على ذلك لتهبه غيرها .

(٤) الأنماط : جمع مفردة نمط ، وهو غطاء الفرش وظهارته ، والسماط من

لوازم الطعام : ما يمدُّ عليه ، وجمعه سُطٌّ بضمّتين .

(٥) الآس : ما تسميه العامة : الریحان ، ومخضود : أي اتخذت منه أشكال

للزينة فيتجمع وثئني من غير كسر ، وورد منضود : أي جمع بعضه فوق بعض ،
والدَّنُّ : وعاء الحجر ، والنای والعود : نوعان من آلات اللهب والطرب .

خَصِرْنَا إِلَيْهِمْ وَصَارُوا إِلَيْنَا^(١) ، ثُمَّ عَاكَفْنَا عَلَى خُوَانٍ قَدْ مُلِمَتْ حِيَاضُهُ ،
 وَنَوْرَتْ رِيَاضُهُ ، وَاصْطَلَّتْ حِفَانُهُ ، وَاخْتَلَفَتْ أَلْوَانُهُ^(٢) ، فَمِنْ حَالِكٍ بِإِزَائِهِ
 نَاصِعٌ^(٣) ، وَمِنْ قَانَ تِلْقَاءَهُ فَاقِعٌ ، وَمَعَنَا عَلَى الطَّامِ رَجُلٌ تُسَافِرُ يَدُهُ
 عَلَى الْخُوَانِ ، وَتَسْفِرُ بَيْنَ الْأَلْوَانِ^(٤) ، وَتَأْخُذُ وُجُوهُ الرُّغْفَانَ ، وَتَقْفُ عُيُونَ
 الْجِفَانَ^(٥) ، وَتَرَعَى أَرْضَ الْجِيرَانِ^(٦) ، وَتَجُولُ فِي الْقَصْمَةِ ، كَأَرْخٍ
 فِي الرُّقْمَةِ^(٧) ، يَرْحَمُ بِاللُّقْمَةِ اللُّقْمَةَ ، وَيَهْرِمُ بِالْمُضْفَةِ الْمُضْفَةَ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ
 سَاكِتٌ لَا يَنْبَسُ بِجَرْفٍ ، وَتَحْنُ فِي الْحَدِيثِ تَجْرِي مَعَهُ ، حَتَّى وَقَفَ بِنَا عَلَى

(١) أى استقبلونا ، وكل من سار نحو رفيقه .

(٢) الخوان - بكسر الخاء أو ضمها - المائدة قبل أن يكون عليها طعام ،

والجفان : جمع جفنة ، وهى القصة الكبيرة .

(٣) حالك : أى أسود شديد السواد ، وناصع : أبيض شديد البياض ،

والقانى : الأحمر ، والفاقع : الأصفر ، والمراد بيان اختلاف الألوان وكثرتها .

(٤) أى أن هذا الرجل كان فى سرعة أكله وامتداد يده إلى البعيد عنه من

أصناف الطعام يُشبهه المسافر ، وسفر بين القوم فهو سفيرهم : أى مشى فى الصلح
 بينهم ، يُشبهه توفيقه بين المطاعم ومزجه بعضها ببعض بمن يكون حاله ذلك .

(٥) الرغفان : جمع رغيف ، وهو ذو طاقين أحدهما يكون رقيقا سر يع التناول

وهو الذى كان ذلك الرجل يُبادرُ إليه ، والمراد أنه كان يسارع إلى أطيب
 المأكولات ، حتى إنه ليأخذ من الجفنة أحسنها وأفضلها .

(٦) أى أنه لم يكن يتأدب ويراعى حقوق الذين معه ، بل كان يعدو على

الذى أمامهم .

(٧) الرُخُ : قطعة من الشطرنج تسمىها العامة « الطابية » وهى تذهب

وتجى فى نواح أربع ، لا يفضلها إلا « الفرز » وهو ما تسميه العامة « الوزير » .

ذِكْرِ الْجَاحِظِ وَخَطَابَتِهِ^(١) ، وَوَصْفِ ابْنِ الْمُقَفَّعِ وَذَرَابَتِهِ^(٢) ، وَوَأَفَقِ أَوَّلِ
الْحَدِيثِ آخِرِ الْخِوَانِ ، وَزُلْنَا عَنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ^(٣) ، فَقَالَ الرَّجُلُ : أَيْنَ
أَنْتُمْ مِنَ الْحَدِيثِ الَّذِي كُنْتُمْ فِيهِ ؟ فَأَخَذْنَا فِي وَصْفِ الْجَاحِظِ وَوَصْفِ
وَحُسْنِ سُنَنِهِ فِي النَّصَاحَةِ وَسُنَنِهِ ، فِيمَا عَرَفْنَاهُ^(٤) ، فَقَالَ : يَا قَوْمِ لِكُلِّ
عَمَلٍ رِجَالٌ ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ ، وَلِكُلِّ دَارٍ سُكَّانٌ^(٥) ، وَلِكُلِّ زَمَانٍ
جَاحِظٌ ، وَلَوْ أَنْتَقَدْتُمْ ، لَبَطَلَ مَا أَعْتَقَدْتُمْ ، فَكُلُّ كَشْرٍ لَهُ عَنْ نَابِ

(١) الجاحظ: هو إمام أهل الأدب ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب ،
الكناني ، البصري ، صاحب التصانيف الممتعة ، والرسائل المبتدعة ، المولود
بالبصرة حوالي سنة ١٥٠ ، تَرَبَّى حَتَّى أَصْبَحَ إِمَامًا فِي كُلِّ فَنٍ ؛ فَهُوَ رَاوِيَةٌ ،
فيلسوف ، متكلم ، كاتب ، مترسل ، مؤرخ ، شاعر ، مصنف ، عالم بالحيوان
والنبات والجماد ، له من أمهات كتب هذا الفن كتاب الحيوان ، وكتاب النبات ،
وله غيرها تأليفات كثيرة في الأدب منها البيان والتبيين ، وكتاب البخلاء ،
وكان سمحاً جواداً كثير المواساة لإخوانه ، وتوفي في سنة ٢٥٥ من الهجرة .

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن داؤديه المقفع ، أحد فحول البلاغة وأساطينها ،
وثاني اثنين مهّداً للناس طريق الترشل ، ورفعاً لهم معالم صناعة الإنشاء ، وأولهما :
عبد الحميد بن يحيى الكاتب .

(٣) أى أنه اتفق أول حديثنا عند انتهاء الأكل ؛ فتركنا مكاننا ونحن لم
نتغلغل في البحث والكلام .

(٤) اللّسن : ذلاقة اللسان ، وشدة انطلاقه في الحجّة والحديث ، وسنن
فلان - بفتح أوله - طريقته ، وبتثليثه : جمع سُنَّةٍ ، وهى منهجه وسبيله .

(٥) أى أنه ليس من شأنكم أن تغامروا بأنفسكم في هذا الميدان ؛ لأنكم
لستم من أبطاله .

الإنكار^(١)، وأشم^(٢) بأنف الإكبار، وضحكت له لأجلب ما عنده^(٣)،
وقلت: أفدنا وزدنا، فقال: إن الجاحظ في أحد شقي البلاغة يقطف،
وفي الآخر يقف^(٤)، والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره، ولم يزر
كلامه بشعره^(٥)، فهل ترؤون للجاحظ شعراً رائماً؟ قلنا: لا^(٥)، قال:
فهموا إلى كلامه، فهو بعيد الإشارات^(٦)، قليل الاستعارات^(٧)،
قريب العبارات^(٨)، منقاد لمرئيات الكلام يستعمله، نفور من معتاصه

(١) كشره عن نابه: أى أظهره وأبانه، ويكون ذلك غالباً عند الضحك، أو عند الغضب، ومعنى «أشم - إلخ» أنه خائف رآيه، وترفع عن الأخذ به.

(٢) أى أننى لم أنكر عليه كلامه كمن كان معى، بل أظهرت له السرور لقاله: لأعلم كل ما عنده.

(٣) يقطف: يسير سيراً بطيئاً، والمنى: أنه لم يؤت البلاغة كلها؛ لأنه إذا نثرانى بالعجب العجائب، وإذا شعر قصر دون الغاية.

(٤) أى: وليس هذا من نعت البلغاء؛ لأن البليغ من برز في النوعين، ولم يعجز عن أحدهما.

(٥) أى هل تحفظون من كلام الجاحظ شعراً يروءكم سماعه؟ أى يملك عليكم قلوبكم

(٦) هلم: اسم فعل معناه تعال، يستعمل هكذا للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث، والمعنى: تعالوا فنظر في كلامه، والمراد الفتر؛ لأنهم انتهوا من الحكم على شعره، وقرروا أنه بعيد الإشارة، وذلك مما يقدح في فصاحته.

(٧) قليل الاستعارات: أى ليس انقلاقه وعمر فهمه مبنياً على استعمال الاستعارة التي تحتاج لدقة فهم وإعمال فسر؛ لأنه يسلك طريق الحقيقة غالباً، ولا يجيء بالاستعارة إلا نادراً.

(٨) قريب العبارات: أى متقاربا، وذلك يدل على نضوب معينه.

يَهْمِلُهُ^(١) ، قَهْلٌ سَمِعْتُمْ لَهُ لَفْظَةً مَصْنُوعَةً ، أَوْ كَلِمَةً غَيْرَ مَسْمُوعَةٍ ؟ فَقُلْنَا :
 لَا^(٢) ، فَقَالَ : هَلْ تَحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ مِنَ الْكَلَامِ مَا يُخَفِّفُ عَنْ مَنْكَبَيْكَ ،
 وَيَزِيغُ عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ ؟ قُلْتُ : إِي وَاللَّهِ ، قَالَ : فَأُطْلِقْ لِي عَنْ خِنْصِرِكَ ،
 بِمَا يَعِينُ عَلَى شُكْرِكَ ، فَنُلْتُهُ رِدَائِي ، فَقَالَ :

لَعَمْرُ الَّذِي أَلْتِي عَلَى ثِيَابِهِ لَقَدْ حُشِبْتَ تِلْكَ الثِّيَابُ بِهِ مَجْدًا
 فَتَى قَمَرْتَهُ الْمَكْرُمَاتُ رِدَاءَهُ وَمَا ضَرَبْتَ قَدْحًا وَلَا نَصَبْتَ نَرْدًا^(٣)
 أَعِدْ نَظْرًا يَا مَنْ حَبَانِي ثِيَابَهُ وَلَا تَدْعُ الْأَيَّامَ تَهْدِمُنِي هَذَا
 وَقُلْ لِلأُولَى إِنْ أَسْفَرُوا أَسْفَرُوا ضَحَى

وَإِنْ طَلَمُوا فِي غَمَةٍ طَلَمُوا سَعْدًا^(٤)

صِلُوا رَحِمَ الْعَلِينَا ، وَبُلُّوا كَلِمَاتَهَا فَخَيْرُ النَّدَى مَاسِحٌ وَابِلُهُ نَقْدًا^(٥)

(١) يقال : « فلان يكسو ألفاظه بالبلاغة » إذا كان يأتي بها رائحة
 خَلَابَةٍ ، وهو يقول إن الجاحظ يحى بالكلام عُرْيَان ، أى لا مسحة عليه من
 حسن السبك والفصاحة .

(٢) يسألهم عن كلام الجاحظ ، هل فيه كلمة لم يفتعلها عن سواه ؟ ليستدل
 بذلك على ما يقول .

(٣) قامرته قَمَرْتُهُ : أى غالبته فقلبتة ، والمعنى إن المكارم غالبت هذا
 الرجل فقلبتة ؛ فهو يَصِفُهُ بالخضوع لسلطان الفضائل ، والانتقياد لصورلتها ،
 والسير تحت لوأمتها .

(٤) أسفروا : كشفوا عن وجوههم ، والمراد ظهوروا ، والنعمة : السكرية
 والظلمة ، والمعنى : أي هذا الذى منحني ثوبه جدد النظر في حاجتى ، فلمله
 يظهر لك أنتى أستحق عطية أخرى وهبة ثانية ، وقل لأصحابك الذين من صفتهم
 أنهم إذا ظهوروا فإنما يكون ظهورهم مثل ظهور الضحى ، وإن طلوعوا فى كربة
 وظلمة طلوعوا السكوكب السعدى .

(٥) البيت كله مقول القول فى سابقه ، واللهاء : الخلق ، وهو بفتح أوله =

قَالَ هَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : فَارْتاحَتِ الْجَمَاعَةُ إِلَيْهِ ، وَانْشَأَتْ الصَّلَاتُ عَلَيْهِ ^(١) ، وَقُلْتُ لِمَا تَأَنَّنَا : مِنْ أَيْنَ مَطْلَعُ هَذَا الْبَدْرِ ؟ فَقَالَ :

إِسْكَندَرِيَّةٌ دَارِي لَوْ قَرَّ فِيهَا قَرَارِي
لَكِنَّ لَيْلِي بِنَجْدٍ وَبِالْحِجَازِ نَهَارِي ^(٢)

= ومثله اللَّهَى ، فأما بضم أوله فهو يجمع معناه العَطَايَا ، وفي المثل «اللَّهُمَّ تَفْتَحِ اللَّهَى» أى العطايا تفتح الفم وتطابقُ الألسنة بالمديح ، والمعنى أمنحونى ما ترضى عنه العلياء ويتصل معها بنسب ، ويشفى يَرْحَاهَا ؛ لأنها عَطَشِي مقطوعة القرابة ؛ فإذا فمتم ذلك فقد تَكَفَّفْتُمْ لها بأقرباء يتصل نسبهم بنسبها ويعينونها فى شدتها .

(١) الصَّلَات - بكسر أوله - جمع صِلَّة ، وهى المنحة والعطية ، وانتالت :

انتهالت وتتابعت وتوالت وكثر رميها إليه .

(٢) المعنى إن شمس حياتى بزَّغَتْ بالإسْكَندَرِيَّة ، وأتمنى ألا أبرحها ،

وَأَلَا يَرْمِينِي الدَّهْرُ بِمَا يَزْحَظُنِي عَنْهَا - ومعنى التمنى مأخوذ من لو - ولكن الدهر لا يخبيني إلى طلبى ، ولا يساعدنى على رغبتي ، بل يقذف بي فى الحجاز طورا وفى نجد تارة أخرى .

١٦ - المَقَامَةُ الْمَكْفُوفِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

كُنْتُ أُجْتَازُ، فِي بَعْضِ بِلَادِ الْأَهْوَازِ، وَقُصَارَى لَفْظَةِ شَرُودٍ أُصِيدُهَا،
وَكَلِمَةُ بَلِيغَةٌ أُسْتَرِيدُهَا^(١)، فَأَدَانِي السَّيْرُ إِلَى رُقْعَةٍ فَسِيحَةٌ مِنَ الْبَلَدِ، وَإِذَا
هُنَاكَ قَوْمٌ مُجْتَمِعُونَ عَلَى رَجُلٍ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْهِ، وَهُوَ يَخْبِطُ الْأَرْضَ بِعَصَا
طَلَى إِبْقَاعٍ لَا يَخْتَلِفُ^(٢)، وَعَلِمْتُ أَنَّ مَعَ الْإِبْقَاعِ لِحْنًا^(٣)، وَلَمْ أَبْعُدْ لِأَنَالَ
مِنَ السَّمَاعِ حَظًّا، أَوْ أَسْمَعَ مِنَ الْفَصِيحِ لَفْظًا^(٤)، فَمَا زِلْتُ بِالنَّظَارَةِ أَرْحَمُ
هَذَا وَأَدْفَعُ ذَلِكَ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى الرَّجُلِ^(٥)، وَسَرَّخْتُ الطَّرْفَ مِنْهُ إِلَى
حُرْقَةَ كَأَنَّكَ نَبِيٌّ أَعْمَى مَكْفُوفٍ، فِي شَمْلَةِ صُوفٍ، يَدُورُ كَأَنَّكَ خُذْرُوفٍ^(٦)،

(١) اجتاز : أسير وأمر ، والأهواز : بلاد بين البصرة وفارس ، تقدم
ذكرها وبيان أقسامها ، وشرود : جحوج نافرة لا تسكن ، والمعنى : أنه كان يمر
ببلاد الأهواز وغايته التي يتمناها لفظة غريبة لم يسمع بها يُفِيدُهَا أو كلمة فصيحة
يجمعها زيادة على ما عنده .

(٢) أى أنه يردد خَبِطَ العصا ترديداً متناسباً ، لافرق بين أوله وثانيه .

(٣) المعنى لئن ظننت أنه لا بد أن يكون هذا الترديد مصحوباً بفناء
وتلحين ناسب الملحن بينه وبين خَبِطَ الأرض بعصاه .

(٤) أى أنى لم أذهب بعيداً ، لتلايحرمنى البعد من إحدى الفائدتين ،
بل اقتربت ، فإن لم أستطع أن أعقل عنه التلحين لم يفتنى لفظه الفصيح .

(٥) النَّظَارَةُ : جمع ناظر ، وهم القوم المجتمعون عليه الناظرون إليه .

(٦) الْحُرْقَةُ : القصير المظلم البطن ، والقرنبي : إحدى دواب الأرض
تشبه الخنافس ، والشملة بفتح أوله ، ومثله المشمل والمشملة بكسر أولهما : كساء
دون القطيفة يديره الرجل على جسده ، والخذرورف : لعبة يجمل فيها الصبيان =

مُتَبَرِّئَسًا بِأَطْوَلَ مِنْهُ ، مُعْتَمِدًا عَلَى عَصَا فِيهَا جَلَّاجِلٌ يَخْبِطُ الْأَرْضَ بِهَا عَلَى
إِقْبَاعِ حَتَّيجٍ ، بِلِخْنِ هَزَجٍ ، وَصَوْتِ شَجٍّ ، مِنْ صَدْرِ حَرَجٍ (١) ، وَهُوَ
يَقُولُ :

يا قَوْمُ قَدْ أَثْقَلَ دَبِّي ظَهْرِي وَطَالَ لَبْنِي طَاتِي بِالْمَهْرِ (٢)
أَضْبَحْتُ مِنْ بَعْدِ غَنِيٍّ وَوَفَّرِ سَاكِنَ قَفْرٍ وَحَلِيفَ قَفْرٍ (٣)
يَا قَوْمُ هَلْ بَيْنَكُمْ مِنْ حُرٍّ يُعِينُنِي عَلَى صُرُوفِ الدَّهْرِ
يَا قَوْمُ قَدْ عَمِلَ لِفَقْرِي صَبْرِي وَأَنْكَشَفْتَ عَنِّي ذُبُولَ السَّتْرِ (٤)
وَفَضَّ ذَا الدَّهْرِ بِأَيْدِي البَتْرِ مَا كَانَ لِي مِنْ فِضَّةٍ وَتَبْرِ (٥)

= خيطاً ويدبرونها به ، تشبه ما يسمى الآن (النحلة ، المتخذة من الطين) وهي
معروفة إلى اليوم في بعض ريف مصر ، وتقدم ذكرها والاستشهاد لها .

(١) غَنَجٍ : حسن ، وهَزَجٍ : ذى ترم ، وشَجٍّ : أى به آثار الحزن والأسى ،
وَحَرَجٍ : ضَيْق .

(٢) الطَّلَّة : الزوجة ، وإنما تطلب الزوجة مهرها إذا كان زوجها لم يؤدِّه
إليها أو طَلَّقها وهي تطلب مُوَجَّله ، ويدور بذهننا أن المعنى الذى يريد : أنها
تطالبه بالطلاق لعمره وضيق يده ، من إطلاق المسبب على السبب .

(٣) القفر : الأرض المجذبة .

(٤) عَمِلَ : فَعَدَّ ، والمعنى إن الفقر وسوء الحال أفقداً تصبرى ، وذها
بتجلى ، وكشفاً أستارى .

(٥) البتْر : القطع ، شبهه بإنسان له يد لكمال قدرته على التفريق وتمزيق

الشمل ، والتَّبْر : الذهب قبل سبكه ، والمعنى : إن الدهر فرق ما اجتمع لى من
الذهب ، وصيرنى مسكيناً بأثسا .

أَوَى إِلَى بَيْتِ كَعْبِدِ شَيْبِ حَامِلِ قَدْرِ وَصَغِيرِ قَدْرِ (١)
 لَوْ خَتَمَ اللَّهُ مَخْيِرَ أَمْرِي أَعْقَبَنِي عَنْ عُسْرِ بَيْسِرِ
 هَلْ مِنْ فَتَى فِيكُمْ كَرِيمِ النَّجْرِ مُحْتَسِبٍ فِي عَظِيمِ الْأَجْرِ (٢)
 إِنْ لَمْ يَكُنْ مُفْتَنًا لِلشُّكْرِ ؟

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : فَرَّقَ لَهُ وَاللَّهِ قَلْبِي ، وَاعْرَوْزَتْ لَهُ عَيْنِي ،
 فَتَنَّتُهُ دِينَارًا كَانَ مَعِي ، فَأَلْبِثْ أَنْ قَالَ :

يَا حُسْنَهَا فَاقِمَةَ صَفْرَاهُ تَمَشُوقَةَ مَنقُوشَةَ قَوْرَاهُ (٣)
 يَكَادُ أَنْ يَفْطُرَ مِنْهَا الْمَاءَ قَدْ أَمْرَسَهَا هِمَّةٌ عَلَيْهِ (٤)
 نَفْسُ فَتَى يَمْلِكُهُ السَّخَاهُ يَصْرِفُهُ فَيْدٍ كَمَا يَشَاءُ (٥)

(١) قدر بفتح أوله : مكانة ، والقدر بالكسر : آنية الطبخ ، والمعنى
 إنني أسكن داراً صغيرة لا تكفي ، في حال أنى غير مشهور لا صيت لى ،
 وآيتى التى أطبخ طعامى فيها صغيرة ، وكل كفاتات عن شدة الفقر
 وأضمحل حاله .

(٢) النَّجْرُ وَالنَّجَارُ : الأصل ، ومحتسب : صانع لوجه الله غير منتظر جزاء
 والمعنى : إننى أتمنى أن يكون من بينكم رجل طيب الخيم كريم الأصل يُسَدِّى
 إلى معروفه ، ويصنع بى خيراً ، راجياً بذلك وجه الله إذا كان لا يريد أن يفعل
 ذلك لأشكره وأثنى عليه .

(٣) فاقمة : شديدة الصفرة ، وممشوقة : خفيفة ، وقوراء : أراد مستديرة ،
 والضمير للدینار باعتباره قطعة من الذهب .

(٤) أى أنها لحسنها وجمال رَوْنَقِهَا وبهائها يكاد الماء يتقاطر منها ، وقد
 كانت من ثمرات رجل ذى همة عالية ومرودة عظيمة .

(٥) أى أن هذه الهمة هى نفس فتى من صفته أن الكرم يملك زمام
 أموره ؛ فيجعله يتصرف فيها كيفما شاء الكرم .

يَا ذَا الَّذِي يَعْنِيهِ ذَا الشَّاهِدِ مَا يَتَقَضَى فَذَرَكَ الْإِطْرَاءَ (١)

أَمْضِ إِلَى اللَّهِ لَكَ الْجَزَاءُ (٢)

وَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ شَدَّهَا فِي قَرْنٍ مِثْلِهَا ، وَأَنْسَهَا بِأُخْتِهَا ، فَنَالَهُ النَّاسُ مَا نَالُوهُ ، ثُمَّ فَارَقَهُمْ وَتَبِعْتُهُ ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ مُتَعَامٍ ، لِسُرْعَةِ مَا عَرَفَ الدِّينَارَ (٣) فَلَمَّا نَظَّمْتَنَا خَلْوَةً (٤) ، مَدَدْتُ بُعْثَايَ إِلَى بُسْرَى عَضُدَيْهِ وَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَتُرَيْبِي سِرِّكَ ، أَوْ لَا كُشْفِنَا سِتْرَكَ ، فَفَتَحَ عَن تَوَامَتِي لَوْزَ (٥) ، وَحَدَّرْتُ لِنَامِهِ عَن وَجْهِهِ (٦) ، فَإِذَا وَاللَّهِ شَيْخُنَا أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيُّ ، فَقُلْتُ : أَنْتَ أَبُو الْفَتْحِ ؟ فَقَالَ : لَا .

أَنَا أَبُو قَلَمُونٍ فِي كُلِّ لَوْزٍ أَكُونُ (٧)

- (١) توجه بالخطاب إلى الذي منحه القطة ؛ فذكر له أن مقداره يُعجز طوقَ المادحين ، ويُبَدِّقُ قُرْأَتَهُمْ ، فلا يستطيعون الوفاء له بحق النناء .
- (٢) أضاف جزاءه إلى الله لأنه الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، فهو وحده الذي يجزي هذا الممدوح بما يستحقه .
- (٣) أي أنه ظهر لي أنه غير مكفوف حقيقة ، بل هو يتصنع ذلك ، بدليل سرعة معرفته للدینار ، ووصفه له على الفور الصفات التي لا تتنطبق على سواه .
- (٤) نظمتنا : جمعنا ، ومنه قيل للشعر : نظم ؛ لأنه يجمع الكلام المناسب بمضه إلى بعض .
- (٥) التَّوَامُ في أصل الوضع : الذي جاء مع غيره في الولادة ، واللوز معروف ، والتوأم فيه : أن يجتمع في الواحدة بُنَانٍ ، وأراد بهما عينيه ، وكفى بذلك عن صحتهما وتناسبهما .
- (٦) يقال : انحدر ، إذا نزل من أعلى إلى أسفل ، وأريد هنا مطلق الانتقال من مكان إلى آخر .
- (٧) القلمون : ثوب يراعى عند نسجه أن يظهر في عدة ألوان ، والمعنى أنه قلب لا يستقر على حال .

أَخْتَرَمِنَ الْكَسْبِ دُونًا فَإِنَّ دَهْرَكَ دُونَ^(١)
 زَجُّ الزَّمَانِ بِحَقِّ إِنَّ الزَّمَانَ زَبُونُ^(٢)
 لَا تُكَذِّبَنَّ بِعَقْلِ مَا الْعَقْلُ إِلَّا الْجُنُونُ^(٣)

(١) يقول: إن هذا الزمن دنيء سافل، يُؤاتى الأحسَاء، ويقبل على السَّفَلَة؛ فإذا شئت أن تكون ذا وَفْرٍ مُوسِرًا فاختر من الحرف ما كان دنيئا ليتناسب مع دهرك فيقبل عليك.

(٢) الزَّبُونُ: الناقة التي تدفع حالبها برجليها، أو الحرب التي يدفع بعضها بعضا، والمعنى لانتطابن من دهرك أن يسهفك بحاجتك، فإنه يدفع طالب الخير كالناقة التي تدفع حالبها، بل دافعهُ بالحق؛ لتظهر عليه، وتنال مآربك منه.

(٣) أي لاتصدق من يقول لك إن نوال أغراضك بالعقل؛ فإنه ليس الشيء الذي ينيلاك كل ماتريد إلا الجنون.

١٧ - المقامة البخارية

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

أَحَلَّنِي جَامِعَ بُخَارَى يَوْمَ وَقَدْ أَنْتَظَمْتُ مَعَ رِفْقَةٍ فِي سَمَطِ الثَّرِيَا (١) ،
 وَحِينَ أَحْتَفَلَ الْجَامِعُ بِأَهْلِهِ طَلَعَ إِلَيْنَا ذُو طِمْرَيْنِ قَدْ أَرْسَلَ صَوَانًا (٢) ،
 وَأَسْتَتَلِي طِفْلًا عُرْيَانًا (٣) ، يَضِيقُ بِالضَّرِّ وَسُعُهُ ، وَيَأْخُذُهُ الْقُرُّ وَيَدْعُهُ (٤) ،
 لَا يَمْلِكُ غَيْرَ الْقِشْرَةِ بُرْدَةً ، وَلَا يَكْتَفِي لِجِلْيَةِ رَعْدَةٍ (٥) ، فَوَقَفَ الرَّجُلُ
 وَقَالَ : لَا يَنْظُرُ لِهَذَا الطِّفْلِ إِلَّا مَنْ اللَّهُ طِفْلَهُ ، وَلَا يَرِقُّ لِهَذَا الضَّرِّ إِلَّا مَنْ
 لَا يَأْتِي مِنْ مِثْلِهِ (٦) ، يَا أَصْحَابَ الْجُدُودِ الْمَفْرُوزَةِ ، وَالْأَزْدِيَّةِ الْمَطْرُوزَةِ ، وَالذُّورِ
 الْمَنْجَدَةِ ، وَالْقُصُورِ الْمَشِيدَةِ (٧) ، إِنَّكُمْ لَنْ تَأْمَنُوا حَادِيًا ، وَلَنْ تَعْدَمُوا وَارِنًا ،

(١) السَّمَطُ : السلك مادام فيه اللؤلؤ ، والثريا : نجوم سبعة مجتمعة لا تفترق ،
 والمراد أنهم متألفون متحابون لا يتصوّر افتراقهم كما لا يتصور افتراق نجوم الثريا ،
 ويروى بدل سمط « سلك » وهو ظاهر .

(٢) ذُو طِمْرَيْنِ : أى رَجُلٌ يلبس ثوبين قد أبلى الدهر جدتهما ، والصَّوَانُ :
 وعاء الثياب ، وكفى يارساله عن عدم وجود شيء به .

(٣) أستتلي : جعله تابعا له .

(٤) القر : شدة البرد .

(٥) القِشْرَةُ : المراد بها الجلد ، والبُرْدَةُ : الثياب ، والمعنى أنه لا يجد ما يقي به
 جسده ويدفع عنه لفتح الحر وزمهرير البرد غير جلده ، ولا يكتفى : أى لا يملك الكفاية
 التى تحميه من الرعدة ، وهى اصطكاك الأسنان وقشعريرة البدن من برد ونحوه .

(٦) المعنى : إن الشفقة على هذا الطفل العريان إنما تدخل قلب امرئ له أطفال
 قد أشرب الله قلبه حبهم ، ولا يرحمه إلا إنسان يعلم أن الدهر لا يدوم على حال .

(٧) الجدود : الحظوظ ، والمفروزة : أى الممتازة ، ويروى « الخروز » : أى
 الثياب تنسج من حرير أو منه ومن الصوف ، والأردية : الأكسية ، والمطروزة :
 المعلمة ، والمنجدة : المزخرقة ، والمشيدة : أى المرفوعة .

فَبَادِرُوا الْخَيْرَ مَا أَمْكَنَ ، وَأَحْسِنُوا مَعَ الدَّهْرِ مَا أَحْسَنَ ، فَذَدَّ وَاللَّهِ طَمِينًا
السُّكْبَاجَ ، وَرَزَاكِنَا الْهَمْلَاجَ ، وَلَبَسْنَا الدِّيَابِجَ ، وَافْتَرَشْنَا الْحَشَايَا ، بِالْمَشَايَا ^(١) ،
فَمَا رَاعَنَا إِلَّا هُبُوبُ الدَّهْرِ يَغْدِرُهُ ، وَانْقِلَابُ الْمَجَنِّ لِظَهْرِهِ ^(٢) ، فَمَعَادَ الْهَمْلَاجِ
قَطُوفًا ، وَانْقَلَبَ الدِّيَابِجُ صُوفًا ^(٣) ، وَهَلُمَّ جَرًّا إِلَى مَا تَشَاهِدُونَ مِنْ حَالِي
وَزَيْبِي ، فَهِيَ نَحْنُ نَزَّ نَضِيعُ مِنَ الدَّهْرِ تُدْمِي عَقِيمٍ ، وَنَزَّ كَبُّ مِنَ الْفَقْرِ ظَهْرَ
بَيْهِيمٍ ^(٤) ، فَلَا نَزَّوْ إِلَّا بِعَيْنِ الْيَتِيمِ ، وَلَا نَمُدُّ إِلَّا يَدَ الْعَدِيمِ ^(٥) ، فَهَلْ
مِنْ كَرِيمٍ يَجْلُو غِيَاهِبَ هَذِهِ الْبُؤُوسِ ، وَيَقْلُ شَبَابَ هَذِهِ النُّحُوسِ ^(٦) ؟

(١) السُّكْبَاجُ : لحم يطبخ بالخل ، ويجعل معه صبر ، والهملاج : الدابة
السريعة في سيرها ، والديابج : الحرير ، والحشايا : جمع حَشِيَّة وهي الوسادة المحشوة
للجلوس عليها تشبه ما يسمى الآن (شَلْتَة) .

(٢) رَاعَنَا : أَفْرَعْنَا ، والمعنى : إننا كنا مُتَرَفِّين كما وصفت لكم ، فلم نشعر
إلا وقد حَارَبْنَا الدهر ، وأثار علينا غَدْرَهُ ، ورمانا بشره .

(٣) الْقَطُوفُ : الدابة البطيئة في سيرها ، والمعنى : إن كل شيء قد تبدل
وَحَالَ عما كان عليه .

(٤) الْعَقِيمُ : المرأة التي لا يولد لها ، ومن كانت هذه حالها لا يَدِرُّ نُدْيَهَا ،
فلا ينتفع بها رضيعٌ ، فهو كناية عن أن الدهر لا يجود عليهم ، وأنهم لا يحصلون
من سَعْيِهِمْ على طائل منه ، والبهيم : الذي كل لونه أسود لا يشوبه بياض ، ومنه
قولهم : « ليل بهيم » إذا اشتدَّت ظلمته ، والمراد أن الدهر أزمهم حالة واحدة سَيِّئَةٌ
(٥) الْيَتِيمُ : الصغير بعد موت أبيه ، وعادته أن يفسكسر قلبه ويحزن
فؤاده ، فإذا نظر إلى النعمة على غيره فبعين كسيرة ، والعديم : المعدم الذي لا يجد
شيئًا ، فإذا هو مَدَّ يده فإنما يدها مستجدياً لا عاطياً ، ومستميحاً لا مانحاً ، وفي
نسخة « يد الغريم » .

(٦) يَجْلُو : ينير ، وغياب : أى ظلمات ، والمفرد غَيْبٌ ، شبه الفقر =

ثُمَّ قَعَدَ مُرْتَفِعًا^(١) وَقَالَ لِلطُّفْلِ: أَنْتَ وَشَأْنُكَ، فَقَالَ: مَا عَسَى أَنْ
أَقُولَ وَهَذَا السِّكِّامُ لَوْ لَبِى الشَّعْرَ لَخَلَقَهُ، أَوْ الصَّخْرَ لَفَلَقَهُ، وَإِنْ قَلْبًا
لَمْ يُنْضِجْهُ مَا قُلْتَ لَنِي، وَقَدْ سَمِعْتُمْ يَا قَوْمُ، مَا لَمْ تَسْمَعُوا قَبْلَ الْيَوْمِ،
فَلْيَسْمَعْ كُلٌّ مِنْكُمْ بِالْجُودِ يَدَهُ، وَلْيَذْكَرْ غَدَهُ، وَاقِيَابِي وَوَلَدَهُ،
وَإِذَا كَرُونِي أَذْكَرْكُمْ، وَأَعْطُونِي أَشْكُرْكُمْ.

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَمَا آتَسَنِي فِي وَحْدَتِي إِلَّا خَاتَمٌ خَنَّتْ بِهِ
خِنْصَرُهُ^(٢)، فَلَمَّا تَنَاوَلَهُ أَنْشَأَ يَصِفُ الخَاتَمَ عَلَى الْأَصْبَعِ، وَجَعَلَ يَقُولُ:
وَمُنْطَقِي مِنْ نَفْسِهِ بِقِلَادَةِ الْجُوزَاءِ حُسْنًا^(٣)
كَمْتِيمٍ لَبِي الخَبِيدِ بِفَضْمِهِ شَفْمًا وَحُزْنًا^(٤)

= والإملاق بلبيل اشتدَّت ظلمته، استعمارة مكنية، وأسند الظلمات للبؤوس تخييلا،
ويقل: يكسر، والشبا: جمع شباة، وهى سن الرمح أو هى حدُّ كل شىء.
(١) مرتفعاً، بعين مهملة: أى فى مكان عال، ويروى «مرتفعا» بمنثاة
فوقية، ومعناه مستنداً إلى مرتفعيه، وقال للطفل: تحدث أنت عن شأنك، وصف
لم حالك الذى أنت عليه من البؤس؛ ليرقوا لك ويمطفوا عليك.
(٢) يقول: إنه لم يجد حينذاك إلا خاتماً جهله فى أصبعه الخنصر، وقد جعل
المال كالصديق الذى يؤنسك إذا انفردت، ويسليك إذا شجيت، ويروحُ
عنك إذا تأملت.

(٣) المنطقة: حزام يشدُّ به الوسط فيدور حوله، والفعل منه «انتطق» إذا
لبسها، وقد جعل البديعُ الفعل «منطق» فاعتبر الميم من أصل الكلمة، والقِلَادَةُ:
نوع من الحلى تتخذ فى الصدور، والجوزاء: مجموع كواكب، ولما كان الخاتم
ليس له منطقة خارجة عن ذاته قال: إن الدائرة التى اتخذها من نفسه.

(٤) للتيم: الذى شفّه الغرام ونزل به الوجد، والشغف: شدة الحب وهو =

مُتَأَلِّفٍ مِنْ غَيْرِ أَشْ رَتِهِ عَلَى الْأَيَّامِ خِينًا
عَلِقِ سِنِيَّ قَدْرَهُ لَكِنَّ مَنْ أَهْدَاهُ أَشْنِي (١)
أَفْسَمْتُ لَوْ كَانَ الْوَرَى فِي الْمَجْدِ لَفَطًّا كُنْتُ مَعْنَى

قال عيسى بن هشام: فقلنا ما تاح لنا من الفور (٢)، فأعرض عنا،
حامداً لنا، فتبعته حتى سمرت الخلوة عن وجهه (٣)، فإذا هو والله شيخنا
أبو الفتح الإسكندري، وإذا الطلاء زغولته، فقلت (٤):
أبا الفتح شبت، وشب الغلام، فأين السلام، وأين الكلام؟ (٥)

== يحل يشغاف القلب، والفعل منه شغف بوزن منع، ومنه قوله تعالى: (قد شففتها
حُبًّا) وإذا كان الحب حين يلقى حبيبه مسلماً أو مودعاً يضمه إلى نفسه ضماً شديداً
حتى ليخيل للناظر أنهما شخص واحد فقد شبه تضام الإصبع إلى الخاتم بهذه الهيئة.
(١) العلق: النفيس الغالي من كل شيء، وسني: أي رفيع عظيم. يقول:
إن هذا الخاتم جميل الرواء، رفيع القدر، نفيس، غير أن ذلك الذي قدمه إلى
أرفع منه قدراً.

(٢) قلنا: أعطينا، تقول: نال الشيء يناله نَيْلاً - بأى العين مثل هاب
يهاب: متعدد لمفعول واحد - وتقول: نلت فلاناً الشيء القلاني أنزله، تريد
أعطيته إياه، وتاح: أي تهيأ وتيسر، والبديع يكرر هذه العبارة كثيراً.
(٣) سمرت الخلوة عن وجهه: أظهرته وبينته لنا فوضح أمره.
(٤) الطلاء: ولد الظبية ساعة يولد، والصغير من كل شيء، ومثله الطلاء،
وجمه أطلاء وطلاء وطلبي وطلبيان، كرغفان وغربان، وزغولته: ولده.
(٥) أي أنك لم تفاتحنى الحديث، ولم تقرئني السلام، ولم تسامرني
كعادتك، مع أنك قد بلغت سنًا لا يعذر فيه من نسبي رفقته، وأهمل واجب
خالته.

فقال :

غَرِيبًا إِذَا جَمَعْتَنَا الطَّرِيقُ أَلِيْفًا إِذَا نَظَمْتَنَا أُخِيَامٌ^(١)
 دَمَلَتْ أَنَّهُ يَكْرَهُ مُحَاظَبَتِي ، فَتَرَ كُنْهُ وَأَنْصَرَفْتُ .

(١) أراد الاعتذار له عن تركه سُنَّةَ الصداقة وواجب الأخوة ، بأنه تعمد ذلك لئلا يفتضح حاله للناس ، فقال : نحن إنما نتعارف ونتذاكر حلوا الأحاديث ولذيذ الأسمار حينما نكون بِنَجْوَةٍ من الناس في مَوَاطِنِنَا وخيامنا ، فأما هنا في الطريق فلا سبيل لغير إنسكارك ، وإظهار أنه لا معرفة بيننا ؛ لأن ذلك هو مانوجه على حرفتي .

١٨ - المَقَامَةُ الْقَرْوِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

غَزَوْتُ الثَّغَرَ بِقَرْوِينَ^(١) ، سَنَةَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ ، فِيمَنْ غَزَاهُ ،
فَمَا أَجَزْنَا حَزَنًا ، إِلَّا مَبْطِنًا بَطْنًا^(٢) ، حَتَّى وَقَفَ الْمَسِيرُ بِنَا عَلَى بَعْضِ قُرَاهَا ،
فَالَّتِ الْهَاجِرَةُ بِنَا إِلَى ظِلِّ أُمَّلَاثٍ^(٣) ، فِي حُجْرَتِهَا عَيْنُ كَلْسَانَ الشَّمْعَةِ^(٤) ،
أَضْفَى مِنَ الدَّمْعَةِ ، تَسِيحٌ فِي الرِّضْرَاضِ ، سَيِّحَ النَّضْنِاضِ^(٥) ، فَنَلْنَا مِنَ
الطَّعَامِ مَا نَلْنَا ، ثُمَّ مَلْنَا إِلَى الظِّلِّ فَقَلْنَا^(٦) ، فَمَا مَلَكْنَا النَّوْمَ حَتَّى سَمِعْنَا

(١) قزوين : إحدى بلاد الديلم .

(٢) أجزنا : قطعنا ، والحزن : ما ارتفع من الأرض وغاظ ، والبطن :

المنخفض السهل ، والمعنى : إننا كنا نملو تارة ونسفل أخرى ، وارتفع أحياناً
ونخفض أخرى ؛ لأن الطريق لم تكن مَهْدَةً مُعَبَّدَةً ، بل كانت كثيرة
المنخفضات والمرتفعات .

(٣) الهاجرة : هي وقت انتصاف النهار ، وذلك وقت شدة الحر ، وقد هجرَّ

تَهَجِيرًا ، إذا سار فيها ، وَأُمَّلَاثٌ : جمع أئلة ، وهي شجرة عالية وريفة الظل .

(٤) يقال : « كَذَا فِي حُجْرَةِ كَذَا » إذا كان قريباً منه ، والمعنى : إن

بجوار هذه الأشجار عينا ماؤها يشبه لسان الشمعة ، أي يشبه ضوءها في الصفاء
والبريق .

(٥) الرضراض : الأرض ذات الحجارة الصغيرة والحصى ، والنضناض :

الحية التي تتلوى دائماً ، والمعنى : إن هذه العين تسيل على الأرض وتتلوى فوقها
كما تتلوى تلك الحية .

(٦) قال يَاقِيَةُ قَيْلُولَةَ : أي نام عند القائلة ، وهي وقت الظهيرة .

صَوْتًا أَنْكَرَ مِنْ صَوْتِ حِمَارٍ ، وَرَجَعَا أَضْفَفَ مِنْ رَجْعِ الْحَوَارِ (١) ،
 يَشْفَعُهُمَا صَوْتُ طَبْلِ كَأَنَّهُ خَارِجٌ مِنْ مَاضِيِ أَسَدٍ (٢) ، فَذَادَ عَنِ الْقَوْمِ ،
 رَائِدَ النَّوْمِ (٣) ، وَفَتَحَتْ التَّوَأْمَتَيْنِ إِلَيْهِ وَقَدْ حَالَتِ الْأَشْجَارُ دُونَهُ (٤) ،
 وَأَضْفَعَتْ فِإِذَا هُوَ يَقُولُ ، عَلَى إِقَاعِ الطُّبُولِ :

أَدْعُو إِلَيَّ اللَّهُ قَهْلٌ مِنْ مُجِيبٍ إِلَى ذَرَأِ رَحْبٍ وَمَرَعَى خَصِيبٍ (٥)
 وَجَنَّةٍ عَالِيَةٍ مَا تَنِي قُطُوفُهَا دَانِيَةً مَا تَعِيبُ (٦)
 يَا قَوْمُ إِنِّي رَجُلٌ تَائِبٌ مِنْ بَلَدِ الْكُفْرِ وَأَمْرِي عَجِيبٌ (٧)

(١) الحَوَارِ : ولد الناقة ، وَرَجَعُهُ : سيره ، وَأَرَادَ صَوْتَ سِيرِهِ ، وَصَوْتُ سِيرِ الْجَمَلِ خَفِيفٌ ، وَصَوْتُ سِيرِ الْحَوَارِ أَخْفُ ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ سَمِعَ صَوْتًا شَدِيدًا وَسِيرًا خَفِيفًا .
 (٢) يَشْفَعُهُمَا : يجعلهما اثنتين ، وهما في الحقيقة شيطان ، ولكنه قرَضَهُمَا واحدا لصدورهما عن شخص واحد ، وقد شبه صوت الطبل في جَهَارَتِهِ وَشِدَّتِهِ بصوت الأسد .

(٣) ذَادَ : منع ، وَالرَّائِدُ : الرجل يسبق القافلة ليختبر لها خِصْبَ الْأَرْضِ وَصَلَابَتَهَا السَّيْرَ أَوْ اللَّرْعَى ، وَفِي الْحَدِيثِ « وَالرَّائِدُ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ » وَجَرَى مَجْرَى الْمَثَلِ
 (٤) التَّوَأْمَتَيْنِ : أَرَادَ بِهِمَا الْعَيْنَيْنِ ، لِأَنَّهُمَا مُتَشَابِهَتَانِ فَكَأَنَّهُمَا وَلدَا مَعَا .
 (٥) الذَّرَى ، بفتح الذال : الناحية والجهة ، وَالرَّحْبُ : الواسع ، وَالخَصِيبُ :

المُرْع الكثير العُشْبِ وَالسَّكَلَاءُ ، وَالْمَعْنَى : أَنَا أَدْعُو لِدِينِ اللَّهِ ، وَهُوَ الْجَهَّةُ الْمُتَسَعَّةُ وَالرَّبِيعُ الْخَصِيبُ ؛ فَهَلْ يَتَّبِعُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ ؟
 (٦) وَنَى يَنْبِي : تَأَخَّرَ أَوْ قَصَّرَ أَوْ ابْتَعَدَ ، وَالقُطُوفُ : المراد بها الثمار ، وَالْمَعْنَى إِنْ هَذِهِ الْجَفَّةُ الَّتِي أَدْعُو إِلَيْهَا كَثِيرَةُ الثَّمَارِ مَعَ قُرْبِهَا وَعَدَمِ تَخَافِهَا عَنْ يَكُونُ فِيهَا مَنْ يَجِيبُونَ الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ .

(٧) تَائِبٌ : رَاجِعٌ ، يُؤَيِّدُهُ رَوَايَتُهَا فِي بَعْضِ النُّسخِ « تَائِبٌ » بِالْتَّاءِ الْمُثَلَّثَةِ .

(١) جَعَدْتُ رَبِّي وَأَتَيْتُ الْمُرِيبَ
 وَمُسْكِرٍ أَحْرَزْتُ مِنْهُ النَّصِيبَ (٢)
 مِنْ ذِلَّةِ الْكُفْرِ اجْتِهَادُ الْمَصِيبِ (٣)
 وَأَعْبُدُ اللَّهَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٤)
 وَلَا أَرَى الْكَعْبَةَ خَوْفَ الرَّقِيبِ (٥)
 لَيْلٍ وَأَضْنَانِي بِوَمٍ عَصِيبٍ (٦)
 فَتَجَنَّبِي إِلَيَّ فِيهِمْ غَسْرِيبٍ (٧)
 وَمَا سَوَى الْعَزْمِ أَمَامِي جَنِيبٍ (٨)
 يَكَادُ رَأْسُ الطُّفْلِ فِيهَا شَيْبٍ (٩)

إِنَّ أَكْ أَمَنْتُ فِكْمَ لَيْلَةٍ
 يَارُبِّ خِنزِيرٍ تَمَشُّشْتُهُ
 ثُمَّ هَدَانِي اللَّهُ وَأَتَانِي
 فَظَلْتُ أَخْفِي الدِّينَ فِي أَسْرَتِي
 أَسْجُدُ لِلَّاتِ حِذَارَ الْعِدَى
 وَأَسْأَلُ اللَّهَ إِذَا جَنَّبِي
 رَبِّ كَمَا أَنَّكَ أَنْقَذْتَنِي
 ثُمَّ اتَّخَذْتُ اللَّيْلَ لِي مَرْكَبًا
 فَفَدَّكَ مِنْ سَيْرِي فِي لَيْلَةٍ

- (١) جعدت ربي : أنكرته ولم أومن به . والمريب : الذي يتساطع عليك بالشكوك والأوهام ، أو الذي تفعله وأنت ترتاب فيه وتشك في صلاحيته .
- (٢) تمششته : أكلت مُشاشه ، والمشاش : جمع مُشاشة ، وهي الفظمة اللينة .
- (٣) اتناشه : أخرجه .
- (٤) قلب مُنِيب : معترف برؤيته ، سليم ، راجع إليه .
- (٥) اللات : اسم صنم ، وأراد من الكعبة جهة القبلة ، أي أنه ما كان يتوجه إليها خشية الرقباء من قومه وعشيرته ، وجعلهم عدى لمعاداتهم له في الدين .
- (٦) جنه الليل : ستره وأخفاه عن العيون .
- (٧) أي أنه كان يدعو الله أن ينجيه منهم ، ويتم نعمته عليه التي أولها إنقاذه من دينهم .
- (٨) ركب الليل : أي فيه ، والجنيب : الناقة التي يأخذها المسافر جوار ناقته ليركبها إذا تعبت الأولى ، وقد استعارها لعزمه ، دلالة على أنه كان دائم العزيمة ثابتها .
- (٩) فدك : اسم بمعنى كافيك ، أو اسم فعل بمعنى يكفيك .

حَتَّى إِذَا جُزْتُ بِلَادَ الْعِدَى إِلَى حِمَى الدِّينِ نَفَضْتُ الْوَجِيبَ (١)
 قَمَلْتُ إِذْ لَاحَ شِعَارُ الْهَدَى نَضْرُ مِنْ اللَّهِ وَفَتَحَ قَرِيبُ
 فَمَا بَلَغَ هَذَا الْبَيْتَ قَالَ : يَا قَوْمُ وَطِئْتُ دَارَكُمْ بِعَزْمٍ لَا الْعِشْقُ
 شَاقَهُ (٢) ، وَلَا الْفَقْرُ سَاقَهُ ، وَقَدْ تَرَكَتُ وَرَاءَ ظَهْرِي حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ،
 وَكَوَاعِبَ أَنْزَابًا (٣) ، وَخَيْلًا مُسَوِّمَةً (٤) ، وَقَنَاطِيرَ مُقَنْطَرَةً ، وَعُدَّةً وَعَدِيدًا ،
 وَمَرَ كِبَ وَعَعِيدًا ، وَخَرَجْتُ خُرُوجَ الْحَيَّةِ مِنْ جُحْرِهَا ، وَبَرَزْتُ بَرُوزَ
 الطَّائِرِ مِنْ وَكْرِهِ (٥) ، مُؤَثِّرًا دِينِي عَلَى دُنْيَايَ (٦) ، جَامِعًا يُمْنَأَى إِلَى
 بُسْرَايَ (٧) ، وَاصِلًا سَيْرِي بِسْرَايَ (٨) ، فَلَوْ دَفَعْتُ النَّارَ بِشَرَارِهَا ، وَرَمَيْتُمُ

(١) الوجيبُ : خَفَقَانُ الْقَلْبِ وَاضْطِرَابُ دِقَاتِهِ مِنْ خَوْفٍ أَوْ فَرَعٍ
 أَوْ نَحْوِهَا ، وَنَفَضَهُ : طَرَحَهُ كَمَا أَنَّهُ شَيْءٌ يُلْفِظُ وَيُرْمَى بِهِ ، وَذَلِكَ تَمَثِيلٌ لَشِدَّتِهِ
 وَهَوْلِهِ ، حَتَّى إِنَّهُ لِيَكَادُ يَكُونُ كَذَلِكَ .

(٢) شَاقَهُ : هَيَّجَهُ وَأَثَارَهُ ، وَالْمَعْنَى : إِنِّي لَمْ أَنْزِلْ بِلَادَكُمْ مَشُوقًا بِدَوَاعِي
 الْعِشْقِ ، وَلَا مَسُوقًا بِالرَّغْبَةِ فِي الْغَنَى .

(٣) الكواعب : الجوارى اللاتى برز نديهن ، وأنزابا : أى متشابهات فى
 السن لِدَات .

(٤) مُسَوِّمَةٌ : مَعْلَمَةٌ .

(٥) برزت : ظهرت ، ووكر الطائر : عشه .

(٦) مؤثرا : مفضلا ، تقول : آثرته أوثره إيثارا ، وفى القرآن الكريم
 (لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا) .

(٧) كناية عن عدم وجود شيء فيهما ، يريد بذلك الدلالة على إطلاقه
 يديه علامة الفقر .

(٨) السرى - بالضم مقصوداً - سير الليل كاه ، أو السير فى أوله خاصة ، =

الرُّومَ بِحِجَارِهَا، وَأَعْتَمُونِي عَلَى غَزْوِهَا^(١)، مُسَاعِدَةً وَإِسْمَاداً، وَمُرَافِدَةً وَإِرْفَاداً
وَلَا شَطَطَ فَكُلُّ عَلَى قَدْرٍ قَدْرَتِهِ، وَحَسَبِ ثَرْوَتِهِ^(٢)، وَلَا أَسْتَكْثِرُ الْبَدْرَةَ،
وَأَقْبِلُ الدَّرَّةَ، وَلَا أَرُدُّ التَّمْرَةَ^(٣)، وَلِكُلِّ مِنِّي سَهْمَانٍ : سَهْمٌ أَذْلَقَهُ لِلِقَاءِ
وَأَخْرَجُ أَفْوَقَهُ بِالِدُعَاءِ^(٤)، وَأَرْشُقُ بِهِ أَبْوَابَ السَّمَاءِ، عَنْ قَوْمِ الظُّلَمَاءِ .

قال عيسى بن هشام : فاستغزني رائعُ ألفاظِهِ^(٥) ، وسرّوتُ
عِلبَابِ النُّومِ^(٦) ، وَعَدَوْتُ إِلَى الْقَوْمِ^(٧) ، فَإِذَا وَاللَّهِ شَيْخُنَا أَبُو الْفَتْحِ

= والسير عام ، ولكنه أراد به خصوص السير بالنهار ، والمعنى جاعلا وقتي كله
سيرا طلباً للفرار ، ومبادرة إلى الهرب والنجاة منهم .

(١) يطلب منهم أن يمكنوه من غزو بلاد الروم ، وهو رومي ، فكأنهم
حين يساعدونه على ذلك قد دفنوا النار بشرارها وهي من جنس النار ، والققرة
الثانية من قولهم : «أزم فلاناً بحجره» أي بضره وقربه ومن يكون على شاكلته
(٢) الشطط : مجاوزة الحد ، والمعنى : إنه لا يريد منهم فوق الطاقة
ولا ما لا يستطيعونه .

(٣) البدرّة : ألف درهم أو أكثر ، والدرة : النملة الصغيرة أو الجزء من
الهباء ، ويضرب بها المثل في الحقايرة والقلة .

(٤) يقال : ذلّق السم؛ إذا حدّده ، وفوّقه : إذا أعدّه للرعى ، والمراد باللقاء
غزو الروم ، والمعنى إن من أعانني بما طلبت أ كافئه بأن أقوم له بالاستعداد
لنصرتي على عدوه فأنفعه عاجلاً ، وبأن أدعوه الله فأنفعه آجلاً .

(٥) استغزني : استهواني واستخفني ، ورائع : عجيب ، بديع .

(٦) سرّوتُ : أقيمت وخلعت ، والجلباب : ما يلبس فوق الثياب ،
وإضافته إلى النوم من إضافة المشبه به للمشبه ، كما في قولهم « ذهب الأصيل ،
ولجين الماء » والتماثل بينهما أن كل واحد منهما يعم البدن .

(٧) عدوتُ : أسرعت ، وسرت سيراً سريعاً .

الإسكندرِيُّ بِسَيْفٍ قَدْ شَهَّرَهُ ، وَزِيٌّ قَدْ نَكَّرَهُ^(١) ، فَمَا رَأَى غَمَزِيَّ
بِعَيْنِهِ^(٢) ، وَقَالَ : رَحِمَ اللَّهُ مَنْ أَعَانَنَا بِفَاضِلِ ذَيْلِهِ ، وَقَسَمَ لَنَا مِنْ تَيْلِهِ ،
نَمْ أَخَذَ مَا أَخَذَ ، وَخَلَوْتُ بِهِ فَقُلْتُ : أَأَنْتَ مِنْ أَوْلَادِ النَّبِيطِ ؟ فَقَالَ^(٣) :
أَنَا حَالِي مِنَ الزَّمَا نِ كَحَالِي مَعَ النَّسَبِ^(٤)
تَسَى فِي يَدِ الزَّمَا نِ إِذَا سَامَهُ انْقَلَبَ^(٥)
أَنَا أُمْسَى مِنَ النَّبِيِّ طِ وَأُضْحِي مِنَ الْعَرَبِ^(٦)

(١) شهره : رفعه ، والزي : الهيئة ، وأراد بقوله « نَكَّرَهُ » أنه غيَّره
وأخفى نفسه تحت زي لا يعرفه فيه أحد .

(٢) أى أشار إلى إشارة خفية لا تستر عليه ولا أظهر أمره .

(٣) النبيط ككلمة العجم : يطلقها العربُ على كل من ليس عربياً ، وعلى
هذا قال أبو العلاء المعري :

أَيَّنْ أُمْرُو الْقَيْسِ وَالْعَدَارَى إِذْ مَالَ مِنْ تَحْتِهِ النَّبِيطُ
اسْتَعْجَمَ الْعَرَبُ فِي الْمَوَامِي بِعَدِّكَ وَاسْتَعْرَبَ النَّبِيطُ

والموامي : جمع مَوَامَاة ، وهى الصحراء . وقيل : النبيط خاص بالإطلاق على
جيل كانوا ينزلون بالبطحاء بين العراقيين (وانظر ما ذكرناه فى ص ٢٣ و ٢٤)

(٤) تشبيهه مقلوب ، يريد أن حاله فى انتسابه مثل حال الزمان ، فسكان
الدهر سريعُ التقلبِ لا يدوم على حال واحدة ولا يبقى فى زى واحد فكذلك هو

(٥) أى أن الزمان قد امتلك زمام نفسه يُصرفه كيف شاء ؛ فهو ينتسب
طواعية للزمن وحسبما يريد ، وإضافة اليد للزمان تخييل لتشبيهه بالإنسان
المتصرف الكامل القدرة .

(٦) أراد أنه يتغير دائماً ، فالإصباح والإسماء ليس مراداً بهما معناه
الأصلى ، بل المراد مطلق التحول فى مطلق زمان .

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

أَحَلَّتْنِي دِمَشْقَ بَعْضُ أَسْفَارِي ^(١) ، فَبَيْنَمَا أَنَا يَوْمًا عَلَى بَابِ دَارِي ،
إِذْ طَلَعَ عَلَيَّ مِنْ بَنِي سَاسَانَ كَتَيْبَةٌ قَدْ لَقُوا رُؤُسَهُمْ ^(٢) ، وَصَلَّوْا بِالْمَغْرَةِ
لَبُوسَهُمْ ^(٣) ، وَتَأَبَّطُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حَجْرًا يَدُقُّ بِهِ صَدْرَهُ ^(٤) ، وَفِيهِمْ
زَعِيمُهُمْ يَقُولُ وَهُمْ يُرَاسِلُونَهُ ^(٥) ، وَيَدْعُو وَيَجَاوِبُونَهُ ، فَلَمَّا رَأَى قَالَ :

أُرِيدُ مِنْكَ رَغِيْفًا يَبْعُلُو خِيَوَانًا نَظِيْفًا ^(٦)
أُرِيدُ مِلْحًا جَرِيْشًا أُرِيدُ بَقْلًا قَطِيْفًا ^(٧)

(١) بعضُ : فاعل أحلَّ ، وأسند الإحلال للسفر لأنه السبب فيه ، والداعى إليه
(٢) الكتيبة : الجماعة من الجيش ، وأراد بها هنا مطلق الجماعة ، وبنو
ساسان : المراد بهم الشحاذون والمتسولون ، وساسانُ : آخر ملوك الفرس ، وقد
ذلوا وصاروا رعاعا بعد سقوط دولتهم ، لهذا أطلقوا على المتسولين لقب « بنو
ساسان » تهوينا لأمرهم .

(٣) حَلَّ الشيءُ بالشيء : جعله له طلاءً ، أى دهنَ ظاهره به ، والمغرة :
طين أحمر يجعل صبغا ، والمراد أنهم أشاروا بذلك إلى مسكنتهم وسوء حالهم .
(٤) تأبَّط الشيء : جعله تحت إبطه ليدق به صدره ، أى يضرب عليه به ،
وهذه إحدى عوائد المتسولين ليستنزوا الرحمة من قلوب الناس عليهم ، وليكون
أدعى إلى الإشفاق بهم .

(٥) زعيمُ القوم : رئيسهم ، ويراسلونه : يتابعونه أو يرُدُّون عليه ويجاوبونه

(٦) الخوان : المائدة قبل وضع الطعام عليها .

(٧) البقل : ما يأكله الناس أثناء طعامهم كالمقدونس مثلا ، وقطيفا :

أى ورقا بلا جذر ليكون أدعى إلى النظافة .

| | |
|----------------------------|----------------------------------|
| أُرِيدُ لَحْمًا غَرِيضًا | أُرِيدُ خَلًا ثَقِيْفًا (١) |
| أُرِيدُ جَدِيًّا رَضِيْعًا | أُرِيدُ سَخْلًا خُرُوفًا (٢) |
| أُرِيدُ مَاءً بِنَلِجٍ | يَفْشَى إِثَاءً طَرِيْفًا |
| أُرِيدُ دَنًّا مُسْدَامًا | أَقُومُ عَنْهُ نَزِيْفًا (٣) |
| وَسَاقِيًّا مُسْتَهْشَا | عَلَى الْقُلُوبِ خَفِيْفًا (٤) |
| أُرِيدُ مِنْكَ قَمِيصًا | وَجَبَّةً وَنَصِيْفًا (٥) |
| أُرِيدُ نَعْلًا كَثِيْفًا | بِهَا أُرُورُ السَّكِنِيْفَا (٦) |
| أُرِيدُ مُشْطًا وَمُوسَى | أُرِيدُ سَطْلًا وَلِيْفًا (٧) |
| يَا حَبْدًا أَنَا ضَيْفًا | لَكُمْ وَأَنْتَ مُضِيْفًا (٨) |

- (١) لحم غريض : طري ، واخل ثقيف : شديد الحموضة .
(٢) السخل : ولد الضأن ، وأبدل منه « خروفا » ليدل على أنه أراد ذكراً ؛ لأن لحم الذكور من الضأن أطيب من لحم أنثاه .
(٣) نزيفا : سكران .
(٤) مستهشا : سريع الطرب ، خفيف الحركة ، كثير الدعابة .
(٥) القميص والجبّة : معروفان ، والنصيف ، هنا : العمامة ، ويطلق على ما تغطي به المرأة وجهها كالبرقع ، قال النابغة الذبياني :
سَقَطَ النَّصِيْفُ وَلَمْ تَرُدْ إِسْقَاطَهُ فَتَنَاوَلْتَهُ وَانْتَقَنَّا بِالْيَدِ
(٦) نملا كشيئا : نخينا ، وبها يروى .
(٧) السطل : إناء يوضع الماء فيه ، معروف عند العامة ، والمراد أدوات النظافة .
(٨) المضيف : صاحب الدار الذي يكون عنده الضيف ، يقول : إذا قبلتني عندك ضيفا فنعم الضيف أنا ونعم صاحب الدار أنت .

رَضِيتُ مِنْكَ بِهَذَا . وَلَمْ أُرِدْ أَنْ أُحِيفًا^(١)

قالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : فَمَلَّتُهُ دِرْهَمًا ، وَقُلْتُ لَهُ : قَدْ آذَنْتُ بِالِدَعْوَةِ
وَسَمِعْتُ وَلَسْتَعِدُّ^(٢) ، وَنَجَّهْتُ وَنَجَّيْتُ ، وَلَكَ عَلَيْنَا الْوَعْدُ مِنْ بَعْدِ^(٣) ، وَهَذَا
الذُّرْمُ تَذْكَرَةٌ مَعَكَ ، فَخُذِ الْمَنْقُودَ ، وَانْتَظِرِ الْمَوْعُودَ ، فَأَخَذَهُ وَصَارَ
إِلَى رَجُلٍ آخَرَ ظَنَنْتُ أَنَّهُ يَلْقَاهُ بِمِثْلِ مَا لَقَيْتَنِي^(٤) ، فَقَالَ :

يَا فَاضِلًا قَدْ تَبَدَّى كَأَنَّهُ الْفُضْنُ قَدًّا^(٥)

قَدْ اشْتَهَى اللَّحْمَ ضِرْسِي فَأَجَلِدُهُ بِالْخُبْزِ جَلْدًا^(٦)

(١) أحيف : أجور أو أشق عليك ، يعني أنني أفتنع منك بهذا القدر من
الكرامة ، وما أحب أن أتقل كاهلك بالمطالب :

(٢) آذنت بالدعوة : علمتُ بها ورضيتك ضيقًا ، وسعدت : بمعنى نهيت
لك ما طلبت ، ونستعد : تهيأً للملاقاة واستقبالك .

(٣) أي : لا يكن طمعك في استدعائنا إياك اليوم ، فانتظره ، وخذ الآن
هذا الدرهم لتتذكرنا به .

(٤) أي أنني توهمت أنه حفظ هذا الكلام ؛ فهو يقوله لكل من لقيه .

(٥) تبدَّى : ظهر ، وقَدًّا : أي قامه ، وهذه اللفظة تمييز ، ومن عاداتهم أن
يشبهوا القامة بالفنن في اعتداله ، قال الشاعر وفيه اللف والنشر :

كَيْفَ أَسْلُو وَأَنْتَ حِيفٌ وَعُضْنٌ وَغَزَالٌ قَدًّا وَحُظًّا وَرِدْقًا

(٦) يقول : إن ضِرْسِي قد أجرم جرماً فظيماً باشتهائه اللحم ، وإن لم يذقه ،
فأصبح يستحق العقوبة ، فأدّها أنت بأن تجلده بالخبز ، وقد أبدع جداً في هذه
الحيلة لطلب الخبز .

وَأَمِنَنْ عَلَىَّ بِشَيْءٍ وَأَجْعَلُهُ لِلْوَقْتِ نَقْدًا^(١)
 أَطْلِقَ مِنَ الْيَدِ خَصْرًا وَأَحْلُلُ مِنَ الْكَيْسِ عَقْدًا^(٢)
 وَأَضْمُ يَدَيْكَ لِأَجْلِي إِلَى جَنَاحِكَ عَمْدًا^(٣)
 قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : فَلَمَّا فَتَقَ سَمِعِي مِنْهُ هَذَا الْكَلَامَ ، عَلِمْتُ أَنَّ
 وَرَاءَهُ فَضْلًا^(٤) ، فَتَشَبَّهْتُ حَتَّى صَارَ إِلَى أُمَّ مَشْوَاهُ^(٥) ، وَوَقَفْتُ مِنْهُ بِحَيْثُ
 لَا يَرَانِي وَأَرَاهُ ، وَأَمَاطَ السَّادَةَ لِنَمِّهِمْ^(٦) ، فَإِذَا زَعِيمُهُمْ أَبُو الْفَتْحِ
 الْإِسْكَانْدَرِيُّ ، فَفَنظَرْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ : مَا هَذِهِ الْحِيلَةُ وَيَحْكُ ؟ فَأَنْشَأَ يَقُولُ :
 هَذَا الزَّمَانُ مَشُومٌ كَمَا تَرَاهُ غَشُومٌ^(٧)

(١) نقدا : حالا ، والمعنى لا تؤخر مننتك فخير البر عاجله .

(٢) كنى بقوله « أطلق من اليد خصراً » عن تطامنه له وتواضعه وعدم الاستعلاء عليه ، ويتبع ذلك اهتمامه بشأنه وعنايته بقضائه ما يريده منه ، وذلك أن أصل من يضع يديه في خاصرتيه أن يكون تباها مستعلياً ، ومثل هذا لا يبالي الناس ولا يلتفت إلى رغبتهم ولا يابيه لشؤونهم .

(٣) أخذ قوله « واضم يديك - إلخ » من قوله تعالى : ﴿ وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ .

(٤) فتق سمى : خرقها ، كأنما كانت رتقاء ، وفضلا : بقية . والمعنى إنني حينما سمعت كلامه ورأيت يذکر لسكل واحد نوعاً من فصيح القول وبارع الأسلوب أيقنت أن لهذا المقال بقية ، وأنه لم ينضب معينه ولم تنفذ كلماته .

(٥) المشوى : الإقامة ، وأم مشواه : كناية عن امرأته ، لأنها موجودة حيث يقيم ، أو لأنها التي تحملها على الإقامة .

(٦) أماط : أزاح ، ولنمهم : جمع لثام ، وهو ما يُغَطِّي الوجه .

(٧) مشوم : أى جالب للشوم آتٍ بالنحس ، وغشوم : قاسٍ ، ظالم .

شديد الأزمات .

الْحَقُّ فِيهِ مَلِيحٌ وَالْعَقْلُ عَيْبٌ وَلَوْمٌ^(١)
وَالْمَالُ طَيْفٌ، وَلَكِنْ حَوْلَ اللَّثَامِ يَحُومٌ^(٢)

(١) الحق: العباوة وضعف العقل، ولوم: مخفف لؤم مهموزا، والمعنى إن الجهالة وضعف المدارك أمر مستحسن مقبول في زمننا هذا، والعقل منقصة ومذمة:

كَمْ عَالِمٍ عَالِمٍ أَعْيَتْ مَذَاهِبُهُ وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلَقَّاهُ مَرْرُوقًا
هَذَا الَّذِي تَرَكَ الْأَوْهَامَ حَائِرَةً وَصَيَّرَ الْعَالِمَ النَّحْرِيْرَ زِنْدِيْقًا

(٢) الطيف: الخيال الذي يمر بك في نومك، وبحوم: يدور، والمعنى إن المال سريع في انتقاله سرعة الطيف، وشيك التحول، كثير التردد، ولكنه إنما يدور على اللثام ويقع لدى الخبيثين، فمن شاء أن يُثْرَى أو يكون ذا بسطة من المال فليس له إلا أن يتصف بصفاتهم ويتخلق بأخلاقهم.

٢٠ - المَقَامَةُ القَرْدِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

بَيْنَمَا أَنَا بِمَدِينَةِ السَّلَامِ^(١) ، قَافِلًا مِنَ الْبَلَدِ الْحَرَامِ^(٢) ، أَمِيسُ^(٣) مَيْسَ الرَّجُلَةِ^(٤) ، عَلَى شَاطِئِ الدَّجَلَةِ^(٥) ، أَتَأَمَلُ تِلْكَ الطَّرَائِفَ ، وَأَتَقَصِّي تِلْكَ الزَّخَارِفَ^(٦) ، إِذِ انْتَهَيْتُ إِلَى حَلْقَةِ رِجَالِ مُزْدَحِجِينَ يَلْوِي الطَّرْبُ أَعْنَاقَهُمْ ، وَيَشُقُّ الضَّحِكُ أَشْدَاقَهُمْ^(٧) ، فَسَاقَنِي الْحُرْصُ إِلَى مَا سَاقَهُمْ ، حَتَّى وَقَفْتُ بِمَسْمَعِ صَوْتِ رَجُلٍ دُونَ مَرَأَى وَجْهِهِ لِشِدَّةِ الْهَجْمَةِ وَفَرَطِ الزَّحْمَةِ^(٧) ، فَإِذَا هُوَ قَرَّادٌ يُرْقِصُ قَرْدَهُ ، وَيُضْحِكُ مَنْ عِنْدَهُ ،

(١) مدينة السلام : هي بغداد .

(٢) قافلا : راجعا وآيبا ، والبيت الحرام : المراد مكة .

(٣) أميس : أتبختر في مشيتي ، والرجلة : نوع من البقل ، وهي تنبت في مجرى السيل وتسارع في السكر ، فيأتيها الماء فيقتلها ، وبها يضرب المثل في الحق ، وتسمى « البقلة الحقاء » .

(٤) الدجلة : نهر ببغداد ، هو والفرات صنوان .

(٥) الطرائف : جمع طريفة ، وهي الأمر الجميل المستحدث ، ومثلها الطرفة بضم أوله ، وأتقصي : أبالغ في البحث ، كأنه من بلوغ أقصى الشيء بمعنى غايته ونهايته .

(٦) يعني أنه ظهرت علائم الغرابة عليهم في التواء أعناقهم وكثرة ضحكهم .

(٧) يعني أن زحام الواقفين وكثرتهم منعتني عن رؤيته ، وإن كنت بحيث أسمع صوته .

عَرَفْتُ رَقِصَ الْمُحَرَّجِ^(١) ، وَمِيرَتُ سَيْرِ الْأَعْرَجِ^(٢) ، فَوْقَ رِقَابِ النَّاسِ
يَلْفِظُنِي عَاتِقُ هَذَا لِبُرَّةِ ذَاكَ ، حَتَّى أَفْتَرَشْتُ لِحْيَةَ رَجُلَيْنِ ، وَقَعَدْتُ بَعْدَ
الْأَيْنِ^(٣) ، وَقَدْ أَشْرَقَنِي الْخُجْلُ بِرَيْقِهِ^(٤) ، وَأَرْهَقَنِي الْمَكَانُ بِضَيْقِهِ^(٥) ،
فَلَمَّا قَرَعَ الْقَرَادُ مِنْ شُغْلِهِ ، وَأَنْتَفَضَ الْمَجْلِسُ عَنْ أَهْلِهِ ، قُمْتُ وَقَدْ كَسَانِي
الدَّهْشُ حُلَّتَهُ^(٦) ، وَوَقَفْتُ لِأَرَى صُورَتَهُ ، فَإِذَا هُوَ وَاللَّهِ أَبُو الْفَتْحِ
الْإِسْكَندَرِيُّ ، فَقُلْتُ : مَا هَذِهِ الدَّنَاءَةُ وَيْحَكَ^(٧) ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ :
الدَّنْبُ لِلْأَيَّامِ لَا لِي فَاعْتَبِ عَلَيَّ صَرْفَ اللَّيَالِي^(٨)
بِالْحَقِيقِ أَذْرَكَتُ الْمُنَى وَرَفَلْتُ فِي حُلَلِ الْجَمَالِ^(٩)

(١) المحرَّجُ : الكلبُ الذي قلده صاحبه الودع وعلمه؟ وقد أراد أسرع
في السير إليه لا اكتشاف حاله ، كما يسرع الكلب الذي علمه صاحبه شدة العدو
وسرعة القفز . (٢) المراد أنه كان يتلوَّى في سيره ذات اليمين وذات الشمال .
(٣) الأينُ : التعب والإعياء والكلال ، وأراد أنه جلس في شدة الزحمة
فكأنه جلس على وجوه الناس .

(٤) أشرقني : أعصني ، والخجل : الحياء الشديد ، والمعنى إنني خجلت
حتى سال ريقى للدرجة أني غصت به ، بإضافة الريق للخجل من إضافة الشيء
إلى سببه . (٥) أرهقني : كلَّفني شدة وحملني مشقة .

(٦) حُلَّتَهُ : لباسه ، وشبه الدهش بإنسان يكسوه بلبوسه ، وأضاف الحلة
إليه تخميلاً . (٧) الدنائة : الخسة ، والمعنى كيف تتعاطى هذه الحرفة الخسيسة
التي لا يحترفها غير أدنياء النفوس ؟

(٨) صرف الليالي : محنَّها ومصائبها ، والمعنى إنه لا ذنبَ لي في انتهاج
هذه الخطة ؛ لأن شدائد الدهر هي التي ساقتنى إليها ، فإن كنت عاتبا ولا بد
فاجعل عتابك موجهًا لها . (٩) المعنى إنني نلت ما تمنيت ، وبلغت ما أملت
بتجاهلي ؛ وذلك لأن الزمن لا يُسْعِفُ إلا الجهلاء .

٢١ - الْمَقَامَةُ الْمُوصِلِيَّةُ

حَدَّثَنَا عِدْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

لَمَّا قَفَلْنَا مِنَ الْمُوصِلِ (١) ، وَهَمَمْنَا بِالْمَنْزِلِ (٢) ، وَمَلَكَتْ عَلَيْنَا الْقَافِلَةُ ، وَأَخَذْنَا مِنَ الرَّحْلِ وَالرَّاحِلَةِ ، جَرَّتْ بِي الْحَشَاشَةُ إِلَى بَعْضِ قُرَاهَا (٣) ، وَمَعِيَ الْأِسْكَندَرِيُّ أَبُو الْفَتْحِ ، فَقُلْتُ : أَيْنَ نَحْنُ مِنَ الْحَيْلَةِ (٤) ؟ فَقَالَ : يَكْفِي اللَّهُ (٥) ، وَدُفِنْنَا إِلَى دَارٍ قَدْ مَاتَ صَاحِبُهَا ، وَقَامَتْ نَوَادِبُهَا ، وَاحْتَفَلَتْ بِقَوْمٍ قَدْ كَوَى الْجَزْعُ قُلُوبَهُمْ (٦) ، وَشَقَّتِ الْفَجِيعَةُ جُيُوبَهُمْ (٧) ،

(١) الموصل: بلدة بين العراق والجزيرة، ويقال لها والجزيرة «مَوْصِلَانِ» تفلينا

(٢) هم بالشئ وهممة: طلبه، والمعنى وطلبنا دارا نحلها وننزل فيها.

(٣) أى تافت نفسى ورغبت فى الخروج إلى بعض القرى طلبا للرياضة وترويحاً للنفس. والحشاشة: ما تبقى من الحياة، وكان السفر أجهدته وأنهك جسمه حتى فقد أكثر حياته وبقى له القليل منها؛ لذلك عبر بالحشاشة.

(٤) أى ما مقدار اتصالنا بها وقدرتنا عليها؟ وهل نحن بمقرّبة منها فنستطيع أن نجري فيها شوطا ونبلغ بها مآرباً؟

(٥) أراد إيكال الأمر له تعالى، وأنه الذى يُقَدِّرُهُم على استعمال الحيلة، و«يكفى الله» كلمة تقال فى المادة عند العزم على ارتكاب الأمر وفعله، مثل «إن شاء الله».

(٦) الجزع: الحزن، وقد شبهه بالنار فى شدة تأثيره وقوة فعله فيهم، وأستند الفعل وهو «كوى» إليه على سبيل الاستعارة التخيلية.

(٧) الفجيمة: المصيبة والكارثة والنازلة، والجيوب: جمع جيب، وهو طوقُ القميص ونحوه من الثياب، وفى الحديث: «ليس منا من لطم الخدود، وشقّ الجيوب».

وَنِسَاءً قَدْ نَشَرْنَ شَعُورَهُنَّ^(١) ، يَضْرِبْنَ صُدُورَهُنَّ ، وَشَدَدْنَ عُقُودَهُنَّ ،
يَلْطُمْنَ خُدُودَهُنَّ^(٢) ، فَقَالَ الْإِسْكَانْدَرِيُّ : لَنَا فِي هَذَا السَّوَادِ نَجْةٌ ، وَفِي
هَذَا الْقَطِيعِ سَخْلَةٌ^(٣) ، وَدَخَلَ الدَّارَ لِيَنْظُرَ إِلَى الْمَيْتِ وَقَدْ شَدَّتْ عِصَابَتُهُ
لِيُنْقَلَ ، وَسُخِّنَ مَاءُهُ لِيُغْسَلَ ، وَهِيَ تَأْبُوتُهُ لِيُحْمَلَ ، وَخِيطَتْ أُنُوبُهُ
لِيُكْفَنَ ، وَحُفِرَتْ حُفْرَتُهُ لِيُدْفَنَ^(٤) ، فَلَمَّا رَأَهُ الْإِسْكَانْدَرِيُّ أَخَذَ حَلَقَهُ ،
فَجَسَّ عِرْقَهُ ، فَقَالَ : يَا قَوْمُ اتَّقُوا اللَّهَ لَا تَدْفِنُوهُ فَهُوَ حَيٌّ ، وَإِنَّمَا عَرَّتْهُ بَهْتَةٌ ،
وَعَلَّتْهُ سَكْتَةٌ^(٥) ، وَأَنَا أَسْمُهُ مُفْتَوِّحَ الْعَيْنَيْنِ^(٦) ، بَعْدَ يَوْمَيْنِ ، فَقَالُوا : مِنْ أَيْنَ

(١) نشرن شعورهن : أرسلنها وتركنها غير مجدولة ، وهو من أعمال النساء عند نزول المصائب .

(٢) شددن عقودهن : جمع عقد بفتح أوله أى ربطن على أعناقهن وبعض المواضع من جسمهن ، ليتسنى لمن اللطم ، وفي بعض النسخ « جددن » بالجيم بدل شددن ، والمعنى قطن عقودهن ، والمراد بالعقود على هذا القلائد .

(٣) المراد بالسواد : النخيل المتكاثف ، وعبر عنه بذلك لأن لون السواد هو الظاهر الغالب عليه ، ومنه قيل لريف العراق ورساتيقها «سواد» والقطيع : جماعة الغنم ، والسخلة : ولد الضأن ذكراً أو أنثى ، والمعنى إن لنا في هذا المكان منفعة .
(٤) المراد من كل هذا الدلالة على أن الجميع قد أيقنوا بموته ، وتأكدوا من مفارقتة الحياة ، فاشتغلوا بإعداد ما يلزم لمواراته للتراب إكراماً له ؛ لأن كرامة الميت في سرعة دفنه .

(٥) عرته : نزلت به ودهته ، وبهتة : بفتة ، أى أمر منعه عن الحديث وشبهه من أمارات الحياة ، وسكته : نازلة بالمش تعطل المرء عن أعمال الأحياء ، وقد لا يكون ميتاً فيتوهم من يراه أنه مات .

(٦) مفتوح العينين : أى حيا .

لَكَ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا مَاتَ بَرَدَ أَسْتُهُ^(١) وَهَذَا الرَّجُلُ قَدْ لَمَسْتُهُ
فَعَلِمْتُ أَنَّهُ حَيٌّ، فَجَعَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي اسْتِهِ، فَقَالُوا: الْأَمْرُ عَلَى مَا ذَكَرَ،
فَأَفْعَلُوا مَا أَمَرَ^(٢)، وَقَامَ الْإِسْكَانْدَرِيُّ إِلَى الْمَيْتِ، فَفَزَعَ ثِيَابَهُ مُمَّ شَدَّ لَهُ
الْعَمَامِمْ^(٣)، وَعَلَّقَ عَلَيْهِ تَمَامِمْ^(٤)، وَالْعَقَّةُ الرَّيْتُ^(٥)، وَأَخْلَى لَهُ الْبَيْتَ،
وَقَالَ: دَعُوهُ، وَلَا فَرُّوْهُ^(٦)، وَإِنْ سَمِعْتُمْ لَهُ أَنْيْنَا فَلَا تُجِيبُوهُ، وَخَرَجَ
مِنْ عِنْدِهِ وَقَدْ شَاعَ الْخَبْرُ وَانْتَشَرَ، بِأَنَّ الْمَيْتَ قَدْ نُشِرَ، وَأَخَذْنَا الْمِبَارَّ،
مِنْ كُلِّ دَارٍ^(٧)، وَانْتَالَتْ عَلَيْنَا الْهَدَايَا مِنْ كُلِّ جَارٍ^(٨)، حَتَّى وَرِمَ كَيْسُنَا
فِضَّةً وَتَبْرًا^(٩)

(١) يروى «برد إبطه» وهي أكثر أدبا وتحشماً، بل وأقرب إلى العقل، وذلك

أن الإبط مكان كثير الدفء في حال الحياة بما يكون من اجتماع العضد إليه .

(٢) أى أننا وجدنا الأمر كما قال ، فامتثلوا أمره واعملوا بإشارته .

(٣) العمامم: جمع عمامة، وهي علامة الأحياء فوق رؤسهم كالعصائب للأموات .

(٤) التمامم: جمع تميمية، وهي ما يوضع على وجه الصبي والمسحور ونحوهما

لتقيهما العين كالتمويد، قال بعض الشعراء:

بِلَادٍ بِهَا حَلَّ الشَّبَابِ تَمَامِيٍّ وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرَابِيًّا

(٥) العقه: وضع في فمه، وإنما العقه الزيت ليلين منه ما يبس، ويطرى

ما جف .

(٦) أى أتركوه ولا تزعبوه بأصواتكم، ويروى «ولا ترَدَّعُوهُ» .

(٧) المِبَارُّ: جمع مبرة، وهي العطية، وكان الميت كان عزيزاً لدى الجميع

من جبرته وأعارفيه حتى لم تبق دار إلا وقد جاءتها صلّة منها .

(٨) انتالت: أنهالت وتتابعت، وذلك من دلالات الكثرة .

(٩) التَّبْرُ: الذهب قبل أن يُسَكَّ نقوداً، والمراد: أنه وصل إليهما ما لم

يطق كيسهما تحمله حتى لقد ورم: أى انتفخ .

وَأَمْتَلَاءَ رَحُلِنَا أَقِطًا وَتَمْرًا (١) ، وَجَهَدْنَا أَنْ نَنْتَهِيَ فُرْصَةَ (٢) فِي
 الْهَرَبِ فَلَمْ نَجِدْهَا ، حَتَّى خَلَّ الْأَجَلُ الْمَضْرُوبُ ، وَاسْتُنْجِزَ الْوَعْدُ
 الْمَكْدُوبُ (٣) فَقَالَ الْإِسْكَندَرِيُّ : هَلْ سَمِعْتُمْ لِهَذَا الْقَلِيلِ رِكْزًا (٤) ،
 أَوْ رَأَيْتُمْ مِنْهُ رَمْزًا (٥) ؟ فَقَالُوا : لَا ، فَقَالَ : إِنْ لَمْ يَكُنْ صَوْتٌ مُذْفَرَفْتُهُ ،
 فَلَمْ يَجْحَ بِعَدْوِ وَقْتِهِ (٦) ، دَعُوهُ إِلَى غَدِي فَإِنَّكُمْ إِذَا سَمِعْتُمْ صَوْتَهُ ، أَمِنْتُمْ
 مَوْتَهُ ، ثُمَّ عَرَّفُونِي لِأَحْتِمَالِ فِي عِلَاجِهِ ، وَإِصْلَاحِ مَا فَسَدَ مِنْ مِرَاجِهِ (٧) ،
 فَقَالُوا : لَا تُؤَخِّرْ ذَلِكَ عَنِّ غَدِي ، قَالَ : لَا ، فَلَمَّا أَبْتَسَمَ تَدَّرَ الصُّبْحُ (٨) ،

(١) الرحل : الوعاء يوضع فيه متاع المسافرين كالعِدْلِ ونحوه ، والأقط :
 اللبن يجعل فيه الملح ويجفف ، وربما سمي جبناً ، والتمر معروف ، والمراد أن
 العطايا لم تقتصر على النقود ، بل كان منها بعض المطاعم الجافة التي يستطيع المسافر حملها .
 (٢) جهدنا : أي بذلنا كل ما في وسعنا لنجد وقتنا يشتغل عنا القوم فيه فنطلق
 لأنفسنا العنان طلباً للنجاة منهم ، وخوفاً لما عساه أن يكون حيننا تفتضح حيلتنا
 ونظير خدعتنا .

(٣) أي طلبوا منا الوفاء بما وعدهم الإسكندري .

(٤) الرِّكْز : الصوت الخفي ، وفي التنزيل (هَلْ تَحِيسُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ
 أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ؟) .

(٥) رمزاً : إشارة ، والمراد هل ظهرت عليه أمارات من أمارات الحياة ؟

(٦) أي أن هذه التائم وقتاً يظهر أثرها إذا ظهر صوته ، فإدام لم يفعل فإن
 الوقت لم يَجْحَ .

(٧) أي أتركوه إلى غد ليصوت فتظهر فائدة هذه التائم ، ومتى فعل ذلك

لم تبق من خشية عليه ، ويريد بهذا تأجيل الموعد لعله يتمكن من الهرب .

(٨) أي حينما لاح النهار وظهرت تباشير الصباح ، والمراد أنهم سارعوا إليه

بمجرد طلوع النور وانفلاق الظلام .

وَأَنْدَشَرَ جَنَاحُ الصَّوِّ ، فِي أَفْقِ الْجَوِّ ، جَاءَهُ الرَّجَالُ أَفْوَاجًا^(١) ، وَالنِّسَاءُ
 أَرْوَاجًا ، وَقَالُوا : نَحِبُّ أَنْ تَشْفِيَ الْعَلِيلَ ، وَتَدَعَ الْفَالَّ وَالْقَيْلَ^(٢) ، فَقَالَ
 الْإِسْكَندَرِيُّ : قَوْمُوا بِنَا إِلَيْهِ ، ثُمَّ حَدَرَ التَّمَائِمَ عَنْ يَدِهِ^(٣) ، وَحَلَّ التَّمَائِمَ
 عَنْ جَسَدِهِ^(٤) ، وَقَالَ : أَنْيْمُوهُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَأَنِيَمَ ، ثُمَّ قَالَ : أَقِيمُوهُ عَلَى
 رِجْلَيْهِ ، فَأَقِيمَ ، ثُمَّ قَالَ : خَلُّوا عَنْ يَدَيْهِ ، فَسَقَطَ رَأْسًا^(٥) ، وَطَنَّ
 الْإِسْكَندَرِيُّ بِفِيهِ^(٦) وَقَالَ : هُوَ مَيِّتٌ كَيْفَ أَحْيِيهِ ؟ فَأَخَذَهُ الْخُفَّ^(٧) ،
 وَمَلَسَتْهُ الْأَكْفُ ، وَصَارَ إِذَا رُفِعَتْ عَنْهُ يَدٌ وَقَعَتْ عَلَيْهِ أُخْرَى ،
 ثُمَّ تَشَاعَلُوا بِتَجْهِيزِ الْمَيِّتِ ، فَاثْلَا نَا هَارِبِينَ حَتَّى أَتَيْنَا قَرْيَةً عَلَى شَفِيرِ وَادٍ^(٨)

- (١) الأفواج : جمع فَوْج ، أى أنهم جاءوا جماعات يتلو بعضهم بعضا .
 (٢) العليل : المريض ؛ لأنهم اعتقدوا ذلك ، والمعنى إنا لا نقبل منك
 التسوية والإمهال ، ولا نرضى إلا أن تشفيه كما زعمت .
 (٣) حدرها : أبعدها ونحَّأها عن مكانها .
 (٤) كانت التمام فوق رأسه فقط ، فعب عنها بالجسد تعبيراً باسم الكل
 عن البعض .
 (٥) سقط رأساً : أى على رأسه ، علامة على أنه لم يتمالك نفسه ، ولم يستطع
 القيام ، وذلك دلالة الموت ، ويروى « راسياً » أى ثابتاً لا يتحرك .
 (٦) الطنين : صوتُ الذباب ، ولما كان الخجل قد عقد لسانه وحبس
 صوته ، عبر به إذ هو أضعف الأصوات .
 (٧) الخف : الحذاء ، وأخذه : أى أخذوه به ، وأراد ضربوه إهانة لقدره
 واستصغاراً لشأنه ، ويروى « الجف » بالجيم ، وهو الكثير من الناس ، ومعنى
 « ملسته الأكف » أنها أحاطت به ، وتناولته من كل جهة ، حتى صار كعبد
 امتلكته فليس في طوقه الفرار منها .
 (٨) شفير الوادى : أعلى حرفه .

السَّيْلُ يُطْرَفُهَا^(١) وَاللَّاءُ يَتَحَيَّفُهَا^(٢) . وَأَهْلُهَا مُفْتَثُونَ لَا يَمْلِكُهُمْ غَضُّ اللَّيْلِ^(٣) ، مِنْ خَشْيَةِ السَّيْلِ ، فَقَالَ الإسْكَندَرِيُّ : يَا قَوْمُ أَنَا أَكْفِيكُمْ هَذَا الْمَاءَ وَمَعْرَتَهُ^(٤) ، وَأَرُدُّ عَنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ مَضْرَّتَهُ ، فَاطِيعُونِي ، وَلَا تُتَبَرِّمُوا أَمْرًا دُونِي^(٥) ، قَالُوا : وَمَا أَمْرُكَ ؟ فَقَالَ : أَدْبَحُوا فِي تَجْرِي هَذَا الْمَاءِ بَقَرَةً صَفْرَاءَ ، وَأَتُونِي بِجَارِيَةِ عَذْرَاءَ^(٦) ، وَصَلُّوا خَلْفِي رَكَعَتَيْنِ يَثْنِ اللَّهُ عَنْكُمْ عِنَانَ هَذَا الْمَاءِ ، إِلَى هَذِهِ الصَّحْرَاءِ^(٧) ، فَإِنْ لَمْ يَنْتِنِ الْمَاءُ قَدِمِي عَلَيْكُمْ حَلَالًا^(٨) ، قَالُوا : نَفْعَلُ ذَلِكَ ، فَدَبَّحُوا الْبَقَرَةَ ، وَزَوَّجُوا الْجَارِيَةَ ،

(١) يطرفها: أى يجعل بعض أطرافها داخلًا في بعضها الآخر، لأنه إذا سال في طرف انتقل سكانه إلى الطرف الثاني، مأخوذ من قولهم «طَرَفَ الخيل» إذا ردَّ أو ولَّها على آخرها.

(٢) يتحيفها: يجورُ عليها فينقص أطرافها.

(٣) الغمض: النوم، وقد شبهه بإنسان له سَطْوَةٌ ونفوذ يملك بهما، وأسند إليه الفعل تخييلًا.

(٤) مَعْرَتَهُ: أذاهُ، ولما كان في هجوم السيل عليهم خروج لهم من ديارهم وظهور لحرائرهم عبر عن أذاه بالمعرة التي هي الفضيحة والعار.

(٥) أى لا تبتئوا في هذا الشأن برأى ما لم أشاركم فيه.

(٦) عذراء: بكر، وأراد بتخصيص البقرة بأن تكون صفراء أن يوهمهم أن لهذا اللون خاصية، وأنهم متى فعلوا نجحوا في أملهم ولم تجب ظنونهم، وليوجه أفسكارهم إلى قصة بنى إسرائيل والقتيل وأن الله اختار لهم هذا اللون في بقرتهم حيث قال: (إنه يقول إنها بقرة صفراء) الآية.

(٧) يثنى: يُجَوِّلُ، وكأنه فرض الماء دابةً بجوحًا، فأضاف إليه العنان وهو اللجام.

(٨) أى: إذا لم يكن ما أردتم - وهو تحويل الماء عنكم، بعد هذا الذى أمرتكم به - فقد أبحت لكم أن تقتلوني.

وَقَامَ إِلَى الرَّكْعَتَيْنِ يُصَلِّيهِمَا ، وَقَالَ : يَا قَوْمُ احْفَظُوا أَنْفُسَكُمْ لَا يَقَعَنَّ مِنْكُمْ فِي الْقِيَامِ كَيْبُوتٌ ، أَوْ فِي الرُّكُوعِ هَفْوٌ ، أَوْ فِي السُّجُودِ سَهْوٌ ، أَوْ فِي الْقَعُودِ لَعْوٌ^(١) ، فَسَتَى سَهْوُونَا خَرَجَ أَمَلْنَا عَاطِلًا ، وَذَهَبَ عَمَلْنَا بِاطِلًا^(٢) ، وَاصْبِرُوا عَلَى الرَّكْعَتَيْنِ فَسَافَتْهُمَا طَوِيلَةٌ ، وَقَامَ لِلرُّكْعَةِ الْأُولَى فَانْتَصَبَ انْتِصَابَ الْجَذَعِ^(٣) ، حَتَّى شَكَّوْا وَجَعَ الضَّلَعِ^(٤) ، وَسَجَدَ ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُ قَدْ هَجَدَ^(٥) وَلَمْ يَشْجِعُوا لِرَفْعِ الرَّؤُوسِ ، حَتَّى كَبَّرَ لِلْجُلُوسِ ، ثُمَّ عَادَ إِلَى السَّجْدَةِ الثَّانِيَةِ ، وَأَوْمَأَ إِلَى^(٦) ، فَأَخَذْنَا الْوَادِيَّ وَتَرَكَنَا الْقَوْمَ سَاجِدِينَ ، لَا نَعْلَمُ مَا صَنَعَ الدَّهْرُ بِهِمْ ، فَأَنْشَأَ أَبُو الْفَتْحِ يَقُولُ :

(١) كبو : أى لا تملأوا الوقوف ولا تتعبوا منه فتكبووا أى تقعوا ، وهفو : أى لا تساموا طول الركوع فتسرعوا إلى القيام ، تقول « هفاهفو » إذا أسرع ، وسهو : أى لا تستطيلوا السجود مهما بلغ فيسهو أحدكم فيرفع رأسه ، ولعو : أى لا تقروا غير الوارد في السنة مهما امتد أجل القعود .

(٢) أى أن نجاح آمالنا موقوف على أداء الصلاة على وجهها الذى ذكرت لكم .

(٣) أى وقف معتدلاً اعتدال جذع الذخلة ، ثابتاً ثابتاً ، لا يتحرك ولا يميل

(٤) إذا طال القيام بلا حركة ملت الأعضاء ، وتألمت الأضلاع ، وهو قد أطل عليهم حتى أحسوا ذلك .

(٥) هجد : نام ، أى أنه أطل في السجود حتى حسبوا أن النوم قد غلبه ، ومع ذلك لم يستطيعوا أن يرفعوا رؤوسهم خوفاً مما حذرهم منه ، وهو ضياع المقصود .

(٦) أوماً إلى : أشارى إشارة خفية لأقوم معه ، ومنه قول الشاعر :

فَأَوْمَأَتْ إِيمَاءَ خَفِيًّا حَبِئَتْ فَلِلَّهِ عَيْنًا حَبِئَتْ أَيَّمَا فِتْيِ

و « أَخَذْنَا الْوَادِيَّ » يريد أنهم اختاروا لسيرهم طريق الوادى فساروا فيه قاصدين الهرب من الناس الذين اغتروا بحيلته .

لَا يُبْعَدُ اللَّهُ مِثْلِي وَأَيْنَ مِثْلِي أَيْنَا؟ (١)
 اللَّهُ غَفْلَةٌ قَوْمٍ غَنِمْتَهَا بِالْهُوَيْنَا (٢)
 أَكْتَلْتُ خَيْرًا عَلَيْهِمْ وَرَكَلْتُ زُورًا وَمَيْنَا (٣)

(١) « لا » في قوله « لا يبعد الله » دعائية ، و « يبعد » يحتمل معنيين : أحدهما أن يكون أصله البعد الذي هو ضد القرب ، والثاني أن يكون معناه لا يهلك ، يدعو لنفسه بالقرب من الله تعالى ، أو بطول الحياة ، ثم بين أنه لا نظير له في التماس الأسباب وأخذ الناس بما ينفقت عنه ذهنه من الحيل على طريق الاستفهام بقوله « وأين مثلي » .

(٢) الهويناء : تصغير الهوني ، وهي مؤنث الأهون ، وهو السهل المنال ، القريب المأخذ ، والغفلة : ذهول الإنسان عما يعرض له ، وعدم تبصره بما يعقبه .
 (٣) يقول : إنني رجل داهية ، يندر وجود مثلي في الدهاء والحيلة ، ولقد استطعت أن أصل إلى ما أغلق دون الناس جميعاً بدون كد ولا إجهاد ، وأخذت منهم عظيمًا ، ومع ذلك لم أعطهم شيئاً غير الكذب والخداع .

٢٢ - المَقَامَةُ الْمُضِيرِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

كُنْتُ بِالْبَصْرَةِ ^(١) ، وَمَعِيَ أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيُّ رَجُلٌ الْفَصَاحَةُ
يَدْعُوهَا فَتُجِيبُهُ ، وَالْبَلَاغَةُ يَأْمُرُهَا فَتُطِيعُهُ ^(٢) ، وَخَضِرْنَا مَعَهُ دَعْوَةَ بَعْضِ
الْتُّجَّارِ ، فَقَدِمْتُ إِلَيْنَا مُضِيرَةً ^(٣) ، تُذْنِي عَلَى الْخَضِرَةِ ^(٤) ، وَتَتَرَجَّرُ فِي
الْفَضَارَةِ ^(٥) ، وَتُؤْذِنُ بِالسَّلَامَةِ ^(٦) ، وَتَشْهَدُ لِمَاوِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ بِالْإِمَامَةِ ^(٧) ،

(١) البصرة : مدينة معروفة ، اختطها عقبة بن غزوان صاحب رسول الله
صلى الله عليه وسلم بأمر أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب سنة أربع عشرة من
الهجرة ، كانت مساحتها في عهد خالد القسري فرسخين في مثلها ، وبلغ عدد
سكانها في عهد المنصور الخليفة العباسي مائة عظيماً ، حتى لقد أرادوا أن يقسموا
على من يستحق العطاء ألف ألف درهم فلم يأخذ كل واحد أكثر من درهمين .

(٢) أى أنه الوحيد المالك لزام البلاغة ، والمصرف لأعنتها ، والقدير على
رياضتها ، وهى لا تعصى له أمراً ، ولا تخالف له رغبة ، ماشاء تشاء وما كرهه تكرهه .

(٣) المضيرة : نوع من الطعام ، يتخذ من اللحم واللبن الحامض ، وربما
أضيف إليه الحليب ، ثم يوضع على ذلك التوابل والأبزار .

(٤) أى : تدلك على أن أهل الخضر أقدر في صنعها من البدو فتشهد
لهم بطول الباع في صنع ألوان الطعام .

(٥) تترجج : تموج وتتحرك ، والفضارة : القصة .

(٦) أى أن من يأكلها لا يتشكى ولا يتألم ، وذلك من أسباب الإقبال

عليها ودواعى التسارع إليها .

(٧) كان جلساء معاوية رضى الله عنه يقولون : إن طعامه دسيم ، ولم
يشابهه في إمامته حال حياة على كرم الله وجهه غير من يريدون ذلك ، فلو كانت
هذه المضيرة عنده لكانت من دواعى التفافهم حوله .

فِي قَصْعَةٍ بَرَلٌ عَنْهَا الظَّرْفُ، وَيَمُوجُ فِيهَا الظَّرْفُ^(١)، فَلَمَّا أَخَذَتْ مِنَ الخُوانِ
مَكَانَهَا^(٢)، وَمِنَ القُلُوبِ أَوْطَانَهَا^(٣)، قَامَ أَبُو الفُتُوحِ الإسْكَنْدَرِيُّ يَلْعَنُهَا
وَصَاحِبَهَا، وَيَمْتَقَتُهَا وَأَكَلَهَا، وَيَتْبَلُّهَا وَطَابِخَهَا^(٤)، وَظَنَنَاهُ يَمْرُحُ فَإِذَا الأَمْرُ
بِالضَّدِّ، وَإِذَا أَلْمَزَاحُ عَيْنِ الجِدِّ^(٥)، وَتَنَحَّى عَنِ الخُوانِ^(٦)، وَتَرَكَ

(١) يزل : ينبؤ، ويبعد، ويزلق، والظرف: العين. ويروى « يكل »
من السكلال وهو الإعياء والتعب، وأصل الظرف: ذلاقة اللسان وحسن البيان
وقوة العارضة في كل ما يأخذ القلب ويملك النفس، وأراد منه هنا مجرد الحسن
والجمال، من باب إطلاق المسبب وإرادة السبب، والمعنى إن هذه القصمة كانت
براقة كثيرة الغائق شديدة اللعان، بهيجة الرواء، حتى إن البصر لا يثبت
عليها، ولا يستطيع إدامة رؤيتها؛ لأن أشد الأشياء تفريقاً للعين أكثرها وميضاً
وبريقاً، وأنها وسيمة بعيدة الجوانب حتى إن الحسن والبهاء ليموجان فيها.

(٢) الخوان - بوزن الكتاب والقراب، كما سبق مرارا، مُعَرَّب -
ما يوضع عليه الطعام، ومعنى أنها أخذت مكانها منه: أنها وضعت عليه.
(٣) الوطن: هو المحل الذي يلازمه الإنسان في أغلب حياته، وذلك
كناية عن أن جمال المضيرة قد شغف قلوبهم، وحلَّ منها محل الحبيب من
قلب المحب.

(٤) مَقَّتَهُ يَمَقُّتُهُ مَقَّتًا وَمَقَّتَ إِلَيْهِ مَقَاتَةً: أَبْفَضَهُ وَكَرِهَهُ، وَمَقَّتَهُ (بِالتَّضْعِيفِ)
فَهُوَ مَقِيَّتٌ وَمَقْمُوتٌ، وَثَلْبُهُ يَثْلِبُهُ - من باب ضرب - لَامَهُ، وَعَابَهُ، وَطَرَدَهُ،
وثلمه، والاسم المثلبة (بفتح اللام وتضم) والمعنى: إنه ما قتي بسبب ويشتم ويلوم
ويعلن كل من كانت له يد في تقديم هذه المضيرة.

(٥) المعنى: إننا ما كنا نتوهم أن يكون جادا في كلامه لما كانت عليه
المضيرة من البهاء والرونق، ولكنه كان جادا حقيقة.

(٦) تنحى : ابتعد .

مُسَاعِدَةَ الْإِخْوَانِ ، وَرَفَعْنَاهَا فَأَرْفَعَتْ مَعَهَا الْقُلُوبُ ، وَسَافَرَتْ خَلْفَهَا
 الْعُمُيُونَ^(١) ، وَتَحَلَّيْتُ لَهَا الْأَفْوَاهُ^(٢) ، وَتَهَلَّيْتُ لَهَا الشِّفَاهُ^(٣) ، وَأَتَقَدَّتْ
 لَهَا الْأَكْبَادُ ، وَمَضَى فِي إِثْرِهَا الْفُؤَادُ^(٤) ، وَلَكِنَّا سَاعَدْنَاهُ عَلَى هَجْرِهَا ،
 وَسَأَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِهَا^(٥) ، فَقَالَ : قِصَّتِي مَعَهَا أَطْوَلُ مِنْ مُصِيبَتِي فِيهَا ، وَلَوْ
 حَدَّثْتُكُمْ بِهَا لَمْ أَمِنْ الْمَقْتِ ، وَإِضَاعَةَ الْوَقْتِ^(٦) ، قُلْنَا : هَاتِ ، قَالَ : دَعَانِي
 بَعْضُ التَّجَارِ إِلَى مَضِيرَةٍ وَأَنَا بِنَبْدَادَ ، وَلَزِمَنِي مُلَازِمَةٌ الْغَرِيمِ ، وَالْكَلْبِ
 لِأَصْحَابِ الرَّقِيمِ^(٧) ، إِلَى أَنْ أَجَبْتُهُ إِلَيْهَا ، وَقَدْ نَافَجَعَلَ طُولُ الطَّرِيقِ يُبْنِي عَلَى

(١) يعني أننا كنا نتمنى لو دامت أمامنا ، فلما رفعناها كراهية منا
 توجهت إليها قلوبنا وانصرفت نحوها أعيننا .

(٢) أى : سال لعابها وجرى ريقها .

(٣) أصل التلمظ إخراج اللسان ليأخذ ما على الشفتين من آثار الطعام ،
 وقد أسنده إلى الشفتين لأنه لا بد من حركتهما حينذاك ، وكانهم تحيَّووا أنهم
 طعموا منها فتلمظوا .

(٤) اتقدت : احترقت ، وإنما يحترق كبد المرء إذا فقد عزيزاً عايبه ، وذلك
 كناية عن شدة تألمهم لتفويته عابهم لذة التمتع بأكلها ، وهضى الفؤاد : أى
 أنه قد ذهب كل منا وأخذته الدهشة فكأنه قد ضاع صوابه وفقد رُشده .

(٥) المعنى أننا واقفناه على ما فعل ، وأظهرنا له الرضا عنه والقبول لتركها ،
 غير أننا سألناه عن الذى دعاه إلى ذلك ، إذ لم يكن تركها مما يعد أمراً مَرَضِيًّا
 فنسكت عنه .

(٦) أى أن الحادثة يطول بي شرحها ، فلو أنى حدثتكم بها لخلفتُ منكم
 كراهيتي ، ولم آمن أن يضيع في سردها وقت نكون في حاجة إليه .

(٧) أصحاب الرقيم : هم أصحاب الكهف الذين جرى ذكرهم في الكتاب
 العزيز في قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ =

زَوْجَتِهِ ، وَ يُفَدِّيَهَا بِمُحَبَّتِهِ ، وَ بَصِيفُ حَذَقِهَا فِي صَنَعَتِهَا ، وَ تَأَنَّقَهَا فِي طَبْخِهَا ^(١) وَ يَقُولُ : يَا مَوْلَايَ لَوْ رَأَيْتَهَا ، وَ الْخِرْقَةَ فِي وَسْطِهَا ^(٢) ، وَ هِيَ تَدُورُ فِي الدَّرْرِ ، مِِنَ التَّنُورِ إِلَى الْقُدُورِ وَ مِِنَ الْقُدُورِ إِلَى التَّنُورِ ^(٣) ، تَنْفُثُ بِفِيهَا النَّارَ ^(٤) ، وَ تَدُقُّ بِبَيْدِهَا الْأَبْزَارَ ^(٥) ، وَلَوْ رَأَيْتَ الدُّخَانَ وَقَدْ غَبَّرَ فِي ذَلِكَ الْوَجْهَ الْجَمِيلِ ، وَ أَثَرَ فِي

== كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا مَجْبَىٰ ۝ وَ كَانَ لَهُمْ كَلْبٌ لَمْ يَفَارِقَهُمْ ، وَ الْعَرَبِيْمُ : صَاحِبُ الدِّينِ وَ هُوَ لَا يَفَارِقُ مَدِينَتَهُ وَ لَا يَخْفَفُ عَلَيْهِ الطَّلَبُ .

(١) يثنى على زوجته : يمدحها و يذكر محاسنها ، وَ يُفَدِّيَهَا بِمُحَبَّتِهِ : يجعل نفسه فِدَاءً لَهَا ، وَ ذَلِكَ كِنَايَةٌ عَنْ عَزَّتِهَا عَلَيْهِ وَ مَحَبَّتِهِ لَهَا ، وَ الْحَذَقُ - بكَسْرٍ أَوَّلُهُ وَ فَتْحُهُ - وَ مِثْلُهُ الْحَذَاقُ وَ الْحَذَاقَةُ - بكَسْرٍ هَا وَ فَتْحِهَا كَذَلِكَ - الْمَهَارَةُ ، وَ فَعْلُهُ حَذَقٌ - بوزن ضرب و علم - وَ تَأَنَّقَ فِي عَمَلِهِ : صَنَعَهُ بِالِاتِّقَانِ وَ الْحِكْمَةِ ، وَ مِثْلُهُ تَنَوَّقَ ، وَ الْمَعْنَى إِنَّهُ ظَلَّ يَصِفُ لِي مَهَارَةَ زَوْجِهِ فِي الَّذِي تَصْنَعُ مِنَ الْإِلْوَانِ وَ يَحْدِثُنِي عَنْ إِتْقَانِهَا وَ حِكْمَتِهَا فِي عَمَلِهَا . وَ الضَّمَائِرُ عَائِدَةٌ عَلَى زَوْجَتِهِ ، وَ إِذَا كَانَتْ مَاهِرَةً فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهَا فَهِيَ لَا شَكَّ حَازِقَةٌ فِي صِنْعِ الْمَضِيرَةِ ، وَ رَبَّمَا صَحَّ رَجُوعُ الضَّمِيرِ مِنْ « صَنَعَتِهَا » وَ مِنْ « طَبَخَهَا » عَلَى الْمَضِيرَةِ .

(٢) الْخِرْقَةُ : لِبَاسٌ يَجْعَلُهُ الطَّاهِي (الطَبَّاحُ) فَوْقَ صَدْرِهِ ، وَ يُرْسَلُهُ إِلَى آخِرِ ثِيَابِهِ ؛ لِيَتَّقَى بِهِ الْوَضْرَ وَ الدَّهْنَ وَ رَشَاشَ الطَّعَامِ ، وَ تَسْمَى الْآنَ بِمِصْرَ (الْفَوْطَةُ) وَ الْجَمَلَةُ كِنَايَةٌ عَنْ نِظَافَتِهَا وَ اهْتِمَامِهَا بِالتَّائِقِ وَ الْإِجَادَةِ .

(٣) التَّنُورُ : مَا يَحْبُزُ فِيهِ أَنْوَاعُ الخَبْزِ ، وَ الْقُدُورُ : جَمْعُ قِدْرٍ ، وَ هُوَ الْإِنَاءُ الَّذِي يَطْبَخُ فِيهِ .

(٤) تَنْفُثُ : تَنْفِخُ .

(٥) الْأَبْزَارُ وَ الْأَبَازِيرُ : مَا يُوَضَعُ عَلَى الطَّعَامِ لِتَمْلِيحِ طَعْمِهِ وَ إِعْطَانِهِ نَكْهَةً طَيِّبَةً كَالْفُلْفُلِ وَ الْقَرَنَفُلِ وَ نَحْوِهَا .

ذَلِكَ أَخَذَ الصَّقِيلُ ^(١) لَرَأَيْتَ مَنْظَرَ أَحَارٍ فِيهِ الْعُيُونُ، وَأَنَا أَعْشَقُهَا لِأَنَّهَا تَمَسُّعُنِي،
 وَمِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ أَنْ يُرْزَقَ الْمَسَاعِدَةَ مِنْ حَلِيلَتِهِ ، وَأَنْ يَسْعَدَ بِطَمِينَتِهِ ^(٢) ،
 وَلَا سِيَّأَ إِذَا كَانَتْ مِنْ طَيْبَتِهِ ، وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّي عَلَمًا ^(٣) ، طَيْبَتَهَا طَيْبَتِي ،
 وَمَدِينَتَهَا مَدِينَتِي ، وَعُمُومَتُهَا عُمُومَتِي ، وَأُرُومَتُهَا أُرُومَتِي ^(٤) ، لَكِنَّهَا أَوْسَعُ
 مِنِّي خَلْقًا ، وَأَحْسَنُ خَلْقًا ^(٥) ، وَصَدَعَنِي بِصِفَاتِ زَوْجَتِهِ ، حَتَّى انْتَهَمِينَا إِلَى
 مَحَلَّتِهِ ^(٦) ، ثُمَّ قَالَ : يَا مَوْلَايَ تَرَى هَذِهِ الْمَحَلَّةَ ؟ هِيَ أَشْرَفُ مَحَالٍّ بَعْدَ آدَمَ ،

(١) اخذ الصقيل : المجلو النظيف ، ويرى « الأسيل » وهو اللبن المستطيل .

(٢) أصل الظامينة : المرأة في اليهودج ، وأراد منها هنا المرأة فقط ، من باب إطلاق المقيد على المرسل ، والمعنى : إن من تمام رفاية الإنسان واطمئنان عيشته واستتباب راحته أن تكون زوجته مساعدة لا مخالفة ولا مشاكسة ، بحيث تطعمه إذا أمر ، وتسره إذا نظر ، وتحفظه إذا غاب وتفرحه إذا حضر .

(٣) علما : أى قرابة متصلة ، أى أقرب أخ لأبى .

(٤) الأرومة : الأصل ، وهى بفتح الأول - ويضم - والجمع : أروم ، وأراد من الطينة المنبت ، والمعنى : إننى وإياها نشترك فى المنبت (أى مكان الوجود) والقام (أى مكان الإقامة) والعمومة والأصل ، فهى أشبه الناس بى ، وأنا أشبه الناس بها ، ولم تكن تليق إلا لى ولم أكن أصليح إلا لها .

(٥) أى أنها أجمل منى وأحسن أخلاقا ، والخلق - يضمين - واحد الأخلاق ، وهى الخصال التى يكون عليها المرء من خير وشر ، ويعرفه علماء النفس بأنه طبيعة تحمل صاحبها على اكتساب المحمّدة أو ارتكاب المفسدة ، والخلق بفتح فسكون - الخلقة .

(٦) صدعنى : جلب إلى الصداع ، وهو - بوزن غراب - وجمع يأخذ الرأس =

يَتَنَافَسُ الْأَخْيَارُ فِي نَزْوِهَا، وَيَتَغَايَرُ الْكِبَارُ فِي حَوْلِهَا^(١)، ثُمَّ لَا يَسْكُنُهَا
غَيْرُ التُّجَّارِ، وَإِنَّمَا التَّمَرُّ بِالْجَارِ^(٢) وَدَارِي فِي السَّطَةِ مِنْ قِلَادَتِهَا^(٣)، وَالنَّقْطَةُ
مِنْ دَائِرَتِهَا، كَمْ تَقْدَرُ يَا مَوْلَايَ أَنْفِقَ عَلَى كُلِّ دَارٍ مِنْهَا؟ قُلْهُ تَحْمِينًا، إِنْ

= والفعل: صُدَّعَ - بالبناء للمجهول مضعفا - تصديما، ويجوز في الشعر صدع كعنى
فهو مصدوع . والمعنى : إنه ظل يكثر من الكلام في شأن زوجته والحديث عنها
حتى أورتني الصداع وجلب إلىَّ وَجَعَ الرَّأْسِ، وبغداد : مقسمة إلى محلات
كتقسيم القاهرة إلى (أقسام وأحياء) ، فمحلتها : أى الجهة التى يسكنها من
بغداد والحى الذى يقيم به .

(١) يقال : نافس وتنافس ، إذا رغب على وجه المباراة والمسابقة فى معالى
الأمر، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ . وغيره :
عارضه أو بادله ، والمعنى إن هذه الحلة أفضل محال بغداد وأحسنها ، لذلك ترى
الكبار والعلية يتبارون فى سكناها ، ويتسابقون للحلول بها ، ويتعارضون
فى دورها ومنازلها أو يتبادلون ذلك فيها .

(٢) من وصايا أمير المؤمنين على : يَا بُنَيَّ سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ
والجار قبل الدار ، وقد نصَّحَ به كرم الله وجهه النصيحة الغالية ، فإن جار السوء
يكدر صفو الحياة ، ويؤلم نفوس جيرانه ، وفى الحديث الشريف : « مَنْ كَانَ
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ » وهذا التاجر يقول : إن جميع جيرانه
تجار ، فهو يريد أن يتمدح جيرانه ليلزم من ذلك امتداح نفسه ومنزله ، وقد قال
بعض الشعراء :

يَلُومُونَنِي إِنْ بَعْتُ بِالرُّخْصِ مَنْزِلِي وَلَمْ يَعْلَمُوا جَارًا هُنَاكَ مُبْنَعُ
فَقُلْتُ لَهُمْ : كَفُّوا الْعَلَامَ ؛ فَإِنَّمَا بِجِيرَانِهَا تَغْلُو الدِّيَارُ وَتَرْخُصُ

(٣) السَّطَةُ : الوسط ، وأنفسُ ما يكون فى العقود والقلائد من حبات

للؤلؤهى الواسطة ، فكأنه يقول : إنه يقطن فى أشرف نقطة فى هذه الحلة .

لَمْ تَعْرِفُهُ يَقِينًا^(١)، قُلْتُ: الْكَثِيرُ، فَقَالَ: يَا سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا أَكْبَرَ هَذَا
 الْغَلَطَ! تَقُولُ الْكَثِيرَ فَقَطْ؟ وَتَنْفَسُ الصُّعْدَاءَ^(٢)، وَقَالَ: سُبْحَانَ مَنْ يَعْلَمُ
 الْأَشْيَاءَ، وَأَنْتُمْ يَمِينًا إِلَى بَابِ دَارِهِ، فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي، كَمْ تَقْدُرُ يَا مَوْلَايَ
 أَنْفَقْتُ عَلَى هَذِهِ الطَّاقَةِ^(٣)؟ أَنْفَقْتُ وَاللَّهِ عَلَيْهَا فَوْقَ الطَّاقَةِ^(٤)، وَوَرَاءَ
 الْفَاقَةِ^(٥)، كَيْفَ تَرَى صَنْعَتَهَا وَشَكْلَهَا؟ أَرَأَيْتَ بِاللَّهِ مِثْلَهَا؟ أَنْظِرُنِي إِلَى
 دَقَائِقِ الصَّنْعَةِ فِيهَا، وَتَأَمَّلْ حُسْنَ تَعْمِيرِ بَيْتِهَا، فَكَأَنَّمَا خُطَّ بِالْبَزِّ كَارِ^(٦)،
 وَأَنْظِرُنِي إِلَى حَذْقِ النَّجَّارِ فِي صَنْعَةِ هَذَا الْبَابِ، أَخَذَهُ مِنْ^(٧) كَمْ؟ قُلْ: وَمِنْ
 أَيْنَ أَعْلَمُ، هُوَ سَاجٌ مِنْ قِطْعَةٍ وَاحِدَةٍ لَا مَارُوضٌ وَلَا عَفِينٌ^(٨)، إِذَا حُرِّكَ

(١) أى إن كنت لا تستطيع أن تقدر على وجه اليقين نفقاتى على هذه
 الدار فلا بأس من أن تقول كم تتوهم أننى أنفقت
 (٢) أى: أظهر حزنه وأسفه بتنفسه من أعماق صدره تنفساً عالياً على
 عدم مبالغته له فى النفقات .

(٣) الطاقة: أراد بها النافذة (الشباك) .

(٤) فوق الطاقة: أى فوق القدرة والإمكان .

(٥) الفاقة: الفقر والإملاق، والمعنى إنه أنفق عليها مقداراً يسوق إليه

الفاقة، ويجب له الفقر، ويجزئ عليه الإملاق .

(٦) البركار - ويسمونه أيضاً الفرجار - آلة لتحديد الدوائر وتنظيمها

يأمن بها الصانع من اختلاف النسب فى التدوير، وهى التى تسمى الآن (برجل)
 والمعنى ظاهر .

(٧) يريد: من كم قطعة صنع النجار هذا الباب؟

(٨) الساج: شجر يطول ويرتفع جدا ويوجد بالهند، والمأروض: الذى

أكلته الأرض، وهى دويبة صغيرة، والعفين: الذى أصابته الرطوبة .

أَنْ (١) ، وَإِذَا نُقِرَ طَنَّ (٢) ، مَنْ ابْتَخَذَهُ يَا سَيِّدِي ؟ اتَّخَذَهُ أَبُو إِسْحَاقَ بْنَ مُحَمَّدِ الْبَصْرِيُّ ، وَهُوَ وَاللَّهِ رَجُلٌ نَظِيفُ الْأَثْوَابِ ، بَصِيرٌ بِصِنْعَةِ الْأَبْوَابِ (٣) خَفِيفُ الْيَدِ فِي الْعَمَلِ ، لِلَّهِ دَرُّ ذَلِكَ الرَّجُلِ ! بِحَيَاتِي لَا اسْتَعْنَتَ إِلَّا بِهِ عَلَى مِثْلِهِ (٤) ، وَهَذِهِ الْحَلَقَةُ تَرَاهَا اشْتَرَيْتُهَا فِي سُوقِ الطَّرَائِفِ مِنْ عَمْرَانَ الطَّرَائِفِيِّ بِثَلَاثَةِ دَنَانِيرٍ مُعْزِيَّةٍ (٥) ، وَكَمْ فِيهَا يَا سَيِّدِي مِنَ الشَّبهِ ؟ (٦) فِيهَا سِتَّةُ أَرْطَالٍ ، وَهِيَ تَدْوُرُ بِلَوْلَبٍ فِي الْبَابِ (٧) ، بِاللَّهِ دَوَّرَهَا ، ثُمَّ

(١) أى إذا افتتح أو أغلق سمع صوت يشبه الأنين .

(٢) أى وإذا دُقَّ عليه كان له طنين ، وذلك دليل سلامته وجودة خشبه

وصنعته .

(٣) أراد من وصف الصانع بأنه نظيف الأثواب أن يصف مصنوعاته بالنظافة والثراء والبهجة ، وأراد من كونه بصيرا بالصنعة أنها بالغة حدّ الإنقان متناهية في الجودة والمتانة .

(٤) أى إذا شئت أن تعمل مثل هذا الباب فلا تطلب غير ذلك الرجل الماهر الذى دَلَّتْ صنمته في هذا الباب على حِدْقِهِ .

(٥) الحلقة : هى التى يَدُقُّ بها عند الاستفتاح ، وَيُجَذَّبُ منها عند الإغلاق وسوق الطرائف : كان يبيعداد لبيع النفائس والذخائر ، والطرائف : جمع طريفة ، وهى المستحدث المعجب ، ومنه « هذا من طرائف مثل ، وهذه طُرْفَةٌ من الطَّرْفِ » ويقال : مال طريف وطرف ومطرف ومستطرف ، وأطرفت شيئا واستطرفته : أخذته طريفا ولم يكن لى ، والدنانير المُعْزِيَّةُ : المنسوبة إلى المُعْزِ لَدِينِ اللَّهِ الْفَاطِمِي . (٦) الشَّبه ، بفتححتين : النحاس الأصفر .

(٧) قال صاحب القاموس (ل ب ب) : ويقال للماء الذى يَجْمَلُ منه الفتحُ

ما يسمه فيضيق صُنْبُورُهُ عَنْهُ مِنْ كَثْرَتِهِ فَيَسْتَدِيرُ الْمَاءُ عِنْدَهُ وَبَصِيرٌ كَأَنَّهُ بِلَبْلِ أُنْيَةٍ =

أَنْفَرُهَا وَأَبْصُرُهَا ، وَبِحَيَاتِي عَلَيْكَ لَا أَشْتَرِيكَ الْخَلْقَ إِلَّا مِنْهُ ؛ فَلَيْسَ يَبِيعُ إِلَّا الْأَعْلَاقَ (١) ، ثُمَّ قَرَعَ الْبَابَ وَدَخَلْنَا الدَّهْلِيَّزَ ، وَقَالَ : عَمَّرِكَ اللَّهُ يَا دَارُ وَلَا خَرَّبَكَ يَا جِدَارُ ، قَمَا أَمْتَنَ حَيْطَانَكَ ، وَأَوْتَقَ بُنْيَانَكَ ، وَأَقْوَى أَسَاسَكَ ، تَأَمَّلْ بِاللَّهِ مَعَارِجَهَا (٢) ، وَتَبَيَّنْ دَوَائِلَهَا وَخَوَارِجَهَا ، وَسَلِّبِي : كَيْفَ حَصَلَتْهَا ؟ وَكَمْ مِنْ حِيلَةٍ أُخْتَلَتْهَا ، حَتَّى عَقَدْتَهَا (٣) ؟ كَانَ لِي جَارٌ يُكْنَى أَبَا سُلَيْمَانَ يَسْكُنُ هَذِهِ النَّحْلَةَ ، وَلَهُ مِنَ الْمَالِ مَا لَا يَسْمُهُ الْخَزْنُ ، وَمِنَ الصَّامِتِ مَا لَا يَحْضُرُهُ الْوِزْنُ (٤) ، مَاتَ رَجَمَهُ اللَّهُ وَخَلَّفَ خَلْفًا أَتْلَفُهُ بَيْنَ الْخَطِيرِ وَالزَّنْبَرِ (٥) ، وَمَرْقَهُ بَيْنَ النَّزْدِ وَالْقَمَرِ (٦) ، وَأَشَقَقْتُ أَنْ بَسُوْقَهُ قَائِدُ الْأَضْطِرَارِ ، إِلَى بَيْعِ الدَّارِ ، قَبْدِيْقِيْعَهَا فِي أَثْنَاءِ الضَّجْرِ ، أَوْ يَجْعَلُهَا عَرْضَةً لِلْخَطَرِ ، ثُمَّ أَرَاهَا ، وَقَدْ قَاتَنِي شِرَاهَا ، فَأَنْقَطَعُ عَلَيْهَا حَسْرَاتِي ، إِلَى يَوْمِ الْمَمَاتِ (٧) ، قَعِمَدْتُ إِلَى أَنْوَابٍ لَا تَنْضُ تِجَارَتَهَا فَعَمَلَتْهَا إِلَيْهِ ، وَعَرَضَتْهَا

= « لولب » قال شارح القاموس : قال أبو منصور : ولا أدري أعرابي هو أم معرب ، غير أن أهل العراق أولعوا باستعمال اللولب

(١) الأغلاق : الفئاس ، جمع علق ، ومتى كان لا يبيع إلا الذخائر وكانت

هذه منه فإنها تكون ذخيرة .

(٢) المعارج : جمع معراج ، وهو الدرج تصنعه به إلى سطح الدار ،

أو إلى الطابق الثاني منها ، وهو السلم أيضا .

(٣) عقدها : ملكتها ، وأجريت بيني وبين بائنها عقد الشراء .

(٤) الصامت : الذهب والفضة ونحوهما .

(٥) خلف : ترك ، ويقال للولد الصالح خلف بفتحين وللناقد الطالح

خلف بفتح بفتح فسكون ، وفي التنزيل (فَخَلَفَ مِنْ بَدْرِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ)

(٦) المراد أنه بدد أموال أبيه في الملامى والمناسد ومالا يسود عليه بالنائفة

(٧) أى أننى خفت أن تتحكم فيه دواعى السرف وشهوة الإنفاق . وقد

(٩ - شرح مقامات البديع)

عَلَيْهِ ^(١)، وَسَاوَمْتُهُ عَلَى أَنْ يَشْتَرِيَهَا نَسِيَةً ^(٢)، وَالْمُدْبِرُ يَحْسَبُ النَّسِيَةَ عَطِيَّةً ^(٣)،
وَالْمَخْلَفُ يَمْتَدُّهَا هَدِيَّةً، وَسَأَلْتُهُ وَثِيْقَةً بِأَصْلِ الْمَالِ، فَفَعَلَ وَرَدَّهَا لِي ^(٤)،
مُمْ تَغَافَلْتُ عَنْ اقْتِضَائِهِ ^(٥)، حَتَّى كَادَتْ حَاشِيَةٌ حَالَهُ تَرِقُّ، فَأَتَيْتُهُ
فَاقْتَضَيْتُهُ، وَاسْتَمَهَلَنِي فَأَنْظَرْتُهُ ^(٦)، وَالْتَمَسَ غَيْرَهَا مِنَ الثِّيَابِ فَأَحْضَرْتُهُ،
وَسَأَأْتُهُ أَنْ يَجْعَلَ دَارَهُ رَهِينَةً لَدَيَّ ^(٧)، وَوَثِيْقَةً فِي يَدَيَّ، فَفَعَلَ، مُمْ دَرَجْتُهُ

أضاع ما كان تحت يده من أموال أبيه - فسوقه الضرورة لبيع هذه الدار، ثم
يشتريها منه سواى، فأظل أسفا عليها إلى أن أفارق الحياة الدنيا، والضجر:
التبرم والتألم مع الملل والسامة، وأتقطع عليها حسرات: مثل قوله تعالى ﴿فَلَا
تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ أى لا تحزن ولا تشتد بك الحسرة من أجلهم.
(١) نَصَّتِ التِّجَارَةُ: كَسَدَتْ وَلَمْ تَرُجْ، أَوْ تَحَوَّلَتْ نَقْدًا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ
مَتَاعًا (ضِدَان) وَالثَّانِي هُوَ الْمُرَادُ هُنَا، وَالْمَعْنَى: أُنْتَى أَخَذْتَ بَعْضَ أَثْوَابِ
لَا يَتَصَوَّرُ أَنْ يَتَجَرَّ فِيهَا لِعَدَمِ رَوَاجِ سَوْقِهَا وَحَمَلَتَهَا إِلَيْهِ.

(٢) النَّسِيَّةُ: تَأْخِيرُ الثَّمَنِ، وَأَصْلُهُ نَسِيئَةٌ - بِالْهَمْزِ - قَلْبُ الْهَمْزَةِ يَاءٌ ثُمَّ أُذْغِمَ.

(٣) الْمُدْبِرُ: هُوَ الَّذِي يَسِيرُ إِلَى الْخَلْفِ، وَأَرَادَ مِنْهُ الْمَقْلَسَ، لِأَنَّهُ كَأَنَّهُ

بَعْدَ الْعِزِّ وَالْفَتْحِ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ عَكْسِ الَّذِي كَانَ يَسْلُكُهُ.

(٤) الْوَثِيْقَةُ: الصَّكُّ الَّذِي يَكْتُبُ فِيهِ الدِّينَ، وَعَقْدُهَا: أَى حَرَّرَهَا وَالتَّرْمَ

بِمَا فِيهَا.

(٥) اقْتِضَاؤُهُ: مَطَالِبَتُهُ بِالْدِّينِ الَّذِي عَلَيْهِ.

(٦) أَى انْتَضَرْتُ حَتَّى عَلِمْتُ أَنَّهُ مُوشِكٌ عَلَى الْإِفْلَاسِ، فَخِيتُهُ أَطْلَبُ مِنْهُ

الْأَدَاءَ، فَطَلَبُ مَنِ أَنْ أَمْهَلَهُ فَأَمْهَلْتُهُ: أَى أَعْطَيْتُهُ مُهْلَةً.

(٧) الرِّهْنُ: عَيْنُ تَوْضِعٍ فِي يَدِ الدَّائِنِ لِتَكُونَ تَأْمِينًا لَهُ عَلَى مَالِهِ، حَتَّى إِذَا

أَفْلَسَ الْمُدْبِرُ اسْتَوْفَى الدَّائِنَ مِنْهَا.

بِالْمَعَامَلَاتِ إِلَى بَيْعِهَا حَتَّى حَصَلَتْ لِي بِحَدِّ صَاعِدٍ^(١) ، وَنَحْتِ مُسَاعِدٍ ،
وَقُوَّةِ سَاعِدٍ ، وَرُبِّ سَاعِ لِقَاعِدٍ^(٢) ، وَأَنَا بِحَمْدِ اللَّهِ بِمَجْدُودٍ^(٣) ، وَفِي مِثْلِ
هَذِهِ الْأَحْوَالِ بِمَجْدُودٍ ، وَحَسْبُكَ يَا مَوْلَايَ أَنِّي كُنْتُ مُنْذُ لَيْتَالٍ نَائِمًا فِي
الْبَيْتِ مَعَ مَنْ فِيهِ إِذْ قُرِعَ عَلَيْنَا الْبَابُ ، فَقُلْتُ : مَنْ الطَّارِقُ الْمُتَنَابُ^(٤) ،

(١) درجته ، واستدرجته ، معناها : أدنيته مما أريد على التدرج ، فتدرج :
أى دنا ، وكان الأصل في اشتقاق هذا اللفظ الدرج الذى هو المراقبة لأنها تدنى
الإنسان شيئاً فشيئاً من علوها ، وجدَّ صاعد : حَظَّ موفور ، ونحت مرتفع .
(٢) رب ساعد لقاعد : أى أن بعض الناس يكدُّ نفسه ويجهدها ويحملها العناء
والمشقة ويحسبها المحاورة والمخاطر ثم لا ينال من سعيه ودأبه فائدة ، ولا يصيب
من جده ونصبه شيئاً ، بل يكون عليه الغرم ونعيمه الغنم ، وتكون مهمته العمل
ولسواء الرِّيح والجزاء ، وذلك مثله كمثل الذبالة تضىء للناس وهى تحترق ، والجملة
بدون الواو مثل ، ويروى معه « وآكل غير حامد » ويقال : إن أول من قاله
النابغة الذبياني ، وكان قد وفد إلى النعمان بن المنذر وفوداً من العرب فيهم رجل
من بنى عَبَسَ يقال له شقيق ، فمات عنده ، فلما حَبَا النعمانُ الوفودَ بعث إلى أهل
شقيق بمثل حَبَاءِ الوفد ، فقال النابغة حين بلغه ذلك : رب ساع لقاعد ، وقال
يمدح النعمان :

وَأَبْقَيْتَ لِلْعَبْسِيِّ فَضْلاً وَنِعْمَةً وَنَحْمَدُهُ مِنْ بَاقِيَاتِ الْمَحَامِدِ
حَبَاءَ شَقِيقٍ فَوْقَ أَعْظَمِ قَبْرِهِ وَمَا كَانَ يُحْبِي قَبْلَهُ قَبْرٌ وَأَفِيدِ
أَنَّى أَهْلُهُ مِنْهُ حَبَاءٌ وَنِعْمَةٌ وَرُبَّ أَمْرِيءٍ يَسْعَى لِأَخْرَاقَاعِدِ

ويروى : « اسلمى أم خالد ، رب ساع لقاعد » وقالوا : إن أول من قال
ذلك أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان .

(٣) مجدود : محظوظ .

(٤) المتتاب : الذى أتى دارك فى وقت لا يأتى فيه الناس ، وأصله الطارق =

فَإِذَا أَمْرًا مَمَّهَا عَقْدُ لَالٍ ، فِي جِلْدَةِ مَاءِ وَرَقَةِ آلٍ (١) ، نَمْرَضُهُ لِلتَّبِيعِ ،
فَأَخَذْتَهُ مِنْهَا إِخْذَةً خَلْسٍ ، وَأَشْتَرَيْتَهُ بِبَيْعِنِي بِخَسٍ (٢) ، وَسَيَكُونُ لَهُ نَفْعٌ ظَاهِرٌ ،
وَرِيحٌ وَافِرٌ ، بِعَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَدَوْلَتِكَ ، وَإِنَّمَا حَدَّثْتُكَ بِهَذَا الْحَدِيثِ لِتَعَلَّمَ
سَعَادَةَ جَدِّي فِي التَّجَارَةِ ، وَالسَّعَادَةُ تَنْبِطُ الْمَاءِ مِنَ الْحِجَارَةِ (٣) ، اللَّهُ أَكْبَرُ
لَا يُنْبِتُكَ أَصْدَقُ مِنْ نَفْسِكَ ، وَلَا أَقْرَبُ مِنْ أُمِّكَ (٤) ، أَشْتَرَيْتُ هَذَا
الْحَصِيرَ فِي الْمُنَادَاتِ ، وَقَدْ أَخْرَجَ مِنْ دُورِ آلِ الْفَرَاتِ ، وَقَتَ الْمَصَادِرَاتِ ،
وَزَمَنَ الْفَارَاتِ (٥) وَكُنْتُ أُطَلِّبُ مِثْلَهُ مِنْذُ الزَّمَنِ الْأَطْوَلِ فَلَا أَجِدُ ،

= مرة بعد مرة ، فاستعير للطارق مطلقا ، من باب إطلاق المقيد وإرادة المطلق ،
وهو معروف عند علماء البيان ، أو أنه جعل تردده على البيوت التي قبله كأنها
تردد على بيته ، وكأنه لم ينجته إلا بعد أن طرق بيوت جيرانه جميعا .

(١) لال : أصله لآلىء ، وهو جمع لؤلؤة ، ثم سهلت الهمزة فجري مجرى
قاضي ، والآل : السراب ، وهو الذي يظهر لك في الغلوات من بعيد كأنه ماء ،
يقول : إن هذا العقد في الصفاء والعمان يشبه الماء ، وفي الرقة يشبه الآل .
(٢) ثمن بخس : قليل ، وانخلس : يشبه السرقة ، فكانه حين أخذه
بالتليل من الثمن قد سرقه .

(٣) تنبیط : تُخْرِجُ ، يقول : إن من رزق السعادة وَيُؤْمِنُ الطالع وحسن
الحفظ وَجَدَ الرَّبْحَ فِي الَّذِي لَا يَتَوَهَّمُ فِيهِ ، وَأَتَاهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَنْتَظَرُهُ .

(٤) الله أكبر : كلمة أجراها مجرى التعجب كسبحان الله ، وينبتك :
أى ينخبرك ، والمعنى : إنه لا ينخبرك عن أحوالك ولا يحدتك بشؤونك أَصْدَقُ مِنْ
نَفْسِكَ ، لأنها هي التي تعلم مقدار الحقيقة ، كما لا يكون أقرب للصدق ولا أَدْعَى
إليه من الحديث عن أقرب أيامك الماضية وهو الأوس ؛ لأنه أغلقها بالذهن وأقربها
للتذكر والحفظ .

(٥) المنادات : يشبه ما يسمى الآن (بالمزاد) ، ودور الفرات : منازل =

وَالدَّهْرُ حَبْلِي لَيْسَ يَدْرِي مَا يَلِدُ^(١)، ثُمَّ اتَّفَقَ أَنِّي حَضَرْتُ بَابَ الطَّلَاقِ،
وَهَذَا يُعْرَضُ فِي الْأَشْوَاقِ، فَوَزَّيْتُ فِيهِ كَذَا وَكَذَا دِينَارًا، تَتَمَلَّنُ بِاللَّهِ
دِقَّتَهُ وَلِينَهُ، وَصَنَعْتَهُ وَلَوْنَهُ، فَهُوَ عَظِيمُ الْقَدْرِ، لَا يَقَعُ مِثْلُهُ إِلَّا فِي النَّذْرِ^(٢)،

= أسرة كان لها هذا اللقب، وكان بعضهم وزيراً للمقتدر بالله العباسي، وهو على
ابن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات، وأصلهم من صريفيين من أعمال دجيل
وكانوا أجَلَّ الناسِ فضلاً وكرماً ونبلاً ووفاءً ومروءةً، وكان أبو الحسن من أفضل
الناس وأعظمهم جوداً وكرماً، وكانت أيامه مواسم للناس وأعياداً، ولما جرت
الفتنة وخلع المقتدر بالله بن المعتضد العباسي وبويج ابن المعتز ثم استظهر المقتدر
عليه واسترجع ملكه واستقرت له الخلافة أرسل إلى أبي الحسن علي بن الفرات
فأحضره واستورزه، وخلع عليه، فنهض بتسكين الفتنة أحسن نهوض، ودبَّر
الدولة في يوم واحد، وقرر القواعد، واستمال الناس، وفي ذلك يقول بعض
شعراء الدولة:

وَدَبَّرْتَ فِي سَاعَةٍ دَوْلَةً تَمِيلُ بِغَيْرِكَ فِي أَشْهُرٍ

قالوا: إنه تولى الوزارة للمقتدر ثلاث مرات، وفي المرة الثالثة قبض عليه
ثم قتل سنة ٣١٢ وصدورت أمواله - فهو يشير بذلك إلى أنه نفيس على القدر
عظيم القيمة مما اقتناه الرؤساء واختزنته الأمراء ورغبة كبار الدولة.

(١) شبه الدهر في مجيئه بما لا يفكر فيه وإتيانه على خلاف الظنون بالمرأة
الحبلى، فإنك تعلم أنها تلد، ولكن لا تتحقق من نوع المولود، وكذلك الزمان
تعلم أن فيه حوادث ولا تدرى ما هي، وهو كالتشبيه الذى فى قول الشاعر:

وَاللَّيَالِي مِنَ الزَّمَانِ حَبَالِي مُتَقَلَّاتٌ يَلِدْنَ كُلَّ حَبِيبٍ

(٢) النَّذْرُ وَالنَّادِرُ: الْقَلِيلُ، وَالْمَعْنَى: إِنَّهُ لَا يَتَّفَقُ مِثْلَ هَذَا الْحَصِيرِ فِي كُلِّ

حين، بل إنه يغلب عدم وجوده، وذلك - بعد وصفه بالنفاسة ودقة الصنعة
وجودتها - شبه تأكيد.

وَإِنْ كُنْتَ سَمِعْتَ بِأَبِي عِمْرَانَ الْخَصِيرِيِّ فَهُوَ عَمَلُهُ، وَلَهُ ابْنٌ يَخْلُقُهُ الْآنَ
 فِي حَانُوتِهِ لَا يُوجَدُ أُعْلَاقُ الْخَصِيرِ إِلَّا عِنْدَهُ؛ فَبِحَيَاتِي لَا أَشْتَرِيَتِ الْخَصِيرَ
 إِلَّا مِنْ ذُكَاانِهِ، فَالْمُؤْمِنُ نَاصِحٌ لِإِخْوَانِهِ، لَا سِيَّامَنْ تَحَرَّمَ بِحُؤَانِهِ^(١)،
 وَتَعَوَّدُ إِلَى حَدِيثِ الْمَضِيرَةِ، فَقَدْ حَانَ وَقْتُ الظَّهِيرَةِ، يَاغْلَامُ الطُّسْتِ وَالْمَاءِ^(٢)
 فَقُلْتُ: اللَّهُ أَكْبَرُ، رَبِّمَا قُرْبُ الْفَرَجِ، وَسَهْلُ الْمَخْرَجِ، وَقَدْ مَ الْعِلَامُ، فَقَالَ:

(١) حَرَمُ الْإِنْسَانِ وَحَرِيمِهِ: مَا يَجْمَعُهُ وَيُقَاتِلُ عَنْهُ وَيَمْنَعُ دُونَهُ، وَمِنْ هَذَا
 سُمِّيَ بَيْتُ اللَّهِ الْحَرَامَ، وَفِيهِ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾
 وَيُقَالُ: «تَحَرَّمَ فُلَانٌ مِنْ فُلَانٍ بِجُرْمَةٍ» أَيْ تَمَنَعَ وَاحْتَمَى بِذِمَّةٍ، وَ«فُلَانٌ فِي
 حَرِيمِكَ» أَيْ مَنَعَتِكَ وَذِمَّتِكَ وَحِصْنِكَ وَحَمَايِكَ بِحَيْثُ تَلْتَزِمُ الدِّفَاعَ عَنْهُ،
 وَأَبُو الْفَتْحِ سَيَقْتَنَالُ مَعَ ذَلِكَ التَّاجِرَ الْمَضِيرَةَ عَلَى خِوَانٍ وَاحِدٍ، فَسَكَانُهُ لِأَذَى
 بِجَوَارِهِ وَجَأَ إِلَيْهِ وَلِذَلِكَ تَجِبُ عَلَيْهِ نَصِيحَتُهُ وَتَوْضِيحُ الْأَمْرِ لَهُ.

(٢) الطُّسْتُ وَالْمَاءُ: مَفْعُولَانِ لِفِعْلِ مَضْمَرٍ، أَيْ أَحْضَرَهُمَا، وَالطُّسْتُ: كَلِمَةٌ
 تَقَرَّدَتْ بِهَا الْفَرَسُ دُونَ الْعَرَبِ، فَاضْطَرَّتِ الْعَرَبُ إِلَى إِدْخَالِهَا فِي لَفْظِهَا، وَالْأَمْرُ
 فِي ذَلِكَ عَلَى وَجْهِهِ، فَمِنْهُ مَا يَكُونُ فِي اللَّفْظَيْنِ قَائِمًا عَلَى لَفْظٍ وَاحِدٍ، وَذَلِكَ مِثْلُ
 التَّنُورِ، وَالخَمِيرِ، وَالزَّمَانِ، وَالدِّينِ، وَالسِّكِّزِ، وَالدَّرْهِمِ، وَالِدَيْنَارِ، وَمِنْهُ مَا لَا
 وَجُودَ لَهُ إِلَّا فِي الْفَارْسِيَّةِ فَتَعَرَّبَهُ الْعَرَبُ بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ التَّعْرِيْبِ كَالْفَتْحِ مِثْلًا
 أَوْ تَنْقَلُهُ بِجَمَالِهِ، وَذَلِكَ كَثِيرٌ مِثْلُ: الْكُوزِ، وَالْإِبْرِيْقِ، وَالطُّسْتِ، وَالخِوَانِ،
 وَالطَّبْقِ، وَالْقَصْعَةِ، وَالخِزِّ، وَالِدِيْبَاجِ، وَالسَّنْدَسِ، وَالْيَاقُوتِ، وَالْفَيْرُوزِجِ،
 وَاللُّوزِيْنِجِ، وَالْجِلَابِ، وَالسُّكْرُوبَا، وَالقِرْقَرَةَ، وَالزَّجْبِيلَ، وَالزَّجْسَ، وَالْبَنْفَسِجَ،
 وَالسَّوْسَنَ، وَالْمَسْكَ، وَالْعَنْبَرَ، وَمِنْهُ نَوْعٌ انْتَسَبَتْ فَارْسِيَّتُهُ وَحِكْمِيَّتُهُ عَرَبِيَّتُهُ مِثْلُ:
 الْكَفِّ، وَالسَّاقِ، وَالْفِرَاشِ، وَالْبِرَازِ، وَالْوَزَانَ، وَالسِّكِّيَالَ، وَالْمَسَاحَ، وَالذَّلَالَ
 وَالصَّرَافَ، وَالْبَيْطَارَ، وَالخَرَاطَ، وَالغَلَطَ، وَالصَّوَابَ، وَالخُلُوقَ، وَالْمِشْجَبَ، =

تَرَى هَذَا الْغُلَامَ؟ إِنَّهُ رُومِيٌّ الْأَضْلَى، عِرَاقِيٌّ النَّشْءُ^(١). تَقَدَّمَ بِأَغْلَامٍ وَأَحْسِرَ عَنْ رَأْسِكَ^(٢)، وَشَمَّرَ عَنْ سَافِكَ، وَأَنْضُ عَنْ ذِرَاعِكَ^(٣)، وَافْتَرَّ عَنْ أَسْنَانِكَ^(٤)، وَأَقْبَلَ وَأَذْبَرَ، فَفَعَلَ الْغُلَامُ ذَلِكَ، وَقَالَ التَّاجِرُ: بِاللَّهِ مَنْ اشْتَرَاهُ؟ اشْتَرَاهُ وَاللَّهِ أَبُو الْعَبَّاسِ، مِنْ النَّخَّاسِ^(٥)، ضَعَّ الطَّسْتَ، وَهَاتَ الْإِبْرِيْقَ، فَوَضَعَهُ الْغُلَامُ، وَأَخَذَهُ التَّاجِرُ وَقَلْبَهُ وَأَدَارَ فِيهِ النَّظَرَ ثُمَّ نَقَرَهُ، فَقَالَ: انظُرْ إِلَى

= وَاللَّهُو، وَالقِمَار، وَالسَفْط، وَكَمَا نَقَلَتِ الْعَرَبُ عَنِ الْفَارْسِيَّةِ فَقَدْ نَقَلَتْ عَنِ لُغَاتٍ أُخْرَى كَالرُّومِيَّةِ، وَذَلِكَ مِثْلُ الْفِرْدَوْسِ لِلْبُسْتَانِ، وَالْقِسْطَاطِ: الْمِيزَانُ، وَالسَّجَنْجَلِ: الْمِرَاةُ، وَالْبَطَاقَةُ: لِرُقْعَةٍ فِيهَا رَقْمُ الْمَتَاعِ، وَالْقَسْطَلُ: الْعُبَّارُ، وَالنَّقْرَسُ وَالْقَوْلُجُ: مَرَضَانِ مَعْرُوفَانِ، وَالتَّرْيَاقُ: دَوَاءُ السَّمُومِ، وَالقَرَامِيدُ: الْحِجَارَةُ، وَالْقِنْطَارُ: مَعْرُوفٌ.

وَإِنَّمَا بَسَطْنَا الْكَلَامَ وَالتَّنْقَلَ هُنَا بَعْضَ الْبَسْطِ لِثَبِيرِهِمْ أَدْبَاءَ أَمْنَا وَعِلْمَائِهِا الْمَتَمَكِّنِينَ فِي اللُّغَةِ، الضَّارِّ بَيْنَ فِيهَا بِسْمِهِمْ وَفِيهِ إِلَى كَدِّ قِرَائِهِمْ، وَانصَالِ مَجْهُودَاتِهِمْ، لِيَنْقَلُوا أَوْ يُعَمَّرُوا بِأُولَئِكَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي اسْتُخْدِمَتْ بَعْدَ عَهْدِ آبَائِنَا وَمُورَثِينَا، وَلَقَدْ شَهِدْنَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ قَدْ شَهِدَ لَهَا الْعَدُوُّ قَبْلَ الْحَمِيمِ بِأَنَّهَا أَوْسَعُ اللُّغَاتِ، وَأَقْوَاهَا عَلَى اِحْتِمَالِ آلَافِ الْكَلِمَاتِ.

(١) النَّشْءُ: الْمُنشَأُ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ رُومِيٌّ، تَرَبَّى بِالْعِرَاقِ، وَتَعَلَّمَ الْخِدْمَةَ فِيهَا وَنَشَأَ عِنْدَ أَهْلِهَا.

(٢) أَحْسِرَ: أَكْشَفَ، لِيُظْهَرَ شَعْرَكَ وَسَلَامَةَ رَأْسِكَ.

(٣) أَنْضُ: أَنْزَعَ، مِنْ نَضًا ثَوْبَهُ يَنْضُوهُ؛ إِذَا خَلَعَهُ.

(٤) وَافْتَرَّ: أَى اضْحَكَ حَتَّى تَكْشِفَ عَنِ أَسْنَانِكَ.

(٥) النَّخَّاسُ: الَّذِي يَبِيعُ الْعَبِيدَ، وَيَطْلُقُ الْعَبْدَ عَلَى الْأَبْيَاضِ وَالْأَسْوَدِ

بِالسَّوَاءِ، وَلَا يَخْتَصُّ نَوْعًا دُونَ نَوْعٍ.

هَذَا الشَّبَّهُ كَأَنَّهُ جِدْوَةُ اللَّهَبِ ، أَوْ قِطْعَةٌ مِنَ الذَّهَبِ ^(١) ، شَبَّهُ الشَّامَ ،
 وَصَنَعَهُ الْعِرَاقِي ^(٢) ، لَيْسَ مِنْ خُلُقَانِ الْأَعْلَاقِ ^(٣) ، قَدْ عَرَفَ دُورَ الْمُلُوكِ
 وَدَارَهَا ^(٤) ، تَأَمَّلْ حُسْنَهُ وَسَلِّمْ مَتَى اشْتَرَيْتَهُ ؟ اشْتَرَيْتَهُ وَاللَّهِ عَامَ الْمَجَاعَةِ ،
 وَادَّخَرْتَهُ لِهَذِهِ السَّاعَةِ ، يَا غَلَامُ الْإِبْرِيْقِ ، فَقَدَّمَهُ ، وَأَخَذَهُ التَّاجِرُ فَقَلَّبَهُ ، ثُمَّ
 قَالَ : وَأَنْبُوبُهُ مِنْهُ ^(٥) ، لَا يَصْلُحُ هَذَا الْإِبْرِيْقُ إِلَّا لِهَذَا الطَّنْتِ ، وَلَا يَصْلُحُ هَذَا
 الطَّنْتُ إِلَّا مَعَ هَذَا الدَّسْتِ ^(٦) ، وَلَا يَحْسُنُ هَذَا الدَّسْتُ إِلَّا فِي هَذَا الْبَيْتِ ،
 وَلَا يَجْمَلُ هَذَا الْبَيْتُ إِلَّا مَعَ هَذَا الضَّيْفِ ، أُرْسِلِ الْمَاءَ يَا غَلَامُ ، فَقَدْ حَانَ
 وَقْتُ الطَّعَامِ ، بِاللَّهِ تَرَى هَذَا الْمَاءَ مَا أضعَفَاهُ ، أُرْزِقُ كَعَيْنِ السَّنُورِ ^(٧) ،

(١) أى : أن نحاس هذا الإبريق في صفائه ولمعانه يشبه القطعة من النار ،
 لأنها تبرق وتلمع ، أو القطعة من الذهب لأنها صافية براءة .

(٢) أى أنه من نحاس الشام ، وكانت مشهورة بجودة نحاسها ، وقد صنع
 في العراق ، وهى إذ ذاك مهبط الحذق ومعنى المهارة .

(٣) خُلُقَان : جمع خَلَقَ وهو البالي ، والأعلاق : جمع عَلَقَ وهو النفيس ،
 والمعنى : إنه نفيس ، ولكن لم يتطرق إليه البلى مع طول العهد به ، وذلك مما
 يؤكد جَوْدَةَ أصله .

(٤) أى أنه كان عند بمض الملوك .

(٥) الأنبيوب : المسكان الذى ينزل منه الماء .

(٦) الدَّسْتُ : المسكان المهيأ لمقابلة الضيْفَانِ ، وهو أشرف ما يكون في

البيت وصدر الدار .

(٧) السنور : القط .

وصَافٍ كَقَضِيبِ الْبِلُورِ^(١)، اسْتَقَى مِنَ الْفِرَاتِ^(٢)، وَاسْتَعْمَلَ بَعْدَ الْبَيَاتِ^(٣) فَبَجَاءِ كَلِسَانَ الشَّمْعَةِ، فِي صَفَاءِ الدَّمْعَةِ، وَابْيَاسِ الشَّانِ فِي السَّقَاءِ، الشَّانُ فِي الْإِنَاءِ، لَا يَدُلُّكَ عَلَى نِظَافَةِ أَسْبَابِهِ، أَصْدَقُ مِنْ نِظَافَةِ شَرَابِهِ^(٤)، وَهَذَا الْمُنْدِيلُ سَلَنِي عَنْ قِصَّتِهِ، فَهُوَ نَسِجُ جُرْجَانَ^(٥)، وَعَمَلُ أَرْجَانَ، وَقَعَ إِلَى فَاشْتَرَيْتُهُ، فَأَخَذَتْ أُمْرَأَتِي بَعْضَهُ سَرَائِيلًا، وَأَتَّخَذْتُ بَعْضَهُ مِنْدِيلًا^(٦)، دَخَلَ فِي سَرَائِيلِهَا عِشْرُونَ ذِرَاعًا، وَأَنْتَزَعْتُ مِنْ يَدِهَا هَذَا الْقَدْرَ أَنْتَزَاعًا^(٧)، وَأَسْلَمْتُهُ إِلَى الْمُطَرِّزِ حَتَّى صَنَعَهُ كَمَا تَرَاهُ وَطَرَّزَهُ^(٨)، ثُمَّ رَدَدْتُهُ مِنَ الشُّوقِ، وَخَزَنْتُهُ فِي الصُّنْدُوقِ، وَأَدَخَرْتُهُ لِلظَّرَافِ، مِنْ

(١) البلور - بوزن تتور وسنور وسبطر - نوع من الزجاج ، وقال الفيروذبادي : إنه جوهر ، يريد هذا ، ويضرب به المثل في النقاء والصفاء .
(٢) اسْتَقَى : أَخَذَ .

(٣) أى ولم نستعمله إلا بعد أن ظل ليلته في إناء ليبرد ويتم صفاءه .
(٤) أى أن الإناء الذى بات فيه هو سبب صفائه ونظافته ، ويدل ذلك على ذلك ما تجده في الماء من هذه النعوت والصفات .

(٥) المنديل : خرقه تستعمل في تجفيف الأيدي من الماء ، وأرجان - بهمة مفتوحة فراء مشددة مفتوحة - إحدى بلاد فارس .

(٦) سراويل : جمع سروال أو سروالة أو سرويل - بكسر السين في الثلاثة ، وبالشين الثلاثة لفة - وهو نوع من الثياب .

(٧) انتزعت : أخذت بشدة ، والمعنى أنها كانت تريد أن تستيقه كله لنفسها ضنا به وحرصا عليه لجودته ونفاسته ، ولكنى لم أشأن أوافقها على ذلك ، بل أخذته منها رغماً عنها .

(٨) طَرَّزَهُ : وَشَى أطرافه بالحري ونحوه ، والتطر يز معروف إلى اليوم .

الاضْيَافِ^(١) ، لَمْ تُذَلِّهِ عَرَبُ الْعَامَّةِ بِأَيْدِيهَا ، وَلَا النِّسَاءُ مِمَّا قَبِيهَا^(٢) ، فَلِكُلِّ عِلْقِ يَوْمٍ ، وَلِكُلِّ آتَةٍ قَوْمٍ^(٣) ، يَا غُلَامُ الْخِيَوَانَ ، فَقَدْ طَالَ الزَّمَانُ ، وَالْقِصَاعَ ، فَقَدْ طَالَ الْمِصَاعُ^(٤) ، وَالطَّعَامَ ، فَقَدْ كَثُرَ السِّكْلَامُ ، فَأَتَى الْغُلَامُ بِالْخِيَوَانَ ، وَقَلْبَهُ التَّاجِرُ عَلَى الْمَكَانِ ، وَنَقَرَهُ بِالْبَنَانِ ، وَعَجَمَهُ بِالْأَسْنَانِ^(٥) ، وَقَالَ : عَمَّرَ اللَّهُ بَعْدَادَ فَمَا أُجُودَ مَتَاعَهَا ، وَأُظْرَفَ صُنَاعَهَا ، تَأَمَّلْ بِاللَّهِ هَذَا

(١) ادخرته : أبقيته ، والظراف ، بكسر أوله : جمع ظريف ، وهو الحسن

الزى الجميل المنظر .

(٢) أى لم أخرجه لأحدٍ حتى تتبدله العامة فتذله ، وكأنه جعل استعمال

غير الظراف له مذلة وهوانا ، والفعل يصح قراءته مضعفاً ومن غير تضعيف ، يقال : ذلّه وأذله واستذله - بتشديد اللام فيهن - كما يقال : أذلتته ، والمعنى أهنته واحقرته وهونت من شأنه ولم أحسن القيام عليه . والمآتى : جمع مؤق وهو مؤخر العين مما يلي الأنف ، فأما مما يلي الصدغ فهو اللحاظ بكسر أوله .

(٣) يعنى أنه لا يجوز أن يجعل كل شيء من النفائس لكل ضيف طارق ،

بل ينبغى أن ترتب معدّات البيوت على قدر الناس ومستواهم .

(٤) المصاع - بكسر أوله - أصله الجالدة ، وما أشبه هذا الحديث البارد

والكلام المليل بالقتالة والمكاحفة ، ولعمري لو أن أبا الفتح كان فى مفرّكة

القتال لما لقي من الضيق وتآلم النفس وشدة الكرب عشيّر ما لقيه من صاحبه ،

ولما كان يحتمل من بأس خصمه وشجاعته وقوته وجلاده نصف ما لقيه من

نذالة هذا الأحمق وبرود طبيعته ، والقصاع : جمع قصعة .

(٥) قلبه على المكان : أى على القور ، هذا هو الذى يتبادر لنا ، ولعل

الأصل فيه أن المرء إنما يحصل منه فى مكانه الذى يكون فيه أحب الأشياء إليه

سرعة نفاذٍ واقتراب مضاء ، ولم نثر على تعبير مثل هذا ولا حلّ له ، ونقره : ضربه ،

الْخَوَانُ ، وَانظُرْ إِلَى عَرَضِ مَنَدِهِ ، وَخَفَةِ وَزْنِهِ ^(١) ، وَصَلَابَةِ عُوْدِهِ ، وَحُسْنِ
شَكْلِهِ ، قَمَلْتُ : هَذَا الشَّكْلُ ، فَتَى الْأَكْلِ ^(٢) ؟ فَقَالَ : الْآنَ ، عَجَلٌ يَاغْلَامُ
الطَّعَامِ ^(٣) ، لَكِنَّ الْخَوَانَ قَوَائِمُهُ مِنْهُ ^(٤) ، قَالَ أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَنْدَرِيُّ :
فَجَاشَتْ نَفْسِي ^(٥) ، وَقَلْتُ : قَدْ بَقِيَ الْخَبْزُ وَالآتَهُ ، وَالْخَبْزُ وَصِفَاتُهُ ^(٦) ،

= والبنان: أطراف الأصابع ، وَعَجَمَهُ بِالْأَسْنَانِ : عَضَّهُ بِهَا لِيُخَبِرَهُ ، وَاللَعْنَى : إِنْهُ
فَعَلَ كُلَّ هَذِهِ الْأَفْعَالِ لِيَتَدَحَّحَهُ وَيُنْثِي عَلَيْهِ .

(١) عمر الله بغداد : جعلها عامرة أهلة بالسكان ، وارقة النعمة ، رخاء .
والمثنى في أصل الوضع : الظَّهْرُ ، وَأَرَادَ مِنْهُ الْمَسْكَانَ الَّذِي يُوَضَعُ عَلَيْهِ الطَّعَامُ مِنْ
الْخَوَانِ ، وَإِذَا كَانَ عَرِيضًا أَيْ مُتَّسِعًا الْمَسَاحَةَ أَوْ عَرِيضَ السَّمَكِ فَذَلِكَ يَقْتَضِي
أَنْ يَكُونَ وَزْنُهُ ثَقِيلًا بِمَقْدَارِ سَمَكِهِ ، وَلَسْكَنُهُ أَرَادَ أَنْ يَبِينَ جَوْدَةَ خَشْبِهِ الَّذِي صَنَعَ
مِنْهُ ، فَذَكَرَ أَنَّهُ خَفِيفُ الْوِزْنِ ، وَلَيْسَ كَمَا يَتَبَادَرُ إِلَى الذَّهْنِ مِنْ ثِقَلِهِ وَصَعُوبَةِ حَمَلِهِ .
(٢) أَيْ : لَقَدْ طَالَ بِي الْإِنْتِظَارُ ، وَسَمِعْتُ مِنْكَ كَثِيرًا ، وَرَأَيْتُ شَكْلَ
خَوَانِكَ ، وَلَكِنْ مَتَى يَحِينُ الْوَقْتُ لِتَحْضُرَ الْأَكْلَ ؟

(٣) عجل الطعام : أحضره في العاجل ، والعاجل والعاجلة : ضد الآجل
والآجلة ، وهو الوقت الذي يقرب من زمانك الذي أنت فيه ، وَقَدْ عَجَّلَ تَعْجِيلًا
وَتَعْجَلًا ، وَمِنْهُ « قَوْسٌ عَجَلِيٌّ » بوزان سكرى ؛ إِذَا كَانَتْ سَرِيعة السَّهْمِ .
(٤) أَيْ أَنْ لَهُ مِزِيَّةٌ خَلِيقَةٌ بِأَنْ تَلْتَفَّتْ إِلَيْهَا ، وَهِيَ أَنْ ظَهَرَ قَوَائِمُهُ الَّتِي
يَقِفُ عَلَيْهَا قِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ .

(٥) جاشت : تحركت وعالت ، قال الشاعر ، وهو قطري بن الفجاءة :

وَقَوْلِي كَلِمًا جَشَاتٌ وَجَاشَتْ مَكَانَكَ تُحَمِّدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي

(٦) الخبز - بالفتح - مصدر خَبَزَ ، وبابه ضرب ، والخبز - بالضم -

معروف . والمعنى : إنه قد بقي أن يتكلم حينما يحىء الطعام على كيفية الخبز
ويشرح لي كيف أشتري آلاته ، ويصفها وصفًا يطيل الأمد ، ويزيد السكدة ، =

وَالْحِنْطَةُ مِنْ أَيْنَ اشْتَرَيْتَ أَضْلًا^(١) ، وَكَيْفَ اكْتَرَى لَهَا خَمْلًا^(٢) ، وَفِي أَيِّ رَحَى طَحَنَ^(٣) ، وَإِجَانَةَ عَجَنَ^(٤) ، وَأَيَّ تَنْوِيرٍ سَجَّرَ^(٥) ، وَخَبَّازٍ اسْتَأْجَرَ ، وَبَقِيَّ الْخَطْبُ مِنْ أَيْنَ احْتَطَبَ ، وَمَتَى جُلِبَ ؟ وَكَيْفَ صُفِّفَ حَتَّى جُفِّفَ ؟ وَحَبْسَ ، حَتَّى يَبْسَ ، وَبَقِيَّ الْخَبَّازُ وَوَصْفُهُ ، وَالتَّلْمِيذُ وَنَفْتُهُ^(٦) وَالدَّقِيقُ وَمَذْحُهُ وَالتَّخْمِيرُ وَشَرْحُهُ ، وَالتَّلْمِيذُ وَمَلَا حَتُّهُ ، وَبَقِيَّتِ الشُّكْرُجَاتُ مَنْ اتَّخَذَهَا^(٧) ،

= ثم يتكلم عن الرُّغْمَانِ فينعتها ويمدحها ويثني عليها ، وفي ذلك المضيعة للوقت وازدياد الألم الناجم عن كثرة كلامه .

(١) أي : من أي مكان اشترى أضلها وهو الحب .

(٢) حملا : المراد منه الحامل ، لأنه هو الذي يُكْتَرَى ، وكثيرا ما يُعَبَّرُ بالمصدر عن اسمي الفاعل والمفعول كالتخلق مُرَادًا به الخلق ، والقول مُرَادًا به القول .

(٣) الرحا : معروفة ، وهي مؤنثة ، والمثنى رَحَوَانٌ ، حَيَانٌ (واو ية ويائية) وقال المهلهل :

كأنا غُدْوَةٌ وَبَنِي أَبِيْنَا بِحَنْبِ عُنَيْزَةٍ رَحِيًّا مُدِيرِ

والجمع أَرْحٍ وَأَرْحَاءٌ ، ورحاء لغة فيها ، والثنية رَحَاءَانٌ ، والجمع أَرْحِيَّةٌ .

(٤) الإِجَانَةُ : إناء يستعمل في الفسيل والعجين ونحوهما .

(٥) التَّنْوِيرُ : الموقد الذي يخبز فيه ، وَسَجَّرَهُ : أشعله وأوقده .

(٦) أي أنه بقي الكلام على أشياء كثيرة ؛ لأنه لم يترك شيئا يتعلق

بالطعام نوع تملقٍ إلا ذكره ، وأنى على جملته وتفصيله . والمراد بالتلميذ : فتى الخباز .

(٧) الشُّكْرُجَاتُ : جمع سُكْرُجَةٍ وهي الصَّحْفَةُ ، وجمعها صحاف كجفنة

وجفان وزنا ومعنى ، والمراد أنه لا بد أن يتكلم عن الأواني التي سيكون فيها

ألوان الطعام ، كيف وقعت له ؟ وعند أي الأمراء والملوك كانت ؟ وأي صانع

ماهر ذلك الذي صنعها ؟ وكيف اشتراها ؟ وهلم جرا .

وَكَيْفَ انْتَقَذَهَا^(١)؟ وَمَنْ اسْتَعْمَلَهَا؟ وَمَنْ عَمَلَهَا؟ وَالخَلُّ كَيْفَ انْتَقَى عِنْبَهُ أَوْ اشْتَرَى رُطْبَهُ^(٢)؟ وَكَيْفَ صُهِرِجَتْ مِغْصَرَتُهُ^(٣)؟ وَاسْتَخْلَصَ لُبَّهُ؟ وَكَيْفَ قُبِّرَ حُبُّهُ^(٤)؟ وَكَمْ يُسَاوِي دَنُّهُ؟ وَبَقِيَ البَقْلُ كَيْفَ أَحْتَبِلُ لَهُ حَتَّى قُطِفَ^(٥)؟ وَفِي أَيِّ مَبْقَلَةٍ رُصِفَ^(٦)؟ وَكَيْفَ تَوُنَّقَ حَتَّى نُظِّفَ^(٧)؟ وَبَقِيَتِ المَضِيرَةُ كَيْفَ اشْتَرَى لَحْمَهَا؟ وَوَفَّى شَحْمَهَا؟ وَنُصِبَتْ قَدْرُهَا، وَأَجَّجَتْ نَارُهَا^(٨)، وَدَوَّقَتْ أَزَارُهَا، حَتَّى أُجِيدَ طَبْخُهَا وَعُقِدَ مَرَقُهَا؟ وَهَذَا خُطْبٌ يَطْمُ^(٩)،

(١) انتقذها: أى استخلصها من بائعها بالشراء .

(٢) كان المعروف عندهم إذ ذاك خل العنب واخل الرطب فحسب ، ولا بد أن يكون أحدهما على الخِوَان ، وهو سيتكلم عنه وعن كيفية شرائه والسبيل التي سلكها حتى وصل إليه .

(٣) صُهِرِجَتْ : طلبت بالصاروج ، وهو أخلاط من النورة ونحوها .

(٤) الحُبُّ - بالضم هنا - بمعنى الخابية كالدَنِّ ، وَقُبِّرَ: طلى بالقار الذى هو القَطِرَانُ .

(٥) أى قطع ورقه دون جذره .

(٦) المَبْقَلَةُ : مكان البقل الذى يزرع فيه ، ورصف : أى نظم بعضه

بجوار بعض .

(٧) تَوُنَّقَ : استعمل الدقة فى عمله ، والمعنى كيف استعملت الدقة والحدق

فى تنظيف هذا البقل مما لا بد أن يكون عالقا به من طين ونحوه .

(٨) أَجَّجَتْ : أى أوقدت وأشعلت ، قال :

مَتَى تَأْتِنَا تُنَلِّمُ بِنَا فِي دِيَارِنَا نَحْمِدُ حَطْبًا جَزَلًا وَنَارًا تَأْجِجًا

(٩) يَطْمُ : يشتد ويعظم ، والمعنى : إن هذا رزء لا قدرة لى على احتمال

مثله ، و بولية لا قبل لى بها ، فيجب أن أندارك نفسى بالنجاء منها .

وَأَمْرٌ لَا يَتِمُّ ، فَقُمْتُ ، فَقَالَ : أَيْنَ تُرِيدُ ؟ فَقُلْتُ : حَاجَةٌ أَقْضِيهَا ، فَقَالَ :
يَا مَوْلَايَ تُرِيدُ كَنِيْفًا يُزْرِي بَرِيْعِيَّ الْأَمِيرِ ، وَخَرِيْبِيَّ الْوَزِيرِ ^(١) ، قَدْ
جُحِّصَ أَعْلَاهُ وَصُهِرَجَ أَسْفَلُهُ ^(٢) ، وَسُطِّحَ سَمْفُهُ ، وَفَرِشَتْ بِالْمَرْمَرِ أَرْضُهُ ،
يَزَلُّ عَنْ حَائِطِهِ الذَّرُّ فَلَا يَغْلِقُ ^(٣) ، وَيَمْشِي عَلَى أَرْضِهِ الذَّبَابُ فَيَزَلِقُ ^(٤) ،
عَلَيْهِ بَابٌ غَيْرَانُهُ مِنْ خَلِيْطِي سَاجٍ وَعَاجٍ ^(٥) ، مُزْدَوَجِينَ أَحْسَنَ اَزْدِوَاجٍ ،
يَتَمَنَّى الصَّيْفُ أَنْ يَأْكُلَ فِيهِ ، فَقُلْتُ : كُنْ أَنْتَ مِنْ هَذَا الْجِرَابِ ،
لَمْ يَكُنِ الْكَنِيْفُ فِي الْحِسَابِ ، وَخَرَجْتُ نَحْوَ الْبَابِ ، وَأَسْرَعْتُ فِي الذَّهَابِ ،
وَجَعَلْتُ أَعْدُو ^(٦) وَهُوَ يَتَّبِعُنِي وَيَصِيحُ : يَا أَبَا الْفَتْحِ الْمَضِيرَةَ ، وَظَنَّ

(١) الربيعي : المكان يتخذ للاقامة فيه أثناء زمن الربيع ، والخريبي :
يتخذ لزمن الخريف ، ومثلهما تُبَدِّلُ الهمة في إجادتهما ، ويقال : أزرى به ،
وازدراه ، إذا حقره وتهاون بشأنه ، ومنه الزارى على الإنسان ، وهو الذي
لا يعده شيئاً ، وصاحب المضيرة - أضره الله - يزعم أن كنيفه خير من ربيعي
الأمير وأحسن من خريفي الوزير ، وأنها بجواره مُزْدَرِيَانِ مستخف بهما ،
وقبحه الله فما أقل عقله ، وأكثر سماحته وتهوسه ، وإنه لحريٌّ بأن يقطع عمره بين
جُدْرَانِ ذلك الذي أعجبه وراق في نظره .

(٢) جُحِّصَ : طلى بالجص وهو الجير ، وصهرج : تقدم قريباً معناه .

(٣) الذر : جمع ذرة ، وهي أصغر النمل ، ومنه سمي الرجل « ذرا » وكني
« أبو ذر » وعلق بالشئ علوقاً : تعلق ، والمعنى إنه لا يثبت على حائطه
ولا يستطيع البقاء عليه للاسته .

(٤) أراد أنه شديد الملاسة أيضاً .

(٥) غَيْرَانُهُ : أي الفواصل بين ألواحها ، والعاج : سن الفيل .

(٦) أعدو : أي أسير بسرعة .

الصَّبِيَّانُ أَنَّ الْمَضِيرَةَ لَقَّبَ لِي فَصَاحُوا صِيَاحَهُ (١) ، فَرَمَيْتُ أَحَدَهُمْ بِحَجَرٍ ،
 مِنْ فَرْطِ الضَّجْرِ (٢) ، فَلَقِيَ رَجُلٌ الْحَجَرَ بِعِيَامَتِهِ ، فَغَاصَ فِي هَامَتِهِ (٣) ،
 فَأَخَذْتُ مِنَ النَّعَالِ بِمَا قَدَّمْتُ وَحَدَّثْتُ ، وَمِنَ الصَّفْعِ بِمَا طَابَ وَخَبْتُ (٤) ،
 وَحُشِرْتُ إِلَى الْحَبْسِ ، فَأَقَمْتُ عَامِينَ فِي ذَلِكَ النَّحْسِ ، فَنَذَرْتُ أَنْ لَا آكُلَ
 مَضِيرَةَ مَا عَشْتُ ، فَهَلْ أَنَا فِي ذَا يَا لِهَمْدَانَ ظَالِمٌ (٥) ؟ .

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : فَقَبِلْنَا عُدْرَهُ ، وَنَذَرْنَا نَذْرَهُ ، وَقَبِلْنَا : قَدِيمًا
 جَنَّتِ الْمَضِيرَةَ عَلَى الْأَحْرَارِ (٦) ، وَقَدَّمْتُ الْأَرَاذِلَ عَلَى الْأَخْيَارِ .

(١) أى : أنهم صاروا يتنادوننى بما سمعوا منه .

(٢) فَرْطُ الضَّجْرِ : شدة السَّامة والملل .

(٣) هامة الرجل : رأسه ، وغاص الحجر فيها : أى شَجَّها ودخل فيها .

(٤) الصَّفْعُ : الضرب على القفا خاصة .

(٥) أى : هل ظلمتكم حين أنكرت عليكم أكل المضيرة مادام هذا هو

السبب ؟ أو هل ظلمت في نذرى هذا ؟ وهذا عجز بيت ، وصدْرهُ قوله :

* وَكُنْتُ إِذَا قَوْمٌ غَزَوْنِي غَزَوْهُمْ *

(٦) اللهم إنه لا توجد جنافية أعظم إبلاما للنفس وأشد تنكيلا بها من هذه

الجريمة ، وإنما أسندها إلى المضيرة لأنها سببها .

٢٣ - المَقَامَةُ الحِرْزِيَّةُ

حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

لَمَّا بَلَغَتِ بِي القُرْبَةَ بَابَ الأَبْوَابِ (١) ، وَرَضِيتُ مِنَ القَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ (٢) ،
 وَدُونَهُ مِنَ البَحْرِ وَثَابٌ بِغَارِبِهِ (٣) ، وَمِنَ السُّنَنِ عَسَافٌ بِرَاكِبِهِ (٤) ،
 أَسْتَحَرْتُ اللهَ فِي القُقُولِ (٥) ، وَقَعَدْتُ مِنَ الفُلْكِ ، بِمَثَابَةِ الأَهْلِكِ (٦) ،
 وَمَا مَلَكَنَا البَحْرُ (٧) وَحَنَّ عَلَيْنَا اللَّيْلُ (٨)

(١) باب الأبواب : أحد ثغور بحر الخزر ، سمي بذلك لأنه كان يحيط به سور كثير الأبواب الحديدية .

(٢) هذا مثل يضرب لخيبة الرجاء وضياع الأمل ، وأصله من قول امرئ القيس :

وَقَدْ طَوَّعْتُ فِي الآفَاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ القَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ

(٣) وثاب : صيغة مبالغة من وثب أى ارتفع ، والغارب : أصله السكاهل ،

أو ما بين السنام والعتق ، وجمعه غوارب ، وهو هنا أعلى الموج ، والمعنى : إننى

أحببت الأوبة إلى وطنى والعمود لديارى ، ولكنى وجدت أنه بمنعنى من ذلك

بحر متلاطم الأمواج مرتفعها .

(٤) عَسَافٌ : شديد العسف ، وهو السير فى غير المسلك المطلوب .

(٥) القُقُولُ الرجوع ، وهو مصدر « قَقَلَ يَقْطُلُ » من باب قعد - أى رجع .

(٦) المثابة : أصله المسكان الذى يثوبُ إليه الإنسان أى يرجع ، وأراد

مطلق المكان ، والهالك : أى جلستُ فى مكان لا ينجو الجالس فيه .

(٧) أى صرنا منه بحيث لا نستطيع النجاة والتخلص .

(٨) جن عليه الليل ، وجنّه الليلُ يَجُنُّهُ بالضم جُنُونًا ، وأجنه : سَتَرَهُ وأخفاه

غَشِيَّتَنَا سَحَابَةٌ تَمُدُّ مِنَ الْأَمْطَارِ حَبَالًا^(١) ، وَتَحْدُو مِنَ النَّعِيمِ حَبَالًا^(٢) ،
 بِرِيحٍ تُرْسِلُ الْأَمْوَاجَ أَرْوَاجًا ، وَالْأَمْطَارَ أَمْوَاجًا^(٣) ، وَتَقِينَا فِي يَدِ
 الْحَيْنِ^(٤) ، بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ ، لَا تَمْلِكُ عُدَّةَ غَيْرِ الدُّعَاءِ ، وَلَا حِيلَةَ إِلَّا الْيَسَاءَ^(٥) ،
 وَلَا عِصْمَةَ غَيْرَ الرَّجَاءِ^(٦) ، وَطَوَّيْنَاهَا لَيْلَةً نَانِيَةً^(٧)

(١) يقال : غَشِيَهُ الْأَمْرَ ، وَتَنَشَّاهُ ، وَأَغَشَيْتُهُ إِيَّاهُ ، وَغَشَيْتُهُ : إِذَا غَطَّاهُ
 وَأَحَاطَ بِهِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ وَمِنْهُ سَمِيَتْ
 الْقِيَامَةُ غَشِيَةً ، وَقِيلَ : لِأَنَّهَا تَغْشَى النَّاسَ أَيْ تَقْطِيعُهُمْ ، وَلَمَّا كَانَ الْحَبْلُ مُتَّصِلًا
 لَيْسَ لِأَجْزَائِهِ تَقَاطِعٌ وَلَا انْفِصَالٌ شَبَّهَ بِهِ الْمَطَرُ فِي اتِّصَالِهِ وَكَثْرَتِهِ .

(٢) تحدو : تسوق ، والنَّعِيمُ : أَرَادَ بِهِ السَّحَابَ ، وَتَقُولُ : « غَامَتِ السَّمَاءُ تَقْنِيمُ
 عُيُومَةٍ ، وَأَغَامَتْ ، وَأَغِيَمَتْ ، وَتَغِيَمَتْ » ، وَلَسْنَا نَبْذُرُ كَيْفَ تَسُوقِ السَّحَابَةِ
 جِبَالَ السَّحَابِ ؟ اللَّهُمَّ إِذَا كَانَ مَجْرَدَ اسْتِيعَابِهَا لَهُ بِسْمَى سَوْقًا ، فَأَمَّا إِذَا أَرِيدَ مِنَ
 السَّحَابَةِ الْمَطَرِ كَمَا فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ :

إِذَا نَزَلَ السَّحَابُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابًا
 فَيَكُونُ الْمَعْنَى أَظْهَرَ وَأَوْضَحَ .

(٣) أَمْوَاجًا : أَيْ جَمَاعَاتٍ ، جَمْعُ فَوْجٍ ، وَهُوَ الْجَمَاعَةُ .

(٤) الْمُدَّةُ : بَضْمٌ أَوَّلُهُ : مَا أَعْدَدْتَهُ لِحُوَادِثِ الدَّهْرِ مِنَ الْمَالِ وَالسَّلَاحِ ، قِيلَ :
 وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴾ أَيْ اتَّخَذَهُ عُدَّةً ، وَقِيلَ : بَلِ الْمَعْنَى
 جَمَلُهُ ذَا عَدَدٍ .

(٥) الْحَيْلَةُ : اسْمٌ مِنَ الْإِحْتِيَالِ ، وَكَذَا الْحَوْلُ وَالْحَيْلُ ، يُقَالُ : لَا حَيْلَ
 وَلَا قُوَّةَ ، لُغَةٌ فِي حَوْلٍ ، وَهُوَ أَحْيَلُ مِنْهُ ، وَمَا أَحْيَلَهُ ، لُغَةٌ فِي أَحْوَلَهُ - وَيُقَالُ :
 مَالَهُ حَيْلَةٌ ، وَلَا حَيْلَةَ ، وَلَا إِحْتِيَالَ ، وَلَا حَيْلًا بِمَعْنَى وَاحِدٍ .

(٦) الْعِصْمَةُ : الْوَقَايَةُ .

(٧) نَسَبَةٌ إِلَى النَّابِضَةِ الذِّيَابِيَّةِ ، وَهُوَ الَّذِي أَكْثَرَ مِنْ وَصْفِ لَيْلِهِ بِالطُّولِ

وَالشَّاعَةِ ، كَقَوْلِهِ :

==

وَأَصْبَحْنَا نَتْبَاكِي وَنَتْسَاكِي ^(١) ، وَفِينَا رَجُلٌ لَا يَخْضَلُ جَفْنُهُ ^(٢) ،
 وَلَا تَبْتَلُ عَيْنُهُ ، رَخِيُّ الصَّدْرِ مُنْشَرِحُهُ ، نَشِيطُ الْقَلْبِ فَرِحُهُ ^(٣) ، فَمَجِينَا
 وَاللَّهِ كُلُّ الْعَجَبِ ، وَقُلْنَا لَهُ : مَا الَّذِي أَمَّنَكَ مِنَ الْعَطَبِ ^(٤) ؟ فَقَالَ :
 حُرْزٌ لَا يَفْرُقُ صَاحِبُهُ ^(٥) ،

== فَبِتُّ كَأَنَّ الْعَائِدَاتِ فَرَشَنَ لِي
 هَرَّاسًا بِهِ يُعَلَى فِرَاشِي وَيُقَشَّبُ
 وقوله :

فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي ضَيْعَةٌ
 مِنَ الرَّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا الشَّمُّ نَاقِعٌ
 وقوله :

كَلِّبْنِي لَهْمٍ يَا أُمِّيهِ نَاصِبٍ وَتَلِيلِ أُنَابِيهِ بَطِيءِ السَّكْوَاكِبِ
 تَطَاوَلٌ حَتَّى قُلْتُ : لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرَعَى النُّجُومَ بَابِ
 (١) يبكي كل واحد منا سوء حاله ، ويشكو صروف دهره ، خَشِيَّةُ الْفَرْقِ
 وضياح الحياة .

(٢) اخْضَلَّ الزَّرْعُ: تَبَلَّلَ وَنَدِيَ ، وَالشَّيْءُ الْخَضِيلُ : انْزَطَبَ ، وَجَفْنُ الْعَيْنِ
 معروف ، وَعَدَمٌ ابْتِلَالُهُ كُنْيَاةٌ عَنْ عَدَمِ بَكَاءِ صَاحِبِهِ .

(٣) رَخِيُّ الصَّدْرِ: وَاسِعُهُ ، وَسَمَةٌ الصَّدْرِ وَانْشِرَاحُهُ : كُنْيَاةٌ عَنْ عَدَمِ
 التَّأَلُّمِ ، وَاطْمِئْنَانِ الْخَاطِرِ ، وَارْتِيَاكِ الضَّمِيرِ ، وَيُقَالُ : نَشِطَ الرَّجُلُ - بِالْكَسْرِ -
 نَشَاطًا فَهُوَ نَشِيطٌ ، وَتَنَشَّطَ ، إِذَا طَابَتْ نَفْسُهُ ، وَالْمَعْنَى : إِنَّهُ كَانَ بَيْنَنَا رَجُلٌ لَمْ
 يَمْعَلْ عَمَلَنَا ، وَلَمْ تَظْهَرْ عَلَيْهِ عِلَامَاتُ التَّأَثُّرِ ، وَلَمْ يَفْرِزْهُ حَالُنَا ، وَلَا جَزَعَ مِثْلُنَا ،
 بَلْ كَانَ عَلَى الْعَكْسِ ظَاهِرَ السَّرُورِ ، طَلَّقَ الْوَجْهَ ، يَسَامَ الثُّغْرَ ، ضَاحِكُ السِّنِّ .
 (٤) الْعَطَبُ : التَّلْفُ وَالْمُهْلَاكُ ، وَأَمَّنَكَ مِنْهُ : جَمَلَكَ تَأْمَنَ وَقَوَعَهُ
 وَلَا تَخْشَى نَزْوَلَهُ .

(٥) الْحُرْزُ : الْمُرَادُ هُنَا مَا يَكْتَبُ فِي الْأَوْرَاقِ وَيَجْعَلُ كَالْتَّمَامِ ، يَعْطِقُهُ الْمَرْءُ
 أَوْ يَحْمَلُهُ لِعَرَضٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ .

وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَمْنَحَ كُلًّا مِنْكُمْ حِرْزًا لَمَعَلْتُ^(١) ، فَكُلُّ رَغِبٍ إِلَيْهِ ، وَالْحَجَّ فِي الْمَسْأَلَةِ عَلَيْهِ^(٢) ، فَقَالَ : لَنْ أَقْعَلَ ذَلِكَ حَتَّى يُعْطِيَنِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ دِينَارًا الْآنَ ، وَيُعِدَّ بِي دِينَارًا إِذَا سَلِمَ^(٣) .

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : فَتَقَدَّنَاهُ مَا طَلَبَ ، وَوَعَدَّنَاهُ مَا خَطَبَ^(٤) ، وَأَبَتْ يَدُهُ إِلَى جَبِيهِ^(٥) فَأَخْرَجَ قِطْعَةً دِيْبِيَّاجٍ ، فِيهَا حُقَّةٌ عَاجٍ^(٦) ، قَدْ ضَمَّنَ صَدْرُهَا رِقَاعًا ، وَحَذَفَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِوَاحِدَةٍ مِنْهَا^(٧) ، فَلَمَّا سَلِمَتِ السَّقِينَةُ ،

(١) أمنح : أعطى ، والفعل منح - من باب قطع - والاسم المنحة بكسر أوله ، والمعنى إن في مقدوري أن أعطى كل واحد منكم حِرْزًا حتى يأمن على نفسه من الغرق ولا يخشى ثورة البحر ، فتطمئن نفسه ، ويبلغ صدره ، ويستريح خاطره ، ولا يأخذه الغزع ؛ فيكون مثلي .

(٢) رغب إليه : طلب منه ، فأما «رغبه ، ورغب فيه ، وارتقب فيه» فمعناها أراده ، ورغب عنه : كرهه ، وألح في المسألة : أكثر من سؤاله وكرر من طلبه ، والمعنى : إنه لم يبق من بيننا من لم يطلب منه حِرْزًا يتقى به هياج البحر وشِدَّتَه ، ويبالغ في طلبه هذا ، واشتدت بنا الرغبة على قدر شدة الحاجة .

(٣) المعنى إنه أبقى أن يجيبنا إلى مسألتنا إلا إذا أعطيناه الأجر ، ووعدناه بإجزال العطاء بعد النجاة .

(٤) تقدَّنَاهُ : أعطيناه حالا ، ووعدناهُ ما خطب : أى أعطيناه وُعْدًا أكيدا أننا نُنْجِزُ له طلبه الثاني بعد النجاة .

(٥) أَبَتْ يَدُهُ : أى رجعت ، ولا يستلزم ذلك أن تكون أصلها فيها ؛ فكثيراً ما يستعمل مثل هذا في معنى صارت .

(٦) حُقَّةٌ : وعاء صغير ، والعاج : سِنَّ الفيل .

(٧) حَذَفَ : أى رمى لسكل واحد منا ورقة من تلكم الورقات ، والرقاع :

جمع واحده رُقْعَةٌ ، وهى ما يكتب فيه ، والمعنى أنه أطلع من جيبه وعاء يشتمل =

وَأَحَلَّتْنَا الْمَدِينَةَ^(١) ، أَفْتَضَى النَّاسَ مَا وَعَدُوهُ ، فَفَقَدُوهُ^(٢) ، وَأَنْتَهَى الْأَمْرُ
إِلَى فَقَالَ : دَعُوهُ^(٣) ، فَقُلْتُ : لَكَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تُفْلِمَنِي سِرَّ حَالِكَ^(٤) ،
قَالَ : أَنَا مِنْ بِلَادِ الْإِسْكَانَدَرِيَّةِ ، فَقُلْتُ : كَيْفَ نَصَرَكَ الصَّبْرُ وَخَذَلْنَا^(٥) ؟
فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

وَيْكَ لَوْذَا الصَّبْرُ مَا كُنْتُ مَلَأْتُ السِّكِّينَ تَهْبِئًا^(٦)
لَنْ يَنَالَ الْمَجْدَ مِنْ ضَا قٍ بِمَا بَغَشَاءَ صَدْرًا^(٧)
نُمُّ مَا أَعْقَبَنِي السَّا عَةَ مَا أُعْطِيتُ ضَرًّا^(٨)

= على عدة أوراق قد كتب فيهن ، وناول كل واحد منا واحدة .

(١) أحللتنا : وصلت بنا حتى حللتنا المدينة أى نزلناها وأتيننا محللتها .

(٢) افتضى الناس : طلب منهم الوفاء ، أى بعد أن مجونا من الفرق ودخلنا
المدينة التى قصدناها طالبينا بالوفاء والإنجاز بما وعدناه ، فلم يتخلف أحد منا ، بل
كنا سيراغاً إلى لإجابة دعوته .

(٣) أى أنهم ما زالوا يُفطمونه الواحد بعد الآخر حتى وصلت التوبة إلى
وبقى على أن أنفده ، ولكنه بادر إلى أمرهم بتخليقي وإضافي .

(٤) المعنى : إن لك أن تحكم عليهم بأن يتركوني ، ولك أن تجلب إلى هذه
البخية ، ولكن بشرط أن تخبرني بأمرك ، وتشرح لي حقيقتك .

(٥) شبه الصبر بإنسان يأخذ بيد بعض الناس فيميناها ويترك بعضهم الآخر ،
وأسند إليه فعلا من خواص المشبه به ترشيحاً .

(٦) أى أنه لولا ما تدرّعتُ به من الصبر لما سألعموني وكشفت لكم

المسألة ، ونشأ عن ذلك أني أخذت منكم مالا ملأت به كيسى .

(٧) ما يغشاه : ما ينزل به من الحوادث ، والمعنى : إن بلوغ المجد والوصول إلى

غاية الرفعة لا يكونان مع الجزع والخوف .

(٨) أعقبني : أورثني ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا ﴾ أى أورثهم =

بَلْ بِهِ أَشْتَدُّ أْزْرًا وَبِهِ أَجْبُرُ كَسْرًا^(١)
 وَلَوْ أَنِّي الْيَوْمَ فِي الْفَرِّ فِي لَمَّا كَلَّفْتُ عُذْرًا^(٢)

= بخلهم نفاقاً ، والمعنى : إن الذي أُعْطِيْتُهُ -- وهو ما أخذته منكم في السفينة -- لم يكن سبباً في إيصال الضرر إلى ، ولم يورثني شيئاً من المساءة .

(١) المعنى : إن الذي أخذته لم يتسبب لي عنه ضرر ، بل بالعكس سيقوى به ساعدي ، ويصلح حالي ، وينعم عيشي .

(٢) المعنى : إنني لو كنت غرقتُ معكم لما كان هناك ضرر علي ، وذلك لأنه لا يوجد حينئذٍ مَنْ يسألني عن فائدة حرزِي ، فأتكلف له الاعتذار ، وأتمحل أو هن الحجاج وأضعف البراهين علي صدقي ، والمراد أن يذكر له أنه كان يعتقد فوزَه في حال نجاتهم بما يأخذه منهم ، وإذا كان الفرق قد كتب عليه معهم فما ضره أن يأخذ منهم ، فرأى أن يحتمل هذه الحيلة ليبتزَّ منهم ما يصلح شأنه ويقيم حاله ويسعد باله ؛ فإن نَجَوْا وَنَجَّأَ معهم أفاد بما أخذه ، وإن غرِقُوا وغرق معهم فقد سلّم من اعتراضهم عليه بأن حرزه لم تكن له فائدة ؛ لأنه لن يكون هناك من يوجه اعتراضاً ، ولا من يوجه إليه الاعتراض .

(١) إنا وإن كنا نعتقد أن هذه المقامات وما أشبهها قِصَصٌ متخيلةٌ منتحلةٌ نرى مع هذا أنه - كما تضم السجون كثيراً من المظلومين والأبرياء - قد تُوَصِّدُ أبواب المارستان على كثير من العقلاء ، وأرباب النُهَى ، ونحن نذكر هنا حادثاً تاريخياً عن رجل منهم قد يكون أَمَسَّ بالأدب من الحادث الذي ذكره البديع ، ولو أن المتنبى - كما استظهر أحدُ أدباء هذا العصر - كان مجنوناً فسُكِمَ في الناس من يَوَدُّ بِجِدْعِ الأنفِ لنفسه مثلَ هذا الجنون .

قال أبو بكر بن الأزهري : حدثني المبرد قال : قال لي المازني : أنت تنصرف من مجلسنا فتصير إلى مواضع المَجَانِينِ والمُعَانَجِينِ ، فما معنى ذلك؟ قال : قلت : أعزك الله تعالى إن لهم طرائف من الكلام ، قال : فأخبرني بأعجب ما لقيته من المجانين ، قلت : دخلت يوماً إليهم ، فررت على شيخ منهم ، وهو جالس على حصيرٍ قصبٍ ، فجاوزته إلى غيره ، فقال : سبحان الله تعالى ! أين السلام؟ من الجنون أنا أو أنت؟ فاستحييت منه ، قلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فقال : لو كنت ابتدأت لأوجبت علينا حسن الردة على أنا نصرف سوء أدبك على أحسن جهاته من العذر ، لأنه كان يقال : إن للقادم على القوم دهشة ، أجلس أعزك الله عندنا ، وأوماً إلى موضع من الحصير ، فقدمت ناحية استجلبت مخاطبته ، فقال لي وقد رأى معنى محبرة : أرى معك آلة رجلين أرجو ألا تكون أحدهما ، أجالس أصحاب الحديث الأغث أو الأدباء أصحاب النحو والشعر؟ قلت : الأدباء ، قال : أتعرف أبا عثمان المازني؟ قلت : نعم ، قال : أتعرف الذي يقول فيه :

وَفَتَى مِنْ مَازِنٍ أُسْتَاذَ أَهْلِ البَصْرَةِ
أُمُّهُ مَعْرِفَةٌ وَأَبُوهُ نَكْرَةٌ

=

= فقلت: لا أعرفه ، فقال: أتعرف غلاما له نبيغ في هذا العصر معه ذهن وله حفظ وقد برز في النحو يُعرفُ بالمبرد ؟ فقلت : أنا والله عين الخبير به ، قال : فهل أنشدك شيئا من شعره ؟ قلت : لا أحسبه يُحسِن قول الشعر ، قال : يا سبحان الله ، أليس هو القائل ؟ .

حَبْدًا مَاءَ الْعَنَاقِيدِ بِرِيقِ الْغَانِيَاتِ
بِهِمَا يَنْبُتُ لَحْمِي وَدَمِي أَيُّ نَبَاتِ
أَيُّهَا الطَّالِبُ أَشْهَى مِنْ لَذِيذِ الشَّهَوَاتِ
كُلُّ مِمَاءِ الْمُزْنِ تَفَا حُ خُدُودِ الْفَتَيَاتِ

قلت : قد سمعته ينشد هذا في مجلس الأنس ، فقال : يا سبحان الله ! أولاً يستحي أن يُنشد مثل هذا حول الكعبة ؟ ثم قال : وما تسمع ما يقولون في نسبه ؟ قلت : يقولون : هو من الأزدي أزدِ شِنُوءَة ثم من ثُمالة ، قال : قاتله الله ما أبعدَ غَوْرَهُ ! أتعرف قوله :

سَأَلْنَا عَنْ ثُمَالَةَ كُلِّ حَيٍّ فَقَالَ الْقَائِلُونَ : وَمَنْ ثُمَالَةَ ؟
فَقُلْتُ : مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ مِنْهُمْ فَقَالُوا : زِدْنَا بِهِمْ جِهَالَةَ
فَقَالَ لِي الْمَبْرَدُ : خَلَّ قَوْمِي فَقَوْمِي مَعَشَرٌ فِيهِمْ نَدَّاهُ

فقلت : أعرف هذا لعبد الصمد بن المعدل يقولها فيه ، فقال : كذب من ادعاهَا ، هذا الرجل لا نسب له يريد أن يثبت له بهذا الشعر نسبا ، فقلت : أنت أعلم ، فقال : يا هذا قد غلبت خفة روحك على قلبي ، وقد أخرت ما كان يجب تقديمه ، ما الكنيّة أصلحك الله ؟ قلت : أبو العباس ، قال : فما الاسم ؟ قلت : محمد ، قال : فالأب ؟ قلت : يزيد ، قال : قبحك الله ، أحوجتني إلى الاعتذار مما قدمتُ ذكره ، ثم وثب باسطاً يده بياصحنى ، فرأيت القيد في رجله إلى خشبة ، فأمنتُ غائلته ، فقال : يا أبا العباس ، صنُ نفسك عن الدخول =

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

دَخَلْتُ مَارِسْتَانَ الْبَصْرَةَ (١) وَمَعِيَ أَبُو دَاوُدَ الْمُتَكَلِّمُ (٢) ، فَنَظَرْتُ
إِلَى مَجْنُونٍ تَأْخُذُنِي عَيْنُهُ وَتَدْعُنِي (٣) فَقَالَ : إِنْ تَصَدَّقَ الطَّيْرُ فَأَنْتُمْ
غُرَبَاءُ (٤) ، فَقُلْنَا : كَذَلِكَ ، فَقَالَ : مَنْ الْقَوْمُ لِلَّهِ أَبُوهُمْ ؟ فَقُلْتُ : أَنَا عَيْسَى
ابْنُ هِشَامٍ وَهَذَا أَبُو دَاوُدَ الْمُتَكَلِّمُ ، فَقَالَ : الْعَسْكَرِيُّ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ،

= إلى هذه المواضع ، فليس يتهيأ أن تصادف مثل على مثل هذه الحالة ، أنت المبرد
أنت المبرد ؟؟ وجعل يُصَفِّقُ ، وانقلبت عينه ، وتغيرت حالته ، فبادرت مسرعاً
خوفاً أن تبدر لي منه بادرة ، وقيلت - والله - منه ، فلم أعود إلى مجلس مثله بعدها
ولسنا ندرى - إن صح هذا الخبر - أي كارثة أصابت ذلك الفكر الناضج
والعقل السديد فشدته إلى السارية ، وغادرت حليف القيود والأغلال ؟ ولكن
الجنون فنون ، ولعله كان مجنوناً مجنوناً العظيمة ، أو جنون البقرية ، وأهل
البقرية النابون - على رأي مذهب طبائع الإنسان - في منزلة آخذة بطرق
العقل والجنون .

(١) المارستان : مكان تداوى فيه المجانين .

(٢) المتكلم : أي أحد علماء الكلام ، وهو النظر في العقائد .

(٣) هذه العبارة كناية عن توجيه نظره إليه ، وتأميله فيه .

(٤) كان من عوائد العرب أن يعرفوا حوادثهم وما جرىبات أحوالهم بأن

يَزَجُرُوا طَيْراً ؛ فإن مر بهم يمينا تفاءلوا ، وإن مر شمالا نشاءموا ، وبعضهم على

عكس ذلك : يتشاءمون بما يمر بأيمانهم ، ويتفاءلون بما يمر بشمالهم ، وأشهر

المعروفين بالزجر بنو لهب ، وفيهم يقول الشاعر :

خَيْرٌ بَنُو لَهَبٍ فَلَا تَكُ مُلْفِيَا مَقَالَةَ لَهَبِي إِذَا الطَّيْرُ مَرَّتْ

وقال بعض الشعراء ، وهو المُقَنَّعُ السَّكَنْدِيُّ :

فَإِنْ زَجَرُوا طَيْراً بِنَحْسِ تَمْرِ بِي زَجَرْتُ لَهُمْ طَيْراً تَمْرٌ بِهِمْ سَعْدًا

فَقَالَ : شَهِتِ الْوُجُوهُ وَأَهْلُهَا (١) إِنَّ الْخَيْرَةَ لِلَّهِ لَا لِعَبْدِهِ ، وَالْأُمُورَ بِيَدِ
اللَّهِ لَا بِيَدِهِ (٢) وَأَنْتُمْ - يَا جَبُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ - تَعِيشُونَ جَبْرًا ، وَمَمُوتُونَ صَبْرًا

(١) أى بنست هذه الوجوه ، وقبح أهلها .

(٢) أبو داود أحد المعتزلة الذين يقولون : إن العبد خالق أفعال نفسه ،
والجنون يرد عليه هذا القول ، ومجمل القول فى هذه للسألة التى نارت عجآجتها
بين الفرق الإسلامية أنهم قد انقسموا فى الرأى على ثلاثة أوجه :

فقال الجماعة : إن الله تعالى هو خالق أفعال العبد ، سواء أ كانت اختيارية
أم اضطرارية ، لكن للعبد كسبا يقتضى أن يوجه قُدرته وإرادته نحو العمل
فيختار أحد النجدين ، وبه يثاب ، وعليه يعاقب ، ونصوص الكتاب تشهد
لم ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ، ﴿ اللَّهُ خَالِقُ
كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ﴿ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ ، ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ
بِقَدَرٍ ﴾ ﴿ فَعَالٍ لِمَا يُرِيدُ ﴾ .

وقال المعتزلة : الموجد للاختيارية منها هو العبد ، بل قال بعضهم : الخالق
لها هو العبد .

واستدلوا على ذلك بأنه لولا استقلال العبد بفعله الاختيارى لما كان هناك
معنى للتكليف الشرعية ، ولبطل المدح والذم والثواب والعقاب ، ولم يبق
لبعثة الرسل وإنزال الكتب ودعوة الناس إلى الإيمان والطاعات فائدة قطعية ،
بل مقتضى الحكمة الإلهية أن يجعل الثواب والعقاب ونحوهما متصلين بسبب من
فعل العبد ، لأن أن يكون منشأها شيئاً كان هو سبحانه الخالق له وموجده ،
وكيف يكون من عدل الله وقضائه أن يحاسب إنساناً على ما لم يفعله ولم يكن
له فيه اختيار ؟

وهذا الكلام مردود بأن صحة التكليف وما معه لا تتوقف على كون
العبد هو الموجد للفعل والخالق له ، بل يكفي فيها اختياره وصرف قدرته =

وَتَسَاقُونَ إِلَى الْمَقْدُورِ قَهْرًا^(١)، وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمْ
= وإرادته إليه ، وإن فائدة البعثة وما معها لا يلزم أن تكون سبباً في إيجاد العبد
فعل الخير وإنشائه وخلقته ، بل يكفي في فائدتها أن تكون هناك داعية للعبد إلى
صرف قدرته وتوجيه إرادته إلى الفضائل والخيرات .

وقال الجبرية : لا اختيار للعبد في شيء من أفعاله أصلاً ، لأن العبد
وجميع صفاته من قدرة وإرادة وعلم وغيرها وجميع أفعاله صادرة من الله تعالى ،
والعبد لا يعلم تفاصيل فعل من أفعال نفسه ، والاختيار تابع للعلم .
وهذا الكلام مدفوع بأنه لو كان مسلوب الاختيار لم يكن هناك فرق
بين حركة البطش وحركة الارتعاش ، ولما صح تكليفه ، وبأن السكسب
- وهو رأى الجماعة - لا يتوقف على العلم التفصيلي ، بل يكفي فيه العلم الإجمالي ؛
فأما الذي يتوقف على العلم التفصيلي فهو الخلق . الإيجاد ، وهو رأى المعتزلة .

قالوا : وكان أبو العلاء المعري يرى رأى الجبرية حيث يقول :
رَمَاهُ فِي الْيَمِّ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ : إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالْمَاءِ
ونحن نفوض علم ذلك إلى الله تعالى ، فإن فيلسوف المعتزلة كان حائراً
مضطرباً تتنازعه أفكار كثيرة ، ولم يقف عند حد مذهب جماعة يصح أن
يُنسَبَ إليه .

(١) الجحوس : جماعة اتخذت من دون الله آلهة نسبوا إليهم خلقهم
وإيجادهم ، واعتقدوا أن بيدهم زمام أمورهم ، والجنون يقول لأبي داود :
لأنه من مجوس المسلمين ، وذلك لأنه من جماعة المعتزلة الذين يرون للعبد
قدرة على الخلق والإيجاد ، فكأنهم أشبهوا الجحوس في إسنادهم الإنشاء لغيره
سبحانه وتعالى ، وجبراً : أى قسراً ، والمعنى : إنه يرد عليه بأن ظاهر حاله في
حياته يتقضى مذهبه ، فإنه قد ولد دون أن يختار ، وتنزل به الحن ، وتعتربه
الشدايد ، وتحيط به الملمات ، من غير أن يكون له رأى في شيء من ذلك ، =

الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ، أَفَلَا تَنْصِفُونَ، إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَصِفُونَ؟ وَتَقُولُونَ: خَالِقُ الظُّلْمِ ظَالِمٌ! أَفَلَا تَقُولُونَ: خَالِقُ الْهَلِكِ هَالِكٌ^(١)؟ أَتَعْلَمُونَ يَقِينًا، أَنَّكُمْ أَخْبَثُ مِنْ إبْلِيسَ دِينًا؟ قَالَ: رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي، فَاقْرَأْ وَأَنْكُرْهُمْ وَأَمِنْ وَكَفِّرْهُمْ^(٢)، وَتَقُولُونَ: خَيْرٌ فَاخْتَارَ^(٣)، وَكَلَّا فَإِنَّ الْمُخْتَارَ لَا يَبْعَجُ طَنَّهُ^(٤)، وَلَا يَقْفَأُ عَيْنَهُ^(٥)

= فكيف يعتقد أنه مُحَيَّرٌ في شؤونه مرید لها، والآية التي ذكرها تؤيد دعواه، وتقيم حجته.

(١) من أدلة المعتزلة على دعواهم قولهم: إن من الأفعال قبيحا كالسكر والظلم وبقية المعاصي، وخلقُ القبيح قبيحٌ، والله تعالى منزه عن القبيح، فيجب ألا يكون خالقه، وحينئذ يلزم أن يكون العبد خالقا لأفعاله، وهو مردود بأنه لا يقبح من الله جَلَّتْ قدرته شيء؛ لأنه الحكيم القادر على كل شيء القائم على كل نفس بما كسبت، وإنما القبيح كسب القبيح وهو الأمر الذي تتعلق به قدرة العبد وإرادته، وقد نقض المجنون دعواهم، بأنه لو صح أن يكون خلق القبيح قبيحا للزم منه أن يكون كلُّ خالقٍ لشيء متصفا بمخلوقه، ويلزم من هذا أن يكون خالق الموت ميتا، وهم يعتقدون أن الله خالق الموت؛ لأنه اضطراري، ولعمري إن ذلك رد في نهاية الأحكام وغاية القوة.

(٢) أي أن إبليس أسند الإغواء إلى الله تعالى، وهو شر كما تقولون، فأقرَّ بإيكال الأمر كله لله وإسناده إليه، وأنتم أنكرتم ذلك، وآمن بقضاء الله وقدره ولم تدعوا لها.

(٣) هذه إحدى دعوى المعتزلة، يقولون: إن الله عَرَضَ الأفعال خيرا وشرًا على العبد، فاختر منها لنفسه الأعمال التي نَهَجَهَا وسار عليها.

(٤) بَعَجَ بطنه بالسكين: شقَّه، فهو مبعوج وبعيجٌ، وبابه قطع.

(٥) فقأ عينه وبخفها - وبابه قطع - أي: غورها وأتلفها.

وَلَا يَرِي مِنْ حَالِقِ ابْنِهِ^(١)، فَهَلْ الْإِكْرَاهُ، إِلَّا مَا تَرَاهُ^(٢)؟ وَالْإِكْرَاهُ
 مَرَّةً بِالْمِرَّةِ وَمَرَّةً بِالدَّرَّةِ^(٣). فَلْيُخْزِكُمْ أَنْ الْقُرْآنَ يَبْيِضُكُمْ، وَأَنْ
 الْحَدِيثَ يَفْيِظُكُمْ^(٤)، إِذَا سَمِعْتُمْ: (مَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ) أَخَذْتُمْ^(٥)
 وَإِذَا سَمِعْتُمْ: « زُوِيَتْ لِيَ الْأَرْضُ فَأَرَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا » جَعَدْتُمْ^(٦)
 وَإِذَا سَمِعْتُمْ: « عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَقْطِفَ ثَمَارَهَا، وَعُرِضَتْ

(١) حالق: مرتفع، أى: لو كان للعبد الاختيار الذى تدعونه أتم لما اختار
 هذه المصبراتِ الظاهر ضررها البين نساها.

(٢) أى هل تعرف لذلك الإكراه معنى غير ذلك السوق الذى ترى العباد
 يسرون بمقتضاه؟ وهل يمكنك أن تفهم له مغزى أو تتبين له طريقاً غير ذلك
 الظاهر الذى ساق الناس إلى أعمالهم، فترام مستخريين ولا قدرة لأحدم على
 معاندته والوقوف فى طريقه.

(٣) المِرَّةُ: العقل، والمراد أن الإكراه نوعان: نوع خفى، وهو التسلط على
 المشاعر وقهر العقل وغلبته، ونوع ظاهر وهو السوق بالهوى، ويخيل لى أن فى
 هذا نوع ميل إلى مذهب الجبرية الذين يقولون بجبر العبد وعدم اختياره، وذلك
 أن مذهب الجماعة وسط بين المذهبين كما أسلفنا.

(٤) البفض: المقت والكرهية، والببيض المقوت والمكروه، والمعنى:
 إن من أسباب خزيكم وخجلكم أن يكون كتاب الله ممقوتا عندكم غير محبوب
 لديكم لأنه ناطق بالحجة ضدكم.

(٥) أَلْحَدُ فى دين الله: حاد عنه وعدل، ولحد - من باب قطع - لغة فيه،
 وقرىء قوله تعالى: (لسان الذين يلحدون إليه) بهما، وألتحد: مثله، والمعنى
 إنسكم حينما تسمعون نسبة الإضلال الذى هو شر للعبد إلى الله فى محكم كتابه
 تملون وتناولون وتنتحلون وتقولون الذى لا ينطبق مع القرآن فى شىء.

(٦) زوى الشىء يزويه زياً: جمعه وقبضه، والحديث من خوارق العادات، =

عَلَى النَّارِ حَتَّى انْتَهَيْتُ حَرَّهَا بِيَدِي « أَنْتَمُضُّمُ رُؤُوسِكُمْ وَلَوْ بَسْتُمْ أَعْنَاقَكُمْ (١) »
 وَإِنْ قِيلَ : « عَذَابُ الْقَبْرِ » تَطْيِئْتُمْ (٢) ، وَإِنْ قِيلَ : « الصَّرَاطُ »

= والمتمتزة لا ينكرونها بوجه عام ، وإنما ينكرون المراج وهو صمود النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما فوق السموات السبع حيث لا يعلم إلا الله ، ويقولون : إنما كان ذلك في النوم لا في اليقظة ، كما روى في حديث عائشة ، وهذا الحديث يقرب الاستدلال على أنه كان حقيقة وفي اليقظة كما يقول الجماعة ؛ فهو يقول له : إنكم حينما يذكر لكم هذا الحديث تجحدون : أى تنكرون نسبه إلى الرسول ؛ لأنه يدحض مدعاكم ويقيم الحججة عليكم .

(١) نَفَضَ رَأْسَهُ - من باب فعد وجلس - تحرك ، وأنفض فلان رأسه : أى حركه كالمعجب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَسَيَنْفُضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ ﴾ ويقال : نَفَضَهُ - متعديا أيضا - والمعنى : إنكم حين تسمعون ذكر الجنة والنار بما يدل على وجودها اليوم تتمجبون ، وتعرضون عن القائل ، لأنكم ترون كلامه كالمشجأ في حلقكم ، والمتمتزة ينكرون وجود الجنة والنار اليوم ، فأما الجماعة فيقولون : إنهما موجودتان الآن ، مخلوقتان قبل خلق الإنسان ، بدليل ما ذكره الله تعالى من قصة آدم وحواء وإسكانهما في الجنة وإخراجهما منها ، ولقوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ والصيغة تقتضى الوجود بالفعل في هذه الأثناء .

(٢) تطيئتم : نشاءتم ، والمتمتزة ينكرون العذاب في القبر ، والحديث ناطق بتسفيهم والرد عليهم ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم : « القبر إما روضة من رياض الجنة ، وإما حفرة من حفرة النار » ، « مرّ على قبرين فقال : إنهما ليعدّبانٍ ومآبُةٌ ذّبانٍ في كثيرٍ ، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بين الناس بالنميمة » وقال الله تعالى : ﴿ أُغْرِقُوا فَأَذْخَلُوا »

تَعَامَزْتُمْ^(١) وَإِنْ ذُكِرَ الْمِيزَانُ قُلْتُمْ : مِنَ الْفِرْعِ كِفْتَاهُ^(٢) ، وَإِنْ ذُكِرَ
الْكِتَابُ قُلْتُمْ : مِنَ الْقِدِّ دَفْتَاهُ^(٣) ، يَا أَعْدَاءَ الْكِتَابِ وَالْحَدِيثِ ، بِمَاذَا
تَطَّيَّرُونَ ؟ أِبَالَهُ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ تَسْتَهْزِئُونَ ؟ . إِنَّمَا مَرَقَتْ مَارِقَةٌ فَكَانُوا
خَبَثَ الْحَدِيثِ^(٤) ، ثُمَّ مَرَقْتُمْ مِنْهَا فَأَنْتُمْ خَبَثُ الْخَبِيثِ^(٥) ، يَا خَبَايِثَ

نَارًا ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ
أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ .

(١) من دعاوى المعتزلة أن الصراط المذكور في الكتاب والحديث هو
الطريق المعنوي ، وليس هناك كما يقول الجماعة جسراً يُنصَبُ على شفير النار
يحتازه المؤمنون وتزلّ عليه أقدام المبطلين ، وصريح الكتاب والحديث ضدهم ،
فقد ورد في الحديث وصفه وذكر كيفية العبور عليه واجتيازها .

(٢) أى تهزأتُم بذلك ، والفرغ - بكسر أوله - الفراغ ، والمراد عدم
وجوده ، والله يقول : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ﴿ فَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ
مَوَازِينُهُ ﴾ ﴿ وَأَمَّا مَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ .

(٣) القد - بكسر أوله - الجلد ، أى ادعيتم أنه حادث ، ووصفتموه
بصفات الحوادث ، والقول الفصل أن القديم هو صفة الله الكلامية ، فأما
الحروف التي نقرأها والكاغد والورق فمحدثه .

(٤) خبث الحديد وغيره ، بفتحيتين : ما نفاه الكبيرُ ، ويقال : مَرَقَ السهمُ
من الرميّة ، إذا خرج من الجانب الآخر ، وبابه دخل ، ومنه سميت الخوارج
مارقة ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ »
والمعنى إنه خرجت جماعة فكانت للحديث كالصدأ للحديد .

(٥) ثم خرجتم أتم عنها فكان خبثكم أشدّ فكنتم خبث الخبث .

الخوارج، تَرَوْنَ رَأْيَهُمْ إِلَّا الْقِتَالَ^(١) وَأَنْتَ يَا بَنَ هِشَامِ تُؤْمِنُ بِبَعْضِ الْكِتَابِ
وَتَسْكُفُرُ بِبَعْضٍ؟ سَمِعْتَ أَنَّكَ افْتَرَشْتَ مِنْهُمْ شَيْطَانَةً^(٢) ! أَلَمْ يَنْهَكَ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَتَّخِذَ مِنْهُمْ بَطَانَةً^(٣) ؟. وَيَلِكْ هَلَا تَحَيَّرْتَ لِنُطْفَتِكَ، وَنَظَرْتَ
لِعَقَبِكَ^(٤)؟ مُمٌّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَبْدِلْنِي بِهَؤُلَاءِ خَيْرًا مِنْهُمْ، وَأَشْهِدْنِي مَلَائِكَتِكَ^(٥)
قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : فَبَقِيْتُ وَبَقِيَ أَبُو دَاوُدَ لَا نُحِيدُ جَوَابًا^(٦) ،
وَرَجَمْنَا عَنْهُ بِشَرِّ وَابْنِي لَا عَرَفُ فِي أَبِي دَاوُدَ انْكِسَارًا ، حَتَّى [إِذَا] أَرَدْنَا

(١) الخوارج : جماعة خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وقاموا في وجهه يُفَسِّقُونَهُ وَيُحَارِبُونَهُ لِتَحْكِيمِهِ عَمْرًا وَأَبَا مُوسَى ، وقالوا : ليس الحكم إلا لله ، فكل من أسنده لغيره فقد فسق ، والمعتزلة يرون أن واحداً من الإمامين (علي ومعاوية) قد فسق ، ولكنهم لم يجزموا بواحد بعينه ، وهم لا يرون قتاله ، ولذلك تجدد الجنون جعلهم مخانيث الخوارج ؛ لأنهم بينهم كالرجل الذي يتطبع بطباع النساء بين الرجال .

(٢) أي تزوجت امرأة منهم .

(٣) بطانة الرجل ووليجهته : خاصته ومن يشتد بهم أزره ويقوى ساعده ، ولعل أصله بطانة الثوب ضد ظهارته ؛ لأن بها يقوى الثوب ويكون أكثر تحملاً .

(٤) في الحديث : « تَخَيَّرُوا لِنُطْفَتِكُمْ فَإِنَّ الْعِرْقَ دَسَّاسٌ » ، « إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءَ الدِّمَنِ » ، قالوا : وما هي يا رسول الله ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبتِ السوء ، « لَا تَجْعَلُوا نُطْفَتَكُمْ إِلَّا فِي طَهَارَةٍ » فكل هذا حث على اختيار الزوجة وانتخابها من طواهر النساء وفضلياتهم .

(٥) أشهذي : أرني ، والمراد أخرجني من هذه الحياة التي تجمعني بهؤلاء الأندال ، وأدعني إلى الحياة الأخرى لِأَلْتَقِيَ مَلَائِكَتِكَ .

(٦) يقال : كلمته فما أحرَّجَ جواباً : أي ما رجَّعَ ، وقال الأخطل :

هَلَا رَبَّعْتَ فَتَسْأَلُ الْأَطْلَالَ وَتَلَقَّدْتَ سَأَلْتَ فَمَا أَحْرَزَ سُوَّالًا =

الافتراق قال: يا عيسى هذا وأبيك الحديث، فما الذي أَرَادَ بالشَّيْطَانَةَ؟ قلتُ:
 لا والله ما أذرى، غيرَ أَنِّي هَمَمْتُ أَنْ أُخْطِبَ إِلَى أَحَدِهِمْ وَلَمْ أَحَدِّثْ
 بِمَا هَمَمْتُ بِهِ أَحَدًا، والله لا أفعلُ ذلكَ أَبَدًا، فقال: ما هذا والله إلا
 شَيْطَانٌ فِي أَشْطَانٍ^(١)، فَرَجَعْنَا إِلَيْهِ، وَوَقَفْنَا عَلَيْهِ، فابْتَدَرَ بِالْمَقَالِ، وَبَدَأْنَا
 بِالسُّوَالِ، فقال: لَمَّا آثَرْتُمَا، أَنْ تَعْرِفَا مِنْ أَمْرِي مَا أَنْكَرْتُمَا^(٢)، فَقُلْنَا:
 كُنْتَ مِنْ قَبْلُ مُطْلِمًا عَلَى أُمُورِنَا، وَلَمْ تَعُدْ الْآنَ مَا فِي صُدُورِنَا^(٣)، فَفَسَّرَ
 لَنَا أَمْرَكَ، وَاكْشَفَ لَنَا سِرَّكَ، فقال:

أَنَا يَنْبُوعُ الْعَجَائِبِ فِي أُخْتِيَالِي ذُو مَرَاتِبِ^(٤)
 أَنَا فِي الْحَقِّ سَنَامٌ أَنَا فِي الْبَاطِلِ غَارِبٌ^(٥)

= ومنه يقال « حاورته » أى راجعته، و« هو حسن الحِوَارِ » و« كلبته فإ
 رَدَّ إِلَى مَحْوَرَةٍ ».

(١) يقال: عندي شَطَنٌ قَوِيٌّ، وهو الجبل يُسْتَقَى بِهِ وَتُرْبَطُ بِهِ الدَابَّةُ،
 وجمه أشطان.

(٢) آثرتما: فضَّلتما، ومنه قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ أى
 فضَّلَكَ، والمعنى إني أرى في عَوْدَتِكَا أَنْكَمَا فَضَّلْتُمَا أَنْ تَتَّبِعِنَا مَا خَفِيَ عَلَيْنَا
 مِنْ أَمْرِي.

(٣) تَعُدُّو: تُجَاوِزُ، والمعنى إنك الآن كذيت قبل، قد تفرَّسْت فِينَا فلم تَحْطِئْ
 فِرَاسَتِكَ ولم يَحْضِبْ ظَنُّكَ.

(٤) أى أنا مصدر كل عجيبة، ومورد كل غريبة، ومَمْدِنُ كل شاردة.

(٥) السَّنَامُ: أعلى ظهر البعير، والغارب: كاهله، وهو مرتفع أيضًا،
 والمعنى إنه إذا أراد الحق كان في أعلى مكان منه، وإن شاء الباطل بَرَعَ
 فِيهِ أيضًا: أى أنه بارِعٌ مَتَفَوِّقٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَفِي جَمِيعِ الْيَادِينَ.

أَنَا إِسْكَندَرُ دَارِي فِي بِلَادِ اللَّهِ سَارِبٌ^(١)
أَغْتَدِي فِي الدَّيْرِ قَسِيماً، وَفِي الْمَسْجِدِ رَاهِبٌ^(٢)

(١) السارب : الذهاب في الأرض نهائراً كالهائم الذي لا يدري أن يتوجه .
وفي القرآن الكريم : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَمَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ . ونقول : سَرَبَ فِي الْأَرْضِ يَسْرُبُ سُرُوباً - عَلَى مِثَالِ قَعْدٍ يَقَعِدُ قَعُوداً - أَي مَضَى فِيهَا . ونقول « هُوَ يَسْرُبُ النَّهَارَ كُلَّهُ فِي حَوَائِجِهِ » وقالوا : سَرَبَ النَّعْمُ ، إِذَا تَوَجَّهَ لِالرَّغْبَى ، وَمِنْ هَذَا سَمَّوُا الطَّرِيقَ « سَرَباً » لِأَنَّهُ يُسْرَبُ فِيهِ ، وَقَالُوا « خَلَّ لَهُ سَرَبَةٌ » أَي طَرِيقُهُ ، قَالَ ذُو الرِّمَّةِ :

خَلَّى لَهَا سَرَبٌ أَوْلَاهَا ، وَهَيَّجَهَا مِنْ خَلْفِهَا لِأَحِقُّ الصُّقْلَيْنِ هَمِيمُ
(٢) أى أنه ذو ألوان ، فتارة يدعو إلى هذا ، وطورا إلى ذلك ، والمراد مجرد التقلب إلى ألوان مختلفة في مختلف الأحوال ، ولا يريد أنه يكون نصرانيا تارة ، ومسلما تارة أخرى ، وإن كنه - كما أشرنا أولا - يريد مطلق التقلب في مطلق الأحوال ولم يُسَمِّهِ التعمير الحسن .

٢٥ - المَقَامَةُ المَجَاعِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :
 كُنْتُ بِبَغْدَادَ عَامَ مَجَاعَةٍ (١) ، قَمِلْتُ إِلَى جَمَاعَةٍ ، قَدْ ضَمُّهُمْ سَمَطُ
 الثَّرِيَاءِ (٢) ، أَطْلُبُ مِنْهُمْ شَيْئًا ، وَفِيهِمْ فَتَى ذُو لُغْفَةٍ بِلِسَانِهِ (٣) ، وَفَلَجَ
 بِأَسْنَانِهِ (٤) ، فَقَالَ : مَا خَطْبُكَ (٥) ، قُلْتُ : حَالَانِ لَا يُفْلِحُ صَاحِبُهُمَا :
 فَقِيرٌ كَدَّهُ الْجُوعُ (٦) ، وَغَرِيبٌ لَا يُمَكِّنُهُ الرَّجُوعُ (٧) ، فَقَالَ الْعَلَامُ :
 أَيُّ الثُّلُمَتَيْنِ نَقَدْتُ سَدَّهَا (٨) ؟ قُلْتُ : الْجُوعُ فَقَدْ بَلَغَ مِنِّي مَبْلَغًا (٩) قَالَ :
 فَأَقُولُ فِي رَغِيفٍ ، عَلَى خِوَانٍ نَظِيفٍ (١٠) ،

- (١) مجاعة : أى قحط ، وإحمال ، وجذب ، وشدة .
- (٢) السَّمَطُ : السلك ما دام اللؤلؤ منظوماً به ، وإلا فهو سلك . والثريا : مجموع كواكب يشبهون بها الجماعات المتألفة .
- (٣) أى أنه يُبَدِّلُ بعض الحروف ببعض .
- (٤) الفَاجُ : تباعد ما بين الأسنان ، وهو من محاسنها .
- (٥) ما خَطْبُكَ : أى ما حاجتك ؟ أو ما الأمر الذى آلمك فجئت تشكو منه ؟
- (٦) كَدَّهُ : أتعبه ، وأجهده ، ونال منه ، وأغياه .
- (٧) أى لا يستطيع العوْدَةَ إلى وطنه ، ولا يقدر على الأوبة لداره .
- (٨) الثلمة - بالضم - أصلها الشق فى الحائط ونحوه ، وليس مما يرتاب فيه أن الجوع والاعتراب أكبر ما ينزل بسعادة المرء فيمطلها .
- (٩) أى أننى أفضل رَدَّ عادية الجوع ؛ لأنه أقوى وآكد ، وقد أصبح وطؤه على ثِقِيلًا ، وعبثه متمبها كادا ، وقد تحملت له العناء والمشقة ، وشربت منه الأمرين ، فخلصنى منه أولاً ، ونجنى من آلامه بادية ذى بدء .
- (١٠) الخِوَانُ : المائدة قبل أن يوضع عليها طعام ، فإذا وضع فهى مائدة .

وَيَقْلُ قَطِيفٍ إِلَى خَلِّ ثَقِيفٍ^(١)، وَلَوْنٌ لَطِيفٍ، إِلَى خَزْدَلٍ حَرِيفٍ^(٢)، وَشِوَاءٌ صَفِيفٍ، إِلَى مِلْحٍ خَفِيفٍ^(٣)، يُقَدِّمُهُ إِلَيْكَ الْآنَ مَنْ لَا يَمْلُكَ يَوْعَدُ^(٤) وَلَا يَمْعَدُ بِكَ بِصَبْرٍ، ثُمَّ يَمْلُكَ بَعْدَ ذَلِكَ^(٥) بِأَفْدَاحٍ ذَهَبِيَّةٍ، مِنْ رَاحٍ عِنَبِيَّةٍ^(٦)؟

(١) بقل قطيف : مقطوف ، أى ورق بلا جذور ، واخل ثقيف : حامض جدا .

(٢) أصل اللون : الدقل ، وهو نوع من النخل ، أو هو التمر نفسه ، وهو جمع واحده لَوْنَةٌ أَوْ لَيْنَةٌ ، وأصلها لَوْنَةٌ بِالْوَاوِ ، وَلا يَكُنْ لَمَّا سَكَنْتِ الْوَاوُ وَانصَكِرَ مَا قَبْلَهَا انقلبت ياء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ ﴾ وعرها سمين يسمى العَجْوَةُ ، وقد تجمع على لَيْنٍ ، والمراد هنا نبيذ ذلك التمر ، والخردل : حب شجر معروف ، وحرّيف : أى له لذعة فى اللسان ، وأصل هذه الكامة « الحُرْفُ » بوزن قفل ، وهو حب الرشاد ، وإنما يستحب مثل ذلك أثناء الطعام لأنه يجدد الشهوة إلى الأكل ويبعثها .

(٣) الشوَاء - بكسر الشين - اللحم المشوى ، والقطعة منه شوأة ، والفعال : شَوَى يَشْوِي شِيَاءً ، وتقول : انشوى اللحم ، ولا تقل : اشتوى ، والصفيف - بوزان أمير - ما صف فى الشمس ليحجف أو على النار لينشوى ، والمعنى : هل تريد أن أقدم لك لحما قد جعل شِوَاءً ، وأجبتك معه بقليل من الملح ليساعدك على الأكل؟ (٤) يريد أنه لا يسوف عليك ، بل يسرع لك بالإجاز والتنفيذ .

(٥) أصل العَلِّ الشرب مرة بعد أخرى ، وأراد منه هنا مطلق شيء يجىء بعد آخر .

(٦) الراح : الخمر ، وعنابية : أى متخذة من العنب .
وقد أولع الشعراء قديمهم وحديثهم بالكلام عنها ووصفها ، قال أمير المؤمنين عبد الله بن المعتز :

وَحُلُو الدَّلَالِ مَلِيحُ الفَضْبِ يَشُوبُ مَوَاعِيدُهُ بِالْكَذِبِ
سَقَانِي وَقَدْ سُلَّ سَيْفُ الصَّبَا حِ وَاللَّيْلِ مِنْ خَوْفِهِ قَدْ هَرَبَ =

أَذَاكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ أَوْسَاطُ مَحْشُورَةٍ (١) ، وَأَكْوَابٌ مَمْلُوءَةٌ (٢) ، وَأَنْقَالٌ مَعْدَدَةٌ (٣) ، وَفُرُشٌ مَنصَدَةٌ (٤) ، وَأَنْوَارٌ مَجُودَةٌ (٥) ،

عُقَارًا إِذَا مَا جَلَّتْهَا الشَّقَاةُ أَلْبَسَهَا الْمَاءُ تَاجَ الْحَبِيبِ
فَأُصْلِحَ بَيْنِي وَبَيْنَ الزَّمَانِ وَأَبْدَلَنِي بِالْهَمُومِ الطَّرَبِ
رَمَا الْعَيْشُ إِلَّا لِمُسْتَهْتَرٍ تَظَلُّ عَوَاذِلُهُ فِي شَغَبِ
يَهِيمٍ إِلَى كُلِّ مَا بَشْتَهِي وَإِنْ رَدَّهُ الْعَذْلُ لَمْ يَنْجَذِبِ
وَيَسْخُورُ بِمَا قَدْ حَوَتْ كَفَّهُ وَلَا يُدْبِعُ الْمَنَّ مَا قَدْ وَهَبِ
فَكَمْ فِضَّةً فَضَّهَا فِي سُرُو رِيَوْمٍ؟ وَكَمْ ذَهَبًا قَدْ ذَهَبِ؟

والمبرز في هذه الحجابة ذو المعاني الغريبة والأساليب المستملحة هو الحسن بن

هاني أبو نؤاس الذي يقول :

وَكَأْسٌ كَصَبَاحِ السَّمَاءِ شَرِبْتُهَا عَلَى قُبْلَةٍ أَوْ مَوْعِدٍ بِإِقَاءِ
أَنْتِ دُونَهَا الْأَيَّامُ حَتَّى كَانَتْهَا تَسَاوَتْ نُورٍ مِنْ فَتُوقِ سَمَاءِ
تَرَى ظَهْرَهَا مِنْ ظَاهِرِ الْكَأْسِ سَاطِعًا عَلَيْنِكَ وَلَوْ غَطَّيْتَهَا بِغِطَاءِ

ولابن الرومي كلامٌ جَزَلٌ وشعر رائع في هذا الباب ، ومنه قوله :

يَمَلُّ كُلَّ شَرَابٍ مَنْ يُعَاقِرُهُ وَشَارِبُ الرِّيحِ مَشْعُوفٌ بِهَا عَانِي
كَرِيحَةِ الْمَرِّ لَا تَنْفَكُ فِي قَهِّهِ وَمَا يَمَلُّ لَهَا طَمَمٌ لِإِبَانِ

(١) أى أما كن جمعت كثيراً من الظراف .

(٢) الأكواب : جمع كوب ، وهو الكوز ما لم يكن له عُزْوَةٌ ، وأراد بها

أكواب الخمر وكؤوسها

(٣) أنقال : جمع نَقْلٌ وهو بفتح أوله ما يُنْقَلُ إليه من الخمر ومنه إليها .

(٤) نَصْدٌ متاعه - من باب ضرب - وضعه منتظماً مرتباً مصفوفاً ، ونَصْدُهُ

تنصيذاً أيضاً : لهبالغة في وضعه متراصفاً .

(٥) جاد الشيء : يجود جَوْدَةً - بفتح الجيم وضمها - صار جيداً ، وأجاده وجَوْدَةٌ :

صيره كذلك ، ومعنى تجويد الأنوار : أنه قد أجيد سراجها وتوثق في مسارحها .

وَمُطْرِبٌ مُجِيدٌ^(١) ، لَهُ مِنَ الْقَزَالِ عَيْنٌ وَحِيدٌ^(٢) ؟ فَإِنْ لَمْ تُرِدْ هَذَا
وَلَا ذَاكَ ، فَأَقُولُكَ فِي لَحْمِ طَرِيٍّ ، وَسَمَكِ نَهْرِيٍّ^(٣) ، وَبَازِئِجَانِ مَقْلِيٍّ ،

(١) التطريب في الصوت : مَدُّهُ وتحسينه ، ولو كان المطرب مأخوذاً من
هذا السكان « مُطْرِبٌ » كما هو وزن اسم الفاعل من المضعف ، ولعله مأخوذ من
« أَطْرَبَ » بمعنى بعث الطرب إلى غيره ، مع ملاحظة ذلك المعنى ، وهو مَدُّ
الصوت وتحسينه ، والطرب : خِفة تصيب الإنسان لشدة حزن أو سرور .

(٢) الجيد : العنق ، ومثل هذا قول الجنون :

قَعَيْنَاكَ عَيْنَاهَا ، وَجِيدُكَ جِيدُهَا سِوَى أَنْ عَظُمَ السَّاقِ مِنْكَ دَقِيقُ

ومن بديع ما قيل في القيان قولُ ابن الرومي :

| | |
|--|---|
| ظَبِيَّةٌ تَسْكُنُ الْقُلُوبَ وَتَرَعَا | هَا ، وَقَرِيْبَةٌ كَمَا تَفْرِيْدُ |
| حُسْنُهَا فِي الْعِيُونِ حُسْنٌ جَدِيْدُ | فَلَهَا فِي الْقُلُوبِ حُبٌّ جَدِيْدُ |
| تَتَفَنَّى كَأَنَّهَا لَا تُعَنَّى ، | مِنْ سُسْكُونِ الْأَوْصَالِ ، وَهِيَ تَجِيْدُ |
| مَدَّ فِي شَأْوِ صَوْتِهَا نَفْسٌ كَا | فِي كَأَنْفَاسِ عَاشِقِيْهَا مَدِيْدُ |
| وَأَرْقَ الدَّلَالُ وَاللَّ... مِنْهُ | وَبَرَاهُ الشَّجَا فَكَأَدَ يَبِيْدُ |
| فَتَرَاهُ يَمُوتُ طَوْرًا وَيَحْيَى | مُسْتَلْدٌ بِسَيْطِهِ وَالنَّشِيْدُ |
| فِي هَوَى مِثْلَهَا يَخْفُ حَلِيْمٌ | رَاجِحٌ حِلْمُهُ وَيَعْوَى رَشِيْدُ |
| خَلَقَتْ فِنَنَةً غِنَاءً وَحُسْنًا | مَا كَمَا فِيهِمَا جَمِيْعًا نَدِيْدُ |
| لِي حَيْثُ انْصَرَفَتْ مِنْهَا رَفِيْقُ | مِنْ هَوَاهَا وَحَيْثُ حَلَّتْ قَعِيْدُ |
| عَنْ يَمِيْنِي وَعَنْ شِمَالِي وَقَدَا | بِي وَخَلْفِي ، فَأَيْنَ عَنْهُ أَحِيْدُ ؟ |

(٣) لحم طري : أى لا يجهد المعدة ولا يحملها مشقة كلحم الطير ، والسمك

النهرى : المستخرج من النهر ، وهو أكثر طراوة من سمك البحر المالح ، والمعنى :

إذا كنت لاتستطيع الموافقة على حضور مجلس الغناء ومشاركة الندماء فى احتساء

الخمر فاذا ترى فى مثل هذا .

وَرَّاحٍ قَطْرُهُ لِي^(١) ، وَتَفَّاحٍ جَنِّي^(٢) ، وَمَضْجَعٍ وَطِي^(٣) ، عَلَى مَكَانٍ
عَلِيٍّ^(٤) ، حِذَاءَ نَهْرِ جَرَّارٍ ، وَحَوْضِ ثَرْثَارٍ^(٥) ، وَجَنَّةِ ذَاتِ أَنْهَارٍ ؟
قال عيسى بن هشام : فقلت : أنا عبدُ الثلاثة^(٦) ، فقال الغلام : وأنا
خادمُها نَوْ كَأَنْتَ^(٧) ، فقلت : لا حَيَّكَ اللهُ ، أَحْيَيْتَ شَهَوَاتٍ قَدْ كَانَ
الْيَأْسُ أُمَاتَهَا^(٨) . ثُمَّ قَبِضْتَ لَهَا تَهَا^(٩) ، فَمِنْ أَيِّ الْخَرَابَاتِ أَنْتَ^(١٠) ؟ فقال :

(١) قطر بل : قرية بالعراق شهيرة بالبحر ، وقال أبو نؤاس :
قَطْرُ بِلٍ مَرْبَعِي ، وَلِي بِقُرَى آلِ كَرَّخٍ مَصِيفٌ ، وَأَمِّي الْعِنَبُ
تُرْضِعُنِي دَرَّهَا وَتَلْعَفُنِي بِظِلِّهَا وَالْهَجِيرُ يَلْتَهَبُ
(٢) يقال : ثمر جني ؛ إذا كان حين اقتطافه قريبا ، والفاكهة أجود
ما تكون إذا كانت كذلك .

(٣) مضجع وطى : لين ، هانيء ، لا تملُّ النوم فيه .
(٤) عليّ : مرتفع ، وذلك من دواعي الرغبة .
(٥) أي يسمع به صوت الماء دائما لدوام جريه .
(٦) أي أريد كل هذه الأمور التي ذكرت .
(٧) أي كما أنك تشاقها وتمنى وجودها بين يديك فكذلك أنا ، ولكن
الحصول عليها عسير .

(٨) أي أنرت في نفسي دواعي الشهوة إلى أشياء كان الفقر قد أياسني
من بلوغها .

(٩) اللّهات : الهنة المطبقة في أقصى سقفِ الفم ، والجمع اللّهات ، واللّهوات ،
واللّهيات أيضا ، والمعنى : إنك بعد أن هيّجت ساكن الشهوة إلى ما ذكرت
من الطعام والمشرب لم تنقع الغلة ولم تبل الأوام ، بل تركتني أتالم وأنضجر .
(١٠) الخرابات : الأمكنة المتخربة التي لا يسكنها أحد ، ويزعمون أنها
تكون مأوى الشياطين ، فالمعنى : أنت شيطان فمن أي مكان جئت .

أَنَا مِنْ ذَوِي الإسْكَندَرِيَّةِ مِنْ تَبِعَةٍ فِيهِمْ زَكِيَّةٌ (١)
 سَخَفَ الزَّمَانُ وَأَهْلَهُ فَكَرَبْتُ مِنْ سُخْفِي مَطِيَّةٌ (٢)

(١) أي أنا من أصل أصيل في الاسكندرية .

(٢) السخف - بوزن القفل - رقة العقل ، وبابه ظَرْفٌ ، فهو سخيْفٌ ،

وقالوا « هو سَخِيفُ العقل » أي ناقِضُهُ ، وقال الشاعر :

وَأُمُّكَ حِينَ تَذُكَّرُ أَمْ صِدْقٌ وَلَكِنْ أَبْنَاهَا طَبِيعُ سَخِيفُ

والأصل في هذا المعنى قولهم « سَخَفَ الثَّوْبُ سَخَافَةً » إذا كان رقيق

النَّسِجِ ، وقالوا أيضا « ثوبٌ سَخِيفٌ النَّسِجِ » أي رقيقه .

والمعنى إن الزمان وأهله قد رَقَّتْ عقولهم وضعفت أحلامهم ؛ فالترمت أن

أكون مثلهم ، فتمعدت السخف وتصنعت الجمالة .

٢٦ - المَقَامَةُ الوَعِظِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

بَيْنَمَا أَنَا بِالْبَصْرَةِ أَمِيسٌ^(١) ، حَتَّى أَدَانِي السَّيْرُ إِلَى فُرْضَةٍ قَدْ^(٢) كَثُرَ فِيهَا قَوْمٌ عَلَى قَائِمٍ يَعْظُمُهُمْ وَهُوَ يَقُولُ : أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ لَمْ تَنْتَرَكُوا سُدَى^(٣) ، وَإِنَّ مَعَ الْيَوْمِ غَدًا^(٤) ، وَإِنَّكُمْ وَارِدُو هُوَّةٍ^(٥) ، فَأَعِدُّوا لَهَا مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ، وَإِنَّ بَعْدَ الْمَعَاشِ مَعَادًا^(٦) ، فَأَعِدُّوا لَهُ زَادًا ، أَلَا لَأَعْدُرَ فَقَدْ بُيِّنَتْ لَكُمْ الْمَحَجَّةُ^(٧) ، وَأَخَذَتْ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةُ ، مِنْ السَّمَاءِ بِالْخَبَرِ ، وَمِنْ الْأَرْضِ بِالْمَبْرِ^(٨) ، أَلَا وَإِنَّ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ عَلِيمًا ،

(١) أميس : أى اختال فى مشيتى ، وأتبعخر فى سيرى .

(٢) فُرْضَةٌ : فُرْجَةٌ وَنُلْمَةٌ .

(٣) سُدَى : أى هَمَلًا لاراعى لكم .

(٤) أى إن كنتم تظنون أنكم تفرِّون اليوم فإن الغد مُلَاقِيكُمْ فَأَعِدُّوا لَهُ .

(٥) هُوَّةٌ فى الأصل : الحفرة العميقة ، وأراد منها القبر .

(٦) المعاد : الرجوع ، والمعنى إن بعد هذه الحياة حَيَاةً أُخْرَى تَرْجَعُونَ فِيهَا

إلى الله ، وكما أنكم لا تحيون هنا إلا بالزاد وأنتم تتسكالبون عليه ، فأجمعوا شيئًا

من الزاد تستمدون منه هناك ، وهو العمل الصالح .

(٧) المحجة : الطريقة الواضحة ، والحجة : البُرْهَانُ وَالِدَلِيلُ .

(٨) أى نزل عليكم من السماء دليلُ الشَّرْعِ وبين أيديكم دليلُ العقل ،

وهو التدبر فى الأكوَانِ وَمَلَكُوتِ الْأَرْضِيْنَ ، وَالْعِبْرَةَ - بِالتَّكْسِرِ - الْاسْمِ مِنْ

الاعتبار ، وَجَمْعُهَا عِبْرٌ ، وَمَعْنَاهَا الْمَوْعِظَةُ .

يُخِي الْعِظَامَ رَمِيًّا^(١) ، أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا دَارُ جَهَنَّمَ ، وَقَنْطَرَةٌ جَوَازٍ^(٢) ،
 مَنْ عَبَّرَهَا سَلِمَ ، وَمَنْ عَمَّرَهَا نَدِمَ^(٣) ، أَلَا وَقَدْ نَصَبْتُ لَكُمْ الْفَخَّ وَنَثَرْتُ
 لَكُمْ الْحَبَّ ؛ فَمَنْ بَرَّعَ ، يَقَعْ ، وَمَنْ يَلْقَطْ ، يَسْقُطْ^(٤) ، أَلَا وَإِنَّ الْفَقْرَ
 حِلْيَةٌ نَبِيِّكُمْ فَأَكْتَسَوْهَا ، وَالْفَنَى حِلَّةُ الطُّغْيَانِ فَلَا تَلْبَسُوهَا^(٥) ، كَذَبَتْ

(١) بدأ الخلق : أنشأه أول مرة ، والرميم : البالي ، وهو فعيل من قولهم :
 رَمَّ الْعِظْمَ يَرِمُّ رِمَّةً بكسر الراء في الأخيرين ، إذا بلى وتقدم عليه العهد ، والمعنى
 إن الله جات قدرته قد أنشأكم أول مرة ، وأوجدكم من العدم ، عالماً بكم خبيراً بما
 تكونون عليه ، وإنه لن يعجز على إعادتكم ليمرضكم على الحساب ، ويناقشكم
 فيما أسأقتكم في أيام حياتكم الأولى ، وإذا كان حاله كذلك فقد وجب على عبده
 ألا يَأْهُوَ عن مراقبته وحساب نفسه .

(٢) جِهَازُ العروس والسفر - بفتح الجيم وكسرها - مَتَاعُهُ وَحَمُولَتُهُ التي
 يأخذها معه المسافر ، والجواز : المرور ، والسلوك ، والسير ، والمعنى : إن هذه
 الحياة ليست إلا سُوقًا تَجَهَّزُونَ منها لسفركم الطويل ، وطريقاً تسلكونه إلى
 مقصدكم الذي تريدونه ، فانتقوا من المتاع ما تعملون أنه يُبَيِّنُكُمْ في سفركم
 ولا يضرركم ، وأسلكوا الطريق التي لا يشوبها عوج ولا تنهشكم أسودها
 (٣) عَبَّرَهَا : تَخَطَّاهَا ، وَعَمَّرَهَا : أَقَامَ فِيهَا العِمَارَاتِ .

(٤) أى أن الدنيا كصيدا ينصب حَبَائِلُهُ للطير ، لا يريد بذلك منفعة الطير ،
 ولكنه يريد منفعة نفسه ، فكل طائر يلقط الحب يقع في هذه الأَحْبُولَةِ

(٥) للمعنى : لا يزد هيكم رَوْنَقُ الغنى ، ولا تغرنكم مظاهره ، ولا يخذعكم
 سَرَابُهُ الأَلَاءِ ، فإنه عَرَضٌ زَائِلٌ ، ومتاع قليل ، وهو مع ذلك مَنَارُ الاغترار ،
 ومنشأ التهلكة ، ورداء مَنْ لَبَسَهُ نَسِيَ الله ، وأتبعه هواه ، فأضله وأرداه ، ولا تأنفوا
 الفقر ، ولا تنفروا من الإملاق ، فإنه يذكركم بالخالق دائماً ، ويحثكم على طاعته وطلب
 رضوانه ، ولقد خير النبي عليه السلام في أن يكون له مثل جبل أحدٍ ذهباً فقال =

ظُنُونُ الْمُتَّحِدِينَ ، الَّذِينَ جَعَدُوا الدِّينَ ، وَجَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ^(١) إِنْ بَعْدَ
الْحَدِيثِ جَدًّا^(٢) ، وَإِنَّكُمْ لَمْ تَخْلُقُوا عَبَثًا^(٣) ، فَحَذَارُ حَرِّ النَّارِ^(٤) ، وَبَدَارُ
عُقْبَى الدَّارِ ، أَلَا وَإِنَّ الْعِلْمَ أَحْسَنُ عَلَى عِلَالَتِهِ ، وَالْجَهْلَ أَفْبَحُ عَلَى حَالَاتِهِ^(٥)
وَإِنَّكُمْ أَشَقَى مَنْ أَظْلَمْتُهُ السَّمَاءُ ، إِنْ شَقِيَّ بِكُمْ الْعُلَمَاءُ^(٦) ، النَّاسُ بِأَمْتَتِهِمْ ؛

= لا ، يَارَبِّ أَجُوعٌ يَوْمًا فَأَحْمَدُكَ ، وَأَشْبَعٌ يَوْمًا فَأَشْكُرُكَ ؛ فَتَشَبَّهُوا بِهِ ، وَسِيرُوا
سِيرَتَهُ ، وَانْهَجُوا طَرِيقَهُ .

(١) عِضِينَ : جَمْعُ عِضَةٍ ، وَهِيَ الْفِرْقَةُ ، كَانُوا يَخْتَلِفُونَ فِي تَأْوِيلِهِ بِالسَّحَرِ تَارَةً
وَالسَّكْهَانَةِ أُخْرَى وَالْأَسَاطِيرِ ثَالِثَةً ، وَالْمَعْنَى : إِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ عَانَدُوا النَّبِيَّ وَلَمْ
يَقْبَلُوا قَوْلَهُ وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ الْاسْتِجَابَةِ لَهُ قَائِلِينَ : « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ
وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ » - قَدْ كَذَبُوا فِي هَذِهِ الدَّعْوَةِ ، وَضَلُّوا عَنِ الصِّرَاطِ ؛
فَلَا تَسْمَعُوا ، لَهُمْ وَلَا تَقُولُوا بِقَوْلِهِمْ .

(٢) الْحَدِيثُ : الْحَيَاةُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَالْجَدُّ : الْقَبْرِ .

(٣) عَبَثًا : أَيْ بِلَا حِكْمَةٍ ، وَأَرَادَ مِنْ هَذَا أَنْ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّ الْمَعَادَ أَمْرٌ يَقْتَضِيهِ
الْعَقْلُ ، وَلَا يَأْبَاهُ كُلُّ ذِي فِكْرٍ ؛ لِأَنَّ مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ لِيَتَمَتَّعَ
بِلَذَائِذِهَا وَيَتَلَجَّ بِنِعَائِهَا ، ثُمَّ لَا يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْءَ ، فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ،
بَلْ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ تَسْكُونَ هُنَاكَ حِكْمَةً فِي هَذَا الْوُجُودِ ، هِيَ « إِثَابَةُ الْخَيْرِينَ ،
وَالْتَنْكِيلُ بِالْأَشْرَارِ » .

(٤) حَذَارُ : اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَى احْذَرُوا ، وَبَدَارُ : اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَى بَادَرُوا .

(٥) أَيْ أَنَّ الْعِلْمَ - وَإِنْ كَانَ فِيهِ تَعَبٌ وَمَشَقَّةٌ - هُوَ حَسَنٌ وَجَمِيلٌ ، بِخِلَافِ
الْجَهْلِ وَإِنْ صَحِبَتْهُ الدَّعَةُ وَالرَّاحَةُ .

(٦) الْمَعْنَى إِذَا لَمْ تَهْتَدُوا بِهَدْيِ الْعُلَمَاءِ وَلَمْ تَنْهَجُوا سَبِيلَهُمْ فَقَدْ حَلَّتْ بِكُمْ
الشَّقْوَةُ .

فَإِنْ أَنْقَادُوا بِأَرْزَامِهِمْ ، نَجَّوْا بِذِمَّتِهِمْ^(١) ، وَالنَّاسُ رُجُلَانِ : عَالِمٌ يَرْعَى ،
وَمُتَعَلِّمٌ يَسْعَى ، وَالْبَاقُونَ هَامِلٌ نَعَامٌ ، وَرَاتِسِعُ أَنْعَامٍ^(٢) ، وَيَلُ عَالٍ أَمِيرٌ
مِنْ سَافِلِهِ ، وَعَالِمٌ شَيْءٌ مِنْ جَاهِلِهِ^(٣) ، وَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ كَانَ
قَائِمًا يَعْظُ النَّاسَ وَيَقُولُ : يَا نَفْسُ حَتَّامٌ إِلَى الْحَيَاةِ رُكُونُكَ ، وَإِلَى الدُّنْيَا
وَعِمَارَتُهَا سُكُونُكَ^(٤) ؟ أَمَا أُعْتَبِرْتِ بِنِ مَضَى مِنْ أَسْلَافِكَ ، وَبِمَنْ وَارَثَتْهُ
الْأَرْضُ مِنْ الْأَفْكَ^(٥) ،

(١) أى ليس الناس إلا بقوادهم ، وهم أئمة الدين ، فإن أسلموا لهم زمامهم
نَجَّوْا ، وإن جمعوا هلكوا .

(٢) أى لا يعدُّ إنساناً إلا واحد من اثنين : عالم ، أو متعلم ، وهو من حديث
على : كن عالماً أو متعلماً ، ولا تكن الثالثة فَتَهْلِكَ .

(٣) ليس أشق على النفس ولا أنكى بها من سافل ياتر العليَّة بأمره
أو جاهل يرشد العالم إلى ما لا يعلمه .

(٤) رَكَنٌ إِلَيْهِ - من باب دخل ، وَرَكَنٌ أَيْضًا بِالْكَسْرِ - مَالٌ وَسَكَنٌ ،
والمعنى : ألا تترددِ عَيْنَ أَيْتِهَا النَّفْسُ الْغَاوِيَةَ عَنِ الْمِيلِ إِلَى لَذَاتِ الدُّنْيَا وَشَهْوَاتِهَا ،
وتحملين عنك ثوب التكالُّب على جمعها وإقامة العماثر بها ؟

(٥) يقال : أَلْفَتْ الْمَوْضِعَ أَلْفَهُ إِفَاءً ، وَأَلْفَتْهُ أَوْلَفَهُ إِيْلَافًا ، وَأَوْلَفَهُ مَوْلَافَةً
وإِلَافًا : أى أحببته ورغبت فيه ، ومنه « الإلْفُ » يقال : حنّت الإلْفُ
إِلَى الإلْفِ ، و « الأليفُ » وجمعه ألائفُ بزنة تبييع وتبائع ، فأما الألائفُ
فجمع آلفٍ بمعنى محب وراغب ، بزنة كافر وكفار ، والمعنى : ألم تسكن لك بمن
سبقك من الناس موعظة فتتهدى إلى ما ينجيك ؟ ثم ألم تأخذك الحسرة على
نفسك بعد ما تبين لك أن إخوانك ومحبيك ومن كنت تتراح إليهم قد صاروا
إلى الأجداث ، وتواروا تحت التراب ؟ ؟ ؟

وَمَنْ فُجِعَتْ بِهِ مِنْ إِخْوَانِكَ ، وَنُقِلَ إِلَى دَارِ الْبَلْبَى مِنْ أَقْرَانِكَ^(١) ؟؟
 فَهُمْ فِي بُطُونِ الْأَرْضِ بَعْدَ ظُهُورِهَا مَحْسِنُهُمْ فِيهَا بَوَالٍ دَوَائِرٍ^(٢)
 خَلَّتْ دُورُهُمْ مِنْهُمْ وَأَقْوَتٌ عِرَاصُهُمْ وَسَاقَتُهُمْ نَحْوَ الْمَنَابِئِ الْمَقَادِرِ^(٣)
 وَخَلُّوا عَنِ الدُّنْيَا وَمَا جَمَعُوا لَهَا وَصَّتَهُمْ تَحْتَ التُّرَابِ الْخَفَائِرِ^(٤)
 كَمْ اخْتَلَسَتْ أَيْدِي الْمُنُونِ ، مِنْ قُرُونٍ بَعْدَ قُرُونٍ^(٥) ؟

(١) الفجيمة : الرزية ، وقد فجعته المصيبة - من باب قطع - وفجعته أيضاً تفعيماً : أوجعته وآلمته ، والأقران : جمع واجده قرنٌ ، وهو - بفتح أوله - مثلك في السن ، تقول : « هو على قرني » أي على سني ، وبكسره قر يعك في الشجاعة وضربك ، والمعنى : ألا تردعك المصائب التي نزلت بعشيرتك وإخوانك فتألمت لها نفسك ؟ ثم ألم يجرئك انتقال لِدَاتِكَ وَقُرْنَاتِكَ إلى الحياة الثانية فتعتبر بهم ؟
 (٢) بَوَالٍ : جمع بالٍ ، وهو أخلق الرث ، ودوائر : جمع دائر ، وهو الهالك .
 (٣) أقوت : خلت وأقبرت ، قال النابغة :

يَادَارَ مَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ فَالْسَنَدِ أَقْوَتٌ وَطَالَ عَمَبَهَا سَالِفُ الْأَمَدِ
 وَالْعِرَاصُ : جمع عرصة ، وهي الفضاء بين الدور ، والمقادير : الأفضية ،
 وأحكام الله .

(٤) المعنى : إنهم نَزَحُوا عن هذه الحياة تاركين أموالهم وذخائرهم التي قَضَوْا أعمارهم في جمعها وتحصيلها ، واستنفدوا أيامهم في الكدح لها والدأب وكانهم كانوا لا يظنون أن وراهم مثل ذلك اليوم ، فلما ذهبوا ضمت أجسامهم حفرة صغيرة ، وسعهم جحر ضيق ، وكانت الدنيا كلها تضيق في وجوههم .
 (٥) أي أن الموت أباد كثيراً من جماعات الناس ، وأفنى العديد من الأمم .

والقرون : جمع قرن وهو - هنا - أهل الزمان الواحد ، قال الشاعر :
 إِذَا ذَهَبَ الْقَرْنُ الَّذِي أَنْتَ فِيهِمْ وَخَلَّيْتَ فِي قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبٌ
 وهو أيضاً ثمانون سنة ، وقيل : ثلاثون سنة .

وَكَمْ غَيَّرَتْ بِيَلَاهَا ، وَعَيَّبَتْ أَكْثَرَ أَرْجَالٍ فِي ثَرَاهَا ؟؟؟

وَأَنْتَ عَلَى الدُّنْيَا مُكَبِّ مُنَافِسٌ نَخَطًا بِهَا فِيهَا حَرِيصٌ مُكَاتِرٌ (١)
 عَلَى خَطَرٍ تَمْشِي وَتُضْبِحُ لَاهِيًا أَنْتَدِرِي بِمَاذَا لَوْ عَقَلْتَ تَخْطِرُ (٢)
 وَإِنْ أَمْرًا يَسْمَى لِلدُّنْيَا جَاهِدًا وَيُذْهَلُ عَنْ أُخْرَاهُ لِاشْتِاقِ خَاسِرٌ (٣)
 أَنْظِرْ إِلَى الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ (٤) ، وَالْمُلُوكِ الْفَانِيَةِ (٥) ، كَيْفَ أَنْتَسَقَتَهُمُ
 الْأَيَّامُ (٦) ، وَأَفْنَاهُمُ الْحَتَامُ (٧) ؟ فَأَنْمَحَتْ آثَارُهُمْ ، وَبَقِيَتْ أَخْبَارُهُمْ (٨) .

(١) أ كَبَّ فلان على كذا ، وانكَبَّ : لزمه وما فتى . يفعله ، والمنافسة :
 المِباراة والتسارع إلى العمل ، والتكاتر : المكاثرة في الأعمال والأموال ونحوها
 أي الغالبية في كثرتهم ، والمعنى إنك مقبل على الدنيا تجمع لذاتها ، وتنافس فيها
 أهلها ، في حرص منك ومغالبة ومنافسة ، كأنك تعتقد دوام الحال لك .

(٢) أي أنك تسير في الدنيا سيراً خطيراً ، بحيث لو عقلت لعلت أنك
 تعرض بنفسك للشقاوة والمهلك .

(٣) المعنى إنه لا ريب في أن الذي يكون همه تحصيل الدنيا دون أن يهتم
 بشأن حياته الأخرى سيخسر في صفتته ويؤوب بالخذلان المبين .

(٤) الخالية : النسيية .

(٥) الغابرة : التي ذهبت من قبل .

(٦) انتسقتهم : أي أهلكتهم ولم تبق لهم أثار ، وأضله من قولهم « نَفَّ
 البِنَاء » إذا أفضله من أصله . (٧) الحام - بالكسر - الموت .

(٨) أنمحت وأمحت : خفيت ولم يبق لها أثر ، وامتحت لغة فيه ضميعة ،
 والمعنى إن آثارهم ومصنوعاتهم لم يبق منها شيء غير الذكرى والأخبار ، وما أبدع
 قول أمير الشعراء في هذا العصر (أحمد شوقي بك) في هذا المعنى :

كُلُّ حَيٍّ عَلَى الْمُنِيَّةِ غَادٍ تَتَوَالِي الرِّكَابُ وَالْمَوْتُ حَادٍ
 ذَهَبَ الْأَوْلُونَ قَرْنَا فَقَرْنَا لَمْ يَدُمْ حَاضِرٌ وَلَمْ يَبْقَ بَادٍ
 هَلْ تَرَى مِنْهُمْ وَتَسْمَعُ عَنْهُمْ غَيْرَ ذِكْرِي مَآثِرٍ وَأَبَادِي ؟

فَأَضْحَوْا رَمِيًا فِي التُّرَابِ وَأَقْفَرَتْ مَجَالِسُ مِنْهُمْ عَطَلَتْ وَمَقَاصِرُ^(١)
وَحَلَّوْا عَنِ الدُّنْيَا وَمَا جَمَعُوا بِهَا وَمَا فَازَ مِنْهُمْ غَيْرُ مَنْ هُوَ صَابِرُ
وَحَلَّوْا بِيَدَارٍ لَا تَزَاوَرُ بَيْنَهُمْ وَأَتَى لِسُكَّانِ القُبُورِ التَّزَاوُرُ^(٢)
فَمَا إِنْ تَرَى إِلَّا رُمُوسًا ثَوَّوَا بِهَا مُسَطَّحَةً تَسْنِي عَلَيْهَا الأَعَاصِرُ^(٣)
كَمْ عَايَنْتَ مِنْ ذِي عِزَّةٍ وَسُلْطَانٍ ، وَجُنُودٍ وَأَعْوَانٍ ، قَدْ تَمَكَّنَ
مِنْ دُنْيَاهُ ، وَنَالَ مِنْهَا مَنَاءَهُ ، قَبْنَى الحُصُونِ وَالدَّسَاكِرِ ، وَجَمَعَ الأَعْلَاقَ
وَالعَسَاكِرَ؟^(٤) .

(١) أقفرت : خلت ، قال عبيد بن الأبرص .

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٌ فَالْقَطِيبِيَّاتُ فَالْجُنُوبُ

وتقول : « أَقْفَرَ فُلَانٌ مِنْ قَوْمِهِ » أى تفرَّد عنهم وبقي وحده ، وتقول أيضا
« أَقْفَرَ جَسَدُ فُلَانٍ مِنَ اللّٰحْمِ » و « أَقْفَرَ رَأْسُهُ مِنَ الشَّعْرِ » . والمقاصر أصله
المقاصير جمع مقصورة وهى الدار التى يختص بها صاحبها ، وقد حذف ياء الجمع
اكتفاء بكسر ما قبلها ، والمعنى إنهم أصبحوا تحت التراب عظاما بالية وأجساما
نخرة ، فى حين أن مجالس لهموم ومعانى أنسهم فى هذه الحياة الدنيا قد خلت
منهم ، وأن مساكنهم التى كانوا قد قصروها على أنفسهم وكانت قد تتحلى بهم
كما تتحلى الحسناء بنفيس القلائد أصبحت مُعَطَّلَةٌ منهم .

(٢) أى أنهم فى أخرام لا تنتقل أجسامهم لزيارة بعضهم كما كانوا هنا ، وذلك
من علامات الوحشة ؛ لأن العزلة من أكبر دواعى الانقباض وأسباب الاستيحاء .

(٣) رموسا : جمع رَمَسٍ وهو القَبْرُ ، وَثَوَى يَثْوِي ثَوَاءً : أقام ، والأعاصر
جمع إعصار ، وأصله أعاصير ، فحذفت الياء اكتفاء بالكسرة ، والإعصار :
الريح الشديدة ، وَتَسْنَى عَلَيْهَا : تحمل الغبار إليها .

(٤) الحصن : البناء حول القرية أو المدينة ، والأعلاق : النفائس ،
والمسكر : الجيش ، وَعَسَاكِرُهُ : هياه .

فَمَا صَرَفَتْ كَفَّ الْمَنِيَّةَ - إِذْ أَنْتَ مُبَادِرَةٌ تَهْوِي إِلَيْهِ - الذَّخَائِرُ (١)
 وَلَا دَفَعَتْ عَنْهُ الْخُصُونَ الَّتِي بَنَى وَحَفَّتْ بِهَا أَنْهَارُهَا وَالذَّسَاكِرُ (٢)
 وَلَا قَارَعَتْ عَنْهُ الْمَنِيَّةَ حَيْلَهُ وَلَا طَمِعَتْ فِي الذَّبِّ عَنْهُ الْعَسَاكِرُ (٣)
 بِاقْوَمُ الْخَذَرِ الْخَذَرِ، وَالْبِدَارِ الْبِدَارِ، مِنَ الدُّنْيَا وَمَكَايِدِهَا، وَمَا نَصَبَتْ
 لَكُمْ مِنْ مَصَائِدِهَا، وَتَجَلَّتْ لَكُمْ مِنْ زِينَتِهَا، وَاسْتَشْرَفَتْ لَكُمْ
 مِنْ بَهْجَتِهَا (٤).
 وَفِي دُونَ مَا عَايَنْتَ مِنْ فَجَعَاتِهَا إِلَى رَفْضِهَا دَاعٍ وَبِالزُّهْدِ أَمْرٍ (٥)

(١) الذخائر : جمع ذخيرة ، وهي فاعل صرفت في أول البيت ، والمعنى : إنه لم تنفعه ذخائره ، ولم تدفع عنه ضرا ، ولم تجلب له خيراً .
 (٢) الدساكر : جمع دسكرة ، وهي البناء الذي يكون كالتقصر من حوله بيوت .

(٣) قَارَعَتْ : دافعت ، والذَّبُّ : الذُّودُ ، والمنع ، والدفاع ، والمعنى : إن حيله وأفكاره التي كان يدبرُّ بها ملكه لم تدافع عنه حين نزل الموتُ به ، ولا أمكن لجيوشه التي أعدَّها لمحاربة الأعداء والكفاح والجلاد أن تمنع عنه أو تحميه ؛ لأن الموت سلطان قاهر ، لا قدرة لخلوق على دفعه .

(٤) المعنى : حاذروا من الدنيا ، ولا تأمنوا لها ، ولا تتخذوا بها ، فقد نصبت لكم الفخاخ ، ونشرت بينكم العيون والرُّقَبَاءَ ، لتستطلع أمركم ثم تأخذكم في أشراكها ، ألا وإن من أشراكها وفخاخها ذلك الرُّوَاءُ الظاهري ، وتلك الزينة الخادعة التي تظهر لكم فيها ، وهذه البهجة وذلك الرونق الخلاب الذي تطلُّع عليكم به .

(٥) أي أن أول من الذي شاهدته من أفعال دنياك كفييل بأن يرَدَّكَ عن غيك ويسير بك إلى رشدك .

فَجِدِّ وَلَا تَغْفُلْ فَمَيْشُكَ بَانِدُ. وَأَنْتِ إِلَى دَارِ الْمُنْيَةِ صَائِرُ (١)
 وَلَا تَطْلُبِ الدُّنْيَا فَإِنَّ طِلَابَهَا - وَإِنْ نَلْتَ مِنْهَا رَغْبَةً - لَكَ ضَائِرُ (٢)
 وَكَيْفَ يَحْرِصُ عَلَيْهَا لَيْبٌ، أَوْ يُسْرِ بِهَا أَرِيْبٌ، وَهُوَ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ
 فَنَائِهَا (٣)؟ أَلَا تَعْجَبُونَ مِمَّنْ يَنَامُ وَهُوَ يَحْشَى الْمَوْتَ، وَلَا يَرْجُو الْفَوْتَ (٤)؟
 أَلَا، لَا، وَلَكِنَّا نَفَرُّ نَفُوسَنَا وَتَشْغَلُهُا اللَّذَاتُ عَمَّا نَحْذَرُ (٥)
 وَكَيْفَ يَلِدُ الْعَيْشَ مَنْ هُوَ مُوقِنٌ بِمَوْقِفِ عَدَلٍ حَيْثُ تُثَلِّي السَّرَائِرُ؟ (٦)

(١) باند : هالك ، أى أن ما أنت فيه من متاع هذه الفاتحة - أى مصيره
 إلى الزوال ، فلا تغفل عن ذلك ، واجتهد فى الذى يدوم ويبقى .

(٢) ضائر : مُضِر ، وهو خبر إن ، والمعنى إن طلب الدنيا - ولو كان يعقبه
 نوالُ شيء منها - لا يفيدك ، بل يضرك .

(٣) أى لا يتصور أن يحرص على الدنيا رجل آتاه الله حصافة الرأى ورزقه
 سداده ؛ لأن من كان ذلك شأنه فهو لاشك واثق تمام الثقة بأنها لا تدوم
 ولا تبقى .

(٤) أراد من النوم التقصير فى أعمال البر والخير ، والمعنى : إن من أشد ما
 يدعو إلى العجب ويُبْهِرُ دواعى الغرابة ، أن يغفل امرؤ عن صنائع المعروف وهو
 يعتقد أن وراء هذه الحياة موتا ، وأن بعد ذلك اللقاء فراقاً ، وليس عنده أمل
 فى أن يُنسأله فى أجله ويؤخر مواعده .

(٥) أى أننا لا نتعجب من الذى يرقب الموت ولا يظن أنه مُقْلَبُهُ ، ثم ينام
 ملء عينيه ، بل نحن نفتر ونخدع أنفسنا فتستهويننا اللذائذ والشهوات ، وتنسيبنا
 ذلك الذى نخافه ونحشاء وهو لنا بالمرصاد ، وذلك هو الموت .

(٦) بَلَاءٌ يَبْلُوهُ ، وَأَبْلَاءٌ ، وَابْتَلَاهُ : اخْتَبَرَهُ ، وَجَرَّبَهُ ، وَالسَّرَائِرُ : جَمْعُ
 سَرِيرَةٍ ، وَهِيَ مَا انطوت عليه نفسك وَقَرَّ فى ضميرك ، والمعنى إنه لا يجد للعيش
 طعماً ولا مساعداً ولا يستلذه كل إنسان علم أنه سيُعرضُ على الله فى يوم يؤخذ فيه
 بالنواصي والأقدام ، وتفتضح السرائر وتظهر المسكنونات .

كَأَنَّا نَرَى أَنْ لَا نُشُورَ ، وَأَنَّا سُدِّي ، مَا لَنَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مَصَابِرُ (١)
 كَمْ غَرَّتِ الدُّنْيَا مِنْ مُخْلِئِ إِلَيْهَا (٢) وَصَرَعَتْ مِنْ مُبَكِّبِ عَلَيْهَا ؛ فَلَمْ
 تُنْعِشْهُ مِنْ عَثْرَتِهِ ؟ وَلَمْ تُقَلِّهِ مِنْ صَرَعَتِهِ ، وَلَمْ تُدَاوِهِ مِنْ سَقَمِهِ ، وَلَمْ تُشْفِهِ
 مِنْ أَلَمِهِ (٣) .

يَلِي أَوْزَدَتْهُ بَعْدَ عِزِّ وَرَفْعَةٍ مَوَارِدَ سُوءِ مَا لَهْنٌ مَصَابِرِ (٤)
 فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَا نَجَاةَ وَأَنَّهُ هُوَ الْمَوْتُ لَا يُنْجِيهِ مِنْهُ الْمُوَازِرُ (٥)
 تَنْدَمَ لَوْ أَغْنَاهُ طَوْلُ نَدَامَةٍ عَلَيْهِ وَأَبْكَتَهُ الذُّنُوبُ الْكَبِيرُ (٦)

(١) النشور : البعث ، والمعنى إن أفعالنا هذه تشبه أفضل من لا يدرك بالبعث، ويعتقد أننا أوجدنا في هذه الحياة بلا راع يكفلنا ، ولن نصير إليه فيما حسبنا .

(٢) مخليئ : أسم فاعل من « أخلأ » بمعنى سبكن واستراح وهذا .

(٣) صرعت : غلبت وقهرت ، ونعشه - من باب قطع - رفعه ، ولا يقال :

أنعشه ، والعثرة : الكبوة ، والمعنى : إن هذه الدنيا قد قهرت بصروفها كل من سكن إليها وهدأت نفسه لها ؛ فلم ترفعه من كبوة ، ولم تأخذ بيده ، بل تركته يترزح تحت أعبائها ، واستمر مُثَقَلًا بمتاعبها وآلامها

(٤) المورد ، ومثله الوزد - بكسر أوله - مكان الورد ، والمصدر ، ومثله

الصدر - بفتحين - الأوبة ، والرجوع ، وهو من قولهم : صدر عن الماء وعن البلاد - من باب دخل - أي رجع ، وفي القرآن الكريم : ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يَصْدُرَ الرَّعَاءُ ﴾ والمعنى : إن هذه الدنيا قد ذهبت به وأخذته إلى أماكن يلتقي فيها الجهد والإعياء ، بعد أن لبس ثوب العز ، وتقلد وسام الرفعة ، وليست له أوبة ولا رجعة عنها .

(٥) الموازر : المساعد ، والمعاضد ، والناصر .

(٦) أي أنه حين علم أن الموت نازل به لا يدفعه عنه صديق ولا حم أرف على تفریطه ، وإن الأسف لا يُجدي به ، وبكى طويلا على ما قدم من ذنوب وآثام وعلى ما اجترح من خطايا وصيئات .

بَكَى عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ خَطَايَاهُ ، وَتَحَسَّرَ عَلَى مَا خَلَّفَ مِنْ دُنْيَاهُ ،
 حَيْثُ لَمْ يَنْفَعَهُ الْأَسْتِعْبَارُ^(١) ، وَلَمْ يُنْجِهِ الْأَعْتِدَارُ^(٢) .
 أَحَاطَتْ بِهِ أَحْزَانُهُ وَهُومُهُ وَأَبْلَسَ لَمَّا أَعْجَزَتْهُ الْمَعَاذِرُ^(٣)
 فَلَيْسَ لَهُ مِنْ كُرْبَةِ الْمَوْتِ فَارِجٌ^(٤) وَلَيْسَ لَهُ مِمَّا يُجَادِرُ نَاصِرٌ^(٥)
 وَقَدْ خَسِئَتْ فَوْقَ الْمَنِيَّةِ نَفْسُهُ تَرُدُّهَا مِنْهُ اللَّهُ وَالْحَنَاجِرُ^(٥)
 فَإِنَّ مَتَى تَرْقِعُ بِأَخْرَتِكَ دُنْيَاكَ^(٦) ، وَتَرَكَبُ فِي ذَاكَ هَوَاكَ ؟ إِنْ أَرَاكَ
 ضَعِيفَ الْيَقِينِ ، يَارَاقِعَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ ، أَيْهَذَا أَمْرَكَ الرَّحْمَنُ ، أَمْ عَلَى هَذَا
 دَلَّاكَ الْقُرْآنُ^(٧) ؟

(١) الاستعبار : البكاء ، مأخوذ من العبرة - بالفتح - وهي الدِّمعة .
 (٢) أى أنه لا ينجو إذا اعتذر ، والمعنى : إنه بكى وذرف دمع عينه
 سخيئاً ، في موقف لا يفيد ذلك فيه ، ومكان لا تنفعه الإجابة به ولا تنقذه المعذرة .
 (٣) أبلس : حزن ، والمعاذر : جمع معذرة ، وفي الأمثال « المعاذر
 مكاذب » والمعنى إن هوموه وأحزانه تجمعت عليه ، فأراد أن يعتذر لينجو منها
 فلم يستطع إلى الاعتذار سبيلاً ، فاشتدَّ غمه .

(٤) فارح : مفرج .
 (٥) خسيئت : بعدت أو طفت ، واللها : جمع لهاة ، وهي اللحمية التي تشرف
 على الحلق عند أقصى سقف الفم ، والحناجر : جمع حنجرة ، وهي مكان خروج
 الصوت والنفس ، والمعنى : إن نفسه بعدت عن جسمه وطفت عليه حينما نزلت
 المنية به ، وقد طفت لهاة وحنجرته تردد صوته وترجع أنفاسه ، وذلك يكون
 عند الحشرجة في أغلب الناس .

(٦) أى تصلح دنياك بإفساد آخرتك ، وهو مأخوذ من قول الشاعر :

نُرْقِعُ دُنْيَانَا بِإِفْسَادِ دِينِنَا فَلَا دِينُنَا يَبْقَى وَلَا مَا نُرْقِعُ

(٧) المعنى : إنك - أي هذا الذي تصلح دنياك بإفساد دينك وتلم شعنها
 وترأب صدعها بتشتيت شمله وتفريق مجتمعه - لم تكن قوى الإيمان شديد =

تُخْرَبُ مَا يَبْقَى ، وَتَمَرُّ فَانِيًا فَلَا ذَاكَ مَوْفُورٌ ، وَلَا ذَاكَ عَامِرٌ (١)
 فَهَلْ لَكَ إِنْ وَافَاكَ حَتْفَكَ بَغْتَةً وَلَمْ تَكْتَسِبْ خَيْرَ الَّذِي اللَّهُ عَازِرٌ ؟؟ (٢)
 أُنْرَضَى بِأَنْ تَقْضَى الْحَيَاةُ وَتَنْقَضَى وَدَيْنُكَ مَنْقُوصٌ وَمَالُكَ وَافِرٌ ؟؟ (٣)
 قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : فَقُلْتُ لِبَعْضِ الْحَاضِرِينَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ :
 غَرِيبٌ قَدْ طَرَأَ لَا أَعْرِفُ شَخْصَهُ . فَأَضْرِبْ عَلَيْهِ إِلَى آخِرِ مَقَامَتِهِ ، لَعَلَّهُ يُبْنِيهِ
 بِعِلْمَتِهِ ، فَصَبَّرْتُ ، فَقَالَ : زِنُّوا الْعِلْمَ بِالْعَمَلِ ، وَأَشْكُرُوا الْقُدْرَةَ
 بِالْعَفْوِ (٤) ، وَخَذُوا الصَّفْوَ وَدَعُوا الْكُدْرَ ، يَغْفِرِ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ ، ثُمَّ أَرَادَ
 الْذَّهَابَ ، فَضَمَيْتُ عَلَى أَثَرِهِ ، فَقُلْتُ : مَنْ أَنْتَ يَا شَيْخُ ؟ فَقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ !

= الاعتقاد ؛ لأن هذه خصلة لم يأمرك بها الله ، ولم يُبَيِّنْكَ عليها كتابه فتجهد
 في تحصيلها وتدأب على العمل بها .

(١) للمعنى على الاستفهام التوبيخي ، وحاصله أنه ليس من الحكمة
 ولا من أصالة الرأي أن تخرب دينك وهو أمر يبق لك وينفعك عند الله وتصلح
 دينك وهي ذاهبة عنك إن اليوم أو غدا ثم لا تتوب لك ، فكأنك قد خسرت
 بذلك الأمرين ، وضاع عليك المنفعتان ؛ لأن عمار الدنيا لا يبقى ، ولأن الدين
 بملك غير عامر .

(٢) المعنى : هب أنك كنت تقول في نفسك إنك تائب فيما بعد ، فهل
 ضمنت ذلك وأخذت به عهداً ؟ وكيف يكون حالك لو جاءك الموت قبل أن تستعدَّ
 للإجابة وتعمل بالتوبة ؟ أو تجدد عند الله من يعتذر عنك أو يقبل معذرتك
 إن قدمتها ؟؟

(٣) المعنى : هل يعجبك ويروق في نظرك أن تترك هذه الحياة ومالك كثير
 لا يحصره العد وأنت لم تكسب في دينك شيئاً ؟

(٤) أى أن الله أنعم عليكم بنعمة القدرة فاشكروا له عليها بالعفو عن
 أساء إليكم ، كما أنه يجب أن تشكروه بالبذل ومدِّ العون للمحة حين والمعوزين .

لَمْ تَرْضَ بِالْحَلِيَةِ غَيْرَتَهَا ، حَتَّى عَمَدْتَ إِلَى الْمَعْرِفَةِ فَأَنْكَرْتَهَا^(١) ! أَنَا
أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيُّ ، قُلْتُ : حَفِظَكَ اللَّهُ ، فَمَا هَذَا الشَّيْبُ^(٢) ؟
فَقَالَ :

نَذِيرٌ ، وَلَكِنَّهُ سَاكِتٌ وَضَيْفٌ ، وَلَكِنَّهُ شَامِتٌ^(٣)
وَإِشْخَاصٌ مُمُوتٌ ، وَلَكِنَّهُ إِلَى أَنْ أَشِيعَهُ ثَابِتٌ^(٤)

(١) أى لم تكثف بأن ادعيت تغيير حالى وشكلى ، فحنت تفكر معرفة
اسمى وكنيتى .

(٢) أى أن العذر لى أنى لم أرك بهذا الشيب .

(٣) أى أنه نذير يندرنى بالموت ودُنُوُّ الأجل ، ولكن مع الصمت ،
وضيف نزل بى غير أنه شامت بى بسبب ما صيرتُ إليه .

(٤) إشخاص موت : إزعاجه ، وهو الرسول الخبر به ، وعادة الرسول أن
يرجع بعد تأدية رسالته ، ولكن هذا لا يرتحل حتى أودَّعه بترك الحياة .

فَقُلْتُ: يَا فَتَى الْعَرَبِ أَدْنِي إِلَيْكَ خَيْفَةً فَهَلْ عِنْدَكَ أَمْنٌ أَوْ قَرِيٌّ؟^(١)
 قَالَ: بَيْنَ الْأَمْنِ نَزَلَتْ، وَأَرْضَ الْقَرَى حَلَّتْ^(٢)، وَقَامَ فَعَلِقَ بِكُمَى،
 فَسَيِّتُ مَعَهُ إِلَى خَيْمَةٍ قَدْ أُسْبِلَ سِتْرُهَا^(٣)، ثُمَّ نَادَى: يَا فِتَاةَ الْحَيِّ، هَذَا
 جَارٌ نَبَتَ بِهِ أَوْطَانُهُ^(٤)، وَظَلَمَهُ سُلْطَانُهُ^(٥)، وَحَدَاهُ إِلَيْنَا صَبِيحَتِ سَمْعُهُ، أَوْ
 ذِكْرُ مَبْلَغِهِ^(٦)، فَأَجِيبِي بِهِ^(٧)، فَقَالَتِ الْفِتَاةُ: أَسْكُنْ يَا حَضْرِيُّ

= في المقامة الإليسية، ونبوء العيين: تجافبها لحقارة المنظور إليه، والتظني: الظن،
 والمعنى: لا يحطن من قدرتي ولا يزرين بقدرتي في نظرك أن تراني صغير السن،
 وأن تجد في منظرى ما يكون سبباً لا بتمعاد عيون الناس عني وتجافبها دوني، لأن
 الشيطان الذي يُعَلِي على هذا الشعر ليس أحدَ السوقة من الشياطين، بل هو
 رئيسهم وأميرهم، وقوة الخيال وشدة العارضة بتبعان ذلك، وإنه ليملي على الشعر
 الجيد المصقول المتين في جميع الأبواب وكل الفنون، ليدفع عني مظنة انتحال
 ما ليس لي، وخير لك بعد أن عرفت ذلك كله ألا تقف حائراً مرتاباً في أمري.
 (١) الخيفة: الخوف، والمعنى إنني إنما لجأت إلى هنا من الخوف، فأنا في
 حاجة للأمن، وقد سرت طويلاً حتى نال مني الجوع، وأحتاج إلى القرى وهي الضيافة
 (٢) أى إنك قد جئت بيتنا لا يخاف اللاجئ إليه، وأذاك السير إلى أرض
 أهلها كرامٌ يرحبون بالضيف ويكرمون نزلَه.

(٣) علق بكى: أمسك بي، وكأنه لحرصه على إكرامه يخشى أن يُفْلِتَ منه.
 (٤) الظاهر أن المراد بلجار هنا المستجير، ور بما صح إرادة معناه المعروف،
 ويكون جواره لهم فيما يقيمه بينهم، ونبت به أوطانه: أى اشتدَّ عليه المقام
 فيها كأنما لفظته إلى غيرها، فهو حقيق بأن تسكرى متوَاه، وتبالي في العناية به.
 (٥) ويروى « وطلبه سلطانُه » أى بحثَ عنه ليُنسَكَلَ به.

(٦) حداه: ساقه، والمعنى إن الذي جاء به إلينا شهرة عُرفنا بها واشتهر ذكرها
 (٧) لعل في هذه الكلمة قرينة على إرادة ما استظهرناه في معنى الجار.

أَيَا حَضْرِي أُسْكُنُ وَلَا تَخَشَّ خَيْفَةً
 وَأَوْفَاهُمْ عَهْدًا بِكُلِّ مَكَانٍ (١)
 وَأَطْعَمَهُمْ مِنْ دُونِهِ بَيْسَانٍ (٢)
 سَحَابَانَ مَقْرُونَانَ مُؤْتَلِفَانِ (٣)
 تَلَاقَى إِلَى عَيْصِ أَغْرِي مَانِي (٤)
 يَحُوتُونَهُ شَفَقَتَهُمْ بِيْمَانٍ (٥)

(١) يعرب بن قحطان : أول من تكلم بالعربية في رأى كثير من المحققين ويستدلون على ذلك بمثل قول حسان :

* تَعَلَّمْتُ مِنْ مَنْطِقِ الشَّيْخِ يَعْرُبِ *

ومعد بن عدنان : أبو العرب العدنانية ، وهو الجد التاسع عشر للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمعنى إن المدوح الذي نزلت داره عزيز منيع الحمي ، لا يخشى على جاره ضم (٢) المعنى إنه يذب عن لجأ إليه ، ويدفع عنه عدوان مريديه ، ولا يألو في ذلك جهدا .

(٣) للنايا : جمع منية ، وهى الموت ، والمعنى كأنه من قرط شجاعته وكرمه قد اقترن الجود والإقدام بيده ، فصارا سحابين : أحدهما ينفع الغلة ويحيى موات الأرض ويعشب جذيبها ، وثانيهما ينزل كسفا على قوم فيفتنهم ويستأصل شأقتهم . وهذا البيت في نظرنا خير من قول طرفة بن العبد :

يَدَاكَ يَدٌ خَيْرُهَا يُرْتَجَى وَأُخْرَى لِأَعْدَائِهَا غَائِظَةٌ

(٤) انتمى : انتسب ، وعيص : أصل ، مأخوذ من العيص الذى هو الشجر ينبت بمضه في أصول بعض ، وقولهم « المرء يشبه عيصه » أى أصله دليل ، والمراد من بياضه نقاء عرضه ، والمعنى إنه إذا انتسب فإنما ينتسب إلى أشرف أصل وأطيب أرومة من نسب اليمانية .

(٥) أى أقبل عليه ؛ فإنه بيت اللاجئين ، ودار المستجيرين ، وإن عنده سبعة نزلوا به مثلما نزلت ، وستكون أنت ثامنهم .

فَأَخَذَ الْفَتَى بِيَدِي إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي أُوْمَأْتُ إِلَيْهِ (١) ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا
 سَبْعَةٌ نَفَرَ فِيهِ ، فَمَا أَخَذْتُ عَيْنِي إِلَّا أَبَا الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيَّ فِي جُمْلَتِهِمْ (٢)
 فَقُلْتُ لَهُ : وَيُحْكَمُ بِأَيِّ أَرْضٍ أَنْتَ ؟ فَقَالَ :

نَزَلْتُ بِالْأَسْوَدِ فِي دَارِهِ أَخْتَارُ مِنْ طَيِّبِ أُنْمَارِهَا (٣)
 فَقُلْتُ : إِنِّي رَجُلٌ خَائِفٌ هَامَتْ بِي الْخَيْفَةُ مِنْ نَارِهَا (٤)
 حَيْسَلَةُ أُمْنَالِي عَلَى مِثْلِهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ وَأَطْوَارِهَا (٥)
 حَتَّى كَسَانِي جَابِرًا خَلَّتِي وَمَاحِيًا بَيْنَ آثَارِهَا (٦)

(١) أوْمَأْتُ : أشارت .

(٢) المعنى : إنني لم أعرف أحداً منهم غيره ، ولذلك أطالت عيني النظر
 إليه ، والتَّحَدِيقَ فِيهِ .

(٣) أَى : أنا مثلك ، جُمْتُ هَذِهِ الدَّارَ مَسْتَأْمِنًا ، فَأَنْزَلْتُ مَكَانًا رَحْبًا ،
 وَخَيْرُونِي فِي أُمُومِهِمْ ، فَأَنَا بَيْنَهُمْ أَخْتَارُ أَطْيَبِهَا وَأَكْرَمِهَا .

(٤) يريد أنه - حين استجاره - ذكر له خَوْفَهُ وَأَنَّهُ غَيْرَ آمِنٍ عَلَى نَفْسِهِ
 مِنْ جَمَاعَةٍ يَتَعَقَّبُونَهُ طَلِبًا لِثَارَاتِهِمْ ، وَأَضَافَ النَّارَ لِلْخَيْفَةِ فِي قَوْلِهِ « نَارِهَا » كَمَا
 يَضَافُ السَّبَبُ لِلْسَّبَبِ .

(٥) المعنى : إن اللُعْمَاءَ كُلَّهُمْ يَتَحَيَّلُونَ عَلَى ذَوِي الْمَكَارِمِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحِيلَةِ
 الَّتِي تَحِيلُ بِهَا عَلَيْهِ ، وَإِنَّهُ لَمْ يَسْأَلْ عَنِ حَقِيقَةِ أَمْرِي لِتَقْبِينِ صَدَقِ حَدِيثِي أَوْ
 كَذْبِهِ ؛ لِأَنَّ شَرَفَ النَّفْسِ وَكِرَمَ الطَّبِيعِ لَا يَرِضِيَانِ ذَلِكَ .

(٦) جَبَرَ الْكَسْرَ يَجْبُرُهُ جَبْرًا : أَى عَاجَلَهُ وَأَصْلَحَ فَاسِدَهُ ، وَالْحَلَّةُ - بَفَتْحِ
 أَوَّلِهِ - الْفَقْرُ وَالْحَاجَةُ ، وَفِي أَمْثَالِ الْعَرَبِ « الْحَلَّةُ تَدْعُو إِلَى السَّلَةِ » يَرِيدُونَ أَنْ
 الْفَقْرُ وَالْحَاجَةُ يَبْسُثَانِ عَلَى السَّرِقَةِ ، وَالْبَيْنُ : الظَّاهِرُ ، وَمَحَا يَمْحُو مَحْوًا : أزال ، والمعنى
 إنه لم يزل يَحْتَمِلُ حِيلَتَهُ إِلَى أَنْ كَسَاهُ كَسْوَةَ جَبَرِ بِهَا فَقَرَهُ وَأزال آثَارَ إِمْلَاقِهِ .

فَخُذْ مِنَ الدَّهْرِ وَنَلِّ مَاصِفًا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْقَلَ عَنْ دَارِهَا (١)
 إِيَّاكَ أَنْ تُنْبِقِيَ أُمْنِيَّةً أَوْ تَكْسَعَ الشُّوْلَ بِأَغْبَارِهَا (٢)
 قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : فَقُلْتُ : يَا سُبْحَانَ اللَّهِ ! أَيُّ طَرِيقِ السَّكْدِيَّةِ
 لَمْ تَسْأَلِكُمْهَا (٣) ؟ مُمَّ عِشْنَا زَمَانًا فِي ذَلِكَ الْجَنَابِ حَتَّى أَمِنَّا ، قَرَّاحٌ مُشْرِقًا
 وَرُحْتُ مُعْرَبًا (٤) .

(١) أى : لا تترك شيئاً مما يجب لك السرور وصفاء النفس وانشرح
 الخاطر دون أن تأخذ منه طرفاً وتنال حظك منه ، وإياك أن تدخر في ذلك وسعاً
 أو تألو جهداً؛ فإن أيام الحياة قليلة لا تحمل أن تنفصها ، ولا تكفى لتكديرها
 بالخاوف والمزجمات ، وسوف تُنقل عنها ، فاغتم أيامها ، واتهز عمرك بها ،
 فليست الحياة إلا اختلاسات تختلسها من يد الزمن ، وفرص تغتمها من
 بين أوقاته .

(٢) الشُّوْلُ : الناقة أتى على ولادتها سبعة أشهر ، ويقال : كسع الناقة
 بغبرها ، إذا ضرب أخلافها بالماء ليرجع اللبن فيكون أقوى وأشد ، يريدون
 بهذا ادخاره للأيام المقبلة ، وأخلاف الناقة كندى المرأة ، والمعنى لا تدخر شيئاً
 للزمن القابل ، وإنما دهرك الحاضر ، ولك الساعة التي أنت فيها .

(٣) السكديّة : سؤال الناس واستجداؤهم وطلب عطاياهم ، والمعنى : إنك
 عرفت طرق الاستجداء كلها ، فلم تترك طريقاً إلا سلكته ، ولا باباً من أبوابها
 إلا ولجته .

(٤) أى لم نزل في جوار ذلك الرجل الكريم حتى أفرخ روعنا ، ثم تفرقنا
 فسرت إلى وطني وسار إلى نصب شباكه .

٢٨ - المَقَامَةُ العِرَاقِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

طُفْتُ الْآفَاقَ ، حَتَّى بَلَغْتُ العِرَاقَ (١) ، وَتَصَفَّحْتُ دَوَابِنَ الشُّعْرَاءِ ،
حَتَّى ظَنَنْتُنِي لَمْ أَبْقِ فِي القَوْسِ مِئْزَعٌ ظَفِيرٌ (٢) ، وَأَحْلَمْتَنِي بَعْدَادُ فَبَيْنَا أَنَا عَلَى
الشَّطِّ إِذْ عَنَّ لِي فَوْتِي فِي أَطَارِ ، يَسْأَلُ النَّاسَ وَيَحْرُمُونَهُ (٣) ، فَأَعْجَبْتَنِي
فَصَاحَتُهُ ، فَقَمْتُ إِلَيْهِ أَسْأَلُهُ عَنِ أَصْلِهِ وَدَارِهِ ، فَقَالَ : أَنَا عَبْسِي الْأَصْلُ ،
إِسْكَندَرِي الدَّارِ (٤) ، فَقُلْتُ : مَا هَذَا اللِّسَانُ ؟ وَمِنْ أَيْنَ هَذَا البَيَانُ (٥) ؟

(١) العراق : بلاد من عبادان إلى الموصل طولاً ، ومن القادسية إلى حلوان
عرضاً ، سميت بذلك لِتَوَاشِجِ عِرَاقِ النخْلِ والشَّجَرِ فِيهَا ، أَوْ لِأَنَّهُ اسْتَكْفَ أَرْضَ
العرب ، أَوْ سُمِّيَ بِعِرَاقِ المَزَادَةِ لِجِلْدَةِ تُجَمَّلُ عَلَى مُلْتَمَتِي طَرَفِي الحَلْدِ إِذَا خُرِزَ فِي
أَسْفَلِهَا ، لِأَنَّ العِرَاقَ بَيْنَ الرِّيفِ والْبَرِّ ، أَوْ لِأَنَّهُ عَلَى عِرَاقِ دِجْلَةَ والفِرَاتِ ، أَوْ
شَاطِئِهَا ، أَوْ هِيَ كَلِمَةٌ مَعْرُوبَةٌ عَنِ إِيرَانَ شَهْرٍ ، وَمَعْنَاهُ كَثِيرُ النخْلِ والشَّجَرِ .

(٢) المِئْزَعُ بوزن منبر : السهم ، وَالظَّفِيرُ : الفوز والغَلَبَةُ ، وَأَضْيَفَ المِئْزَعُ إِلَيْهِ
لِأَنَّهُ أَدَاتُهُ وَآلَتُهُ الَّتِي تَسْتَغْلُ مِنْ أَجْلِهَا ، وَقَالُوا مِنْ هَذِهِ المَادَّةِ : فَلَانَ قَرِيبِ
المِئْزَعَةِ ؛ إِذَا كَانَ قَرِيبَ الهِمَّةِ ، وَفَلَانَ بَعِيدَ المِئْزَعَةِ ؛ إِذَا كَانَ بَعِيدَ الهِمَّةِ ، وَأَصْلُ
المِئْزَعَةِ رَأْسُ البُئْرِ الَّذِي يَنْزَعُ المِئْزَعُ عَلَيْهِ ، وَالْمَعْنَى : إِنَّهُ زَاوِلُ كُتُبِ الشُّعْرَاءِ وَقَرَأَ
دَوَابِئَهُ ، حَتَّى تَوَهَّمَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ اسْتَقْصَى جَمِيعَهَا وَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ .

(٣) أَيْ : ظَهَرَ لِي شَابٌ يَلْبَسُ أَتْوَابًا خَلَقَةً ، وَهُوَ يَطْلُبُ مِنَ النَّاسِ فَلَانَ
يَعطُونَهُ ، وَيَسْأَلُهُمْ فَلَانَ يَجِيبُونَهُ ، بَلْ يَرُدُّونَهُ بِخَيْبَتِهِ .

(٤) المَعْنَى : إِنْ أَصْلِي وَمِنْشَأِي مِنَ العَرَبِ مِنْ قَبِيلَةِ عَبَسَ ، وَلَكِنِّي أَقِيمُ
بِالإِسْكَندَرِيَّةِ ، وَهِيَ إِحْدَى بِلَادِ الأَنْدَلُسِ .

(٥) أَيْ : مَا هَذِهِ البِلاغَةُ ؟ وَمَا تِلْكَ الخِصَافَةُ ؟ وَمِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا المَنْطِقُ

الفَصِيحُ وَذَلِكَ اللَّفْظُ الأَنْبِيَقُ ؟

فَقَالَ: مِنْ الْعِلْمِ، رُضْتُ صِعَابَهُ^(١)؟ وَخُضْتُ بَحَارَهُ، فَقُلْتُ: بَأَى الْعُلُومِ
تَتَحَلَّى^(٢)؟ فَقَالَ: لِي فِي كُلِّ كِنَانَةٍ مِنْهُمْ فَأَيُّهَا تَحْسِنُ^(٣)؟ فَقُلْتُ: الشَّعْرُ،
فَقَالَ: هَلْ قَالَتِ الْعَرَبُ بَيْتًا لَا يُمْكِنُ حَلَهُ^(٤)؟ وَهَلْ نَظَمْتَ مَدْحًا لَمْ يُعْرِفْ
أَهْلُهُ^(٥)؟ وَهَلْ لَهَا بَيْتٌ سُمِّجَ وَضَعُهُ، وَحَسَنَ قَطْعُهُ^(٦)؟ وَأَيُّ بَيْتٍ لَا يَرِقُّ
دَمْعُهُ^(٧)؟ وَأَيُّ بَيْتٍ يَشْقُلُ وَقْفُهُ^(٨)؟ وَأَيُّ بَيْتٍ يَشْجُ عَرُوضُهُ وَيَأْسُو ضَرْبُهُ^(٩)؟

(١) رَاضٍ يَرُوضُ رِيَاضًا وَرِيَاضُورِيَاضَةً: ذَلَّلَ، وَالصَّبَابُ: جَمْعُ صَعْبَةٍ، وَهِيَ الْجَامِحُ
الْحُرُونُ، وَكَأَنَّهُ شَبَّهَ الْعِلْمَ بِالِدَابَةِ الَّتِي يَكُونُ شَأْنُهَا ذَلِكَ فَرِيضَتْ؛ لِاسْتِيْلَانِهِ عَلَيْهِ
وَتَفَوُّقِهِ فِيهِ.

(٢) أَى: إِنْ الْعُلُومُ كَثِيرَةٌ وَفَنُونُهَا مَتَشَبِعَةٌ فَبَأَى فِرْعَ تَسْتَمْسِكُ؟ وَأَى نَوْعٍ
قَدْ ضَرَبَتْ فِيهِ بِسَمِّهِمْ وَفِيرٌ؟

(٣) أَصْلُ الْكِنَانَةِ: الْوِعَاءُ الَّذِي تَوْضَعُ فِيهِ السِّهَامُ، وَالْمَعْنَى: لِأَنِّي حَزْتُ مِنْ
كُلِّ فَنٍ طَرَفًا، وَأَخَذْتُ مِنْ كُلِّ نَبْعَةٍ سَهْمًا، وَأَنْتِ أَى عِلْمٍ تَعْرِفُ حَتَّى أَنْاقَشَكَ
فِيهِ وَأَحَاوَرَكَ؟

(٤) حَلَهُ: نَثَرَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ الشَّعْرَ لِكُونِهِ عَلَى مَوَازِينٍ خَاصَّةٍ يَسْتَدْعَى فِي
أَكْثَرِ الْأَحْيَانِ تَقْدِيمَ بَعْضِ الْأَلْفَاظِ عَنْ أَمَّا كُنْهَا الْأَصْلِيَّةِ، أَوْ تَأْخِيرَهَا، أَوِ الْفَصْلَ
بَيْنَ بَعْضِ الْكَلَامِ وَبَعْضِهِ الْآخَرَ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، فَتَنُثِرُ وَعَادَ كُلُّ لَفْظٍ إِلَى مَكَانِهِ
تَغْيِيرَ وَزْنِهِ وَاجْتِبَالَ، وَهَذَا الْبَيْتُ الْمَشَارِ إِلَى أَنْ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ، بَلْ يَبْقَى مَوْزُونًا
فَكَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ فِيهِ الْحَلُّ. (٥) أَى: هَلْ لَهَا كَلَامٌ لَمْ يُعْرِفْ الَّذِي قِيلَ فِيهِ.

(٦) أَى أَنْ مَعْنَاهُ رَدِيءٌ، وَاقْتِطَاعُهُ عَمَّا قَبْلَهُ وَعَدَمُ اتِّصَالِ مَعْنَاهُ بِمَعْنَاهُ حَسَنٍ.

(٧) رِقًّا الدَّمْعُ وَالِدَمُّ: سَكَنَ، وَبَابُهُ قَطَعَ، وَالْمَعْنَى هَلْ تَعْرِفُ لِلْعَرَبِ

بَيْتًا كُلَّهُ مَدَامِعٌ وَعَبْرَاتٌ لَا تَسْكُنُ وَلَا تَفِيضُ؟

(٨) أَى يَتَسَنَّزُ النَّطْقُ بِهِ؛ لِتَنَافُرِ بَيْنِ أَلْفَاظِهِ، أَوْ يَعْسِرُ الْوَصُولَ إِلَى مَعْنَاهُ

لِتَمْقِيدِ فِي أَسْلُوبِهِ، أَوْ أَنْ أَلْفَاظَهُ تَمَثَّلَ لَكَ شِدَّةً وَبَاسًا وَنَحْوَهَا.

(٩) يَشْجُ: يَكْسِرُ، وَيَأْسُو: يَدَاوِي، وَعَرُوضُ الْبَيْتِ: الْكَلِمَةُ الْأَخِيرَةُ =

وَأَيُّ بَيْتٍ يَعْظُمُ وَعِيدُهُ وَيَصْفُرُ خَطْبُهُ^(١) ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ هُوَ أَكْثَرُ
رَمَلًا مِنْ يَبْرِينَ^(٢) ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ هُوَ كَأَسْنَانِ الْمَظْلُومِ ، وَالْمِنْشَارِ
الْمَظْلُومِ^(٣) ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ بِسُرِّكَ أَوْلُهُ وَيَسُوءُكَ آخِرُهُ^(٤) ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ
يَضْفَعُكَ بَاطِنُهُ ، وَيَخْدَعُكَ ظَاهِرُهُ^(٥) ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ لَا يُخْلِقُ سَامِعُهُ ، حَتَّى
تَذْكَرَ جَوَامِعُهُ^(٦) ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ لَا يُمْكِنُ لَمْسُهُ^(٧) ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ يَسْهَلُ
عَكْسُهُ^(٨) ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ هُوَ أَطْوَلُ مِنْ مِثْلِهِ ، وَكَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ^(٩) ؟

= في المصراع الأول ، وضربه : الكلمة الأخيرة في المصراع الثاني ، والمعنى : إن
القارىء إذا وصل إلى العروض حسب هناك ضرباً وشجراً ، وإذا وصل الضرب
ألفى ودادة وسلاماً .

(١) أى أنه جاء في صورة عظيمة من صور الوعيد ولكن شأنه صغير قائم ايهم به .

(٢) يبرين - ويقال فيه : أبرين - موضع يازاء الأحساء كثير الرمال ،

والمعنى إن البيت فيه ما يمثل ذلك ويزيد عنه .

(٣) المنشار : آلة النجّار ، وهو معروف ، والمثلوم : المتكسر ، وأسنان

المظلوم - أى المضروب على فمه ظلماً - تكون متكسرة متباعدة ، والبيت يشبه ذلك
لكثرة شيبانته التي لسكل واحدة منها أسنان ثلاث .

(٤) أى إذا وصفت بأوله فرحت ، وإن وصفت بآخره أمت .

(٥) أى أن سببك ألفاظه واختيارها يوهمك أن له معنى جليلاً ، فإذا

تكشفت عنه كان له أثر سيء في نفسك .

(٦) أى أن السامع لا يستطيع أن يفهم معناه الذى أريد منه حتى يأتي

المتكلم على آخره .

(٧) المعنى : إن ما اشتمل عليه البيت من الألفاظ التي تدل على معاني

ليس من اليسور لمسها ، بل ولا الدنو منها كالبرق والقيم .

(٨) عكس البيت : جعل صدره مجزاً ومجزه صدرًا .

(٩) الأبيات المتفقة في بحر واحد تكون متقاربة متجانسة في هذه الصفة =

وَأَيُّ بَيْتٍ هُوَ مَهِينٌ بِحَرْفٍ ، وَرَهِينٌ بِحَذْفٍ (١) ؟؟؟
 قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : فَوَاللَّهِ مَا أَجَلْتُ قَدْحًا فِي جَوَابِهِ (٢) ، وَلَا أَهْتَدَيْتُ
 لَوْجِهِ صَوَابِهِ ، إِلَّا « لَا أَعْلَمُ » (٣) . فَقَالَ : وَمَا لَا تَعْلَمُ أَكْثَرُ (٤) ، فَقُلْتُ :
 وَمَا لَكَ مَعَ هَذَا الْفَضْلِ ، تَرْضَى بِهَذَا الْعَيْشِ الرَّذَلِ (٥) ؟ فَأَنْشَأَ يَقُولُ :
 بُؤْسًا لِهَذَا الزَّمَانِ مِنْ زَمَنِ كُلِّ تَصَارِيفِ أَمْرِهِ عَجَبٌ (٦)
 أَصْبَحَ حَرْبًا لِكُلِّ ذِي أَدَبٍ كَأَنَّهَا سَاءَ أُمَّهُ الْأَدَبُ (٧)
 فَأَجَلْتُ فِيهِ بَصْرِي ، وَكَرَّرْتُ فِي وَجْهِهِ نَظْرِي (٨) ، فَإِذَا هُوَ أَبُو الْفَتْحِ

= ويكون بينها ارتباط كآصرة القرابة الأهلية ، والمعنى : أى بيت هو أكثر
 حروفًا وكلمات من بيت آخر مثله في البحر ، بحيث لو قرأها واحد لم يعتقد
 أنهما من بحر واحد ، ولم يثق بأن بينهما ذلك الارتباط .

(١) مهين : أى بما اشتمل عليه من الهجاء ، ورهين بحذف : أى أنه متى
 حُذِفَ منه شيء انقلب معناه ؛ فصار مدحًا بعد أن كان ذمًا .

(٢) أَجَلْتُ : حرَّكت ، والمعنى : إن كلامه وقع عندي موقع القرابة
 فلم أستطع أن أضرب في تفهيمه بسهم .

(٣) المعنى : إننى لم أعرف من وجوه الصواب شيئًا أحببه به إلا قولى فى
 كل مسأله : لا أعلم . (٤) المعنى : إنك تصوّرت فى هذا أنك لا تعرفه ،
 ولكن الذى لا يمكنك أن تتصور عنه شيئًا بالسلب أو الإيجاب أكثر .

(٥) الرَّذَلُ : الرذول ، والمعنى : إن علو كعبك وارتفاع شأوك لا يليق
 بهما ظاهرًا حالك .

(٦) بُؤْسًا : قُبْحًا وَمَذْمَةً ، وتصاريف أمره : تديراته فى شؤونه وأحواله
 والمعنى : إن كل ما يفعله هذا الزمن القبيح عجيب جدًا وموضع للقرابة والاستنكار .

(٧) المعنى : إن هذا الدهر لا يعاكس إلا أهل الفضل وذوى الآداب
 كأن له نارًا عندهم .

(٨) أى أنتى أذمنت النظر إليه وظللت أنتفرس فى وجهه لأعرف من هو .

الإِسْكَندَرِيُّ ، فَقُلْتُ : حَيَّاكَ اللهُ وَأَنْعَشَ صَرَعَكَ^(١) إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَمَنَّ عَلَى بِنْتِ فَسِيرٍ مَا أَنْزَلْتَ ، وَتَفْصِيلَ مَا أَجَمَلْتَ ، فَعَمَلْتَ ، فَقَالَ : تَفْسِيرُهُ : أَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ حَلَّهُ فَكَثِيرٌ ، وَمِثَالُهُ قَوْلُ الْأَعْشَى^(٢) .

(١) أَنْعَشَ صَرَعَكَ : أَقَامَكَ مِنْ سَقَطَتِكَ ، وَهِيَ لُغَةٌ رَدِيئَةٌ إِنْ صَحَّ وَرُودُهَا ، وَقَدْ أَسْلَفْنَا كَلَامًا مِثْلَ ذَلِكَ .

(٢) هُوَ : أَبُو بَصِيرٍ مَيْمُونُ الْأَعْشَى بْنِ قَيْسِ بْنِ جَنْدَلٍ ، رَابِعُ فُخُولِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَأَمْدَحُهُمُ لِلْمُلُوكِ ، وَأَوْصَفُهُمُ لِلخَمْرِ ، وَأَغْزَرَهُمْ شِعْرًا ، وَأَكْثَرَهُمْ عَرُوضًا وَافْتِنَانًا وَطَوَالًا جِيَادًا ، وَيُنْتَهِي نَسَبُهُ إِلَى بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْيَمَامَةِ ، يَسْكُنُ قَرْيَةً مِنْهَا تَسْمَى مَنَفُوحَةً ، وَنَشَأَ فِي بَدَأِ أَمْرِهِ رَاوِيَةً لِنَخَالِ الْمُسَيَّبِ ابْنِ عُلسِ أَحَدِ الشُّعْرَاءِ الْمُقْلَبِينَ الْجَمِيدِينَ ، وَكَانَ الْأَعْشَى يُطْرِبِي شِعْرَهُ وَيَأْخُذُهُ عَنْهُ ، حَتَّى إِذَا جَادَ شِعْرُهُ وَنَبَّهَ شَأْنَهُ قَصَدَ الْمُلُوكَ وَالْأَجْوَادَ ، وَطَوَّفَ إِلَيْهِمُ الْآفَاقَ وَأَقَاصِي الْبِلْدَانِ مَا دَحَا لَهُمْ مُسْتَجِدِّيَا عَطَايَاهُمْ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ مَدَحَ فِي شِعْرِهِ بِالسُّؤَالِ وَطَلَبِ الْحَاجَةِ ، وَكَانَ يَنْتَابُ بِالْمَدِيحِ بَنِي عَبْدِ الْمَدَّانِ مَلُوكَ نَجْرَانَ وَأَسَاقِفَتَهَا ، يَقِيمُ عِنْدَهُمْ مَا يَشَاءُ يَشْرَبُ الخمرَ وَيَسْمَعُ الْغِنَاءَ وَيَأْخُذُ عَنْهُمْ بَعْضَ آرَائِهِمْ فِي الْعُقَاوِدِ ، فَجَادَ لَذَلِكَ وَصَفَّهُ لِلخَمْرِ ، وَظَهَرَ بَعْضُ مَعْتَقِدِهِمْ فِي شِعْرِهِ كَمَا كَانَ يَنْتَابُ مَلُوكَ الْحِيزَةِ - وَخَاصَّةَ الْأَسْوَدِ أَخَا النُّعْمَانَ بْنِ الْمُنْذَرِ - وَمَا زَالَ هَذَا شَأْنَهُ حَتَّى طَمَعَ فِي جَوَائِزِ كَسْرِي فَرَحَلَ إِلَيْهِ يَمْدَحُهُ بِالشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ ، فَأَجْزَلَ عَطَاءَهُ وَإِنْ لَمْ يَرْقِ عِنْدَهُ شِعْرُهُ لِسَوْءِ تَرْجُمَتِهِ لَهُ .

وَعَمَّرَ الْأَعْشَى ، وَطَالَ عَمْرُهُ حَتَّى أَظَلَّ الْأَرْضَ لِوَالِدِ الْإِسْلَامِ وَعَظُمَ أَمْرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الْعَرَبِ ، فَأَعَدَّ لَهُ قَصِيدَةً يَمْدَحُهُ بِهَا أَوْلَاهَا :

أَلَمْ تَقْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا وَبِتَّ كَمَا بَاتَ السَّلِيمُ مُسَهَّدَا =

دَرَاهِمُنَا كُلُّهَا جَيِّدٌ فَلَا تَحْبِسْنَا بِدَنَقَادِهَا
 وَأَمَّا الْمَذْحُ الَّذِي لَمْ يُعْرِفْ أَهْلَهُ فَكَثِيرٌ ، وَمِثَالُهُ قَوْلُ الْهُذَلِيِّ (١) :
 وَلَمْ أَذْرَ مَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ عَلَى أَنَّهُ قَدْ سُلَّ عَنْ مَا جِدَّ مَحْضٍ
 وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي سَمَّجَ وَضَعُهُ ، وَحَسَنَ قَطْعُهُ ، فَقَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ (٢) :

= ومنها :

فَأَقْسَمْتُ لَا أَرْنِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ وَلَا مِنْ وَجِي حَتَّى تَلَاقِي مُحَمَّدًا
 مَتَى مَا تَنَاخَى عِنْدَ أَبِي بْنِ هَاشِمٍ تَرَاهِي وَتَلْتَقِي مِنْ فَوَاضِلِهِ نَدَى
 نَبِيٍّ يَرِي مَا لَا يَرُونَ وَذِكْرُهُ أَغَارَ لَعَمْرِي فِي الْبِلَادِ وَأُنْجَدَا
 وَقَصْدُهُ بِالْحِجَازِ ، فَلَقِيَهُ كِفَارَ فَرِيشٍ وَصَدَّوهُ عَنْ وَجْهِهِ ، عَلَى أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُمْ
 مِائَةَ نَاقَةٍ وَيَرْجِعَ إِلَى بَلَدِهِ ، لِتَخَوْفِهِمْ أَثَرَ شَعْرِهِ ، ففَعَلَ ، وَلَمَّا قَرَبَ مِنَ الْبَيْمَامَةِ
 سَقَطَ عَنْ نَاقَتِهِ فَدَقَّتْ عُنُقَهُ ، وَمَاتَ وَدُفِنَ بِبِلَدَتِهِ مَنفُوحَةً بِالْبَيْمَامَةِ .

ومعنى البيت المذكور : لا تضع علينا الوقت لتفرز تقودنا وتبين زيفها
 من جيدها ، فإنها لا تشمل زيوفا ، وأما كونه غير قابل للحل فمعناه أنه جاء
 كما يجيء النثر ، ليس فيه تقديم ولا تأخير ، فلا يمكن أن يُصاغ في صورة غير
 هذه ، ثم لو أنك قلت * دراهمنا جيد كلها * لم يخلل الوزن .

(١) شعراء هذيل كثيرون منهم أبو كبير الشاعر الإسلامي الصحابي ،
 وأبو صخر مادح عبد الملك بن مروان ، وهو أحد شعراء الدولة الأموية ،
 وأبو خِرَاش الذي ينسب له هذا البيت ، وسببه أن رجلا قد ألقى رداءه على
 أخيه ليحميه من أعدائه ويحميه من خصومه ، وقبله :

حَدَّثْتُ إِلَهِي بَعْدَ هُرُوفَةٍ إِذْ نَجَا خِرَاشٌ ، وَبَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ
 قَوْلِ اللَّهِ مَا أَنْسَى قَتِيلًا رُزْنَتَهُ بِجَانِبِ قَوْسِي مَا مَشَيْتُ عَلَى الْأَرْضِ
 ونسبه الأستاذ الإمام للاعشى .

(٢) أبو نواس : هو أبو الحسن علي بن هاني الشاعر المتفنن ، الملقب الجاد ، =

== صاحبُ الصَّيِّطِ الطَّائِرِ، والشعر السائر، ورأسُ الْمُخَدَّيْنِ بعد بَشَّار، وهو فارسيُّ الأصل، ولد بقرية من كورة خوزستان - شرق البصرة - سنة ١٤٦ ونشأ يتيمًا، فقَدِمَت به أمُّه البصرة بعد سنتين من مولده، فتعلَّم العربية ورغب في الأدب، فلم تَعَبًا أمه بحاله، وأسلمته إلى عَطَّار بالبصرة، فكثَّ عنده لا يفتُر عن مُعَانَاة الشعر والاختلاف إلى الأدباء والمُجَّان، إلى أن صادقه عند العطار وَابَّةُ بن الحباب الشاعر الماجن الكوفي في إحدى قَدَمَاتِهِ إلى البصرة، فأعجِبَ كلُّ منهما بالآخر، فأخرجه وَابَّةُ معه إلى الكوفة، فبقي معه ومع ندمائه من خُلَعَاء الكوفة، وتخرَّج عليهم في الشعر، وفاقَهُم جميعًا، وقدم بغداد وقد أُرْبِتْ سنُّه على الثلاثين، فأَتَصَلَ ببعض الأمراء، وبلغ خبره الرشيد فأذِنَ له في مَدْحِهِ فدَحَّه بقصائد طَنَانة، وكان يقصد بعض عُمَّال الولايات ويمدحهم، ومنهم الخَصِيبُ عاملُ مصر، ثم انقطع إلى محمد الأمين وثبَّتَ عنده بعضُ ما يوجب تَعَزُّرَهُ فسَجَّنَهُ، ولم يابث بعد أن خرج من السجن أن مات سنة ١٩١.

وكان أبو نُوَاس جميلَ الصورة، فِكِيهَ المحضر، كثير الدَّعَابَةِ، حاضر البديهة، متينًا في اللغة والشعر والأدب، متعصبًا لليمانية على المُضَرِّيَّة، وأكثر علماء الشعر ونقَدَتِهِ على أن أبا نُوَاس أشعر المحدثين بعد بشار، وأكثرهم تَفَنُّنًا، وأزَصَّهُم قولًا، وأبدعُهُم خيالًا، مع دقة لفظ، وبديع معنى، ومن

جيد شعره :

تَقُولُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِحْدَى نِسَائِهِمْ :
وَقَدْ خَضَبَتْهَا عَنَبْرَةٌ فَلَدِمَعِيهَا
وَقَالَتْ : إِلى الْعَبَّاسِ ؟ قُلْتُ : فَمَنْ إِذَا ؟
فَهَلْ يُرَكْفَانُ إِلَّا بِرِاحَتِهِ النَّدَى
لِي الْكَيْدِ الْحَرِيِّ فَمِيرَ وَلَكَ الصَّبْرُ
كَلَى خَدَّهَا خَدٌّ، وَفِي نَحْرِهَا نَحْرُ
وَمَالِي عَنِ الْعَبَّاسِ مَعْدَى وَلَا قَصْرُ
وَهَلْ يَزْهُونُ إِلَّا بِأَوْصَافِهِ الشُّكْرُ ؟؟

والبيت المذكور في المقامة مقطوع عما قبله ؛ لأنه قد ذكر قبل ذلك أنواع اللذائذ التي اغتنموها في ليلتهم، وقد أحسن في هذا القطع .

فَبِنْتًا يَرَانَا اللَّهُ شَرَّ عِصَابَةٍ تُجْرَرُ أَذْيَالُ النُّسُوقِ ، وَلَا فَخْرُ
وَأَمَّا البيتُ الَّذِي لَا يَرَقًا دَمُهُ فَقَوْلُ ذِي الرِّمَّةِ (١) :

مَا بَالَ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ كَأَنَّهُ مِنْ كَلْبِي مَفْرِيَّةٍ سَرَبٍ (٢)
فَإِنَّ جَوَامِئَهُ : إِمَّا مَاءً ، أَوْ عَيْنً ، أَوْ أَنْسَكَبُ ، أَوْ بَوْلٌ ، أَوْ نَشِيئَةٌ (٣) ،
أَوْ أَحْقَلُ مَزَادَةٌ ، أَوْ شِقٌّ ، أَوْ سَيْلَانٌ .

وَأَمَّا البيتُ الَّذِي يَنْقَلُ وَقَمُهُ فَمِنْ قَوْلِ ابْنِ الرُّومِيِّ (٤) :

(١) ذو الرمة : هو غيلان بن عتبة صاحب مئة (تقدمت ترجمته من ٤٨
باختصار ، وقد وضع البديع المقامة السابعة الفيلاينية باسمه) ولا يَرَقًا دمه : أي
لا يجفُّ لكثرتِه ، وقد بين البديع معنى هذا في المقامة .

(٢) الكَلْبِيَّةُ ، والكَاوَةُ - بضم أولها ، ولا تقل كَلْوَةٌ بالكسر -
إحدى الحيتين منبهرتين حمراوين لازقتين بعظم الصُّلب عند الخالصرتين في
كفترين من الشحم ، والجمع كَلْبِيَّاتٍ وكُلِّي ، ومَفْرِيَّةٌ : أي مقطوعة ، ومَسْرَبٌ :
سائل من قولهم : مَسْرَبَتِ المَزَادَةُ فهي مَسْرَبَةٌ - وبابه فرح - أي سالت ،
وإذا تقطعت الكَلْبِيَّةُ سال بولُ المرء من دون أن يقدر على حبسِه ، وما أجمع
هذا التشبيه وأبرده !!!

(٣) النشينة : أول ما يُنمَل من الخوضِ ، ويقال « هو بادى النشينة » إذا
جف عنه الماء وظهرت أرضه .

(٤) هو أبو الحسن علي بن المباس بن جُرَيْج ، الرومي ، مولى بني الصباس ،
الشاعر ، المكثر ، المطبوع ، صاحبُ النظم المعجيب ، والتوليد القريب ، والمعاني
المخترة والأهاجى المُقدِّعة ، ولد ببضاد سنة ٢٢١ ، ونشأ بها وأقام كلَّ حياته ،
وكان كثير التطير جدا ، وله في التطير أخبار غريبة ، حتى كان أصحابه إذا أرادوا أن
يمشوا به أرسلوا إليه من يَتَطَيَّر من اسمه فلا يخرج من بيته ويمتنع من التصرف
سائر يومه ، وكان القاسم بن عبَّيد الله وزير المعتز يخاف هجوه ويمتحن فالتات =
(١٣ - شرح مقامات البديع)

إِذَا مَنْ لَمْ يَمْنَنْ بِمَنْ يَمْنُهُ وَقَالَ لِنَفْسِي : أَيُّهَا النَّفْسُ أُمَّهْلِي

= لسانه ، ويقال : إنه دَسَّ عليه من أطعمته خشكفانه (ترادف ما يسمى الآن « بسكويتة ») مسمومة فأكلها ، ثم أنى منزله وأقام به أياما ومات سنة ٢٨٣ ببغداد ، وقيل : بل مرض ووصف له الطيب دواء فيه سم ، فغلط في مقداره وأكثر منه فوات ، وقال ابن الرومي الشعر في كل غرض ، ولا سيما الوصف والمجاء ، وتبع في الشعر نبوغا لم يقصر به كثيراً عن درجة البحتری ، وربما فاقه في اختراع المعاني النادرة أو توليدها من معاني من سبقه بشكل جديد ووضعها في قالب أحسن ، وكان إذا اخترع المعنى أو ولده من كلام غيره لا يزال يستقصى فيه وينظمه بوجوده مختلفة حتى لا يدع فيه بقية ، وهو ممن جمع صقل اللفظ وإجادة المعنى ، ويكفيه فضلا أن يكون المتنبي أحد رواة ديوانه والآخذين عنه ، ومن معانيه البديعة قوله :

وَإِذَا امْرُؤٌ مَدَحَ امْرَأً لِنَوَالِهِ وَأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَطَالَ هِجَاءُهُ
لَوْ لَمْ يُقَدَّرْ فِيهِ بَعْدَ الْمُسْتَقَى عِنْدَ الْوُرُودِ لَمَا أَطَالَ رِشَاءُهُ

وقوله وقد غاب عن بغداد في بعض أسفاره :

بَلَدٌ صَحِبْتُ بِهِ الشَّبِيبَةَ وَالصَّبَا وَلَبِسْتُ نَوْبَ النَّهْرِ وَهُوَ جَدِيدُ
فَإِذَا تَمَثَّلَ فِي الضَّمِيرِ رَأْيَتُهُ وَعَلَيْهِ أَغْصَانُ الشَّبَابِ تَمِيدُ

وقوله وهو يجود بنفسه :

غَلَطَ الطَّيِّبُ عَلَى غَلْطَةِ مُورِدٍ عَجَزَتْ مَوَارِدُهُ عَنِ الْإِضْدَارِ
وَالنَّاسُ يَلْحَوْنَ الطَّيِّبَ ، وَإِنَّمَا غَلَطَ الطَّيِّبُ إِصَابَةَ الْأَقْدَارِ

ومعنى البيت الذي بالمقامة : إن المدوح إن أحسن لم يطلب شكر إحسانه ، ولم يرج من ورائه خيرا لنفسه ، فهو يمين بطبعه ، ومعنى أنه ثقيل الوقع : أنك تجد في عبارته نبوا وجفاء لتكرار المن أربع مرات .

وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي تَشَجُّ عَرُوضُهُ وَيَأْسُو ضَرْبُهُ فَمِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ :
 دَلَقْتُ لَهُ بِأَبْيَضٍ مَشْرِفِي كَمَا يَدْنُو الْمُصَافِحُ لِلسَّلَامِ (١)
 وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي يَعْظُمُ وَعِيدُهُ وَيَصْفُرُ خُطْبُهُ فَمِنْ قَوْلِ عَمْرُو
 ابْنِ كَلْثُومٍ (٢) :

- (١) يَشَجُّ : أَيْ يَجْرَحُ ، وَيَفْلِقُ . وَيَأْسُو : يُدَاوِي ، وَيَعَالِجُ .
 (٢) عَرُوضُ هَذَا الْبَيْتِ كَلِمَةُ « مَشْرِفِي » وَهُوَ السِّيفُ ، وَمِنْ آثَارِهِ أَنَّهُ يَكْسِرُ
 وَيَعْمِتُ ، وَضَرْبُهُ كَلِمَةُ « السَّلَامِ » وَمَعْنَاهُ الْأَمْنُ ، وَمِنْ خِصَائِصِهِ تَطْيِيبُ الْأَلَامِ ،
 وَدَلَقْتُ : أَيْ سَرْتُ .
 (٣) هُوَ أَبُو الْأَسْوَدِ عَمْرُو بْنُ كَلْثُومِ بْنِ مَالِكِ ، التَّغْلِبِيُّ ، سَيِّدُ تَغْلِبِ ،
 وَفَارِسُهَا ، وَأَحَدُ فِتَاكِ الْعَرَبِ وَشِعْرَائِهَا الْمَشْتَهَرِينَ بِقَصِيدَةِ وَاحِدَةٍ ، وَالْحِجِيدِينَ
 لِلْفَخْرِ ، وَأُمُّهُ لَيْلَى بِنْتُ مَهْأَيْلِ بْنِ رَبِيعَةَ أَخِي كَلْبِيبِ ، نَشَأَ عَمْرُو فِي قَبِيلَةِ تَغْلِبِ
 بِالْجُزَيْرَةِ الْفَرَاتِيَّةِ ، شُجَاعًا ، هَمَامًا ، خَطِيبًا ، جَامِعًا لِلْحِصَالِ الشَّرَفِ ، وَسَادَ قَوْمَهُ
 وَهُوَ ابْنُ خَمْسِ عَشْرَةِ سَنَةً ، وَقَادَ الْجِيُوشَ مُظْفَرًا فِي كَثِيرٍ مِنْ أَيَّامِهِمْ ، وَأَكْثَرُ
 مَا كَانَتْ فِتْنُ تَغْلِبِ وَحَرْبُهَا مَعَ أُخْتِهَا بَكْرَ بْنِ وَاثِلِ بِسَبَبِ الْحَرْبِ الْمَشْهُورَةِ
 الْمَشْهُورَةِ بِحَرْبِ الْبَسُوسِ ، وَسَتَأْتِي لَنَا كَلِمَةٌ عَنْهَا ، وَكَانَ آخِرُ صَالِحٍ لَمْ فِيهَا عَلَى يَدِ
 عَمْرُو بْنِ هِنْدٍ أَحَدِ مَلُوكِ الْجَزِيرَةِ مِنْ آلِ الْمُنْذِرِ ، وَلَمْ تَمُضِ مُدَّةٌ سَيِّدَةٌ حَتَّى حَدَّثَ
 بَيْنَ وَجْهِهِ الْقَبِيلَتَيْنِ مَلَا حَاةً وَمُشَادَّةً وَمُشَا حَّةً فِي مَجْلِسِ عَمْرُو بْنِ هِنْدٍ ، قَامَ أُنثَاءُهَا
 شَاعِرٌ بِكِرِّ الْحَارِثِ بْنِ حِلْزَةَ الْيَشْكِرِيُّ وَأَنْشَدَ قَصِيدَتَهُ الْمَشْهُورَةَ ، وَمَا فَرَّغَ مِنْهَا
 حَتَّى ظَهَرَ لِعَمْرُو بْنِ كَلْثُومٍ أَنَّ هَوَى الْمَلِكِ مَعَ بَكْرٍ ، فَانصَرَفَ ابْنُ كَلْثُومٍ فِي نَفْسِهِ
 مَا فِيهَا ، ثُمَّ خَطَرَ فِي نَفْسِ ابْنِ هِنْدٍ أَنْ يَكْسِرَ مِنْ أَنْفَةِ تَغْلِبِ بِإِذْلَالِ سَيِّدِهَا - وَهُوَ
 عَمْرُو بْنُ كَلْثُومٍ - فَدَعَاهُ وَأُمُّهُ لَيْلَى بِنْتُ مَهْأَيْلِ ، وَأَغْرَى هِنْدًا أُمَّهُ أَنْ تَسْتَعْمِدَهَا فِي
 قَضَاءِ أَمْرِ ، فَصَاحَتْ لَيْلَى - حِينَ كَلَّمَتْهَا هِنْدٌ - « وَإِذْ لَأَنَّ » فَتَارَ بِعَمْرُو النَّضْبُ =

كَانَ سَيُوفَنَا مِنَّا وَمِنْهُمْ تَخَارِيقُ بِأَيْدِي لَاعِيِنَا
 وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي هُوَ أَكْثَرُ رَمَلًا مِنْ بَيْرِينَ فَمِثْلُ قَوْلِ ذِي الرُّمَّةِ (١):
 مُفْرُوزِيَا رَمَضَ الرَّضْرَاضِ يَرْكُضُهُ وَالشَّمْسُ حَيْرِي لَهَا فِي الْجَوِّ تَدْوِيمُ
 وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي هُوَ كَأَسْفَانِ الْمَظْلُومِ، وَالْمِنْشَارِ الْمَثْلُومِ؛ فَكَقَوْلِ
 الْأَعْمَشِيِّ (١):

وَقَدْ غَدَوْتُ إِلَى الْخَانُوتِ يَنْدُبُنِي شَاوُ مِثْلُ شُلُوقِ شَائِلِ شَوْلِ (٢)
 وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي بَسْرُكَ أَوْلُهُ وَيَسُوؤُكَ آخِرُهُ فَكَقَوْلِ أَمْرِى الْقَيْسِ:

= وَقَتَلَ ابْنَ هَنْدٍ فِي مَجْلِسِهِ، ثُمَّ رَجَلَ تَوَالِي بِلَادِ الْجَزِيرَةِ وَأَنْشَدَ مَعْلَقَتَهُ الَّتِي
 أَوْلَاهَا:

الْأَهْبِيُّ بِصَحْبِكَ فَاصْبَحِيهَا وَلَا تُنْبِقِي حُمُورَ الْأَنْدَرِيَانَا
 وَمَنْ سَامَى فِخْرُهُ قَوْلُهُ وَهُوَ يَتَوَعَّدُ عَمْرُو بْنَ أَبِي حَجْرٍ الْفَسَائِيَّ:
 أَلَا فَاعْلَمْ - أُبَيْتَ اللَّعْنَ - أَنَا عَلَى عَهْدِ سَنَمَاتِي مَا نُرِيدُ
 تَعْلَمُ أَنْ تَحْمِلِنَا ثَقِيلُ وَأَنْ ذِيَادَ كَبْتَنَا شَدِيدُ
 وَأَنَا لَيْسَ حَتَّى مِنْ مَمْدٍ يُوَازِنُنَا إِذَا لَيْسَ الْحَدِيدُ

والتخاريق: الخرق المفتولة التي يلعب بها الصبيان، وليس أهون خطبا
 منها ولا تجد أخف ضرر فيها، ومن هذا كان هذا البيت صغير الشأن وإن
 كان سيقفه في أمر عظيم، وهو تشبيه حالم وإقدامهم على العدو رافعي السيوف
 (١) ذو الرمة تقدم (ص ٤٨ و ١٩٣) وليس في البيت ما يفيد كثرة الرمل
 كما ذكر، اللهم إلا إذا أراد كثرة الرءاءات في البيت، ولكنه بعيد جد البعد.
 (٢) تقدمت ترجمة الأعشى قريبا (ص ١٩٠)، والبيت من معلقته التي
 يقول في أولها:

وَدَعَّ هُرَيْرَةَ إِنْ الرَّكْبَ مَرَّ تَحِلُّ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعًا أَيَّهَا الرَّجُلُ؟
 والخانوت: دكان الخمار، يذكر ويؤنث، والشاوي: الذي يشوى اللحم.

مَكْرَمٍ مَقْبَلٍ مُدْبِرٍ مَمَّا كَجُلُودِ صَخْرٍ حَطَّه السَّيْلُ مِنْ عَلٍ (١)
 وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي يَصْفَعُكَ بَاطِنُهُ وَيَخْدَعُكَ ظَاهِرُهُ فَكَقَوْلِ الْقَائِلِ :
 عَاتَبْتُهَا فَبَكَتْ، وَقَالَتْ: يَا قَتِي نَيْحَاكَ رَبُّ الْعَرْشِ مِنْ عَثْبِي
 وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي لَا يُخْلَقُ سَامِعُهُ ، حَتَّى تَذْكَرَ جَوَامِعُهُ ، فَكَقَوْلِ
 طَرْفَةٍ :

وَقُوفًا بِهَا حَنِينِي عَلَى مَطِيئِهِمْ يَقُولُونَ: لَا تَهْلِكِ أَسَى وَتَجَدِّدِ (٢)
 فَإِنَّ السَّامِعَ يظُنُّ أَنَّكَ تَنْشِدُ قَوْلَ أَمْرِئِ الْقَيْسِ .
 وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ لَمْسَهُ فَكَقَوْلِ الْخُبْرِ رُزَّى :

= والمثل - بكسر الميم وفتح الشين - المستحِثُّ والجَيْدُ السَّوْقُ ، وقيل : الذي
 يشل اللحم في السَّفُودِ ، والشَّلُولُ - بفتح الشين - مثل المِثْلِ ، ويروى «نَشُولُ»
 بفتح النون ، وهو الذي يأخذ اللحم من القِدْرِ ، ويروى «شُلِيلُ» بصيغة المصغر،
 والشلشل - بضم الشينين كقنفذ - الخفيف اليد في العمل والمتحرك ، والشَّلُولُ
 - بفتح فسكس - هو الذي يحمل الشيء ، وقيل : هو المَعْنَى بِمَاجْتِهِ ، ويروى
 « شمل » وهو الطيب النفس والرائحة .

(١) مكر مفر - بكسر ميمهما على وزان مَفْعَلِ الموضوع للمبالغة - ومعنى
 « مقبل مدبر مماً » أنه سَلَسُ العِنَانِ شَدِيدِ العَدُوِّ ، وقد شبهه في عَدُوِّهِ بِالْحَجَرِ
 لأنه يطلب الانحطاط بطبيعته من غير واسطة ، فكيف إذا أعانتته قُوَّةُ اُنْدِفاعِ
 السيل وكان هبوطه من موضع مرتفع عال ؟

(٢) البيت في معلقة امرئ القيس وقافيته « ونحمل » وهي أ كثر دَوْرَانَا
 على الألسنة وشهرة من معلقة طرفة ، فقبل أن يذكر القارئ القافية لا يدرى
 السامع أنه ينشد لطرَفَةٍ .

تَقَشَّعَ غَيْمُ الْهَجْرِ عَنْ قَمَرِ الْحُبِّ
وَأَشْرَقَ نُورُ الصُّلْحِ مِنْ ظُلْمَةِ الْعَتَبِ (١)
وَكَقَوْلِ أَبِي نُوَّاسٍ:
نَسِيمٌ عَبِيرٌ فِي غِلَالَةِ مَاءٍ وَتَمَثَّالٌ نُورٌ فِي أَدِيمِ هَوَاءٍ (٢)

(١) لم نقف على ترجمة صحيحة الثبوت تثبت هذا البيت لشاعر معين، ولكن الذي عثرنا عليه ترجمة لرجل اسمه « نصر بن أحمد الخبز أرزي » قال عنه أبو منصور الثعالبي في اليتيمة: وقد بلغني من غير جهة أنه كان أميًا لا يتهجى، وكانت حرفته خبز خبز الأرز في دكانه بمرزبد البصرة، فكان يخبز وينشد أشعاره المقصورة على النزل والناس يزدحمون عليه، ويتطرفون باستماع شعره، ويتمتعون من حاله وأمره، وأحداث البصرة يتنافسون في مثيله إليهم وذكروه لهم، ويحفظون كلامه لقرب مأخذه وسهولته، وكان ابن لفسكك على ارتفاع مقداره ينتاب دكانه، ويسمع شعره اه، ونحن نكاد نرجح أن البيت لهذا الشويعر؛ لأننا نجد كلامه الذي عثرنا عليه كله على هذا النمط، فمن ذلك قوله:

قَالُوا: عَشَقْتَ صَغِيرًا! قُلْتُ: أُرْتَعِ فِي رَوْضِ الْمُحَاسِنِ حَتَّى يَدْرِكَ الشَّمْرُ
وقوله:

وَرَدُّ الْخُدُودِ وَرُمَانُ النَّهْدِ وَأَغْصَانُ الْقُدُودِ تَصِيدُ السَّادَةَ الصَّيِّدَا
فَرَطِي إِذَا مَارَأَيْتُ الْخَضْرَ مُحْتَصِرًا وَالرَّذْفَ مَرْتَدَفًا وَالْقَدَّ مَقْدُودًا

وألفاظ البيت المذكور في المقامة تدل على أشياء لا يمكن لمسها، ولا الدنو منها بالنظر إلى أصل معناها، فالقمر والنور والظلمة معان لا أجسام لها، وماله جسم منها — وهو القمر — بعيد النال، ولما أضيف القمر للحب والغيم للهجر والنور للصلح والظلمة للعتب أضحي كل شيء — سوى تخيله ذهنًا — بعيدًا

(٢) العبير: الرائحة الطيبة المستحسنة، والغلالة: الثوب يلي الجسد، والأديم: الجلد، ومن ذا الذي يستطيع أن يلمس نسيم الريح الطيب أو ثوب الماء أو صورة النور أو جلد الهواء؟ بعيد غاية البعد أن يوجد القدير على هذا

وَأَمَّا النَّبِيُّ الَّذِي بَسَّطَ عَكَسَهُ فَكَقَوْلِ حَسَّانَ (١) :
بِيضُ الْوُجُوهِ كَرِيْمَةٌ أَحْسَابُهُمْ شُمْ الْأُنُوفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ

(١) هو أبو الوليد حَسَّانُ بن ثابت الأنصاري ، شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشعرُ أهل المدَّر ، وفحلُّ شعراء المُخَضَّرِمينَ ، وهو من بني النَّجَّار من أهل المدينة ، نشأ في الجاهلية ، ونَبَّهُ شأنه فيها إذ أدرك الكثير من فحولها فلم يُقَصِّر عن اللِّحاق بهم ، بل بَدَّ الكثير منهم ، وكان يمدح الملوك المناذرة والفسَّاسنة في الجاهلية ، ويرحَل إليهم فينال منهم جزيل العطايا ، وأكثرُ من كان يمدحهم ويكثر انتجاعهم آلُ جَفَنَةَ من ملوك عَسَّان ، لما بين أهل يثرب والفسَّاسنة من صِلَةِ النسب وقُرْب الجوار ، فكان له من جوائزهم مَدَد لا ينقطع ، حتى ناله منهم شيء بعد أن أسلم وتنصروا ، ولما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم الأنصار أسلم معهم ، ودافع عنه بلسانه كما دافع عنه قومه الأنصار بسيوفهم ؛ فكان لقوله من النكاية في قريش وأعداء النبي أحسنُ بلاءً وأحمدُ أثر ، وكان شاعر أهل المدر في الجاهلية ، وشاعر اليمانية في الإسلام ، ولم يكن في أصحاب رسول الله ولا في أعدائه حين دعوته إلى الله أشعرُ منه ، وكان رسول الله ينصبُ له مِنبَرًا بالمسجد ويسمع هجاءه في أعدائه ويقول : « أَجِبْ عَنِّي ، اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ »

ومن شعره في الجاهلية :

وَلَقَدْ نَقَلَدْنَا الْعَشِيرَةَ أَمْرَهَا
وَيَسُودُ سَيِّدُنَا جَحَاجِحَ سَادَةَ
وَيُحَاوِلُ الْأَمْرَ الْمُهْمَّ خَطَابَةَ
وَتَزُورُ أَبْوَابَ الْمُلُوكِ رِكَابَنَا
وَنَسُودُ يَوْمَ النَّائِبَاتِ وَنَعْنَلِي
وَيُصِيبُ قَائِلُنَا سَوَاءَ الْمِفْصَلِ
فِيهِمْ ، وَنَفْصِلُ كُلَّ أَمْرٍ مُمَضِّلِ
وَمَتَى نَحْكُمُ فِي التَّرِيَّةِ نَعْدِلُ =

ومن شعره في الإسلام يفاخر وقد تميم بقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 إِنْ الدَّوَابَّ مِنْ فِيهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ قَدْ بَيَّنُّوا سُنَنًا لِلنَّاسِ تَتَّبَعُ
 يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سِرِّيَّتُهُ تَقْوَى الإِلهِ، وَبِالأَمْرِ الَّذِي شَرَعُوا
 قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمْ أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَاءِهِمْ نَفَعُوا
 سَخِيَّةٌ تِلْكَ فِيهِمْ غَسِيرٌ مُحَدَّثَةٌ إِنْ ائْتَلَتْ فِي النَّاسِ سَبَاقُونَ بَعْدَهُمْ
 إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَاقُونَ بَعْدَهُمْ أَعْفَةٌ ذُكِرَتْ فِي الوَخْيِ عَقَبَهُمْ
 لَا يَفْخَرُونَ إِذَا نَالُوا عَدُوَّهُمْ لَا يَطْمَئِنُّونَ وَلَا يَزُرِي بِهِمْ طَمَعٌ
 وَإِنْ أُصِيبُوا فَلَا خَوْفَ وَلَا جَزَعٌ

ومما سار من شعره مسير الأمثال قوله :

وَإِنَّ امْرَأً يُمَسِّي وَيُصْبِحُ سَالِمًا مِنْ النَّاسِ - إِلَّا مَا جَنَى - لَسَيِّدٌ
 وقوله :

رُبَّ حِلْمٍ أَضَاعَهُ عَدَمُ العَا لِي، وَجَهْلٍ غَطَّى عَلَيْهِ النِّصَمُ
 وقوله :

فَلَوْ كَانَ مَجْدٌ يُخْلِدُ الدَّهْرَ وَاحِدًا مِنْ النَّاسِ أُنْبِيَ مَجْدُ الدَّهْرِ مُطَاعًا

وهذا البيت مما يستشهد به النحاة على جواز تقديم الفاعل المتصل بضمير

المفعول على المفعول .

ومات رضي الله تعالى عنه في خلافة معاوية بن أبي سفيان سنة ٥٤ هـ وقد

عمر قريبا من ١٢٠ سنة

والشم : جمع أشم ، وهو المتصف بالشم الذي هو عزة النفس وكرامتها ،
 وأصله ارتفاع قصبه الأنف ، وسهولة عكس هذا البيت تقديم شعره الثاني
 على الأول من غير اختلال في المعنى ، وعكسه بعضهم هكذا :

سُودُ الوُجُوهِ لَتِيْمَةٌ أَحْسَابُهُمْ فَطَسُّ الأَنْوْفِ مِنَ الطَّرَازِ الأَخْرِ

وَأَمَّا الْيَتُّ الَّذِي هُوَ أَطْوَلُ مِنْ مِثْلِهِ فَكَحَمَاقَةَ الْمُتَنَّبِيِّ (١) :
 عِشْ أَبَيْ أَسْمُ سُدُّ جُدُّ قَدْ مَرَّ أَنَّهُ أَسْرُفُهُ تَسَلُّ -
 غِظِ أَرْمِ - صَبِّ أَحْمِ - أَغْزُ أَسْبِ رُغْزِ عَدِلِ ابْنِ نَلِّ
 وَأَمَّا الْيَتُّ الَّذِي هُوَ مَهِينٌ يَحْرَفِي ، وَرَهِينٌ يَحْدَفِي ، فَكَقَوْلِ
 أَبِي نُوَاسٍ :

لَقَدْ ضَاعَ شِفْرِي عَلَى بَابِكُمْ كَمَا ضَاعَ دُرٌّ عَلَى خَالِصَةٍ

(١) هو أبو الطَّيِّبِ أحمد بن الحسين ، الجُفَيْفِيُّ ، السِّكِنْدِيُّ ، الكوفي ، المتنبى ، الشاعر الحكيم ، صاحب الأمثال السائرة ، والمعاني النادرة ، وخاتم ثلاثة الشعراء ، وآخر من بلغ شعره غاية الارتقاء ، وهو من سلالة عربية ، من قبيلة جُفَفِ بن سَعْدِ العَشِيرَةِ أَحَدِ قبائل اليمانية

ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ ، في محلة كِنْدَةَ ، ونسب إليها - وليس بكندى - ونشأ بها ، وأولع بتعلم العربية من صباه ، وكان نادرة في الحفظ ، لا يسأل عن شيء إلا استشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر ، وكان أبوه - فيما يقال - سقاء فخرج به إلى الشام ، ورأى أبو الطيب أن استتمام علمه باللغة والشعر لا يكون إلا بالمعيشة في البادية ، فخرج إلى بادية بني كلب وهو بعد فتى لا يزيد عمره على عشرين سنة ، فأقام بينهم مدة يثُدُّهم من شعره ويأخذ عنهم اللغة ، إذ كانت لا تزال صحيحة بالبادية ، حتى أحاط بفريها وحوشها ، فمظم شأنه بينهم وكان الأعراب الضاربون بمشارف الشام شديدي الشغب على ولاتها ، فوَشَّى بعضهم إلى لؤلؤ أمير حمص من قبل الإخشيدية بأن أبا الطيب ادَّعى النبوة في بني كلب ، وتبعه منهم خلق كثير ، ويحشى على ملك الشام منه ، فخرج لؤلؤ إلى بني كلب وحاربهم ، وقبض على المتنبى وسجنه طويلا ، ثم استتابه وأطلقه ، فخرج من السجن وقد لصق به اسم « المتنبى » مع كراهته له

فأما منزلته في الشعر فقد شهد له أبو العلاء المعري - وهو من تعرف بُعد غوره، وفرط ذكائه، وتوقد خاطر، وشدة تعمقه في المعاني والتصورات الفلسفية - بالسبق، وقدمه على نفسه وغيره، وهو الذي يقول عنه ابن رشيقي: « ثم جاء المتنبى فملأ الدنيا وشغل الناس » .

ومن شعره :

إِذَا رَأَيْتَ نِيُوبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً فَلَا تَظَنَّ أَنَّ اللَّيْثَ يَبْتَدِسُ
أَعْيُذُهَا نَظَرَاتٍ مِّنْكَ صَادِقَةً

أَنْ تَحْسَبَ الشَّخْمَ فِيمَنْ شَخَّمَهُ وَرَمُ
وَمَا انْتِفَاعُ أَخِي الدُّنْيَا بِنَاطِرِهِ إِذَا اسْتَرَتْ عِنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلْمُ
يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نَفَارِقَهُمْ وَجَدْنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَ كَمْ عَدَمُ
إِنْ كَانَ سَرَّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لِمُجْرِحٍ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمُ
وَيَبْنِنَا - لَوْ رَعَيْتُمْ ذَلِكَ - مَعْرِفَةً إِنْ الْمَعَارِفِ فِي أَهْلِ الشَّهَى ذِمَمُ
إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا أَلَّا تَفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمُ

وعش: من العيشة، وابق: من البقاء، واسم: من الشمو، وسد: من
السيادة، وجد: من الجود، وقد: من قيادة الجيوش، ومُر: من الأمر،
وانة: من النهي، وره: من الرؤية، وفه: من فاه أي تكلم، وتسل: أي
يسألك الناس عما أغلق عليهم، وغظ: من الغيظ، وارم: من الرماية، وصب
من الإصابة، واحم: من الحماية، وانز: من النزو، واسب: من السبي،
ورع: من الروع وهو الخوف، وزع: من الوزع وهو الكف، ود: فعل بقى
على حرف واحد، أصل ماضيه وداه أي أعطى ديبته أو أخذها، ول: فعل =

وَكَقَوْلِ الْآخِرِ :

إِنَّ كَلَامًا تَرَاهُ مَدْحًا كَانَ كَلَامًا عَلَيْهِ ضَاءٌ
يَعْنِي أَنَّهُ إِذَا أُنشِدَ « ضَاعًا » كَانَ هِجَاءً ، وَإِذَا أُنشِدَ « ضَاءً » كَانَ
مَدْحًا (١) .

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ : فَتَعَجَّبْتُ وَاللَّهِ مِنْ مَقَالِهِ ، وَأَعْطَيْتُهُ مَا يَسْتَعِينُ
بِهِ عَلَى تَغْيِيرِ حَالِهِ ، وَافْتَرَقْنَا .

كذلك من الولاية ، وتقول : وَلِيَ الْأَمْرَ يَلِيهِ وِلَايَةٌ ، إِذَا تَوَلَّاهُ ، أَوْ مِنْ
وِلَايَةِ شَأْنٍ مِنْ شُؤْنِ الدَّوْلَةِ ، أَيْ صَارَ وَالِيًّا ، وَابْنُ : أَمْرٌ مِنَ الْبِنَاءِ ، وَالْمُرَادُ
بِهِ بِنَاءُ الْمَجْدِ وَالْمَكْرَمَاتِ ، وَيُرْوَى « اثْنٌ » مِنَ الثَّنَاءِ ، وَنَلَّ : مِنَ النُّوَالِ ،
وَقَدْ يَكُونُ بِفَتْحِ النُّونِ ، وَمَعْنَاهُ حَيْثُ خُذَ ، تَقُولُ : نَالَ الْأَمْرَ يَنَالُهُ ، مِثْلُ خَافَهُ
يَخَافُهُ ؛ إِذَا أَخَذَهُ ، وَقَدْ يَكُونُ بِضَمِّ النُّونِ ، وَمَعْنَاهُ حَيْثُ أُعْطِيَ ، تَقُولُ : نَالَ
فُلَانٌ فُلَانًا يَنُوُلُهُ ، تَرِيدُ أُعْطَاهُ يَعْطِيهِ .

(١) الكلام ظاهر ، وبيت أبي نُوَاسٍ مثله ، واللفظ هو اللفظ ؛ فلو أنشد
« لقد ضاع شعري ... كما ضاع » كان هِجَاءً ، ولو أنشد « لقد ضاع شعري ...
كما ضاع - إلخ » كان مَدْحًا ، وَيُرْوَى أَنَّ أَبَا نُوَاسٍ كَتَبَ هَذَا الْبَيْتَ « ضَاعٌ »
فَوُشِيَ بِهِ إِلَى الرَّشِيدِ : فَاسْتَدْعَاهُ ، فَفَطِنَ فَقَطَعَ تَجْوِيفَ الْعَيْنِ ، وَلَمَّا صَارَ أَمَامَ الرَّشِيدِ
قَرَأَهُ لَهُ بِالْمُهْرَةِ وَقَالَ : إِنَّمَا قُلْتَهُ هَكَذَا ، فَقَالَ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ : هَذَا بَيْتٌ قُلِمَتْ
عَيْنَاهُ فَأَبْصَرَ !

٢٩ - التَّمَامَةُ الْحَمْدَانِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

حَضَرْنَا مَجْلِسَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ بْنِ حَمْدَانَ يَوْمًا (١) ،

(١) هو أبو الحسن علي ، أشهرُ أمراء الدولة الحمدانية من قبيلة تغلب ، وكان سيف الدولة يملك حلبَ والمعاصمَ ، ثم أخذ دمشقَ من الإخشيدية ، مات سنة ٣٥٧ ، وكان أخوه الحسن ناصر الدولة يملك الموصلَ والجزيرة ، وخلف سيف الدولة ابنه سعدُ الدولة ، وخلف ناصر الدولة ابنه أبو تغلب ثم الغضنفر ، وسيف الدولة ممدوحُ أبي الطيب ، وله فيه المديح الذي خلد اسمه أبداً الدهر ، ومنه قوله :

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَمَوَّدَا وَعَادَاتِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِي الْعِدَا
قال عنه صاحب اليتيمة : كان غرّة الزمان ، وعماد الإسلام ، ومن به سداد
الثغور وسداد الأمور ، وكانت وقائمه في عصاة العرب تكفُّ بأسها ، وتقلُّ
أنيابها ، وتذكُّ صعباتها ، وتكفُّ الرعية سوء آدابها ، وحضرتَه مقصِدُ الوفود ،
ومطلع الجود ، وقبلة الآمال ، ومحطُّ الرجال ، وموسم الأدياء ، وحلية الشعراء ،
ويقال : إنه لم يجتمع بيباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع بيبابه من شيوخ
الشعر ونجوم الدهر ، ا هـ . وكان مع ذلك أديبا ، نقّادة ، شديد العارضة ، سريع
البديهة ، ومن شعره في وصف قوس فرح :

وَسَاقٍ صَبِيحٍ لِلصَّبُوحِ دَعْوَتُهُ فَتَامٌ وَفِي أَجْفَانِهِ سِنَّةُ الغَمَضِ
يَطْلُونُ بِكَاسَاتِ المَقَارِ كَأَنْجُمٍ فَمِنْ بَيْنِ مُنْقَضِ عَلَيْنَا وَمُنْفَضِ
وَقَدْ نَشَرَتْ أَيْدِي الجُنُوبِ مَطَارِفَا

عَلَى الجَوِّ دُكْنَا ، وَالْحَوَائِثِ عَلَى الأَرْضِ =

يُطَرِّزُهَا فَوْقَ السَّحَابِ بِأَضْفِرٍ . عَلَى أُنْحَرٍ فِي أَخْضَرٍ تَحْتَ مُبَيِّضٍ
كَأَذْيَالِ خَوْدِ أَقْبَتِ فِي غَلَائِلِ مُصَبَّغَةٍ وَالْبَعْضُ أَقْصَرُ مِنْ بَعْضٍ

وأنشده أبو الطيب المتنبي قصيدته التي مطلعها :

عَلَى قَدَرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدَرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

فلما وصل قوله :

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفِ كَأَنَّكَ فِي جَنِّ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ
تَمَرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلَمَى هَزِيمَةً وَوَجْهَكَ وَضَاحٌ وَتَفْرُكٌ بِأَسِيمٍ
قال : قد انتقدنا عليك هذين البيتين ، كما انتقد على امرئ القيس قوله :

كَأَنِّي لَمْ أَزُكِّبْ جَوَادًا لِلذَّةِ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ
وَلَمْ أَسْتَبِأِ الزُّوقَ الرَّوِيِّ ، وَلَمْ أَقُلْ لِيخْبَلِي : كَرَّى كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

وبينتاك لا يلتئم شرطهما كما ليس يلتئم شرطها هذين البيتين .

كان ينبغي لامرئ القيس أن يقول :

كَأَنِّي لَمْ أُرْكَبْ جَوَادًا وَلَمْ أَقُلْ لِيخْبَلِي : كَرَّى كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ
وَلَمْ أَسْتَبِأِ الزُّوقَ الرَّوِيِّ لِلذَّةِ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ

ليكون قد جمع ما يناسب الركوب مع لذته ، ويضغ لذة الشرب إلى لذة

النساء ، وهما أقرب الأشياء تناسبا ، وكان ينبغي لك أن تقول :

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفِ وَوَجْهَكَ وَضَاحٌ ، وَتَفْرُكٌ بِأَسِيمٍ
تَمَرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلَمَى هَزِيمَةً كَأَنَّكَ فِي جَنِّ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ

فقال أبو الطيب : أيد الله مولانا ، إن صح أن الذي استدرك على امرئ

القيس هذا كان أعلم منه بالشعر فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا ، ومولانا =

وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْهِ فَرَسٌ مَتَى مَا تَرَقَّ الْعَيْنُ فِيهِ تَسَهَّلَ^(١) ، فَحَظَّتْهُ
الْجَمَاعَةُ^(٢) ، وَقَالَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ : أَيُّكُمْ أَحْسَنَ صِفَتَهُ ، جَعَلْتُهُ صَلْتَهُ^(٣) ،
فَكُلٌّ جَهْدَ جَهْدِهِ ، وَبَدَلَ مَا عِنْدَهُ^(٤) ، فَقَالَ أَحَدُ خَدَمِهِ : أَصْلَحَ اللَّهُ

= يعلم أن الثوب لا يعرفه البرّازُ معرفة الحائك ، لأن البراز لا يعرف إلا جماعته ،
والحائك يعرف جماعته وتفاريقه ، لأنه هو الذي أخرجه من الغزلية إلى الثوبية ،
وإنما قرّن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد وقرّن السباحة في شراء
الحجر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء ، وأنا لما ذكرت للموت أتبعته بذكر
الردى وهو الموت ليجانسه ، ولما كان وجه الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون
عبوساً وعينه من أن تكون باكية قلت « ووجهك وضاح وثيرك باسم » لأجمع
بين الأضداد في المعنى ، وإن لم يتسع اللفظ لجمعها .

فانظر إلى دقة الملاحظة مع سرعة البديهة وقوة المعارضة .

(١) هذا عجز بيت من معلقة امرئ القيس ، من أبيات يصف فيها الفرس
وصدّره قوله :

* وَرُحْنَا وَرَاحَ الطَّرْفُ يَنْفُضُ رَأْسَهُ *

والطَّرْفُ - بكسر الطاء - الفرس السريع ، ومعنى « متى ما ترق العين -
إلخ » أن العين تُصمّد فيه النظر وتُصوّبه - أي تنظره من أعلى ثم تنتقل إلى
أسفله ؛ لأنه حسن الأعلى والأسفل جميعاً ، وقد سبق ذلك مرتين (ص ٤٠ و ٦٦)
(٢) لحظته الجماعة : نظروا إليه وتأملوا فيه .

(٣) الصلّة في الأصل : العطية ، وأراد منها هنا الجزاء والمكافأة .

(٤) جَهْدَ جَهْدِهِ : أي اجتهد بكل ما فيه من قوة ، وأفرغ قُصارى جهده

في أن ينعمته ليكون له الجزاء .

الأمير! رأيتُ بالأُنسِ رجلاً يطأُ الفصاحةَ بنَعْلَيْهِ (١) ، وَتَفِئُ الأَبْصَارُ عَلَيْهِ (٢) ، يَسْأَلُ النَّاسَ ، وَيَسْقِي اليأسَ (٣) ، وَلَوْ أَمَرَ الأَمِيرُ بِأَحْضَارِهِ ، لَفَضَّلَهُمْ بِحَضَارِهِ (٤) ، فَقَالَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ : عَلِيٌّ بِهِ فِي هَيْئَتِهِ ، فَطَارَ الخُدْمُ فِي طَلْبِهِ ، ثُمَّ جَاءُوا لِلوَقْتِ بِهِ ، وَلَمْ يُعْلِمُوهُ لِأَيَّةِ حَالٍ دُعِيَ (٥) ، ثُمَّ قَرَّبَ وَاسْتَدْنَى ، وَهُوَ فِي طَمَرَيْنِ قَدْ أَكَلَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمَا وَشَرِبَ (٦) ، وَحِينَ حَضَرَ السَّمَاطَ ، أَمَّ البَسَاطَ (٧) ، وَوَفَّ ، فَقَالَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ : بَلَّغْتَنَا عَنْكَ عَارِضَةً فَأَعْرِضْهَا فِي هَذَا الفَرَسِ وَوَضِفِهِ (٨) ، فَقَالَ : أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ كَيْفَ

(١) أى أنه قد أصبح ملك الفصاحة وفارسها، لكن العبارة نائية عن الذوق.

(٢) أى لا تتحوّل عنه ولا تنتظر إلى سواه، لأنها أضحت أسيرة لديه بماشاقمها منه .

(٣) يسأل الناس : يطلب منهم العطاء ، ويسقى : يذمّ ويعيب ، واليأسُ :

أى الحال التي لزمته .

(٤) الحِضَارُ ، بكسر أوله : قوة البيان وجودة القريحة ، من قولهم : « ناقة

حِضَارٌ » إذا جمعت قوةً وجودةً سَيْرَ ، أو قولهم : « رجل حَضَرَ » بفتح فضم ، إذا كان ذا بيان ووقه .

(٥) أى أنهم لم يبيطوا في استدعائه ، ولم يخبروه بما كان في المجلس ؛ لئلا

يهيئ له نفسه ، وذلك كتمهيد لنعته بالفصاحة والبيان الكاملين .

(٦) طَمَرَيْنِ : ثوبين خَلَقَيْنِ ، و « أكل الدهر عليهما وشرب » من

قول الشاعر :

سَأَلْتَنِي عَنْ أَنَاسٍ هَلَكُوا شَرِبَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ وَأَكَلَ

(٧) حضر : فعل يكون متعدياً ويكون لازماً ، تقول : قد حَضَرَ الطَّامُ ،

وحَضَرَهُ ، وتحَضَّرَهُ ، وأحضرَ الشئُ ، وأحضرَهُ إياه ، والسَّمَاطُ : جماعة

الحاضرين مع الأمير ، ولثم البساط : قَبَلَهُ لإجلالاً لشأنه .

(٨) العارضة : البديهة ، وقيل : هى الصَّرامة وهى المضاء فى الأمور ، يُقال : =

بِهَ قَبْلَ رُكُوبِهِ وَوُثُوبِهِ ، وَكَشَفَ عُيُوبَهُ وَعُيُوبَهُ ^(١) ؟ فَقَالَ : أَرَاكَ كَبُهُ ،
فَرَاكَ كَبُهُ وَأَجْرَاهُ ، ثُمَّ قَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ هُوَ طَوِيلُ الْأَذْنَيْنِ ، قَلِيلُ
الْإِنْتَيْنِ ، وَاسِعُ الْمَرَاتِ ، لَيْنُ الثَّلَاثِ ^(٢) ، غَايِظُ الْأَكْرُوعِ ، غَامِضُ

= رجل صارم وصرامة ، إذا كان ماضياً في الأمور ، ومنه « فلان صارم سحر
على هذا الأمر » أى : مُتَعَبٌ نَفْسَهُ فِي تَحْصِيلِهِ حَرِيصٌ عَلَيْهِ ، والمعنى إنه قد
وصل إلينا أن لك بديهة حاضرة ، وأنت ماضٍ في البراعة ، قوى البيان ، فإذا
كان ذلك حقاً فأنشره علينا في وصف هذا الفرس .

(١) وَثَبَ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ وَثَبًا وَوُثُوبًا وَوُثْبَانًا ، وَوَثَبَ إِلَيْهِ :
طَفَّرَ ، و فرس وَثَابَةٌ : سريعة ، والفيوب : جمع غيب ، وهو ماخفي على
الإنسان فلم يعلم به ، والمعنى : إنه لا طاقة لى على وصفه ، ولا سبيل إلى نعتة حتى
أركبه وأركض به ، فأعلم سرعته ، وأتبع ماخفي عنى من صفاته التي لا تظهر
بمجرد النظر ، ليسكون وصفي صحيحاً صادقاً .

(٢) الْمَرَاتِ وَمِثْلُهُ الْمَرَوْتُ - بوزن مَثَبَر - مَبَعَرُ الْفَرَسِ ، و « لَيْنُ الثَّلَاثِ »
سيأتى في كلامه تفسيره ، وقد سبق الفصل الضبي إلى مثل ذلك ، روى الزجاج
قال : قال المفضل الضبي : قال أمير المؤمنين المنصور : صِفْ لِي الْجَوَادَ مِنَ الْخَيْلِ
فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا كَانَ الْفَرَسُ طَوِيلَ ثَلَاثٍ قَصِيرَ ثَلَاثٍ رَحَبَ ثَلَاثٍ
صَافِي ثَلَاثٍ فَذَلِكَ الْجَوَادُ الَّذِي لَا يُبَارَى ، قَالَ : فَسَّرَهَا ، فَقُلْتُ : أَمَا الثَّلَاثُ
الطَوَالُ فَالْأَذْنَانُ وَالْمَادَى وَالْفَخِذُ ، وَأَمَا الْقِصَارُ فَالظُّهْرُ وَالْمَسِيْبُ وَالسَّاقُ ، وَأَمَا
الرَّحَابُ فَالْأَبَانُ وَالْمَنْخِرُ وَالْجَبْهَةُ ، وَالصَّافِيَةُ الْأَدِيمُ وَالْعَيْنُ وَالْحَافِرُ . غَيْرَ أَنَّ
الْبَدِيعَ قَدْ زَادَ فِيهَا وَبَسَطَ الْوَصْفَ بِأَكْثَرِ مِنْهُ . وَقَدْ وَصَفَ ابْنَ أَقِيصِرَ الْفَرَسَ
فَقَالَ : إِذَا اسْتَقْبَلْتَهُ أَقْمَى ، وَإِذَا اسْتَدْبَرْتَهُ جَبَا ، وَإِذَا اعْتَرَضْتَهُ اسْتَمَى . وَفِي
هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ ابْنُ أَبِي بَلْبَانَ الْفَرَسُ الْفَارِسُ الشَّيْطُ :

وَلَقَدْ شَهِدْتُ الْخَيْلَ بِخَيْلِ شَيْكَتِي عَتَدْتُ كَيْسَرَ حَانَ الْقَضِيمَةِ مِنْهُ
أَمَا إِذَا اسْتَقْبَلْتَهُ فَكَأَنَّهُ لِلْعَيْنِ جِذَعٌ مِنْ أَوَالِ مُشْدَبٍ =

الأربع^(١)، شديد النفس، لطيف الخمس^(٢)، ضيق القلت، رقيق الست^(٣)،
 حديد السمع، غليظ السمع^(٤)، دقيق اللسان، عريض الثمان^(٥)، مديد
 الصلح، قصير التسع^(٦)، واسع الشجر^(٧)، بعيد العشر^(٧)، يأخذ بالساج،

= وإذا اغترضت به استوت أقطاره وكأنه مستدبراً متصوباً

والقصيمة : رملة تبت الغصى ذئبها خبيث^٧، وأوال - بوزن سحاب -
 جزيرة كبيرة بالبحرين بينها وبين القطيف مسيرة يوم في البحر عندها مفاص
 اللؤلؤ .

(١) السكرع، محرقة: قوائم الدابة، والكرع - بوزن غراب، ويؤنث -
 والجمع أكرع وأكرع، مستدق الساق، و« غامض الأربع » سيأتي معناه في
 المقامة .

(٢) يروى: « النفس » بالتحريك، ومعناه أنه إذا تنفس كان نفسه طويلاً
 وشديداً . ويروى « النفس » بفتح فسكون، ومعنى شدة النفس شهامتها
 وقوتها، والعرب تتمدح بكرم الخيل وشدتها وطيب أصلها حتى إنهم ليحفظون
 أنساب الخيل كما يفعلون ذلك في الأناسي، و« لطيف الخمس » معناه مذكور في كلامه
 (٣) أصل القلت الثقرة في الجبل، وهو في الفرس الثقرة في رأس الورك
 يكون في جوفها الموقف، وهو عصبية إذا انفكت عرجت الدابة .

(٤) من الأوصاف التي تتمدحها العرب في الخيل أن يكون في أذنيها صلابة
 فإذا استرخت كانت مذمومة، ويقولون عن الفرس المسترخي الأذنين: أخذى،
 فعنى « حديد السمع » شديد الأذنين صلتهما .

(٥) الدقيق، هنا : ضد الغليظ .

(٦) مديد : ممتد مستكمل أضلاعه .

(٧) الشجر - بفتح فسكون - مخرج الفم، أو مؤخره، أو ما انفتح من =

وَيُطَلِّقُ بِالرَّامِحِ ، يَطْلَعُ بِبَلَايْحٍ ، وَيَضْحَكُ عَنْ قَارِحٍ ^(١) ، يَخْذُ وَجْهَ
الْجَدِيدِ ، بِمَدَاقِ الْحَدِيدِ ^(٢) ، يُحْضِرُ كَالْبَحْرِ إِذَا مَاجَ ، وَالسَّيْلِ إِذَا هَاجَ ^(٣) ،
فَقَالَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ : لَكَ الْفَرَسُ مُبَارَكًا فِيهِ ، فَقَالَ : لَا زِلْتَ تَأْخُذُ

= مُنْطَبِقُ الْفَمِ ، أَوْ مَلْتَقَى اللَّهْزِمَتَيْنِ ، أَوْ مَا بَيْنَ اللَّحْيَيْنِ ، وَالْجَمْعُ أَشْجَارٌ ،
وَشُجُورٌ ، وَشِجَارٌ .

(١) يَأْخُذُ بِالسَّامِحِ : أَيْ يَبْتَدِي سِيرَهُ بِيَدَيْهِ اللَّتَيْنِ ، تَشْبَهُانِ يَدَيِ السَّامِحِ ،
وَيُطَلِّقُ بِالرَّامِحِ : أَيْ أَنَّهُ يُتَبَمَّهُمَا رَجْلَيْهِ الرَّامِحَتَيْنِ - أَيْ السَّرِيعَتَيْنِ - مِنْ
رَمَحٍ إِذَا رَكَّضَ ، وَيَطْلَعُ بِبَلَايْحٍ : أَيْ أَنَّهُ يَلْأَقِيكَ بِوَجْهِ لَائِحٍ - أَيْ مَشْرِقٍ
ذِي غُرَّةٍ - وَيَضْحَكُ عَنْ قَارِحٍ : أَيْ يُظْهِرُ لَكَ سِنَّهُ الَّذِي يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ
التَّسْعَ مِنْ عَمْرِهِ .

(٢) يَخْذُ : يَشُقُّ ، وَيُرْوَى « يَحْزُ » أَيْ يَقْطَعُ ، وَالْجَدِيدُ : الْأَرْضُ ، وَيُرْوَى
« الْكَدِيدُ » وَهُوَ مَا غَلِظَ مِنْهَا ، وَالْمَدَاقُ : جَمْعُ مُدَقٍّ - بِكَسْرِ فَتْحٍ أَوْ بَضْمَتَيْنِ -
وَالْمَعْنَى إِنَّهُ يَسِيرُ سَيْرًا مُتَوَاصِلًا ، وَكَأَنَّهُ فِي سِيرِهِ يَشُقُّ وَجْهَ الْأَرْضِ بِحَوَافِرِهِ الَّتِي
تَشْبَهُ الْمَدَاقَ .

(٣) أَحْضَرَ الْفَرَسُ : أَيْ ارْتَفَعَ فِي عَدْوِهِ وَأَسْرَعَ ، وَبِالْبَحْرِ إِذَا مَاجَ تَدَافَعَتْ
أَمْوَاجُهُ ، وَتَلَاوَحَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، وَالْعَرَبُ تَشْبَهُ الْفَرَسَ بِالْمَاءِ كَثِيرًا ، وَتَضَعُ
لَهُ أَسْمَاءَ مَأْخُودَةٍ مِنْ أَسْمَاءِ بَعْضِ الْمِيَاهِ أَوْ مَا كُنْهَا ، فَمِنْ ذَلِكَ « الْعَمْرُ » إِذَا كَانَ
كَثِيرَ الْجَرَى ، وَأَصْلُ الْعَمْرِ الْمَاءُ الْكَثِيرُ ، وَمِنْهُ « الْيَعْبُوبُ » إِذَا كَانَ سَرِيعَ
الْجَرَى ، وَأَصْلُهُ الْجَدُولُ السَّرِيعُ ، وَمِنْهُ « الْجُمُومُ » إِذَا كَانَ كَمَا ذَهَبَ مِنْهُ
إِحْضَارٌ جَاءَهُ إِحْضَارٌ ، وَأَصْلُهُ الْبُئْرُ الَّتِي لَا يَنْزَحُ مَائُهَا ، وَمِنْ ذَلِكَ « سَكَبٌ
وَقَيْضٌ » إِذَا كَانَ خَفِيفَ الْجَرَى سَرِيعَهُ ، وَأَصْلُهُمَا فَيْضُ الْمَاءِ وَانْسِكَابُهُ ، وَهَكَذَا

الأنفاس ، وَتَمْنَحُ الْأَفْرَاسَ^(١) ، ثُمَّ أَنْصَرَفَ وَتَبِعْتُهُ وَقُلْتُ : لَكَ عَلَى مَا يَلِيقُ بِهَذَا الْفَرَسِ مِنْ خِلْعَةٍ إِنْ فَسَّرْتَ مَا وَصَفْتَ ، فَقَالَ : سَلْ عَمَّا أَحْبَبْتَ .

فَقُلْتُ : مَا مَعْنَى قَوْلِكَ : بَعِيدُ الْعَشْرِ ؟
فَقَالَ : بَعِيدُ النَّظَرِ ، وَالْخَطْوِ^(٢) ، وَأَعَالِي اللَّحْيَيْنِ^(٣) ، وَمَا بَيْنَ الْوَقْبَيْنِ^(٤) ، وَالْجَاعِرَتَيْنِ^(٥) ، وَمَا بَيْنَ الْفُرَايَيْنِ^(٦) ، وَالْمِنْخَرَيْنِ ، وَمَا بَيْنَ الرَّجْلَيْنِ ، وَمَا بَيْنَ الْمَنْقَبِ وَالصَّفَاقِ^(٧) ، بَعِيدُ الْغَايَةِ فِي السَّبَاقِ .

فَقُلْتُ : لَا فُضَّ فُوكَ ، فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ : قَصِيرُ الدَّسَعِ ؟
قَالَ : قَصِيرُ الشَّعْرَةِ^(٨) ، قَصِيرُ الْأُطْرَةِ^(٩) ، قَصِيرُ الْعَسِيبِ^(١٠) ،
قَصِيرُ الْقَضِيبِ^(١١) ،

(١) أى أدام الله عليك نعمتى الشجاعة والكرم لتنتهب النفوس وتعطى النفيس
(٢) يرى الشيء من بعد ويسرع إليه .
(٣) اللحيان : عظاما الخنك اللذان يكون عليهما الأسنان .
(٤) الوقب : النقرة ، أى نقرة في الجسد ، والوقبان من الفرس : نقرتان فوق عينيه .

(٥) الجاعرتان : حرفا الورك المشرفان على الفخذين .
(٦) الفُرَايَانُ : هما طرفا الوركين الأسفلان .
(٧) الْمَنْقَبُ : موضع على الشرة ينقبه البيطار ، وَالصَّفَاقُ : ما بين الجلد والمصران .

(٨) إذا كان الفرس قصير شعر الجلد رقيقه فهو أجرد ، وهو ممدوح .
(٩) الْأُطْرَةُ : ما أحاط بالظفر من اللحم .
(١٠) الْعَسِيبُ : عظم الذنب .
(١١) الذكرك .

قَصِيرُ الْعُضْدَيْنِ^(١) ، قَصِيرُ الرَّسْغَيْنِ^(٢) ، قَصِيرُ النَّسَا^(٣) ، قَصِيرُ الظَّهْرِ^(٤) ،
قَصِيرُ الْوُظَيْفِ^(٥) .

فَقُلْتُ : لِلَّهِ أَنْتَ ! فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ : عَرِيضُ الثَّمَانِ ؟

قَالَ : عَرِيضُ الْجَبْهَةِ^(٦) ، عَرِيضُ الْوَرَكِ^(٧) ، عَرِيضُ الصَّهْوَةِ^(٨) ،
عَرِيضُ الْكَتِفِ^(٩) ، عَرِيضُ الْجَنْبِ^(١٠) ، عَرِيضُ الْعَصَبِ^(١١) ، عَرِيضُ
الْبَلْدَةِ^(١٢) ، عَرِيضُ صَفْحَةِ الْعُنُقِ^(١٣) .

فَقُلْتُ : أَحْسَدْتَ ، فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ : غَايِظُ السَّبْعِ ؟

قَالَ : غَايِظُ الذَّرَاعِ ، غَايِظُ الْمَحْزَمِ^(١٤) ، غَايِظُ الْعُكْوَةِ^(١٥) ، غَايِظُ

(١) العُضْد من الإنسان : ما بين مرفقه والكتف ، ومن الفرس : ما بين
الكتف والركبة .

(٢) الرسغ : المُسْتَدَقُّ بين الحافر والوظيف من يد أو رجل .

(٣) النسا : عِرْقٌ يُخْرَجُ من الورك ويصل إلى الحافر .

(٤) يريد من ظهره المكان الذي يركبه الفارس منه .

(٥) الوظيف : مُسْتَدَقُّ الذراع والساق .

(٦) الجبهة : أعلى الوجه .

(٧) الورك : معروف .

(٨) الصَّهْوَةُ : مكان الفارس في ركوبه .

(٩) الكتف : ما فوق العُضْد .

(١٠) الْجَنْبُ : المراد به ما بين أعلاه وآخره .

(١١) العصب : أطراف المفاصل التي تربط بعض أجزاء الجسم ببعض .

(١٢) الْبَلْدَةُ : الصدر .

(١٣) صَفْحَةُ الْعُنُقِ : جانبه .

(١٤) الْمَحْزَمُ : موضع الحزام .

(١٥) الْعُكْوَةُ : أصل الذنب .

الشَّوَى^(١)، غَلِيظُ الرُّسْعِ، غَلِيظُ الفَخْدَيْنِ، غَلِيظُ الحَاذِ^(٢).
 قُلْتُ: لِلَّهِ دَرَكٌ! فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ: رَقِيقُ السَّتِّ؟
 قَالَ: رَقِيقُ الجَفْنِ، رَقِيقُ السَّالِفَةِ^(٣)، رَقِيقُ الجُحْفَلَةِ^(٤)، رَقِيقُ
 الأَدِيمِ^(٥)، رَقِيقُ أَعَالَى الأُذُنَيْنِ، رَقِيقُ العُرْضَيْنِ^(٦).
 فَقُلْتُ: أَجَدْتَ، فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ: لَطِيفُ الخُمْسِ؟
 فَقَالَ: لَطِيفُ الزَّوْرِ، لَطِيفُ الذَّنْرِ^(٧)، لَطِيفُ الجَبْهَةِ، لَطِيفُ
 الرُّكْبَةِ، لَطِيفُ العُجَابَةِ^(٨).
 فَقُلْتُ: حَيَّاكَ اللهُ، فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ: غَامِضُ الأَرْبَعِ؟
 قَالَ: غَامِضُ أَعَالَى الكَتِفَيْنِ^(٩)، غَامِضُ المِرْفَقَيْنِ^(١٠)، غَامِضُ
 الحِجَاجَيْنِ^(١١)، غَامِضُ الشَّطْيِ^(١٢).

-
- (١) الشَّوَى: جلد الرأس .
 (٢) الحاذ: الظهر، ويروى «القبال»، ومعناها العروق التي تربط اليد.
 (٣) السالفة: ما تقدم من عنقه
 (٤) الجُحْفَلَةُ للفرس ونحوه: مثل الشفة للإنسان والمِشْقَر للبعير .
 (٥) الأديم: الجلد .
 (٦) العُرْضَان: هما جانبا العنق .
 (٧) الذنر: هو لحمة تشبه النواة أو الخصلة تكون في باطن حافر الفرس
 من أعلاه، أو ما ارتفع في باطن حافر الفرس .
 (٨) العُجَابَةُ: عَصَبٌ مرْكَبٌ فيه فصوصٌ من عظام كفصوص الخاتم عند
 رُسْعِ الدابة .

- (٩) معناه أنه مُكْتَبَز اللحم، ليس بنائمز العظم .
 (١٠) المرفقان: مؤخر العَضْدَيْنِ اللذين يتصل عليهما العضدان .
 (١١) الحِجَاجُ: مَنبِتُ الحَاجِبِ .
 (١٢) الشَّطْيُ: عَظْمٌ مستدق لاصق بالركبة أو الذراع، أو هو عصب صفار فيه

قُلْتُ : فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ أَيْنَ الثَّلَاثُ ؟
 قَالَ : أَيْنَ الْمُرْدَعَاتَيْنِ (١) ، أَيْنَ الْعُرْفِ (٢) ، أَيْنَ الْعَيْنَانِ (٣) .
 قُلْتُ : فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ : قَلِيلُ الْأَثْنَيْنِ ؟
 قَالَ : قَلِيلُ لَحْمِ الْوَجْهِ ، قَلِيلُ لَحْمِ الْمَتْنَيْنِ (٤) .
 قُلْتُ : فَمِنْ أَيْنَ مَنبَتُ هَذَا الْفَضْلِ ؟
 قَالَ : مِنْ التَّمُورِ الْأُمَوِيَّةِ ، وَالْبِلَادِ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ (٥) .
 فَقُلْتُ : أَنْتَ مَعَ هَذَا الْفَضْلِ ، تُعَرِّضُ وَجْهَكَ لِهَذَا الْبَدَلِ ؟ فَأَنْشَأَ يَقُولُ :
 سَاخِيفَ زَمَانِكَ جِدًّا إِنَّ الزَّمَانَ سَخِيفٌ (٦)
 دَعِ الْحَيَّةَ نَسِيغًا وَعِشْ بِنَجِيرٍ وَرَيْفٍ (٧)
 وَقُلْ لِعَبِيدِكَ هَذَا يَجِيئُنَا بِرَغِيفٍ

- (١) الْمُرْدَعَةُ : مَا بَيْنَ الْعُنُقِ وَالتَّرْقُوتِ .
 (٢) الْعُرْفُ : الشَّعْرُ النَّابِتُ عَلَى مَحْدَبِ عُنُقِهِ .
 (٣) أَرَادَ بَلِيْنَ عُنَانِهِ سُهُولَةَ قِيَادِهِ وَسَلَّاسَتَهُ ، وَأَنَّهُ لَا يَجْمَعُ بَرَاكِبَهُ .
 (٤) الْمَتْنَانُ : مَا يُحِيطَانِ بِالصُّلْبِ عَنِ يَمِينٍ وَشِمَالٍ مِنَ الْعَصَبِ .
 (٥) الْأُمَوِيَّةُ : الْمُنْسُوبَةُ لِبَنِي أُمِيَّةٍ ، وَبِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مَدِينَةُ اسْمِهَا إِسْكَنْدَرِيَّةٌ ؛ فَهِيَ يَنْتَسِبُ إِلَيْهَا .
 (٦) الشَّخِيفُ : الْحَقُّ ، وَالْمَعْنَى : إِنْ عَلَيْكَ أَنْ تُجَارِيَ الدَّهْرَ فِي حِمَاتِهِ ، لَتُنَالِ مِنْهُ رَغْبَاتِكَ ، فَإِنَّهُ لَا يَقْبَلُ الْحَدِيدَ إِلَّا الْحَدِيدَ .
 (٧) قَالَ الْأَسْتَاذُ الْإِمَامُ : الرَّيْفُ : السَّعَةُ فِي الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ ، وَاقْتَصَرَ عَلَيْهِ مَعَ أَنَّهُ تَمَّعَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ كَانَ يَكْتُبُ فِي شَرْحِهِ كُلِّ مَا يَتَّصِرُ أَنْ يَرْجِعَ الْكَلَامُ إِلَيْهِ ، وَنَحْنُ نَقُولُ : إِنَّهُ لَا يَبْعُدُ أَنْ تَكُونَ الْكَلِمَةُ مَأْخُودَةً مِنْ « وَرَفَ الظِّلِّ يَرِفُ » وَرَفَّحُورِيفًا ، إِذَا طَالَ وَامْتَدَّ وَاتَّسَعَ ، وَيَكُونُ الْمَعْنَى وَعِشْ بِنَجِيرٍ مَمْتَدٍّ وَمَتَّسِعٍ ، وَهُوَ ظَاهِرٌ وَبَدِيعٌ ، وَالْوَاوُ - عَلَى هَذَا - مِنْ أَسْأَلِ الْكَلِمَةِ ، وَهِيَ فِيمَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ وَآوِ الْعَطْفِ .

٣٠ - المقامة الرصافية

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

خَرَجْتُ مِنَ الرُّصَافَةِ ^(١) ، أُرِيدُ دَارَ الْخِلَافَةِ ، وَحَمَارَةَ الْقَيْظِ ،
تَعَلَى بَصْدَرِ الْقَيْظِ ^(٢) ، فَلَمَّا نَصَفْتُ الطَّرِيقَ ^(٣) اشْتَدَّ الْحَرُّ ، وَأَعْوَزَنِي
الصَّبْرُ ^(٤) ، فَلَمْتُ إِلَى مَسْجِدٍ قَدْ أَخَذَ مِنْ كُلِّ حُسْنِ سِرِّهِ ، وَفِيهِ قَوْمٌ
يَتَأَمَّلُونَ سُقُوفَهُ ، وَيَتَذَكَّرُونَ وَقُوفَهُ ^(٥) ، وَأَدَّاهُمْ عَجْزُ الْحَدِيثِ ^(٦) ، إِلَى
ذِكْرِ اللُّصُوصِ وَحِيلِهِمْ ، وَالطَّرَّارِينَ وَعَمَلِهِمْ ^(٧) ، فَذَكَرُوا أَصْحَابَ
الْفُصُوصِ ^(٨) ، مِنَ اللُّصُوصِ ، وَأَهْلَ الْكُفِّ وَالْقَفِّ ^(٩) ، وَمَنْ يَعْمَلُ

(١) الرصافة ، بضم أوله : اسم لبلدان كثيرة ، منها واحدة بالشام ، وأخرى
بالبصرة ، وثالثة بالأندلس ، ورابعة بإفريقية ، وقرية بواسط ، وأخرى بنيسابور ،
واسم محلة ببغداد التي هي دار الخلافة : أي المكان الذي يجلس فيه الخلفاء .

(٢) حمارة القيظ : شدة الحر .

(٣) نصفت الطريق : أي قطعت نصفه ، وانتصفته : أي صرت في نصفه .

(٤) أي افتقرت إلى الصبر ؛ لأنه ذهب مني كله .

(٥) أي أعيدته وسواريه ، جمع واقف .

(٦) عجز الحديث : آخره .

(٧) الطرّارون : الذين يختلسون المال خفية ، من «طرّ» إذا شقّ أو قطع ،

وهم الذين يقال لهم اليوم (نشالون) .

(٨) جماعة ينقشون أسماء بعض الناس على فصوص ، ثم يذهبون إلى ديارهم

حال غيبتهم ، يطلبون من المال ما أرادوا ، دون أن ينكر عليهم أهل البيت ، ويعملون

الفصّ علامة لأهل الدار ودليلا على أنهم موقدون من قبيل صاحب الدار .

(٩) أهل الكف : الذين يدخلون بين متشاجرين ليكشفهم عن الشجار ،

ويختلسون في هذه الأثناء أموالهم ، وأهل القف : الذين يختلسون المال بين أصابعهم

بِالطَّفِ^(١) ، وَمَنْ يَحْتَالُ فِي الصَّفِّ^(٢) ، وَمَنْ يَخْنُقُ بِالذَّفِّ^(٣) ، وَمَنْ يَكْمُنُ
فِي الرَّفِّ ، إِلَى أَنْ يُمَكِّنَ اللَّفَّ^(٤) ، وَمَنْ يُبَدِّلُ بِالْمَسْحِ^(٥) ، وَمَنْ يَأْخُذُ
بِالْمَزْحِ^(٦) ، وَمَنْ يَسْرِقُ بِالنُّصْحِ^(٧) ، وَمَنْ يَدْعُو إِلَى الصُّلْحِ^(٨) ، وَمَنْ
قَمَسَ بِالصَّرْفِ^(٩) ، وَمَنْ أَنْعَسَ بِالطَّرْفِ^(١٠) ،

(١) أى يسرق بالتطفيف فى المسكيات .

(٢) أى يسرق من صفوف المضلين ، منتهزاً اشتغالهم بالصلاة .

(٣) أى يدخل البيوت للسرقة ، فإذا تعرّض له ربُّ البيت قتله ، ويكون
معه جماعة يضر بون بالطبول والدفوف ، حتى إذا صاح لا يسمعه أحد ولا يُغيثه إنسان

(٤) يختفي فى مكان الأمتعة حتى يتمكن من جمعها والفرار بها .

(٥) الذى يضع دراهم زائفة فى فمه ، ثم يأخذ من آخر دراهم جيدة ويُدْنيها
إلى فمه ثم يمسحها مؤمها أنه يختبرها ، وهو فى الواقع يستبدلها بما معه من الردىء .

(٦) الذى يختلس دراهمك ، فإذا عرفت ذلك منه ردّها إليك ، يوهك

أنه قد كان يمازحك .

(٧) الذى يسرق منك نقودك على هيئة النصيحة لك ، كمن يدخل عليك

و بين يديك دراهم فيقول لك : لانفعل هذا ، فإن بمض الناس كان مثلك ، فدخل
عليه طرّار فوضع يده على كيسه هكذا (و يضع يده) ثم أخذه هكذا (و يأخذه)

ثم سار إلى الباب هكذا (و يسير) ثم خرج هكذا (ويخرج) وحينئذ يعلق الباب و يفر
(٨) الذى يرتقب حصول الخلاف بين اثنين ، فيدخل بينهما ، ولا يزال

يفتخر غفلةً ما قدّرَ عليه من مالهما .

(٩) قمس : جمع ، ومعناه الذى يجيء إلى الصبر فى يوهمه أنه يريد صرف

دينار مثلاً ، فيختلس الذى أمامه ويهرب .

(١٠) أى الذى يتناوم لينام صاحب المال ، فإذا نام أخذ ماله .

وَمَنْ بَاهَتَ بِالزَّرْدِ ^(١) ، وَمَنْ غَالَطَ بِالْفِرْدِ ^(٢) ، وَمَنْ كَابَرَ بِالرَّيْطِ ، مَعَ
 الْإِبْرَةِ وَالخَيْطِ ^(٣) ، وَمَنْ جَاءَكَ بِالْقُفْلِ ^(٤) ، وَشَقَّ الْأَرْضَ مِنْ سُفْلِ ^(٥) ،
 وَمَنْ نَوَّمَ بِالْبَنْجِ ^(٦) ، أَوْ أَحْتَالَ بِبَيْرَبَجٍ ^(٧) ، وَمَنْ بَدَّلَ نَعْلَيْهِ ، وَمَنْ
 شَدَّ بِحَبْلَيْهِ ^(٨) ، وَمَنْ كَابَرَ بِالسَّيْفِ ^(٩) ،

(١) أى الذى يدخل الدار ومعه الزرد ، فإذا توسّطها وعلم به صاحبها بسط الزرد ، فإذا جاء ليقبض عليه نادى بأنه يظلمه فى اللهب ، ولا يعطيه ما قامره به .
 (٢) الذى يكثرى قراداً يوقفه على باب دكان ، ليشتغل به صاحب الدكان فيسرقه .

(٣) الرّيطة : جمع رِيْطَة ، والمراد به هنا الثوب الذى يلبس فوق غيره ، وهذه الحيلة هى أن الطّارار يرفع ثوب بعض المارة خلسة ، ويمسك بطرفها الأسفل ، ثم يأخذ فى خياطته بما على العائق ، فإن لم يشعر به صاحب الثياب أخذ هميانه - وهو وعاء ذراهمه - وإذا استشره صاح : إني كنت أخيط لك ثوبك هكذا ، أفلا تريد .

(٤) الذى يبيع التاجر قفلاً سهلاً الفتح ، فإذا أغلق التاجر به جاء قسّمه

(٥) الذى يحفر حفيرة فى الأرض حتى تصل الدار ، فإذا نام أهلها دخلها

(٦) البنج : مخدر معروف .

(٧) النيرنج : ضرب من الشعبة يشبه السحر .

(٨) بدّل نعليه : الذى يدخل الحمام أو المسجد ومعه نعل خفاق ، ثم ينهز

غفلة الناس ويتحين أشتغالهم فيأخذ نعلين جديدين ويخرج ، وشد بحبله : الرجل

يصعد جداراً أو يرقى سطحاً ، ثم يشد على ما يجده من المتاع حبلاً يكون قد

ترك طرفه فى الأرض من أسفل الدار ، مثلاً ، ثم ينزل فيشد ذلك الحبل ويأخذ

مأعلق به ويسير .

(٩) كآبر بالسيف : أى عاند به جهاراً ، وهؤلاء هم قطاع الطريق .

وَمَنْ يَصْعَدُ فِي الْبَيْرِ ^(١) ، وَمَنْ سَارَ مَعَ الْعَيْرِ ^(٢) ، وَأَصْحَابَ الْعَلَامَاتِ ^(٣) ،
 وَمَنْ يَأْتِي الْعَمَامَاتِ ^(٤) ، وَمَنْ فَرَّ مِنَ الطَّوْفِ ^(٥) ، وَمَنْ لاذَ مِنَ الْخَوْفِ ^(٦) ،
 وَمَنْ طَيَّرَ بِالطَّيْرِ ^(٧) ، وَمَنْ لَاعَبَ بِالسَّيْرِ ، وَقَالَ : أَجْلِسْ وَلَا ضَيْرَ ^(٨) ،
 وَمَنْ يَسْرِقُ بِالْبَوْلِ ^(٩) ، وَمَنْ يَنْتَهزُ الْهَوْلَ ^(١٠) ،

(١) يصعد في البير: الرجل يحتجى في بئر، فإذا وردّه قوم وأدلى أحدهم دلوّه
 صعد المحتجى فيه فيخافونه وهم يحسبونه من الجن فيتذرع بذلك إلى سلبهم وسرقتهم
 (٢) العيرُ: جماعة المسافرين كالقافلة، وفي القرآن الكريم (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ
 الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا) وهذا يسير معهم يومهم أنه أحدهم، حتى
 إذا وجد منهم غرّة انتهزها .

(٣) أى الذين يحملون لأنفسهم شعاراً كشعار المتصوفة وأمثالهم، يريدون
 بذلك أن يطمن الناس لهم، فإذا تمكّنوا من ذلك سرقوهم .

(٤) الذى يلبس لباس العلية ليدخل بيوتهم من غير ممانعة فتتسنى له السرقة .

(٥) الطّوفُ: العسسُ، ورجال الشرطة الذى يصومون لحفظ الأمن،
 والقارُّ منهم: الذى يجرى أمامهم دون أن يطلبوه، فإذا لقي دارا دخلها حتى إذا
 فطن ربّها ذكر له أنه هاربٌ من الطّوفِ؛ لأنهم يريدونه ظالما، فينجو .

(٦) لاذ: التجأ، وهو الذى يُقبِلُ عليك، ويحتجى بك، يوهمك أنه
 يخاف عدوا، فإذا لاحت له منك غرّة انتهزها .

(٧) الذى يتخذ حتماً يطّيره، ويدخل البيوت فإذا سأله أحدٌ زعم أنه يبحث عنه

(٨) السير: قطعة من جلد، والملاعب به: الذى يلاعبك ويداعبك فى

إخفاء بعض الأشياء، فمن لم يعرفها ضربه، وفى هذا مُنازعة تمكّنه من الخلسة

(٩) الذى يجلس بجانب المال، ويكشف سوأته موها أنه يبول، فيخجل

صاحب المال فيخفى وجهه، فيتمكن اللص من السرقة .

(١٠) الذى يرتقب حصول كارثة كحريق أو معركة فيدخل بين الناس؛

وينتهز اشتغالهم ليتمكن من السرقة والاختلاس .

وَمَنْ أَطْعَمَ فِي الشُّوقِ ، بِمَا يَنْفُخُ فِي الْبُوقِ (١) ، وَمَنْ جَاءَ يَبْسُتُوقِ (٢) ،
 وَأَصْحَابَ الْبَسَاتِينِ (٣) ، وَسُرَّاقِ الرَّوَّازِينَ (٤) ، وَمَنْ ضَبَّرَ فِي الصَّرْحِ (٥) ، وَمَنْ
 سَلَّمَ فِي السَّطْحِ (٦) ، وَمَنْ دَبَّ بِسَكِينٍ ، عَلَى الْحَائِطِ مِنْ طِينٍ (٧) ، وَمَنْ
 جَاءَكَ فِي الْحِينِ ، يُحْيِي بِالرِّيَّاحِينَ (٨) ، وَأَصْحَابَ الطَّبْرِزِينَ ، كَأَعْوَانِ
 الدَّوَّائِينَ ، وَمَنْ دَبَّ بِأَنْبِنٍ ، عَلَى رَسْمِ الْمَجَانِينِ (٩) ، وَأَصْحَابَ الْمَفَاتِيحِ (١٠) ،

- (١) الرجل يُنادي في السوق بأنه يعالج الشهوة بدواء يعرفه .
 (٢) البستوق ، والبستوقة : الإناء الذي يتخذ للماء (كاللدورق والقلة)
 ومعنى هذا الرجل الذي يَدْخُلُ البيوت ويبيده هذا ، فإن عَثَرَ به أحد قال : إني
 أريد أن تملأوا لي هذا ماء ، وإذا لم يعثر به ووجد شيئاً أخذه وانطلق .
 (٣) أصحاب البساتين : الرجل يأتيك فيمتدح نفسه بالمهارة في خِدْمَةِ
 البهاتين والجنسكة في القيام عليها ، ثم لا يزال بك حتى تُوكِّيه شؤن بستانك ،
 فإذا تولاه سرق ما شاء بدون أن يشته فيه أحد .
 (٤) الروازين : جمع رَوْزَنَة ، وهي السكوة .
 (٥) ضَبَّرَ : وثب ، والصرح : البناء العالي .
 (٦) الذي معه حَبْلٌ كالسلم يرميه على الدار ثم يصعد عليه .
 (٧) الذي يصعد على الحائط ومعه سكين يضرب بها من يتعرض له .
 (٨) الذي يدخل عليك ويبيده باقة زهر ، فإن أحسست به أو همك أنه جاء
 مُهْدِياً إياها لك .
 (٩) دبَّ : أي مَشَى ، والمعنى : الذي يدخل الدور للسرقة ، فإن أبصره
 أحداً ما صاح صياح المجانين ليظن الناس به ذلك فيتركوه .
 (١٠) الذين يحملون مفاتيح كثيرة ليفتحوا بها الدور والصناديق .

وَأَهْلَ الْقُطْنِ وَالرَّبِجِ^(١) وَمَنْ يَفْتَحِمُ الْبَابَ ، عَلَى زِيٍّ مَنِ أَنْتَابَ^(٢) ،
 وَمَنْ يَدْخُلُ فِي الدَّارِ ، عَلَى صُورَةٍ مَنِ زَارَ ، وَمَنْ يَدْخُلُ بِاللَّيْلِ ، عَلَى زِيٍّ
 الْمَسَاكِينِ ، وَمَنْ يَسْرِقُ فِي الْحَوْضِ ، إِذَا أُمِّكَنَّ فِي الْحَوْضِ^(٣) ، وَمَنْ
 سَلَ بِعُودَيْنِ^(٤) ، وَمَنْ حَلَفَ بِالدِّينِ^(٥) ، وَمَنْ غَالَطَ بِالرَّهْنِ^(٦) ، وَمَنْ
 سَفَّتَجَ بِالدِّينِ^(٧) ،

(١) جماعة تجمل في أيديها قطعاً من القطن المندوف ، ثم ينفخونه ليطير
 إلى بعض البيوت ، فيدخلونها بحجة البحث عنه .
 (٢) أي الرجل الذي يدخل الدار كأنه ضيف ، فإن وجد من أهل البيت
 اشتغالا عنه سرقهم .

(٣) الذي يجي الحمامات ليسرق مَنْ يدخلها إذا نزل الحوض .
 (٤) الذي يجلس على سطح داره منتظراً ورود القافلة مثلاً ، وإذا وصلته
 مدَّ يده بعضاً إلى المتاع فأخذ منه ما شاء .

(٥) أي الذي يدعى على أحد الوجهاء والعيون مقداراً زهيداً ، ويكلفه
 الحضور أمام القاضي ليحلف على البراءة منه ، فيأنف من ذلك فيعطيه ما يدعيه .
 (٦) غالط بالرهن : الرجل يأخذ معه صندوقاً صغيراً مُغْلَقاً يُودِعُه عند آخر
 موها أن به جواهر وأشياء نفيسة ، ثم يرهنه عنده ويأخذ منه جزءاً من المال ،
 ثم لا يعود .

(٧) سَفَّتَجَ بالدين : سفتج عامل بالسفتجة ، وأصلها يشبه ما يسمى الآن
 (بوليصه) وكيفية هذا : أن الرجل يأتي رجلاً آخر قد عزم على السفر إلى
 ناحية ما ، ومعه مال ، فيقول له : لا تكلف نفسك عناء تحل هذا المال ، فأنا
 أريحك منه فأعطينيه وخذ هذه الورقة إلى فلان هناك ، فبيني وبينه معاملة ، وإذا
 وصلته أعطاك ذلك المبلغ ، ولا يكون شيء من ذلك حقيقياً .

وَمَنْ خَالَفَ بِالْكَيْسِ ^(١) ، وَمَنْ زَجَّ بِتَدْلِيسٍ ^(٢) ، وَمَنْ أَعْطَى الْمَفَالِيسَ ،
وَمَنْ قَصَّ مِنَ الْكَمْ ، وَقَالَ : انظُرْ وَاحْضِكْ ^(٣) ، وَمَنْ خَاطَ كُلِّي الصَّدْرَ ^(٤) ،
وَمَنْ قَالَ : أَلَمْ تَدْرِ ^(٥) ؟ وَمَنْ عَضَّ ، وَمَنْ شَدَّ ^(٦) ، وَمَنْ دَسَّ إِذَا عَدَّ ^(٧) ،

(١) خانف بالكيس : الرجل يذهب إلى بعض التجار فيسأومه في بضاعة ثم يخرج له كيساً به دنانير، ويهمُّ بنقده الثمن ، فيأبى التاجر لعدم رضاه بالثمن ، فيأخذ كيسه ويضعه في ثيابه ، ثم يزيد له في الثمن ، فإذا رضى أخرج له كيساً آخر يشبه الأول في لونه وحجمه ثم يعدُّ له منه فلوساً والتاجر لا يدري ، فإذا تأملها التاجر وأراد إمساكه يكون قد أفلتت .

(٢) الذي ينتقد دراهم الناس فيخفي بعضها ويضع بدلا منه زيوفاً .

(٣) الذي يقطع كفه ثم يتعلق بمن معه مال مدعياً عليه به ، فإذا رآه أحد شكاً إليه قائلاً : انظر ماذا فعل بي وأنا أطلبه بحق .

(٤) خاط على الصدر : الرجل يستصحب إبرة وخيطاً ، فإذا لقي رجلاً آخر أمسك بتلابيبه ، ونصح له أن ينتظر حتى يخيط له ثوبه على صدره ، فتأخذه الدهشة لغرابة ذلك الفعل ، وحينئذ يسأله ما يشاء ثم يفر .

(٥) « وقال : ألم تدري » : هو الرجل يأتي إلى آخر فيقول له : لقد سمعت عجيباً ، ألم يصل إليك أن فلانا جاءه سارق فأمسك به هكذا (ويمسكه) ثم ما زال السارق به حتى وصل إلى موضع النقود في ثيابه فاختمها منه ، ولا يفتأ يحدثه حتى يصنع به الذي يخبره بغرابته .

(٦) من عض : هو الرجل يلقي آخر فييدوه بالمنازعة ، فإذا اشتبك معه لا يزال بعض في موضع النقود ويقرضه بأسفانه حتى يتمكن من اختلاسها وقد انسل عنه وهو غافل .

(٧) من دسَّ إذا عدَّ : الرجل يعدُّ دراهم غيره ، وفي أثناء ذلك يأخذ جيدها ويضع بدله زيوفاً .

وَمَنْ لَيْجَ مَعَ الْقَوْمِ ، وَقَالَ: لَيْسَ ذَا نَوْمٍ (١) ، وَمَنْ غَرَّكَ بِالْأُفِّ (٢) ، وَمَنْ زَجَّ إِلَى خَلْفٍ (٣) ، وَمَنْ يَسْرِقُ بِالْقَيْدِ ، وَمَنْ يَأْلُمُ لِللَّكَيْدِ (٤) ، وَمَنْ صَافَعَ بِالنَّغْلِ (٥) ، وَمَنْ خَاصَمَ فِي الْحَقِّ (٦) ،

(١) الذي يدخل المسجد مع جماعة فيرى رجلاً نائماً عند متاعه ، فيقول : إنه ليس نائماً فلا تخفوا متاعكم لثلاثي راكم ، فيفتقر النائم ، فيتصنع النوم ، ويحسب بعضهم إليه فيأخذ متاعه ، وكأنه يختبره ليعلم أنائم هو أم لا ، فيشتد النائم في تصنعه ، ثم يذهب ذلك السارق جوار الحائط ، يوم أنه يخفي شيئاً ، ثم يخرجون جميعاً ، فإذا قام النائم يبحث عما خباها وجد حصي ومدراً :

(٢) الرجل يودع أحد التجار كيساً له فيه دراهم ، وعلى وجهها عند أوله بعض الدنانير ، ثم يحيطه طالباً كيسه ، فيفتحه أمامه ويأخذ الدنانير ، برأى منه يوم أن كل ما فيه كذلك ، ثم يحيطه ثانية فيأخذ منه بضاعة بقيمة غالية دون أن يعطيه شيئاً - والتاجر يظن أن في الكيس سداداً - ثم لا يعود إليه .

(٣) الرجل يتفق مع آخر على أن يذهب أحدهما إلى تاجر يوهمه أنه يشتري منه ، ويأخذ بعض المتاع يفحصه ، ثم يحسب الثاني فيطرحه الأول إليه بحجة من غير أن يبصره التاجر ، ثم يضطرب ويصيح شاماً فيه لا عناله ، موهاً أنه اختطفه منه ، ويكون قد ذهب .

(٤) الذي يسرق بالقيد ، ومثله الذي يألم للكيد : هو الذي يجهل في رجليه قيده ، ثم يسير به ، فإذا رأته شكاً إليك أنه كان أسيراً ، فترق له ، وتأخذه لتأويله ، فيختلس منك .

(٥) الذي يحسب رجلاً فيضربه بنعله الخلق ، فإذا خلع الثاني نعله ليضربه به خطفه وفر .

(٦) الذي يلقاك ومعك مال ، فيعرض عليك سلامة تساوى كثيراً بقليل ، وليست معه ، فإذا قال لك : هل معك الثمن ؟ فتقول : نعم ، ثم تخرجه له ، فإذا أخذه أنكرك أنه لك وجادلَكَ .

وَمَنْ عَالَجَ بِالشَّقِّ^(١) ، وَمَنْ يَدْخُلُ فِي السَّرْبِ^(٢) ، وَمَنْ يَنْتَهَزُ النَّقْبَ^(٣) ،
 وَأَصْحَابَ الْخَطَاطِيفِ ، عَلَى الْخَبْلِ مِنَ اللَّيْفِ^(٤) ، وَأَنْجَرَ الْحَدِيثُ إِلَى ذِكْرِ مَنْ
 رَدَّيْحَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ كَهْلٌ مِنْهُمْ : سَأَحَدُّكُمْ بِمَا يُضْحِكُ السَّمِيعَ ، وَيُسْبِغُ
 الْجَائِعَ ، (وذكر كلاماً غير متناسب مع الآداب فتركه تعففاً)^(٥).

(١) عالج بالشق : الرجل الذي يمتال للسرقه بشقِّ الوعاء كالكيس ونحوه
 (٢) السَّرْبُ : الحفيرة في الأرض ، ويدخل فيه : أى يختفي عن أعين
 المارة فيه ، حتى إذا وجدَ فُرْصَةً سانحة لم يألُ جهداً في انتهازها .
 (٣) ينتهز : أى يعتدُّ غنيمة وربحاً ، والنَّقْبُ : ثلم الجدار وشقُّه ، والمعنى
 إن هذا الرجل يعتقد أن شق الجدار غنيمة يجب أن ينتهزها ؛ لأنه يوصله إلى
 مقصده وهو السرقة .

(٤) الذين يجعلون خطاطفا في طرف حَبْلِ ، ويرسلونه إلى الدور ، فأى شىء
 علق به أخذوه وولوا هار بين .

(٥) إنما حذفنا الكلام الذى يحل بالآداب لأن هذا الكتاب يقرأه
 الشبان كثيراً ، ونحن نرى ألا نسمعهم مثل هذا الكلام ، ولا أن ندلم عليه ؛
 لئلا يفتلق بأذهانهم ويثبت في مخابيلهم ، عصم الله شبابنا ، وأرشدهم ، وهداهم
 إلى الخير إنه لا يهدي إلى الخير سواه .

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :
دَخَلْتُ الْبَصْرَةَ (١) ،

(١) تقدم عن البصرة (ص ١٢١) شيء ليس بالقليل ، ولسكننا نذكر هنا طرفا من ميزاتها وخصائصها ، وإن كان على بعض ذلك مسحة المبالغة :
صعد على بن أبي طالب كرم الله وجهه منبرها ، فخطب الناس ثم قال في آخر خطبته : يا أهل البصرة ، يا بقايا ثمود ، يا جند المرأة ، وأتباع البهيمة .
دعا فاتبعتم ، وعقر فانهزتم ، أما إنى أقول لارغبة فيكم ، ولا رهبة منكم ، غير أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أرض يقال لها البصرة أقوم الأَرْضِينَ قِبَلَةَ ، قَارُهَا أَقْرَأُ النَّاسِ ، وَمُتَصَدِّقُهَا أَكْثَرُ النَّاسِ صَدَقَةً ، وَتَاجِرُهَا أَعْظَمُ النَّاسِ تِجَارَةً ، مِنْهَا إِلَى قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا الْأُبْلَةُ أَرْبَعُ فَرَاسِخٍ ، يَسْتَشْهَدُ عِنْدَ مَسْجِدِهَا سَبْعُونَ أَلْفًا ، الشَّهِيدُ مِنْهُمْ كَالشَّهِيدِ فِي يَوْمِ بَارِ .

ويقال : إن لأهل البصرة ثلاثة أشياء ليس لأحد من أهل البلدان أن يدعيها عليهم : النخل ، والشاة ، والحمام ؛ أما النخل فهم أعلم خلق الله به ، وأحدقهم بإصلاحه ، وفيها من أصناف النخل ما ليس في بلد من البلدان ، وأما الشاة المعبدية فقد تباغ الشاة منها خمسين ديناراً ، وهم يحتفظون بها ، ويبالغون في اقتنائها ، ككراشم الخليل عند العرب ، وقد وصل بهم الحد إلى أن يحفظوا أن بدار فلان شاة أمها شاة بنى فلان وأبوها تيس بنى فلان ، مقدار حلبها بالعداة والعشى كذا ، وأما حمامهم فقد بانغت في الهداية أن جاءت من أقصى بلاد الروم ومن مصر إلى البصرة ، وينتهي ثمن الطائر منها إلى تسعمائة دينار ، وتباع يبيضتها بعشرين ديناراً .

وَأَنَا مُتَسِّعُ الصَّيْتِ كَثِيرُ الذِّكْرِ^(١) ، فَدَخَلَ عَلَيَّ فَتَيَانٍ ، فَمَالَ أَحَدُهُمَا: أَيْدِ
 اللَّهُ الشَّيْخَ ، دَخَلَ هَذَا الْفَتَى دَارَنَا ، فَأَخَذَ فَنَجَّ سُنَّارِ^(٢) . بِرَأْسِهِ
 دَوَّارِ^(٣) ، بَوَسَطِهِ زُنَّارِ^(٤) ، وَفَلَكَ دَوَّارِ^(٥) ، بِرَخِيمِ الصَّوْتِ إِنْ صَرَ^(٦) ،
 سَرِيعُ الْكُرِّ إِنْ فَرَ^(٧) ، طَوِيلُ الذَّيْلِ إِنْ جَرَ^(٨) ، نَحِيفُ الْمُنْطَقِ ،
 ضَعِيفُ الْمُقَرَّطِقِ^(٩) ، فِي قَدْرِ الْجَزْرِ ، مُقِيمٌ بِالْحَضَرِ ، لَا يَخْلُو مِنَ السَّفَرِ^(١٠) ،

(١) أى أنه دخلها وله شهرة واسعة، والناسُ يتناقلون أخباره ، ويتحدثون
 بشأنه ، وهذا مدعاة إقبالهم عليه وانصرافهم إليه .

(٢) فنج - بقاء فنون نجيم - حيوان يؤخذ من جلده فراء كأحسن
 ما يسكون ، وأطلقه هنا وأراد منه جلده ، والسنار - بضم أوله وتشديد ثانيه -
 السنور ، وهو الهر ، والمعنى شيء يشبه ذلك ، والراد تشبيه للمغزل بالهر ؛ لأنه
 يكون حين وجود الخيط عليه شيئا به في الصورة .

(٣) الدَّوَّارُ : الدَّوَّرَانُ ، وظاهر ذلك في المغزل لأنه كثير الدوران .

(٤) أصل الزنار : الخيط الذى يَضَعُه القَسُوسُ فى أوساطهم ، والمغزل يصنع

له دائرة من نفسه فى وَسَطِهِ .

(٥) صَرَ : صَوَّتَ ، وإِنَّكَ تَسْمَعُ للمغزل صوتا إذا دار .

(٦) أى إذا تحرك فهو سريع .

(٧) متى أدرت المغزل للمغزل طال الخيط حتى يصل المغزل الأرض .

(٨) المنطقُ : مكان المنطقة ، وهى شقَّة تلبسها المرأة وتشدُّ وسطها بها

فترسل الأثلى على الأسفل إلى الأرض ، والأسفل يجر على الأرض ، ليس لها حجرة
 ولا نيفق ولا ساقان ، والمقرطقُ : مكان القرطقة ، وهى ثوب ذو طاقٍ واحد .

(٩) أى أنه لا يتسنى العملُ به لغير المقيم ، ومع ذلك تجده مسافرا دائما

لطول حركته ودوامها ، وقوله « فى قدر الجزر » شبه المغزل بالجزرة فى الهيئة .

(١٥ - شرح مقامات البديع)

إِنْ أودِعَ شَيْتَارَةً ، وَإِنْ كُفِّ سَيْراً جَدًّا ، وَإِنْ أَجَرَ حَبِلاً مَدًّا ، هُنَاكَ
عَظْمٌ وَخَشَبٌ ، وَفِيهِ مَالٌ وَنَشَبٌ ، وَقَبْلُ وَبَعْدُ^(١) ، فَقَالَ الْفَتَى : نَعَمْ
- أَيْدَى اللَّهِ الشَّيْخِ - لِأَنَّهُ غَضَبَنِي عَلَى :

| | |
|---------------------------|---|
| مُرَهَّفٌ سِنَانُهُ | مُذَلَّقٌ أَسْنَانُهُ ^(٢) |
| أَوْلَادُهُ أَعْوَانُهُ | تَفْرِيقُ شَمَلٍ شَانُهُ ^(٣) |
| مُؤَانِبٌ لِصَاحِبِهِ | مُعَلَّقٌ بِشَارِبِهِ ^(٤) |
| مُشْتَبِكٌ الْأَنْيَابِ | فِي الشَّيْبِ وَالشَّهَابِ ^(٥) |
| حُلُوٌّ مَلِيحُ الشَّكْلِ | ضَاوٌ زَهِيدٌ الْأَكْلِ ^(٦) |
| رَامٌ كَثِيرُ النَّبْلِ | حَوْفٌ اللَّحْيِ وَالسَّبْلِ ^(٧) |

فَقُلْتُ لِلأَوَّلِ : رُدَّ عَلَيْهِ المِشْطَ لِيرُدَّ عَلَيْكَ المِغْزَلَ .

(١) المغزل يصنع من الخشب رأسه وعوده ، أو من العظم كذلك ، وقد يصنع الرأس من العظم والعود من الخشب ، والحبل : الخيط الذي يُغزَل عليه ، والنَّشَبُ : أصله المأل ، والعطف لتفخيم الشأن ، وقبل وبعد : المرادُ بهما الخير والمنفعة ، من قولهم : ليس له قبل بكذا أى طاقة ، وليس عنده بعد : أى منفعة طائلة .

(٢) مُرَهَّفٌ ومُذَلَّقٌ : معناهما محدد ، والسِّنَانُ : أصله طَرَفُ الرِّمَحِ ، واستميرهننا لأسنان المشط . (٣) أولاده : هم أسنانه ؛ لأنها تتفرع عنه وتخرج منه ، والسَّمَلُ : المجتمع ، والمشط من خصائصه أنه يفرق خُصَلِ الشعر المجتمعة .

(٤) أى أنه يقفز على صاحبه فيصل إلى رأسه أو لحيته أو شاربه .

(٥) الأنياب : هى الأسنان ، والشيب - بكسر أوله - جمع أشيب ، والمعنى أنه يحتاجه كل واحد ، لا فرَّقَ بين الشيوخ والشبان .

(٦) ضاو : أى نحيف هزيل ، وزهيد الأكل : قليله ، والمشط كذلك لأنه ضئيل ، ولا يعلَقُ به إلا قليل الشعر .

(٧) نبلة : أسنانه ، وهو كثيرها ، والسَّبِلُ - بفتح الباء - جمع سَبَلَةٍ ، وهى ما على الشارب من الشعر ، وتسكين الباء لضرورة موافقة وَزْنِ النظم .

٣٢ - المقامة الشيرازية

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

لَمَّا قَفَلْتُ مِنَ الْيَمَنِ (١) ، وَهَمَمْتُ بِالْوَطَنِ (٢) ، ضَمَّ إِلَيْنَا رَفِيقُ رَحَلِهِ ،
فَتَرَفَقْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، حَتَّى جَدَبَنِي نَجْدٌ (٣) ، وَالتَّمَمَهُ وَهْدٌ (٤) ، فَصَعَدْتُ
وَصَوَّبٌ (٥) ، وَشَرَقْتُ وَغَرَّبٌ (٦) ، وَنَدِمْتُ عَلَى مُفَارَقَتِهِ بَعْدَ أَنْ مَلَكَتَنِي
الْجَبَلُ وَحَزَنُهُ (٧) ، وَأَخَذَهُ الْغُورُ وَبَطْنُهُ (٨) ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ تَرَكَتَنِي فِرَاقُهُ ،
وَأَنَا أَشْتَاقُهُ (٩) ، وَغَادَرَنِي بَعْدَهُ (١٠) أَقَاسِي بَعْدَهُ ، وَكُنْتُ فَارِقْتُهُ ذَا شَارِقَةٍ

(١) قفلت : رجعت .

(٢) هَمَمْتُ بِالشَّيْءِ أَهْمُهُ هَمًّا : عَزَمْتُ عَلَيْهِ .

(٣) النَّجْدُ : مَا ارْتَفَعَ وَعَلَا مِنَ الْأَرْضِ .

(٤) الْوَهْدُ : مَا تَطَاوَمَنَ وَانْخَفَضَ مِنَ الْأَرْضِ .

(٥) صَعَدْتُ : سَرْتُ مَرْتَفَعًا بِمَا يَنْسَابُ مِنَ النَّجْدِ ، وَصَوَّبٌ : سَارٌ مُنْحَدِرًا

أَوْ عَلَى اعْتِدَالٍ يَتَّفِقُ مَعَ الْوَهْدِ .

(٦) شَرَقْتُ : سَرْتُ جِهَةَ الشَّرْقِ ، وَغَرَّبٌ : سَارَ جِهَةَ الْغَرْبِ .

(٧) الْجَبَلُ : الْمَرْتَفَعُ الشَّدِيدُ ، وَكَأَنَّهُ كَانَ عَلَى قِمَّةِ الْجَبَلِ .

(٨) الْمَعْنَى : إِنَّهُ أَسْفَ كَثِيرًا عَلَى مُفَارَقَتِهِ ، وَتَمَنَّى لَوْ تَمَكَّنَ مِنَ الْعُودَةِ إِلَيْهِ

وَلِقَائِهِ مَرَّةً ثَانِيَةً ، وَلَكِنَّ ابْتِعَادَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ الثَّانِي حَالٌ دُونَ هَذِهِ الْأَمْنِيَةِ .

(٩) الشُّوقُ ، وَالِاشْتِيَاقُ : نَزُوعُ النَّفْسِ إِلَى الشَّيْءِ وَإِنْدِفَاعُهَا نَحْوَهُ ، شَاقَةٌ

الشَّيْءِ - مِنْ بَابِ قَالَ - فَهُوَ شَائِقٌ ، وَذَلِكَ مَشُوقٌ ، وَشَوْقَهُ فَشَوْقٌ : أَيْ هَيِّجَ

شَوْقَهُ ، وَاشْتَاقَهُ : أَيْ هَاجَ شَوْقُهُ إِلَيْهِ ، وَالْمَعْنَى : إِنْ فَرَّاقَ ذَلِكَ الرَّفِيقَ أَثَّرَ فِي

نَفْسِي وَأَلَمَهَا ، وَاهْتَجَّاجٌ إِلَيْهِ خَوَاطِرِي .

(١٠) غَادَرَنِي : تَرَكَتَنِي ، وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الرَّفِيقِ ، أَوْ إِلَى الْفِرَاقِ ، وَبَعْدَهُ =

وَجَمالٍ، وَهَيْئَةٍ وَكَمالٍ^(١)، وَضَرَبَ الدَّهْرُ بِنَا ضَرْوبَهُ^(٢)، وَأَنَا أَمَثَلُهُ فِي كُلِّ
وَقْتٍ، وَأَتَذَكَّرُهُ فِي كُلِّ لَمَحَةٍ، وَلَا أُظَنُّ أَنَّ الدَّهْرَ يُسْعِدُنِي بِهِ وَيُسَعِفُنِي
فِيهِ، حَتَّى أَتَيْتُ شِيرَازَ^(٣)، فَبَيَّنَّا أَنَا يَوْمًا فِي حُجْرَتِي إِذْ دَخَلَ كَهْلٌ قَدِ غَبَرَ فِي
وَجْهِهِ الْفَقْرُ^(٤)، وَأَنْتَزَفَ مَاءُ الدَّهْرِ^(٥)، وَأَمالَ قَنَاتَهُ الشَّقْمُ^(٦)، وَقَلَّمَ أَظْفَارَهُ

بفتح أوله - ظرف ، والبعد - بالضم - ضد القرب ، وقد بعد - بالضم -
بعداً فهو بعيد : أى متباعد ، ومُقاساة البعد : تحمُّلُ مشقَّاته ، ومعاماة وِيلاتِهِ
وَأَلامِهِ .

(١) أى أنه غادرَهُ جَمِلاً بِهِ الطَّلعة وَسِيمَ الخَلقة ، تظهر عليه أمارات
النِّعمة وَتَحَايِلُ الرِّفاهة .

(٢) ضرب الدهر بهم ضَرْبَانًا ، ومن ضَرْبَانِهِ : كناية عن إيصال صروفه
وَيَحِنُّ إِلَيْهِمْ ، وتقول : لِمَا اللهُ زَمَانًا ضَرَبَ ضَرْبَانَهُ ، حتى ساط عليه ظَرْبَانَهُ .

(٣) شيراز : مدينة فارس العظى ، وهى مدينة جليلة عظيمة ، ينزلها الوُلاة
ولها سَعَة ورفاهة عيش ، حتى إنه ليس فيها منزل إلا ولصاحبه بستان فيه جميع
الثمار والرياحين والبقول وكلُّ ما يكون فى البساتين ، وشُرْبُ أهلها من عيون
تجرى فى أنهار ينبعدهر إليها الماء من جبال يتراكم فوقها الثلج ، وهى الآن من
بلاد إيران ، وقاعدة ولاية فارس إحدى ولايات تلك البلاد .

(٤) غَبَرَ : أثار الغبار ، والسكهل : الرجل إذا تمشَّتْ جذوةُ الشيب فى
فحمة شيباه .

(٥) انتزف الماء ، مثلاً : أخذه ولم يبق منه شيئاً ، والمراد بالماء هنا جِدَّةُ
الشباب وميِّعته .

(٦) أصل القناتة الرمح ، وكنتى بها عن ظهره ، والسَّقْمُ - بوزن سَبَبٍ أو
قَل - المرض ، وفى الحديث : « خذ مِن صَيِّتِكَ لِسَقْمِكَ » أى اعمل فى زمن
قوتك ما يفيدك حال اعتلالك ، والمراد هنا أن ظهره قد تقوَّس واخذ ودَبَ لما
نزل به من الحِنِّ وَالْألام .

الْعُدْمُ^(١) ، بَوَجْهِ أَكْسَفَ مِنْ بَالِهِ ، وَزِي أَوْحَشَ مِنْ حَالِهِ^(٢) ، وَلِثَّةٌ
نَشْفَةٌ ، وَشَفَّةٌ قَشْفَةٌ^(٣) ، وَرَجُلٌ وَحِلَةٌ ، وَيَدٌ مَحَلَةٌ^(٤) ، وَأَنْيَابٌ قَدَّ جَرَعَهَا الضَّرْبُ
وَالْعَيْشُ الْمُرُّ^(٥) ، وَسَلَّمَ فَازْدَرْتُهُ عَيْنِي ، لِكِنِّي أَجَبْتُهُ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا
خَيْرًا مِمَّا يُظُنُّ بِنَا^(٦) فَبَسَّطَتْ لَهُ أُسْرَةً وَجِهِي ، وَفَتَقَتْ لَهُ سَمْعِي^(٧) ،

(١) الأظفار : جمع ظفرٍ ، وتكون به القوة والشدة والبطش ، ومنه « أظفار
المنية » على رأى ، وإذا كان الإملاقُ قد قَلَّمَهَا فقد أَذْهَبَ بَطْشَهُ ، فهو كناية
عن ضَعْفِهِ وَهَوَانِ حَالِهِ بَعْدَ مَا نَزَلَ بِهِ ، وَالْعُدْمُ - بضم فسكون - الفقر .

(٢) يقال : فلان كاسفُ البالِ ، وذلك إذا كان سَيِّءَ الحَالِ رَدِيئَةً ، قال الشاعر :
إِنَّمَا الْمَيْتُ مَنْ يَعْيشُ كَثِيبًا كَاسِفًا بِاللَّهُ قَلِيلَ الرِّخَاءِ
وَأَوْحَشَ : صار ذا وَحْشَةٍ .

(٣) اللِّثَةُ : اللحمَةُ التي تحيط بالأسنان ، ونشفها ذهب ما فيها من الرطوبة
والبلاهة ، والشَفَّةُ معروفة ، وقَشْفَةٌ : أى قذَعَلَاها القَشْفُ وهو الخشونة التي
تنشأ عن الجوع ونحوه .

(٤) رَجُلٌ وَحِلَةٌ : أى عليها الوحل وهو الطين ، وَيَدٌ مَحَلَةٌ : أصابها
لِلْمَحَلِّ وهو الجذبُ والفقر ، وفي نسخة الشيخ « مَحَلَةٌ » بالجيم ، أى مكدودة .
(٥) أى أن أمره قد تغير إلى بؤس شديد وضنك مُلْأَزِمٌ .

(٦) المعنى : إن ظاهر حاله دعانى إلى التفرز منه وإنكاره ، وإنه استراب
ذلك منى واستبشعته ، فمرَّضَ بِي لِأَقْدَرِهِ قَدْرَهُ ، وَأَقْوَمُ لَهُ بِمَا تَسْتَوْجِبُهُ مَكَانَتُهُ
من التجلة والأحترام .

(٧) بَسَّطَتْ لَهُ أُسْرَةً وَجِهِي : ضحكته له ، ولقيته بالبشرِ والطلاقة ، وفتقت
له سمعى : كناية عن الإقبال عليه ، والمعنى : إننى حينما سمعت ألفاظه غيرت
سبيلى فى ملاقاته ، واستبدلت جفائى ونفرتى وانصرافى عنه ، بالملاطفة والدعابة
والتوجه إليه .

وَقُلْتُ لَهُ : إِيَّاهُ (١) ، فَقَالَ : قَدْ أَرْضَعْتُكَ ثُدَى حُرْمَةٍ ، وَشَارَكْتُكَ عِنَانَ عِصْمَةٍ ، وَالْمَعْرِفَةَ عِنْدَ الْكِرَامِ حُرْمَةً ، وَالْمَوَدَّةَ لِحِمَّةٍ (٢) ، فَقُلْتُ : أَبَلَدِي . أَنْتَ أُمُّ عَشِيرِي (٣) ؟ . فَقَالَ : مَا يَجْمَعُنَا إِلَّا بَلَدُ الْغُرَبَةِ (٤) ، وَلَا يَنْظِمُنَا إِلَّا رَحِمُ الْقُرْبَةِ (٥) ، فَقُلْتُ : أَيُّ الطَّرِيقِ شَدَّانَا فِي قَرْنٍ (٦) ؟ قَالَ : طَرِيقُ الْيَمَنِ .

(١) إياه : اسم فعل معناه طلب الزيادة من الحديث ، فإن كان منوناً فالزيادة المطلوبة به من مطلق حديث ، وإن كان بلا تنوين فمن كلام معين هو ما كان ممهوداً بين المتخاطبين .

(٢) أى أنه حدثني عن نفسه ، وعرفني بسابق صلته ، وبَسَطَ لِي أَمْرَهُ مَعِيَ وَمُودَتَهُ لِي ، وَاسْتَمْتَهْضَ فِي نَفْسِي آثَارَ ذَلِكَ ، وَنَاشَدَنِي أَلَا أُنْسِي قَدِيمَ مَعْرِفَتِهِ .
(٣) أى هل الجامعة بيني وبينك الاشتراك في البلد أم الاشتراك في العِشْرَةِ التي هي الصداقة ؟ وربما صح في عَشِيرِي النسبة إلى العشيرة - وهي القبيلة - وهو أقرب ، لمكان الياء ، وإن كان القياسُ في النسبة إلى مثل عشيرة وقبيلة وجهينة مما فيه تاء التأنيث وياء قبلها حذف الياء والتاء معاً ، لكن أجاز صاحب أدب الكاتب عَدَمَ حَذْفِ الْيَاءِ إِذَا كَانَ الْاسْمُ الْمُنْسُوبُ إِلَيْهِ غَيْرَ مَشْهُورٍ ، وَمَلَخَصَ مَا فِيهِ أَنْكَ إِذَا أُرِدْتَ النَّسَبَ إِلَى اسْمٍ عَلَى فَعِيلٍ أَوْ فَعِيلَةٍ كَرَبِيعَةٍ وَتَقِيفٍ وَحَنْبِيفَةٍ وَعَتِيكَ أَوْ عَلَى فَعِيلٍ أَوْ فَعِيلَةٍ كَقُرَيْشٍ وَجُهَيْنَةَ وَهُذَيْلٍ وَمُزَيْنَةَ قُلْتُ : رَبِّي وَتَقِيفِي وَحَنْفِي وَعَتْسَكِي وَقُرَيْشِي وَجُهْنِي وَهُذَلِي وَمُزْنِي ، فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْاسْمُ مَشْهُورًا لَمْ تَحْذَفِ الْيَاءُ فِي الْأَوَّلِ وَلَا الثَّانِي ، وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ هَذَا الْكَلَامَ لِأَنِّي لَمْ أَرِ جَوَازَ عَدَمِ الْحَذْفِ لغيره .

(٤) المعنى : لست من بلدك ولا من عشيرتك ، ولكنني رجل اشتركت معك في الاعتراب عن الوطن والنزوح عن مقر الأهل .

(٥) القرية : الأفتراق في المسكن ، والمراد به ما يعم طريق السفر .

(٦) القَرْنُ ومثله القِرَانُ : أصله الحبل يُرَبَطُ بِهِ الْبَعِيرَانُ ، وَتَقُولُ : أَعْطَيْتَهُ بَعِيرَيْنِ فِي

قَرْنٍ وَفِي قِرَانٍ مَعًا ، مَا خُوِذَ مِنَ الْاِقْتِرَانِ ، وَهُوَ الْاِجْتِمَاعُ ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلصَّاحِبِ قَرَيْنِ .

قال عيسى بن هشام : فقأت : أنت أبو الفتح الإسكندري ؟ فقال :
 أنا ذاك ، فقأت : شدا ما هزلت بعدي ا وحلت عن عهدي (١) ! فانفض
 إلى جملة حالك ، وسبب اختلالك ، فقال : نكحت خضراء دمنية (٢) ،
 وشقيت منها بابنة ، فأنا منها في محنة ، قد أكلت حر يبتى (٣) ، وأراقت
 ماء شبيبتي ، فقأت : هلا سرحت ، واسترحت (٤) .

ثم ذكر كلاماً يندى له وجه الأدب فتمعقنا عن ذكره والخوض فيه .

(١) أي ما أشد هزالك وضعفك ، وما أكثر نحافتك وضالة جسمك ،
 فلقد تعيرت عما عرفتك ، ويقال : حال فلان يحول ، إذا تغير ، ومنه قول عمر
 ابن أبي ربيعة ، وكلام البديع مأخوذ منه :

لئن كان إياه لقد حال بعدنا عن العهد ، والإنسان قد يتغير

(٢) خضراء الدمن : مفسرة في الحديث : « إياكم وخضراء الدمن ، قالوا :
 وما هي يا رسول الله ؟ قال : المرأة الحسنة في المنبت الشوء » والمقصود منه
 اختيار المرأة من أصل طيب وأرومة حسنة ، وقد ربيت تربية صالحة .

(٣) حر يبتى الرجل : ماله الذي يعيش منه .

(٤) سرحت : طلقت هذه المرأة ، وفي الكتاب العزيز : ﴿ فإمسك

بمرف ، أو تسريح بإحسان ﴾ .

٣٣ - المَقَامَةُ الحُلُوتِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :
لَمَّا قَفَلْتُ مِنَ الحَجِّ فَيَمَنْ قَفَلَ (١) ، وَنَزَلْتُ مَعَ مَنْ نَزَلَ (٢) ، قُلْتُ
لِفُلَايِي : أَجِدُ شَعْرِي طَوِيلًا ، وَقَدْ انْسَخَ بَدَنِي قَلِيلًا (٣) ، فَأَخْتَرْنَا حَمَامًا
نَدْخُلُهُ ، وَحَجَامًا نَسْتَعْمِلُهُ (٤) ،

(١) قفل : رجع ، وتقول : قَفَلَ الجندُ من الغزو إلى أوطانهم قَفْلًا وقُفُولًا ،
وهذا وقت القفل : أى العود والرجوع ، ورأيت القفل : أى جماعة العائدين ، كما
يقال القمَد لجماعة القاعدين ، ويقال : « أَقْفَلَهُمُ الأميرُ » أى رَجَمَهُم ورددَهُم ، والمعنى :
حينما رَجَعْتُ إلى وطني عائداً من مكة بمد أداء فريضة الحج مع الذين رجعوا .
(٢) حُلُوَان : اسم يقع على قريتين وبلدين ، إحداها فى آخرِ حدود السَّوَادِ
مما يلي الجبال من بغداد وهى المقصودة هنا .

(٣) يحرم على الإنسان متى نَوَى الحج وأحرَمَ به أن يخلق شعره أو يقصره
حتى يؤدى شعائره ، فإذا أدَّى شعائره تحل ، وحينئذٍ يجوز له ذلك ونحوه ،
والحكمة فى مثل ذلك لإظهار تمام الطاعة إلى الله بالخروج عن مظاهر النعمة
وعلائم الرفاهية بكل أنواعها ، والتجرد من أسباب الاغترار والدَّعة ، ومدة الحج
قد تكون طويلة بحيث لا يستطيع المرء أن يتممَّلبسها أو يبطلها فى تنظيف
نفسه وإزالة ما طال من شعره ، وعيسى قد زاد على مدة الحج بالمدّة التى قضاه
فى طريقه إلى حُلُوَان ، فهو لا شكَّ أشدُّ احتياجاً وأكثر افتقاراً للنظافة .

(٤) الحِجَامَةُ فى الأصل : مَخْنَصَةٌ بامتصاص الدم ، والحِجَامُ : المَصَّاصُ ،
والمِحْجَمُ والمِحْجَمَةُ - بوزان منبر ومكنسة : آلة الحجامة التى يجتمع فيها الدم عند
المص ، والمِحْجَمُ أيضاً : المِشْرَطُ الذى يتخذة الحجام ، والمِشْرَطُ حِجَمٌ - من بابى =

وَلْيَكُنِ الْحَمَامُ وَاسِعَ الرُّقْعَةِ (١) ، نَظِيفَ الْبُقْعَةِ (٢) ، طَيِّبَ الْهَوَاءِ ،
 مُمْتَدِّلَ الْمَاءِ (٣) ، وَلْيَكُنِ الْحَجَامُ خَفِيفَ الْيَدِ ، حَدِيدَ الْمَوْسَى ، نَظِيفَ
 الثِّيَابِ ، قَلِيلَ الْفُضُولِ (٤) ، فَخَرَجَ مَائِيًا ، وَعَادَ بَطِيًّا (٥) ، وَقَالَ :
 قَدْ اخْتَرْتُهُ كَمَا رَسَمْتِ (٦) ، فَأَخَذْنَا إِلَى الْحَمَامِ السَّمْتِ (٧) ، وَأَتَيْنَاهُ فَلَمْ تَرَ
 قَوَامَهُ (٨) ، لَكِنِّي دَخَلْتُهُ وَدَخَلَ عَلَى أُنْرِي رَجُلٌ وَعَمَدَ إِلَى قِطْعَةٍ
 طِينٍ فَلَطَّخَ بِهَا جَبِينِي ، وَوَضَعَهَا عَلَى رَأْسِي ، ثُمَّ خَرَجَ وَدَخَلَ آخَرَ
 فَجَعَلَ يَدْلِكُنِي ذَلِكَ يَكْدُ الْعِظَامِ (٩) . وَيَعْمِزُنِي نَعْمَزًا يَهْدُ الْأَوْصَالَ (١٠)

= ضرب ونصر - أى صنع ذلك، واحتججتم : طلب الحمامة ، ولكنها استعملت
 بعد ذلك فيما هو أعم من هذا ، ومن الخلافة التي هي في الأصل خاصة بقص
 الشعر ، وهذا مراد البديع ، ولعل منشأ هذا أن الذى يتولى الأسرين واحد .

(١) المراد أن يكون كبير المساحة ؛ لأن المكان الضيق تتأذى النفس منه ،
 خصوصاً مع الحرارة الناشئة عن تسخين الماء ، والعرب تضرب المثل في الشدة
 والكرب بيت الحمام . (٢) البُقْعَة : المكان الذى يُسْتَنْقَع فيه الماء .

(٣) أى : يكون وسطاً بين البرودة والسخونة .

(٤) الفضول ، في الأصل : جمع فضل ، وهو الزيادة ، والمراد الكلام

الذى يزيد عن قدر الحاجة في التفام .

(٥) مَلِيًّا : أى قدراً طويلاً من الزمن ، وقد فسّر ذلك بما بعده .

(٦) أى : أنى فعلت الذى أمرتني به ، وسرت على رغبتك .

(٧) السَّمْت ، هنا : الجهة ، والمعنى إننا سرنا مُتَّجِهِينَ نحو الحمام لنقضى

منه لُبّاً نتنا . (٨) قَوَامَهُ : القائم عليه الذى يراعى شؤونه ، والمراد صاحبه .

(٩) يَكْدُ : يُتَعَب ، والمعنى إنه كان يباليغ في ذلك غير مُرَاعٍ أنه يتضرر

ويتأذى بهذا الدلك .

(١٠) الأوصال : المفاصل ، ويهدُّ : يكسر ، وتقول منه : هدّنى هذا الأمر ،

=

وهدّ ركنى - إذا بلغ منك وكسرك ، قال النمر :

وَيُصَفِّرُ صَفِيرًا يَرِشُ الْبِزَاقَ (١) ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى رَأْسِي يَنْفِيسُهُ ، وَإِلَى الْمَاءِ
يُرْسِلُهُ (٢) ، وَمَا لَبِثَ أَنْ دَخَلَ الْأَوَّلُ فَحَيًّا أَخَذَعَ الثَّانِي بِمَضْمُومَةٍ فَفَقَعَتْ
أَنْيَابُهُ (٣) ، وَقَالَ : يَا لَكَعُ مَالِكَ وَلِهَذَا الرَّأْسُ وَهُوَ لِي (٤) ؟ ثُمَّ عَطَفَ الثَّانِي
عَلَى الْأَوَّلِ بِجَمُوعَةٍ هَتَكَتْ حِجَابَهُ (٥) ، وَقَالَ : بَلْ هَذَا الرَّأْسُ حَقِّي

= عَلَى فَاجِعِ هَذِهِ الْعَشِيرَةِ فَقَدَهُ بِهِ أَعَانَ النَّاعِي الْخَدِيثَ الْمُجَمَّعًا
وتقول أيضاً : هذا رجل هَدَّكَ من رجل - إذا وصفته بالجلد والشدة -
أى غَلَبَكَ وقَهَرَكَ وكسرك ، ومثله قولهم هذه امرأة هَدَّكَ من امرأة ، وكذلك
المثنى والجمع ، وقد يقال : هذه امرأة هَدَّتْكَ مِنْ امْرَأَةٍ ، ويقال في المثنى على
هذا : هَدَّاكَ ، وهَدَّتَاكَ ، والأول أكثر ، وخلاصته أن تعامله معاملة المصدر ،
لا الفعل .

(١) البَصَاقُ والبَسَاقُ والبِزَاقُ - والثلاثة بوزن غراب - ماء الفم إذا
خرج منه . (٢) أرسل الماء : صبَّه .

(٣) الأَخَذَعَ : عَرِقَ فِي الْعُنُقِ ، قَالَ الصِّمَّةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ :

تَلَقَّتْ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُنِي وَجِئْتُ مِنَ الْإِعْيَاءِ لَيْتَا وَأَخَذَعَا

والمضمومة : اليد إذا انطبقت أصابها ، سميت بذلك لانضمام بعض أجزائها

إلى بعض ، والأنياب : جمع ناب ، وهو معروف ، وقمعتها : جمعتها بحيث
يُسْمَعُ لها صوت لتضاربها ، والمعنى : إنه لم يمض وقتٌ طويل منذ ابتداء الرجل
الثاني بدلكي ، حتى عاد الأول فوجده قد استأثر بي ، فضربه بجمع يده ضربةً
سمع لها اصطكاك في أنيابه . (٤) المعنى : أي شيء سَوَّغَ لك أن تدلك
صاحب ذلك الرأس ، وأنا الذي أستحق هذا ؛ لأنني أول مَنْ لقيه .

(٥) عطف عليه : أي حَمَلَ عَلَيْهِ وَكَّرَّ ، وَالْجَمُوعَةُ : مِثْلُ الْمَضْمُومَةِ ، وَأَرَادَ

مِنْ حِجَابِهِ قُوَّتَهُ ؛ لِأَنَّهَا تَحْجُبُ صَاحِبَهَا عَنْ اتِّهَامِ النَّاسِ لِحَرَمَاتِهِ وَتَعْدِيهِمْ عَلَيْهِ ،
وَالْمَعْنَى إِنْ هَذِهِ الضَّرْبَةُ أضعفت قوته وهونت أمره .

وَمِلْكِي وَفِي يَدِي ^(١) ، ثُمَّ تَلَكَمَا حَتَّى عَمِيَا ، وَتَمَّ كَمَا لِمَا بَقِيَا ^(٢) ، فَأْتِيَا
صَاحِبَ الْحَمَامِ ، فَقَالَ الْأَوَّلُ : أَنَا صَاحِبُ هَذَا الرَّأْسِ ؛ لِأَنَّ لَطَخْتُ
جَبِينَهُ ، وَوَضَعْتُ عَلَيْهِ طِينَهُ ، وَقَالَ الثَّانِي : بَلْ أَنَا مَالِكُهُ ؛ لِأَنِّي دَلَكْتُ
حَامِلَهُ ، وَغَمَزْتُ مَفَاصِلَهُ ، فَقَالَ الْحَمَامِيُّ : ائْتُونِي بِصَاحِبِ الرَّأْسِ أَسْأَلُهُ ،
أَلَيْكَ هَذَا الرَّأْسُ أَمْ نَهْ ، فَأْتِيَانِي وَقَالَ : لَنَا عِنْدَكَ شَهَادَةٌ فَتَجَسَّمْ ^(٣) ،
فَقُمْتُ وَأْتَيْتُ ، سَدَّتْ أُمُّ أَبِيتُ ^(٤) ، فَقَالَ الْحَمَامِيُّ : يَا رَجُلُ لَا تَقُلْ غَيْرَ
الصِّدْقِ ، وَلَا تَشْهَدْ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَقُلْ لِي : هَذَا الرَّأْسُ لِأَيِّهِمَا ، فَقُلْتُ : يَا عَافَاكَ
اللَّهُ ^(٥) هَذَا رَأْسِي ، قَدْ صَحَّبَنِي فِي الطَّرِيقِ ، وَطَافَ مَعِيَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ^(٦) ،
وَمَا شَكَّكَتُ أَنَّهُ لِي ، فَقَالَ لِي : أَسْكُتْ يَا فُضُولِي ، ثُمَّ مَالَ إِلَى أَحَدٍ

(١) أى : إذا كنت تدعى أن لك وحدك حق التصرف فيه بمجرد

ملاقاتك له أولا ولطخك الطين عليه فإن لي حقا هو آكد من حقك ، وهو أنه
تحت حوزتي الآن وفي تصرفي .

(٢) يقال للرجل إذا تعب من شيء وناله الإعياء منه : عى به ، والمعنى

لإهما تضاربا ضربا شديدا ، حتى أنهك كل واحد منهما الآخر ، وكاد الموت
يأتي عليهما ، ثم تراضيا على أن يرفعا أمرهما لمن يفصل بينهما .

(٣) أى تحمل المشقة التي تلحقك في السير لأداء هذه الشهادة أمام صاحب

الحمام .

(٤) أى : أنتى سرت إلى الحماني إن طائما وإن مُكرها .

(٥) عافاك الله : جملة المقصود منها الدعاء له بالمعافاة والسلامة ، وفيها إشارة

إلى أن الذي حلَّ به مما يشبه السقم ولا يقلُّ خطبه عن المرض .

(٦) العتيق أصله القديم ، والمراد به الكعبة المكرمة ، سميت بذلك لقدم

عهدا ، وفي التنزيل : « وَلَيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ » .

الْخَصْمَيْنِ فَقَالَ : يَا هَذَا إِلَى كَمْ هَذِهِ الْمُنَافَسَةُ مَعَ النَّاسِ ، يَهَذَا الرَّأْسِ ؟
نَسَلَّ عَنْ قَلِيلٍ خَطَرِهِ ، إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ وَحَرِّ سَقَرِهِ ^(١) ، وَهَبَ أَنْ هَذَا
الرَّأْسَ لَيْسَ ، وَأَنَا لَمْ نَرَ هَذَا التَّيْسَ ^(٢) .

قال عيسى بن هشام : قَعَمْتُ مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ خَجَلًا ، وَلَبِسْتُ الثِّيَابَ
وَجَلًّا ^(٣) ، وَأَنْسَلَّتْ مِنَ الْحَمَامِ عَجَلًا ، وَسَبَبْتُ الْفَلَامَ بِالْمَضِّ وَالْمَصِّ ^(٤) ،
وَدَقَقْتُه دَقَّ الْجِصِّ ^(٥) وَقَلْتُ لِآخَرَ : أَذْهَبَ فَأُنَبِّئُ بِحَجَامٍ يَحُطُّ عَنِّي هَذَا
الثَّقَلُ ، فَجَاءَنِي بِرَجُلٍ لَطِيفِ الْبِنْيَةِ ^(٦) ، مَلِيحِ الْحَلِيَةِ ^(٧) ،

(١) اَلْخَطَرُ : الشَّانُ وَالْمَنْزَلَةُ ، أَوْ هُوَ الْجَفَلُ ، وَأَصْلُهُ الَّذِي يُجْعَلُ لِلْسَّابِقِ
مِنَ الْخَيْلِ فِي الْحَلَابَةِ ، وَالْمَعْنَى : هَوِّنْ عَلَى نَفْسِكَ شَأْنَ هَذَا الرَّأْسِ ، وَلَا تَجْعَلْ
لَهُ فِي قَلْبِكَ الْمَنْزَلَةَ الَّتِي تَحْمِلُكَ عَلَى الْمُنَافَسَةِ ، وَاسْأَلْ ذَلِكَ بِالذَّهَابِ إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ
وَنَارِهِ الْحَامِيَةِ ؛ فَهُوَ نَهَايَةُ فِي تَفْطِيحِ حَالِهِ .

(٢) خَبَرَ لَيْسَ مَحْذُوفٌ ، أَيْ لَيْسَ مَوْجُودًا ، أَوْ تَجْعَلُ لَيْسَ بِمَعْنَى الْعَدَمِ ،
وَالْمَعْنَى : افْرَضْ هَذَا الرَّأْسَ عَدَمًا لِأَوْجُودِهِ .

(٣) الْوَجَلُ : الْخَوْفُ ، وَوَجِلٌ صِفَةٌ مُسَبَّهَةٌ مِنْهُ مَعْنَاهَا خَائِفٌ ، وَالْخَجَلُ :
انْكَسَارٌ فِي النَّفْسِ تَظْهَرُ آثَارُهُ بِحُمْرَةِ الْوَجْهِ وَنَحْوِهَا .

(٤) فِي الْحَدِيثِ : « مَنْ تَمَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعِضُوهُ بَيْنَ أَبِيهِ
وَلَا تَكْنُؤُوا » أَيْ قَوْلُوا لَهُ : عَضَّ هَنْ أَيْبِكَ . وَمَعْنَى سَبَبْتَهُ بِالْمَضِّ ، قَلْتُ لَهُ
ذَلِكَ ، وَالْمَصُّ أَنْ يَقُولَ لَهُ : يَا مَاصٌّ هَنْ أَمْكُ .

(٥) أَيْ ضَرِبْتُهُ ضَرْبًا أَلِيمًا .

(٦) الْبِنْيَةُ : الْجِسْمُ ، وَأَصْلُهَا هَيْئَةُ الْبِنَاءِ ، سُمِّيَ بِهَا الْجِسْمُ لِانْتِزَامِ بَعْضِ
أَجْزَائِهِ إِلَى بَعْضٍ مِثْلَ تَضَامِّ الْبِنَاءِ .

(٧) الْحَلِيَةُ : الشَّكْلُ وَالصُّورَةُ ، وَرَبَّمَا أُرِيدَ مِنْهَا مَا يَتَجَمَّلُ بِهِ مِنْ

ثِيَابٍ وَنَحْوِهِ .

في صُورَةِ الدُّمِيَّةِ (١) ، فَارْتَحَتْ إِلَيْهِ ، وَدَخَلَ فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ ، وَمِنْ أَىِّ بَلَدٍ أَنْتَ ؟ قُلْتُ : مِنْ قُمْ (٢) ، فَقَالَ : حَيَّاكَ اللهُ مِنْ أَرْضِ النُّعْمَةِ وَالرَّفَاهَةِ (٣) وَبَلَدِ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ (٤) ، وَلَقَدْ حَضَرْتُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ جَامِعَهَا وَقَدْ أَشْعَلَتْ فِيهِ الْمَصَابِيحُ ، وَأُقِيمَتِ التَّرَاوِيحُ ، فَأَشَعَرْنَا إِلَّا بِمَدِّ النَّيْلِ ، وَقَدْ أَتَى عَلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ (٥) ، لَكِنَّ صَنَعَ اللهُ لِي بِحُفِّ قَدِّ كُنْتُ لَبِسْتُهُ رَطْبًا فَلَمْ يَحْضُلْ طِرَازُهُ عَلَى كُمَّهِ (٦) ، وَعَادَ الصَّبِيُّ إِلَى أُمِّهِ ، بَعْدَ أَنْ صَلَّىتِ الْعَتَمَةَ وَأَعْتَدَلَ الظِّلَّ (٧) ، وَلَكِنْ كَيْفَ كَانَ حَجُّكَ ؟ هَلْ قَضَيْتِ مَنَاسِكَهُ كَمَا وَجَبَ ، وَصَاحُوا : الْعَجَبُ الْعَجَبُ (٨) ؟ فَانْظَرْتُ إِلَى الْمَنَارَةِ ، وَمَا أَهْوَنَ الْحَرْبَ عَلَى النَّظَّارَةِ (٩) ، وَوَجَدْتُ النَّهْرِيَّسَةَ عَلَى حَالِهَا ، وَعَلِمْتُ أَنَّ الْأَمْرَ بِقَضَاءِ مِنَ اللهِ وَقَدَرٍ ، وَإِلَى رَبِّي هَذَا الصُّجْرُ وَالْيَوْمُ وَعَدُّ ، وَالسَّبْتُ وَالْأَحَدُ ، وَلَا أَطِيلُ ،

(١) الدُّمِيَّةُ : الصورة من عاج أو رُخَامٍ ونحوهما ، والجمع دُمِيٌّ كدُمِيَّةٍ ومُدِيٌّ ،

تَشَبَّهُ بِهَا النِّعْدُ الْحَسَانُ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ :

أَقُولُ دُمِيٌّ وَهِيَ الْحِسَانُ الرَّعَائِبُ

(٢) قُمْ : بلدة من بلاد إيران .

(٣) الرِّفَاهَةُ وَالرَّفَاهِيَّةُ - بِتَخْفِيفِ يَاءِهَا - وَالرُّفَهِيَّةُ كَبْلُثِيَّةٌ : رَعْدُ الْعَيْشِ

وَلِينُهُ وَخَصْبُهُ ، وَهُوَ رَفِيَّةٌ ، وَرَافَةٌ ، وَرَفَاهَانٌ ، وَمُتَرَفِّهُ : مُسْتَرِيحٌ مُتَمَتِّعٌ .

(٤) الْجَمَاعَةُ : كَلِمَةٌ كَثُرَ اسْتِعْمَالُهَا عِنْدَ عُلَمَاءِ الشَّرْعِ فِي الْفِرْقَةِ الَّتِي تَضُمُّ

السُّوَادَ الْأَعْظَمَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَيُقَابِلُهَا عِنْدَهُمُ : الْمُعْتَزَلَةُ ، وَالْجَبْرِيَّةُ ، وَغَيْرُهُمَا .

(٥) السُّكْلَامُ هَذَيَانٌ وَخُرَافَةٌ ، وَإِلَّا فَالنَّيْلُ بِمِصْرَ .

(٦) لَيْسَ لِلْخَفِّ طِرَازٌ : أَىِّ عِلَامَاتٍ ، وَلَا كَمٍ ، وَلَكِنَّهُ يَهْرَفُ

(٧) أَيْنَ صَلَاةِ الْعَتَمَةِ - أَىِّ الْعِشَاءِ - مِنْ اعْتِدَالِ الظِّلِّ وَهُوَ يَكُونُ نَهَارًا ؟

(٨) مَنَاسِكُ الْحَجِّ : مَا كَلَّفَنَا الشَّارِعُ بِأَدَائِهِمِنَ الْأَعْمَالِ فِي مَا كُنْهَا الْعَيْنَةُ لَهَا .

(٩) النَّظَّارَةُ : هِيَ الْجَمَاعَةُ يَرْتَقِبُونَهَا مِنْ بَعِيدٍ ، وَاحِدُهُمْ نَظِيرٌ .

وَمَا هَذَا أُنْقَلُ وَالْقِيلُ ؟ وَلَكِنْ أَحْبَبْتُ أَنْ تَقْلَمَ أَنَّ الْمُبْرَدَ فِي النَّحْوِ
حَدِيدُ الْمَوْسَى ^(١) فَلَا تَشْتَغِلْ بِقَوْلِ الْعَامَّةِ ؛ فَلَوْ كَانَتْ الْأِسْتِطَاعَةُ

(١) هذا ضرب من المذيان أيضا ، وإن كان يصح أن يقال : إن معنى كونه حديد الموصى في النحو أنه سريع المضاء فيه ، قوى المعارضة ، بين الحجة . والمبرد هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر ، الثمالي ، نسبة إلى ثمالة بن سلمة بن كعب بن الحارث بن كعب قبيلة من الأزدي ، صاحب «الكامل» و «المتنضب» و «التعازي» وغيرها ، كان شيخ النحو والعربية ، وإليه انتهت الزعامة فيهما بعد طبقة شيوخه كالجزمي والملازمي ، وكان من أهل البصرة ، وتلقى عن أبي عمرو الجرمي وأبي عثمان الملازمي وأبي حاتم السجستاني ، وغيرهم من أهل العربية ، وكان يُعَوَّلُ على الملازمي ، ويقال : إنه بدأ بقراءته كتاب سيبويه على الجرمي وختمه على الملازمي ، وكان إسماعيل القاضي - وهو أقدم مولدا منه - يقول : ما رأيت محمد بن يزيد مثل نفسه ، وأخذ عنه الصولي ونفطويه النحوي وأبو علي الطوماري وجماعة كثيرة ، وكان حسن المحاضرة ، مليح الأخبار ، كثير النوادر ؛ وقال أبو سعيد السيرافي : سمعت أبا بكر بن مجاهد يقول : ما رأيت أحسن جوابا من المبرد في معاني القرآن فيما ليس فيه قول للمتقدم ، وسمعت يقول : لقد فاتني منه علم كثير لقضاء ذمام ثعلب ، قال السيرافي : وسمعت نفطويه يقول : ما رأيت أحفظ لأخبار بغير أسانيد منه ومن أبي العباس ابن الفرات ، وقال أبو سعيد : وقد نظر في كتاب سيبويه في عصره جماعة لم يكن لهم كتبناهيه مثل أبي ذكوان القاسم بن إسماعيل ومثل أبي علي بن ذكوان ومثل أبي يعلى بن أبي زرعة من أصحاب الحديث ، ومثل الطبري ومثل أبي عثمان الأشناداني وأبي بكر محمد بن إسماعيل المعروف بمبرممان وغيرهم ، وقال أبو عبد الله الفجع : كان المبرد لعظم حفظه اللغة واتساعه فهمهم ، فتواضعنا على مسألة لا أضل لها نساله عنها =

.. .. .

= لننظر كيف يجيب ! وكنا قبل ذلك تَمَارِينًا في عروض بيت الشاعر :
 أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتُ فَاسْتَبَقِ بَعْضَنَا حَنَا نَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ
 فقال قوم : من البحر الفلاني ، وقال آخرون : من البحر الفلاني ، فقطعناه
 وتردد على أفواهنا تقطيعه ومنه (ق بَعْضَنَا) فقلت له : أَيْدِكَ اللهُ تَعَالَى ،
 مَا الْقَيْعُضُ عِنْدَ الْعَرَبِ ؟ فقال : الْقَطْنُ ، يصدق ذلك قول الشاعر :

* كَأَنَّ سَنَامَهَا حُشِي الْقَبْعُضَا *

قال : فقلت لأصحابي : تَرَوْنَ هَذَا الْجَوَابَ وَالشَّاهِدَ ؟ إِنْ كَانَ صَحِيحًا
 فَهُوَ عَجَبٌ ، وَإِنْ كَانَ اخْتَلَقَ الْجَوَابَ فِي الْحَالِ فَهُوَ عَجَبٌ !
 رُوِيَ أَنَّ أَبَا الْعَبَّاسِ ثَعْلَبًا وَصَمَّ أَبَا الْعَبَّاسِ الْمُبَرَّدَ بِكَلَامٍ قَبِيحٍ ؛ فَبَلَغَ ذَلِكَ
 الْمُبَرَّدَ فَأَنْشَدَ :

رُبَّ مَنْ يَعْينِي حَالِي وَهُوَ لَا يَجْرِي بِيَالِي
 قَلْبُهُ مَلَانٌ مِنِّي وَفُؤَادِي مِنْهُ حَالِي

فلما بلغ ثعلبا ذلك لم يُسْمِعْ منه بعد ذلك في حقه كلمة قبيحة .

وحكى أبو بكر بن السراج عن محمد بن خلف قال : كان بين أبي العباس
 المبرد وأبي العباس ثعلب من المنافرة مالا خفاء به ؛ ولكن أهل التحصيل
 يَفْضُلُونَ الْمُبَرَّدَ عَلَى ثَعْلَبٍ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ :

رَأَيْتُ مُحَمَّدَ بْنَ يَزِيدَ يَسْمُو
 جَلِيْسَ خَلَائِفِ وَغَدِي مَلِكِ
 وَإِلَى الْخَيْرَاتِ فِي جَاهٍ وَقَدَرِ
 وَأَعْلَمَ مَنْ رَأَيْتُ بِكُلِّ أَمْرٍ
 وَكَانَ الشُّعْرُ قَدْ أَوْدَى فَأَخِيَا
 أَبُو الْعَبَّاسِ دَائِرَ كُلِّ شِعْرٍ =

..
 وَقَالُوا : تَعَلَّبُ رَجُلٌ عَلِيمٌ وَأَيْنَ النَّجْمُ مِنْ شَمْسٍ وَبَدْرٍ ؟
 وَقَالُوا : تَعَلَّبُ بُفْتِي وَيُمْلِي وَأَيْنَ الثُّغْلِبَانُ مِنَ الْهَزْبِ بَرٍ ؟

وروي أن بعض أكراب أولاد طاهر سأل أبا العباس ثعلبا أن يكتب له مُصْحَفًا على مَذْهَبِ أَهْلِ التَّحْقِيقِ ، فكتب : (وَالضُّحَى) بالياء ، ومن مذهب الكوفيين أنه إذا كانت كلمة من هذا النحو أولها ضمة أو كسرة كتبت بالياء وإن كانت من ذوات الواو ، والبصريون يكتبون جميع ذلك بالألف ، فنظر المبرد في ذلك المصحف فقال : ينبغي أن يكتب : (وَالضُّحَى) بالألف ؛ لأنه من ذوات الواو ، فجمع أبو طاهر بينهما ، فقال المبرد لثعلب : لم كتبت (والضحي) بالياء ؟ فقال : للضمة أوله ، فقال له : ولم إذا ضم أوله وهو من ذوات الواو تكتبه بالياء ؟ فقال : لأن الضمة تُشَبِّهُ الواو ، وما أوله واو يكون آخره ياء فتوهوا أن أوله واو ، فقال أبو العباس المبرد : أفلا يَرُودُ هذا التوم إلى يوم القيامة ؟
 ولبعضهم في مدح المبرد :

وَأَنْتَ الَّذِي لَا يَبْلُغُ الوَصْفُ مَدْحَهُ وَإِنْ أَطْنَبَ المَدَّاحُ فِي كُلِّ مُطْنَبٍ
 رَأَيْتَكَ وَالْفَتْحَ بِنِ حَاقَانَ رَاكِبًا وَأَنْتَ عَدِيدُ الْفَتْحِ فِي كُلِّ مَوَكِبٍ
 وَكَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دَنَا إِلَيْكَ يُطِيلُ الْفِكْرَ بَعْدَ التَّعَجُّبِ
 وَأَوْتَيْتَ عِلْمًا لَا يَحِيطُ بِكُنْهِهِ عُلُومُ بَنِي الدُّنْيَا وَلَا عِلْمُ تَعَلَّبٍ
 يَرُوحُ إِلَيْكَ النَّاسُ حَتَّى كَانَهُمْ بِيَابِكَ فِي أَعْلَى مَنَى وَالْمَحْصَبِ

وقال الزجاج : لما قَدِمَ المَبْرَدُ بغداد جئت لأناظره - وكنت أقرأ على أبي العباس ثعلب - فَمَرَمْتُ على إعناته ؛ فلما فاتمته ألقى بالحجة ، وطالني بالعلّة ، وألزمني إلزاماتٍ لم أهتد إليها ؛ فتميّنتُ فضله ، واسترجحتُ عقله ؛ وأخذت في ملازمته ، وانظر قصة المبرد في ص ١٥٠ (في شرح المقامة المارستانية)

.. .. .

= ولبعضهم في مديحه أيضاً :

وَإِذَا يُقَالُ : مَنْ الْفَتَى كُلُّ الْفَتَى وَالشَّيْخُ وَالكَهْلُ الْكَرِيمُ الْعُنْصُرُ؟
وَالْمُسْتَضَاءُ بِعَالِمِهِ وَبِرَأْيِهِ وَبِعَقْلِهِ ؟ قُلْتُ : ابْنُ عَبْدِ الْأَكْبَرِ

قال أبو العباس بن عمارة : صحف محمد بن يزيد المبرد في كتاب الروضة

في قوله : حبيب بن خدره ، فقال : حبيب بن جدره ، وفي ربيع بن خراش فقال :
حراس ، وصنّف كتباً كثيرة ، ومن أكبرها كتاب « المقتضب » وهو نفيس ،
إلا أنه قلما يُشْتَغَلُ به أو ينتفع به ، قال أبو علي : نظرت في كتاب « المقتضب »
فما انتفعت منه بشيء ، إلا بمسألة واحدة ، وهي وقوع إذا جواباً للشرط في قوله
تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَبْدَانَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ .

قال أبو البركات بن الأنباري : وكان السرّ في عدم الانتفاع به أن
أبا العباس لما صنّف هذا الكتاب أخذَه عنه ابنُ الراونديّ المشهورُ بالزندقة
وفساد الاعتقاد ، وأخذَه الناسُ من يد ابن الراوندي وكتبوه عنه ، فكانه عاد
عليه شوّمه ؛ فلا يكاد ينتفع منه أحد .

وقال أبو بكر بن السراج : كان مولد المبرد سنة ٢١٠ ومات سنة ٢٨٥ ،
ولذلك قال محمد بن العباس : قرأ على ابنُ النّادى وأنا أسمع : مات محمد يزيد
المبرد في شوال سنة ٢٨٥ في خلافة المعتضد بالله تعالى .

ولعلب في المبرد حين مات :

ذهب المبردُ ، واطمته أيامه
بيت من الآداب أضحت نصفه
فنزودوا من نعلب ؛ فبكأس ما
أوصيكم أن تكتبوا أنفاسه
وليذهبن بعد المبرد نعلب
خربا ، وبقا النصف منه سيخرب
شرب المبرد عن قريب يشرب
إن كانت الأنفاس مما يكتب

(١٦- شرح مقامات البديع)

قَبَلَ الْفِعْلِ لَكُنْتُ قَدْ حَلَقْتُ رَأْسَكَ^(١) ، فَهَلْ تَرَى أَنْ نَبْتَدِي ؟ .

قال عيسى بن هشام : فَبَقِيَتْ مُتَحَيِّرًا مِنْ بَيَانِهِ ، فِي هَذَا بَيَانِهِ ، وَخَشِيَتْ أَنْ يَطُولَ تَجَلُّسُهُ ، فَقُلْتُ : إِلَى غَدٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَسَأَلْتُ عَنْهُ مَنْ حَضَرَ ، فَقَالُوا : هَذَا رَجُلٌ مِنْ بِلَادِ الإسْكَندَرِيَّةِ لَمْ يُوَافِقْهُ هَذَا الْمَاءُ ، فَغَلَبَتْ عَلَيْهِ السُّوْرَاءُ ، وَهُوَ طَوَّلَ النَّهَارَ يَهْدِي كَمَا تَرَى ، وَوَرَاءَهُ فَضْلٌ كَثِيرٌ ، فَقُلْتُ : قَدْ سَمِعْتُ بِهِ ، وَعَزَّ عَلَى جُنُونِهِ ، وَأَنْشَأْتُ أَقْوُلُ :

أَنَا أُعْطِيَ اللَّهَ عَهْدًا مُحْكَمًا فِي النَّذْرِ عَقْدًا^(٢)

(١) هذه إحدى مسائل علم الكلام ، وقد تقدم كثير منها في المقامة المارستانية ، وبيان هذه المسألة أنه قد وقع خلاف بين الأشاعرة وغيرهم في هل الاستطاعة - وهي القدرة على الفعل وإحداث المراد - أمر يوجد في المستطيع قبل العمل ، ومتى اتجهت إرادته إليه وتعلقت به أوجدته ، أو هي أمر لا يوجد في المستطيع إلا مقارنا للفعل ، وحين تنجبه الإرادة لإنجازه يخلق الله مع الفعل نفسه ، والحجج المعتبرة يؤيد الرأي الثاني الذي يقول : إن الاستطاعة والفعل يُخْلَقَانِ مَعًا ، ويستدلُّ على ذلك بأنه لو ثبت حقيقة أن الاستطاعة توجد قبل الفعل ومتى توجهت الإرادة إليه حصل لكان توجهه إرادته إلى خلق رأسه كافيًا في خلقها ، وإيضاح ذلك أنه يلزم عليه أن تكون الاستطاعة مؤثرة بنفسها في الفعل ، غاية ما هناك أنها لا تؤثر قبل تسلط الإرادة عليه .

(٢) العهد : الميثاق ، ومُحْكَمٌ - بوزن اسم المفعول - أراد أنه مؤكد لا استثناء فيه ولا رجوع ، وأصل هذه المادة قولهم : حَكَمَ الفَرَسَ ؛ إِذَا وَضَعَ الْحِكْمَةَ فِيهِ لِيَنْعَمَ التَّصَرُّفَ ، وَعَقْدًا : أَيْ وَاجِبَ النَّفَازِ ، وَفِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمْ الْإِيمَانَ ﴾ أَيْ نَوَيْتُمُوهُ وَلَمْ تَطْلُقُوهُ عَفْوًا .

لَا حَلَقْتُ الرَّأْسَ مَا عَشْتُ ، وَلَوْ لَأَقَيْتُ جَهْدًا (١)

(١) الجهد: التعب والمشقة، والمعنى إنني عزمت عزيمة أكيدة، وانتويت نية لا أخلفها، وأقسمت يميناً لا أحنث فيه؛ فلا ألفيه، ولا أناول فيه، ولا استثنى منه وقتاً ولا نوعاً ولا صفة، أنى لا أحلق رأسي، ولا أستدعي حجماً يكون شأنه معي هكذا، مهما كلفني عدم استدعائه من المشقة وحملتي من العناء، ومهما لقيت في سبيل إنفاذ هذا العزم من نصّب وجهي، وذلك بسبب مانألتني من هذين الحجاجين اللذين استدعيتهما قاصداً الترفيه عن نفسي، فكان كل واحد منهما علة للتعب، وسبباً في التنغيص.

٣٤ - المَقَامَةُ النَّهْيِدِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

مِلْتُ مَعَ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِي إِلَى فِنَاءِ خَيْمَةِ التَّمَسُّ الْقِرَايِ مِنْ أَهْلِهَا (١) ،
فَخَرَجَ إِلَيْنَا رَجُلٌ حَزْرَقَةٌ (٢) ، فَقَالَ : مَنْ أَنْتُمْ ؟ فَقُلْنَا : أَضْيَافٌ لَمْ يَذُوقُوا
مُنْذُ ثَلَاثِ عَدُوفٍ (٣) ، قَالَ : فَتَنَحَّحْ ، ثُمَّ قَالَ : فَأَرَأَيْكُمْ يَا فِتْيَانُ
فِي نَهْيِدَةٍ فِرْقٍ كَهَامَةٍ الْأَصْلَعِ ، فِي جَفْنَةِ رَوْحَاءِ (٤) ، مُكَلَّلَةٍ بِعَجْوَةٍ

(١) الخَيْمَةُ : معروفة ، وفناؤها : المكان المتسع يمتد بجانبها ، وألمس :
أطلب ، والقِرَايِ : الضيافة ، والنَّفَرُ - بوزان بلح أو تمر ، ومثله النَّفِيرُ والنَّفْرَةُ
كثيرة - الجماعةُ من الناس من ثلاثة إلى عشرة ، والمعنى : إنني قصدتُ خيمةً
ومعى جماعة من أخلائي أطلب الضيافة من أهلها لي ولهم .

(٢) حَزْرَقَةٌ - بضمّتين ، أو بفتح فضم ، ثم قاف مشددة مفتوحة - الرجل
العظيم البطن مع قصر ، أو هو القصير .

(٣) يقال : مَازَقْنَا عَدُوفًا وَلَا عَدُوفَةً وَلَا عَدَا - ويمررك الأخير - وَلَا عَدَا فَا
كُتْرَابَ : أى ما طمئنا شيئًا ، ومنه قيل : دابة بلا عَدُوفٍ ، أى بلا علف .
والمراد شكايه الحال ، وإظهار شدة الحاجة إلى الطعام .

(٤) النَّهْيِدَةُ : الزُّبْدَةُ ، والفِرْقُ : القطيع من الغنم العظيم ومن البقر ، أو
هو خاص بقطيع الغنم ، وإضافة النهيدة إليه لأنها منه ، وهامة الأصلع : رأس
الرجل الذى لا شعر له ، وجفنة رَوْحَاءِ : متسعة ، وأراد من تشبيه الزبدة برأس
الأصلع وَصَفَهَا بِالنَّقَاءِ وَالضَّخَامَةِ ؛ لأن رأس الأصلع نقيّةٌ من الشعر نظيفة ،
ويقال على الصلغ ضخم الرأس وعظمها ، والمعنى : ما رأيكم فى أن أحضر إليكم
زُبْدَةَ كَأَنَّهَا رَأْسُ الْأَصْلَعِ ضَخَامَةً وَنَقَاءً ، قد اتخذت من لبن الغنم ، فى قصعة
واسعة ، وكفى بسعة القصعة عن كثرة المقدار الذى سيحضره لهم .

خَيْرٍ مِنْ أَكْتَارِ جَبَّارِ رَبُوضٍ ^(١) الْوَاحِدَةُ مِنْهَا تَمْلَأُ الْقَمَّ ^(٢) ، مِنْ جَمَاعَةٍ
مُخْصِ عُطْشٍ خَمْسٍ ، يَغِيْبُ فِيهَا الضَّرْسُ ^(٣) ، كَأَنَّ نَوَاهَا أَلْسُنُ الطَّيْرِ ^(٤) ،
يُحْفَنُونَ فِيهَا النَّهْيِدَةَ ^(٥)

(١) مُكَلَّلَةٌ : أى جعل على جوانبها شئ من العجوة ، وهى التمر ، وخَيْرٌ :
مدينة تقرب من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، كانت تسكنها اليهود ، ثم
افتتحها المسلمون ، وتجلت شجاعة على بن أبى طالب كرم الله وجهه بأجل معانيها
يوم فَتَحَهَا ، وهى من أشهر البلاد بالعجوة والتمر ، والأكثار : جمع كَثَرَ ، وأصله
السَّامُ المرتفع ، وأراد منه عَدَقَ النخلة تشبيها له بالسنام ، والجَبَّار : النخلة
العظيمة ، والرَّبُوض : الواسعة الأقطار ، والمعنى إننى أضع لكم أيضاً على جوانب
هذه القصعة الممتلئة من الزبدة أجود أنواع التمر وأفضلها ، لتسيغوا أكلها
وتستمتعوا طعمها .

(٢) المعنى : إن التمرة الواحدة من العجوة التى سأحضرها لكم - لسمنها
وعظم ضخامتها - تملأ القم ، وليس القم مطلقاً بل فم جماعة صفتهم كيت وكيت .
(٣) الخُمْصُ : الجياح ، وفى الحديث : « تَفْدُو خِصَّاصًا » والخُمْصَةُ - بفتح الخاء -
المرّة من الجوع ، ويقال « لَيْسَ لِلْبِطْنَةِ خَيْرٌ مِنْ خُمْصَةٍ » ومنه قيل للمَجَاعَةِ :
خُمْصَةٌ ، وقد خَمَصَهُ الجوع - من باب نصر - أى أصابه وأخلى بطنه ، والعُطْشُ :
العطاش ، وأضافه إلى الخُمْسِ : تأكيده ، والخُمْسُ من صفات الإبل : أن تمنع
الورود ثلاثة أيام ثم ترد فى الرابع ، ويغيب فيها الضرس : لسمنها وكونها طرية سائفة .
(٤) أَلْسُنُ الطَّيْرِ صغيرة ، وإذا كانت التمرة كبيرة ونواها صغيرة كانت
أكثرها غذاء ، فالعبارة كناية عن ذلك ، يقول : ليس عظمها ولا ضخامتها
ناجما عن كبر النواة ، بل إن معظمها وأكبر ما فيها جسم يؤكل .

(٥) يُحْفَنُونَ : يُغْرِقُونَ ، والضمير فى « فيها » يعود للتمر ، ويقال : إنه

==

ليحف الزبد بالتمر ، وقال جرير :

مَعَ أَقْمَبٍ قَدِ احْتَلَبْنَ مِنَ الْجِلَادِ الْهَزْمِيَّةِ الرَّبْلِيَّةِ ^(١) أَتَشْتَهُونَهَا يَا فِتْيَانُ ؟
فَقُلْنَا : إِي وَاللَّهِ نَشْتَهِيهَا ^(٢) ، فَقَهَّمَهُ الشَّيْخُ وَقَالَ : وَعَعْمَكُمُ أَيضًا يَشْتَهِيهَا ،
ثُمَّ قَالَ : فَمَا رَأَيْكُمْ يَا فِتْيَانُ فِي دَرَمَكِ كَأَنَّهَا قَطَعُ السَّبَائِكِ ^(٣) تَجْرِمُكُمْ
عَلَى سَفَرَةِ حَرَّتِيَّةٍ بِهَا رِيحُ الْقَرِظِ ^(٤) قَتِيبُ إِيَّهَا مِنْكُمْ

= وَدَعَا الزُّبَيْرُ فَمَا تَحَرَّ كَتِ الْحُبِّي لَوْ سُمَّتَهُمْ جَحْفُ الْخَزِيرِ لِثَارُوا
والخزير والخزيرة : لحم يقطع صفاراً ويصبُّ عليه ماء كثير ، فإذا نضج
ذُرَّ عليه الدقيق ، فإن لم يكن فيها لحم فهي عصيدة ، وقيل : هي حساء من دقيق
ودسم ، وقيل : إذا كان من دقيق فهي حريرة ، وإذا كان من نخالة فهي
خزيرة ، والمعنى إنكم تطعمون الزبدة بالتمر ، وذلك أشهى وأحسن .

(١) الأقمب : جمع قنب ، وهو وعاء اللبن ، والجِلَاد : الإبل الكثيرات
الدرّ ، والمهرمية والربلية : نسبتان إلى الهزم والربل - بفتحهما - والهزم : نبت أو
شجر ، أو هو البقلة الحقاء ، وإبل هوارم : تأكلها فتبيضُ عثانينها منها ، والرَّبْل :
ضرب من الشجر يتفطر في آخر القيظ بعد الهيج يبرد الليل من غير مطر ، وترَّبَل :
أكله ، والمعنى : إنني آتى لكم مع ما أسلفتُ بأقمب مملوءة من ألبان الإبل التي
أكلت الهرم والربل فغزرت لبنها وسمن ، والمراد الكفاية عن سمن اللبن وغزارته .

(٢) أي أنه بعد أن وصف لنا ذلك الوصف الذي يبعث الشوق ويزيد
الرغبة سألنا عما إذا كنا نريد أن نأكل منه ، فما أجابنا إلا بالذي يدكُّ على
الطلب ، ولكنه ما زاد على أن ضحك ، وذكر أنه يودُّ أن يطعم معنا .

(٣) الدرَّمَك : لباب الدقيق ، والسبائك : القطع من الفضة ونحوها ،
جمع سبيكة .

(٤) تجرم : تجتمع ، والسفرة : الجلدة التي توضع تحت الخوان ليتقى عليها
فتات المائدة ، وحرّتيّة : نسبة إلى الحرث ، وأصله قطع الشيء مستديراً وذلك ، =

فَتِي رَفِيفٌ ، لَبِيقٌ خَفِيفٌ^(١) ، فَيَعَجُنُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَجُفَهُ^(٢) أَوْ يَحْشِفَهُ ،
فَيُزِيلُهُ دُونَ مَلِكِ نَاعِمٍ ، ثُمَّ يَلْتَهُ بِالسَّمَارِ أَوْ الْمَذِقِ لَتًّا غَزِيرًا^(٣) ، ثُمَّ يَعْصِدُ
إِلَيْهِ فَيَلْوِيهِ وَيَدْعُهُ فِي نَاحِيَةِ الصَّيْدَاءِ ، حَتَّى إِذَا تَخَّ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَرَزَّ
عَمَدًا إِلَى قَصْدِ الْغَضَا^(٤)

= وأراد الذى بولغ فى العناية به ، والقرظ: ثمر يدبغ به ، والمعنى إن رائحة الدباغ لا تزال عالقَةً به ، كناية عن جدتها .

(١) يثب : يطفر ، والمراد يقوم ، ورفيف : أى حسن الخلق ، ولبق : حاذق ،
وخفيف : أى سريع الحركة نشيط . والمعنى : ماذا تقولون إذا أحضرت لكم
خالص الدقيق ولبابة ، وجتكم بسفرة مستديرة ، لا تزال علاممُ الجدة بادية
عليها ، ووضعت فوقها ذلك الدقيق ؛ فيقوم منكم فتى خفيف اليد سريعُ الحركة
كثير النشاط حاذقٌ جميلٌ ليقوم لكم بعمله .

(٢) يَرَجُفُهُ : أى يحركه بعنف ، وأصله الرَّجْفَةُ ، وهى الجركة الشديدة ،
ومنه سميت القيامة : رَاجِفَةً ، وَيَحْشِفُهُ : يسىء صنعه بوضع ماء كثير يجعله قطعاً
كعشوف الرأس أى مفضوخها .

(٣) يَلْتَهُ : يخلطه ، ولت السويق - ومثله الجذح - أن يخلط السويق
بالماء أو اللبن ونحوهما ويحرك حتى يستوى ، وربما حرك بخشبة مجنحة الرأس
لها ثلاث شعب ، وتسمى : المجدح ، والسمار : اللبن الحليب إذا خلط بالماء ،
والمذق : اللبن الحامض إذا صنع به ذلك ، قال الراجز :

حَتَّى إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ وَاخْتَلَطَ جَاهُوا بِمَذِقٍ هَلْ رَأَيْتَ الذَّبَّ قَطُ .

(٤) الصَّيْدَاءُ : الأرض الغليظة ، أو الحجارة التى تصنع منها القدور ،
والمراد أن يكون على أرضٍ تظهر فيها الحرارة مع جَوْدَةِ الهواء ، وتَخَّ : ظهرت
فيه الحموضة ، ويترز : أى يئبَس ويشتد ، وقصدُ الغضا : أغصانه ، والغضا :
شجر كثير اللهب شديد النار ، يضرب به المثل فى ذلك .

فَأَشْتَلَ فِيهِ النَّارَ فَلَمَّا خَبِتْ نَارُهُ (١) ، مَهَّدَ لِقُرْمُوصِهِ (٢) ، ثُمَّ عَمَدَ
إِلَى عَجِينِهِ فَفَرَطَحَهُ بَعْدَ مَا أَنْعَمَ تَلْوِيئَهُ ، ثُمَّ دَحَا بِهِ عَلَيْهَا ، ثُمَّ خَرَّهَ (٣) ،
فَلَمَّا قَفَّ وَقَبَّ أَحَالَ عَلَيْهِ مِنَ الرَّضْفِ مَا يَلْتَقِي بِهِ الْأَوَارَانَ (٤) ،
حَتَّى إِذَا غَطَّاهَا عَلَى الْمَلَّةِ الْمَشَاكِيهِ بَطْبَقِي وَتَفَلَّجَ شِقَاقًا (٥) ، وَحَكِي
قَشْرُهَا رُقَاقًا ، وَاحْرَارُهَا أَحْرَارًا بُسْرَ الْحِجَازِ الْمَشْهُورِ بِأَمِّ الْجُرْذَانَ
أَوْ عِدْقِ بْنِ طَابٍ شَنَّ عَلَيْهَا ضَرْبٌ بَيْضَاءُ (٦) كَالثَّلْجِ إِلَى أَوَانِ رُسُوخِهَا

(١) خَبِتِ النَّارُ : سَكَتَتْ .

(٢) مَهَّدَ : هَيَّأَ ، وَالْقُرْمُوصُ - بَضْمٌ أَوْلَهُ - وَمِثْلُهُ الْقَرْمِصُ وَالْقَرِمَاصُ
بِكْسَرٍ أَوْلَهُمَا - مَوْضِعٌ خَبِزَ الْمَلَّةُ وَهِيَ الرَّمَادُ الْحَارُّ وَالْجَرُّ ، وَالْمَعْنَى هَيَأُ مَكَانًا لِيَكُونَ
قَرْمُوصًا يَخْبِزُ فِيهِ .

(٣) فَرَطَحَهُ : عَرَّضَهُ لِيَتَسَمَّ ، وَأَصْلُ اللُّوَاثِ : الدَّقِيقُ يَذُرُّ عَلَى الْخِيَوَانِ تَحْتَ
العَجِينِ ، وَلُوْثٌ : فِعْلٌ مِنْهُ ، أَيْ وَضَعَ اللُّوَاثَ ، وَأَنْعَمَ : صَيَّرَهُ نَاعِمًا ، وَقَالَ
الْأَسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي بَيَانِ ذَلِكَ الْمَعْنَى كَلَامًا لَا يَفْهَمُ وَلَا يَلْتَقِي بِالْمَوْضُوعِ ، وَدَحَا :
بَسَطَ ، وَالبَاءُ فِي « بِهِ » لِلتَّعْدِيَةِ ، وَالضَّمِيرُ فِي « عَلَيْهَا » لِلنَّارِ ، وَالْمَعْنَى وَضَعَهُ فِيهَا ،
وَخَرَّهَ : غَطَّاهُ ، وَيُرْوَى « بَعْدَ مَا أَنْعَمَ تَلْوِيئَهُ » وَالتَّلْوِيَةُ : مَصْدَرٌ لَوَيْ لَشَيْءٍ ،
أَيْ جَمَلَهُ مَلْوِيًّا كَالْقَوْسِ ، وَلَا يَسْتَقِيمُ مَعْنَى لِقَوْلِهِ « أَنْعَمَ تَلْوِيئَهُ » .

(٤) قَفَّ : يَبْسُ وَجَفَّ ، وَقَبَّ : ارْتَفَعَ ، وَالرَّضْفُ : الْحِجَارَةُ الْحِمَاءُ ،
وَالْأَوَارَانُ : النَّارُ ، وَالتَّقَاءُ الْأَوَارِينَ : تَقَابُلُهُمَا ، وَالْمَقْصُودُ بِهِمَا النَّسَارُ الْأُولَى مِنْ
تَحْتِهِ وَنَارِ الرَّضْفِ مِنْ فَوْقِهِ .

(٥) الْمَلَّةُ ، بِالْفَتْحِ : الْجَرُّ ، وَالْمَشَاكِيهِ : الْمَشَابِهَةُ ، قَالَ زَهْرِيٌّ :
عَلَوْنَ بِأَنْعَامٍ عِتَاقٍ وَكِلَّةٍ وَرَادٍ حَوَاشِيهَا مُشَاكِيَةً الدَّمِ
وَتَفَلَّجَ : تَشَقَّقَ .

(٦) البُسْرُ : التَّمْرُ قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ رَطْبًا ، وَأَمَّ الْجُرْذَانَ : نَوْعٌ مِنْهُ مَشْهُورٌ ،

فِي خِلَالِ أَلدَّهَانِ ، وَبِشْرَبِ لُبِّ الدَّرَمِكِ مَا عَلِمَهُ مِنَ الضَّرَبِ ، قَدِمَتْ
إِلَيْكُمْ فَتَلَقَمُونَهَا لَقْمَ جُوَيْنٍ أَوْ زَنْكَلٍ^(١) ، أَفَدَشْتَهُونَهَا يَافِتْيَانُ ؟ قَالَ :
فَأَشْرَابَ كُلُّ مِنَّا إِلَى وَصْفِهِ^(٢) ، وَتَحَلَّبَ رِيْقُهُ^(٣) وَتَلَمَّظَ^(٤) ، وَتَمَطَّقَ^(٥) ،
قُلْنَا : إِي وَاللَّهِ نَشْتَهِيهَا ، قَالَ : فَفَقَمَقَهُ الشَّيْخُ وَقَالَ : وَعَمَّكُمْ وَاللَّهِ لَا يُبْغِضُهَا
مُحَّمٌّ قَالَ : مَا رَأَيْكُمْ يَافِتْيَانُ فِي عَنَاقِ نَجْدِيَّةٍ ، وَعُلُوِيَّةٍ بَرِّيَّةٍ^(٦) ، قَدْ أَكَلْتِ
الْبَرَمَ وَالشَّيْخَ النَّجْدِيَّ وَالْقَيْصُومَ وَالْهَشِيمَ^(٧) ، وَتَبَرَّضْتَ الْحَمِيمَ ، وَتَمَلَّاتِ
مِنَ الْقَيْصِيسِ^(٨) فَوَرَى مُحُّهَا ، وَزَهَمْتَ كُشَيْتَهَا^(٩) تُسْحَطُ مُعْتَبَطَةٌ

= وعذق بن طاب : نخل بالمدينة ، ورشَّ عليها : صبَّ ، والضَّرَبُ : العسل .

(١) جُوَيْنٌ بصيغة المصغر وزن-كل بوزن جعفر : رجلان شديدَا النَّهَمِ-

كثيرا الأكل .

(٢) أَشْرَابَ : أَى مَدَّ عُنُقَهُ مَتَطَلِّعًا رَاجِعًا تَحْقِيقَ وَصْفِهِ .

(٣) أَى سَالَ لُعَابَهُ . (٤) تَلَمَّظَ : أَى جَرَى رِيْقَهُ فَأَخْرَجَ لِسَانَهُ لِيَسِجَ بِهِ

شَفْتِيهِ . (٥) تَمَطَّقَ : أَى صَرَبَ لِسَانَهُ فِي أَعْلَى فَمِهِ وَأَسْفَلِهِ .

(٦) الْعَنَاقُ ، بفتح أوله : الأنتى من المعز ، ونجدية : منسوبة إلى نجد ، وهو

قسم من بلاد العرب ، وعلوية : المنسوبة إلى العالية ، وهى أرض بين نجد

وتهامة إلى ما وراء مكة ، والبرية : المنسوبة إلى البر ، والمراد أنها ليست مما يربَّى

فِي الْبُيُوتِ .

(٧) الْبَرَمُ ، بفتححتين : ثمر الأراك أو الفصا ، والشَّيْخُ : شجر معروف ،

وَالْقَيْصُومُ : نَبَاتٌ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ ، وَالْهَشِيمُ : الْمُتَكَسَّرُ مِنَ النَّبَاتِ الْيَابِسِ .

(٨) الْحَمِيمُ : الْمَاءُ الْبَارِدُ ، وَقَدْ يُطَلَّقُ عَلَى الْمَاءِ الْحَارِّ ، وَتَبَرَّضْتَهُ : شَرَبْتَهُ مِنْهُ ،

وَالْقَيْصِيسُ : نَبَاتٌ يَكُونُ فِي أَصْوَالِ الْكَمَاةِ ، وَتَمَلَّاتِ مِنْهُ : امْتَلَأَتْ جَوْفُهَا ، وَشَاةُ

مِلْيَاءُ : فِي بَطْنِهَا مَاءٌ وَأَغْرَاسٌ كَثِيرٌ فَتَحْسِبُهَا حَامِلًا .

(٩) وَرَى مُحُّهَا : كَثُرَ ، مَاخُودٌ مِنْ قَوْلِهِمْ : وَرَتِ الْإِبِلُ ؛ إِذَا سَمِنَتْ ، =

ثُمَّ تُنكَسُ^(١) فِي وَطِيسٍ حَتَّى تَنْضَجَ مِنْ غَيْرِ أُمْتِحَاشٍ أَوْ إِنْهَاءٍ^(٢)، ثُمَّ تُقَدَّمُ
إِلَيْكُمْ، وَقَدْ عُطِّ إِهَابُهَا عَنْ شَحْمَةِ بَيْضَاءٍ^(٣) عَلَى خِيَّانٍ مُنْضَدٍّ بِصَلَاتِقٍ
كَانَهَا الْقَبَاطِيُّ الْمُنَشَّرُ^(٤)، أَوْ الْقَوْهِيُّ الْمَمْصَرُ^(٥)، قَدْ أَحْتَقَّتْهَا نُفَرَاتٌ

= ووزيم، بوزن فرح: سمن ودسم، والكشبية: أصلها شحمة بطن الضب، وأراد
منها هنا الشحمة مطلقا، ويقال: يدي من الدهن زهية .

(١) تُشَحِّطُ: تَذْبَحُ، وَمُقَبَّطَةٌ: بَدُونِ سَبَبٍ مِنْ قَوْلِهِمْ «فَعَلَهُ اعْتِبَاطًا» أَيْ بِلَاعِلَةٍ،
وَتَنكَسُ: تَوْضَعُ مَنكَسَةً. (٢) وَالْوَطِيسُ: التَّنُورُ، وَقَوْلُهُمْ «حَمَى
وَطِيسَ الْقِتَالِ» مَأخُودٌ مِنْهُ، وَالْأَمْتِحَاشُ: الْإِحْتِرَاقُ، وَالْإِنْهَاءُ: الْمِبَالِغَةُ فِي
إِنْضَاجِهَا حَتَّى يَصِلَ بِهَا إِلَى النِّهَايَةِ، وَالْمَعْنَى إِنَّهُ بَعْدَ أَنْ حَيَّبَ أَمَلْنَا فِي الْمَرْتَيْنِ
السَّالِفَيْنِ رَجَعَ إِلَى وَصْفِ أُمَّةٍ ثَالِثَةٍ، فَاسْتَفْسَرَ مَنَاعِمًا إِذَا كَانَ يَرُوقُ لَنَا
أَنْ يَجِئْنَا بِمَاعِزَةٍ قَدْ سَمِنَتْ وَكَثُرَ دَسَمُهَا وَطَابَ لَهَا مِنْ طَوْلِ مَا أَكَلَتِ النَّبَاتَ
الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ - وَاللَّحْمُ يَخْتَلِفُ هُزَالًا وَسِمَنًا بِاخْتِلَافِ الْمَرعى
وَلِذَلِكَ تَقُولُ الْعَرَبُ فِي أَمْثَالِهَا: «مَاءٌ وَلَا كَصَدَاءٍ، وَمَرْعىٌ وَلَا كَالسُّعْدَانِ» -
ثُمَّ نَذَّبْهَا بَدُونِ مَا سَبَبَ غَيْرَ تَنَاوُلِكُمْ مِنْ لَحْمِهَا، ثُمَّ تَوْضَعُ فِي التَّنُورِ لَتَنْضَجَ مِنْ
غَيْرِ أَنْ تَحْتَرِقَ أَوْ تَنْتَهِيَ فِي النُّضْجِ، وَأَطْيَبُ مَا يَكُونُ اللَّحْمُ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ .
(٣) عُطِّ، بِالْبِنَاءِ لِلْمَجْهُولِ: شَقٌّ، وَالْإِهَابُ: الْجِلْدُ، وَالْمَعْنَى إِنَّهَا قَدْ
تَكَشَّفَتْ عَنْ دُهْنٍ كَثِيرٍ.

(٤) الْخِيَّانُ - بوزن الكتاب أو الغراب - ما يمدُّ عليه الطعام ما لم يكن ،
فإذا وجد عليه الطعام فهو المائدة فقط ، وتقدم مثل هذا مرارا ، والمنضد: المرصع ،
والصلاتق: الخبز الرقاق ، ومفرده صليقة ، والقباطى: جمع قبطية ، وهى ما كان
من ثياب الكتان أبيض رقيقا ، والمنشر: المنشور ، أى المبسوط .
(٥) القوهى: نوع من الثياب أيضا ، والممصر: المصبوغ بلون بين الحجر
والصفرة .

فِيهَا صِنَابٌ وَأَصْبَاغٌ شَتَّى ، فَتَوْضَعُ بَيْنَكُمْ تَهَادُرُ عَرَقًا ، وَتَسَائِلُ مَرَقًا^(١) ،
 أَفْتَشْتَهُونَهَا يَا فِتْيَانُ ؟ قُلْنَا : إِي وَاللَّهِ نَشْتَهِيهَا ، قَالَ : وَعَعُّكُمْ وَاللَّهِ
 يَرْقِصُ لَهَا^(٢) ، فَوَتَّبَ بَعْضُنَا إِلَيْهِ بِالسَّيْفِ^(٣) ، وَقَالَ : مَا يَكْفِي مَا بَنَا مِنَ
 الدَّقْعِ حَتَّى تَسْخَرَ بِنَا^(٤) ؟ فَأَتَيْنَا ابْنَتَهُ يُطَبِّقُ عَلَيْهِ جِلْفَةً وَحِثَالَةً وَلَوِيَّةً^(٥)

(١) الثَّقَرَاتُ : جمع نَقْرَةٍ ، وأراد منها الإِنَاءَ ، والصَّنَابُ : الصبَاغُ من
 الخردل والزيت ونحوهما مما يتخذ لإثارة الداعية إلى الطعام ، وتهَادُرُ أسله :
 تتهَادر ، حذف منه إحدى التاءين ، وممناء المقصود هنا التقاطر ، لكننا لم نجد
 في الذي بين أيدينا من أمهات كتب اللغة ما يساعد على إرادة هذا المعنى من
 هذا اللفظ ، بل كل ما يمكن أن يقال : إنها من قولهم « هَدَرَتْ جَرَّةُ النَّبِيذِ
 تَهْدِيرًا » إذا غَلَّتْ وَسُمِعَ لَهَا صَوْتُ ، وهي حينئذٍ قريبة من أن يسيل على
 جوانبها النبيذ ، وقال :

وَجَرَّةٌ خَضْرَاءُ لَهَا هَدِيرٌ يَظَلُّ مِنْهَا الشَّيْخُ يَسْتَدِيرُ
 والمعنى إنها تَجِيثُكُمْ سميعة كثيرة الشحم والدهن ، واللحم الجيد إذا نضج
 سال دهنه .

(٢) أى أنه لو أُتِيحَ له أن يأكل مثل هذا الذي وصفه لكم لرقص فرحاً سروراً
 (٣) أى أن بعض الجماعة الذين كانوا يستمعون له أخذته الحدّة ، وهم أن
 يضربه بالسيف ؛ جزاء له على تشويقه لهم دون أن يكون وراءه نفع ظاهر
 يَرُدُّونَ به عادية الجوع وشدته .

(٤) يقال : سَخَرَ به ، وَسَخَرَ مِنْهُ : أى لم يحترمه ، ولم يوقره ، وتَقَصَّ
 قَدْرَهُ ، واستهان به ، وَحَطَّ مِنْ شَأْنِهِ ، وفي التنزيل : ﴿ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا
 فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ . والمعنى ألم تأخذك بنا الشفقة فتكفينا
 لا وآء الجوع وبأساءه ؟ ثم إذا كفت لا تُنْقِذُنَا مِنْ مَخَالِبِهِ أَمَا تَكْفِينَا بِسُكُونِكَ
 شَرًّا هُزْلِكَ وَسَخَرِيَّتِكَ بِنَا ؟

(٥) الْجِلْفَةُ : أردأ الخبز ، والحِثَالَةُ : الرديء من التمر ، واللَوِيَّةُ : ما أخفيته =

وَأَكْرَمَتْ مَثْوَانًا^(١) ، فَأَنْصَرَفْنَا لَهَا حَامِدِينَ ، وَلَهُ ذَامِّينَ .

= لعيرك من الطعام ، والمعنى إنها قَدَّمت لنا ما حَرَمْنَا منه أبوها ، وهيات لنا ما يَسُدُّ حاجتنا .

(١) مَثْوَانَا : إقامتنا ، وفي التنزيل : (أ كْرِمِي مَثْوَاهُ) . والمعنى : إنها كانت خيراً من أبيها ، حيث أَحْسَنَتْ إلينا في حين أنه أساءنا ، ولذلك غادرناها وألْسَنَتْنَا رَطْبَةً بالثناء عليها وشكران صنيعها .

٣٥ - المَقَامَةُ الْإِبْلِسِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

أَضَلَّتْ إِبِلًا لِي ، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهَا ^(١) ، فَحَلَلْتُ بُوَادِ خَضِرٍ ^(٢) ، فَإِذَا
 أَنْهَارٌ مُصَرَّدَةٌ ^(٣) ، وَأَشْجَارٌ بِاسِقَةٌ ^(٤) ، وَأَنْمَارٌ يَانِعَةٌ ^(٥) ، وَأَزْهَارٌ
 مَنْوَّرَةٌ ^(٦) ، وَأَنْمَاطٌ مَبْسُوطَةٌ ^(٧) ، وَإِذَا شَيْخٌ جَالِسٌ ، فَرَاعَنِي مِنْهُ مَا يَرُوعُ
 الْوَحِيدَ مِنْ مِثْلِهِ ^(٨) ، فَقَالَ : لَا بَأْسَ عَلَيْكَ ^(٩) ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، وَأَمَرَنِي

(١) يقال : أضلَّ فلان البعيرَ والفرسَ ونحوهما ، إذا ذهبَا عنه فلم يعرف
 لهما مكانا ، ومثله ضلَّهما ، والمعنى إنه تفقد إبله فلم يجدها ، فذهب يبحث عنها .
 (٢) الوادي : مفرجٌ بين جبالٍ أو تلالٍ أو آكامٍ ، وجمعه أوديةٌ ، وأوداءٌ
 وأوداةٌ وأوديةٌ ، وخضرٌ : أى أخضر ، وذلك كناية عن كثرة نباته وأعشيشاب
 أرضه .

(٣) أنهارٌ مُصَرَّدَةٌ : جارية .

(٤) باسقةٌ : مرتفعةٌ ، وفي التنزيل (وَالنَّخْلَ بِاسِقَاتٍ) .

(٥) ينع الثمر كنع وضرب ينعا وينعا بفتح أوله أو ضممه وينوعا بالضم :
 حان قطافه ، ومثله أينع .

(٦) منوَّرةٌ : أى زاهية .

(٧) الأنمَاطُ : جمع نمط ، وهو البساط ، ومبسُوطَةٌ : مفروشة .

(٨) رَاعَهُ يَرُوعُهُ : أفزعه وأخافه ، والمعنى إننى خشيت منه وأخذنى الرعب

(٩) البأسُ : الشدة ، ولا بأس عليك : كلمة معناها لا يأنحكك مكروه ،

ولا ينزل بك ألم . والمعنى إنه هدأ روعي وسكَّن جاشي .

بِالْجُلُوسِ فَأَمْتَمْتُهُ ، وَسَأَلَنِي عَنْ حَالِي فَأَخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ لِي : أَصَبْتَ ذَاتَكَ (١)
 وَوَجَدْتَ ضَالَتَكَ ، فَهَلْ تَرَوِي مِنْ أَشْعَارِ الْعَرَبِ شَيْئًا ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ،
 فَأَنْشَدْتُ لِأَمْرِئِ الْقَيْسِ (٢) ،

(١) الدالُّ : الذي يدلُّك على ما فُقد منك ويهديك إليه ، والتاء فيه للمبالغة
 (٢) امرؤ القيس : هو أبو الحارث حُنْدُج بن حُجْر الكندي ، رأس الشعراء في
 الجاهلية ، وللبرز في حلبتهم ، وقائدهم إلى التَّمَنُّنِ في أبواب الشعر وضُرُوبِهِ ، وأبَاؤُهُ
 من أشرف كندة ومُلُوكِهَا ، وأمه فاطمة بنت ربيعة أخت مُهَلْمِلٍ وكَلَيْبِ التَّغْلِبِيِّينَ ،
 وكانت بنو أسدٍ من المِصْرِيَّةِ خاضعةً للملوكِ كِنْدَةَ ، وآخر ملك عليها هو حُجْرٌ أَبُو
 أَمْرِئِ الْقَيْسِ ، وقد نشأ امرؤ القيس بأرضِ نَجْدٍ بين رعية أبيه من بني أسد ، وسلك
 مَسَلَّكَ الْمُتَرَفِّينَ من أولاد الملوك : يلهو ويلعب ، وَيُعَاقِرُ الْحَجَرَ ، وَيُعَازِلُ الْحِيسَانَ ،
 وزاد على ذلك أنه أنفق وَقْتَهُ في التشبيب بالنساء وانخروج في ذلك إلى حدِّ
 الصَّرَاحِةِ في الفُحْشِ مُنْصَرِفًا عما يأخذ به أمثاله أَنفُسُهُمْ من الاعتداد للملك ،
 وقيادة الشُّجْعَانِ ؛ فَقَتَهُ أبوه لذلك ، وزجره عن اللهو والتشبيب بالنساء ، وَمَا لَمْ
 يَنْجِعْ فِيهِ الْقَوْلُ طَرْدَهُ عَنْهُ وَأَقْصَاهُ ؛ فَالْتَفَّ عَلَيْهِ بِمَعْصَالِيكَ الْعَرَبِ وَدُؤْبَانِهِمْ
 وَشَذَاذِهِمْ ، يَنْزِلُونَ الْمِيَاهَ ، وَيَذُبْحُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَطْرَبُونَ ، وَتُقَنِّهِمُ الْقِيَانُ ،
 وإنه لكذلك في إحدى نزلاته بأرض دَمُونٍ يشرب ويلعب النَّزْدَ مع رفاقه
 إذ جاءه نِبَأُ شَقَبِ بْنِ أَسَدٍ عَلَى أَبِيهِ وَقَتْلِهِمْ لَهُ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَعْسِفُ فِي حَكْمِهِ لَمْ
 وَيَسْتَطِعْ عَلَيْهِمْ فِي الْإِنَاوَةِ الَّتِي يُؤَدُّونَهَا إِلَيْهِ ؛ فَلَمْ يَنْزِعْجِ أَمْرُ الْقَيْسِ لِلْخَبْرِ خَشِيَّةً
 أَنْ يَنْفِصَ عَلَى رِفَاقِهِ لِهَوْنِهِمْ ، ثُمَّ قَالَ « ضَيْعَتِي صَغِيرًا ، وَحَمَلَتِي ثَارَهُ كَبِيرًا ، لِاصْحَوْ
 الْيَوْمَ ، وَلَا سُكْرَ غَدًا ، الْيَوْمَ حَجْرٌ ، وَغَدًا أَمْرٌ » ثُمَّ أَخَذَ يَجْمَعُ الْمُدَّةَ ، وَيَسْتَنْجِدُ
 الْقَبَائِلَ فِي إِدْرَاكِ ثَارِهِ ، فَكَانَ يَجِيئُهُ بِمَعْصَالِيهَا وَيَعْتَذِرُ بِمَعْصَالِهَا ، فَنَازَلَ بَنِي أَسَدٍ وَقَتَلَ
 مِنْهُمْ كَثِيرًا ، وَلَمْ يَشَفْ ذَلِكَ مِنْ غَلَّتِهِ ، وَكَانَتْ فِي نَفْسِ الْمُنْذِرِ (أحد ملوك الحيرة) =

من شعره راحمة النبل، وتلمح فيه شاربات اليسار والسيادة والملك؛ من ذلك قوله:

فَظَلَّ الْعَدَارَى يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا وَشَحْمِ كَهْدَابِ الدَّمَقْسِ الْمَقْتَلِ

وقوله :

وَوَظَلَّ طُهَاهُ اللَّحْمِ مَا بَيْنَ مُنْضَجٍ صَفِيفٍ شِوَاءِ أَوْ قَدِيرٍ مُعَجَّلِ

وقوله :

وَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَذَى مَعِيشَةٍ كَفَانِي - وَلَمْ أَطَابْ - قَلِيلٍ مِنَ الْمَالِ
وَلَكِنَّمَا أَسْعَى لِجِدِّ مُؤْتَلٍ وَقَدْ يُدْرِكُ الْمَجْدَ الْمُؤْتَلِ أَمْثَالِ

وشعره - وإن اشتمل بشملة البداوة في جفاء العبارة ، وخشونة الألفاظ ، وتجهّم المعاني - تراه يحظر أحياناً في حُلٍّ من حسن الدّيباجة ، وبديع المعنى ، ودقة النسب ، ومقارَبة الوصف ، وسهولة المأخذ ، مما كان منه خلفه أجهل مثل حاكوه في تزيق شعرهم وحسن تأتّيمهم في تصوير معانيه .

فمن النوع الأول قوله في وصف محبوبته :

وَإِذْ هِيَ تَمْشِي كَمْشَى النَّزِيدِ فِي يَصْرَعُهُ بِالْكَيْبِ الْبَهْرِ
بَرَهْرَهَةَ رُودَةٍ رَخِصَةٍ كَحُرْعُوبَةِ الْبَسَانَةِ الْمَنْفَطِرِ

وقوله في مملّته :

وَفَرَعٌ يَفْشَى الْمَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ أَمِيثٌ كَفَقْنُو النَّخْلَةِ الْمُتَعَشِكِلِ
غَدَائِرُهُ مُسْتَشْرِزَاتٌ إِلَى الْعَمَلِ تَضَلُّ الْعِقَاصُ فِي مُشْنَى وَمُرْسَلِ
وَكَشْحٌ لَطِيفٌ كَالْجُدِيلِ مُخَصَّرِ وَسَاقِي كَأَنْبُوبِ السَّقْيِ الْمَذَلِّ
وَتَعَطُّو بِرَخِصٍ غَيْرِ شَيْنٍ كَأَنَّهُ أَسَارِيعُ ظَبِي أَوْ مَسَاوِيكُ إِسْحَلِ

ومن النوع الثاني قوله :

كَأَنَّ عِيُونَ الْوَحْشِ - حَوْلَ خِبَائِنَا وَأَرْحُلِنَا - الْجُرْزُغُ الَّذِي لَمْ يُنْقَبِ =

وعبيد^(١)

= وقوله:

كَانَ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي

وقوله:

أَعْرَكَ مِنِّي أَنَّ حُبَّكَ قَاتِلِي وَأَنْتَ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلِ

ومن شعره السائر مسير الأمثال قوله:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَخْزُنْ عَلَيْهِ لِسَانَهُ فَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ سِوَاهُ بِخِزَانِ

وقوله:

فَإِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرِ ضَعِيفٍ، وَلَمْ يَغْلِبِكَ مِثْلُ مُغَابِ

وقوله:

وَقَدْ طَوَّفْتُ فِي الْآفَاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الْفَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ

(١) عبيد: هو عبيد - بفتح العين وكسر الباء الموحدة - بن الأبرص

ابن عوف بن جشم بن عامر بن مالك بن زهير بن مالك بن الحارث بن سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمية بن مدركة بن مضر، الأسدی، الشاعر، أحد فحول شراء الجاهلية، عده ابن سلام في الطبقة الرابعة، وقرنه بطرفة ابن العبد، وعلقمة بن عبدة التيمي، وعدي بن زيد العبادي، قال: وعبيد بن الأبرص قديم عظيم الشهرة، وشعره مضطرب ذاهب لا أعرف منه إلا قوله:

أَقْفَرٌ مِنْ أَهْلِ مَلْحُوبٍ فَالْقَطِيبَاتُ فَالذُّنُوبُ

قال: ولا أدري ما بعد ذلك، وقال الجاحظ: إن عبيدا وطرفة دون

ما يقال عنهما إن كان شعرهما ما في يد الناس فقط، وقد أشار أبو العلاء المعري

إلى اختلال بائية عبيد بقوله:

=

وَلَيْبِدٍ (١)

== وَقَدْ يُنْطِئُ الرَأْيَ امْرُؤٌ وَهُوَ حَازِمٌ كَمَا اخْتَلَّ فِي نَظْمِ الْقَرِيضِ عَبِيدُ

ويذكرون أن سبب قوله للشعر أنه كان محتاجاً ، ولم يكن له مال ، فأقبل ذات يومٍ ومعه غنيمة له ، ومعه أخته مَأْوِيَّةٌ لِيُورِدَ غنمهما ، فمنعه رجل من بني مالك بن ثعلبة ، وجبَّه (أى قَابَلَه بما يكره) ، فانطلق حزينا مهموماً للذي صنع به المالكى ، حتى أتى شَجَرَاتٍ ، فاستظلَّ تحتهن ، فنام هو وأخته ، فيزعمون أن المالكى نظر إليه - وأخته إلى جنبه - فقال :

ذَاكَ عَبِيدٌ قَدْ أَصَابَ مَيًّا يَا لَيْتَهُ أَلْفَحَهَا صَبِيًّا

فَحَمَلَتْ فَوَلَدَتْ ضَاوِيًّا

(ضاويا : أى ضعيفاً ، والعرب تزعم أن زَوَاجَ القرائب يُضْعِفُ الولد) فسمعه عبيد فرفع يديه ، ثم ابتهل فقال : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ فُلَانٌ ظَلَمَنِي فَأَدِلِّي مِنْهُ وَأَنْصُرْنِي عَلَيْهِ ، ووضع رأسه فنام ، ولم يكن قبل ذلك يقول الشعر ، فأتاه آتٍ فى المنام بكبة من شعر حتى ألقاها فى فيه ، ثم قال : قُمْ ، فقام وهو يرتجز وينثى ببني مالك ، وكان يقال لهم : بنو الزنية :

أَيَا بَنِي الزَّنِيَّةِ مَا غَرَّكُمْ ۱؟ فَلَكُمْ الْوَيْلُ بِسِرِّبَالٍ حَجَرِ

ثم استمرَّ بعد ذلك فى الشعر ، وصار شاعر بنى أسد غير مُدَافِعٍ ، وأدرك حُجْرًا أبا امرئ القيس .

(١) لبيد : هو أبو عقيل لبيد بن ربيعة العامرى ، أحدُ أشرف الشعراء المجيدين ، والقواد الفرسان المعمرين ، والأجواد العريقين ، والحكماء المحنكين ، وهو من بنى عامر بن صعصعة أحد بطون هوازن من مُضَرَ ، وأمه عبسية . نشأ لبيد جواداً ، شجاعاً ، فانسكا ؛ فأما الجودُ فقد ورثه عن أبيه الملقب « بريعة المُعْتَرِّين » ويقال « بريعة المُقْتَرِّين » ، وأما الشجاعة والفنك فهما =

= خَصَلْنَا قَبِيلَتَهُ ؛ إِذْ كَانَ عَمَهُ الْمَلَقَبُ بِمَلَاعِبِ الْأَسِنَّةِ أَحَدَ فِرْسَانَ مُضَرَ فِي
 الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ بَيْنَ قَبِيلَتِهِ وَبَيْنَ عَبْسِ أَخْوَالِهِ عِدَاوَةٌ شَدِيدَةٌ ، فَاجْتَمَعَ وَفَدَاهُمَا
 عِنْدَ النَّعْمَانَ بْنِ الْمَنْذَرِ ، وَعَلَى الْعَبْسِيِّينَ الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادٍ ، وَعَلَى الْعَامِرِيِّينَ مُلَاعِبُ
 الْأَسِنَّةِ ، وَكَانَ الرَّبِيعُ مُقَرَّبًا عِنْدَ النَّعْمَانَ يُوَاكِلُهُ وَيُنَادِمُهُ ، فَأَوْغَرَ صَدْرَهُ عَلَى
 الْعَامِرِيِّينَ ، وَعَدَّدَ لَهُ مَعَايِبَهُمْ وَمَسَاوِيَهُمْ ، فَلَمَّا دَخَلَ وَفَدَّاهُمْ عَلَى النَّعْمَانَ غَضَّ مِنْهُ ،
 وَأَعْرَضَ عَنْهُ ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، وَخَرَجُوا غَضَابًا يَتَذَاكِرُونَ فِي أَسْرَمِهِمْ مَعَ الْمَلِكِ ،
 وَلِيَبْدُوَ يَوْمئِذٍ صَغِيرًا يَسْرَحُ بِإِلَهُمْ وَيُرْعَاهَا ، فَسَأَلَهُمْ عَنْ خَطْبِهِمْ ، فَاحْتَقَرُوهُ لَصَفَرِهِ ،
 فَأَلَحَّ عَلَيْهِمْ ، وَأَلْحَفَ فِي مَسْأَلَتِهِمْ ، حَتَّى أَشْرَكَوهُ مَعَهُمْ ، فَوَعَدَهُمْ أَنَّهُ سَيَنْتَقِمُ لَهُمْ
 غَدًا عِنْدَ النَّعْمَانَ أَسْوَأَ أَنْتِقَامٍ ، وَيَهْجُوهُ بِهِجَاءَ لَا يَجَالِسُهُ بَعْدَهُ وَلَا يُوَاكِلُهُ ؛ فَكَانَ
 ذَلِكَ وَمَقَّتَ النَّعْمَانُ الرَّبِيعَ ، وَلَمْ يَقْبَلْ لَهُ عِذْرًا ، وَلَمْ يَجْتَمِعْ بِهِ بَعْدُ ، وَأَكْرَمَ
 الْعَامِرِيِّينَ ، وَقَضَى حَوَائِجَهُمْ ، فَكَانَ هَذَا أَوَّلَ مَا أَشْتَهَرَ بِهِ لِيَبْدُ .

ثم قال بعد ذلك القطعات والمطولات ، وشهد له النابغة وهو غلام بأنه
 أشعر هوازن حين سمع معلقته التي أولها :

عَفَّتِ الدِّيَارُ مَحَلِّهَا فَمَقَامُهَا بِمَعْنَى تَابُدَّ غَوْلُهَا فَرَجَامُهَا

ومن حوادث فتكته : أن الحارث الأعرج النَسَّانِي أرسل مائة من
 الفتيان الفتاك على رأسهم ليبد ليغتالوا المنذر بن ماء السماء ، فذهبوا إليه ،
 وأظهروا أنهم أتوه داخلين في طاعته ، فأذناهم إليه ، ولما صادفوا منه غرّةً
 قتلوه وهربوا ، فقبضهم جند المنذر وقتلوا كثيرا منهم ، وفرّ الباقي وفيهم ليبد
 ولما ظهر الإسلام وأقبلت وفود العرب على النبي صلى الله عليه وسلم جاء ليبد
 في وفد بني عامر وأسلم وعاد إلى بلاده ، وحسن إسلامه ، وتنسك ، وحفظ القرآن
 كله ، وهجر الشعر حتى لم يُرَوْ له بعد الإسلام غير بيت واحد ، قيل : هو قوله : =

وَطَرَفَةٌ (١)

وَمُعْذِرَةٌ لِحُقُوقِهَا هَضَامُهَا
 فَضْلًا، وَذُو كَرَمٍ يُعِينُ عَلَى النَّدَى
 مِنْ مَعْشَرٍ سَنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ
 لَا يَطْبَعُونَ وَلَا يَبُورُ فَعَالِمُ
 قَاتِنِغٍ بِمَا قَسَمَ الْمَلِيكُ؛ فَإِنَّمَا
 وَإِذَا الْأَمَانَةُ قُسِّمَتْ فِي مَعْشَرٍ
 وَقَالَ يَرَى النِّعْمَانَ :

أَلَا تَسْأَلَانِ الْمَرْءَ مَاذَا يُحَاوِلُ؟
 أَرَى النَّاسَ لَا يَدْرُونَ مَا قَدَرُ أَمْرِهِمْ
 أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهُ بَاطِلٌ
 وَكُلُّ أَنَاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ
 وَأَنْحَبُ فَيَقْضَى أَمْ ضَلَّالٌ وَبَاطِلٌ؟
 بَلَى كُلُّ ذِي لُبٍّ إِلَى اللَّهِ وَاسِلٌ
 وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ
 دُونِهَا تَصْفَرُّ مِنْهَا الْأَنَامِلُ
 وَقَالَ يَرَى أَخَاهُ أَرْبَدَ :

وَمَا الْمَالُ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وَدَائِعٌ
 وَمَا النَّاسُ إِلَّا عَامِلَانِ : فَعَامِلٌ
 فَهُمْ سَفِيهُدٌ آخِذٌ بِنِصْبِهِ
 وَلَا بَدُّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ
 يُتَسَبَّرُ مَا يَبْنِي ، وَآخِرُ رَافِعٌ
 وَمِنْهُمْ شَقِيٌّ بِالْمَعِيشَةِ قَانِعٌ

(١) طَرَفَةٌ : هو عمرو بن العبد البكري ، أقصر فحول الجاهلية عمرًا ،
 وأجودهم طويلاً ، وأوصفهم للناقة ، مات أبوه وهو صغير ، وولى أمره أعمامه ،
 ومال إلى البطالة ، واللهم ، والأخذ بأسباب الصبوة والفتوة ، وقول الشعر
 والوقوع به في أعراض الناس ، حتى هجأ قومه وأهله ، وحتى هجأ عمرو بن هند =

= ملك العرب على الخيرة، مع أنه كان يتطَلَّبُ معروفه وجُودَه ، فبلغ عمرو بن هند هجاء طرفه له ، فاضطنها عليه ، وأسرها في نفسه ، حتى إذا ماجاه هو وخاله المتلمسُ يتعرَّضَانِ لفضله — وكان قد بلغه عن المتلمس مثلُ الذي وصل إليه عن طرفة — أظهر لهما البشاشة والوداد ليؤمِّنهما ، وأمر لكل منهما بجائزة، وكتب لهما كتابين، وأحالهما على عامله بالبحرين ليستوفياهما منه ، فبينماهما في الطريق ارتأب المتلمسُ في صحيفته ، فخرج على غلام يقرؤها له ، ومضى طرفه ، فإذا في الصحيفة الأمر بقتله ، فألقى الصحيفة ، وأراد أن يلحق طرفه فلم يدركه ، وفرَّ إلى ملوك غسان ، وذهب طرفه إلى عامل البحرين ، وقُتِلَ هناك وعمره نحو ست وعشرين سنة .

وقال طرفة الشعر وهو صبي فنبح فيه حتى عُدَّ من الفحول ولم يُنَيَّف على العشرين ، وزاد عليهم بقصيدته الطويلة التي وصف فيها الناقة بخمسة وثلاثين بيتاً وضمناً لم يسبقه إليه أحد ، وتُمدُّ معلقته من أجود المعلقات ، وأكثرها غريباً ، وأغزرها معنى ، وروى له غيرها من الشعر ، ولكنه قليل بالنسبة لشهرته ، وربما دلَّ هذا على أن الرواة قد جهلوا أكثره ، ويجيدُ طرفة الوصف في شعره ، مقتصرًا فيه على بيان الحقيقة ، بعيداً عن التلوُّ والإغراق ، وكذلك كان هجاؤه على شدة وقعه ، ومطلع معلقته :

نَحْوَةَ أَطْلَالٍ بِرُقَّةٍ نَهْمِدِ تَلُوْحُ كِتَابِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ

ومنها :

رَأَيْتُ بَنِي غَبْرَاءَ لَا يُنْكِرُونَنِي وَلَا أَهْلُ هَذَاكَ الطَّرَافِ الْمُدِّدِ
أَلَا أَيُّهَا الزَّاجِرِيُّ أَحْضَرَ الْوَعْيِ وَأَنْ أَشْهَدُ اللَّذَّتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي
فَإِنْ كُنْتَ لَا تَسْطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي فَدَعْني أَبَادِرها بِمَا مَلَكَتْ يَدِي
أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِي عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمَتَشَدِّدِ =

= ومن أبياته السائرة قوله :

وظلم ذوى القربى أشدَّ مضاضةً
أرى الموت أعدادَ النفوسِ، ولا أرى
ستبدي لك الأيامُ ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالأخبارِ من لم تبع له

وقوله :

كلُّ خليلٍ كنتُ خالتهُ
كلهم أروغٌ من ثعلبٍ
لا ترك الله له واضحةً
ما أشبه الليلة بالبارحة

وقوله :

وأعلمَ علماً ليس بالظنُّ أنه
وإن لسان المرء - ما لم يكن له
إذا ذلَّ مولى المرء فهو ذليلٌ
حصاة - على عوراتِهِ لدليلٌ

وقوله :

قد يبعثُ الأمرُ الصغيرُ كبيره
حتى تظلَّ له الدماء تصببُ

ومن كلامه يفتخر :

نحنُ في المشاة ندعو الجفلى
حين قال الناسُ في مجلسهم :
بجفانٍ تغترى ناديتنا
كالجوابي لا تني مزرعة
لا ترى الآدابِ فينا يندتقر
أفتارُ ذاك أم ریح قطر
من سدیفِ حين هاج الصنبر
لقرى الأضيافِ أو للمحتضر
إنما يحزن لحم المدخر
حين لا يُنسكها إلا الصبر =

نمستك الخليل على مكرورها

فَلَمْ يَطْرَبْ لِسَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: أَنْشِدْكَ مِنْ شِعْرِي؟ فَقُلْتُ لَهُ: إِيه، فَأَنْشَدَ:
 بَانَ الْخَلِيْطُ وَلَوْ طَوَّعْتَ مَا بَانَ وَقَطَّعُوا مِنْ حِبَالِ الْوَصْلِ أَقْرَانًا^(١)
 حَتَّى أَتَى عَلَى الْقَصِيْدَةِ كُلِّهَا، فَقُلْتُ: يَا شَيْخُ هَذِهِ الْقَصِيْدَةُ لَجْرِيْرِ
 قَدْ حَفِظْتَهَا الصَّبِيَّانُ، وَعَرَفَهَا النَّسْوَانُ، وَوَلَجْتَ الْأَخْبِيَّةَ^(٢).

= ومن قوله في وصف الفاقة:

| | |
|--|---|
| وَأِنِّي لَأَمْضِي الْمَهْمَ عِنْدَ احْتِضَارِهِ | بِعَوْجَاءِ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وَتَغْتَدِي |
| أُمُومٍ كَأَلْوَاكِ الْإِرَانِ نَصَانُهَا | حَلَى لَا حَبِّ كَأَنَّهُ ظَهْرُ بُرْجِدٍ |
| جُمَالِيَّةٌ وَجِنَاءُ تَرْدِي كَأَنَّهَا | سَفَنَجَةٌ تَبْرِي لِأَزْعَرِ أُرْبِدٍ |
| تُبَارِي عِتَاقًا نَاجِيَاتٍ وَأَتْبَعْتُ | وَطِيفًا وَطِيفًا فَوْقَ مَوْرِ مُعَبَّدٍ |
| تَرَبَّعْتُ الْقَفَيْنِ فِي الشُّوْلِ تَرْتَعِي | حَدَائِقَ مَوَالِي الْأَسْرَِةِ أَعْيِدِ |
| تَرْبِعُ إِلَى صَوْتِ الْمَهْيَبِ، وَتَتَقَى | بَذِي خَصَلِ رَوَعَاتٍ أَكَلَفَ مَلْبِدِ |
| كَانَ جَنَاحِي مَضْرَحِي تَكْنَفَا | حَفَافِيهِ شَكَا فِي الْعَسِيْبِ بِسَرْدِ |
| فَطُورًا بِهِ خَافَ الزَّمِيلُ، وَتَارَةً | حَلَى حَشَفَ كَالشَّنِّ ذَاوِ مَجْدِدِ |

(١) بان: افترق وبعد، والخليط: الجماعة الذين تجمعهم المصالح فتخاطب بينهم، وطوَّعت: أطعت ووافقَت، ويروي «طوَّعت» بالبناء للمجهول - أي لو أنهم أطاعوك وقبلوا ما طلبت، والأقران: جمع قرن، وهو الحبل يُشدُّ به البعيرانِ معاً، والمعنى: إن القوم الذين كانت معهم خلطتكَ قد فارقوك ولو أنك وافقتهم وسرت معهم لم يكن بينكم فراق أبَد الدهر.

(٢) الأخبية: جمع خباء وهو الخيمة، والأندية: جمع نادٍ وهو مجلس القوم ويحل سمرهم، وكلُّ هذه كنايات عن شهرتها وذُيُوع انتسابها لجرير. وجرير هو أبو حزرَةَ جرير بن عطية بن الخَطَفَى، التيمي، اليزبوعي، أحد فحول الشعراء الإسلاميين، وبلغاه المداحين الهجائين، وأنسب الثلاثة المُفْلِحِينَ، =

== بَصْرَ عَنْ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَأَحْرَاكَ بِهِ وَهَنْ أَضَعَفُ خَلْقِ اللَّهِ إِنْسَانًا

ويقال : إن أمدح بيت قوله :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْعَطَايَا وَأَنْتَدَى الْعَالِمِينَ بَطُونَ رَاحٍ ؟

ويقال : إن أفر بيت قوله :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْنِكَ بَنُو تَمِيمٍ رَأَيْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابًا

ويقال : إن أهجى بيت - مع التصون عن الفخس - قوله :

فَفُضَّ الطَّرْفُ إِنَّكَ مِنْ تَمِيمٍ فَلَا كَفْبًا بَلَفْتَ وَلَا كِلَابًا

ويقال : إن أصدق بيت قوله :

إِنِّي لَأَرْجُو مِنْكَ خَيْرًا عَاجِلًا وَالنَّفْسُ مُوَلَّعَةٌ بِحُبِّ الْعَاجِلِ

ويقال : إن أشد بيت تهكما قوله :

زَعَمَ الْفَرَزْدَقُ أَنْ سَيَقْتُلُ مِرْبَعًا أَبْشِرْ بِطُولِ سَلَامَةَ يَا مِرْبَعُ

ونحو ذلك كثير في شعره . . قيل : وقد لمب جرير وجد في قصيدة يهجو

بها الأخطل التغلبي بما لو أرادته غيره لامتنع عليه ، ففي لمبه يقول :

إِنَّ الَّذِينَ غَدَوْا بِلُبِّكَ غَادَرُوا وَشَلَّا بِعَيْنِكَ لَا يَرَالُ مَعِينَا

غَيْضُنَ مِنْ عَبْرَانِهِنَّ وَقُلْنَ لِي : مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْهَوَى وَتَقِينَا ؟

وفي جده يقول :

جَمَلَ الْخِلَافَةِ وَالثُّبُوءَةَ فِينَا إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ الْمَكَارِمَ تَغْلِبَا

مُضْرَأِي ، وَأَبُو الْمُلُوكِ ، فَهَلْ لَكُمْ يَا خَزَرَ تَغْلِبَ مِنْ أَبِي كَأَيْبِنَا ؟

هَذَا ابْنُ عَمِّي فِي دِمَشْقَ خَلِيفَةَ لَوْ شِئْتُ سَأَقْكُمُ إِلَى قَطِينَا =

وَوَرَدَتْ الْأَنْدِيَةَ ، فَقَالَ : دَعْنِي مِنْ هَذَا ، وَإِن كُنْتُ تَرَوِي لِأَبِي
نُوَاسٍ شِعْرًا فَأَنْشِدْنِيهِ ، فَأَنْشَدْتُهُ :

لَا أَنْدُبُ الدَّهْرَ رَبْعًا غَيْرَ مَانُوسٍ وَلَسْتُ أَصْبُو إِلَى الخَادِينَ بِالْعَيْسِ (١)
أَحَقُّ مَنزِلَةً بِالْهَجْرِ مَنزِلَةً وَصَلُّ الْحَبِيبِ عَلَيْهَا غَيْرُ مَلْبُوسِ (٢)

= قيل : فلما بلغ عبد الملك هذا الشعرُ قال : ما زاد ابن المراغة أن جعلني
شرطيا ! أما إنه لو قال :

* لَوْ شَاءَ سَأَقُكُمْ إِلَى قَطِينَا *

لَسَقَمْتُمْ إِلَيْهِ كَمَا قَالَ .

ومن بديع شعره القصيدةُ المذكور مطلعها بالمقامة ومنها قوله :

لَا بَارَكَ اللهُ فِي الدُّنْيَا إِذَا انْقَطَعَتْ أَسْبَابُ نُنَاكٍ مِنْ أَسْبَابِ دُنْيَانَا
مَا أَحَدَثَ الدَّهْرُ مِمَّا تَعَلَّمِينَ لَكُمْ لِلْحَبْلِ صَرْمًا ، وَلَا لِلْعَهْدِ نَسِيَانَا
أَبْدَلَ اللَّيْلِ لَا تَسْمُرِي كَوَاكِبُهُ أَمْ طَالَ حَتَّى حَسِبْتُ النَّجْمَ حَيْرَانَا ؟

(١) نَدَبَ المَيْتِ : بكى عليه وعدَّد محاسنه ، والرَّبع : الدار ، أو الحلة ،
والجمع رُبُوعٌ وأزْبَاعٌ وأرْبُوعٌ ، وغير مَانُوسٍ : ليس مسكونا ، فارقَه أهله ، وصَبَا
يَصْبُو: مال ، والعَيْسُ: الإبل . وأبو نُوَاسٍ قد يكون أولَ من أكثر من إنكاره
على الشعراء وقوفهم على الأطلال ، وبكاهم على الدَّمَنِ ، واستنطاقهم التَّوْىَ
والأحجار ، وذكروهم مَعَانِي الأَحْبَابِ وتَعَفَّى الرياح لها ، فهو يقول في هذا البيت :
إنه لا يبكي على رَبْعٍ لا يُجِلُّه أحد ، ولا تميل نفسه إلى ذكر الإبل وحداثتها .

(٢) هذا البيت يشبه أن يكون استدلالا على مذهبه ، وهو لَعَمْرِي دليل
ناهض ، يقول : إن أَحَقَّ مكان بأن يهجره الإنسان وَيَنْفِرَ منه ذلك المكان
الذي أصبح وصالُ الحبيب فيه أمرا غير ممكن .

يَالَيْلَةَ غَبَرْتَ مَا كَانَ أَطْيَبَهَا وَالْكُوسُ تَعْمَلُ فِي إِخْوَانِنَا الشُّوسِ (١)
 وَشَادِنٍ نَطَقَتْ بِالسَّحْرِ مُقْلَتُهُ مُزَنَرٌ حَلَفَ تَسْبِيحٍ وَتَقْدِيسِ (٢)
 نَارَعْتُهُ الرَّيْقَ وَالصَّهْبَاءَ صَافِيَةً فِي زِيٍّ قَاضٍ وَنُسْكِ الشَّيْخِ إِبْلِيسِ (٣)
 لَمَّا مَمَلْنَا وَكُلَّ النَّاسِ قَدْ تَمَلُّوا وَخَفِتُ صَرَغَتُهُ إِبَائِي بِالْكُوسِ
 غَطَطْتُ مُسْتَنْعِصًا نَوْمًا لِأَنْفِيسِهِ فَاسْتَشَعَرْتُ مُقْلَتَاهُ النَّوْمَ مِنْ كَيْسِي (٤)

(١) غَبَرْتَ: مضت ، والكُوس: جمع كاس ، وأصله كُؤوس ، فخففت الهمزة بقلبها واوا ، ثم حذفها لما اجتمع واوان ساكنان ، والشُّوسُ: جمع أشوس ، وهو الذي ينظر إليك بمؤخر عينه كبرا ، وإذا كانت الخمر قد أمالت هؤلاء فكيف بغيرهم ؟

(٢) الشادن: الغزال إذا قَوِيَ وطلع قرناه واستغنى عن أمه ، والمراد صبي مثله ، على التشبيه ، وقد شَدَنَ - من باب دخل - إذا صار كذلك ، قال الشاعر :
 يَأْمَا أُمَيْلِحَ غَزْلَانَا شَدَنَّ لَنَا مِنْ هُوَلِيَّائِكُنِ الضَّالِّ وَالسَّمْرِ
 والشَّدَنِيَّاتُ من النوق: منسوبة إلى موضع باليمن ، ومُزَنَرٌ: يلبس الزُّنَّار وهو ما يكون على وَسَطِ النصارى والمجوس ، ومثله الزنارة والزبير ، وحَلَفَ تَسْبِيحٍ وَتَقْدِيسِ: أى طائع عابد ، لا يفتر عن تسبيح الله وتقديسه .

(٣) نَارَعَهُ نِزَاعًا وَمُنَازَعَةً: جاذبه ، والصهباء: من أسماء الخمر ، وصافية: واقم موقع الحال من الصهباء ، والمعنى: إننى جاذبته الكأس وأنا ألبس لبوس المتعبدین وأزرباً بزى النسك .

(٤) يقال للشارب الذى يتمايل من الشراب: تَمَلَّى ، والمعنى: إنه لما أخذت الخمرُ بعقولنا ، وظهر فعلها فينا ، وخشيت أن يلقينى صريعا من كثرة ما يقدم لى منها .

(٥) غَطَّ النَّائِمُ يَغْطِي غَطِيظًا: تردّد نفسه حتى صار له صوت ، والكيس =

وامتدَّ فوقَ سَرِيرِ كَانِ أَرْفَقَ بِي
 وَزُرْتُ مَضْجَعَهُ قَبْلَ الصَّبَاحِ وَقَدْ
 فَقَالَ: مَنْ ذَا؟ قُلْتُ: الْقَسُّ زَارٌ، وَلَا
 فَقَالَ: بِنْسٍ لَعْمَرِي أَنْتَ مِنْ رَجُلٍ
 قَالَ: فَطَرَبَ الشَّيْخُ وَشَهَقَ وَزَعَقَ^(٣)، فَقُلْتُ: قَبَّحَكَ اللَّهُ مِنْ شَيْخٍ
 لَا أَذْرِي أَيْبَانْتِحَالِكَ^(٤)، شِعْرَ جَرِيرٍ أَنْتَ أَسْخَفُ أُمِّ بَطْرَبِكَ مِنْ شِعْرِ
 أَبِي نُوَّاسٍ وَهُوَ فُوَيْسِقٌ عَيَّارٌ^(٥) ٢٢. فَقَالَ: دَعْنِي مِنْ هَذَا وَأَمُضِ قَلِي

= خلاف الحق ، وأصله بفتح أوله فكسره ضرورة ، وفسره الإمام بوعاء الدرهم
 وتمحل له وتبعه على ذلك بعض النقلة الذين لا يميزون بين غث المأى وسميها ،
 وللعنى على ما ذكرنا أنه تناوَمَ لينام ذلك الشادن ، مخافة أن يطول عليه مجلس
 الشراب ، فنجمت حيلته وذلك من آثار كياسته

(١) المَضْجَعُ: مكان الرقاد ، ومن عادات النصارى أن يدُقُوا النواقيس
 قبيل الشمس ينادون بها عابديهم ليقوموا التقاليد الدينية ، وأبو نواس يقول:
 إنه زار مَضْجَعَ الشادن في هذا الوقت .

(٢) بالبئس: أى الرجل الذى يقال فى حقه «بئس» أى أنه ليس مذموماً .
 (٣) الطَّرَبُ: خفة تصيب الإنسان لشدة حزن أو سرور ، وشهق - بالفتح
 يشهق - بالفتح والكسر - شهيقاً : أى ارتفع صوته ، والشهقة :
 كالصيحة ، وزَعَقَ - من باب قطع - صاح ، والمعنى : إن الطرب أخذ بلبُّ
 هذا الشيخ ومال بقله ، فصار يصيح ويزعق ، وإنما يكون هذا من ذهل
 وامتلاك السرور فؤاده فهو لا يعي .

(٤) اتحل فلان شعر غيره أو قول غيره : إذا أدعاه لنفسه ، ومثله تنحلَّ

(٥) الفُوَيْسِقُ : تصغير فاسق ، والعيَّار : الذى يلقي لنفسه حبلها على

غاربها ، لا يهديها إلى فضيلة ، ولا يزجرها عن ارتكاب مذمة

وَجِبْكَ ، فَأَذَا لَقِيتَ فِي طَرِيقِكَ رَجُلًا مَعَهُ نَحْيٌ صَغِيرٌ يَدُورُ فِي الدُّورِ ،
 حَوْلَ الْقُدُورِ ، يَرْهَى بِجِلْبَتِهِ ، وَيُبَاهِي بِبَلِيحَتِهِ ^(١) ، فَقُلْ لَهُ : دُلَّنِي عَلَى
 حُوتٍ مَضْرُورٍ ، فِي بَعْضِ الْبُحُورِ ، مَخْطَفِ الْخُصُورِ ، يَلْدَغُ كَالزُّنْبُورِ ،
 وَيَقْتَمُ بِالنُّورِ ، أَبُوهُ حَجَرٌ ، وَأُمُّهُ ذَكَرٌ ، وَرَأْسُهُ ذَهَبٌ ، وَأَسْمُهُ لَهَبٌ ،
 وَبَاقِيهِ ذَنْبٌ ، لَهُ فِي الْعَالَمِيَّاتِ ، عَمَلُ السُّوسِ ، وَهُوَ فِي الْبَيْتِ ، آفَةُ الزَّيْتِ ،
 شَرِيبٌ لَا يَنْقَعُ ، أَكُولٌ لَا يَشْبَعُ ، بَدُولٌ لَا يَمْنَعُ ، يُنْمَى إِلَى الصُّعُودِ ،
 وَلَا يَنْقُصُ مَالَهُ مِنْ جُودٍ ، يَسُوءُكَ مَا يَسُرُّهُ ، وَيَنْفَعُكَ مَا يَضُرُّهُ ^(٢) ، وَكَنتُ
 أَكْتُمُكَ حَدِيثِي ، وَأَعِيشُ مَعَكَ فِي رَحَاءِ ، لِسْكَنِكَ أَبَيْتَ فَخِذِ الْآنِ ،
 فَمَا أَحَدٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ إِلَّا وَمَعَهُ مُعِينٌ مِنَّا ، وَأَنَا أَمْلَيْتُ عَلَى جَرِيرٍ هَذِهِ
 الْقَصِيدَةَ ، وَأَنَا الشَّيْخُ أَبُو مُرَّةٍ ^(٣) .

(١) يريد أن يلغز في المذبة وسيأتي في كلامه بيان ذلك ، وهي خشبة تنمشى
 بالجلد في أطرافها خوصٌ ، والنحْيُ أصله : الزق يوضع فيه نحو السمن والاعسل ،
 ولما كان يخفى ما بداخله وجلد المذبة يخفيها شَبَّهَهَا به من هذه الجهة ، والمذبة من
 خصائصها أنها تستعمل في طرد الذباب وشبهه عن القدور والطعام فهي تدور
 في الدور حول القدور ، ويُرْهَى : يعجب - بالبناء للجھول فيهما - لأنهما لم
 يستعملا على صيغة المبني للفاعل ، وأراد من اللحية الخوص الذي يُدَبُّ به الذباب .

(٢) هذا لغز آخر في السَّراج وقد شَبَّهه بالحوث في أن كلا منها لا يعيش
 إلا في السائل : الحوت في البحر ، وهذا في المشرجة ، ومخطفُ الخصور : تحيلها
 وأعم : لبس العمامة ، وعمامة السَّراج هي النور كما ذكر ، وأبوه حَجَرٌ : أي الذي
 أخرج مادته - وهي الزيت - حَجَرُ الْمِفْصَرَةِ ، وأمه ذكر : أي أنه يعيش بين أحضان
 ذكر وهو القنديل ، لأنه يعبر عنه بضمير المذكر ، وله في الملبوس الحريق ، وهو
 أشد مما يعمل السُّوسُ ، ويُنْمَى إلى الصعود : أي أنه دائم الارتفاع لا ينخفض ،
 فكانه منسوب إليه .

(٣) أبو مُرَّةٍ : كنية إبليس ، والهاجس : أصله الخاطر الذي يخطر في =

..
 = القلب ، وأريد به في مثل هذه العبارات ما يليه على لسان الشاعر رثية من الجن .
 وقد تقدّم الإلماع إلى هاجس بعض الشعراء في المقامة السودية ، وأن العرب
 كانت تمتقد أن لكل واحد منهم رثية من الجن يُملئ عليه قصائده .

قالوا : وهاجس أمرىء القيس اسمه لأفط بن لآحظ . وحَدَّثَ رجل من أهل
 الشام أنه خرج في طلب لِقَاحٍ له على فحَلٍ كأنه فَدَنٌ يسبق الريح حتى رفعه إلى
 خَيْبَةٍ في فِنَانِهَا شَيْخٌ كبير ، قال : فسَلَّمْتُ فلم يردَّ عليّ ، فقال : مِن أين وإلى أين ؟
 قال : فاستَحَمَمْتُه إذ بَجَلَ برد السلام وأسرع إلى السؤال ، فقالت : من ههنا
 (وأشرت إلى خاني) وإلى ههنا (وأشرت إلى أمي) فقال : أما ههنا فنعم ، وأما
 إلى ههنا فوالله ما أراك تَبْهَجُ بذلك ، إلا أن يسهل عليك مُدَارَاةَ مَنْ ترد عليه !
 قلت : وكيف ذلك أيها الشيخ ؟ قال : لأن الشكل غير شكلك ، والزي غير زيك ،
 فضرب قلبي أنه من الجن ، قلت : أتروى من أشعار العرب شيئاً ؟ قال : نعم ،
 وأقول ، قلت : فأنشدني - كالمستهزىء به - فأنشدني قولَ أمرىء القيس :

قِفَانِيبِكِ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بَسِطِ اللَّوِيِّ بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوِّمِلِ
 فلما فرغ قلت : لو أن امرأ القيس يُنشر ردَّ عكَّ عن هذا الكلام ، فقال :
 ماذا تقول ؟ قلت : هذا لامرئ القيس ، قال : لست أول من كَفَّرَ نعمة أسداها ،
 قلت : ألا تستحي أيها الشيخ ، المثل أمرئ القيس يقال هذا ؟ قال : أنا -
 والله - مَنَحْتُهُ ما أعجبك منه ! قلت : فما أسْمُكَ ؟ قال : لافظ بن لآحظ .
 قلت : اسمان مفكران ، قال : أجل ، فاستَحَمَمْتُ نفسي له بعد ما استحقمته لها ،
 وقد عرقت أنه من الجن

وذكروا أن هاجس الأعشى اسمه مسحل بن أئانة ، ويروون عن الأعشى
 أنه قال : خرجت أريدُ قيس بن معد يكرب بحضر موت ، فضلت في أوائل
 أرض اليمن ؛ لأنني لم أكن سَلَكَتُ ذلك من قبل ، فأصابني مطر ، فرميت
 ببصرى أطلب مكاناً ألتجأ إليه ، فوقعت عيني على خِباءٍ من شَعْرٍ ، فقصدت نحوه ، =

= مقصدي ، وقال : لا تَعَجُّ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا حَتَّى تَقَعَ بِبِلَادِ قَيْسِ

وروى عن جرير بن عبد الله البجلي الصحابي رضى الله عنه أنه قال : سافرتُ في الجاهلية ، فأقبلت ليلةً على بعير أريد أن أسقيه ، فلما قرَّبته من الماء تأخَّرَ ، فَمَقَلْتُهُ ودنوت من الماء ؛ فإذا قوم مُشَوَّهُونَ عند الماء ، فبينما أنا عندهم إذ أتاهم رجل أشدُّ تشويهاً منهم ، فقالوا : هذا شاعر ، ثم قالوا : يا أبا فلان أنشد هذا فإنه ضيف ، فأنشد :

وَدَعَّ هُرَيْرَةَ إِنْ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعًا أَيُّهَا الرَّجُلُ ؟

فوالله ما خرمت منها بيتا ، حتى أتى على آخرها ، فقلت : مَنْ يقول هذه القصيدة ؟ قال : أنا أقولها ، قلت : لولا ما تقول لأخبرتُك أن أعشى قيس ابن ثعلبة أنشدَ نبيها عامَ أوَّلِ بَنَجْرَانَ ، قال : إنك صادق ، أنا الذى ألقىتها على لسانه ، وأنا مسحل بن أناة ، ماضاع شعرُ شاعرٍ وضَّعه عند ميمون بن قيس . قالوا : واسم هاجس النابغة هاذر ووفى حديث الرجل الشامى المتقدم

في قصة امرئ القيس أنه سأل لافظاً مَنْ أشعر العرب ؟ فأنشأ يقول :

ذَهَبَ ابْنُ حُجْرٍ بِالْقَرِيضِ وَقَوْلِهِ وَلَقَدْ أَجَادَ فَمَا يُعَابُ زِيَادُ
لِلَّهِ هَازِرُ إِذْ يَجُودُ بِقَوْلِهِ إِنَّ ابْنَ مَاهِرَ بَعْدَهَا لَجَوَادُ

فسأله الشامى : مَنْ هاذر ؟ قال : صاحب زياد الذبياني ، وهو أشعر الجن وأضنهم شعره ، فالمعجب له كيف سلسل لأخى ذبيان ، ولقد علم بنية لى قصيدة له من فيه إلى أذنها ثم صرخ بها : أَخْرُجِي فِدَى لِكَ مَنْ وَلَدَتْ حَوَاءَ ، فقلت له : ما أنصفتَ أيها الشيخ ، فقال : ما قلت بأسا ، ثم رجعتُ إلى نفسى فعرفت ما أَرَادَ ، فسكتُ ، ثم أنشدتني الجارية :

نَأَتْ بِسَعَادَ عَنكَ نَوَى شَطُونُ فَبَانَتْ ، وَالْقَوَادُ بِهَذَا حَزِينُ =

قال عيسى بن هشام: ثم غاب ولم أره ومضيت لوجهي، فلقيت رجلاً في يده مذبذبة، فقلت: هذا والله صاحبي، وقلت له ما سمعت [منه] فأتوني مسرجة، وأومأ إلى غار في الجبل مظلم، فقال: دونك الغار^(١)، ومعك النار، قال: فدخلته فإذا أنا بإبلي قد أخذت سمها، فلويت وجوهها ورددتها، وبيننا أنا في تلك الحالة في الفياض أدب الخمر^(٢)، إذ بأبي الفتح الإسكندر ي تلقاني بالسلام، فقلت: ما حداك ويحك إلى هذا المقام^(٣)؟ قال: جور الأيام، في الأحكام،

= حتى أتت على قوله منها:

فألقيت الأمانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون

فقال: لو كان رأى قوم فيه كراى هاذر ما أصابهم العرق.

وما نظن ذلك إلا أحاديث خرافة، وإلا فكيف كان زهير بن أبي سلمى المزني - وهو واحد الشعراء ديباجة وحسن وضع وحكمة - يظل في تنقيح قصيدته عما كاملاً، وعلما الأدب مجمون على تسمية أربع من قصائده حويليات، إننا نمجب لذلك، ونستبعده، ولا يسعنا إلا أن نقول: ليست هذه أولى خرافات العرب في جاهليتهم، والمجيب الغريب الأغر من هذا أن يتناقل كبار الأدباء ذلك الكلام من غير تعليق عليه، ولا إشارة إلى بطلانه.

(١) أصل «دونك» اسم فعل بمعنى خذ، ولعله أراد خذ في السير إلى طريقه

(٢) الفياض: جمع غيضة، وهي مجتمع الأشجار، وأدب الخمر: أى أمشى

حشية المحاذر الذي يندع الناظرين إليه؛ فهو يخشى أن يشعر به أحد، وأصله مثل

(٣) أى ما الذى ساقك إلى ذلك المكان؟

وَعَدَمُ الْكِرَامِ ، مِنَ الْأَنَامِ ^(١) ، قَلْتُ : فَأُحْكَمُ حُكْمَكَ
يَا أَبَا الْفَتْحِ ، فَقَالَ : أَحْلِنِي عَلَى قَمُودٍ ^(٢) ، وَأَرِقْ لِي مَاءً فِي عُودٍ ^(٣) ،
فَقَلْتُ : لَكَ ذَلِكَ ، فَأَنْشَأُ يَقُولُ :

نَفْسِي فِدَاهُ مُحْكَمٌ كَلْفَتُهُ شَطَطًا فَأَسْجَحُ ^(٤)
مَا حَكَ لِحَيْتَهُ ، وَلَا مَسَحَ الْمُخَاطَ ، وَلَا تَنْخَنُحُ ^(٥)

مِمَّ أَحْبَبْتُهُ نَجْبَرِ الشَّيْخِ ، فَأَوْمَأُ إِلَى عِمَامَتِهِ ، وَقَالَ : هَذِهِ تَمْرَةٌ بَرَّةٌ ،
فَقَلْتُ : يَا أَبَا الْفَتْحِ شَحَذْتَ عَلَى إبليس؟ إِنَّكَ لَشَحَّاذٌ !!

(١) جور الأيام : ظلمها وعدم إعطائها كل ذي حق حقه ، فهي تشبه
القاضي إذا مال ولم ينصف ، وزادني قلقا واضطرابا أنني لم أجد بين الناس كريما
يَجُودُ عَلَيَّ ، وَيَنْتَشِلُنِي مِنْ بَحَالِبِ الدَّهْرِ ، فَإِذَا أَنَا أُدْفَعُ بِهِ الْمَسْغَبَةَ .
(٢) أَي أُعْطِنِي جَمَلًا أُرْكَبُهُ .

(٣) أَرَادَ امْنَحْنِي نَاقَةَ أَحْلِبُهَا وَأَشْرِبُ لِبْنِهَا .

(٤) الشُّطَطُ : مَجَاوِزَةُ الْحَدِّ ، وَأَسْجَحُ : مَعْنَاهُ أَنْصَفُ وَسَمَّحٌ وَأَحْسَنُ ،
ومنه قول عائشة لعلی رضی الله عنهما « مَا كُنْتُ فَأَسْجِحُ » أَي قَدَّرْتُ فَسَهَلُ
وَأَحْسِنِ الْعَفْوِ ، وَهُوَ مَثَلُ سَائِرٍ ، وَالْمَعْنَى : إِنَّهُ يَفْدِيهِ بِنَفْسِهِ ؛ لِأَنَّهُ بَدَّلَ لَهُ مَا يَجَاوِزُ
الْحَدَّ ، وَمَا يَمْنَعُهُ مِنْهُ كَثِيرٌ .

(٥) أَي لَمْ يَتَلَكَّأْ ، بَلْ أَجَابَنِي مِنْ فَوْزِهِ ، وَأَصْلُ هَذَا مَا ذَكَرَهُ أَبُو عُمَانَ
عَمْرُو بْنُ بَحْرِ الْجَاهِظِ فِي وَصْفِ الْخَطْبَاءِ بِاللُّكْنَةِ ، وَالْمَعْنَى ، وَالْحَصْرُ ، وَاحْتِبَاسُ
الْقَوْلِ ، وَالتَّمْتِمَةُ ، وَهُمْ يَسْتَتِرُونَ بِالنَّخْنَحَةِ وَنَحْوِهَا ، إِخْفَاءَ لِعَوَارِمِهِمْ ، وَسَتْرًا
لِعِيُوبِهِمْ ، وَقَالَ بَشْرُ بْنُ مَعْمَرٍ فِي نَحْوِ ذَلِكَ :

وَمِنَ الْكِبَائِرِ مَقُولٌ مُتَمَتِّعٌ جَمُّ النَّخْنُحِ مُتَعَبٌ مَبْهُورٌ =

٣٦ - المقامة الأرمينية

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

لَمَّا قَفَلْنَا مِنْ تِجَارَةِ إِرْمِينِيَّةَ أَهَدَتْنَا الْفَلَائَةَ إِلَى أَطْفَالِهَا ^(١) ، وَعَزَّرْنَا بِهِمْ فِي أَذْيَالِهَا ، وَأَنَاخُونَا بِأَرْضِ نَعَامَةٍ ^(٢) ، حَتَّى اسْتَنْظَفُوا حَقًّا ثَبْنًا ، وَأَرَاخُونَ كَأَثْبَانَا ^(٣) ، وَبَقِينَا بِيَاضَ الْيَوْمِ ، فِي أَيْدِي الْقَوْمِ ، قَدْ نَفَلْنَا الْقِدِّ أَخْرَابًا ، وَرُبِطَتْ خِيُولُنَا أَعْتِصَابًا ^(٤) .

(١) الفلّاة: الصحراء والأرض الواسعة التي لا شجر بها ولا نبات ، وأطفالها: اللصوص وقطاع الطريق ، سُموا بذلك لطول إقامتهم بها وعدم مبارحتهم إياها ، كما سُمى المحاويجُ والفقراء « بنى غبراء » في نحو قول طرفة :

رَأَيْتُ بَنِي غَبْرَاءَ لَا يَنْكِرُونَنِي وَلَا أَهْلُ هَذَاكَ الطَّرَافِ الْمُدَدِ

وإرمينية - بكسر أوله وتخفيف الياء الثانية أو بتشديدها - كورة بالروم ،

أو أربعة أقاليم ، أو أربع كور متصل بعضها ببعض ، يقال لكل كورة منها إرمينية ، والنسبة إليها أرميني بالفتح ، وهذا بعض ما يحدث من التغيير في النسب .

(٢) عثر: كبا ، وكأنه جعلهم حجرا يفتنون بسببه ، لشدة ما نالهم منه ، قال الأستاذ الإمام: ومعنى أرض نعامة مقارة ، ونقول: إنه لا يبعد أن يكون قد أراد بإضافة الأرض إلى النعامة جعلها سببا في جبنهم لتباعدها، ولشدة عدوهم ، وقلة غنائمهم أمامه ، وضعفهم في قتالهم ، من قولهم «أجبن من نعامة» ومثل قول الشاعر:

أَسَدٌ عَلَى ، وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ فَتَخَاءُ تَنْفِيرٌ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ

(٣) الحقايب: جمع: حقيبة ، وهي وعاء الثياب ، واستنظفوها: أخذوا

كل ما فيها حتى تركوها خالية ، والركائب: المطايا ، وأراحوها: أخذوا ما عليها .

(٤) أى أننا مازلنا عامة النهار تحت إمرتهم ، خاضعين لأحكامهم .

لأنهم قد أوثقونا بالقد ، وهو سير من جلد تُشدُّ به الأسارى ، وربطوا خيولنا قهرا .

وَأَنْتَضَى سَيْفُ الصُّبْحِ مِنْ قَرَابِ الظُّلْمَةِ^(١) ، فَمَا طَلَمَتْ شَمْسُ النَّهَارِ ،
إِلَّا عَلَى الْأَشْعَارِ وَالْأَبْشَارِ^(٢) ، وَمَا زَلْنَا بِالْأَهْوَالِ نَدْرًا حُجْبَهَا ،
وَبِالْفَلَوَاتِ نَقَطُحَ نَجْبَهَا ، حَتَّى حَلَلْنَا الْمَرَاغَةَ^(٣) ، وَكُلُّ مِنَّا انْتَضَمَ إِلَى
رَفِيقِ ، وَأَخَذَ فِي طَرِيقِ^(٤) ، وَأَنْضَمَ إِلَيَّ شَابٌّ يَفْلُوهُ صَعَارٌ ، وَتَفْلُوهُ

= الْفُلُكُ) والمراد بالمشى ليس المشى على الأقدام بل الاستمرار والدوام ، أى دُومُوا
على عبادة أصنامكم ، واحْبِسُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى ذَلِكَ ، والثانى أنه ليس المراد الطلب
حقيقة ، وإنما المراد الخبر ، وعبر عنه بصيغة الطلب كما فى قوله تعالى : ﴿ وَنَحْمِلْ
خَطَايَاكُمْ ﴾ ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ وجرًا : مصدر جَرَّه يَجْرُهُ ؛ إِذَا سَحَبَهُ ،
ولكن ليس المراد الجر الحسى ، بل المراد التعميم ، كما استعمل السَّحْبُ بهذا
المعنى ، ألا ترى أنه يقال : هذا الحكم مُنْسَحَبٌ عَلَى كَذَا ، أى شامل له ؛ فإذا
قيل : كان ذلك عام كذا وهلم جراً ؛ فكأنه قيل : واستمر ذلك فى بقية الأعوام
استمراراً ، وذلك جارٍ فى جميع الصور ، وهذا هو الذى يفهمه الناس من هذا
الكلام ، وبهذا التأويل ارتفع إشكال العطف ؛ فإن هَلُمَّ حِينَئِذٍ خَبْرٌ ، وإشكال
التزام إفراد الضمير ؛ إذ فاعل هلم هذه مفرد أبداً ، كما تقول : واستمر ذلك ، أو
استمر الذى ذكرته .

(١) شَبَّهَ بزوغ النور وانحسار الظلمة عنه بالجمال الرائع الذى يَطَّلَعُ من تحت
النَّقَابِ ، أو بالسيف الذى يستلُّ من غمده .

(٢) أى لم يكن عليهم ما يستترون به غير أشعارهم وبشرتهم ، وهى جلدة الجسم .
(٣) نَدْرًا : ندفع ونمنع ، والنَّجَبُ فى الأصل : لحاء الشجر وقشره ، والمعنى
لأنهم استمرُّوا فى مُدَاغَمَةِ الأَهْوَالِ والأرتطام بعباب الخواف ، يقطعون الصحراء
دائبين ، حتى وصلوا المرَاغَةَ ، وهى بلد بأذربيجان شرقى بحيرة أرمينية .

(٤) أى أنهم تقسَّمُوا فى سيرهم ؛ ففى كل اثنين معا ، وأخذنا طريقا غير
طريق الباقيين .

حَتَّى أَرْدَفَ اللَّيْلُ أَذْنَابَهُ ، وَمَدَّ النَّجْمُ أَطْنَابَهُ ، ثُمَّ انْتَحَوْا عَبْجَزَ الْفَلَاقَةِ ،
وَأَخَذْنَا صَدْرَهَا ، وَهَلُمُّ جَرًّا (١) ، حَتَّى طَلَعَ حُسْنُ الْفَجْرِ مِنْ نِقَابِ الْحِشْمَةِ ،

(١) أردف الليل أمجازه : استتبعها ، وجعل بعضها يتلو بعضها ، وهو كناية
عن اشتداد الظلمة واختباك المسق ، وهذه العبارة مأخوذة من قول امرئ القيس :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصَافِيهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَارًا وَنَاءً بِكُلِّ كَلِيلٍ

والأطناب : جمع طنُب ، وأصله الجبل الذي تُسَدُّ به الخيمة ، وأراد منه
هنا خيوط النور المنبثقة من النجوم وأشعتها ، وانتحوا : قصدوا ويموا ، والمراد
أنهم ساروا إلى جهة غير الجهة التي سلكها هؤلاء ، وهلم جرا : كلمة اختلاف
في عربيتها وفي تفسيرها ، قال في القاموس « هَلُمُّ بمعنى تعال ، وهو مركب من ها
التنبيه ومن لَمْ أى ضُمَّ نَفْسُكَ إلينا ؛ ثم استعمل استعمال البسيط ، يستوى فيه
الواحد والجمع والتذكير والتأنيث عند الحجازيين » وسبَّقه إلى ذكره صاحب
الصحاح ، وتبعه الصغاني ، فقالا : لا تقول كان ذلك عام كذا وهلم جرا إلى اليوم ،
ولا يخفى عدم جريان ما قاله في القاموس في مثل هذا ، وتوقف الجلال ابن هشام
في كون هذا التركيب عربيا تحضا ، وساق وجوه توقفه في رسالة له ، وأجاب
عن ذكره في الصحاح ونحوه ، وذكر ما للعلماء في إعرابه وبيان معناه ، ثم قال :
فلذا كر ما ظهر لنا في توجيه هذا المقال بتقدير كونه عربيا ، فنقول : هَلُمُّ هذه
هي القاصرة التي بمعنى أنتِ وتعال ، إلا أن فيها تجوزين : أحدهما أنه ليس المراد
بالإتيان هنا الهجاء الحسي ، بل الأستمرار على شيء ، والمداومة عليه ، كما تقول :
امش على هذا الأمر ، وسر على هذا المنوال ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَنْطَاقَ
الْبَلَاءِ مِنْهُمْ أَنْ ائْمُسُوا وَأَصْبِرُوا عَلَى آيَاتِنَا ﴾ المراد بالانطلاق ليس الذهاب
الحسي ، بل انطلاق الألسنة بالكلام ، ولهذا أعرابوا « أن » تفسيرية ، وهي
إني أتى بعد جملة فيها معنى القول ، كقوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ =

أَطَارَهُ^(١) ، يُكْنَى أَبَا الْفَتْحِ الْإِسْكَندَرِيَّ ، وَسِرْنَا فِي طَلَبِ أَبِي جَابِرٍ^(٢)
فَوَجَدْنَاهُ يُطْلَعُ مِنْ ذَاتِ لَطْيٍ ، تُسَجَّرُ بِالْفَضَا^(٣) ، فَعَمَدَ الْإِسْكَندَرِيَّ
إِلَى رَجُلٍ فَاسْتَمَاعَهُ كَفَّ مِلْحٍ ، وَقَالَ لِلْخَبَّازِ : أَعْرَضِي رَأْسَ التَّنُورِ ،
فَأِنِّي مَقْرُورٌ^(٤) ، وَلَمَّا فَرَعَ سَنَامَهُ جَعَلَ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ بِحَالِهِ ،
وَيُخْبِرُهُمْ بِاخْتِلَالِهِ^(٥) ، وَيَبْذُرُ الْمِلْحَ فِي التَّنُورِ مِنْ تَحْتِ أَذْيَالِهِ ،
يُوهَمُهُمْ أَنْ أَدَى بَنِيَابِهِ ، فَقَالَ الْخَبَّازُ : مَا لَكَ لَا أَبَالِكَ ؟ أَجْمَعُ أَذْيَالَكَ

(١) صَفَار - بالفين المعجمة ، كما في النسخة البيروتية - وهو الهَوَانُ والذَّل ،
ويروى « صُفَار » بضم أوله وبالفاء - وهو الجوع ، والصفرة : الجوعة ، ويقال
للجانح : مَصْفُورٌ ، ومُصْفَرٌ - بوزن مُعْظَمٌ - وهذه الرواية أحسن ، والأطمار :
التياب البالية .

(٢) أبو جابر : كنية الخبز .

(٣) ذات لطي : هي النار ، وتُسَجَّرُ : تُوقَدُ ، والفضا : شجر إذا احترق دامت
ناره طويلا واشتدت ، وهي مضرب المثل في شدة الاشتعال وطول مدته .
(٤) استماعه : طلب منه ، والتنور : السكاون يُخبز فيه ، ورأسه : فتحة
في أعلاه ، والمقرور : الذي أصابه القرء وهو البرد .

(٥) فرع سنامه : صعد جلس قريبا من رأسه ، والمعنى : إنهم بعد أن وصلوا
المراغة وساروا مثنى ، وكان من حظ عيسى أن رافقه أبو الفتح ، كان أول همهم
البحث في طلب ما يسدّان به جوعهما ، ويدفمان آلامه ، ويردان شدته ،
ففكر أبو الفتح في حيلة يصل بها إلى مطالبهما بدون كبير عناء ، ومن غير
أن يتجشما لذلك مالا ، فنظر غير بعيد إلى تنور قد أوقد ، ورغفان الخبز تخرج منه ،
فعمد إلى رجل طلب منه قبضة من الملح ، وذهب إلى الخباز فرجاه أن يسمح له
بالدفع فوق التنور ، شاكيا له ما لقيه من البرد ، فأذنه ، وحين جلس على رأس
التنور جعل يحدث الناس بما لقيه من أذى الدهر ومحنته .

فَقَدْ أَفْضَدْتَ الْخُبْزَ عَلَيْنَا ، وَقَامَ إِلَى الرَّغْفَانِ فَرَمَاهَا ، وَجَعَلَ
 الْإِنْسَانَ دَرِيًّا يَلْقُطُهَا ، وَيَتَأَبَّطُهَا ^(١) ، فَأَعْجَبَنِي حِيلَتُهُ فِيمَا قَعَلَ ،
 وَقَالَ : اصْبِرْ عَلَيَّ حَتَّى أَحْتَالَ عَلَى الْأُذْمِ ^(٢) ، فَلَا حِيلَةَ مَعَ الْمُذْمِ ^(٣) ،
 وَصَارَ إِلَى رَجُلٍ قَدْ صَفَّ أَوَانِي نَظِيفَةً فِيهَا أَلْوَانُ الْأَلْبَانِ ، فَسَأَلَهُ
 عَنِ الْأَثْمَانِ ، وَاسْتَأْذَنَ فِي الذَّوْقِ ، فَقَالَ : أَفْعَلْ ، فَأَدَارَ فِي الْأَنْبِيَةِ
 إِصْبَعَهُ ، كَأَنَّهُ يَطْلُبُ شَيْئًا ضَيِّعَهُ ^(٤) ، ثُمَّ قَالَ : لَيْسَ مَعِيَ ثَمَنُهُ ، وَهَلْ

(١) المعنى إنه حينما جلس رفع ثوبه ليُدْفِءَ جَسَدَهُ ، ثم كان يُخَالِسُ الْخُبْزَ
 وَيَقْدِفُ فِي النَّوْرِ قَبْضَةَ مِنَ الْمَلْحِ ، فَتَسْمَعُ لَهَا فَرْقَعَةً ، فَتَوَهَّمُ التَّنَارَ أَنْ يَجْسِمَهُ
 قَلْبًا ، فَهُوَ يَتَسَاقَطُ إِلَى النَّوْرِ ، وَهَذِهِ أَصْوَاتُ احْتِرَاقِهِ ، وَخَشِيَ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَلِقَ
 بِالْخُبْزِ شَيْءٌ مِنْهُ ، فَرَمَى بِهِ ، وَانْتَهَزَهَا أَبُو الْفَتْحِ فَرُصَةً يَرُدُّ بِهَا كَيْدَ الْجُوعِ ، فَكَانَ
 يَأْخُذُهَا وَيَضَعُهَا تَحْتَ إِبْطِهِ .

(٢) هَذَا الْكَلَامُ مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِ لُبَيْدِ بْنِ رَبِيعَةَ :

مَثَلًا أَيْبَتَ اللَّفْنَ لَا تَأْكُلْ مَعَهُ إِنْ أَسْتَهُ مِنْ بَرَصٍ مُلَمَعَةٍ
 وَإِنَّهُ يُدْخِلُ فِيهَا أَصْبَعَهُ يُدْخِلُهُ حَتَّى يُوَارِي أَشْجَعَهُ
 كَأَنَّمَا يَطْلُبُ شَيْئًا ضَيِّعَهُ

(٣) الْأُذْمُ - بوزن قُفْلٍ - ومثله الإِدَامُ - بكسر أوله - ما يُؤْكَلُ
 مَعَ الْخُبْزِ أَيْ شَيْءٌ كَانَ ، وَآدَمْتُهُ - بالمد ، وبالقصر ، وبالتشديد - جعلت
 فِيهِ إِدَامًا .

(٤) الْحِيلَةُ : الْأَحْتِيَالُ ، وَلَا نَرَى ظَاهِرَ الْكَلَامِ يَصْلِحُ عَلَى هَذَا ، إِذْ كَيْفَ
 يَقُولُ لِإِنْسَانٍ سَيَحْتَالُ فِي طَلْبِ الْأُذْمِ ، ثُمَّ يَقُولُ : إِنَّ الْمُدْمَ لِأَحْتِيَالٍ لَهُ ، لَكِنْ يُمْكِنُ
 أَنْ يَرَادَ مِنَ الْحِيلَةِ الْحَوْلُ ، وَهُوَ : الْحَرَكَةُ ، وَالْقُوَّةُ ، وَالذَّفْعُ ، وَالْمَنْعُ ، وَالْمُدْمُ :
 الْفَقْرُ ، وَالْإِمْلَاقُ ، وَالْمَعْنَى : تَعَالَ بِنَا نَطْلُبُ الْأُذْمَ بِالْأَحْتِيَالِ ، فَإِنَّهُ لِقُوَّةٌ =

لَكَ رَغْبَةٌ فِي الْحِجَامَةِ؟ فَقَالَ: قَبِيحَكَ اللَّهُ! أَنْتَ حَجَّامٌ؟ قَالَ: نَعَمْ،
 فَعَمَلَهُ لِأَعْرَاضِهِ بِسَبْهَا^(١)، وَإِلَى الْآنِيَةِ يَصُبُّهَا، فَقَالَ الْإِسْكَندَرِيُّ:
 آتِرْنِي عَلَى الشَّيْطَانِ^(٢)، فَقَالَ: خُذْهَا لَا بُورِكَ لَكَ فِيهَا، فَأَخَذَهَا وَأَوْيْنَا
 إِلَى خَلْوَةٍ^(٣)، وَأَكَلْنَاهَا بِدَفْعَةٍ^(٤)، وَسِرْنَا حَتَّى أَتَيْنَا قَرْيَةً اسْتَطَعَمْنَا
 أَهْلَهَا^(٥)، فَبَادَرَ مِنْ بَيْنِ الْجَمَاعَةِ فَتَى إِلَى مَنْزِلِهِ، فَجَاءَنَا بِصَحْفَةٍ قَدْ
 سَدَّ اللَّبَنُ أَنْفَامَهَا، حَتَّى بَلَغَ رَأْسَهَا^(٦)، فَجَعَلْنَا نَتَحَسَّأُهَا^(٧)، حَتَّى
 اسْتَوْفَيْنَاهَا، وَسَأَلْنَا هُمُ الْخُبْزَ، فَأَبَوْا إِلَّا بِالثَّمَنِ، فَقَالَ الْإِسْكَندَرِيُّ:
 مَا لَكُمْ تَجْوُدُونَ بِاللَّبَنِ، وَتَمْنَعُونَ الْخُبْزَ إِلَّا بِالثَّمَنِ^(٨)؟ فَقَالَ الْغُلَامُ:
 = لامرئى صَفَرَتْ يَدُهُ، وَأَقْفَرَ جِرَابُهُ، وَنَضِبَ مَعِينُهُ، وَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ
 يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ أَوْ يَمْنَعَ دُونَهَا.

(١) أعراض: جمع عرض، بكسر أوله، والمعنى إنه بعد أن عَرَفَ أَنَّهُ حَلَّاقٌ
 وَقَدْ أَدَارَ فِي الْآنِيَةِ أَصَابِعَهُ تَقَدَّرَ، وَعَافَتْ نَفْسَهُ مَا فِيهَا، فَأَوْسَعَهُ سَبَا، وَقَصَدَ
 أَنْ يُرِيقَ اللَّبَنَ.

(٢) أى بدلا من أن تريقها فتذهب هباء ولا ينتفع بها أحد أعطيناها.

(٣) أَوْيْنَا إِلَى خَلْوَةٍ: مَلْنَا إِلَيْهَا.

(٤) بدفعة: أى بتدافعٍ وشدة، أو مرة واحدة، لكن الأول أحسن.

(٥) أى طلبنا منهم أن يطعمونا.

(٦) الصَّحْفَةُ: وعاء يوضع فيه اللبن، وهو معروف بهذا الاسم عند

عوام المصريين إلى اليوم، ومعنى كون اللبن قد سد أنفاسها أنها ممثلة.

(٧) حَسَا يَحْسُو، وَتَحَسَّى أَيْضاً: شَرِبَ جَرَّةً بَعْدَ جَرَّةٍ.

(٨) المعنى: إن الخبز أقل قيمة من اللبن، وأزهد ثمنًا، فما الذى حَدَاكَ

لأن تجودوا بالشيء الرفيع القدر السنى القيمة، فى حين أنكم تمنعوننا المرخص

الذى لا قَدْرَ لَهُ وَلَا يُسَاوَمُ فِيهِ بِجَانِبٍ مَا تَمْنَعُونَ؟

كَانَ هَذَا اللَّبْنُ فِي غَضَارَةٍ ، قَدْ وَقَمَتْ فِيهِ فَارَةٌ ، فَنَحْنُ نَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَى السَّيَّارَةِ (١) ، فَقَالَ الْإِسْكَانْدَرِيُّ : إِنَّا لِلَّهِ ! وَأَخَذَ الصَّحْفَةَ فَكَسَرَهَا ، فَصَاحَ الْغَلَامُ : وَاحْرَبَاهُ (٢) ، وَاحْرُوبَاهُ ، فَأَقْشَمَرْتُ مِنَّا الْجِلْدَةَ ، وَأَثْقَلَبْتُ عَلَيْنَا الْمَعْدَةَ (٣) ، وَنَفَضْنَا مَا كُنَّا أَكَلْنَاهُ (٤) ، وَقُلْتُ : هَذَا جَزَاءُ مَا بِالْأَمْسِ قَعَلْنَاهُ ، وَأَنْشَأَ أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيُّ يَقُولُ :

يَا نَفْسُ لَا تَتَفَنِّي فَالْشَّمُّ لَا يَتَفَنَّا
مَنْ يَصْحَبِ الدَّهْرَ بِأَكْلِ فِيهِ سَمِينًا وَغَنَّا
فَالْبَسْ لِذَهْرٍ جَدِيدًا وَالْبَسْ لِآخِرٍ رَبًّا (٥)

(١) الغضارة : القضة العظيمة ، والسيارة : الجماعة السائرون .

(٢) واحرباه : كلمة تالم ، وأصلها الحرب - بالتحريك - وهو استلاب المال

(٣) الجلد : بشرة الجسم الظاهرة ، والمراد قشعريره ، وبدن ، والقشعريرة : انتفاض الجسم ، وإنما تكون إذا أصاب الإنسان خوف أو وجل ، والجملة كناية عن ذلك ؛ لأنهم خافوا عاقبة أكلهم ، وظنوا أن الأمر سيشتد بهم ويُفسد أبدانهم ، وانقلاب المعدة كناية عن المرض وظهور أعراض التأذي عليهم ، والمعنى إنهما أحسّا بطرود المرض عليهما ونزوله بساحتهم .

(٤) نفضنا : طرَحْنَا ، ورَمَيْنَا ، والمراد الكناية عن أنهما استقاء ما تناولا له

من الأكل ؛ فراراً من نزول المرض بهما .

(٥) التفنى : اندفاع النفس إلى التئ ، والمعنى : أيتها النفس اسكني واستقرى

في مكانك ، ولا يذرْ عك التئ ؛ فهذه عادة الدهر يتقلب دائماً ، ولا بد لمن صحبه أن يجد في تصاريفه عَجَبًا ، فيجد الضيق يوماً والسَّعة يوماً ، وينزل بساحته العُسر يوماً والبُسر يوماً ، وهكذا ، وخليق بمن يسايره أن يكون مثله ؛ فيرتدى رداء التقلب أيضاً .

٣٧ - المَقَامَةُ النَّاجِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

بِتُّ ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي كِتَابَةِ^(١) فَضَّلٍ مِنْ رُقَيَّاتِي ، فَتَدَا كَرْنَا الْفَصَاحَةَ ،
وَمَا وَدَعْنَا الْحَدِيثَ حَتَّى قُرِعَ عَلَيْنَا الْبَابُ^(٢) ، فَقُلْتُ : مَنْ الْمُنتَابُ^(٣) ؟
فَقَالَ : وَفَدُّ اللَّيْلِ وَبَرِيدُهُ ، وَقَالَ الْجُوعُ وَطَرِيدُهُ^(٤) ، وَغَرِيبُ نَضْوِهِ طَلِيحُ
وَعَيْشُهُ تَبْرِيحُ ، وَمِنْ دُونِ فَرَحِيهِ مَهَامُهُ^(٥) فِيحُ ، وَصَيْفُ ظِلِّهِ خَفِيفُ ،

(١) الكتيبة في الأصل : الجيشُ ، أو الجماعةُ المنيرةُ من الخليل إذا بلغت
مائة حتى تكون ألفاً ، والمراد هنا مُطلق الجماعة .

(٢) وَدَعَ - بوزن وضع ، وبالتضعيف - أي : ترك ، وَقَرَعَ الْبَابَ : طَرَقَهُ ،
والمعنى : إنفنا جلسنا نتسامر ، والحديثُ ذُو شُجُونٍ ، فتحدثنا عن الفصاحة ،
وقال كل منا ما حضره ، وَنَفَضَ جَمَلَةً الَّذِي عِنْدَهُ ، ثم انتقلنا إلى حديث آخر ،
ولكننا لم نكد نبدأه ونترك موضوعنا الأول حتى طَرِقَ عَلَيْنَا الْبَابُ .

(٣) يقال : انتاب فلانٌ فلاناً ، إذا أتاه المرة بعد الأخرى ولم يزل يُعاوده ،
وكانهم سمّوه بذلك لأنه طَرَقَهُم بعد أن طرق كثيراً من المنازل ، فاعتبروا
مقابته طَرِقَ الْأَبْوَابِ تَتَابَعًا عَلَيْهِمْ ، ولا يبعد أن يكون قد أراد منه مطلق الطارق
(٤) الْوَفْدُ : الجماعة الواردون للأنتجاع ونحوه ، وكأنه جعل الليل لصعوبة
الكدِّ فيه حاملاً له على الوفاة ، وبريده : رسوله ، ويقال منه « أَبْرَدَ لَهُ »
إذا أرسل إليه ، وَالْقَلْبُ : المنهزم ، ويقال : « سَيْفٌ مَفْلُوقٌ » إذا كان به كَلَالٌ .

(٥) النَّضْوُ : البعير المهزول ، وَالطَّلِيحُ : الذي زاد به التعب ، والتبريح : الشدة
والجهد ، وَالْمَهَامَةُ : الصحارى ، وَفِيحُ : أي واسعة ، وقد أخذ الجملة الأخيرة
من قول عَوْفِ بْنِ مُحَلِّمٍ الْخَزَاعِيِّ :

وَضَالَّتْهُ رَغِيفٌ، فَهَلْ مِنْكُمْ مُضِيفٌ^(١)؟ فَتَبَادَرْنَا إِلَى فَتْحِ الْبَابِ وَأَنْخْنَا رَاحِلَتَهُ، وَجَمَعْنَا رُحْلَتَهُ^(٢)، وَقُلْنَا: دَارَكَ أَتَيْتَ، وَأَهْلَكَ وَافَيْتَ، وَهَلُمَّ الْبَيْتَ، وَضَجِّكُنَا إِلَيْهِ، وَرَحَّبْنَا بِهِ، وَأَرَيْنَاهُ ضَالَّتَهُ^(٣)، وَسَاعَدْنَاهُ حَتَّى شَبِعَ، وَحَادَثْنَاهُ حَتَّى أُنِسَ^(٤)، وَقُلْنَا: مَنْ الطَّلُحُ بِمَشْرِقِهِ، الْفَانُ بِمَنْطِقِهِ^(٥)؟ فَقَالَ: لَا يَعْرِفُ الْعُودَ كَالْعَاجِمِ، وَأَنَا الْمَعْرُوفُ بِالنَّاجِمِ^(٦).

= تَنُوحٌ وَفَرَّخَاهَا بِحَيْثُ تَرَاهُمَا وَمِنْ دُونِ أَفْرَاحِي مَهَامِهِ فَيُحُّ

وقد سبق ذكر هذا وبيان مأخذه في شرح المقامة الكوفية .

(١) ظله خفيف: أى لا يكافئكم مشقة ، والضالة : أصله الشيء المفقود الذى يطلبه صاحبه ، وأراد أن أُنِيَّتَهُ سَدُّ جُوعِهِ ، وكأنه يشير إليهم أنه كان ميسورا منعمًا ، ثم أضلّ النعيم فهو يبحث عنه فلا يجده .

(٢) الرُّحْلَةُ ، بضم أوله : الوجوه التى تقصدها بارتحالك ، ومعنى جَمَعَهَا تهيئتها فى أمر واحد .

(٣) أى طَمَّأْنَاهُ بإظهار مرغوبه .

(٤) سَاعَدْنَاهُ : أى أَعَدَدْنَا لَهُ مَا أَرَادَ حَتَّى امْتَلَأَ جَوْفَهُ ، وإذا كان للقادم دهشة فهو فى حاجةٍ للتحادث وَجَلَبَ الْأُنْسَ إليه بابتدائه بالكلام ، ولذلك مازالوا به يخاطبونه حتى خلع عِذَارَ الْوَحْشَةِ ، واطمأنت نفسه إليهم .

(٥) أى مَنْ ذَلِكَ الذى ظهر لنا كما يظهر الكوكب ، فَاسْتَرَقَ أَبَابِنَا بِمَذْبِ حَدِيثِهِ ، وَأَسْتَقُولَى عَلَى أَفْتَدْتَنَا بِحَسَنِ بَيَانِهِ ؟ .

(٦) عَجِمَ الْعُودَ : عَضَّهُ لِيَعْرِفَ أَصْلَبَ هُوَ أَمْ لَا ، وفى خطبة الحجاج حين قدم المِرَاق « وإن أمير المؤمنين جمع كنفاته بين يديه ، فمَجِمَ عِيدَانَهَا فوجدنى أَصْلَبَهَا مَكْسِرًا فَمَا كَمْ بِي » ؛ وَالنَّاجِمِ : الظاهر ، يريد أنه لا يخفى على أحد .

عَاشَرْتُ الدَّهْرَ لِأَخْبِرُهُ ، فَعَصَرْتُ أَعْصَرَهُ ، وَحَلَبْتُ أَشْطَرَهُ (١) ، وَجَرَّبْتُ
النَّاسَ لِأَعْرِفَهُمْ ، فَعَرَفْتُ مِنْهُمْ عَنْهُمْ وَسَمِيَهُمْ (٢) ، وَالْعَزْبَةَ لِأَذُوقَهَا ، فَأَمَّحَتْنِي
أَرْضٌ إِلَّا فَقَاتُ عَيْنَهَا ، وَلَا انْتَضَمَتْ رُقَّةٌ إِلَّا وَجِلْتُ بَيْنَهَا (٣) ،
فَأَنَا فِي الشَّرْقِ أَذْكَرُ ، وَفِي الْغَرْبِ لَا أُنْكَرُ ، فَأَمَلِكُ إِلَّا وَطِئْتُ بِسَاطَهُ ،
وَلَا خَطْبٌ إِلَّا خَرَقْتُ سِمَاطَهُ (٤) ، وَمَا سَكَنْتُ حَرْبٌ إِلَّا وَكُنْتُ فِيهَا
سَفِيرًا ، قَدْ جَرَّبَنِي الدَّهْرُ فِي زَمَانِي رَحَائِهِ وَبُوسِهِ ، وَلَقِيَنِي بِوَجْهِ بَشِيرِهِ
وَعُجْبُوسِهِ (٥) .

(١) لأخبره : أى لأختبره وأعرفه وأجرّبه ، والأعصر : جمع عصر ، وهو
الزمن أيا كان مقداره ، والأشطر : أخلاف الناقة ، وقد جرى في كلامهم
« حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ » مجرى النمل ، يريدون عرفته حلوه ومره ، عَنَّهُ وَسَمِيَهُ ،
خيره وشره ، سعادته وشقاهه ، لينه وشدّته .

(٢) يريد أنه أمتحن الناس بمصادقهم ، وابتلاهم بالعشرة معهم ، ليتبين
حالهم ؛ فأدرکه ، وظهرت له حقائقهم .

(٣) أى أنه أراد أن يحتبر الاغتراب والأسفار كما اختبر الناس ، فقطع
المخزون والشهول ، وطوى البحار والموامى والقفار ، ولم تبق أرض إلا عرفها ،
ولا جماعة من الخلان إلا دخل بينهم وسار معهم .

(٤) الخطب : الأمر الجسم والكربة العظيمة ، والسماط ، هنا : جماعة
الجيوش تتقدّم الملك ، والمعنى : إن له في كل نازلة يدا .

(٥) السفير : الرجل الذى يدخل بين المتنازعين ليصلح ذات بينهما وجمع
كلمتهما ، وكنى بذلك عن حدّقه ولباقته ؛ إذ لا يقوى على السفارة غير الفطن
اللبيب ، والدبشّر : طلاقة الحياء ، والعبوس : انقباضه ، والمعنى : إنه عاشر الدهر
في كلا الحالين من الفرج والضيق ، وصاحبته في طريقه عُشره وميسرته .

فَأُبْحَتُ لِبُوسِهِ ، إِلَّا بِلَبُوسِهِ (١) :
 وَإِنْ كَانَ صَرْفُ الدَّهْرِ قَدِمًا أَضْرَبَنِي * وَحَمَلَنِي مِنْ رَبِّيهِ مَا يُحْمَلُ (٢)
 فَقَدْ جَاءَ بِالْإِحْسَانِ حَيْثُ أَحَلَّنِي * مَحَلَّةً صَدَقَ لَيْسَ عَنْهَا مُحُولٌ
 قُلْنَا : لَأَفُضَّ فُوكَ ، وَلِلَّهِ أَنْتَ وَأَبُوكَ (٣) ، مَا يَحْرُمُ الشُّكُوتُ إِلَّا
 عَلَيْكَ ، وَلَا يَحِلُّ النُّطْقُ إِلَّا لَكَ ، فَمَنْ أَيْنَ طَلَعْتَ ؟ وَأَيْنَ تَغْرُبُ (٤) ؟ وَمَا
 الَّذِي يَجِدُو أَمَلَكَ أَمَامَكَ ، وَيَسُوقُ غَرَضَكَ قُدَّامَكَ ؟ (٥) . قَالَ :
 أَمَّا الْوَطَنُ فَالْيَمِينُ ، وَأَمَّا الْوَطَرُ فَالْمَطَرُ ، وَأَمَّا السَّائِقُ فَالضَّرُّ ، وَالْعَيْشُ
 الْمُرُّ (٦) ، قُلْنَا : فَلَوْ أَقْتَمَ هَذَا الْمَسْكَانَ لِقَائِمَتِكَ الْعُمَرَاءُ فَمَا دُونَهُ ،

(١) اللبوس: اللباس، والمعنى: إنه لبس لكل حالة لباسها، وتقدم لكل عصر بما يليق به، وأخذ أهبطه في كل آونة بما يناسبها.

(٢) صَرْفُ الدَّهْرِ: خُطُوبُهُ وَنَوَازِلُهُ، وَرَبِّيهِ كَذَلِكَ، وَمَعْنَى الْبَيْتَيْنِ إِنِّي أَغْتَرُّ لِلدَّهْرِ ذُنُوبَهُ الْمَاضِيَةَ، وَأَنْسَى قَدِيمَ إِسْمَاتِهِ بِمَا أَوْلَانِيهِ مِنْ نِعْمَةٍ حَاضِرَةٍ وَسَعَادَةٍ شَامِلَةٍ.

(٣) لَأَفُضَّ فُوكَ: أَيْ لَا أُخَلِّيَ اللَّهَ فَمَكَ مِنْ حَلِيَّتِهِ وَهِيَ الْأَسْنَانُ، وَلَمَّا كَانَ يَتَوَقَّفُ عَلَى الْأَسْنَانِ حِفْظَ الْحُرُوفِ، وَكَانَ التَّرَمُّ مَضْيَعَةً لِكَثِيرٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ؛ جَمَعُوا هَذِهِ الْكَلِمَةَ دَعَاءً لِمَنْ يَسْتَجِيدُونَ نُطْقَهُ وَيَسْتَمْلِحُونَ لَفْظَهُ.

(٤) أَيْ مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ وَإِلَى أَيْنَ أَنْتَ ذَاهِبٌ؟

(٥) الْمَعْنَى أَيْ مُقْصِدِي لَكَ فِي سَيْرِكَ؟ وَأَيَّ عِلَّةٍ تَحْتَكُّ عَلَى إِدْمَانِ السَّفَرِ وَمَتَابَعَةِ الْجَوْلَانِ؟

(٦) الْوَطَرُ: الْقَصْدُ، وَالْمَطَرُ: الْمُرَادُ مِنْهُ الْعَطَاءُ، وَقَدْ أَجَابَ عَلَى أَسْتَلْتَهُمْ كُلِّهَا عَلَى التَّرْتِيبِ، وَالْمَعْنَى إِنْ مَحَلَّ إِقَامَتِي الَّذِي أَقْبَلْتَ مِنْهُ هُوَ الْيَمِينُ، وَالْمَقْصِدُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أَجُوبُ الطَّرْفَاتِ هُوَ طَلَبُ الْمَالِ، وَالسَّبَبُ الَّذِي يَدْفَعُنِي إِلَى ذَلِكَ هُوَ الْفَقْرُ وَالْحَيَاةُ الْكَرْهِيَّةُ.

وَلَصَدَفَتْ مِنَ الْأَمْطَارِ مَا يُزْرَعُ ، وَمِنَ الْأَنْوَاءِ مَا يُكْرَعُ ، قَالَ :
 مَا أَخْتَارُ عَلَيْكُمْ صَحْبًا ، وَلَقَدْ وَجَدْتُ فِنَاءَ كُمْ رَحْبًا ، وَلَكِنْ أَمْطَارَ كُمْ
 مَاءَ وَالْمَاءَ لَا يُرْوِي الْعِطَاشَ^(١) ، قُلْنَا : فَأَيُّ الْأَمْطَارِ يُرْوِيكَ ؟ قَالَ :
 مَطَرٌ خَلْفِي^(٢) ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

سَجِسْتَانَ أَيْتَهَا الرَّاحِلَةَ
 وَبَحْرًا يَبُوءُ الْمُنَى سَاحِلَهُ^(٣)

(١) الأنواء: الأمطار الغزيرة ، ويكرع : يشرب من مكانه بدون كؤب ،
 والفِنَاءُ : الساحة أمام البيوت ، والرَّحْبُ : المتسع ، والمعنى إنهم ذكروا له
 استعدادهم لاستقباله ، ورضاهم عن إقامته بينهم ، مُتَمَدِّحِينَ حالهم ليرغب فيها ،
 فأجاب بأنه رضيهم إخوانا ، واعتقد أنهم سيكونون عند شروطهم ، وأقرهم على
 ما نعتوا به أنفسهم ، ولكنه لا يستطيع الإقامة بينهم ، ولا يجسر على التخلف
 عن السير ؛ لأنهم إن أعطوه فإنما يعطونه طعاما وشرابا ، وغاية جهدهم أن
 يخلطوه بأنفسهم ، وما لا يسدَّان حاجته ولا يقومان برغبته .

(٢) أى إذا كان الماء لا يرويكَ وقد أخبرتنا أنك تقصد المطر ، فأَيُّ مطر
 تعنى ؟ فقال : المطر الخلفي ، أى المنسوب إلى خلف بن أحمد ، وذلك مثل قول
 الشاعر ، أو قريب منه :

مَا نَوَالُ السَّحَابِ وَقْتَ تَجَمُّامِ
 كَنَوَالِ الْأَمِيرِ وَقْتَ عَطَاءِ
 فَنَوَالُ الْأَمِيرِ بَدْرَةٌ مَالِ
 وَنَوَالُ السَّحَابِ قَطْرَةٌ مَاءِ

(٣) سجستان : منصوب بفعل أمر محذوف ، ويؤم : يقصد ، والمعنى
 أقصدى أيتها الراحلة سجستان ، واجعلها وجهتك ، وسيرى نحو ذلك الأمير
 الذى تتوجه الرغبات إليه ، ويسعى نحوه ذوو الحاجات .

سَتَقْصِدُ أَرْجَانَ إِنْ زُرْتَهَا
وَفَضْلُ الْأَمِيرِ قَلَى ابْنِ الْعَمِيدِ
بِوَاحِدَةٍ مِائَةٍ كَامِلَةٍ (١)
كَفَضْلِ قُرَيْشٍ عَلَى بَاحِلَةٍ (٢)

(١) أرجان : بلدة من بلاد فارس ، وأصلها بفتح الألف والراء مشددة وقد سكن راءها نضروية الشعر . ومعنى البيت إنك إذا وردت حضرة الأمير بأرجان فستنال أمانيك مضاعفة .

(٢) ابن العميد : هو الأستاذ الرئيس الوزير أبو الفضل محمد بن الحسن العميد ، كاتب المشرق ، و عماد ملك آل بُوَيْه ، و صدرُ وزرائهم ، وهو فارسي الأصل من مدينة قُم ، وكان أبوه كاتباً مُتَرَسِّلاً بليغاً من كبار كتاب الدولة السامانية - وهي إحدى الدُول التي أَسْتَقَلَّتْ استقلالاً داخلياً في أواسط الدولة العباسية - نشأ أبو الفضل شغوفاً بالعلوم العقلية واللسانية ، فَبَرَعَ في الحكمة والنجوم ، وَتَبَنَّعَ في الأدب والكتابة ، وقد قيل « بَدَأَتْ السِّكِّتَابَةُ بِعَمِيدِ الْحَمِيدِ ، وَخَتِمَتْ بِابْنِ الْعَمِيدِ » ثم رحل عن أبيه إلى آل بُوَيْه ، وتقلد شريف الأعمال في دولتهم ، إلى أن تولَّى وزارة ركن الدولة أبي علي الحسن بن بُوَيْه والد عضد الدولة المشهور سنة ٣٢٨ هـ ، فساس دولته ، ووطد أركانها ، وتشبَّه بالبرامكة ، ففتح بابه للعلماء والفلاسفة والشعراء والأدباء ، وكان يشاركونهم في كل ما يعلمون إلا الفقه ، وما زال في وزارته تحطُّ الرحال ، وكعبة الآمال ، حتى توفي سنة ٣٦٠ هـ .

وكان ابن العميد أول من فتح باب الوُجُوع بالرسائل البديعية متوخياً فيها السجع القصير الفقرات ، مُقْتَسِياً من القرآن بعض الآيات ، ومن السنة بعض الأحاديث المأثورة ، مُشِيراً إلى الحوادث المشهورة ، ناثراً فيها الآيات الحكيمة ، مؤثراً بعض الحلية اللفظية كالجناس والمطابقة ، مضمناً الأمثال السائرة ، وحاكاه في طريقته هذه فحول معاصريه ، فأصبح عميد رفقتهم ، وسابق حلبتهم ، وكلهم كَارِعٌ من حياضه ، قاطف من رياضه ، إن لم يكن بالاعتباس منه فبالحاكاة له ، وإن كان =

= هو أقلهم التزاما للمسجوع ، وأقربهم إلى المطبوع . . . وورد عليه أبو الطيب
المتنبي عند صدوره من حضرة كافور الإخشيدي ؛ فدَحَّه بتلك القصائد المشهورة
السائرة التي منها :

مَنْ مُبْلِغُ الْأَعْرَابِ أَنَّى بَعْدَهُمْ شَاهَدْتُ رَسْطَالِيْسَ وَالْإِسْكَانْدَرَا
وَسَمِعْتُ بَطْلَيْمُوسَ دَارِسَ كُتْبِهِ مُمَلِّكََا مُتَبَدِّيًا مُتَحَضِّرَا
وَوَاقَيْتُ كُلَّ الْفَاعِضِينَ كَأَنَّمَا رَدَّ الْإِلَٰهَ نُفُوسَهُمْ وَالْأَعْصُرَا
نَسَقُوا لَنَا نَسَقَ الْحِسَابِ مُقَدَّمَا وَأَنَّى فَذَلِكَ إِذْ أَتَيْتَ مُؤَخَّرَا
بَابِي وَأَمِّي نَاطِقٌ فِي لَفْظِهِ ثَمَّنْ تَبَاعُجَ بِهِ الْقُلُوبُ وَتُشْتَرَى
قَطَفَ الرَّجَالِ الْقَوْلَ وَقْتَ نَبَاتِهِ وَقَطَفْتَ أَنْتَ الْقَوْلَ لَمَّا نَوَّرَا

ومن بديع رسائله ما كتب به إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة
وهي رسالة طريفة شائعة ، كما أنها غرّة كلامه ، وواسطة عقده ، وهي مطولة جداً
نذكر منها لمعاً ، قال في أولها :

كتابي وأنا مترجِّح بين طَمَعِ فَيْكِ ، وَيَأْسِ مِنْكَ ، وَإِقْبَالِ عَلَيْكَ ،
وإِعْرَاضِ عَنكَ ، فَإِنَّكَ تَدِلُّ بِسَابِقِ حُرْمَةٍ ، وَتَمْتُّ بِسَابِقِ خِدْمَةٍ ، أَيْسَرُهُمَا
يُوجِبُ رِعَايَةَ ، وَيَقْتَضِي مُحَافَظَةَ وَعِنَايَةَ ، ثُمَّ تَشْفَعُهُمَا بِحَادِثِ غُلُولٍ وَخِيَانَةٍ ،
وَتُنَبِّهُمَا بِأَنْفِ خِلَافٍ وَمَعْصِيَةٍ ، وَأَدْنَى ذَلِكَ يُحْبِطُ أَعْمَالَكَ ، وَيَمْحَقُ كُلَّ
مَا يَرَى لَكَ ؛ لَا جَرَمَ أَنِّي وَقَفْتُ بَيْنَ مَيْلِ إِلَيْكَ ، وَمَيْلِ عَلَيْكَ : أَقَدِّمُ رَجُلَا
لِصَدْمِكَ ، وَأُوخِّرُ أُخْرَى عَن قَصْدِكَ ، وَأَبْسُطُ يَدَا لَاضْطِلَامِكَ ، وَأَتَوَقَّفُ
عَن امْتِثَالِ بَعْضِ الْمَسْأُورِ فَيْكَ ضَمًّا بِالنِّعْمَةِ عِنْدَكَ ، وَمُنَافَسَةً فِي الصَّنِيعَةِ لَدَيْكَ ،
وَتَأْمِيلاً لِنَيْتِكَ وَإِنصْرَافِكَ ، وَرَجَاءَ لِمُرَاجَعَتِكَ وَإِنْمِطَافِكَ ، فَقَدْ يَغْرِبُ
الْعَقْلُ ثَمَّ بَوُوبٍ ، وَيَعْرُزُ اللَّبُّ ثَمَّ يَثُوبُ ، وَيَذْهَبُ الْحَزْمُ ثَمَّ يَبُودُ ، وَيَفْسُدُ
لِلْمَزْمِ ثَمَّ يَصْلِحُ ، وَبُضَاعُ الرَّأْيِ ثَمَّ يُسْتَدْرَكُ ، وَيَسْكُرُ الْمَرْءُ ثَمَّ يَصْحُو ، وَيَكْدُرُ =

الماء ثم يصفو، وكل ضيقة إلى رخاء، وكل غمرة فإلى انجلاء، وكما أنك أتيت
 من إساءتك بما لم تحسبه أو لياؤك، فلا بدع أن تأتي من إحسانك بما لا ترتقبه
 أعداؤك، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ماركبت، واخترت ما اخترت،
 فلا عجب أن تذبته انتباهة تبصر فيها قبح ما وصفت، وسوء ما آثرت، وسأقيم
 على رسي في الإبقاء والمأطلة ما صلح، وعلى الاستبقاء والمطاول ما أمكن،
 طمعا في إنابتك، وتحكما لحسن الظن بك، فلست أعدم فيما أظاها من
 أذار، وأرادفه من إنذار، احتجاجا عليك، واستدراجا لك .
 ومنها :

وزعمت أنك في طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها، وإذا كنت
 كذلك فقد عرفت حالتها، وحلبت شطربها، فنشدتك الله إلا صدقت عما
 سألتك : كيف وجدته مازلت عنه ؟ وكيف تجد ما صيرت إليه ؟ ألم تكن
 من الأول في ظل ظليل، ونسيم عليل، وريح بلبل، وهواء غدي، وماء روي،
 ومهاد وطى، وكن كنين، ومكان مكين، وحسن حصين، يقيق المتألف،
 ويؤمنك المخاوف، ويكفك من نوائب الزمان، ويخفك من طوارق
 الحدثنان، عززت به بعد الدلة، وكثرت بعد القلة، وارتفعت بعد الضعة،
 وأبسرت بعد العسرة، وأثريت بعد المتربة، وأنسفت بعد الضيقة، وظفرت
 بالولايات، وخفقت فوقك الرايات، ووطىء عقبك الرجال، وتعلقت بك
 الآمال، وصرت تكاثروا ويكاثروا بك، وتشير ويشار إليك، ويذكر على الناظر
 اسمك، وفي المحاضر ذكرك ؟ فقيم الآن أنت من الأمر ؟ وما العوض عما عددت،
 وانخلف مما وصفت ؟ وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك، ونفضت
 منها كفك، وعمست في خلافها يدك ؟ وما الذي أظلك بعد انحسار ظلها
 عنك ؟ أظل ذو ثلاث شعب، لا ظليل ولا يغني عن اللهب ؟ ! قل : نعم =

..
 = كذلك ، فهو والله أ كَثَفُ ظلالك في العاجلة ، وأزوحها في الآجلة ، إن أمت
 على المحايمة والمعمود ، ووقفت عن المشاقّة والجحود .
 ومنها :

تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستكرها ، والمسنّ جسّدك ،
 وانظر هل يحس ؟ واجسّس عرقك هل ينبض ؟ وقشّ ما حفاً عليك هل تجد
 في عرضها قلبك ؟ وهل حلّى بصدرك أن تظفر بقوت سريح ، أو موت مريح ،
 ثم قس غائب أمرك بشاهده ، وآخر شأنك بأوله
 ومما سار من كلامه مسير الأمثال قوله :

متى خلصت للدهر حال من اعتوار أذى ، وصفافيه شرب من اعتراض فذى ؟
 خير القول ما أغناك جده ، وأهلك هزله . الرتب لا تبليغ إلا بتدرج وتدرّب ،
 ولا تدرك إلا بتجشم كلفة وتصعب . المره أشبه شيء بزمانه ، وصفة كل
 زمان منسّخة من سجايا سلطانه . قد يبذل المره ماله في إصلاح أعدائه ،
 فكيف يذهل العاقل عن حفظ أوليائه ؟ هل السيد إلا من تهابه إذا حصر ،
 وتمتأبه إذا أدر ؟

وله شعر رائع ، يأخذ بالألباب ، ويكاد يقطر منه ماء الملاحه والظرف ،
 ومنه قوله :

| | |
|---|--|
| قَدْ ذُبْتُ غَيْرَ حُشَاةٍ وَذَمَاءٍ | مَا بَيْنَ حَرِّ هَوَى وَحَرِّ هَوَاءٍ |
| لَا أَسْتَفِيقُ مِنَ الْغَرَامِ وَلَا أَرَى | خِلْوًا مِنَ الْأَشْجَانِ وَالْبُرْحَاءِ |
| وَصُرُوفِ أَيَّامِ أَقْمَنَ قِيَامَتِي | بِنَوَى الْخَلِيطِ وَفُرْقَةِ الْقَرْنَاءِ |
| وَحَفَاءِ خِلِّ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّهُ | عَوْنِي عَلَى السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ |
| ثَبَّتِ الْعَزِيمَةَ فِي الْعُقُوقِ وَوَدَّهْ | مُتَنَقِّلٌ كَمُنْقَلِ الْأَفْيَاءِ = |

قال عيسى بن هشام : فخرَجَ وَوَدَّعْنَاهُ وَأَقَمْنَا بَعْدَهُ بُرْهَةً نَشْتَاقُهُ ،
 وَيُؤَلِّمُنَا قِرَاقَهُ ، فَبَيْنَا نَحْنُ بِيَوْمِ غَيْمٍ فِي سَمَطِ الثَّرِيَا جُلُوسٌ إِذْ
 الْمَرَاجِبُ تُسَاقُ ، وَالْجَنَائِبُ تُتْقَادُ^(١) ، وَإِذَا رَجُلٌ قَدْ هَجَمَ عَلَيْنَا^(٢) ، فَقُلْنَا :
 مَنْ الْمَاجِمُ ؟ فَإِذَا شَيْخُنَا النَّاجِمُ ، يَرْفُلُ فِي نَيْلِ الْمَنَى ، وَذَيْلِ الْغَنَى ، فَقُمْنَا
 إِلَيْهِ مُعَاتِقِينَ ، وَقُلْنَا : مَا وَرَاءَكَ يَا عِصَامُ^(٣) ، فَقَالَ :

= وقوله :

| | |
|-------------------------------|-------------------------------|
| يَا مَنْ تَخَلَّى وَوَلَّى | وَصَدَّ عَنِّي وَمَلَأَ |
| وَأَوْسَعَ الْعَهْدَ نَكْنَأَ | وَأَتْبَعَ الْعَقْدَ حَلَأَ |
| مَا كَانَ عَهْدَكَ إِلَّا | عَهْدَ الشَّيْبَةِ وَلَّى |
| أَوْ طَائِفًا مِنْ خَيْالِ | أَلْمَ ثُمَّ تَوَلَّى |
| أَوْ عَارِضًا لَاحَ حَتَّى | إِذَا دَنَا فَتَدَلَّى |
| أَلَوْتُ بِهِ نَسَمَاتُ | مِنَ الصَّبَا فَتَجَلَّى |
| أَهْلًا بِمَا تَرْتَضِيهِ | فِي كُلِّ حَالٍ وَسَهْلًا |
| لَيَجْزِيَنَّكَ وَدَى | بِمِثْلِ فِعْلِكَ رِفْلًا |
| إِنْ شئتَ هَجْرًا فَهَجْرًا | أَوْ شئتَ وَصْلًا فَوْصْلًا |
| صَبْرَتَ عَنِّي فَأَنْظُرُ | ظَهْرَتَ بِالصَّبْرِ أَمْ لَا |
| إِنِّي إِذَا الْخِلُّ وَلَّى | وَلَيْتُهُ مَا تَوَلَّى |

وعنه أخذ الصحاح ابن عباد ، وتولى له كتابة خاصته . وتوفى سنة ٣٦٠ هـ .

(١) الجنائب : جمع جنيبة ، وهي الدابة التي يأخذها المسافر معه ليستريح

إليها إذا تعبت راحلته .

(٢) أى طَلَعَ عَلَيْنَا بَغْتَةً .

(٣) ما وراءك يا عصام : مثل يضرب عند الاستفسار عن أمر مرغوب في =

جَمالٌ مُوقرةٌ^(١) ، وَبِغالٌ مُثقلةٌ^(٢) ، وَحَقائبٌ مُثقلةٌ^(٣) ، وَأَنْشأَ يَقولُ :
 مَوْلَايَ أَيُّ رَذِيلَةٍ لَمْ يَأْبِهَا خَلْفٌ ؟ وَأَيُّ فَضِيلَةٍ لَمْ يَأْتِهَا؟^(٤)

= معرفته ، جَهْلَهُ السائل ، وعرفه المخاطبُ ، وعصام : هو حاجب النعمان بن
 المغذر ، مَنَعَ النابغةَ الديباني من الدخول عليه وهو مريض ، فقال له النابغة :
 أَلَمْ أَقْسِمَ عَلَيْكَ لَتُخْبِرَنِي أَمَّحْمُولٌ عَلَى النَّمْسِ الْهُمَامُ ؟
 فَإِنِّي لَا أَلَامُ عَلَى دُخُولِ وَلَكِنْ مَا وَرَاءَكَ يَا عِصَامُ ؟
 فَإِنَّ تَهْلِكَ - أَبَا قَابُوسَ - يَهْلِكُ رَبِيعُ النَّاسِ وَالْبَلَدُ الْحَرَامُ
 (١) الورق : الحمل ، وأوقره : حمله ، والموقرة : الحملة .

(٢) مُثقلة : أى جعل عليها متاع كثير حتى بهظها وثقل حملها عليها .

(٣) الحقايب : جمع حقيبة ، وهى الوعاء الذى يحمل فيه المسافر ثيابه
 وأمتعته ، والمراد هنا مجرد الوعاء .

(٤) خلف بن أحمد : أحد الأمراء الذين انتجعهم البديع ومدحهم ، وله

فيه قصائد شائعة ، منها التى مطلعها :

لَكَ الْخَيْرِ مِنْ طَيْفِ عَلَى النَّأْيِ طَارِقِ
 أَلَمْ بِنَا وَاللَّيْلُ فِي دِرْعِ نَائِكِ
 فَتَرْنَا إِلَى الْأَكْوَارِ وَالْعَيْسُ نَوْمُ
 نَهْجَرِ دَارِ الْعَامِرِيَّةِ وَالْحَمَى
 خَلِيلِي وَأَمَّا لِلْيَالِي وَصَرَفِهَا
 أَلَمْ تَرِنِي بَعْدَ النَّمْيِ وَبُلُوغِهَا
 إِذَا سَجَّعَ الْقُمْرِيُّ رَأْسَتْ لِحْنَهُ
 يَقول فيها :

..

لَعَمْرِي لئن مَنَّ الوزيرُ فإِنَّمَا =
 إِذَا اقْتَنَصَتْ مِنْهُ خُرَاسَانُ لَفُظَةً
 يَمُنُّ عَلَى عَبْدٍ بِنِعْمَاهُ نَاطِقِ
 أَمَاطَتْ نِسَاءَ الْعَرَبِ دُرَّ الْمَخَانِقِ
 يُبْلِغُ عَلَى شَوْسِ الْقَوَافِي وَصِيدَهَا
 فَيَلْبِسُهَا مَاءَ النِّعْمَانِي الدَّقَائِقِ
 أَبْعَدُ وَزِيرِ الْمَشْرِقَيْنِ أَرُدُّهَا
 عَلَى مَلِكٍ؟ رُدَّتْ إِذْنُ فِي حَمَاقِي
 وَمِنْ قِصَائِدِهِ فِيهِ قَوْلُهُ :

سَمَاءُ الدُّجِيِّ مَا هَذِهِ الْخَدَقُ النَّجْلُ ؟
 أَصَدَّرُ الدُّجِيَّ حَالٍ ، وَجِدِ الضُّحَى عَطْلُ ؟!
 لَكَ اللَّهُ مِنْ عَزْمٍ أَجُوبُ جُيُوبَهُ كَأَنِّي فِي أَجْفَانِ عَيْنِ الرَّدَى كُجْلُ
 كَانَ الدُّجِيَّ نَفْعٌ وَفِي الْجَلْوِ حَوْمَةٌ كَوَاكِبُهَا جُنْدٌ طَوَائِرُهَا رَسَلُ
 كَانَ الرَّبِّيُّ سَكْرِي ، وَلَا سُكْرٌ بِالْفَرَى
 كَانَ الرَّبِّيُّ نَسْكَلِي ، وَمَا بِالرَّبِّيِّ نَسْكَلُ
 كَانَ الشَّرِي سَاقِي ، كَانَ السَّكْرِي طَالًا
 كَأَنَا لَهَا شَرِبٌ ، كَأَنَّ الْمَنَى بَقْلُ
 كَانَ بَصْدَرِ الْعَيْسِ حِقْدًا عَلَى التَّرَى
 كَانَ أَبَانَا أَوْدَعَ الْمَلِكَ الَّذِي
 قَصَدْنَا هَ كَنْزًا لَمْ يَسْعَ رَدَّهُ مَطْلُ
 يَقُولُ فِيهَا :

يَقُولُونَ : وَاقِي حَضْرَةَ الْمَلِكِ الَّذِي
 فَتَقِيدَ لَهُ طِرْفُ ، وَحَاتَتْ لَهُ حُبِّي
 وَفَاضَتْ عَلَيْهِ مَطْرَةٌ خَافِيَةٌ
 يُدْ كَرُّهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا صَدَقْتُمْ
 لَهُ الْكَنْفُ الْمَأْمُولُ وَالنَّائِلُ الْجَزْلُ
 وَخَيْرٌ لَهُ قَصْرٌ ، وَدَرٌّ لَهُ نَزْلُ
 بِهَا لِلْعَوَادِي عَنْ وَلَا يَتِيهَا عَزْلُ
 لَدِي ، أَجِدَ مَا تَقُولُونَ أَمْ هَزْلُ ؟
 بِمِثْلِكَ عَنْ أَمْثَالِهِمْ مِثْلَنَا يَسْلُ
 وَإِنَّمَا

ما يُسْمِعُ الْعَافِينَ إِلَّا هَاكِمًا لَفْظًا ، وَلَيْسَ مُجَابٌ إِلَّا هَاتِمًا ^(١)
 إِنَّ الْمُسْكَرِمَ أَسْفَرَتْ عَنْ أَوْجِهِ بِيضٌ ، وَكَانَ انْخَالًا فِي وَجَنَاتِهَا ^(٢)
 أَبِي شَمَائِلُهُ الَّتِي تَجْلُو الْعُلَا وَيَدَّأ تَرَى الْبَرَكَاتِ فِي حَرَكَاتِهَا
 مَنْ عَدَّهَا حَسَنَاتٍ دَهْرٌ إِنِّي يَمُنُّ بِعُدِّ الدَّهْرِ مِنْ حَسَنَاتِهَا ^(٣)
 قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : فَسَأَلْنَا اللَّهَ بَقَاءَهُ ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا لِقَاءَهُ ، وَأَقَامَ
 فَلَنَاجِمٍ أَيَّامًا مُقْتَصِرًا مِنْ لِسَانِهِ ، عَلَى شُكْرِ إِحْسَانِهِ ، وَلَا يَتَصَرَّفُ مِنْ
 كَلَامِهِ ، إِلَّا فِي مَدْحِ أَيَّامِهِ ، وَالتَّحَدُّثِ بِأَنْسَامِهِ

(١) العافين : جمع عَافٍ ، وهو طالبُ الفضل ، وتكسيره عَفَاةٌ ، وهالك : اسم فعل أمرٍ معناه خُذْ ، والمعنى إن طُأَلِّبْ فضله والواردين على حضرته لا يسمعون منه إلا كلمة خذ الدالة على كرم زائد وسماحة لا تنتهى ، وهم لا يجيبونه بغير هات تلك الكلمة التي تنبئ عن احتياجهم إليه واستمناعهم إياه .

(٢) انخال : نقطة سوداء تكون في الصدغ الأبيض ، وهي مما تتمدح بها الغواني ، وتكسبهن جمالا وبهجة ، ومعنى البيت إن الأمير زينة المسكرات ، وحمية الفضائل ، وإنما الرجال بصلاح الأعمال ، فإذا افتخر الناس بالمكارم فإنَّ المسكرم نفسه التفتخر به .

(٣) المعنى : إنه إذا كان لإنسان أن يعتبر فضائل هذا الأمير حسنة من حسنات الدهر فإنني أقول : إن الدهر نفسه - وهو الذي يوجد بالحسنات - حسنة من حسنات الأمير ، وذلك نهاية المبالغة في الإطراء .

٣٨ - المَقَامَةُ الخَلْفِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

لَمَّا وُلِّيتُ أَحْكَامَ البَصْرَةِ ، وَانْحَدَرْتُ إِلَيْهَا عَنِ الحَضْرَةِ ^(١) ،
صَحِبَنِي فِي المَرْكَبِ شَابٌّ كَأَنَّهُ العَمَافِيَّةُ فِي البَدَنِ ^(٢) ، فَقَالَ : إِنِّي فِي أَعْطَافِ
الأَرْضِ وَأَطْرَافِهَا ضَائِعٌ ^(٣) ، لَكِنِّي أَعْدُ مُعَدَّ الأَلْفِ ^(٤) ، وَأُقِيمُ مَقَامَ صَفٍّ ،
وَهَلْ لَكَ أَنْ تَتَّخِذَنِي صَنِيمَةً ^(٥) ، وَلَا تَطْلُبَ مِنِّي ذَرِيعَةً ^(٦) ، فَقُلْتُ : وَأَيُّ

(١) تقدم عن البصرة كلام وافٍ (ص ١٢١ و ٢٢٤) ، وانحدرت: سرت ، والحضرة :
أراد بها ذات الخليفة الذي ولّاه شؤون البصرة ، أو مكان إقامته وهو بغداد .
(٢) يريد أن هذا الشاب طيّب العشرة ، وسيم الخلق ، غزير الأدب ،
كامل المروءة ، بحيث يتمتناه الإنسان مثلما يتمنى الصحة ، ويأسف لفراقه كما
يأسف إذا فارقت العافية .

(٣) الأَعْطَافُ : جمع عِطْفٍ - بكسر أوله - ومرر 'الب' . والمعنى : إنه
مهضوم الحق ، مريض الجناح ، لا يعترف الناس له بفضل ، ولا يذعنون لكياسته ونبه
(٤) المعنى : إن الحق أنني لست في المكانة التي أنزَلَنِيهَا الناسُ ، وإنما
أنا من الشجاعة والإقدام ، وكمال الرجولية ، بحيث أسدُّ مسدَّ الألف ، فأنا من
الذين عنام ابن دريد بقوله :

وَالنَّاسُ أَلْفٌ مِنْهُمْ كَوَاحِدٍ وَوَاحِدٌ كَالأَلْفِ إِنْ أَمُرُ عَنِّي

(٥) الصَّنِيعُ والصَّنِيمَةُ : الطعام والإحسان ، والجمع : صنائع ، وتقول :
« هُوَ صَنِيعِي » و « صَنِيعِي » إذا أحسنت إليه ورَبَيْتَهُ وَخَرَجْتَهُ ، ويقال أيضاً
« صُنِعتِ الجارية » - بالبناء للجھول - إذا أحسن إليها حتى سَمِنت . وقوله تعالى :
(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) أي أحسنت إليك لتقوم برسالتى .

(٦) تقول : « فلان ذرِيعَتِي إلى فلان » أي وسيلتي ، و « قد تذرَعْتُ
به إليه » أي توسلت . ويقال أيضاً : « أنا ذرِيعُ فلان عند فلان » أي وسيلة =

ذَرِيْعَةٌ آ كَدُّ مِنْ فَضْلِكَ ؟ وَآئِي وَسِيْلَةٍ أَعْظَمُ مِنْ عَقْلِكَ (١) ؟ ؟ لَا بَلْ
أَخْدَمْتُكَ خِدْمَةَ الرَّفِيقِ (٢) ، وَأَشَارَكَكَ فِي السَّعَةِ وَالضِّيْقِ (٣) ، وَسِرْرَنَا
فَلَمَّا وَصَلْنَا الْبَصْرَةَ غَابَ عَنِّي أَيَّامًا ، فَضِضْتُ لِنَيْبَتِهِ ذَرْعًا (٤) ، وَلَمْ
أَمْلِكْ صَبْرًا ، فَأَخَذْتُ أَدْنَسُ جُيُوبَ الْبَلَدِ حَتَّى وَجَدْتُهُ (٥) ، فَقُلْتُ :
مَا الَّذِي أَنْكَرْتَ ؟ وَلِمَ هَجَرْتَ (٦) ؟ فَقَالَ : إِنَّ الْوَحْشَةَ تَقْدَحُ (٧) فِي

= وشفيح. والمعنى : أفأ ترى أن تحسن إلى وتتمهدين ثم لا تطلب مني وسيلة غير
الخفاوة بي والقيام بشؤني هذا هو المعنى المتبادر ، ولا أدرى كيف يتفق مع
الذي نعت به نفسه قبل ذلك ؟ ولو حملت الذريعة على الوثيقة ونحوها لنتج من
ذلك معنى صحيح يناسب ما قبله وما بعده ، ولكننا لم نجد في معاجم اللغة التي
بأيدينا للذريعة معنى يساعد على ذلك .

(١) المعنى إنني لا أملك شيئا ، ولا أطالب منك - كما رأيت - وسيلة ، فإن
فضلك وعقلك كافيان .

(٢) يروى « الرقيق » بقافين ، وهذه الرواية واضحة المعنى ، ويروى « الرقيق »
بالفاء الموحدة ، ومن معانيه : العبد ، وحينئذ يظهر المعنى المراد .

(٣) المعنى : لا أبخل عليك بما بيدي إذا أتريت ، وأواسيك بطيب عشريني
إن أحملت . (٤) ضاق بالأمر ذَرْعًا وَذِرَاعًا : أي لم يُطِقه ، ولم يقدر عليه .

(٥) جَيْبُ الْأَرْضِ : مَدْخَلُهَا ، وَجَمْعُ جُيُوبٍ ، وَالْمَعْنَى إِنَّهُ حِينَمَا فَارَقْتَنِي
دَاخَلْتَنِي الْوَحْشَةَ ، وَزَادَ بِي النِّعَمَ ، فَعَمِلَ صَبْرِي ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ نَسْيَانَهُ وَلَا السُّلُوكَ
عَنَّهُ ، فَخَرَجْتَ فِي طَلْبِهِ أَمْحَتْ عَنْهُ ، وَلَمْ أَتْرِكْ مَدْخَلَ الْبَلَدِ وَلَا مَنْعَطًا إِلَّا وَجَدْتُهُ ،
إِلَى أَنْ هَدَّتْنِي الْأَلطَافُ إِلَيْهِ .

(٦) المعنى : أي شيء حملك على هجراني وتركني ؟ وما الذي رأيت مني
فلم يعجبك ، ولم يرق في نظرك ؟ .

(٧) الْوَحْشَةُ : الْخَلُوعُ ، وَالنِّعَمُ ، وَالخُوفُ ، وَأَنْقِبَاضُ النَّفْسِ عِنْدَ اسْتِذْكَارِهَا =

الصَّدْرِ اُفْتَدَاحِ النَّارِ فِي الزَّنْدِ ، فَإِنْ أُطْفِئَتْ بَادَتْ وَتَلَاشَتْ ،
وَإِنْ عَاشَتْ ، طَارَتْ وَطَاشَتْ^(١) ، وَالْقَطْرُ إِذَا تَتَابَعَ عَلَى الْإِنَاءِ
اِثْتِلَاءً وَفَاضَ^(٢) ، وَالْعَتَبُ إِذَا تَرَكَ فَرَّخَ وَبَاضَ^(٣) ، وَالْحُرُّ لَا يَمْلَقُهُ

= أمرا تـسكره ، وتقدح : تستعمل ، أو تظهر ، والزند : العود الذي يُقدحُ به
النار ، وجمعه زناد ، وأزند ، وأزناد ، والمعنى : إن الألم ليتوقد في الصدر كما تتوقد
النار إذا احتك الزند .

(١) بادت : هلكت ، ويروي « نارت » ومعناه انهزمت ، على تشبيهه
الوحشة أو النار بالرجل المنهزم أمام عدوه ، وتلاشت : تضاءلت ، وأمتخت
آثارها ، وطارت : ارتفعت ، وطاشت : حمقت ، والمعنى : إن النار إذا بُودِرتْ
قبل أن تلتهب ، وعُوجِلتْ من قبل أن يندلع لسانها ويرتفع شواظها ؛ فلا بد أن
تنكسر حِدَّتُها وتضمحل قُوَاهَا فتنفو آثارها ، فأما إذا تركت وشأنها ولم
تتخذ الحيلة لها فإنها لا تترك سبداً ولا لبداً ولا تُتَبَّقِي ولا تَدَّرُ ، وكذلك نار
الأحقاد والآلام

(٢) القَطْرُ : المطر ، وتَتَابَعَ : تَوَالَى ، وفاض : زاد عن حاجة طالبه ،
والمعنى : إن توالى المطر وهو نعمة يعقب ضرراً إذا زاد عن الكفاية ، فكيف
بك إذا توالى البأساء والضراء ، وإذا كان الإناء يرمى الزائد عن سَعَتِهِ فلا بد
أن ينفجر الوَحْشَانُ (المغم) وشديد الضغط يعقبه انفجار دائماً .

(٣) أفرخت البيضة وفرخت : انشقت عن الفرخ ، وأفرخت الطائرة : إذا صار
لها فرخ ، والعتب والعتبة - بالتحريك - : الأمر الكريه من الشدة والبلاء .
يقال « حَمَلَ فلان فلانا على عَتَبَةٍ » أي على شدة وكريهة . وفي حديث عائشة
« إِنَّ عَتَبَاتِ المَوْتِ تَأْخُذُهَا » أي كروبه وشدائده ، والمعنى : إن الكربات
والشدائد إذا لم يعمل المرء على إزالتها تولدت عنها شرور ومسآوٍ ، وأصبح كنجحها
بعد ذلك عسيراً .

شَرَكٌ كَالْعَطَاءِ ، وَلَا يَطْرُدُهُ سَوْطٌ كَالْحَفَاءِ^(١) ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ ،
 نَنْظُرُ مِنْ عَالٍ ، عَلَى الْكَرِيمِ نَظَرَ إِذْلَالٍ ، وَعَلَى اللَّئِيمِ نَظَرَ إِذْلَالٍ^(٢) ،
 فَهَنْ لَقِينَا بِأَنْفٍ طَوِيلٍ ، لَقِينَاهُ بِحَرْطُومٍ فَيْلٍ^(٣) ، وَمَنْ حَظَّنَا بِنَظَرٍ شَزْرِ ،
 بَعْنَاهُ بِشَمَنِ نَزْرِ^(٤) ،

(١) لا يملك الحر ويستهو به أكثر من الإحسان ، ولا يسئته وينفره سوى الإساءة ، وأحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم .

(٢) الإذلال - بالذال المهملة - ومثله الدلال : التميزُّ على مَنْ لَكَ عِنْدَهُ منزلة ، وفي الحديث : « يَمْشِي عَلَى الصَّرَاطِ مُدْبِلًا » أى منبسطاً لاخوف عليه ، ولعله مأخوذ من الدل وهو الهدى والسمت عبارة عن الحالة التى يكون عليها المرء من السكينة والوقار وحسن السيرة والطريقة واستقامة المنظر والهئية ، والإذلال - بالذال المعجمة - الاحتقار ، والإهانة ، والأزدراء ، وتهوين الشأن ، والمعنى : إنه يجعل الناس فى المعاملة على قسمين ؛ فيعامل كلَّ صنف بما يليق له ويلائمه ، فيتميز على الكريم ويُدبِّلُ عليه ، وينأى عن اللئيم ويحتقره ، وهو بهذا يشير إليه بأنه من الكرام الذين تجب الدالة عليهم ، وينبغى فى حقهم التيه .

(٣) يقال : « شَمَخَ الرَّجُلُ بِأَنْفِهِ » إذا كان متكبراً صلفاً ، والشموخ : الارتفاع ، وأصله من قولهم : « جَبَلٌ شَامِخٌ » أى مرتفع عال ، ولبعضهم : تَرَى شَمَخَ الْأَطْوَادِ مِنْ شَمَخِ خَنْدِفٍ ذَرَاهُنَّ فِي تَحْضَاخٍ بِحَرْكٍ تَفَرَّقُ فَمَنْ يَكُونُ بِشَمُوحِ الْأَنْفِ عَنِ الْارْتِفَاعِ وَالتَّكْبَرِ ، وَحَرْطُومِ الْفَيْلِ : أَنْفُهُ مَعَ شَفْتِهِ الْعُلْيَا ، وَهِيَ بِالْقَانِ الْغَايَةُ فِي الطُّوْلِ ، وَالْمَعْنَى : إِنْ الَّذِي يَتَكَبَّرُ عَلَيْنَا وَيَزُورُ بِجَانِبِهِ عَنَا ، نَعَامِلُهُ مِنْ جِنْسِ هَذِهِ الْعَامِلَةِ ، وَنَكِيلُ لَهُ بِكَيْلِهِ ، بَلْ تَفَوْقَهُ صَلْفًا وَإِبَاءً وَكِبْرًا ، وَالسَّكْبَرُ عَلَى أَهْلِ السَّكْبَرِ صَدَقَةٌ .

(٤) اللَّحْظُ : النَّظَرُ بِشِقِّ الْعَيْنِ مِمَّا يَلِي الصُّدْغَ ، وَيَسْمَى الْجَانِبَ الَّذِي يَلِي الصُّدْغَ : اللَّحَاظُ ، فَأَمَّا الَّذِي يَلِي الْأَنْفَ فَالْمَوْقُ وَالْمَاتِقُ ، وَأَرَادَ مِنْهُنَا مَجْرَدَ النَّظَرِ ، وَالنَّظَرُ =

وَأَنْتَ لَمْ تَقْرُسْنِي لِيَقْلَمَنِي غُلَامُكَ^(١) ، وَلَا أُشْتَرِ بِنْتِي لِتَبِيعَنِي خُدَامُكَ^(٢) ،
وَالْتَرَهُ مِنْ غِلْمَانِهِ ، كَالْكِتَابِ مِنْ عُنْوَانِهِ^(٣) ، فَإِنْ كَانَ جَفَاؤُهُمْ شَيْئًا
أَمَرْتَ بِهِ فَمَا الَّذِي أَوْجَبَ ؟ وَإِنْ لَمْ تَسْكُنْ عَلِمْتَ بِهِ كَانَ أَعْجَبَ^(٤) !!
ثُمَّ قَالَ :

= الشزر: أكثر ما يكون في حال الغضب وإلى الأعداء ، وللنزر: التقليل والبخس ،
والمعنى : إنَّ حقاً علينا أن مَنْ تَأَفَّفَ مِنَّا أَوْ سَمِنَّا فَصَافَ عَشْرَتَنَا نَهَجْرَهُ غَيْرِ
أَسْفِينِ عَلَيْهِ ، وَلَا مَتَأَلِّينَ لَهُ .

(١) شبه نفسه بالشجرة التي يفرسها الإنسان ، وكأنه أراد من ذلك أن
مَنْ زَرَعَ لَا يَزَالُ يَتَعَمَّدُ زَرْعَهُ بِالسَّقِيِّ إِلَى أَنْ يَنْمُو وَيَشْتَدَّ ، وَيَحَافِظُ عَلَيْهِ ،
وَيَمْنَعُ عَنْهُ الْأَيْدِيَّ ، والمعنى : إنك لم تكلف نفسك عناء معاشرتي ، والقيام
علي ، وتأدية شؤوني ؛ لتتركني إلى خدمك فيسيثوا إلى ، أو تجعل رعايتي إليهم
فيهملوا أمرى .

(٢) هذه الفقرة كالتى قبلها ، وشبهه نفسه هنا بالشيء الذى يشتريه الإنسان
ويدفع فيه النفس من ماله ، وذلك يكون مدعاة إلى الاحتفاظ به والحرص عليه
(٣) المعنى : إنَّ خَدَمَ الْإِنْسَانَ يُنْبِثُونَ عَنْ أَخْلَاقِهِ ، وَيَدُّوْنَ عَلَى خَفِيهِ ،
كالكتاب إذا خفي دل عليه عنوانه ، وهذا ضد الذى يقوله بعض الناس
« إِذَا حَسَنْتَ أَخْلَاقُ السَّيِّدِ سَاءَتْ أَخْلَاقُ الْمَسُودِ » . وللمباس بن الأحنف
في التشبيه بالكتاب ودلالة العنوان عليه :

لَا جَزَى اللَّهُ دَمْعَ عَيْنِي خَيْرًا وَجَزَى اللَّهُ كُلَّ خَيْرٍ لِسَانِي
كُنْتُ مِثْلَ الْكِتَابِ أَخْفَاهُ طَيُّ فَاسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِالْعُنْوَانِ

(٤) أى أن أمرك دائر بين أن تكون أوعزت إلى خدمك بالإساءة إلى
ومعاملتى بالشر ، وهذا عجيب جداً ؛ لأنه لا سبب يدعو إلى مثل هذه المعاملة ،
وبين أن يكونوا قد صنعوا ذلك من عند أنفسهم وبغير علمك ، وهذا أكثر =

ظَفِرَتْ يَدَا خَلْفِ بْنِ أَحْمَدَ ؛ إِنَّهُ سَهْلُ الْفِنَاءِ مُؤَدَّبُ الْخُدَّامِ (١)
 أَوْ مَا رَأَيْتَ الْجُودَ يَجْتَازُ الْوَرَى وَيَحِلُّ مِنْ يَدِهِ بِدَارِ مَقَامِ (٢)
 قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : ثُمَّ أَعْرَضَ وَتَهَفَّتْهُ أَسْتَمَطِفُهُ (٣) ، وَمَا زِلْتُ

= عجباً وأشد غرابة، إذ كيف يتصرف الخادمُ تصرفاً لم يأمره به سيده، أو يعمل عملاً لا رغبة لمولاه فيه ؟ .

(١) اليد آلة القوة وواسطة البطش، ولذلك يُعبَّرون بها عن ذلك، ويكنون عن القوة والمنعة ووفر النعمة ورخاء العيش بمنى : اشتدَّ ساعده ، وَقَوِيَتْ يَدُهُ ، وظفرت يده ، وما أشبه ذلك ، وفي ضد ذلك : تَرَبَّتْ يَدُهُ ، وَأَحَلَّتْ ، وَضَعَفَتْ ، ويقولون : فلان رَحْبُ الْفِنَاءِ ، أَوْ سَهْلُ الْفِنَاءِ ، يريدون أنه كريم الوفاة ، كثير الضيفان ، وأصل الْفِنَاءِ - بكسر أوله - المكان المتسع أمام الدار، ويجمع على أَفْنِيَّةٍ ، بوزن كساء وأَكْسِيَّةٍ ، والمعنى : إنه يدعو لِخَلْفِ بِالْخِصْبِ وَالْمَاءِ وَالقوة ، لأنه كريم ، حسن الوفاة ، كثير الزوار ، ومع هذا تجد خدمه مُؤَدَّبِينَ لَا يَسِيئُونَ إِلَى أَحَدٍ ، وَلَا يَمِلُ مِنْهُمْ طَارِقٌ ، وفيه تعريض بعيسى .

(٢) جاز المَسْكَنَ يَجُوزُهُ : تعدَّاه إلى غيره ، واجتازه كذلك ، والمقام والإقامة : المسكث والبقاء ، والمعنى : إن الكرم وطيب الأخلاق وشريف الخلال تمرُّ بالناس جميعاً ، لا تخرج عليهم ولا تقع بساحتهم ، فإذا بلغت الأمير أَلْقَتْ عَصَاهَا عِنْدَهُ ، وَبَقِيَتْ لَدَيْهِ لَا تَحُولُ وَلَا تَتَحَوَّلُ ، وفي البيت كناية عن نسبة صفة الكرم إليه ، كقولهم : المجدُّ بين بُرْدِيَّةٍ ، وَالكَرْمُ حَشْوُ تَوْبِيَّةٍ ، وَالسُّودُّ طَوْنُ عُنْدِيَّةٍ ، وكقول الشاعر :

إِنَّ السَّمَاخَةَ وَالْمَرْوَةَ وَالنَّدَى فِي قُبَّةِ ضَرِبَتْ قَلِيَّ ابْنِ الْخُرَجِ

(٣) أَعْرَضَ : المراد منه سار مُعْرِضاً ، وَأَسْتَمَطِفُهُ : أطلب منه العطف

وهو الميل والشفقة ، والمعنى : إنه تركنى ومضى متألماً مما حدث له ، مظهرأ الإعراض عني ، فلم أستطع أن أتركه ، بل سرت إليه ، وَمَا زِلْتُ بِهِ أَطْلُبُ =

الأطفه^(١) حتى أنصرف ، بعد أن حلف ، [أن] لا أوزدت من أساء
عشرته^(٢) ، فوهبت له حرمة^(٣) .

== منه ألا يحمل في نفسه شيئاً ، وألا يكون خطأ الخادم منه مدعاة إلى التقاطع
بيننا والنفور .

(١) الأطفه : استعمل في استعطافه اللطف ، وهو الرفق ، واللين ، والهدوء .
(٢) انصرف : ذهب إلى قصده ، وحلف - بالتخفيف - : أقسم ،
وأوردت : أحضرت ، والمعنى إنه تركني سائراً في طريقه ، بعد أن أقسم على
ألا يبقى عندي ، ولا ينتظر بحضرتي حتى يرى طرد ذلك الخادم الذي أهانه وأساء
معاملته ، وكأنه أقسم عليه لثقتة بكرم أخلاقه وشرف طباعه ، ومن كانت تلك
سجاياه فإنه يبرئ الناس في قسَمهم ، ويحجبهم إلى طلبهم .

(٣) حرمة الرجل : كرامته ، وكان أصله حرمة الرجل لحرمة وأهله ، لأنهم
موضع إهانتة وكرامته . ومعنى « وَهَيْتَهُ حَرَمَتُهُ » : أعطيته كرامته ومنَحَتْهَا لَهُ ،
وكانما كان مفقودها بسبب سوء المعاملة فَرَدَّهَا إِلَيْهِ بما صنع من طرده الخادم .

٣٩ - المَقَامَةُ النَّيْسَابُورِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :
 كُنْتُ بِنَيْسَابُورٍ (١) يَوْمَ جُمُعَةٍ ، فَحَضَرْتُ الْمَفْرُوضَةَ (٢) ، وَلَمَّا قَضَيْتُهَا
 أَجْتَازَ بِي رَجُلٌ قَدْ لَيْسَ دَنِيَّةً (٣) وَتَحَنَّنَ سُنِيَّةً (٤) ، فَقُلْتُ لِمُصَلِّ بِنَجْنِي :
 مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا سُوسٌ لَا يَقَعُ إِلَّا فِي صُوفِ الْأَيْتَامِ (٥) ، وَجَرَادٌ لَا يَسْقُطُ

(١) نيسابور : إحدى مدن مملكة إيران .

(٢) المفروضة : الصلاة ، وأراد بها هنا صلاة الجمعة بقريفة ذكر يومها .

(٣) اجتاز : مرّ ، والدّنية - بتشديد النون والياء جميعاً - قلندسوة طويلة

يلبسها القضاة ، وكأنها منسوبة إلى الدن لضخامتها ، وليست هذه اللفظة من كلام
 وإنما هي من الألفاظ المستعملة في العراق - حينذاك - وقد استعملها شعراؤهم
 العرب ، كثيراً ، قال ابن لُفَكَّك :

نَفْسِي تَقِيكَ أبا المندّام يا أملي إلى بكلّ الذي ترضاه لي راضي
 ما كان ... ققيها إذ ظفرت به فكيف ألبسته دنيّة القاضي
 وقال الصابي :

وَفَوْقَهُ دَنِيَّةٌ تَذْهَبُ طَوْرًا وَنَجِي

(٤) تحننك : جعل عمامته تدور من تحت حنكه ، والسنية : المنسوبة إلى

أهل السنة .

(٥) السوس : نوع من الدود ، ونقول : المشهور أن الذي يأكل الصوف

ونحوه من الثياب دويبة تسمى « الأَرْضَة » وأن السوس يأكل الطعام ونحوه ،

قال الشاعر :

قَدْ أَطْعَمْتَنِي دَقْلًا حَوْلِيَا مُسُوسًا مُدَوِّدًا حُجْرِيَا

(٢٠ - شرح مقامات البديع)

إِلَّا عَلَى الزَّرْعِ الْحَرَامِ (١) وَلَيْسَ لَا يَنْقُبُ إِلَّا خِرَانَةَ الْأَوْقَافِ (٢) ، وَكَرْدِيٌّ
لَا يُغَيِّرُ إِلَّا عَلَى الضَّمَّافِ (٣) ، وَذَنْبٌ لَا يَنْفَتِرُ مَعَ عِبَادِ اللَّهِ إِلَّا بَيْنَ الزُّكُوعِ .

= وَحُجْرِيًّا: مَنْسُوبًا إِلَى حُجْرٍ - بضم فسكون - وهي قصبية اليمامة، وقال آخر:
آلِيتَ حَبَّ الْعِرَاقِ الدَّهْرَ أَطْعَمَهُ وَالْحَبُّ يَا كَلَهُ فِي الْقَرْيَةِ السُّوسُ
غير أن القاموس فسره بأنه دود يقع في الصوف، وقال: وَأَرْضَ الْخَشْبِ
- كَعُنِي - أكلته الأَرْضَةُ لدويبة معروفة، وهذا يدل على أنه يجوز أن يقال:
سوس وأرض لـكل شيء، والمعنى: إن هذا القاضي خبيث لثيم ذئب يقع
في الصوف - وأراد به الأموال - فيأكله ويفسده، ولكنه لا يختار إلا صوف
الأيتام وأموالهم؛ لأنه لا يوجد لليتيم من يدافع عنه ويحاسب له .

(١) الْجَرَادُ: معروف، ويقال للذكر والأنثى، وهو ينزل بالزرع فيهلكه،
ومنه قيل: سَرَحَةٌ لَمْ تُجْرَدْ، أي لم تصبها آفة تأكل ثمرتها ولا ورقها، وقيل:
جَرِدَتِ الْأَرْضُ فهي تجرودة، أي أصابها الجراد وأهلكها، والمراد تشبيهه
ذلك القاضي به في أكله الأموال وإهلاكها، فهو يقول: إنه كالجراد الذي
ينزل بالزرع فلا يترك فيه ثمرة نافعة، ثم إنه لا ينزل بالزرع المباح، بل يختص
الحرام منه؛ وفي هذا زيادة في تشنيع حاله .

(٢) اللص: السارق، والمعنى إن هذا الرجل يشبه اللص في أخذه أموال
الناس واختلاسها، ولكنه لا يسطو إلا على ما اشتد الحظر عليه، وزادت حرمة
انتهاهه، كأموال الأوقاف المرصودة للمنافع العامة .

(٣) الأكراد: جيل من الناس عرف أن في طبعمهم الغدالة، ودناءة النفس،
فهم أشد الناس متيلاً إلى النهب وسلب الأموال. وهذا القاضي يشبههم في ذلك،
غير أنه لا يسطو على جميع الناس، بل يختص بنهب الضماف والعجزة الذين
لا يقدرون على مغالبتهم، ولا يجسرون على مجالدته، فأما الأقوياء والذين لهم شوكة
فهو يمنحهم أكثر من حقوقهم؛ ليتستروا عليه، ويعاونوه على ظلمه .

وَالشُّجُودِ^(١) ، وَمُحَارِبُهُ لَا يَنْهَبُ مَالَ اللَّهِ إِلَّا بَيْنَ الْعُهُودِ وَالشُّهُودِ^(٢) وَقَدْ لَبَسَ دِينِيَّتَهُ ، وَخَلَعَ دِينِيَّتَهُ^(٣) ، وَسَوَّى طَيْلِسَانَهُ ، وَحَرَفَ يَدَهُ وَلِسَانَهُ^(٤) ، وَقَصَرَ سِبَالَهُ ، وَأَطَالَ حِبَالَهُ^(٥) ، وَأَبْدَى شَقَاشِقَهُ ، وَغَطَّى مَخَارِقَهُ^(٦)

(١) ذئب : المراد به إنسان يشبه الذئب في الخبيث ، والذئب أخبث الحيوانات وأرذأها ، ومن ثم سمي صماليكُ العرب وشطَّارهم بالذئبان ، والمعنى : إنه يتظاهر بالصلاح والتقوى والخشية من الله والخوف من عذابه ، ولكنه يعمل عمل الدين ليس في قلوبهم شيء من الشفقة ، ولا تداخلهم الرحمة بعباده ، فهو يسطو على الناس وهو راحك وساجد ، أو وهم ركوعٌ وسُجُودٌ .

(٢) العهود : العقود والمواثيق ، والمعنى إنه يحتمل على الناس بصُور خداعة يوهم أنها شرعية ليقنص أموالهم ويستفيدا لنفسه ، والحقيقة أن هذه الأشياء مُتَّصَنَعَةٌ صورية ، لا تتفق مع حقيقة الشرع في شيء .

(٣) دينيته : صفته الدينية ، والمعنى : إنه قد أرتدَّى رداء القضاة ورجال الدين ، ولبس لبوسهم ، وتزيَّياً بزيتهم ، ولكنه قد ترك حقيقة صفاتهم ، ونبذ صالح أعمالهم التي لا يلائمها ما يفعله من ابتزاز الأموال ونهبها .

(٤) الطَّيْلِسَانُ : لباس أخضر يلبسه الخوَّاصُّ من النَّسَّاك ، وتطَّلسُّ : لبسه ، وسَوَّاهُ . رضعه كما ينبت أن يُوضَعَ ، وَحَرَفَ يَدَهُ وَلِسَانَهُ : أي حَدَّدَهُما ، كناية عن تهيئته واستعداده للاختلاس وإيقاع الناس في شباكه .

(٥) السِّبَالُ - بوزن كتاب - جمع السِّبَلَةِ - بالتحريك - وهي الشارب ، وتقصيره من سبأ الصالحين وعلامات أهل الوَرَعِ والأَتْقِيَاءِ ، وقال الهروي : هي الشَّعْرَاتُ التي تحت اللِّحْيِ من الأسفل ، والسِّبَلَةُ عند العرب مُقَدَّمُ اللِّحْيَةِ وما أسيل منها على الصدر ، وليس ذلك مُرَاداً هنا ؛ لأن تقصير هذا ليس من شارات الزهاد ، وأطال حباله : أي شباكه التي يصيد بها الناس .

(٦) الشَّقَاشِقُ : جمع شَقَشِقَةٍ - بكسر الشينين - وأصلها النفاخة التي يخرجها =

وَبَيْضَ لِحْيَتِهِ ، وَسَوَدَ صَحِيفَتِهِ (١) ، وَأَظْهَرَ وَرَعَهُ ، وَسَتَرَ طَمَعَهُ (٢) ، قُلْتُ :
لَعَنَ اللَّهُ هَذَا ، فَمَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا رَجُلٌ أَعْرَفُ بِالْإِسْكَانْدَرِيِّ ، قُلْتُ :
سَقَى اللَّهُ أَرْضًا أَنْبَتَ هَذَا الْفَضْلَ ، وَأَبَا خَلْفَ هَذَا النَّسْلِ ، فَأَيَّنْ تُرِيدُ ؟
قَالَ : السُّكْبَةَ ، قُلْتُ : بَخَّ بِخٍ بِأَسْكِهَا وَلَمَّا تَطْبِخُ (٣) ، وَنَحْنُ إِذَا
= نخل الإبل من حلقه عند هياجه ورعائه يُرْجَعُ فِيهَا هَدِيرُهُ وَيَرْدُّهُ ، ثُمَّ قِيلَ
لِلْخَطِيبِ الَّذِي فِي لِسَانِهِ ذَرَابَةٌ : إِنَّهُ لَذُو شِقْشِقَةٍ ، تَشْبِيهَا بِالْفِعْلِ الْكَثِيرِ الْمَهْدِيرِ ،
وَقَالَ الْأَخْطَلُ :

إِذَا هَدَرْتَ شِقَاشِقَهُ وَنَشَبْتَ لَهُ الْأَطْفَارُ تُرِكَ لَهُ الْمَدَارُ

(أراد نَشَبْتَ وَرِكَ ، فَخَفَّ بِإِسْكَانِ الشَّيْنِ وَالرَّاءِ) ، وَيُقَالُ : مَخْرَقَ
الرَّجُلُ : أَي أَوْهَمَ أَنَّهُ عَلَى حَقِّ وَصَوَابٍ وَهُوَ عَلَى خِلَافِهَا ، وَالْمَخْرَقَةُ مِنْهُ ، وَجَمْعُهَا
مَخْرَاقٌ ، قِيلَ : وَهِيَ كَلِمَةٌ مَوْلُودَةٌ ، وَالْمَعْنَى : إِنَّ هَذَا الْقَاضِيَ أَظْهَرَ ذَرَابَةَ لِسَانِهِ ،
وَفِصَاحَةَ مَنْطِقِهِ وَقُوَّةَ بَيَانِهِ ؛ لِاسْتِجْلَابِ النَّاسِ وَالتَّفَانِمِ حَوْلَهُ ، وَأَخْفَى كَذِبَهُ وَبَاطِلَهُ
فِي نَفْسِهِ .

(١) بَيْضَ لِحْيَتِهِ : أَي أَنَّهُ عَاشَ طَوِيلًا حَتَّى ابْيَضَّتْ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ
عَمَلًا صَالِحًا فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا ، بَلْ كُلُّ أَعْمَالِهِ شَرِيرَةٌ فَاسِدَةٌ ، فَهُوَ قَدْ لَوَّثَ صَحِيفَةَ
ذِكْرِهِ ، وَتَسْوِيدُهَا كِنَايَةٌ عَنِ سُوءِ عَمَلِهِ .
(٢) الْمَعْنَى : إِنَّهُ أَظْهَرَ لِلنَّاسِ تَعَفُّفَهُ عَنِ الدُّنْيَا وَمَيْلَهُ إِلَى ثَوَابِ الْآخِرَةِ ،
وَأَخْفَى عَنْهُمْ أَغْرَاضَهُ وَنِيَاتَهُ الْخَبِيثَةَ .

(٣) بَخَّ ، كَقَدَّ : أَي عَظَّمَ الْأَمْرَ وَخَمَّ ، تَقَالُ وَحْدَهَا ، وَتَسْكُرُّ بِخٍ بِخٍ الْأَوَّلِ
مَنْوُونٍ وَالثَّانِي مَنْسُكِنٍ ، وَفِيهَا لَغَاتٌ ؛ يُقَالُ فِي الْإِفْرَادِ : بَخَّ سَاكِنَةً ، وَبَخَّ مَكْسُورَةً ،
وَبَخَّ مَنْوُونَةً مَكْسُورَةً ، وَبَخَّ مَنْوُونَةً مَضْمُومَةً ، وَيُقَالُ : بَخَّ بَخَّ مَسْكِينِينَ ، وَبَخَّ بَخَّ
مَنْوُونِينَ ، وَبَخَّ بَخَّ مَشْدِيدِينَ ، وَإِنَّمَا تَقَالُ عِنْدَ الرِّضَا وَالْإِعْجَابِ بِالشَّيْءِ ، أَوِ الْفَخْرِ
وَالْمَدْحِ ، وَقَوْلُهُ : «بِأَسْكِهَا وَلَمْ تَطْبِخْ» مَعْنَاهُ أَنَّ ثَوَابَهَا وَعَظِيمَ أَجْرِهَا (وَالضَّمِيرُ =

ورَفَاقٌ^(١) فَقَالَ: كَيْفَ ذَلِكَ وَأَنَا مُصْعَدٌ وَأَنْتَ مُصَوَّبٌ^(٢)؟ أَلَا قُلْتَ: فَكَيْفَ
فُصِّدْتُ إِلَى الْكَعْبَةِ^(٣)؟ قَالَ: أَمَا إِنِّي أُرِيدُ كَعْبَةَ الْمُحْتَاجِ، لَا كَعْبَةَ
الْحُجَّاجِ^(٤)، وَمَشْعَرَ الْكَرِيمِ، لَا مَشْعَرَ الْحَرَمِ^(٥)، وَبَيْتَ أَسْبَى، لَا بَيْتَ

== للفتحة الصالحة المفهومة من الكلام) يحصل لك قبل الفعل، فكيف بك بعده؟

(١) رِفَاقٌ: جمع رَفِيقٍ، بوزن كريم وكرام، والرَفِيقُ: الصاحب، والصديق،
والذي يعاونك في عملك، مأخوذ من الرفق وهو لين الجانب، ولطافة الفعل،
ويقع الرفيق على الواحد والجمع، تقول: هو رَفِيقِي، وهم رَفِيقِي، كما تقول: هم
رُفَقَائِي ورِفَاقِي، وفي التنزيل ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾. والمعنى: إنك
تقصد الكعبة وأنا أقصدها، وقد شمت منك ربح النبل وكرم الخلق، فهلا كنت
رَفِيقِي في ذلك السفر.

(٢) مُصْعَدٌ: أى ذاهب نحو الشمال، وأصله الصعود وهو الارتفاع، ومُصَوَّبٌ:
سائر نحو الجنوب، من قولهم «صَوَّبَ» إذا تسفل، وقال أبو النجم:

* نَصَوَّبَ الْحُسْنَ عَلَيْنَا وَارْتَقَى *

والمعنى: إنه لا سبيل إلى مرافقتك، والسير معك؛ لأن طريقنا غير واحدة.

(٣) المعنى: إنه عجيب جدا أن تقول إنك مصعد في حين أنك ذكرت لي

أنك إنما تقصد الكعبة، والسائر إليها يكون مُصَوَّبًا لا مُصْعَدًا.

(٤) كعبة المحتاج: أى مقصد العفاة والمائذين، وطُلابِ المكارم،

ورائدى الجود، والمعنى: إننى لم أقصد بالكعبة ذلك المعنى الذى يتبادر إلى
ذهنك، وهى التى يُوْتَمُّها الحُجَّاجُ لقضاء النُسُكِ، ولكننى قصدت معنى آخر،
وهو المكان الذى يلجأ إليه ذُوو الحاجة والموزون.

(٥) شمائر الحج: علاماته وآثاره ومعاملته التى ندب الله إليها وأمر بالقيام

عليها، ومن الأخير سُمي «المشعر الحرام» لأنه مَعْلَمٌ للعبادة وموضع تُؤَدَّى فيه،

وفي التنزيل: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ وهو الجبل الذى يقف =

لَهْدَى^(١) ، وَقَبِيلَةَ الصَّلَاتِ ، لَا قَبِيلَةَ الصَّلَاةِ^(٢) ، وَمِنِّي الضَّيْفِ ، لَا مِنِّي
الْخَيْفِ^(٣) ، قُلْتُ : وَأَيْنَ هَذِهِ الْمَكَارِمُ ؟ فَأَنْشَأُ يَقُولُ :
بِحَيْثُ الدِّينِ وَالْمَلِكِ الْمُؤَيَّدِ وَخَدَّ الْمَكْرَمَاتِ بِهِ مُورَدٌ^(٤)

= عليه الإمام وعليه الميقدة (مكان النار التي يشعلونها للاستهزاء) والمعنى : إنني
قصدتُ موضع الكرم والبذل والسخاء وإسداء المعروف وحسن العطاء ، ولم
أقصد المعنى الذي يتبادر إلى ذاكرتك وهو موضع أداء بعض شعائر الحج .
(١) السبي : السبأيا التي يفنمها الجيش بانتصاره على عدوه ، والهدى :
ما يساق إلى مكة من النعم لتنحرف في مكان النحر ، وواحدة هديّة ، وجمع الهدى :
أهداء ، والمعنى : إنني أقصد بمسيرى بيتنا ساق السبأيا إليه ، لا بيتنا تنحرف البدن عنده .
(٢) الصلّات - بكسر أوله - جمع صلّة ، وهي اللينحة ، والهبة ، والعطية ،
والصلّاة - بفتح الأول - المفروضة التي هي إحدى فرائض الدين ، والقبلة :
التي يتوجّه إليها ، والمعنى : لا تظن أنني متوجه إلى ذلك المكان الذي يتوجّه
نحوه المصلّي حين صلاته ، ولكننا أنا سائر إلى المكان الذي تسكون فيه
الهبّات والعطايا .

(٣) منى - كإلى ، وتُصرف أي تُنَوَّن - قرية بمكة ، سميت بذلك لما يُمنّى بها
من الدماء أي يُراق ، والخيف : ناحية منها ، وهو غرة بيضاء في الجبل الأسود الذي خلف
أبي قبيس ، وأصله ما ارتفع عن مجرى السيل من غاظ الجبل ، وجمعه خيوف ،
وهناك مسجد سمي بمسجد الخيف ؛ لوقوعه في سفح الجبل عند ذلك المكان ،
وأضاف منى إلى الضيف إشارة إلى كثرة عدد الواردين على حَضْرَتِهِ ، والمعنى :
إنني لا أقصد بما ذكرتُ لك أني آخذ في طريقى إلى منى التي يسير إليها من
يقضى فريضة الحج ، ولكنني أردت منى التي يذهب إليها الضيفان ويسرون نحوها .
(٤) يروي «الملك المؤيد» - بالياء المثناة - أي النصور ، ويروي «الملك
المؤيد» - بالياء الموحدة - أي الدولة الباقية ، وقد شبه المكرمات بإنسان =

بَأَرْضٍ تَنْبُتُ الْأَمَالُ فِيهَا لِأَنَّ سَحَابَهَا خَلْفُ بَنِي أَحْمَدُ (١)

== يتفرق في وجهه ماء الشباب، وتجري فيه الصحة والعافية، ويتقلب في أعطاف
النعمة والزفاهية، وكفى بتورّد خدّه عن ذلك كله، جعل سبب التورّد في خد
المكرّمات ممدوحه المقصود بالتوجه إليه، فكأنه يقول: إنه حلية المكارم،
وزينتها، وإن بقاءها ودوامها بوجوده وبقائه.

(١) السحاب: المطر، والمعنى: إن هذه الأرض التي أيّمها منبتُ الأمال،
ومقرّسُ الأمانى، لأن الذي يجودها ويتمهدّها هو خلف بن أحمد الذي لا يجيب
عنده قاصد، ولا يضلّ بساحته سالك، ولا يضيع لديه رجاء.

٤٠ - المَقَامَةُ العِلْمِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

كُنْتُ فِي بَعْضِ مَطَارِحِ النَّزْبَةِ مُجْتَازاً ، فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ يَقُولُ لِآخِرِ :
بِمِ أَدْرَكَتَ العِلْمَ ؟ وَهُوَ يُجِيبُهُ ^(١) ، قَالَ : طَلَبْتُهُ فَوَجَدْتُهُ بَعِيدَ المَرَامِ ^(٢) ،
لَا يُضْطَادُّ بِالسَّهَامِ ^(٣) ، وَلَا يُقَسِّمُ بِالْأَزْلَامِ ^(٤) ،

(١) مطارح: أى مواضع ، واحدها مَطْرَحٌ ، والغربة : البُعْدُ عن الأهل ،
والنَّأى عن الوطن ، ومجتازاً : ماراً وسائراً ، والمعنى : لئننى كنت أسير يوماً فى
بعض الأماكن التى رمايت بها الانتزاح عن ديار الأهل والأحباب ، وأدّنتى إليها
مفارقة الوطن ، فلقيت رجلين وقف أحدهما يسأل صاحبه وأخذ الثانى يجيبه .

(٢) المَرَامُ : الطلب ، وقد رام الشيء يَرُومُهُ - من باب قال - أى طلبه
وَرَغِبَ فِيهِ ، والمعنى إن مطلبه عسير ، والرغبة فيه شاقة ، فكيف بنوّاله
والحصول عليه ؟

(٣) المعنى : إن القوة ، وسلامة الأعضاء ، والقدرة على الرماية وغيرها ، كلُّ
هذه أشياء لا تسكنى ولا تنفع فى تحصيل العلم والوقوف على أسراره ؛ لأنه ليس
كالمطار الذى يقع بمجرد تسديد السهم إليه وإصابته به .

(٤) الأزلام : قِدَاحُ الميسر واحدها زَلَمٌ ، أو القداح التى كان العرب يستقسمون
بها عند أصرامهم . وكان الرجل منهم يَضْمَعُهَا فى وعاء له (وهى مكتوب عليها الأمر
والنهى : افعل ، ولا تفعل) فإذا أراد سفراً أو زواجا أو أمراً مهمّاً أدخل يده
فأخرج منها زلماً ، فإن خرج الأمر مضى لشأنه ، وإن خرج النهى كفف عنه
ولم يفعله ، وقداح الميسر عشرة : سبعة منها راحة ، وأكثرها نصيبا المُلَى ، ولذلك =

وَلَا يُرَى فِي التَّنَامِ ^(١) ، وَلَا يُضْبَطُ بِاللَّجَامِ ، وَلَا يُورَثُ عَنِ الْأَعْقَامِ ^(٢) ،
وَلَا يُسْتَعَارُ مِنَ الْكِرَامِ ، فَتَوَسَّلْتُ إِلَيْهِ بِافْتِرَاشِ الْمَدْرِ ^(٣) ،
وَأَسْتِنَادِ الْحَجَرِ ، وَرَدِّ الضَّجَرِ ، وَرُكُوبِ الْخَطَرِ ، وَإِدْمَانِ السَّهْرِ ،
وَأَصْطِحَابِ السَّفَرِ ، وَكَثْرَةِ النَّظَرِ ، وَإِعْمَالِ الْفِكْرِ ، فَوَجَدْتُهُ شَيْئًا

== يقولون : أحرز فلان القِدْحَ المُعَلَّى ، إذا نال حظا وافرا ، وثلاثة منها لاحظ لها ،
قال بعضهم يصف سوء حظه ونكد طالعه :

لِي سِهَامٌ لَيْسَ فِيهِنَّ رَيْبٌ هُنَّ وَغَدٌ وَسَفِيحٌ وَمَنْبِيحٌ

وكانوا يَنْحَرُونَ جَزُورًا وَيَقْسِمُونَ أَقْسَامًا ، وَيَحْمِلُونَ لِكُلِّ قِدْحٍ مِنَ الرَّابِحَةِ
قِسْمًا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِهَا ، ثُمَّ يَجْلِسُونَ لِلشَّرَابِ ، وَيُجِيلُونَ الْقِدَاحَ ، فَأَيُّهُمْ خَرَجَ لَهُ
وَاحِدٌ مِنْهَا أَخَذَ نَصِيْبَهُ ، وَالْمَعْنَى إِنْ الْعِلْمَ لَيْسَ شَيْئًا يُنَالُ بِالْمُقَامَةِ وَالْحِظِّ وَسَعَادَةِ
الْجِدِّ ، وَلَكِنَّهُ يُتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِالذَّابِّ وَالْجِدِّ فِي الْعَمَلِ وَالسَّعْيِ إِلَيْهِ .

(١) أى أنه ليس خيالاتٍ أو رُؤْيَى وَأَطْيَافًا تَمْثُرُ بِكَ فِي نَوْمِكَ وَأَنْتَ
مُسْتَرِيحٌ هَادِيءٌ ، بَلْ لَا بَدَلَ لَهُ مِنْ مُتَابَعَةِ السَّهْرِ ، وَإِدْمَانِ الْمُطَالَعَةِ ، وَكَثْرَةِ الْبَحْثِ .
(٢) التَّرَكَاتُ تَصِلُ إِلَى الْوَارِثِينَ مِنْ غَيْرِ نَصَبٍ وَلَا إِجْهَادٍ ، وَكَذَلِكَ الْعَارِيَةُ
لَا يَتَحَمَّلُ الْمُسْتَعِيرُ فِي الْحَصُولِ عَلَيْهَا شَيْئًا مِنَ الْمَشَقَّةِ ، وَقَدْ كُنِيَ بِالْجَلْتَيْنِ عَنْ عَدَمِ
الْتِمَكُّنِ مِنَ الْعِلْمِ مَعَ الرَّاحَةِ وَعَدَمِ السَّعْيِ وَالِاجْتِهَادِ .

(٣) الْمَدْرُ : قَطْعُ الطَّيْنِ الْيَابِسِ ، وَبِهِ سُمِّيَ ذَلِكَ الرَّجُلُ اللَّثِيمُ الْبِخِيلُ ، وَهُوَ
أَحَدُ بَنِي هَلَالِ بْنِ مَالِكِ بْنِ صَعْمَةَ «مَادِرًا» لِأَنَّهُ سَقَى إِبْلَهُ يَوْمًا ، فَبَقِيَ فِي الْخَوْضِ
قَلِيلٌ مِنَ الْمَاءِ ، فَسَلَّحَ فِيهِ وَجَعَلَ يَرْمِي فِيهِ الْمَدْرَ ، وَبِهِ يَضْرِبُ الْمَثَلُ فِي الْبِغْلِ ،
وَالْمَعْنَى : إِنَّهُ لَمْ يَجِدْ وَسِيلَةَ أَنْجَعٍ لِلْحَصُولِ عَلَى الْعِلْمِ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالْجُهْدِ الطَّوِيلِ ،
وَعَدَمِ الدَّعَةِ وَالْكَسَلِ ، وَقَدْ كُنِيَ عَنْ ذَلِكَ بِمَا ذَكَرَهُ مِنْ اصْطِحَابِ السَّفَرِ
وَكَثْرَةِ النَّظَرِ ، وَغَيْرِهَا .

لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلْغَرَسِ ، وَلَا يُغْرَسُ إِلَّا فِي النَّفْسِ ^(١) ، وَصَيْدًا لَا يَقَعُ
إِلَّا فِي النَّدْرِ ، وَلَا يَنْشَبُ إِلَّا فِي الصَّدْرِ ^(٢) ، وَطَائِرًا لَا يَخْدَعُهُ إِلَّا قَنْصُ
الْفَلْظِ ، وَلَا يَغْلَقُهُ إِلَّا شَرَكُ الْحِفْظِ ^(٣) ، فَحَمَلْتُهُ عَلَى الرُّوحِ ، وَحَبَسْتُهُ عَلَى
الْعَيْنِ ^(٤) .

(١) المعنى : إنه بعد أن عَرَفَ العلم وتَدَوَّقَهُ أدرك أن الحصول عليه جملةٌ
واحدةٌ أمرٌ غير ممكن ، ولا يستطاع السبيل إليه ، وإنما الذي يتأتى هو أن
يغرس ثماره ، ثم لا يزال يتعمَّدها بالسَّقى والإِنماء حتى تَبْنَعَ وتُورِقَ ، ثم تتهدَّل
أغصانها وتثمر الثمر الطيب والجَنَى النافع المفيد ، وعلم فيما علمه أن مغرس هذه
الثمار ومنبتها لا يكون إلا النفس .

(٢) النَّدْرُ ، والنادر : القليل ، والمعنى انه وجد أيضاً أن مسائل العلم
ومشكلاته وعَوَبَصَه لا يتسنى الحصول عليها في كل حين ولا يَتَنَسَّرُ للباحث بُلُوغُ
قَصْدِهِ كلما أراد ، وَيَنْشَبُ : يَغْلَقُ ، والمعنى : إنه لا يصيد العلم ويضبطه غير الصدور .
(٣) القَنْصُ في الأصل : الطائر ، ويُراد به هنا : الفَخُّ والشَّرَكُ ، وقد قَنْصَه
- من باب ضرب - واقْتَنَصَه ، وتَقَنَّصَه : صاده ، والقانص والقنيص والقنَّاص :
الصيد ، والمعنى : إن العلم كالطائر ، لكن لا سبيل لتصيده إلا أشراك الألفاظ ،
ولا طريق للتخفظ عليه وضبطه من الضياع غير الحفظ .

(٤) المعنى : إنني جعلت له مكاناً لا زوال له ولا فناء ، ولا يصيبه ملل
ولا إعياء ، وهو الرُّوح ، وذلك أن أعضاء الجسم تتألم من الحمل ، ويُثَقِّلُ كاهلها
طويلُ مدَّتِهِ ، فر بما طرحت به وتركته ، ولكن الروح لا يعثر بها مثل هذا ،
وربما صح أن المعنى أنه لم يقتصر على العلوم العقلية واللسانية ، بل إنه ضَرَبَ
بَسْمَهُم في العلوم التي تتغذى بها الروح وتكمل كفلسفة الأخلاق مثلاً .

وَأَنْفَقْتُ مِنَ الْعَيْشِ ، وَخَزَنْتُ فِي الْقَلْبِ (١) . وَحَرَّرْتُ بِالذَّرْسِ (٢) ،
 وَأَسْتَرَحْتُ مِنَ النَّظَرِ إِلَى التَّحْقِيقِ ، وَمِنَ التَّحْقِيقِ إِلَى التَّغْلِيقِ (٣) ،
 وَأَسْتَمَعْتُ فِي ذَلِكَ بِالتَّوْفِيقِ ، فَسَمِعْتُ مِنَ الْكَلَامِ مَا فَتَقَى السَّمْعَ وَوَصَلَ
 إِلَى الْقَلْبِ وَتَغَلَّغَلَ فِي الصَّدْرِ ، فَقُلْتُ : يَا فَتَى ، وَمِنْ أَيْنَ مَطَّلَعُ هَذِهِ
 الشَّمْسُ ؟ فَجَعَلَ يَقُولُ :

إِسْكَندَرِيَّةٌ دَارِي لَوْ قَرَّ فِيهَا قَرَارِي
 لَكِنَّ بِالشَّامِ لَيْلِي وَبِالْعِرَاقِ نَهَارِي (٤)

(١) المعنى : إنني أنفقت مالي وصرفت الذي أدخره لقوتي ومعيشتي
 في سبيل الحصول على غذاء العقل والقلب وهو العلم ، فإن كنت قد أصبحت
 خالي اليد صِفَرَ الإِنَاءِ من متاع الدنيا فقد امتلأ عقلي علوماً ومعارف .

(٢) أي أنني حرَّرتُ المسائل ، ووقفت على دقائقها ، وتبينت أسرارها ،
 وعرفت خباياها ، بالمدارسة والمذاكرة وكثرة المعاودة .

(٣) المعنى : إنني كنت أنتقل من النظر في المسألة وبمجتها إلى اكتشاف
 حقيقتها واتضح كنهها على ما هي عليه ، ثم أتجاوز ذلك إلى تسطير رأيي فيها ،
 وتدوين ما وصل إليه بحجتي ، والتعليق عليها بما رأيت .

(٤) المعنى : إن مطلعي ومكاني الذي منه نشأت وفيه درجتُ هو
 الإسكندرية ، ولسكني لأطيل البقاء بها ، فأنا متنقل دائماً ، فساعة تراني بالعراق ،
 وأخرى تجدني بالشام ، والمراد مطلق التنقل إلى مطلق الجهات .

٤١ - المَقَامَةُ الوَصِيَّة

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :
 لما جَهَّزَ أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَنَدَرِيُّ وَلَدَهُ لِلتَّجَارَةِ أَفْعَدَهُ بِوَصِيَّتِهِ ،
 فَقَالَ - بَعْدَ مَا حَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ - : يَا بُنَيَّ إِنِّي وَإِنْ وَثِقْتُ بِمَقَانَتِهِ ^(١) ، وَأَسْتَعِينُ عَلَيْكَ النَّفْسَ وَسُلْطَانَهَا ،
 وَالشَّهْوَةَ وَشَيْطَانَهَا ^(٢) ، فَاسْتَعِينْ عَلَيْهِمَا نَهَارَكَ بِالصَّوْمِ ، وَلَيْلَكَ بِالنَّوْمِ ،
 إِنَّهُ لَبُوسٌ ظَهَارَتُهُ الْجُوعُ ، وَبِطَانَتُهُ

(١) متانة العقل : حصافته ، وحكاهة ، ورجاحته . وأصله من « مَتْنُ الشَّيْءِ »
 - من باب ظَرْفَ - فهو متين ، واشتدَّ ، وفوي ، والشفيق : الرقيق
 القلب ، والكثير العطف ، والمعنى الذي متأكد من كمال عقلك ، ودقة نظرك ،
 عالم بأنك لا تفرط ولا تضيع ، آمن عليك من الذي يخشاه الآباء على أبنائهم ،
 والكنى مع ذلك شديد الخنان عليك والرأفة بك ، وسوء الظن من شدة الحب ،
 فلا بد لي أن أنصحك وأوجه إليك بعض الحكم لتسترشد بها إذا أعوزتك
 الحيلة ، وعدمت الوسيلة ، وفي أمثالهم « إن الشفيق بسوء ظن مؤلَعٌ » .

(٢) أى إن النفس أمارة بالسوء ، جلالة للمحن والبلايا ، وإن لها على
 الإنسان سلطانا نافذا وأمرأ مطاعا ودعاء مستجابا ، وإن الطبيعة الإنسانية
 داعية إلى الشر ، سالكة بصاحبها طريق التهلكة ، وإن غوايتها أمر لا يستطيع
 له رد ، ولا يملك معه حزم ، فإذا توفرت فيك الدواعي إلى المفايد والآثام فاقمع
 ذلك بالصوم عامة نهارك والنوم ليلا ، فإن الصوم زكاه المعصية ، والنوم حاجز
 من التمادى في الضلالة والسير مع الشيطان .

الْهَجُوعُ^(١) ، وَمَا لَبِسَهُمَا أَسَدٌ إِلَّا لَأَنْتَ تَوَرَّتَهُ^(٢) ، أَفَهَمْتَهُمَا يَا ابْنَ
الْخَيْبَةِ ؟ وَكَمَا أَخْشَى عَلَيْكَ ذَاكَ ، فَلَا آمَنُ عَلَيْكَ إِصْبِينَ : أَحَدُهُمَا
الْكِرْمُ ، وَأَسْمُ الْآخِرِ الْقَرَمُ^(٣) ، فَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُمَا ؛ إِنَّ الْكِرْمَ أَسْرَعُ

(١) « إنه » أى الحال الذى ينبى أن يكون عليه الشباب والطريق الذى لا يحيص لهم من سلوكه يشبه اللباس فى عمومته وشموله ، فيجب أن تتخذ ظهارته - أى وجهه الذى ينظره الناس ويصرونه - من الجوع ؛ لأنه يكسر القوة ويُقلل من الداعية إلى الشهوات ، ويضعف البنية ، ويهدد العزيمة ، وظهارته - أى وجهه الختفى الذى لا يطلع عليه الناس - من الهجوع ، وهو النوم ، لأنه مدعاة الانصراف عن أماكن اللهو ومجامع الفسق ومواقع الفجور .

(٢) الأسد : أفضل تفضيل من السداد ، وهو التوفيق للصواب والقصد من القول والعمل ، والسورة : الشدة ، والسطوة ، والاعتداء ، والمعنى : إنه ما ارتدى أحد من القاصدين فى أعمالهم برداء الجوع والنوم إلا وجد مغتبتهما حميدة وعقباهن نافعة مفيدة .

(٣) القرم ، بفتحين : شدة الشهوة إلى اللحم ، وفعله قرم - من باب طرب - والمراد به الرفة والدعة والتواني عن العمل والكسل ، من باب التسكنية ، لأن أرباب اليسار والنعمة يكون الشأن فيهم ذلك ، والمعنى : إننى كما أخشى عليك عادة النفس وسطوة ساطانها أخاف أن يضلك الشيطان فتتبع الشهوات وتميل إلى الخمازى ، وإنى لأشد خوفاً عليك من أن تبذل مالك للناس وتفرقه بينهم ، أو أن تستهويك نفسك إلى طبيعة المترفين وذوى النعمة والجاه فتكثر من الأكل وتدع عملك وتترك شؤونك ، ومثل هذا فى التمريض بما يحدثه البذل والعطاء قول أبى الطيب المنبى :

لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلَّهُمْ * الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَالُ

فِي الْمَالِ مِنَ الشُّوسِ^(١) ، وَإِنَّ الْقَرَمَ أَشْأَمُ مِنَ الْبَسُوسِ^(٢) .

(١) المعنى : إن السخاء والبذل بصيران بك إلى الإملاق والمُدميم ؛ لأنها يتمشيان في المال كتمشى السوس في الطعام واللباس ، أو كتمشى النار في الخطب .

(٢) البسوس - ويقال لها البسوسة أيضاً - امرأة كانت سبياً في شُبُوب نار الحرب بين بكر وتغلب ، واندلاع لهيها ، وتطير شررها ، مدة لم يُعهد لها نظير في تاريخ حروب العرب ، وقد اضطلّى الفريقان لظآها ، وتحمل كل منهما من أعبائها وأحمالها ما جعله يضيّقُ بها ذرعاً ، وسبب ذلك : أن كليبا كان قد عَزَّ وساد في ربيعة فهني بغياً شديداً ، وكان هو الذي يُنزِلهم مَنَازِلَ لهم ويُرِح لهم ، ولا ينزلون ولا يرحلون إلا بأمره ، فيبلغ من عِزّه وبقية أنه اتخذ جِرْوَ كلب ، فكان إذا نزل منزلاً به كلاً قذف ذلك الجرو ، فيعوي ، فيجى من السكلاً مدى ما بلغ إليه صوتُ ذلك الجرو ؛ فلا يرى أحد ذلك السكلاً إلا ياذنه أو من أذن بحرب ، فضرب به المثل في العزة فقليل : أعزُّ من كليبٍ وائلٍ ، وكان يحى الصيد ، ويقول : صيّدُ ناحية كذا في جوارى ، فلا يصيد أحد منه شيئاً ، وكان لا يمر بين يديه أحد إذا جلس ، ولا يَحْتَجِي أحد في مجلسه غيره ، وكان لمرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة عشرة بنين جَسَّاسٌ أصغرهم سناً ، وكانت أختهم امرأة كليب ، واسمها جليلية ، وخالة جَسَّاس هي البسوس المذكورة ، فجات فنزلت على ابن أختها جَسَّاس ، فكانت جارة لبني مرة ، ومعها ابن لها ، ومعها ناقة خَوَارة اسمها سَرَّاب - وبها أيضاً يضرب المثل في الشوم فيقال : أشأم من سَرَّابٍ - من نَمَ بنى سعد ، ومعها فصيل ، فبينما أخت جَسَّاسٍ تَقْسِلُ رأس كليب زوجها ذات يوم إذ قال : مَنْ أعزُّ وائلٍ ؟ فصمتت ، فأعاد عليها ، فلما أكثر عليها قالت : أخوأي جَسَّاسٌ وهَمَّامٌ ، فنزع رأسه من يدها ، وأخذ القوس فرمى فصيل ناقة البسوس - خالة جَسَّاسٍ وجارة بنى مرة - فقتلته ، فأغتمضوا على ما فيه ، وسكتوا على ذلك . ثم لقي كليبُ ابنَ البسوس فقال : ما فعل فصيلُ =

وأخواتك كنتم مُتَمِّمٌ قَبْلَ هَذَا ، مَا بِي إِلَّا أَنْ تَتَشَامَ بِى أَبْنَاءَ وَائِلٍ ، وَزَعَمُوا أَنْ
جَسَاسًا قَالَ لِأَخِيهِ نَضَلَةَ بِنِ مَرَّةٍ وَكَانَ يُقَالُ لَهُ عَضْدُ الْحِمَارِ :

وَإِنِّي قَدْ جَنَيْتُ عَمَلِيكَ حَرْبًا تُغِصُّ الشَّيْخَ بِالمَاءِ القَرَّاحِ
مُذَكَّرَةً مَتَى مَا يَصْحُ عَنْهَا فَتَى نَشِبَتْ بِأَخَرَ غَيْرِ صَاحِ
تُنَكَّلُ مَن ذَنَابِ العَنَى قَوْمًا وَتَدْعُو آخِرِينَ إِلَى الصَّلَاحِ

فأجابه نضلة :

فَإِنْ تَكُ قَدْ جَنَيْتَ عَلَى حَرْبًا فَلَا وَإِنْ وَلَا رَثُ السَّلَاحِ

فلما باغ الخبرُ مُهْلِهًا أخوا كليب غدا بالخيل وتَحَمَّلَ معه القوم ، وقال
المفضل : لما قتل كليب قالت بنو تملب بعضهم لبعض : لَانْتَجَلُوا عَلَى إِخْوَتِكُمْ
حتى تعذروا بينكم وبينهم ، فانطلق رَهْطٌ من أشرافهم وذَوِي أسنانهم حتى
أتوا مَرَّةَ بِنِ ذُهْلٍ ، فمظَّمُوا ما بينهم وبينه ، وقالوا له : اخْتَرْنَا منا خصالا : إما أن
تدفع إلينا جَسَاسًا نقتله بصاحبنا فلم نعلم من قتل قاتله ؛ وإما أن تدفع إلينا هَمَامًا
وإما أن تُقَيِّدَنَا من نفسك ، فسكت وقد حضرته وَجُوهُ بِنِ بَكْرِ بِنِ وَائِلٍ ،
فقالوا : تكلم غَيْرَ مَحْدُولٍ ، فقال : أما جَسَاسٌ فغلامٌ حديث السن ركب
رأسه فهرب حين خاف فلا علم لى به ، وأما هَمَامٌ فأبو عشرة وأخو عشرة
ولو دفعته إليكم لصَيِّحٌ بَنُوهُ فى وجهى وقالوا : دَفَعْتَ أَبَانَا لِلْقَتْلِ بِجَرِيرَةٍ
غيره ، وأما أنا فلا أتعجل الموت ، وهل تزيد الخيلُ على أن تجول جولة
فأكون أول قتيلى ؟ ولـسكن هل لكم فى غير ذلك ؟ هؤلاء بِنِى فدونكم
أحدكم فاقتلوه به ، وإن شئتم فلـكم ألفُ ناقةٍ تـضمنها لكم بكر بن
وائل ، فغضبوا وقالوا : إنا لم نأتِكْ لتؤدِّى لنا بـنـيك ، ولا لتسومنا اللـبن !! =

== وتفرقوا ، ووقعت الحرب ، وتسكلم قومٌ منهم في ذلك عند الحارث بن عباد ، فقال : لا ناقةٌ لي في هذا ولا جمل ، وهو أول من قالها وأرسلها مثلاً .

ودامت حربُهم أربعين سنةً فيهنَّ خمسُ وقعاتٍ مزاحفاتٍ ، وكانت تكون بينهم مغاوراتٌ ، وكان الرجل يلقى الرجل والرجلان الرجلين ونحو هذا ، وكان أول تلك الأيام « يوم عنيزة » - وهي عند فلجة - فتكافأوا : لا لبكر ولا لتغلب ، وفيه يقول مهمل :

كَأَنَّ غُدُوَّةَ وَبْنِي أَبِينَا بِجَنْبِ عُنَيْزَةٍ رَحِيماً مُدِيرِ
وَلَوْلَا الرِّيحُ أُسْمِعَ مَنْ بِحُجْرٍ صَلِيلِ الْبَيْضِ تَقَرَّعُ بِالذُّكُورِ

فتفرقوا ، ثم غبروا زماناً ، ثم التقوا « يوم واردات » وكان لتغلب على بكر ، وقتلوا بكراً أشدَّ القتل ، وقتلوا بجيراً - وهو ابن الحارث بن عباد - وفي ذلك يقول مهمل :

فَأَيُّ قَدِّ تَرَكَتُ بِوَارِدَاتٍ بُحَيْرًا فِي دَمٍ مِثْلِ الْعَمِيرِ
هَتَكَتُ بِهِ بِيُوتَ بَنِي عُبَادٍ وَبَعْضُ النِّشْمِ أَشْفَى لِلصُّدُورِ

ثم انصرفوا بعد يوم واردات غير بني ثعلبة بن عكابة ، ورأسوا على أنفسهم الحارث بن عباد ، فأتبعتهم بنو ثعلبة بن عكابة حتى التقوا بالحنو ، فظهرت بنو ثعلبة على تغلب ، ثم التقوا يوم « القصيبات » وكان لبني تغلب على بكر ، حتى ظنت بكر أن سيقتلوا جميعاً ، وقد قتلوا يومئذهمام بن مرة ، ثم التقوا يوم قضة - وهو يوم التحالق - ويوم الفصيل ، وكلها لبكر على تغلب .

وحدَّث أبو عبيدة أن آخر من قتل في حرب بكر وتغلب هو جساس ابن مرة بن ذهل بن شيبان ، وهو قاتل كليب بن ربيعة ، وكانت أخته امرأة =

..

= كليب ، وكان قد قتله جساس وهي حامل ، فرجعت إلى أهلها ، ووقعت الحرب وكان من الفريقين ما كان ، ثم صاروا إلى المُوَادَعَة بعد ما كادت القبيلتان تتفانيان ، فولدت أختُ جساس غلاما سَمَّمْتَهُ المِجْرَس ، رَبَّاهُ خَالُهُ فَكَانَ لَا يَعْرِفُ أَبَا غَيْرِهِ ، ثُمَّ زَوَّجَهُ ابْنَتَهُ ، وَوَقَعَ بَوْمًا بَيْنَ المِجْرَسِ وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنْ بَنِي بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ كَلَامٌ ، فَقَالَ لَهُ البَكْرِيُّ : مَا أَنْتَ بِمَنْتَهٍ حَتَّى نُلْحِقَكَ بِأَبِيكَ ، فَأَمْسَكَ عَنْهُ ، وَدَخَلَ إِلَى أُمِّهِ كَثِيبًا ، فَسَأَلَتْهُ عَمَّا بِهِ ، فَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ ، فَلَمَّا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ وَنَامَ تَنَفَّسَ تَنَفُّسَةً أَحْسَنَتْ مِنْهَا امْرَأَتُهُ لَهَيْبِ نَارٍ ، فَقَامَتْ فَرَجَعَةً قَدْ أَقْلَمَتْ رِغْدَةً حَتَّى دَخَلَتْ عَلَى أَيْبِهَا فَقَضَّتْ عَلَيْهِ قِصَّةَ المِجْرَسِ ، فَقَالَ جَسَاسٌ : نَأْثُرُ وَرَبِّ السَّكْعَةِ ، وَبَاتَ جَسَاسٌ عَلَى مِثْلِ الرَّضْفِ حَتَّى أَصْبَحَ ، فَأَرْسَلَ إِلَى المِجْرَسِ ، فَأَتَاهُ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّمَا أَنْتَ وَوَلَدِي ، وَمِثِّي بِالْمَكَانِ الَّذِي قَدْ عَلِمْتَ ، وَقَدْ زَوَّجْتِكَ ابْنَتِي ، وَأَنْتَ مَعِي ، وَقَدْ كَانَتْ الحَرْبُ فِي أَيْبِكَ زَمَانًا طَوِيلًا حَتَّى كَدْنَا نَتَفَانِي ، وَقَدْ اصْطَلَحْنَا وَتَحَاجَزْنَا ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ تَدْخُلَ فِيهَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ مِنَ الصَّلْحِ ، وَأَنْ تَنْطَلِقَ مَعِي حَتَّى نَأْخُذَ عَلَيْكَ مِثْلَ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْنَا وَعَلَى قَوْمِنَا ، فَقَالَ المِجْرَسُ : أَنَا فَاعِلٌ ، وَلَكِنْ مِثْلِي لَا يَأْتِي قَوْمَهُ إِلَّا بِلَأْمَتِهِ وَفِرْسِهِ ، فَحَمَلَهُ جَسَاسٌ عَلَى فِرْسٍ ، وَأَعْطَاهُ لَأْمَةً وَدِرْعًا ، وَخَرَجَا حَتَّى أَتَيَا جَمَاعَةَ مِنْ قَوْمِهِمَا ، فَقَصَّ عَلَيْهِمُ جَسَاسٌ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ البَلَاءِ وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ العَافِيَةِ ، ثُمَّ قَالَ : وَهَذَا النِّقْيُ ابْنُ أُخْتِي قَدْ جَاءَ لِيَدْخُلَ فِيهَا دَخَلْتُمْ فِيهِ وَيَعْقِدُ فِيهَا عَقْدَتُمْ ، فَلَمَّا قَرَّبُوا الدَّمَ وَقَامُوا إِلَى التَّمَقُّدِ أَخَذَ المِجْرَسُ بَوَسْطِ رِجْلِهِ ثُمَّ قَالَ : « وَفَرَسِي وَأُذُنَيْهِ ، وَرُنْحِي وَنَضْلَيْهِ ، وَسِيفِي وَغِرَارِيهِ ، لَا يَتْرُكُ الرَّجُلُ قَاتِلَ أَبِيهِ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ » ثُمَّ طَعَنَ جَسَاسًا فَقَتَلَهُ ، ثُمَّ لَحِقَ بِقَوْمِهِ ، فَكَانَ آخِرَ قَتِيلٍ فِي بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ .

وَدَعْنِي مِنْ قَوْلِهِمْ « إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ » إِنَّهَا خُدَعَةٌ الصَّبِيِّ عَنِ الْاَلْبَنِ (١) ، بَلَى
 إِنَّ اللَّهَ لَكَرِيمٌ ، وَلَكِنَّ كَرَمَ اللَّهِ يَزِيدُنَا وَلَا يَنْقُصُهُ ، وَيَنْفَعُنَا
 وَلَا يَضُرُّهُ (٢) ، وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالُهُ ، فَلْتَكْرُمُ خِصَالُهُ ، فَأَمَّا كَرَمٌ
 لَا يَزِيدُكَ حَتَّى يَنْقُصِي ، وَلَا يَرِيثُكَ حَتَّى يَهْرِبِي (٣) ، فَخِذْ لَانَ لَا أَقُولُ
 عِبْرَتِي ، وَلَكِنَّ بُعْرِي (٤) .

(١) المعنى لا تتعتر بما يقوله بعضُ الناس من أن الله كريم يجب من عباده
 الكرماء ، وأنه سبحانه يُخَلِّفُ على عباده ويضاعف لهم الذي يتبدلون ، فإن
 هذا الكلام لا يقبله غير العقول الصغيرة التي تشبه عقول الصبيان ، وإن الذي
 يقول لك مثل ذلك لا يقصد إلا خِدَاعَكَ وخداع أمثالك من الناس ، كما تقصد
 الأمهات بمداعبة الأطفال ونحوها خداعهم عن طلب اللب.

(٢) نعم إن الله سبحانه كريم كما يقولون ، ولكن لا يصح أن تشبّه
 به وتكون مثله ، فإن كرمه لا ينقص شيئاً من ملكه ولا يضره ، ثم إنه يزيد
 أموالنا ويُثَمِّمِها ، ويعود علينا بالثراء والمنفعة من غير أن يؤثر ذلك وأمثاله
 في خزائن ملكه شيئاً ؛ فأما نحن فلا نمطى شيئاً حتى يكون قدره نقصاً
 من أموالنا ، فإذا اندفعنا في هذا السبيل فالويل لنا من الفقر وضياع المال .

(٣) رَأْسَ السُّمِّمِ يَرِيثُهُ ، وَرِيثُهُ - بالتضعيف - فهو مَرِيثٌ ومَرِيثٌ :
 أى لزم له الريش ، وَبَرَاهُ يَهْرِبُهُ بَرِيًّا ، وَابْتَرَاهُ : نَحْتَهُ ، والمعنى : إن العطاء الذي
 ينقص من واحد ليزيد لآخر ويضعف رجلاً ليقوّي بضعفه ثانياً خيبةً وفقداناً

(٤) العبقرى : الذي بلغت حاله غاية الجودة والحذق ونحوها ، منسوب إلى عَبْقَرٍ ،
 وهى - فيما يزعم العرب - مسكن الجن ، وإليه ينسبون كل شيء فاق أمثاله ،
 والبُقْرِيُّ - بضم الباء الموحدة - الكذب والداهية ، ومثله البُقَارِيُّ بالضم
 وبتشديد القاف وفتح الراء ، وَبُقِرَ - كدَحْرَجَ - هلك وفسد وأعيامات ،
 وكان أصل اشتقاقه من ذلك ، والمعنى : ليست الخيبة فى الإنفاق بممدوحة
 ولا مشكورة ، ولكنها منتهى الشر وغاية الفساد فحذار حذار منها

أَفَهِمْتَهُمَا يَا ابْنَ الْمَشُورِمَةِ؟ إِنَّمَا التُّجَارَةُ، تُنْبِطُ الْمَاءَ مِنَ الْحِجَارَةِ (١)،
وَيَبِّنُ الْأَكْلَةَ وَالْأَكْلَةَ رِيحُ الْبَحْرِ، بَيِّدَ أَنْ لَا خَطَرَ، وَالصَّيْنُ غَيْرُ أَنْ
لَا سَفَرَ (٢)، أَفَقْتَرُكُهُ وَهُوَ مُعْرِضٌ ثُمَّ تَطْلُبُهُ وَهُوَ مُعْوِزٌ (٣)؟

(١) تُنْبِطُ: تُخْرِجُ، وَالْمِثَالُ مَثَلٌ فِي مَجِيءِ الْخَيْرِ وَوُقُوعِهِ مِنْ حَيْثُ
لَا يُنْتَظَرُ وَلَا يُرْجَى، وَالْمَعْنَى إِنْ التُّجَارَةُ تَأْتِيكَ بِالرَّيْحِ الْوَفِيرِ وَالْمَالِ الْكَثِيرِ
مِنْ حَيْثُ لَا تَتَوَهَّمُ.

(٢) رِيحُ الْبَحْرِ: الشَّدَّةُ، وَالْخَطَرُ، وَالصَّعُوبَةُ، وَالْمَشَقَّةُ، وَالصَّيْنُ: كُنْيَاةُ
عَنْ الْبَعْدِ الطَّوِيلِ، وَالْمَعْنَى: تَصَوَّرَ شِدَّةَ مَا تَلْقَاهُ فِي تَحْصِيلِ قُوَّتِكَ وَصَعُوبَتِهِ
فَاجْتَهَدَ وَلَا تَكْسَلُ، وَهَبَّ دَائِمًا أَنْ الْبَحْرُ قَدْ هَاجَ عَلَيْكَ فَأَنْتَ مُشْغُولٌ بِطَلْبِ
النَّجَاةِ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ.

(٣) مُعْرِضٌ: بَادٍ، ظَاهِرٌ، وَمُعْوِزٌ: مَفْقُودٌ، وَالْمَعْنَى إِنَّهُ مِنْ سُوءِ الرَّأْيِ
أَنْ تُنْفِقَ مَالَكَ فِي السُّكْرِ وَهُوَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَلَا تَبْقَى مِنْهُ شَيْئًا، ثُمَّ إِذَا مَا ضَاعَ
مِنْكَ وَأَصْبَحَ مَفْقُودًا تَسْعَى فِي تَحْصِيلِهِ، وَتَجِدُهُ فِي الْبَحْثِ عَنْهُ.

وَأَبِي عَثْمَانَ عَمْرُو بْنُ بَحْرِ الْجَاهِظِ كِتَابٌ مَمْتَعٌ ذَكَرَ فِيهِ أَعَاجِيبُ الْبِخْلَاءِ
وَاسْتِدْلَالُهُمْ، وَلِمَاذَا سَمَوْا الْبِخْلَ صَلَاحًا، وَالشُّحَّ اقْتِصَادًا، وَلَمْ حَامُوا عَلَى النَّمْعِ،
وَنَسَبُوهُ إِلَى الْحَزْمِ، وَلَمْ نَصَبُوا لِلْوِاسَاةِ، وَقَرَّبُواهَا بِالتَّضْيِيعِ، وَلَمْ جَعَلُوا الْجُودَ
مَرَفَاً، وَالْأَثَرَةَ جَهْلًا؟ وَلَمْ زَهَّدُوا فِي الْحَمْدِ، وَقَلَّ احْتِفَالُهُمْ بِالذَّمِّ؟ وَلَمْ اسْتَضَعَفُوا
مَنْ هَشَّ لِلذُّكْرِ، وَارْتَاخَ لِلبَدَلِ؟ وَلَمْ احْتَجَبُوا بِظَلْفِ الْعَيْشِ عَلَى لَيْبِهِ،
وَيَحْلُوهُ عَلَى مَرَّةٍ.

وَذَكَرَ فِيهِ رِسَائِلُ لِهَوْلَاءِ نَسِيلِ رِقَّةٍ وَانْجَسَامَا، وَتَسْكَادٍ مِنْ مَاءِ الْمَلَاةِ
تَقَطَّرَ، نَأْتِيكَ مِنْهَا بِرِسَالَةِ سَهْلِ بْنِ هُرُونَ أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ رَاهِبُونَ الَّتِي أَرْسَلَهَا إِلَى بَنِي
عَمِّهِ مِنْ آلِ رَاهِبُونَ حِينَ ذَمُّوا مَذْهَبَهُ فِي الْبِخْلِ، وَتَنَبَّعُوا كَلَامَهُ فِي السُّكْرِ، =

..
 = وإنما آثرناها على غيرها؛ لشهرتها بين الأدباء، ولنباهة ذكر سهل النسوبة إليه،
 ولأن ما ذكره البديع من الحجج مجتملاً قد جاء أكثره واضحا مفصلا في كلام سهل .

قال : بسم الله الرحمن الرحيم ، أصلح الله أمركم ، وجمع شملكم ، وعلمكم
 الخير ، وجمعكم من أهله ، قال الأحنف بن قيس : يا معشر بني تميم ، لا تسرعوا
 إلى الفتنة فإن أسرع الناس إلى القتال أقلهم حياءً من الفرار ، وقد كانوا
 يقولون : إذا أردت أن ترمى العيوب جهة فتأمل عيباً فإنه إنما يعيب بفضل ما فيه
 من العيب ، وأول العيب أن تعيب ما ليس بعيب ، وقبيح أن تنهى عن مرشد ،
 أو تُعزى بمشقق ، وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم ، وإلا إصلاح
 فسادم ، وإبقاء النعمة عليكم ، ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم فما أخطأنا سبيل
 حسن النية فيما بيننا وبينكم ، ثم قد تعلمون أننا ما أوصيناكم إلا بما قد اخترناه لأنفسنا
 قبلكم ، وشهرنا به في الآفاق دونكم ، فما كان أحقكم - في تقديم حُرمتنا
 بكم - أن ترعوا حق قصدنا بذلك إليكم ، وتنبهنا على ما أغفلنا من واجب
 حقكم ، فلا العذر المبسوط ببلتكم ، ولا بواجب الحرمة قمتكم ، ولو كان ذكر
 العيوب برا وفضلا رأينا أن في أنفسنا عن ذلك شغلا ، وإن من أعظم الشقوة ،
 وأبعد من السعادة ألا يزال يُتذكر زلل المعلمين ، ويُتذاسى سوء استماع المتعلمين ،
 ويُستعظم غلط العاذلين ، ولا يُخفَل بعمد المدوليين .

عبتموني بقولي لخادمي : « أجيدى عجنه خميرا ، كما أجده فطيرا ؛ ليكون
 أطيب لطمعه ، وأزيد في ربه » وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ورحمه
 لأهله : أملكوا المجين فإنه أربع الطحنتين ، وعبتم على قولي : « من لم يعرف
 مواقع السرف في الوجود الرخيص لم يعرف مواقع الاقتصاد في المتنع الغالى »
 فلقد أتيت من ماء الوضوء بكيلة يدل حجمها على مبلغ السكفاية وأشد من =

..

= الكفاية ، فلما صرت إلى تفریق أجزائه على الأعضاء ، وإلى التوفیر علیها من
وظيفة الماء ، وجددت في الأعضاء فضلا على الماء ، فقلتُ أن لو كنت مكنتُ
الاقتصاد في أوائله ، ورجبت عن التهاون به في ابتدائه ، لخرج آخره على
كفاية أوله ، ولكن نصيبُ المعضو الأول كنصيب الآخر ؟ فعبتموني
بذلك ، وشنقتموه بمجهودكم ، وقبحتموه ، وقد قال الحسن عند ذكر السرفِ : إنه
لَيَكُونُ في الماعونين : الماء ، والكلأ ، فلم يَرَضَ بذكر الماء حتى أزدقه
بالكلأ ، وعبتموني حين ختمت على سد عظيم ، وفيه شيء ثمين من فاكهة
نَفِيسة ، ومن رَطْبَة غريبة ، على عَبْدِيهِمْ ، وصبي جَشَع ، وأمة لكفاء ،
وزوجة خرقاء ، وليس من أصل الأدب ، ولا في ترتيب الحكم ، ولا في عادات
القادة ، ولا في تدبير السادة ، أن يستوى في نفيس الماء كقول ، وغريب المشروب ،
وأمين الملبوس ، وخطير المركوب ، والناعِم من كل فن ، واللباب من كل
شكل - التابعُ والمتبوعُ ، والسيدُ والمسودُ ، كما لا تستوى مواضعهم في المجلس ،
ومواقع أسمائهم في العنوانات ، وما يُستقبلون به من التَّحِيَّاتِ ، وكيف وهم
لا يفقدون من ذلك ما يفقد القادر ، ولا يكثرثون له أكثر الثَّعَارِفِ ؟ مَنْ شاء
أطعم كلبه الدجاج المُسَمَّنَ ، وأغلف حماره السمسم المُقَشَّرَ ، فعبتموني بالتحتم .
وقد ختم بعضُ الأئمة على مِرْوَدِ سَوِيْقٍ ، وختم على كَيْسِ فارغ ، وقال : طَيَّنَهُ
خيرٌ من طَيَّنِهِ ، فأمسكتم عن ختم على لا شيء وعبتم من ختم على شيء ،
وعبتموني حين قلت للغلام : إذا زِدْتَ في المَرَقِ فِرْدَ في الإنضاج ، لنجمع بين
التأدم باللحم والمَرَقِ ، ولنجمع مع الارتفاع بالمرق الطيب ، وقد قال النبي صلى
الله عليه وسلم : « إذا طبختم لحما فزِيدُوا في الماء ؛ فإن لم يصب أحدكم لحما أصاب
مَرَقًا » . وعبتموني بخضف التَّمَالِ ، وبتصدير القَمِيصِ ، وحين زعمت أن
الخصوفة أبقى ، وأوطأ ، وأزقى ، وأنقى للكبير ، وأشبهه بالنسك ، وأن الترقيع من =

= وإلى تحكيم السَّرْف فيه ، وتسليط الشهوات عليه ، فلعله أن يكون مُعَمَّرًا وهو لا يدري ، وتمددوآله في السن وهو لا يَشْعُر ، ولعله أن يُرْزَق الولدَ على اليأس ، أو يَحْدُثَ عليه بعضُ مُحَبَّاتِ الدهور مما لا يخطر على البال ، ولا تدركه العقول ، فيسترده ممن لا يرده ، ويظهر الشكوى إلى مَنْ لا يرحمه « ، فعبتموني بذلك ، وقد قال عمرو بن العاص : أَعْمَلُ لِذُنَيْبِكَ عَمَلَ مَنْ يَعِيشُ أَبَدًا ، وَأَعْمَلُ لآخِرَتِكَ عَمَلَ مَنْ يَمُوتُ غَدًا ، وعبتموني حين زعمتُ أن التبذير إلى مال القمار ، ومال الميراث ، وإلى مال الالتقاط ، وحباء الملوك - أَسْرَعُ ، وأن الحفظ إلى المال المكتسب ، والغنى المحتلب ، وإلى ما يعرض فيه لذهاب الدين ، واهتضام العِرْضِ ، وَنَصَبَ البَدَنِ ، واهتمام القلب - أَسْرَعُ ، وأن من لم يحسب ذهاب نفقته لم يحسب دَخْلَهُ ، ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل ، وأن من لم يعرف للغنى قدره فقد أذن بالفقر ، وطاب نفسًا بالذلّ ، وزعمت أن كسب الحلال مضمن بالإففاق في الحلال ، وأن الخبيث ينزع إلى الخبيث ، وأن الطيّب يدعو إلى الطيب ، وأن الإففاق في الهوى حجابٌ دون الحقوق ، وأن الإففاق في الحقوق حجازٌ دون الهوى ، فعبتم على هذا القول ، وقد قال معاوية : لم أر تبذيرًا قطّ إلا وإلى جانبه حق مُضَيِّعٌ ، وقد قال الحسن : إذا أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجل مَالُهُ ، فانظروا في أى شيء يُنْفِقُهُ ، فإن الخبيث يُنْفِقُ في السَّرْفِ ، وقلت لكم - بالشفقة منى عليكم ، وبحسن النظر لكم ، وبحفظكم لأبائكم ، ولما يجب في جواركم ، وفي مماحتكم وملاستكم - : أتم في دار الآفات والجوائح غير مأمونات . فإن أحاطت بمال أحدكم آفة لم يرجع إلى بقية ، فأحزروا النعمة باختلاف الأمكنة ، فإن البلية لا تجرى في الجميع إلا مع موت الجميع ، وقد قال عمر رضی الله عنه في العبيد والأمة ، وفي ملك الشاة والبعير ، وفي الشيء الحقيقير اليسير : فرقوا بين النفايا ، وقال ابن سيرين لبعض البحريرين : كيف =

..

= الحزم ، وأن الاجتماع مع الحفظ ، وأن التفرق مع التضييع ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يَحْصِفُ نَفْلَهُ ، وَيَرْتَقِعُ ثَوْبَهُ ، وَيُلَطِّعُ أَضْبَعَهُ ، ويقول : لو أُتيتُ بِذِرَاعٍ لا كَلْتُ ، ولو دُعيتُ إلى كُرَاعٍ لا جَبْتُ ، ولقد لفقت سعدى بنت عوف إزار طَلْحَةَ - وهو جَوَادُ قريش ، وهو طَلْحَةُ الفَيَاض - وكان في ثوب عمر رِقَاعُ أَدَمٍ ، وقال : مَنْ لَمْ يَسْتَحْيِ مِنَ الحلال خَفَّتْ مؤنته وَقَلَّ كبره ، وقالوا : لا جديد لمن لا يلبس الخَلْقَ ، وبعث زيادُ رجلا يرتاده مُحَدَّثًا واشترط على الرائد أن يكون عاقلا مُسَدِّداً ، فأتاه به موافقا ، فقال : أ كُنْتَ ذا معرفة به ؟ قال : لا ، ولا رأيته قبل ساعته ، قال : أفناقلنته الكلام ، وفاتحته الأمور ، قبل أن توصله إلى ؟ قال : لا ، قال : فلم أخترته على جميع من رأيته ؟ قال : يومنا يوم قانظ ، ولم أزل أتمرفُ عقولَ الناس بطعامهم ولباسهم في مثل هذا اليوم ، ورأيت ثياب الناس جُدُداً وثياباً لُبْساً (١) فظننت به الخَزَمَ ، وقد علمنا أن الجُدُدَ في غير موضعه دون الخَلْقِ ، وقد جعل الله لكل شيء قَدْرًا ، وَيَوِّأُ لَهُ مَوْضِعًا ، كما جعل لكل دَهْرٍ رجلا ، ولكل مقام مقالا ، وقد أحيا بالسم ، وأمات بالغذاء ، وأغص بالماء ، وقتل بالدواء ، فترقيع الثوب يجمع مع الإصلاح التواضع ، وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التكبر ، وقد زعموا أن الإصلاح أحدُ الكسبين ، كما زعموا أن قلة العيال أحدُ اليسارين ، وقد جبر الأحنف يدَ عَنزٍ ، وأمر النعمان بذلك ، وقال عمر : مَنْ أَكَلَ بيضةً فقد أكل دجاجة ، وقال رجل لبعض السادة : أهدى إليك دجاجة ؟ فقال : إن كان لا بد فاجملها بيّاضة ، وعبتموني حين قلت : « لا يفترن أحد بطول عمره ، وتفوس ظهره ، ورقة عظمه ، وهن قوته ، أن يرى أ كرومته ، ولا يحوجه ذلك إلى اخراج ماله من يديه ، وتحوبله إلى ملك غيره ، =

(١) اللبس - بضم اللام والياء جميعا - جم لابس ، وهو ما لبس حتى رث وخلق .

= تصنعون بأموالكم؟ قال: نفرقها في السفن فإن عطب بعض سلم بعض، ولولا أن السلامة أكثر لما حملنا خزائنا في البحر، قال ابن سيرين: تحسبها خرقاء وهي صناع^(١)، وقلت لكم - عند إشفاق عليكم - «إن للغني سكرًا، وإن للمال كزوة؛ فمن لم يحفظ الغني من سكر الغني فقد أضاعه، ومن لم يرتبط المال بخوف الفقر فقد أهمله» فعبتموني بذلك، وقال زيد بن جبلة: ليس أحد أفقر من غني أمين الفقر، وسكر الغني أشد من سكر الخمر.

وقلت: قد لزم الحث على الحقوق، والتزهيد في الفضول، حتى صار يستعمل ذلك في أشعاره بعد رسائله، وفي خطبه بعد سائر كلامه، فمن ذلك قوله في يحيى ابن خالد:

عَدُوٌّ تِلَادِ الْمَالِ فِيمَا يَنْوِبُهُ مَنُوعٌ إِذَا مَا مَنَعُهُ كَانَ أَحْزَمًا
ومن ذلك قوله في محمد بن زياد:

وَخَلِيقَتَانِ: تُقَى وَفَضْلُ تَحْرِمٍ وَإِهَانَةٌ فِي حَقِّهِ لِلْمَالِ
وعبتموني حين زعمت أن المال مقدّم على العلم؛ لأن المال به يُغاث العالم، وبه تقوم النفوس قبل أن تعرف فضيلة العلم، وأن الأصل أحق بالترتيب من الفرع، وأنى قلت وإن كنا نستبين الأمور بالنفوس فإننا بالكفاية نستبين وبالخلّة نعمى، وقلت: كيف تقول هذا وقد قيل لرئيس الحكماء، ومقدّم الأديباء: العلماء أفضل أم الأغنياء؟ قال: بل العلماء، قيل: فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء؟ قال: لمعرفة العلماء بفضل الغني، ولجهل الأغنياء بفضل العلم، فقلت: حالهما هي القاضية بينهما، وكيف يستوى شيء ترى حاجة الجميع إليه وشيء يغني بعضهم فيه عن بعض؟ =

(١) الخرقاء: المرأة التي لا تحسن عملا، والصناع - بوزن حذام - الماهرة، وهذا مثل يضرب لمن تظن به شيئاً فيظهر على غير ما تظن.

«وعبتموني حين قلت: «إن فضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون في الدار: إن احتيج إليها استُغيمت، وإن استغنى عنها كانت عُدَّةً» وقد قال الحُصَيْن بن المنذر: ودِدْتُ لو أن لي مثلَ أُحَدٍ ذهباً لا أنتفع منه بشيء، قيل: فما ينفعك من ذلك؟ قال: لكثرة مَنْ يَحْدُمُنِي عليه، وقال أيضاً: عليك بطلب العني، فلم يكن لك فيه إلا أنه عز في قلبك، وشبهة في قلب غيرك، لكان الحظ فيه جسيماً، والنفع فيه عظيماً، ولَسْنَا نَدْعُ سيرة الأنبياء، وتعليم الخلفاء، وتأديب الحكماء، لأصحاب الأهواء. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء بأنخاذ الغنم، والفقراء بأنخاذ الدجاج، وقالوا: درهمك لمماشك، ودينك لمعادك، فقسّموا الأمور كلها على الدين والدنيا، ثم جعلوا أحد قسماً للجميع الدرهم. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: إني لأبغضُ أهل البيت ينفقون رزق الأيام في اليوم. وكان هشام يقول: صاع الدرهم على الدرهم يكون مالا. ونهَى أبو الأسود الدؤلي - وكان حكيماً أديباً، وداهياً أريباً - عن جودكم هذا المولد، وعن كرمكم هذا المستخذث، فقال لابنه: إذا بسط الله لك في الرزق فابسط، وإذا قبض فاقبض، ولا تجاود الله فإن الله أجود منك. وقال: درهم من حل يخرج في حق خير من عشرة آلاف قبضاً وتلقط عرجداً^(١) من برمٍ فقال: تضيعون مثل هذا وهو قوت امرئ مسلم يوماً إلى الليل؟ وتلقط أبو الدرداء حبات حنطة فنهاه بعض المسرفين فقال: إن من فقهِ المرء رفقهُ في معيشته.

فلستم على تردّون، ولا برأي تفتنون، فقدّموا النظر قبل العزم، وتذكروا ما عليكم قبل أن تذكروا ما لكم، والسلام.

هذه رسالة سهل، وهي آية في البلاغة، وقوة الاسترسال في المحاصمة، لولا =

(١) المرجد - بضم الهمزة والجيم وسكون الراء بينهما - العرجون، والبرم - هنا - حب العنب إذا كان صغيراً جداً.

أَفَهْمَتَهَا لِأُمِّ لَكَ ؟ إِنَّهُ الْمَالُ عَافَاكَ اللهُ فَلَا تُنْفِقَنَّ إِلَّا مِنَ الرَّبْحِ ، وَعَلَيْكَ
بِالْجَبْرِ وَالْمَلْحِ ، وَلَكَ فِي الْخَلِّ وَالْبَصَلِ رُخْصَةٌ مَالٌ تَذِمُّهُمَا (١) ، وَلَمْ تَجْمَعْ
بَيْنَهُمَا (٢) ، وَاللَّحْمُ لِحْمِكَ وَمَا أَرَاكَ تَأْكُلُهُ (٣) ، وَالْحُلُوُّ طَعَامٌ مَنْ لَا يُبَالِي
عَلَى أَى جَنْبَيْهِ يَقَعُ (٤) ، وَالْوَجَبَاتُ عَيْشُ الصَّالِحِينَ (٥) ، وَالْأَكْلُ عَلَى
الْجُوعِ وَاقِيَةُ الْفُوتِ (٦) ، وَعَلَى الشَّبَعِ دَاعِيَةُ الْمَوْتِ ، ثُمَّ كُنْ مَعَ النَّاسِ

= أنها تمتدح خصلة أجمع الناس على مذمتها ، وأنفقراً على نكرانها .

(١) يروى تَذِمُّهُمَا - بالذال المعجمة - والمعنى : إن لك أن تأندم بالخل
والبصل ما رَضَيْتَ بهما نَفْسَكَ ، ولم تنزع عنهما ، والفعل أذمه إذماماً أى
وجده مذموماً ، ويروى : تَذِمْنَهُمَا - بالذال المهملة وبعد الميم نون - أى ما لم
تؤاظب عليهما وتكتر من تناولها .

(٢) أى أنهم امرؤ خَصَّان لك ، ولا تكن على أن يكون كل واحد منهما بانفراده ،
فلا تحدث نفسك بتناولها معاً أى بالجمع بينهما فى وجبة واحدة .

(٣) يريد أن ينهأ عن أكل اللحم ، فهو يقول له : إن كلمة اللحم لا معنى
لها غير لحمك أنت ، وليس له وجود فى العالم إلا ذلك ، ولا أتوهم أن نفسك
تقبل أن تأكله ، فهو نهاية فى التقريز والتنفير .

(٤) المعنى : إنه لا يأكل الحلوا إلا رجل قد وَطَّنَ نفسه على الهلاك وأحبَّ
الموت ، فهو لا يبالي على أى جانب من جانبيه يخر على الأرض ، والفقرة
مأخوذة من قول الشاعر :

وَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَى جَنْبٍ كَانَ فِي اللهِ مَضْرَعِي

(٥) الوجبات : جمع وجبة ، وهى الأكلة الواحدة فى اليوم والليلة ، والمعنى
إن الإقلال من الأكل وتبصيد المسافة بين كل أكلتين من شأن الصالحين ،
وعادات الكملة من الرجال ، فقلدهم وتشبه بهم .

(٦) الفوت : المراد به هنا الإعدام ، والفقر ، والمعنى : إنك إذا لم تأكل =

كَلَّاعِبِ الشُّطْرَنْجِ : خُذْ كُلَّ مَا مَعَهُمْ ، وَاحْفَظْ كُلَّ مَا مَعَكَ ^(١) .
 يَا بُنَيَّ قَدْ أَسْمَعْتُ وَأَبْلَغْتُ ، فَإِنْ قَبِلْتَ فَاللَّهُ حَسْبُكَ ^(٢) ، وَإِنْ أَبَيْتَ
 فَاللَّهُ حَسْبُكَ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

= إلاجائماً فقد أمنتَ على نفسك عادية الترخمة والبطنه وما يستتبعانه من أوجاع ،
 فوق أنك أمنت عادية السرف وسلطان الإعواز ، فأما إذا أكلت ممتلئاً فإنك
 تعرض نفسك للموت والهلاك ، ويقرب ذلك من الحديث : « نَحْنُ قَوْمٌ
 لَا نَأْكُلُ حَتَّى نَجُوعَ ، وَإِذَا أَكَلْنَا لَا نَشْبَعُ » .

(١) الشطرنج : لعبة معروفة ، ومن عادة اللاعبين أن يهتم كل واحد منهما
 بغاية الآخر ، والفوز عليه ، وأخذ قطعته دون أن يهمل في التحفظ بكل ما معه ،
 فهو يقول له : لتكن حالتك في الإنفاق مع الناس كحال اللاعب : خذ منهم
 ولا تعطهم .

(٢) حَسْبُكَ : كافيك ، وحسيدك : مُحَاسِبِكَ ، والمعنى : إنني نصحتك علماً
 مني بحال الحياة وشؤونها ، وأبْلَغْتُكَ ما وصل علمي من تجاربها ، فإذا أنت
 عَمِلْتَ بما أعلمتك فإن الله يكفيك في مهماتك ، وإن لم تفعل فما وعيت لأبيك
 وحسابك على الله .

٤٢ - المقامة الصيمرية

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ الْمَعْرُوفُ بِأَبِي الْمَنْبَسِ الصَّيْمَرِيُّ : إِنَّ مِمَّا نَزَلَ
بِي مِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ اصْطَفَيْتُهُمْ، وَأَنْتَخَيْتُهُمْ، وَأَدَّخَرْتُهُمْ لِلسَّادَةِ مَا فِيهِ عِظَةٌ
وَعِبْرَةٌ وَأَدَبٌ لِمَنْ أُعْتَبَرَ وَاتَّعَظَ وَتَأَدَّبَ ^(١).

(١) المعنى : إن حادثنا ألبا نزل بي كان سببه الائتلاف بجماعة أسقرت
الألفة بيني وبينهم عن عدم غنائهم وقلة جدوأمهم ، وإن في هذا الحادث
لِعِظَاتٍ بِالغَاتِ ، وَعِبْرَةٌ زاجرة ، وأدبا جما ، وقديماً كان الإخوان غُصَّةً وَالْمَسَاءُ ،
وفيهم يقول الشاعر :

وَإِخْوَانٍ تَحَذُّهُمْ دُرُوعًا فَكَانُواهَا ، وَلَكِنْ لِالأَعَادِي
وَخِلْتَهُمْ سِيَّامًا صَائِبَاتٍ فَكَانُواهَا ، وَلَكِنْ فِي فَوَادِي
وَقَالُوا : قَدْ صَفَتْ مِنَّا قُلُوبٌ لَقَدْ صَدَّقُوا ، وَلَكِنْ عَنِ وِدَادِي

وقال :

تَحَذُّتُكُمْ دِرْعًا حَصِينًا لَتَدْفَعُوا نَبَالَ العِدَاعِي فَكُنْتُمْ نِصَالَهَا

وقال عبد الله بن معاوية :

العَهْدُ عَهْدَانِ : عَهْدُ امْرِئٍ يَأْتَفُ أَنْ يَغْدِرَ أَوْ يَنْفُضًا
وَعَهْدُ ذِي لَوْنَيْنِ مَلَالَةٌ يُوشِكُ إِنْ وَدَكَ أَنْ يُبْغِضًا
إِنْ لَمْ تَزُرْهُ قَالَ : قَدْ مَلَانِي وَبِالْحَرَمِي إِنْ زُرْتِ أَنْ يُعْرِضًا
شِيمَتُهُ مِثْلُ الخِضَابِ الَّذِي بَيْنَا تَرَاهُ قَانِيًا إِذْ نَضًا

ولآخر :

إِذَا افْتَقَرْتَ نَأَى وَاشْتَدَّ جَائِبُهُ وَإِنْ رَأَكَ غَنِيًّا لِأَنْ وَاقْتَرَبَا =

وَذَلِكَ أَنِّي قَدِمْتُ مِنَ الصَّيْمَرَةِ إِلَى مَدِينَةِ السَّلَامِ (١) ، وَمَعِيَ جِرَابُ
دَبَانِيرٍ وَمِنْ الْخُرْنِيِّ وَالْآلَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا لَا أَحْتَاكُ مَعَهُ إِلَى أَحَدٍ (٢) ، فَصَحِبْتُ
مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ وَالْكِتَابِ وَالشُّجَارِ ، وَوُجُوهِ الشَّنَاءِ مِنْ أَهْلِ الثَّرْوَةِ

= وَإِنْ أَتَاكَ لِمَالٍ أَوْ لِقَنْصَرَةٍ
أَنْتَى عَلَيْكَ الَّذِي يَهْوَى وَإِنْ كَذَبَا
مُدْلِ الْقَرَابَةِ عِنْدَ النَّيْلِ يَطْلُبُهُ وَهُوَ الْبَعِيدُ إِذَا نَالَ الَّذِي طَلَبَا
حُلُوُّ اللِّسَانِ بَعِيدُ الْقَلْبِ مُشْتَمِلٌ
حَلَى الْعَدَاوَةِ لِابْنِ النَّمِّ مَا صُنَّحَبَا

وقال سفيان بن عيينة : صحبت الناس خمسين سنة ما ستر لي أحد عورة ،
ولا رد عني غيبة ، ولا عفا لي عن مظلمة ، و - فطمتته فوصلني ، وأخص
إخواني لو خالفتني في رمانة فقلت هي حامضة وقال هي حلوة لسي بي حتى
يشيط دمي .

(١) قال في المشترك : الصَّيْمَرَةُ - بالصاد المهملة مفتوحة ، وياء ساكنة ،
وميم مفتوحة ، وراء مهملة ، وهاء - اسم يقع على موضعين : أحدهما ناحية
بالبصرة على فم نهر مغل ، فيها عدة قرى يشملها هذا الاسم ، وهم جهال
يعبدون رجلا يقال له عاصم بن شباش وولده من بعده ، وإليها ينسب أبو العنبر
محمد بن إسحاق بن إبراهيم الصيمري صاحب الكتف في الهزل مات سنة ٢٧٥ ،
والثاني بلدة من نواحي خوزستان ، وهي المسماة بمهرجان قذق ، وإليها ينسب
أبو تمام إبراهيم بن أحمد بن الحسين بن أحمد بن حمدان الهمداني الصيمري ،
من أهل بروجرد ، وأصله من الصيمرة ، ومدينة السلام : هي بغداد .

(٢) الخرنبي : الأناث ، والآلة : كل ما يحتاج إلى الارتفاق به في الأعمال

الثرية .

وَالْيَسَارِ^(١) ، وَالْجِدَّةِ وَالْمَقَارِ^(٢) ، جَمَاعَةً اخْتَرْتَهُمْ لِلصُّحْبَةِ ، وَادَّخَرْتَهُمْ
لِلنَّسَكَةِ^(٣) ، فَلَمْ نَزَلْ فِي صُبُوحٍ وَعَبُوقٍ^(٤) ، نَتَفَدَّى بِالْجُدَايَا الرُّضْعِ
وَالطَّبَاهِجَاتِ الْفَارِسِيَّةِ ، وَالْمُدَقَّقَاتِ الْإِبْرَاهِيمِيَّةِ^(٥) ، وَالْقَلَايَا الْمُحْرِقَةَ
وَالسَّكَبَابَ الرَّشِيدِيَّ وَالْحُمْلَانَ^(٦) ، وَشَرَابَنَا نَبِيدُ الْعَسَلِ ، وَتَمَاعُنَا مِنْ

(١) وجوه النناء : أى الجماعة الذين لهم وَجَاهَةٌ ذَكَرَ ، وَنَبَاهَةٌ صَبِيحَةٌ ،
وَارْتِفَاعٌ شَهْرَةٌ ، وَالنَّاسُ يَتَنَوَّنُونَ عَلَيْهِمْ وَيَمْدَحُونَهُمْ ، أَوْ يَذْهَبُونَ وَيَعُودُونَ إِلَيْهِمْ .
(٢) الْجِدَّةُ : الْغَنَى ، وَبَسَطَةُ الْمَالِ ، وَسَعَةُ الرِّزْقِ ، وَرِفَاهَةُ الْعَيْشِ .

(٣) ادَّخَرْتَهُ : خَزَنْتُهُ لِأَتَمَتَّعَ بِهِ وَقَدْ شَدِدَتْ مَغَالَاةُ بِهِ ، وَالْمَعْنَى : لَأَنْبِي
أَخْتَرْتُ هَذِهِ الْجَمَاعَةَ مِنْ بَيْنِ الْمِيَاسِيرِ وَالْوَجُوهِ ، وَجَمَلْتَهُمْ عُدَّةً لِلنَّوَابِغِ ، وَتَرَسَا
أَتَّقَى بِهِ الْخَطُوبَ ، وَدَرَعَا يَمِينِي مِنَ الْعَادِيَاتِ وَالشَّدَائِدِ .

(٤) الصُّبُوحُ : مَا حُلِبَ مِنَ اللَّبَنِ صَبَاحًا ، أَوْ مَا أُصْبِحَ عِنْدَكَ مِنَ الشَّرَابِ ،
وَالْعَبُوقُ : مَا كَانَ كَذَلِكَ فِي الْمَسَاءِ ، وَيَسْتَعْمَلُونَ هَذِينَ الْاَلْفَظِينَ فِي مَعْنَى الشَّرْبِ
صَبَاحًا وَمَسَاءً .

(٥) الْجُدَايَا : جَمْعُ جَدِيٍّ - وَهُوَ جَمْعٌ خَيْرٌ مَعْرُوفٌ ، وَالْمَذْكُورُ لَهُ مِنْ
الْجَمُوعِ جِدَاءٌ ، وَأَجْدٍ ، وَجِدْيَانٌ - وَهُوَ الذَّكَرُ مِنْ أَوْلَادِ الْمَعَزِ فِي سَنَتِهِ الْأُولَى ،
وَاخْتَارَ الرُّضْعَ الَّتِي هِيَ جَمْعُ رَاضِعٍ لِيَدُلَّ عَلَى طَرَاةِ اللَّحْمِ ، وَالطَّبَاهِجَاتُ : جَمْعُ
طَبَاهِجَةٍ ، وَهِيَ ضَرْبٌ مِنَ اللَّحْمِ الْمُشْرَحِ يَصْنَعُ مَعَ الْبَيْضِ وَالْبَصَلِ ، وَالْمُدَقَّقَاتُ :
اللَّحْمُ يَقْتَعُ قِطْعًا صَفَارًا ثُمَّ يَسْتَوِي بِمَدِّ تَسْكِيْلِهِ كَقِتْلَا ، وَهِيَ أَشْبَهُ بِمَا يُسَمُّونَهُ
الْيَوْمَ بِمَصْرٍ (كَفْتَهُ) وَالْإِبْرَاهِيمِيَّةُ : الْمُنْسُوبَةُ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ ، لِأَنَّهُ كَانَ
يَتَأَنَّقُ فِيهَا .

(٦) الْقَلَايَا : جَمْعُ قَلِيَّةٍ وَهِيَ مَا يَقْلَى مِنَ اللَّحْمِ وَغَيْرِهِ وَيُضَافُ إِلَيْهِ مَا يُطْبِئُهُ ،
وَالْمُحْرِقَةُ : الَّتِي تَزِيدُ فِي الْعَطَشِ ، وَالسَّكَبَابُ : اللَّحْمُ الْمَشْوِيُّ ، وَالرَّشِيدِيُّ : =

الْمُحْسِنَاتِ الْخُذَّاقِ ، الْمَوْصُوفَاتِ فِي الْآفَاقِ ^(١) ، وَتَقْلَمْنَا الْأَوْزُ الْمُقَشَّرُ
وَالشُّكْرُ وَالطَّبْرُزْدُ ^(٢) ، وَرَيْحَانُنَا الْوَرْدُ ، وَبِخُورُنَا النَّدُّ ^(٣) ، وَكُنْتُ عِنْدَهُمْ
أَعْقَلَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ^(٤) .

= المنسوب إلى هرون الرشيد الخليفة العباسي لأنه كان يستجيده ، والحلان : جمع
حَلَم وهو الخروف الصغير .

(١) المحسنات الخُذَّاق : المعنيات اللاتي أجدن الصناعة وبرعن فيها ،
والموصوفات في الآفاق : اللاتي طار ذكرهن وارتفع صيتهن في جميع البلاد .

(٢) النقل - بفتح النون ، وقد تضم ، ويقال : انضم لحنٌ - هو ما ينتقل
من الشرب إليه ومنه إلى الشرب ، ويسمى الآن (مزه) والطبرزد : نوع من
السكر صلب أبيض ، ويعرف اليوم باسم السكر النبات .

(٣) الورد : معروف ، والنَّدُّ : عود يتبخر به ، وقيل : هو المنبر ، والمعنى
المقصود بكل ما ذكر أنهم كانوا على حالة من اليسرة ونعمومة العيش وطيب
الحياة ، وأنهم قد جمعوا فيها كل أنواع المسرة ، وكل جالب للأنس وطمأنينة
الخطاير .

(٤) ابن العباس : هو أبو العباس عبدُ الله بن العباس بن عبد المطلب
ابن هاشم بن عبد مناف ، القرشي ، الهاشمي ، أبنُ عمِّ رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، وأمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية ، وُلد أيام كان بنو هاشم
بالشَّعب قبل الهجرة بثلاث ، وقيل : بخمس ، والأول أثبت ، وهو خير العرب
وأوفاهم عقلاً ورأياً وعلماً وجمالاً وكالاً ، وترجمان القرآن ولسانه ، وكان أبيض
طويلاً مُشرباً صُفْرَةً ، جسيماً وسيماً ، صبيح الوجه ، له وفرة ، يتخضب بالحناء ،
إذا قعد أخذ مقعد رجلين ، متفقهاً في الدين ، عالماً بالتأويل ، حكماً ، وكان
لا يُسأل عن شيء إلا وجد له عنده جواباً ؛ لِسعة حفظه ورجاحة عقله وكال
استمداده ، فإن كان في القرآن أخبر به ، فإن لم يكن . وكان في السنة أخبر به ، =

..
 = فإن لم يكن وكان عن أبي بكر وعمر أخبر به ، فإن لم يجده في شيء منها قال
 برأيه ، ويروى عن عبد الله بن بُرَيْدَةَ قال : شتم رجل ابن عباس ، فقال :
 إنك لتشتني وفي ثلاث خصال : إني لأسمعُ بالحاكم من حكام المسلمين يعقل
 في حكمه فأحبه ولعل لا أقاضى إليه أبداً ، وإني لأسمعُ بالغَيْثِ يصيب بلاد
 المسلمين فأفرح به ومالي بها سائمة ولا راعية ، وإني لآتي على آية من كتاب
 الله تعالى فوددتُ أن المسلمين كلهم يعلمون منها مثل ما أعلم . وقد ولّاه على
 كرم الله وجهه البصرة ، وكان قائد الميسرة يوم صفين ، ولم يزل والي البصرة
 حتى قُتل على ، ويروى أنه كان يفسر للناس في رمضان وهو أمير البصرة فإ
 ينقض الشهر حتى يُفقههم ، وسعى إليه ساعٍ برجل فقال : إن شئت نظرنا ،
 فإن كنت كاذبا عاقبناك ، وإن كنت صادقا نفيناك ، وإن شئت أقتلك ، قال :
 هذه . ونظر الحطّائنة إليه في مجلس عمر - وقد قرع بكلامه - فقال : من هذا
 الذي نزل على القوم بسنته ، وعلام في قوله ؟ قالوا : هذا ابن عباس ،
 فأنشأ يقول :

إِنِّي وَجَدْتُ بَيَانَ الرَّءِ نَافِلَةً يَهْدِي لَهْ وَوَجَدْتُ الْعِي كَالصَّمَمِ
 الرَّءِ يَبْنِي وَتَبْقَى السَّكْمُ سَائِرَةً وَقَدْ بَلَامُ الْفَتَى بَوْمًا وَلَمْ يُبْلِمِ
 قوله « لم يُبْلِمِ » معناه لم يأت بما يُبْلِمُ عليه .

ويروى عن الدمان بن حسان بن ثابت قال : كانت لنا عند عثمان أو غيره من
 الأمراء حاجة ، فطلبناها إليه لجماعة من الصحابة منهم ابن عباس ، وكانت حاجة
 صعبة شديدة ، فاعتل علينا ، فراجعوه إلى أن عذروه وقاموا إلا ابن عباس فلم
 يزل يراجعهم بكلام جامع حتى سدّد عليه كل حُجّة فلم يَرَ بُدًّا من أن يقضى
 حاجتنا ، فخرجنا من عنده وأنا آخذ بيد ابن عباس ، فررنا على أولئك الذين كانوا
 عذروا وضمفوا ، فقلت : كان عبد الله أولاكم بهم ، قالوا : أجل : فقلت أمدحه : =

وَأُظِرَّفَ مِنْ أَبِي نُوَّاسٍ ^(١)، وَأُسْخِيَ مِنْ حَاتِمٍ ^(٢)،

= إِذَا قَالَ لَمْ يَتْرُكْ مَقَالًا لِقَائِلٍ بِمِلْتَقِطَاتٍ لَا تَرَى بَيْنَهَا فَضْلًا
كَفَى وَشَفَى مَا فِي الثُّفُوسِ ، وَلَمْ يَدَّعُ

لِذِي إِزْبَةِ فِي الْقَوْلِ جِدًّا وَلَا هَزْلًا
سَوَّتَ إِلَى الْعَلِيَاءِ بِغَيْرِ مَشَقَّةٍ فَنِلَتْ ذَرَاهَا لَا دَنِيشًا وَلَا وَغْلًا
الوَغْلُ : الضعيف النذل الساقط .

واتفقوا على أنه رضى الله عنه مات بالطائف سنة ٦٨ هـ واختلفوا في سنة
فقيل : ابن إحدى وسبعين، وقيل : ابن اثنتين، وقيل : ابن أربع، والأول هو الأقوى
(١) قدمنا في شرح المقامة المراقية (ص ١٩١) كلاما عن أبي نواس ، فارجع
إليه هناك .

(٢) حاتم : هو أبو سَفَّانة وأبو عَدِي ، مجد العرب ، وفخارهم ، وحديث
سؤددهم ، وعنوان مروءتهم ، وثالث الثلاثة الذين سارت الركبان بأخبار كريمهم ،
وملأ الخلفيين ذكر جوهرهم (هو ، وكمب بن مامة ، وهرم بن سنان) وهو
أعلام كعبا ، وأنبهم ذكرا ، وأكثرهم أخبارا : حاتم بن عبد الله بن سعد
الطائي ، أدرك مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومات قبل مبعثه .

وروى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه أنه قال يوما :
سبحان الله ا ما أزهّد كثيرأ من الناس فى الخير ا عجبأ لرجل يأتيه أخوه المسلم
فى حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا ا فلو أنه كان لا يرجو ثوابا ، ولا يخاف عقابا -
لسكان ينبغى له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق ؛ فإنها تدلّ على سبيل النجاح ،
فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين أسمعتة من النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال :
نعم ، لما أنى بسبايا طى وفتت جارية لفساء عيطاء ، فلما رأيتها أعجبت بها ،
وقلت : لأطلبنّها من النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما تكلمت أنسيت جهالها
بنصاحتها ، فقالت : يا محمد ، إن رأيت أن تخلى عنى ، ولا تسميت بى أحياء =

.. ..
 = العرب فإني أبنة سيد قومي ، وإن أبي كان يَفُكُّ العاني ، وَيُشْبِعُ الجائع ،
 وَيَكْسُو العاري ، ولم يَرُدِّ طالب حاجة قط ، أنا ابنة حاتم الطائي ، فقال النبي
 صلى الله عليه وسلم : يا جارية هذه صفة المؤمن ، ولو كان أبوك مُسْلِماً لترحمتنا عليه ،
 خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق .

وقال عدى بن حاتم : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : إن أبي كان يُطْعِمُ
 المساكين ، وَيُفْتِقُ الرقاب ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ ، فهل له في ذلك أجر ؟ قال : إن
 أباك رامَ أمراً فأدركه (يريد أنه قصد بكرمه ارتفاع الذِّكْرِ وكرَمَ الأحدثة) .
 وأول ما ظهر من أمر حاتم أن أباه خلّفه في إبله - وهو غلام - فرّ به
 جماعة من الشعراء - فيهم عبيد بن الأبرص ، وبشر بن أبي خرم ، والنابغة
 الذبياني - يريدون النعمان ، فقالوا لحاتم : هل من قِرى ؟ فقال - ولم يعرفهم -
 تسألوني القرى وقد رأيتم الإبل والغنم ؟ أنزلوا ، فنزلوا ، فنحز لكل واحد
 منهم ، وسألهم عن أسماهم ، فأخبروه ، ففرّق فيهم الإبل والغنم ، وجاء أبوه
 فقال : ما فعلت ؟ قال : طوّقتك تجدّ الدهر تطويق الحمامة ، وأخبره ، فقال
 أبوه : إذن لا أبالي . وحدثت زوجته النوار قالت : أصابتنا سنة اقمصرت لها
 الأرض ، وضنت المراضع على أولادها ، فوالله إنى آتيت ليلة بعيدة ما بين الطرفين إذ
 تضاعى أولادنا : عبد الله ، وعدى ، وسفانة ، فقام إلى الصبيين وقت إلى
 الصبية ، فوالله ما نسكتوا إلا بعد هدأة من الليل ، ثم ناموا ، ونمت أنا وإياه ،
 فأقبل عليّ يُعَلِّبُنِي بالحديث ، فعرفت ما يريد ، فتناومتُ وساياتيني نوم ،
 فقال : ما لها ؟ أنامت ؟ فسكتُ ، ثم تهوّرت النجوم وإذا شيء قد رفع كسر
 البيت فقال : ما هذا ؟ قالت : جارتك فلانة ، قال : مالك ؟ قالت : الشر ،
 أتيتك من عند صبية يتعاوون عوى الذئب من الجوع ، قال : أهجلهم ،
 فهببتُ إليه فقلت : ماذا صنعت ؟ فوالله لقد تضاعى صبيتك من الجوع فما =

أصبحت ما يُملِّهم ! فقال : اسكُتِي ، وأقبلتِ المرأةُ تحملُ اثنين ويمشي بجانبها أربعة كأنها نعامَةٌ حولها رثالها ، فقام إلى فرسه جلاب ، فنحره وكشط من جلده . ودفع المذبةَ إلى المرأة ، ثم قال لي : ابشي صبيدناك ، فاجتمعنا ، فقال : تأكلون دون أهل الصَّرم ؟ ثم جعل يأتي بيتنا ويقول : دونكم النار ، فاجتمعوا ، فالتفح شوَّبه ناحية ينظر إلينا ، فوالله ما ذاق منها مزعةً وإنه لأخوَجهم ، وأصبحنا وما على الأرض إلا عظم أو حافر .

وحكى ابن الأعرابي قال : أُسِرَ حاتم في غزاة فقلت له امرأة يوماً : قم فافصد لنا هذه الناقة - وكان الفصدُ عندهم أن يُقطعَ عرقٌ من عروق الناقة ثم يُجمعُ الدمُ فيشوى ويؤكل - فقام حاتم إلى الناقة فمقرها ، فلطمته المرأة ، فقال : لو ذاتُ سِوارٍ لطمتني ! فذهبت مثلاً . ثم قال له النسوة : إنما قلنا افصدها ، قال : هذا فزدي ، يعني أنه فصدى ، وهي لغة طي .

وقال ابن الأعرابي وابن السكيت وجماعة من الرواة : خرج الحكم بن أبي العاصي ومعه عطر يريد الحيرة - وكان بالحيرة سوق يجتمع إليه الناس كل سنة ، وكان النعمان قد جعل لبني لأم بن عمرو ربيع الطريق طعنة لهم - فر الحكم بحاتم ، فسأله الجوار في أرض طيء حتى يصير إلى الحيرة ، فأجابه ، ثم أمر حاتم بجزور فنحرت وأكلوا منها ، ومع حاتم - غير الحكم - ابن عمه ملحان بن حارثة بن سعد بن الحشرج ، فلما فرغوا من الطعام طيَّبهم الحكم من طيبه ذلك ، فر حاتم بسعد بن حارثة بن لأم وليس مع حاتم من بني عمه غير ملحان ، وحاتم على راحلته ، وفرسه تُقاد ، فأتاه بنو لأم فوضع حاتم سفرته وقال : اصعُّوا حياكم الله ، فقالوا : من هؤلاء ملك يا حاتم ؟ قال : هؤلاء جيرانى ، قال له سعد : فأنت تُجبرُ علينا في بلادنا ؟ قال له : أنا ابن عمك وأحقُّ من لم تُخفروا ذمته ، فقالوا : لست هناك ، وأرادوا أن يفضحوه ، فوثبوا =

= إليه ، فتناول سعد (وقيل : كندی ، وربما كان هذا أصح لما استقرأه في شعر حاتم آخر القصة) ابن حارثة بن لأم حاتماً ، فأهوى له حاتم بالسيف فأطار أرنبة أنفه ، ووقع الشر حتى تمأجزوا ، فقال حاتم :

وَدِدْتُ - وَوَيْتِ اللهُ - لَوْ أَنَّ أَنتَهُ هَوَا، قَامَتِ الْمُخَاطُ عَنِ الْعَظْمِ
وَلَكِنَّمَا لَأَفَاهُ سَيْفٌ إِنْ عَمَّهُ قَابِي وَمَرَّ السَّيْفُ مِنْهُ عَلَى الْخَطْمِ

فقالوا لحاتم : بيننا وبينك سوق الخيرة فنبأ جدك ، ونضع الرهون ، ففعلوا ، ووضعوا تسعة أفراس ، ووضع حاتم فرسه ، ثم خرجوا حتى انتهوا إلى الخيرة ، وسمع ذلك إياس بن قبيصة الطائي ، فخاف أن يعين النعمان بن لأم للصهر الذي بينهم وبينه ، ويقويهم بالله وسلطانه ، فجمع إياس رهطه من بني حية ، وقال : يا بني حية إن هؤلاء القوم أرادوا أن يفضحوا ابن عمكم في مجادته ، فقال رجل من حية : عندي مائة ناقة سوداء ، ومائة خمراء أدماء ، وقام آخر فقال : عندي عشرة حصن على كل حصان منها فارس مدجج لا يرى منه إلا عيناه ، وقال حسان بن جبلة الخير : قد علمت أن أبي قدمات وترك كلاً كثيراً فلي كل خمر أو لحم أو طعام ما أقاموا في سوق الخيرة ، ثم قام إياس فقال : على مثل جميع ما أعطيتكم كلكم - وحاتم لا يعلم بشيء مما فعلوا - وذهب حاتم إلى ابن عمه مالك بن جبار - وكان كثير المال - فقال : يا بن عم ، أعني على محابلي ، ثم أنشد :

يَا مَالِ إِحْدَى خَطُوبِ الدَّهْرِ قَدْ طَرَقَتْ

يَا مَالِ مَا أَنْتُمْ عَنْهَا بِيْرَاحِ

يَا مَالِ جَاءَتْ حَيَاضُ الْمَوْتِ وَارِدَةٌ

مِنْ بَيْنِ غَمْرِ فَخُضْنَاهُ وَضَحَضَاحِ =

== مجادم غدا بمجمع العرب ، فعرف النعمان الغضبَ في وجهه وكلامه ، فقال له :
يا أحسننا لا تغضب فإني سأ كفيك ، وأرسلَ إلى سعد بن حارثة وإلى أصحابه :
انظروا ابنَ عمكم حاتماً فأرضوه ، فوالله ما أنا بالذي أعطيتكم مالي تُبَدَّرُونه ،
وما أطيقُ بنى حية ، فخرج بنو لأم إلى حاتم ، فقالوا : أعرض عن هذا المِجَادِ
ندعَ أرشَ أنف ابنِ عمنا ، قال : لا والله حتى تتركوا أفراسكم ويغلب مجادمك ،
فتركوا أرشَ أنف صاحبهم وأفراسهم ، وقالوا : قَبَّحَهَا اللهُ وأبغدها ، فإنما هي
مقارف ، فعمد إليها حاتم ، فمقرَّها وأطمعها الناسَ وسقام الخمر ، وقال حاتم
في ذلك :

| | |
|---|---|
| أَبْلِغْ بَنِي لَامٍ بِأَنَّ خِيُولَهُمْ | عَفْرَى ، وَأَنَّ مِجَادَهُمْ لَمْ يَمِجُدِ |
| هَا إِنَّمَا مَطَرَتْ سَمَاؤُكُمْ دَمًا | وَرَفَعَتْ رَأْسَكَ مِثْلَ رَأْسِ الْأَصْيَدِ |
| لَيْسَ كَوْنَ جِيرَانِي كَأَنَّي بَيْنَكُمْ | نَحْلًا لِكِنْدِي وَسَبِي مُزْنَدِ |
| وَابْنُ النُّجُودِ إِذَا غَدَا مُتَلَاطِمًا | وَابْنُ الْعُدُورِ ذِي الْعِجَانِ الْأَزْبِدِ |
| أَبْلِغْ بَنِي نَمَلٍ بِأَنِّي لَمْ أَكُنْ | أَبْدًا لِأَفْعَالِهَا طَوَالَ السَّنَدِ |
| لَا جِثْمُهُمْ فَلَا وَأَتْرَكَ صُحْبَتِي | نَهْبًا وَلَمْ تَغْدِرْ بِقَائِمَةٍ يَدِي |

وحاتم شاعر فحل ، ولسكن شهرته بالجوود والكرم غطت على شعره ،
فأصبح لا يبعد في الشعراء إلا عند قصد الإطالة والاستقصاء . ولقد فضله ماوية
بنت عفْرِ - وكانت ملكة - على النابغة ، وحكمت له حين أنشدها :

أَمَا وَيَّ قَدْ طَالَ التَّجَنُّبُ وَالْهَجْرُ وَقَدْ عَدَّرْتَنِي مِنْ طَلَابِكُمُ الْعُدْرُ
في قصة طويلة .

ومن شعره الرابع قوله :

وَعَادِلَةٌ هَبَّتْ بِلَيْلٍ تَلُومُنِي وَقَدْ غَابَ عَيْقُوقُ الثَّرِيَا فَعَرَّ دَا =

وَأَشْجَعَ مِنْ عَمْرٍو (١) ،

تَلُومٌ عَلَىٰ إِعْطَائِي الْمَالَ ضَلَّةً
تَقُولُ : أَلَا أَمْسِكُ عَلَيْكَ ؛ فَإِنِّي
ذَرَيْتِي وَحَالِي ؛ إِنْ مَالِكَ وَإِفْرِي
أَرِيْبِي جَوَادًا مَاتَ هُزُلًا . لَعَلِّي
وَإِلَّا فَسَكُنِي بَعْضَ لَوْمِكَ ، وَأَجْعَلِي
أَلْمَ تَغْلَمِي أَنِّي إِذَا الضَّيْفُ نَابَنِي
أَسْوَدُ سَادَاتِ الْعَشِيرَةِ عَارِفًا
وَأَلْنِي لِأَعْرَاضِ الْعَشِيرَةِ حَافِظًا

وقوله :

أَمَّا وَالَّذِي لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ غَيْرُهُ
لَقَدْ كُنْتُ أَطْوَى الْبَطْنِ وَالزَّادِ يُشْتَمَى
وَمَا كَانَ بِي مَا كَانَ وَاللَّيْلُ مَلْبَسُ
أَلْفِ بَجَلْسَى الزَّادِ مِنْ دُونِ صُحْبَتِي
وَيُحْيِي الْعِظَامَ الْبَيْضَ وَهِيَ رَمِيمٌ
تَحَافَةٌ يَوْمًا أَنْ يُقَالَ لَيْمٌ
رِوَاقٌ لَهُ فَوْقَ الْأَكَامِ . بَرِيمٌ
وَقَدْ آبَ نَحْمٌ وَاسْتَقَلَّ نَجْمٌ

(١) عمرو : هو أبو ثور ، عمرو بن معد يكرب بن عبد الله الزبيدي ،
أحد فرسان العرب وأبطالهم ، وصاحب الغارات والوقائع في الجاهلية والإسلام ،
ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة العاشرة من الهجرة ، وأسلم ،
ثم ارتد ، ثم تاب ، وأبلى في وقائع الإسلام بلاءً حسنًا ، وله في معركة القادسية موقف
مشهود كان سبب الفتح ، كما كان في وقعة اليرموك وغيرها مغوارًا ، فارسًا ،
شجاعًا ، همامًا .

حَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ : قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ =

..
 = قافلا من تَبُوكَ ، فأردت أن أذُنُوَ إليه ، فمَنَعَنِي مَنَ حَوَلَهُ ، فقال : دَعُوهُ ،
 فذَنُوتُ مِنْهُ ، فقلت : أُنَقَمُ صَبَاحًا أَبَيْتَ اللَّعْنَ ، فقال : يا عَمْرُو اسْلِمَ تَسْلَمَ ،
 ويؤمنك الله من الفزع الأكبر ، فأسلمت .

ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، سأله يوما : ما تقول في الحرب ؟
 قال : مُرَّةُ المَذَاقِ ، إذا كَشَفْتُمُ عن سَاقِ ، فن صَبَرَ عُرِفَ ، ومن ضَعُفَ
 تَلَفَ ، قال : فإقول في الرُّمَحِ ؟ قال : خَلِيلِكَ ، وربما خَانِكَ ، قال :
 فالتَّئِبُ ؟ قال : مَنَايَا تَخْطِئُ وتَصِيبُ ، قال : فالتَّزْسُ ؟ قال : عليه تدور
 الدوائر ، قال : فالسيف ؟ قال : عَيْدُكَ تَكَلَّتْكَ أَمَكُ ، قال عمر : بل أَمَكُ ،
 فقال : الحَمَى أَضْرَعَتْنِي إِلَيْكَ ، فأغْلَظَ له عمر في الكلام ، فقال :

أَتُوَعِدُنِي كَأَنَّكَ ذُو رُعَيْنِ بَأَنْقَمَ عَيْشَةٍ أَوْ ذُو نُوَاسِ ؟
 فَلَا تَفَخَّرْ بِمُلْكِكَ ، كُلُّ مُلْكٍ بَصِيرٌ لِذِلَّةٍ بَعْدَ الشَّمَسِ

فقال عمر : صدقت فاقصص مني ، قال : بل أعفويا أمير المؤمنين ، لولا
 آية سمعتها منك لجللتك بالسيف أخذت منك أم ترك ! قال : وما هي ؟ قال :
 سمعتك تقرا : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا
 وَلَا يَحْيَى ﴾ ، والله لو علمت أنني إذا دخلتها مت لفعلت .

وهو شاعر مطبوع ، ومن جيد شعره قوله :

وَمَا رَأَيْتُ الخَلِيلَ زُورًا كَانَهَا جَدَاوِلُ مَاءٍ أُرْسِلَتْ فَاسْتَبَطَّرَتْ
 وَجَاشَتْ إِلَى النَّفْسِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَرُدَّتْ عَلَى مَكْرُوهِهَا فَاسْتَبَطَّرَتْ
 ظَلَّتْ كَأَنَّي لِلرَّمَايحِ دَرِيئَةٌ أَقَاتِلُ عَنِ أَحْسَابِ جَزْمٍ وَفَرَّتْ
 وَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقَتْنِي رِمَاحُهُمْ نَطَقْتُ ، وَلَكِنَّ الرَّمَايحَ أَجْرَتْ =

= وقوله:

وَقَدْ عَجِبْتُ أَمَامَهُ أَنْ رَأَيْتَنِي
أَشَابَ الرَّأْسَ أَيَّامَ طَوَالٍ
وَزَخَفُ كَتِيبَةٍ لِلِقَاءِ أُخْرَى
وَإِسْنَادُ الْأَسِنَّةِ نَحْوِ نَحْرِي

تَفَرَّعَ لِمَتِّي شَيْبٌ فَظِيمُ
وَمَ مَا تَبْلَغُهُ الضُّلُوعُ
كَأَنَّ زُهَاءَهَا رَأْسٌ صَلِيمُ
وَهَزُّ الْمَشْرِفِيَّةِ وَالْوُقُوعُ

وقوله:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعُهُ
وَصِلَّهُ بِالزُّرُوعِ ، فَكُلُّ شَيْءٍ

وَجَاوِزُهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ
سَمَّاكَ ، أَوْ سَمَوْتَ لَهُ ، تَزُوعُ

وقوله:

لَيْسَ الْجَمَالُ بِمِزْرٍ
إِنَّ الْجَمَالَ مَعَادِنٌ
أَعْدَدْتُ لِلْحِدَانِ سَا
وَحُسَامَ ذَا شَطْبٍ يَقْدُ
كُلُّ أَمْرِيءٍ يَجْرِي إِلَى
لَمَّا رَأَيْتُ نِسَاءَنَا
وَبَدَتْ لَيْسُ كَأَهْمَا
وَبَدَتْ مَحَامِينُهُمُ الَّتِي
نَارَلْتُ كَبَشَهُمْ ، وَلَمْ
كَمْ يَنْدِرُونَ دَمِي وَأَنْ
كَمْ مِنْ أَخٍ لِي صَالِحٍ
ذَهَبَ الَّذِينَ أَحْبَبْتُهُمْ

فَاعْلَمْ ، وَإِنْ رُدِّيتَ بُرْدًا
وَمَنَاقِبُ أَوْرَثَنَ نَجْدًا
بِعَةً وَعَهْدَاءَ هَلَنْدَى
الْبَيْضَ وَالْأَبْدَانَ قَدَا
بِوَمِ الْهِيَاجِ بِمَا اسْتَعْدَا
يَفْتَحِضُنَ بِالْمِعْزَاءِ شَدَا
بَدْرُ السَّمَاءِ إِذَا تَبَدَّى
تَخْفَى وَعَادَ الْأَمْرُ جِدَا
أَرَمِنْ نِزَالِ الْكَبْشِ بَدَا
ذِرُّ إِنْ لَقِيتُ بَانَ أَشَدَا
بِوَأَنْ بِيَسْدَى لِحَدَا
وَبَقِيتُ مِثْلَ السَّيْفِ فَرْدَا =

وَأَبْلَغَ مِنْ سَحْبَانَ وَائِلٍ^(١)

= ووفد على كسرى مع النعمان بن المنذر ايدافع عن العرب ، ويبطل ما كان كسرى قد نسبه إليها ، فقال :

إنما المرء بأصْفَرِيْبِهِ قَلْبِهِ ولسانه ، قِبَالِغُ المنطق للصواب ، ومِلَاكُ النجدة الارتياح ، وَعَقْوُ الرَّأْيِ خَيْرٌ مِنْ اسْتِكْرَاهِ الْفِكْرَةِ ، وتوقيفُ الخبرِ خَيْرٌ مِنْ اعْتِسَافِ الْحَيْرَةِ ، فَاجْتَبِذْ طَاعَتَنَا بِلَفْظِكَ ، وَاكْتَضِمْ بَادِرَتَنَا بِحِلْمِكَ ، وَالرِّبْ لَنَا كَتَمَكَ يُسَلِّسُ لَكَ قِيَادَنَا ، فَإِنَّا أَنَا لَمْ يَوْقُسْ صَفَاتَنَا قِرَاعِ مَنَاقِيرِ مَنْ أَرَادَ لَنَا قَضَا ، وَلَكِنْ مَنَعْنَا حَمَانًا مِنْ كُلِّ مَنْ رَامَ لَنَا هَضْمًا .

(١) سحبان وائل : هو سحبان بن زُفَرِّ بن إياد الوائلي (نسبة لوائيل بأهله) الخطيب المصقع ، المضروب به المثل في البلاغة والبيان ، وفيه قال الأصمعي : كان إذا خطب يتصببُ عرقًا ، ولا يعيدُ كلمة ، ولا يتوقفُ ولا يقعد حتى يفرغ ، ونشأ في الجاهلية بين قبيلة وائل (إحدى قبائل ربيعة) ولما ظهر الإسلام أسلم ، وتقلبت به الأحوال حتى ألتحق بمعاوية رضي الله عنه ، فكان بعده للممات ، ويتوَكَّا عليه عند المفاخرة ، لقوة عارضته ، وسُرْعَةِ خَاطِرِهِ ، وَقَدِمَ عَلَى معاوية وقد من خُرَّاسَانِ ، وفيهم سعيد بن عثمان بن عفان ، فطلب سحبان فلم يجده في منزله ، فاقتضب من ناحية اقتضابًا ، وأدخل عليه ، فقال له معاوية : تكلم ، فقال : أَحْضِرُوا لِي عَصَا ، قالوا : وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين ؟ قال : ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه ، فضحك معاوية وأمر له بإحضارها ، فلما وصلت إليه ركلمها (يريد أن يخبرها) فلم ترقُ في نظره ، فطلب عصاه ، فأخذها ثم خطب من صلاة الظهر إلى أن حانت صلاة العصر ، ما تَمَحَّنَحَ ، ولا سَمَلَ ، ولا تَوَقَّفَ ، ولا تَلَكَّأَ ، ولا ابتداء في معنى وخرج منه وقد بقي منه شيء ، فما زالت تلك حاله حتى دُهِشَ منه الحاضرون ، فأشار إليه معاوية بيده ، فأشار إليه سحبان لا تقطع على كلامي ، فقال معاوية : =

الصلاة ، قال : هي أَمَامَكَ ، نحن في صَلَاةٍ وَتَحْمِيدٍ ، ووعده ووعيد ، فقال معاوية : أنت أخطبُ العرب ؛ قال سبحانه : وَالْعَجَمِ وَالْحِنِّ وَالْإِنْسِ . وينسب إليه هذا البيت :

لَقَدْ عَـلِمَ الْحَيُّ الْيَمَانُونَ أَنَّي إِذَا قُلْتُ أَمَا بَعْدُ أَنِّي خَطِيئُهَا
ويقال : إنه أول من قال « أَمَا بَعْدُ » لهذا البيت ، ويقال : أول من قال « أَمَا بَعْدُ » هو النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وهي فَضْلُ الْخُطَابِ الَّتِي عَنَّاها بقوله « أوتيت الحكمة وفصل الخطاب » .

ومن خطبة له في الوعظ :

أما بعد ، فإنَّ الدنيا دار مَمَرٍ ، والآخرة دار مَقَرٍّ ، فَخُذُوا مِنْ مَمْرِكُمْ لِمَقْرِكُمْ ، وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ ، عِنْدَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ ، وَاحْرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ ، فِيهَا حَيَاتِكُمْ ، وَبَعِيرُهَا خُلُقَاتُكُمْ ، الْيَوْمَ عَمَلٌ بِلا حِسَابٍ ، وَغَدَا حِسَابٌ بِلا عَمَلٍ ، إِنْ الرَّجُلُ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ : مَا تَرَكَ ، وَقَالَ الْمَلَائِكَةُ : مَا قَدَّمَ ، فَقَدِّمُوا بَعْضًا ، لِيَكُونَ لَكُمْ قَرَضًا ، وَلَا تَتْرَكُوا كُلًّا ، يَكُونَ عَلَيْكُمْ كَلًّا .

ومن جيد شعره في مدح طلحة الطلحات الخزاعي :

يَا طَلْحَ أَكْرَمَ مَنْ مَشَى حَسَبًا ، وَأَعْطَاهُمْ لِنَالِدٍ
مِنْكَ الْعَطَاءَ فَأَعْطِنِي وَقَلِيَّ مَدْحُكَ فِي الْمَشَاهِدِ

ويروى له كلام يسير جداً ، بل والذي روى على ندرته قد نسبته إلى غيره بمضُ الرِوَاةِ الموثوق بهم ، ومن هذا القطعة التي ذكرناها ، فقد نسبها أبو حنبلٍ القائل في أماليه إلى بعض الأعراب في صدر العصر العباسي ، ولعل السرف في عدم تدوين خطبه أنه كان يميل إلى الإطالة التي يعجز الرِوَاةُ معها عن الحفظ ، على أنها لم تكن من السياسة في شيء ، والقوم إذ ذلك لا يشغلهم غيرها .

وَأَذَى مِنْ قَصِيرٍ^(١) ، وَأَشْمَرَ مِنْ جَرِيرٍ^(٢) ، وَأَعَذَبَ مِنْ مَاءِ الْفُرَاتِ ،
وَأَطْيَبَ مِنَ الْعَافِيَةِ ، لِبِدْلِي وَمُرُوءَتِي^(٣) ، وَإِنْلَافِ ذَخِيرَتِي ، فَلَمَّا

(١) قصير: هو أحد أرباب الحجا والرأى من نِقَاةِ جَذِيمة الأبرش الذين جمعهم جَذِيمة حين استدعته الزبَاء إليها وعَرَضَتْ عليه مُلْكها وزَوَّاجها فاستخَفَّه ما دَعَتْهُ إليه ، ورجب فيما أطمعته فيه ، فَمَرَضَ على خاصته الأمر ، فاجتمع رأيهم على أن يسير إليها فيستولى على ملكها ، ماعدا قصيرا — وكان أريبا حازما أثيرا عند جَذِيمة — فخالفهم فيما أشاروا به ، وقال: رأيتُ قاتر، وغَدْرٌ حاضر. فذهبت كلمته مثلا ، ثم قال: الرأى أن تكتب إليها فإن كانت صادقةً في قولها فلتقبل إليك ، وإلا لم تُمَكِّنْهَا من نفسك، ولم تقع في حبالها وقد وترتْها وقتات أباه ، فلم يوافق جَذِيمة ما أشار به قصير ، فقال قصير :

إِنِّي امْرُؤٌ لَا يُعْمِلُ الْعَجْزُ رِيَّتِي إِذَا أَتَتْ دُونَ شَيْءٍ مَرَّةَ الْوِذْمِ
فقال جَذِيمة: لا ، ولكنك امرؤ رأيتُ في الكنن لا في الضحح ، فذهبت كلمته مثلا. ثم سار إليها فقتل ، والحادث مشهور عَرَفَهُ شُدَاةُ الأدب؛ فلا حاجة بنا إلى الإطالة بذكره .

(٢) قدمنا ترجمة مطولة لجرير بن عطية في شرح المقامة الإبلسية (ص ٢٦٤)

(٣) المعنى: إنني كنت في نظرم جامعا لفضائل الصفات ، وكريم الخصال ، وشريف السجايا؛ لما كان يعود عليهم مني من النفع، وما كنت أمنحهم من المعروف، وكذلك المُوَسِّرُ مُوقَّرٌ في نظر الناس مضبوط منهم ، فلا يُحَاسَبُ على هَفَوَاتِهِ ، ولا تعدُّ له زلاته ، ولا تُسَاءُ معاملته ، فإذا أملتُ رجَعَ كل شيء إلى ضده وانقلب الحال ، وتغيرت الشؤون .

خَفَّ الْمَتَاعُ ، وَانْحَطَّ الشَّرَاعُ^(١) ، وَفَرَّغَ الْجِرَابُ^(٢) ، تَبَادَرَ الْقَوْمُ
الْبَابِ^(٣) ، لَمَّا أَحْسَوْا بِالْقِصَّةِ ، وَصَارَتْ فِي قُلُوبِهِمْ غُصَّةً^(٤) ، وَدَعَوْنِي

(١) الشَّرَاعُ : كُنْثُ شَيْءٍ ارْتَفَعَ وَتَصَوَّبَ ، وَمَعْنَى انْحَطَّ طَاهِرٌ تَهَاوَيْهِ إِلَى
أَسْفَلٍ ، وَذَلِكَ كِنَايَةٌ عَنْ تَغْيِيرِ حَالِهِ وَانْقِلَابِ دَهْرِهِ ، أَوْ الْمُرَادُ بِالشَّرَاعِ شِرَاعُ
السَّفِينَةِ ، وَمَعْنَى انْحَطَّ طَاهِرٌ حِينَئِذٍ رُكُودُ الرِّيحِ وَتَعْطُلُ السَّفِينَةُ عَنِ السَّيْرِ ، وَفِيهِ مِنْ
الْكِنَايَةِ نَفْسٌ مَا ذَكَرْنَا فِي الْمَعْنَى الْأُولَى .

(٢) الْجِرَابُ - بِكسْرِ أَوَّلِهِ وَلَا يَفْتَحُ ، أَوْ الْفَتْحُ فِيهِ لَفَةٌ ضَعِيفَةٌ - الْمَزُودُ
وَالوَعَاءُ ، وَالْجَمْعُ جُرْبٌ - بِضَمَّتَيْنِ - أَوْ جُرْبٌ - بِضَمِّ فَسْكَوْنٍ - وَأَجْرِبَةٌ ،
وَمَعْنَى فَرَّاغَهُ خُلُوهُ مِنَ الْمَتَاعِ ، وَهَذَا كِنَايَةٌ عَنْ إِمْلَاقِهِ وَبُؤْسِهِ وَحُلُوزَاتِ يَدِهِ .

(٣) تَبَادَرَ الْقَوْمُ الْبَابِ : أَسْرَعُوا فِي الْهَرَبِ ، وَتَوَجَّهَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
مُعْرِضًا عَنِّي ، مُؤْتِيًا بِوَجْهِهِ نَحْوَ الْبَابِ فِرَارًا مِنِّي ، وَالْمَعْنَى : إِذَا هَمُّوا مَا زَالُوا يَفِيدُونَ
عَلَى ، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيَّ ، وَيَجَاوِلُونَ بِكُلِّ مَا فِيهِمْ مِنْ جَهْدٍ أَنْ يَتَّصِلُوا بِي ، إِلَى أَنْ
نَضَبَ مَعِينُ نُرُوتِي ، وَغَاضَ مَاءُ الْمَالِ عِنْدِي ، وَظَهَرَتْ عَلَيَّ الْمَتْرَبَةُ ، وَبَدَأَ لَهُمْ
سُوءُ حَالِي ، فَلَمَّا عَرَفُوا عَنِّي ذَلِكَ ، وَشَعَرُوا بِأَنَّهُ لَمْ يَعْذُ لَهُمْ لَدَيَّ رِفْدٌ نَفَرُوا
وَفَرَّوْا ، وَاسْتَنْقَلُوا ظِلِّي .

(٤) الْغُصَّةُ - بِضَمِّ أَوَّلِهِ - الشَّجَا وَمَا اعْتَرَضَ فِي الْخَلْقِ فَأَشْرَقَ ، وَجَمْعُهُ
غُصَصٌ ، تَقُولُ مِنْهُ : غَصَصْتُ بِالطَّعَامِ - بِالْكَسْرِ - أَغَصُّ غُصَصًا (بُوزَانُ
طَرِبٍ يَطْرِبُ طَرِبًا) فَأَنَا غَاصٌّ بِهِ ، وَغَصَّانٌ ، وَقَالَ الشَّاعِرُ :

إِلَى الْمَاءِ يَسْعَى مَنْ يَغْصُ بِرَبِيقِهِ فَقُلْ : أَيْنَ يَسْعَى مَنْ يَغْصُ بِمَاءٍ ؟

وَقَالَ آخَرُ :

لَوْ بَغِيْرَ الْمَاءِ حَلَقِي شَرِقٌ كُنْتُ كَالْمَغْصَانِ بِالْمَاءِ اعْتِصَارٌ =

بُرْصَةٌ^(١) ، وَانْبَعَثُوا لِلْفِرَارِ ، كَرَمِيَّةَ الشَّرَارِ^(٢) ، وَأَخَذَتْهُمُ الضُّجْرَةُ^(٣) ،
فَانْسَلَوْا قَطْرَةً قَطْرَةً^(٤) ، وَتَفَرَّقُوا يَمَنَةً وَيَسْرَةً^(٥) ، وَبَقِيَتْ عَلَى
الْآجُرَةِ^(٦) ، قَدْ أَوْزَنُونِي الْحَسْرَةَ ، وَاشْتَمَلَتْ مِنْهُمْ عَلَى الْعَبْرَةَ ،

= والمراد هنا لازمه - وهو الضيق ، والحزن ، وانقباض النفس - وذلك لما
فاتهم من مجامع الأنس ، ومحافل السرور ، ومجالس البهجة والطرب .

(١) البُرْصَةُ - بفتح أوله - دُوَيْبَّةٌ صغيرة معروفة ، ودَعَوْنِي : لَقَبُونِي ،
وأطلقوا على هذه الكلمة تحقيرا لشأني ، واستهانته بي ، وتقليلًا لفائدتي وغنائتي ،
وقد يكون بُرْصَةٌ - بالضم - وهو البقعة البيضاء من الرمل التي لا تثبت ،
أو منازل الجن ، ويكون المعنى إذ ذاك إنهم سَجَّوهُ بذلك لفقره ، ونُضُوبُ ماله ،
وذهاب ثروته ، وضِياع ما كان حوله من الفائدة والمنفعة .

(٢) الشَّرَارُ : ما انفصل وتطاير من النار ، ومن طبيعة الشَّرَارِ أن ينطلق
في الهواء بسرعة زائدة .

(٣) الضُّجْرَةُ - بضم أوله - : الضَّجْرُ ، وهو ضيق النفس والقلق والغم
والتأمل .

(٤) إذا بلغ الماء دَرَجَةَ مخصوصة من الحرارة كان لا بدَّ له من مُزَايَلَةٍ
مكانه فينساقط ويتقاطر ، فإذا حصل ذلك لم يكن أسرع منه ، فهو يكتفى
بانسلاهم قطرة قطرة عن تسارُعهم إلى الهرب منه ، واشتدادهم في الفرار من وجهه ،
وكانهم لخلجهم خافوا أن يفروا كلهم مرة واحدة فتظهر الدناءة وتنكشف الخسة
(٥) يَمَنَةً وَيَسْرَةً - بفتح أولهما - أى يمينا وشمالا ، والمراد أنهم فارقوه
كل واحد منهم إلى جهة ؛ إذ لم يكن لهم ما يجمعهم سوى مجلسه .

(٦) المراد بقيت على الأرض منفردا، والآجُرَةُ في الأصل : واحدة الآجُرُ
وهو الطوب المحروق الذي يتخذُ في البناء .

لَا أُسَاوِي بَعْرَةَ^(١) ، وَحِيدًا فَرِيدًا كَالْبُومِ ، الْمَوْسُومِ بِالشُّومِ^(٢)
 أَقْعُ وَأَقُومُ ، كَأَنَّ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ لَمْ يَكُنْ ، وَنَدِمْتُ حِينَ لَمْ تَنْفَعْنِي
 النَّدَامَةُ^(٣) ، فَبَدَّلْتُ بِالْجَمَالِ وَخَشَةَ ، وَصَارَتْ بِي طُرْشَةً^(٤) ، أَقْبِحُ
 مِنْ رَهْطَةِ الْمُنَادِي ، كَأَنَّ رَاهِبَ عِبَادِي^(٥) ، وَقَدْ ذَهَبَ الْمَالُ وَبَقِيَ

(١) أورتوني حسرة : هذه الفقرة مأخوذة من قول أبي ذؤيب :
 أَوْدَى بَنِيَّ وَأَعْقَبُونِي حَسْرَةً فَتَخَرُّوا ، وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَضْرَعُ
 ويروي « وأورتوني حسرة » كافي المقامات ، والعبارة - بفتح أوله -
 الدَّيْمَةُ ، والبكاء . وبعرة الجمل ونحوه معروفة ، والمعنى : ان ابتعادهم عني ،
 وتركهم لي فريداً لا أنيس لي ، قد أعقبتني الندم والتحسر على سابق أمري
 مهمم ، وجعلني أقضي جميع أوقاتي في البكاء والنحيب ، وتركني . بانسا مسكينا
 لاسند لي ولا عضد .

(٢) البُومُ والبُومَةُ : طائر ، يقال للذكر والأنثى : بومٌ وبومةٌ ، والموسوم
 هنا : أي المعروف ، وأصلُ الوَسْمِ والسِّمَةِ - كالوعد والعدة - التَّمْلِمةُ ، والبوم مما
 يُتَشَاكَمُ به ويُتَطَّيرُ من صوته ؛ فقد جعله الناس علامة على الشؤم وسوء الطالع .
 (٣) المعنى إنني أسفتُ ، وزاد بي الغم ، ولكن بعد فوات الوقت ، وبعد
 أن لم يعد الندم ينفعني ، ولا الأسف يفيدني .

(٤) المراد من الوحشة قُبْحُ الهيئة وتغييرها ؛ لأن ذلك هو الذي يقابل
 الجمال ، والطُرْشَةُ في الأصل : الخفيفُ من الصَّعَمِ ، وأراد منه هنا ما أشد منه
 وزاد ؛ بدليل تعقيبه بقوله « أقبح من رهطة » وهو رجل عرف عنه الصمم الشديد
 (٥) العِبَادُ : جمع عابد ، والنسبة هنا غير قياسية ، إذ الأصل أن ينسب
 إلى المفرد ، اللهم إلا إذا كان بتأويل التسمية بلفظ الجمع وإطلاقه على هذه
 الجماعة كعَلَمٍ لهم ، ومن صفات الراهب العزلة والابتعاد عن الناس ، وأراد من
 تشبيه نفسه به ذلك .

الطنز^(١) . وَحَصَلَ بِيَدِي ذَنْبُ الْعَنْزِ^(٢) ، وَحَصَلْتُ فِي بَيْتِي وَخَدِي
مُتَمَتِّتَةً كَبِيدِي ، لَتَعَسَّ جَدِّي ، قَدْ قَرَّحَتْ دُمُوعِي خَدَيَّ^(٣) ، أَعْمَرَ
مَنْزِلًا دَرَسَتْ طُلُوهُ^(٤) ، وَعَفَّتْ مَعَالِمُهُ سِيُولُهُ^(٥) ، فَأُضْحَى وَأُمْسَى

(١) طَنَزَ يَطْنِزُ طَنْزًا - من باب نصر - سَخِرَ وَتَهَزَّأَ وَاسْتَهَانَ ، والمعنى
إنه قد ذهب عنى جمال الغنى ، وأبهة اليسار ، وحالفتنى سفيرية الفقر واستهانته ،
واستظهر الجوهرى أن الطنز معرب .

(٢) ذنب العنز: كناية عن عدم وجود شيء عنده ؛ لأن ذنب العنز قصير
جافاً لا نفع فيه ولا فائدة ترجى منه ، فوجوده والعدم سواء .

(٣) المعنى : إننى بقيت فى دارى وحيداً حزيناً آسفاً باكياً ، متوجعاً لما
نالى ، متألماً بما نزل بى ، وتعجبى أبيات قُلتها فى مثل هذا الحال ، وهى :

بَلَوْتُ النَّاسَ فِي عُسْرٍ وَيُسْرٍ وَفِي الْحَالَيْنِ مِنْ فَرَجٍ وَضِيْقٍ
وَلَمَّا لَمْ أَجِدْ مَنْ يَضْطَفِينِي لَغَيْرِ الْمَالِ وَالْحَسَبِ الْعَرِيقِ
فَقَضْتُ يَدِي وَمَا عَاقَتْ بِشَيْءٍ سِوَى الْآلَامِ وَالْحُزْنِ الْعَمِيقِ
إِذَا لَمْ تَلْقَ فِي الْقُرْنَاءِ خَيْرًا فَأَوْلَى أَنْ تَمِيشَ بِلَا رَفِيقِ

(٤) الطَّلَلُ : ما بقى شاخصاً مرتفعاً من آثار الديار ، أو الشخص من
كل شيء ، وجمعه طُلُولٌ وَأَطْلَالٌ ، وَدَرَسَتْ : انمحت ، والمراد خُلُوهَا من
القطين والسكان ، والمعنى إننى صرت وحدي أعمر هذه الأماكن التى خلت بذهابهم .

(٥) عفت : درست ، يقال : عَفَاَ لِلنَّزْلِ ، وَعَفَّتْهُ الرِّيحُ ، يَتَمَدَّى
ويلزِمُ - وبأبهما عدا - وَعَفَّتْهُ الرِّيحُ - بالتضعيف أيضاً ، وَشُدُّدٌ لِلْبَالِقَةِ ،
وَالسِّيُولُ : جمع سَيْلٍ ، وهو ما انحدر من المطر ، وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

دِمْنٌ عَفَّتْ وَحَمًا مَعَالِمَهَا هَطَلٌ أَجَشُّ وَبَارِحٌ تَرَبُّ

والمعنى : إن السيل بطول مروره بهذه الديار قد محا معالمها وعفا آثارها .
(٢٣ - شرح مقامات البديع)

بِرَبْعِهِ الْوُحُوشِ ، تَجُولُ وَتَنُوشُ^(١) ، وَقَدْ ذَهَبَ بَجَاهِي ، وَنَفِدَتْ صِحَاحِي^(٢) ،
 وَقَلَّ مَرَّاحِي ، وَسَلَحْتُ فِي رَاحِي^(٣) ، وَرَفَضَنِي الثَّدْمَاءُ ، وَالْإِخْوَانُ الْقَدْمَاءُ ،
 لَا يُرْفَعُ لِي رَأْسٌ ، وَلَا أَعْدُوٌّ مِنَ النَّاسِ ، أَوْتَحُّ مِنْ بَرِيْعِ الْهَرَّاسِ ، وَرَزِينِ
 الْمِرَّاسِ^(٤) ، أترَدُّدُ عَلَى الشَّطِّ ، كَأَنِّي رَاحِي الْبَطِّ^(٥) ، أَمْشِي وَأَنَا حَافِي ،

(١) تجول وتنوش : معناهما واحد ، والمراد أنه أصبح مسكناً للوحوش
 تذهب فيه طَوْرًا ونجىء طورًا آخر ، وتروح وتغدو ، والمراد أنها تتردد كلما
 أرادت ، إذ ليس له عامر غيرها .

(٢) نَفِدَتْ : فَنِيَتْ ، وفي التنزيل ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يُنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ
 بَاقٍ ﴾ ، والصحاح : جمع صحيح ، وهو كل ثابت يعتمد عليه ، والمراد ما كان
 بيده من المال .

(٣) مَرَّاحِي : خفتي لإسداء المعروف ، وهو من قولهم : « رَاحَ لِلْمَعْرُوفِ
 بِرَاحٍ رَاحَةً » إذا أخذته له خفة وأريحية ، ومنه الحديث : « وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ
 الثَّانِيَةِ - لِح » لم يرد رَوَاحِ النَّهَارِ ، بل المراد خَفَّ إِلَيْهَا ، و« سَلَحْتُ فِي رَاحِي »
 الراح : الراحة والارتياح ، وسلح فيها : أفسدها على نفسه ، والمعنى : إن قلة
 المال وخلو اليد جعلاني لا أبادر للبذل ، ولا أخف إلى الإعطاء ، كما كتبت
 أولاً ، وإن الإملاق تركني فاقدَ الراحة مسلوبَ الطمأنينة .

(٤) أوتح : أَخَسُّ ، وَأَضْعَفُ شَأْنًا ، وَأَحَطُّ قِيَمَةً ، وَأَنْزَلُ قَدْرًا ؛
 وَالْهَرَّاسُ : صانع المربسة ، والمراس : صانع الأمراس وهي الحبال ، وبزيع
 ورزين : اسمان رجلين ، وقد ضربهما مثلاً في خسة القدر وضعف الجاه ؛ لأن
 صناعتهما في زمانه كانت أحط الصناعات وأقلها قدرًا .

(٥) الشَّطُّ : هو شاطئ النهر ، والبَطُّ : من نوع الأوز ، وهما يألفان
 الماء ، وإذا كان لهما راع فهو دائماً ملازم لشاطئ الماء .

وَأَتَّبَعُ الْفَيَّافِي (١) ، عَيْنِي سَخِينَةٌ ، وَنَفْسِي رَهِينَةٌ (٢) ، كَأَنِّي مَجْنُونٌ
 قَدْ أَفْلَتَ مِنْ دَيْرٍ ، أَوْ عَيْرٍ يَدُورُ فِي الْخَيْرِ (٣) ، أَشَدُّ حُزْنًا مِنْ الْخُنْسَاءِ عَلَى
 صَخْرٍ (٤) .

(١) الفَيَّافِي : الصحارى والأراضى التى لا ماء بها ، ولا نبات ، واحدها
 فَيَّافَةٌ ؛ وأراد من ذلك الكناية عن الأماكن التى لا يوجد بها من الناس أحد ،
 لأنه كان ينجل أن يروِّه وهو على هذه الحال السيئة .

(٢) يقال فى الدعاء على الرجل بالحزن « أسخَنَ اللهُ عينه » و « سَخِنَتْ
 عَيْنُهُ » ، كما يقال فى الدعاء له بالمسرة « أقرَّ اللهُ عينه » ، وفى التنزيل :
 (قُرْءَةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ) ، ونفسى رهينة : محبوسة ، والمعنى : ضيقة متألِّمة .

(٣) العَيْرُ - بفتح أوله - الحمار ، قال الشاعر :

وَلَا يُقِيمُ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ إِلَّا الْأَذْلَانَ عَيْرُ الْحَىِّ وَالْوَتِدُ
 وَالْحَيْرُ : الخطيرة التى تُعْمَلُ للماشية ، وقاية لها من الحر والبرد .

(٤) الخنساء هى : السيدة ثَمَّاضِر بنت عمرو بن الشريد ، الشلمية ، أرقى

شواعر العرب ، وأحزن من ذلك

كان أبوها عم
 وكانت هى من أجم
 فرغبت عنه ، وآزره
 وكانت تقول الـ
 صخر جزعت عليهما
 على صخر ، لأنه كان
 نفسها ، فقالت المرأتى
 البكاء والمويل ، حتى تفت
 فى سُلَيْمٍ من مُضَرَ ،
 سَمَّةَ فَارِسِ جُشَمِ ،
 ية ثم أخوها لأبيها
 كان أشدَّ وجدها
 حزنُها الشعرى فى
 وأطالت عليهما
 لحزن والبكاء =
 حزن

..
 = وكثرة الرثاء ، وجاء الإسلام فوفدَتْ مع قومها على النبي صلى الله عليه وسلم
 وأسلمت ، وكان يُعجِبُه شعرها ويستنشدها ، ويقول : هيه يا خُنَّاس ، ويؤمى بيده
 وما فتئت تبكي صغرا قبل الإسلام وبعده حتى عميت ، وبقيت إلى أن
 شهدت وقعة القادسية في السنة الخامسةَ عَشْرَةَ من الهجرة مع أولادها الأربعة ،
 فأوصتهم وحضَّتهم على الصبر عند الزحف ، فقتلوا جميعاً ، فقالت : الحمد لله
 الذي شرفني بقتلهم ، ولم تحزن عليهم حُزُنَهَا على أخويها ، وتوفيت بالبادية
 في خلافة معاوية .

فأما شعرها فقد أجمع أغلب علماء الشعر على أنه لم تكن امرأة قبل الخنساء
 ولا بعدها أشعرَ منها ، ومن فضل ليل الأخيالية لم ينكر أنها أرزى النساء ، وكان
 بشار بن برد يقول : لم تقل امرأة الشعر إلا ظَهَرَ الضمفُ فيه ، فقيل له : وكذلك
 الخنساء ؟ فقال : تلك غلبت الفحول !

ولم يكن شأنها عند شعراء الجاهلية أقلَّ منه عند شعراء الإسلام ، فذلك
 النابغة الذبياني يقول لها - وقد أنشدته بسوق عكاظ قصيدتها التي مطلعها :
 قَدَى بِعَيْنِكَ أُمُّ بِالْعَيْنِ عُوَارُ أُمُّ أَقْفَرَتْ إِذْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ ؟؟
 - لولا أن أبا بصير (يريد الأعشى) أنشدني قبلك لقلت إنك أشعر من بالسوق
 ولشعر الخنساء رنين في السمع ، وهزة في القلب ، ووقع في النفس ؛ لأنه
 صادر عن فؤاد محزون ، وما خرج من القلب حلَّ في القلب ، وكان فوق ذلك
 لين اللفظ ، سهَّل الأسلوب ، حَسَنَ الديباجة .

وسئل جرير : مَنْ أشعر الناس ؟ قال : أنا لولا الخنساء ، قيل : فِيمَ
 فضلتك ؟ قال : بقولها :

إِنَّ الزَّمَانَ - وَمَا يَفْنَى لَهُ مُعْجَبٌ - أَبْقَى لَنَا ذَنْبًا وَاسْتَوْصِلَ الرَّاسُ
 إِنَّ الْجَدِيدَيْنِ فِي طَوْلِ اخْتِلَافِهِمَا لَا يَفْسُدَانِ ، وَلَكِنْ يَفْسُدُ النَّاسُ =

وَمِنْ هِنْدٍ عَلَى عَمْرٍو (١)

= ومن جيد شعرها قولها ترى أخاها صخرًا :

أَغْنِيَّ جُودًا وَلَا تَجْمُدَا أَلَا تَبْكِيَانِ لِصَخْرِ النَّدَى
أَلَا تَبْكِيَانِ الْجُرَى الْجَمِيلِ أَلَا تَبْكِيَانِ الْفَقَى السَّيِّدَا
رَفِيعِ الْعِمَادِ ، طَوِيلِ النَّجَا دِ سَادَ عَشِيرَتَهُ أَمْرَدَا
إِذَا الْقَوْمُ مَدُّوا بِأَيْدِيهِمْ إِلَى الْمَجْدِ مَدًّا إِلَيْهِ يَدَا
فَنَالَ الَّذِي فَوْقَ أَيْدِيهِمْ مِنَ الْمَجْدِ ثُمَّ انْتَمَى مُصْعِدَا
يُحْمَلُهُ الْقَوْمُ مَا عَالَهُمْ وَإِنْ كَانَ أَصْفَرُهُمْ مَوْلِدَا
وَإِنْ ذَكَرَ الْمَجْدُ الْفَيْتَةَ تَأَزَّرَ بِالْمَجْدِ ثُمَّ ارْتَدَى

ومن قصيدتها التي تقدم مطلعها :

وَإِنَّ صَخْرًا لَمَوْلَانَا وَسَيِّدَنَا وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتِمُ الْهَدَاةُ بِهِ
وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتِمُ الْهَدَاةُ بِهِ شَهَادُ أُنْدِيَّةِ ، لِلجَيْشِ جَرَارُ
حَالُ الْوَيْبَةِ ، هَبَّاطُ أُوْدِيَّةِ ، وَمِنْ قَوْلِهَا تَرْثِيهِ :

أَلَا يَا صَخْرُ إِنْ أَبَكَيْتَ عَيْنِي فَقَدْ أَضْحَكْتَنِي زَمَنًا طَوِيلَا
دَفَعْتُ بِكَ الْخَطُوبَ وَأَنْتَ حَيٌّ فَمَنْ ذَا يَدْفَعُ الْخَطْبَ الْجَلِيلَا ؟
إِذَا قُبِحَ الْبُسْكَاهُ عَلَى قَتِيلِ رَأَيْتُ بُسْكَاهَكَ الْحَسَنَ الْجَلِيلَا

(١) عمرو : هو ابن المنذر بن ماء السماء ، وهند : أمه . وكان قد قتله عمرو

ابن كلثوم في قصة ذكرناها عند ترجمته في المقامة العراقية ، وفي مقتله يقول
أفنون بن صريم التغلبي مفتخرًا بفعل عمرو بن كلثوم من قصيدة له :

لَمَمَّرْكَ مَا عَمْرُوبُ بْنُ هِنْدٍ وَقَدْ دَعَا لِتَخْدُمَ أُمِّي أُمَّهُ بِمَوْفِقِ
فَقَامَ ابْنُ كُلْثُومٍ إِلَى السَّيْفِ مُضِلَّتَا فَأَمْسَكَ مِنْ نَدْمَانِهِ بِالْمُخَنَّقِ =

وَقَدْ تَاهَ عَقْلِي ، وَتَلَا شَتْ صِحَّتِي ، وَفَرَّغْتَ صُرَّتِي ^(١) ، وَقَرَّ غُلَامِي ، وَكَثُرَتْ
 أَحْلَامِي ، وَجُزْتُ فِي الْوَسْوَاسِ الْمِقْدَارِ ، وَصِرْتُ بِمَنْزِلَةِ الْعُمَارِ ، وَشَيْطَانِ
 الْدَّارِ ، أَظْهَرُ بِاللَّيْلِ وَأَخْفَى بِالنَّهَارِ ، أَشْأَمُ مِنْ حَفَّارِ ، وَأَثْقَلُ مِنْ كِرَاءِ
 الْهَدَارِ ، وَأَرْعَنُ مِنْ طَيْطِيءِ الْقَصَّارِ ^(٢) ، وَأَخْفَى مِنْ دَاوُدَ الْعَصَّارِ ، قَدْ حَالَفْتَنِي
 الْقَلَّةُ ، وَشَمَلْتَنِي الذَّلَّةُ ، وَخَرَجْتُ مِنَ الْمَلَّةِ ، وَأَبْغَضْتُ فِي اللَّهِ ^(٣) ، وَكُنْتُ
 أبا الْعَنْبَسِ ، فَصِرْتُ أبا عَمَلَسٍ ^(٤) .

= وَجَلَّلَهُ عَمَّرُو عَلَى الرَّأْسِ ضَرْبَةً بِيَدِي شُطْبِ صَافِي الْحَدِيدَةِ رَوْنِي
 وكان لعمرو أخ يقال له مُرَّة بن كلثوم قَتَلَ الْمُنْذِرَ بْنَ النُّعْمَانَ وَأَخَاهُ ،
 وَإِيَاهُ عَنَى الْأَخْطَلُ بِقَوْلِهِ :

أَبْنِي كَلَيْبٍ إِنْ عَمَى اللَّذَا قَتَلَا الْمُلُوكَ وَفَكَكَا الْأَغْلَالَ

(١) الصُّرَّة : وعاء الدراهم الذي توضع فيه .

(٢) الْعُمَار : الجن الذين يسكنون البيوت ، وشيطان الدار : بيان له ،
 والحفار : الذي ينبش القبور ، وكراء الدار ثقل جداً على من يسكنهم ، بحيث
 لا يطيقه إلا متضرراً متأففاً ، فلمعرك إن من كان أثقل منه لاطاقة مخلوق على
 احتماله ، وأرعن : صيغة تدلُّ على زيادة الرعونة وهي الحمق ، والقصار : الذي
 صناعته تقصير الثياب ، وطيطيء : اسم رجل .

(٣) أَبْغَضْتُ فِي اللَّهِ : أى كرهنى الناسُ وَأَبْغَضُونِي لِأَجْلِ اللَّهِ وَابْتِغَاءَ
 مرضاته ، وذلك لأنه خرج عن الملة .

(٤) الْعَنْبَسُ فِي الْأَصْلِ : الْأَسَدُ ، وَالْعَمَلَسُ : الذُّئْبُ ، قَالَ الشَّنْفَرِيُّ :

وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ : سَيِّدُ عَمَلَسٍ ، وَأَرْقَطُ ذُهُلُولٍ ، وَعَرَفَاءُ جَبَالٍ .

فهو يشير إلى المعنى الأصلي للفظين ، ويروى بدل عملس « عَفَّس » ،
 وأبا فَعَّس « وليست بشيء ، والمعنى : إننى كنت عظيماً مهيباً منظوراً إلى نظرة
 الاحترام ، فأصبحت محترماً مردولاً ، ينظرنى الناس بعين القتل والازدراء .

قَدْ ضَلَّتْ الْمَحَجَّةَ ، وَصَارَتْ عَلَى الْحِجَّةِ^(١) ، لَا أُجِدُّ لِي نَاصِرًا ،
وَالْإِفْلَاسُ عِنْدِي أَرَاهُ حَاضِرًا^(٢) ، فَلَمَّا رَأَيْتُ الْأَمْرَ قَدْ صَغَبَ ،
وَالزَّمَانَ قَدْ كَلَبَ^(٣) ، التَّمَسْتُ الدَّرَمَ فَإِذَا هُوَ مَعَ النَّسْرَيْنِ^(٤) ،
وَعِنْدَ مُنْقَطَعِ الْبَحْرَيْنِ^(٥) ، وَأَبْعُدُ مِنَ الْفَرْقَدَيْنِ^(٦) .

(١) الْحِجَّةُ : نَهْجُ الطَّرِيقِ ، وَالسَّبِيلُ الْوَاضِحُ الْبَيْنَ ، وَالْحِجَّةُ : الْبُرْهَانُ ،
وَالدَّلِيلُ ، وَالْمَعْنَى : لِأَنِّي لَمْ أَتَدَبَّرِ الْأَمْرَ وَلَمْ أَنْهَجْ أَعْدَالَ السَّبِيلِ وَأَقْوَمَهَا ، وَأَكْثَرَهَا
هُدَايَةً وَأَيْنَهَا ، فَقَامَ الدَّلِيلُ بِمَا وَصَلَتْ حَالِي إِلَيْهِ عَلَى أَنِّي اسْتَحَقُّ ذَلِكَ ،
وَعَلَى أَنِّي لَمْ أُجِدْ إِلَّا جِزَاءَ مَا صَنَعْتُ يَدِي .

(٢) الْمَعْنَى : لِأَنَّهُ لَمْ يَنْصُرْنِي عَلَى عَوَادِي الزَّمَانِ وَكَيْدِهِ أَحَدٌ ، بَلْ خَذَلَنِي
النَّاسَ جَمِيعًا ، وَكُنْتُ أُجِدُنِي دَائِمًا مَفْلَسًا مَعْدَمًا .

(٣) كَلَبَ : يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِهِمْ : كَلَبَ - كَفَرِحَ - إِذَا عَضَّ
الْكَلْبُ الْمَصَابَ بَدَاءَ الْكَلْبِ ، وَهُوَ إِذَا عَضَّ إِنْسَانًا لَمْ يَبْرَأْ مِنْهُ إِلَّا مَعَ الْجُهْدِ
الْجَاهِدِ وَالْمَشَقَّةِ الْبَالِغَةِ ، وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْكَلْبَةِ - بَضْمُ أَوْلِهِ - وَهِيَ :
الشَّدَّةُ وَالضِّيقُ وَالْقَحْطُ ، وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِهِمْ : « كَلَبَ الشَّجَرُ » إِذَا
لَمْ يَجِدْ رِيحَهُ فَنَشَنَ وَرَقَهُ ، وَعَلَّقَ بِهِ ثَوْبًا مَنْ يَمُرُّ بِهِ ، وَالْمُرَادُ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَنَّ
الزَّمَانَ قَدْ اشْتَدَّ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ قَدْ صَارَ إِلَى الْعَيْشِ الْمُرِّ وَالْحَالِ الْكُرِيهِ .

(٤) النَّسْرَانِ : هُمَا الْكُوكَبَانِ اللَّذَانِ يُسَمَّى أَحَدُهُمَا : النَّسْرُ الطَّائِرُ ،
وَالْآخَرُ النَّسْرُ الْوَاقِعُ ، وَمَنْ ذَا الَّذِي يُمْكِنُهُ الْوُصُولُ إِلَيْهِمَا لِيَسْتَخْلَصَ الدِّينَارَ ،
أَوِ الدَّرَمَ ؟ !

(٥) الْبَحْرَيْنِ : الْمُرَادُ بِهِمَا الْهَيْطُ الْغَرْبِيُّ وَالْهَيْطُ الشَّرْقِيُّ ، وَلَمْ يَكُنْ يَتَّبِعُ
الْوُصُولَ إِلَيْهِمَا حِينَئِذٍ .

(٦) الْفَرْقَدَانِ : هُمَا نَجْمَانِ يَقَعَانِ بِالقُرْبِ مِنَ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ ، وَيَهْتَدِي
بِهِمَا ، وَأَحَدُهُمَا أَكْثَرُ وَضُوحًا مِنَ الثَّانِي .

فَخَرَجْتُ أَسِيحُ ، كَأَنِّي الْمَسِيحُ^(١) ، فَجَلْتُ خُرَّاسَانَ ، الْخُرَّابَ مِنْهَا
وَالْعُمْرَانَ ، إِلَى كَرْمَانَ وَسَجِسْتَانَ ، وَجِيلَانَ إِلَى طَبْرِسْتَانَ وَإِلَى عُحَانَ
إِلَى السَّنَدِ ، وَالْهِنْدِ ، وَالثُّوبَةِ ، وَالْقَنْبِطِ ، وَالْيَمَنِ ، وَالْحِجَازِ ، وَمَكَّةَ ،
وَالطَّائِفِ ، أَجُولُ الْبَرَّارِيِّ وَالْقِفَارِ ، وَأَصْطَلِي بِالنَّارِ ، وَأَوَى مَعَ
الْحِمَارِ^(٢) ، حَتَّى أَسْوَدَّتْ وَجَنَّتَايَ ، وَتَقَلَّصَتْ خُصْبَيْتَايَ ، فَجَمَعْتُ
مِنَ النَّوَادِرِ وَالْأَخْبَارِ وَالْأَسْمَارِ^(٣) ، وَالْفَوَائِدِ وَالْآثَارِ ، وَأَشْعَارِ
الْمُتَطَرِّفِينَ ، وَسُخْفِ الْمُلْهِنِ ، وَأَسْمَارِ الْمُتَمَيِّمِينَ^(٤) ، وَأَحْكَامِ
الْمُتَفَلِّسِينَ ، وَحِيلِ الْمُشْعُوزِينَ ، وَنَوَامِيسِ الْمُتَمَخَّرِقِينَ^(٥) ، وَنَوَادِرِ
الْمُنَادِمِينَ ، وَرَزَقِ الْمُنْجَمِينَ^(٦) ، وَلُطْفِ الْمُتَطَبِّبِينَ ، وَكِيَادِ

(١) المسيح : هو عيسى بن مريم رسول الله على نبينا وعليه الصلاة والسلام .
(٢) أوى المنزل ، وأوى إليه ، أويًا - بضم فكسر فياء مشددة - وربما
كسر أوله أيضًا : سكنه ونزل فيه ، والمراد أنه بلغ من الإعواز مبلغًا لم يكن يجد
لنفسه مأوى ينزله ولا مبيتًا يستريح إليه غير مكان الحمار .

(٣) الأسمار : أحاديث الليل التي يجتمع عليها الناس ويروونها

(٤) التميمون : هم العُشَّاق ، الذين عبَّدهم الهوى وأمتلكتهم الغرام .

(٥) مخرق - بوزن دحرج - كذب ، وموّه ، وقال الباطل ، وافترى ،

وأراد بنواميسهم طُرُقهم التي يتخذونها لخداع الناس والتفجير بهم ، وحيلهم
التي يستعملونها لإدخال الغفلة على المنصتين إليهم ، وأساليبهم في تحذير الأفكار
وتسميم العقول .

(٦) النجمون : هم القوم الذين يدعون معرفة أحكام النجوم وتأثيرها
في عالم العناصر ، ورزقهم : التَّكْهِنِ ، والإخبار بالغييب ، وذكر المجهولات ،
وغيرها من الوسائل التي يمتثلون بها على الناس ؛ لاستدراة الأكف ، واستنباط
الأموال وابتزازها .

المُخَنَّثِينَ (١) :

(١) المُخَنَّثُونَ : جماعة من الرجال يتشبهون بالنساء ، ومن حوادثهم ما ذكره صاحب الأغاني قال : خرج يحيى بن الحكم - هو أمير على المدينة - فبصر بشخص بالسبخة مما يلي مسجد الأحزاب ، فلما نظر إلى يحيى بن الحكم جلس ، فاستراب به ، فوجه أعوانه في طلبه ، فأتوا به كأنه امرأة في ثياب مُصَبَّغَة مصقولة ، وهو ممتشط مختضب ، فقال له أعوانه : هذا ابن نفاش الخنث ، فقال له : ما أحسبك تقرأ من كتاب الله عز وجل شيئاً ! أتقرأ أم القرآن ؟ فقال : يا أبانا ، لو عرفت أمهنَّ عرفت البنات ، فقال له : أتقرأ بالقرآن لا أم لك ؟ وأمر به فضرت عنقه ، وصاح في شأن الخنثين : من جاء بواحد منهم فله ثلثائة درهم . قال زرجون الخنث : فخرجت بعد ذلك أريد العالية فإذا بصوت دفٍ أعجبنى ، فدنوت من الباب حتى فهمت نغمت قوم آنس بهم (١٩) ففتحتهم ودخلت ، فإذا بطوئيس (أحد مخنثي المدينة) قائم في يده الدف يتغنى ، فلما رأى قال لي : إيه يا زرجون ، قتلت يحيى ابن نفاش ؟ قلت : نعم ، قال : وجعل في الخنثين ثلثائة درهم ؟ قلت : نعم ، فاندفع يغنى :

مَا بَالُ أَهْلِكَ يَا رَبَّابَ خُزْرًا كَأَنَّهُمْ غِضَابُ
إِنْ زُرْتُ أَهْلَكَ أَوْ عَدُوا وَتَهَرَّ دُونَهُمُ الْكِلَابُ

ثم قال لي : ويحك ، أما جعل في زيادة ولا فضلني عليهم في الجمل بفضلٍ !
ومن أشهر الخنثين أبو عبد النعمان عيسى بن عبد الله مولى بني مخزوم الشهير بطوئيس ، وكان مخنثاً ما جفا ظريفاً يسكن المدينة ، وهو أول من غنى بها على الدف بالعربية ، وله أخبار تدل على مسكره وفطنته . قيل : كان عبد الله بن جعفر ومنه أخذان له في عشية من عشايا الربيع ، فراحت عليهم السماء بمطر جودى أسال كل شيء ، فقال عبد الله : هل لكم في العقيق ؟ - وهو متنزّه =

..
 = أهل المدينة في الربيع والمطر - فركبوا ، ثم أتوا العتيق ، فوقفوا على شاطئه وهو
 يَرِي بِمِي بِالزَّبَدِ ، فإنهم لينظرون إذ جادت السماء ، فقال عبد الله لأصحابه : ليس
 معنا جنة نستعجن بها ، وهذه سماء خَلِيقَةٌ أَنْ تَبُلَّ ثِيَابَنَا ، فهل لكم في منزل
 طُوَيْسٍ فإنه قريب منا ، فنسكن فيه ويحدثنا ويضحكنا - وطويس في النظارة
 يسمع كلامَ عبد الله بن جعفر مع أصحابه ، ولم يَرَوْهُ - فقال عبد الرحمن
 ابن حسان : جُمِلَتْ فِدَاكَ ، وما تريد من منزل طُوَيْسٍ عليه غَضَبُ اللَّهِ ؟ هو
 مخنث شأن لمن عرفه ، فقال عبد الله : لا تَقُلْ ذَلِكَ ، فإنه خفيف ، لسا فيه
 أنس ، فلما استوفى طويس الكلامَ تعجَّلَ إلى منزله ، فقال لامرأته : ويحك ،
 قد جاءك سيدُ الناسِ عبدُ اللَّهِ بن جعفر ، فما عندك ؟ قالت : تَذْبِيحُ هذه العنّاقِ
 - وكانت قد رَبَّتْهَا لابن - وأختبز رقائقا ، فبأدر بذبحها ، وَجَّحَتْ هِيَ ، وخرج
 وتلقاه مُقْبِلًا إليه ، فقال له طويس : بأبي أنت وأمي ، هذا ينظر هل لك في المنزل
 فنسكن به إلى أن تكفَّ السماء ؟ قال : إِيَّاكَ أريد ، قال : فامض ياسيدي
 على بركة الله ، وجاء يمشي بين يديه حتى نزلوا فتمحدثوا إلى أن أدرك الطعام
 فاستأذن عليه ، وأبى بعتاق سمينة ورُقاق ، فأكل معه القوم ، وأعجبه طعامه ،
 ثم قال طويس : يا أبى أنت وأمي أما أغنيك ؟ قال : بلى ، فأخذ الدف
 وانطلق يعني :

يَا خَلِيلِي فَأَبِي سُهَيْدِي لَمْ تَنْمَ عَيْنِي وَلَمْ تَكْذِبْ
 كَيْفَ تَلْعُونِي عَلَى رَجُلٍ أَنَسٍ ، تَلْتَدُّهُ كَيْدِي

فطرب القوم ، وقالوا : والله أحسنت ، فقال : ياسيدي ، أتدرى لمن هذا
 الشعر ؟ قال : لا ، قال : هذا للقارعة بنت حسان ، وهي تعشق عبد الرحمن بن
 الحارث الخزومي وتقول فيه ، فسكت القوم ، وضرب عبد الرحمن برأسه فلو تقبت
 له الأرض لذهب فيها ، وعلم عبد الله أنه اقتصَّ من عبد الرحمن .

وَدَخَسَةَ الْجَرَابِذَةَ^(١) ، وَشَيْطَنَةَ الْأَبَالِسَةِ ، مَا قَصَرَ عَنْهُ فُتْيَا الشُّعْبِيِّ ،^(٢)
وَحَفِظَ الضَّبِّيَّ^(٣) .

(١) الدَّخَسَةُ : مأخوذة من قولهم « دخسهُ » إذا خدعه ، والجرابذة : جمع جربذ ، وهو الخويث الخاتل الخلداع .

(٢) الشعبي : هو الإمامُ العَلَمُ ، شيخُ أهلِ الحديث ، أبو عمرو عامر بن شراحيل ، الحِمَيْرِيُّ ، الشُّعْبِيُّ ، الكوفي ، وُلِدَ في خلافةِ عمر بن الخطاب ، وهو يروى عن عمر وعلى وابن مسعود ، ولم يسمع منهم ، ويروى عن أبي هريرة وعائشة وجرير بن عبد الله وابن عباس وحاتم ، قال عن نفسه : أدركت خمسمائة صحابي ، ويروى عنه ابن سيرين والأعمش وشُعْبَةُ وخلقٌ كثيرون ، قال ابن سُبَيْنَةَ : كانت الناس تقول : ابن عباس في زمانه والشعبي في زمانه .

(٣) الضبي : هو أبو عبد الرحمن المفضل بن محمد الضبيُّ الثقة ، أحد أكابر الكوفيين ، وعنه أخذ أبو زيد الأنصاري لثقته وحفظه وروايته ، وللهدي جَمَعَ الأشعارَ الخنارةَ المسماةَ « بالفضليات » وهي تزيد وتنقص بحسب الرواة الذين نقلوا عنه ، وأصحُّ رواياتها رواية أبي عبد الله بن الأعرابي عنه ، وله من الكتب سواها كتاب « الأمثال » وكتاب « معاني الشعر » وكتاب « العروض » قال خَافَ الأحرر : أَخَذْتُ على المفضل الضبي وقد أنشد لامرئ القيس :

نَمَسُّ بِأَطْرَافِ الْجِيَادِ أَكُفْنَا إِذَا نَحْنُ قُمْنَا عَنْ شِوَاءِ مُهْضَبِ

فقلت : إنما هو « نَمَشُّ » لأنَّ اللَّشَّ مَسْحُ اليدِ بالشئِ الخسِنِ ، ومنه سمي مندبل النمر « مَشُوشًا » ويروى أن سليمان بن علي الهاشمي بالبصرة جمع بين المفضل الضبي والأصمعي ، فأنشد المفضل قولَ أوسِ بنِ حَجَرٍ :

وَذَاتِ هِدْمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا نَضَمْتُ بِالْمَاءِ تَوَلَبًا جَدَعًا =

وَعِلْمُ الْكَلْبِيِّ^(١) .

= روى « جَدَّعًا » بفتح الدال ، فنظر الأصمعي إليه - وكان أخذت سُنًا منه - فقال : إنما هو « تَوَلَّبًا جَدَّعًا » ، وأراد تقريره على الخطأ ، فلم يفتن المفضل إليه فقال : كذلك أنشدته ، فقال الأصمعي : أخطأت ، إنما هو « تَوَلَّبًا جَدَّعًا » - بكسر الدال - فقال المفضل : جَدَّعًا ، جَدَّعًا ، ورفع صوته ، فقال سليمان بن علي : من تحبان أن يحكم بينكما ؟ فاتفقًا على غلام من بني أسد حافظٍ للشعر ، فأحضر ، فعرضا عليه ما اختلفا فيه ، فقال بقول الأصمعي وَصَوَّبَ رأيه ، فقال المفضل : وما لَجْدِعُ ؟ قال : السَّيءُ الغِذاءُ ، وهكذا هو في كلامهم ، ومنه قولهم « أَجْدَعَتَهُ أمه » إذا أسامت غذاءه .

وقد أخذ كتابه المفضليات عن ألسنة النقلة والرواة ، فأما أبو تمام فقد أخذ حماسته عن كتب مدونة ، وتوفي المفضل سنة ١٦٨ هـ .

(١) السكبي : هو أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب بن بشر ، السكبي ، نشأ بالكوفة ، وكان نسابة عالماً بأخبار العرب وأيامها ومثالبها ووقائعها ، أخذ عن أبيه محمد بن السائب ، وكان محمد هذا من علماء الكوفة بالتفسير والأخبار وأيام الناس ، معدوداً بين المُفسِّرين والنسَّابين ، توفي بالكوفة سنة ١٤٦ هـ ولم يخلف إلا كتاباً في تفسير القرآن ، أما هشام ابنه فحُفَّتْ نحو مائة كتاب ، بعضها في الأحلاف ، وبعضها الآخر في المآثر ، والبيوتات ، والمنافرات ، والنموذات وبعضها في أخبار الأوائل ، وبعضها فيما قارب الإسلام من أمر الجاهلية ، وغيرها في أخبار البلدان ، وأخبار الشعر ، وأيام العرب ، والأسمار ، والأنساب ، وأم ما كتبه في الأنساب كتاب « النسب الكبير » ويحتوى على أنساب أم قبائل العرب من العدنانية والقحطانية ، فضلاً عن الأنساب المفردة لأشهر القبائل على حدة ، وله كتاب في نسب الخليل في الجاهلية والإسلام ، وكتاب تنكيس الأصنام =

فَأَسْتَرْفَذْتُ وَاجْتَدَيْتُ ، وَتَوَسَّلْتُ وَتَكَدَّيْتُ^(١) ، وَمَدَّحْتُ وَهَاجَيْتُ ،
حَتَّى كَسَبْتُ ثُرُوءًا مِنَ الْمَالِ ، وَأَخَذْتُ مِنَ الصَّفَاخِ الْهِنْدِيَّةِ^(٢) ،
وَالْقُضْبِ الْيَمَانِيَّةِ^(٣) ، وَالذُّرُوعِ السَّابِرِيَّةِ^(٤) .

= وروى عن هشام ابنه العباس وغيره : وكان من أحفظ الناس ، قال محمد
ابن السري : قال لي هشام الكلبي : حفظت ما لم يحفظه أحد ، ونسيت ما لم
ينسه أحد ، كان لي عمُّ يعاقبني على حفظ القرآن ، فدخلت بيتاً وحلفت
لا أخرج حتى أحفظ القرآن ، حفظته في ثلاثة أيام (؟)

وتوفى هشام في سنة ٢٠٤ في خلافة المأمون العباسي ، وقيل : في سنة ٢٠٦
في خلافته أيضاً .

(١) استرفد : طلب الرِّفْد ، وهو المطاء ، وأجتدى الناس ، ومثله
جدائم : طلب جدوام ، وهو المطاء أيضاً ، وتكدى قريب من ذلك في
المعنى ، ويروى بدل تكديت «تحررت» ومعناه طلبت ما هو بي أحرى وأولى .

(٢) الصفاخ : جمع صفيحة ، وهي السيف ، والهندية : المنسوبة إلى الهند ،
وكانت الهند قديماً مشهورة بصنع السيف ، قال عنتره :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرِّمَاحُ نَوَاهِلٌ مِثِّي ، وَبَيْضُ الْهِنْدِ تَقَطُّرٌ مِنْ دَمِي
فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ الشُّبُوفِ لِأَنَّهَا لَمَعَتْ كِبَارِقِ نَفْرِكِ الْمُتَبَسِّمِ

(٣) القُضْبُ : جمع قضيب ، وهو السيف القاطع ، واليمانية : المنسوبة إلى
اليمن ، وقال عنتره أيضاً :

وَمَا لَبَيْتُهُ إِلَّا وَسَيْفِي وَرُنْحِي فِي الْوَعْيِ فَرَسًا رِهَانِ
وَكَانَ إِجَابَتِي إِبَاهُ أَنِّي عَطَفْتُ عَلَيْهِ مَوَارِ الْعِنَانِ
بِأَسْمَرٍ مِنْ رِمَاحِ الْخَطِّ لَذَنِي وَأَبْيَضَ صَارِمِ ذَكَرِ يَمَانِ

(٤) السابرية : درع دقيق النسج في إحكام ، ولعل أصل نسبتها إلى =

وَالدَّرَقِ التُّبَّتِيَّةِ^(١) ، وَالرَّمَا حِ الْخَطَّيَّةِ^(٢) ، وَالْحَرَابِ الْبَرْبَرِيَّةِ ، وَالخَلِيلِ
الْمِتَاقِ الْجُرْدِيَّةِ^(٣) ، وَالْبِغَالِ الْاَزْمِنِيَّةِ^(٤) .

= سابور أحد مدائن الفرس أو ملك من ملوكها ، وإليها تنسب الثياب السابرية
وهي ثياب بيض رفاق . قال عنقرة :

وَبَطْنِ كَطَى السَّابِرِيَّةِ لَيْنٍ أَقْبَ لَطِيفِ ضَامِرِ الْكَشْحِ أَنْعَجِ

(١) الدَّرَقُ : جمع دَرَقَة ، وهي تُرْس من جلد ليس فيه خشب ،
ولا عقب ؛ والتُّبَّتِيَّةُ : نسبة إلى بلاد تُبَّت - بوزن سُكَّر - قال في القاموس :
هي بلاد بالمشرق ، وهي البلاد التي في شرق كشمير ، وشمال الهند ونيبال ،
وجنوب تركستان ، وأهلها مجيدون لصناعة الدَّرَقِ .

(٢) الرماح ، ومثله الأرماع : جمع رُمح ، والخطَّية : المنسوبة إلى الخطَّ ،
وهو مَرَفًا سفن بالبحرين ، نسبت إليه ، لأنها تباع فيه أو تصنع ، وقد ذكرنا
في شعر عنقرة السابق شاهداً لذلك ، وقال أيضاً :

وَإِنِّي أَعْشَقُ الشُّمَرَ الْعَوَالِي وَغَيْرِي يَعْشَقُ الْبَيْضَ الرَّفَاقَا
وَكَاسَاتُ الْأَسِنَّةِ لِي شَرَابٌ أَلَذُّ بِهِ اضْطِطِّبَاحًا وَاعْتِبَاقَا
وَأَطْرَافُ الْقَنَا الْخَطَّى ثَقَلِي وَرَيْنَجَانِي إِذَا الْمِضْمَارُ ضَاقَا

(٣) الْمِتَاقُ : جمع عَتِيق ، وهو النجيب من الخليل ، قال الشاعر :

جَزَى اللَّهُ الْجَوَادَ الْيَوْمَ عَفَى بِمَا يَجْزِي بِهِ الْخَلِيلَ الْعِتَاقَا

وَالْجُرْدِيَّةُ : نسبة إلى الأرض الجرد ، وهي المستوية المنجردة ، وخيلها أصْلَبُ
الخليل وأجودها .

(٤) الْاَزْمِنِيَّةُ : نسبة إلى إرمينية ، وهي - بهمزة مكسورة فراء ساكنة
وفي الآخريات مفتوحة أو مشددة - كورة بالروم ، أو أربعة أقاليم ، أو أربعة كُور
متصل بعضها ببعض ، يقال لكل كورة منها إرمينية ، والنسبة إليها أرمني بالفتح .

وَالْحُرِّ الْمَرْبِيسِيَّةِ^(١) ، وَالذَّبَابِيَجِ الرَّوْمِيَّةِ^(٢) ، وَالْخُرُوزِ الشُّوسِيَّةِ^(٣) ،
وَأَنْوَاعِ الطَّرْفِ وَاللُّطْفِ^(٤) ، وَالْمَهْدَايَا وَالتَّحْفِ ، مَعَ حُسْنِ الْحَالِ ،
وَكَثْرَةِ الْمَالِ ، فَلَمَّا قَدِمْتُ بَغْدَادَ وَوَجَدَ الْقَوْمُ خَبْرِي ، وَمَا رُزِقْتُهُ
فِي سَفَرِي ، سُرُّوا بِمَقْدَمِي ، وَصَارُوا بِأَجْمَعِهِمْ إِلَى^(٥) ، بِشَكُونٍ
مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْوَحْشَةِ لِقَدَمِي ، وَمَا نَالَهُمْ لِبُعْدِي ، وَشَكُوا شِدَّةَ الشُّوقِ ،
وَرَزُّهُ التَّوْقِ^(٦)

(١) الْمَرْبِيسِيَّةُ : نَسَبَةٌ إِلَى مَرْبِيسَةَ ، وَهِيَ - بوزن سَكِينَةَ - بِلْدَةٍ مِنْهَا
يَشْرُبُ بْنُ غِيَاثِ الْمَرْبِيسِيُّ أَحَدُ رُؤَسَاءِ الْمُعْتَزَلَةِ ، وَهِيَ فِي دَعْوَى خَلْقِ الْقُرْآنِ مَنَازِلَاتُ
طَوِيلَةٌ ، حَضَرَهَا الْمَأْمُونُ الْخَلِيفَةُ الْعَبَّاسِيُّ ، وَكَانَ عَلَى رَأْيِهِ .

(٢) الذَّبَابِيَجِ : جَمْعُ دِبَابِحَةٍ ، وَهِيَ ثَوْبٌ سُدَّاهُ وَتَلْمِئَتُهُ مِنْ حَرِيرٍ .

(٣) الْخُرُوزِ : جَمْعُ خَزٍّ ، وَهِيَ الثَّوْبُ الْمَنسُوجُ مِنْ صُوفٍ وَحَرِيرٍ ،
وَالشُّوسِيَّةُ : نَسَبَةٌ إِلَى سُوسٍ ، وَهِيَ كُورَةٌ مِنْ كُورِ الْأَهْوَازِ .

(٤) الطَّرْفِ : جَمْعُ طَرْفَةٍ - بوزن غُرْفَةٍ وَغُرْفٍ - وَهِيَ الْبَدِيعُ الْمَسْتَلْحَقُ
وَالغَرِيبُ الْمَسْتَحْسَنُ ، وَمِثْلُهَا الْأَطْفُ جَمْعُ لَطِيفَةٍ .

(٥) الْمَعْنَى : إِنِّي عُدْتُ بَغْدَادَ وَقَدْ عَادَتْ إِلَى الثَّرْوَةِ وَصَحْبَتِي الْمَيْسِرَةِ ،
فَجَمَعْتُ أَنْوَاعَ الْأَمْوَالِ وَضَرَبْتُهَا ، وَحَصَلَتْ عَلَيَّ صُنُوفُ الْأَحَادِيثِ وَأَقَانِينُهَا ،
مِنْ كُلِّ مَا يَزِيدُ الرِّغْبَةَ فِي وَيَجْتَبُّ لِمِ الْقَرَبِ مَنِي ، فَلَمَّا عَلِمُوا بِذَلِكَ نَهَضُوا إِلَى
بَاشِينَ مَسْرُورِينَ ، وَجَاءُونِي فَرِحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ .

(٦) التَّوْقُ : شِدَّةُ الْحُبِّ مَعَ شِدَّةِ الشُّوقِ ، وَرُزُّهُ : الْأَلَمُ الَّذِي يَجِدُهُ
الْحُبُّ عِنْدَ فِرَاقِ حَبِيبِهِ ، وَرَبَّمَا كَانَ التَّوْقُ هُوَ الْجُودُ بِالنَّفْسِ ، وَرُزُّهُ شِدَّتُهُ
وَبَلِيَّتُهُ ، وَكَأَنَّهُمْ مَا تَوَاتَمَّ يُعْتَمُونَ بِمَقْدَمِهِ وَنَشَرُوا بِعُودَتِهِ ، لِأَنَّهُ كَانَ حَيَاتِهِمْ ،
أَوْ هُوَ خُرُوجُ الدَّمُوعِ مِنَ الشَّجُونِ ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّهُمْ جَاوَزُوا بِشَكُونٍ لَهُ صَعُوبَةٌ
الْفِرَاقِ وَالْأَلَمِ ، وَيَبْتَئُونَهُ شِدَّةَ الْوَجْدِ إِلَيْهِ ، وَمَا ذَرَفُوهُ مِنَ الدَّمُوعِ بَعْدَهُ .

وَجَمَلَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَفْتَدِرُ بِمَا فَعَلَ ، وَيُظْهِرُ النَّدَمَ عَلَى مَا صَنَعَ ،
فَأَوْهَمْتُهُمْ أَنِّي قَدْ صَفَحْتُ عَنْهُمْ ، وَلَمْ أَظْهِرْ لَهُمْ أَثَرَ الْمَوْجِدَةِ عَلَيْهِمْ (١)
بِمَا تَقَدَّمَ ، فَطَابَتْ نَفُوسُهُمْ ، وَسَكَنَتْ جَوَارِحُهُمْ ، وَأَنْصَرَفُوا عَلَى ذَلِكَ ،
وَعَادُوا إِلَيَّ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي ، فَحَبَسْتُهُمْ عِنْدِي (٢) ، وَوَجَّهْتُ وَكَيْلِي إِلَى
السُّوقِ فَلَمْ يَدَعْ شَيْئًا تَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ بِشِرَائِهِ إِلَّا أَنِي بِهِ ، وَكَانَتْ لَنَا طَبَّاحَةٌ
حَادِقَةٌ ؛ فَاتَّخَذْتُ عِشْرِينَ لَوْنًا مِنْ قَلَابِيَا مُحْرَقَاتٍ ، وَأَلْوَانًا مِنْ
طَبَاهِجَاتٍ ، وَنَوَادِرَ مُعْصَدَاتٍ (٣) ، وَأَكَلْنَا وَأَنْتَقَلْنَا إِلَى مَجْلِسِ
الشَّرَابِ ، فَأَحْضَرْتُ لَهُمْ زَهْرَاهُ خَنْدَرِيسِيَّةً (٤) ، وَمُعْتَبَاتٍ حِسَانًا

(١) المَوْجِدَةُ: الحِقْدُ، والضَّمِينَةُ، وألم النفس، والمعنى: لأنني أظهرت
لهم ارتياحي لملاقاتهم، وبَشِشْتُ في وجوههم، وأبَدَيْتُ الأُنْسَ بهم،
وَأَبْنْتُ لَهُمْ أَنِّي لَا أَحِلُّ فِي نَفْسِي الْمَا، وَلَا أُجِدُّ فِي صَدْرِي حَرَجًا مِمَّا فَعَلُوا
مَعِي قَدِيمًا.

(٢) حبستهم: منعتهن من الأنتلاق إلى منازلهم، وطلبت منهم البقاء
لدى؛ لينالوا من الطعام والشراب، وأنواع اللذات ما يليق بتقديم ألقتهن وسابق
ودادهم.

(٣) الطباهجات: جمع طباهجة، وهى نوع من اللحم يُقَالَى، وقد تقدم
في أول المقامة ذكره، وقد قال الشاعر:

فَنُضِجِي سَكَارِي وَالْمُدَامُ مُصَفَّفُ يُدَارُ عَيْنَانَا وَالطَّعَامُ الْمُطْبَهَجُ

ونواد: أصناف نادرة أى قليلة الوجود، ومعصدات - بزنة اسم المفعول -
مهيئات، ويروى «مستبعدات» ومعناه عزيزة الوجود، فيكون كالتأكيد
لقوله نوادر.

(٤) زهراء: مُشْرِقَةٌ متلألئة، والخندريس: من أسماء الخمر القديمة، قال:

تَطُوفُ عَلَيْهِمْ خَنْدَرِيسُ مُدَامَةً تَرَى حَبِيبًا مِنْ فَوْقِهَا حِينَ تُمزَجُ

مُحْسِنَاتٌ ، فَأَخَذُوا فِي شَأْنِهِمْ وَشَرِبْنَا ، فَضَى لَنَا أَحْسَنُ يَوْمٍ يَكُونُ ،
 وَقَدْ كُنْتُ أَسْتَعْدِدْتُ لَهُمْ بَعْدَهُمْ خَمْسَةَ عَشَرَ صَنًّا مِنْ صِتَانِ الْبَاذِنْجَانِ ،
 كُلُّ صَنْ بَارَبَعَةَ آذَانٍ ^(١) ، وَأَسْتَأْجِرُ غُلَامِي لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حَمَالًا
 كُلُّ حَمَالٍ بِدِرْهَمَيْنِ ، وَعَرَفَ الْجَمَالِينَ مَنَازِلَ الْقَوْمِ ، وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ
 بِالْمُوَافَاةِ بِمِشَاءِ الْآخِرَةِ ، وَتَقَدَّمْتُ إِلَى غُلَامِي وَكَانَ دَاهِيَةً أَنْ يَدْفَعَ
 إِلَى الْقَوْمِ بِالْمَنْ وَالرَّطْلِ ^(٢) ، وَيَصْرِفَ لَهُمْ ، وَأَنَا أُبْحَرُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ النَّدَّ
 وَالْعُودَ وَالْعَنْبِرَ ، فَمَا مَضَتْ سَاعَةٌ إِلَّا وَهُمْ مِنَ الشُّكْرِ أَمْوَاتٌ لَا يَعْقِلُونَ ^(٣)

= وإنما أتى بها على صيغة النسبة ، لأن الشيء إذا نسب لنفسه كان أبلغ
 في الدلالة على معناه وأوضح في إفادة الشهرة .

(١) الصَّنُّ - بالفتح - شِبْهُ السَّلَّةِ الْمُطْبَقَةِ يجعل فيها الخبز ونحوه ،
 وخصه بأن يكون من أصنان الباذنجان لكبره ، ولذلك تراه قال : « باربعة
 آذان » والآذان : ما يحمل منه ، تشبه العُرَى في أطرافه .

والمعنى : إنى حين وردوا على أكرمت متوأم ، وطمانت خاطرهم ،
 وقدمت لهم أطيب المأكول ولذيذ المشروب ، وأردت أن أنتقم منهم وأتأثر
 لنفسى ، فكلفت خادمي شراء خمسة عشر صنًا ، واستأجار الجمالين ، وتعريفهم
 منازل القوم كما سيدكره من بعد .

(٢) الداهية : الأريب الفطن والمجرب الخبير ، والرطل : معروف ، والعمن :
 مكيال يسع قريباً من رطلين ، أو هو ميزان ، ويقال فيه منّا - بوزن عصا ،
 ومثناه متوآن ، وجمعه أمثلاء ، وقال الشاعر :

وَقَدْ أَعَدَدْتُ لِلْعُدَالِ عِنْدِي عَصًا فِي رَأْسِهَا مَنَوَا حَدِيدَ

والمراد حينئذ مقدارها كيلا ، وتثنيه المنّ منان ، وجمعه أمثان .

(٣) التّدّ : نوع من أنواع الطيب ، والتبخير به : إذاعة رائحته ، أو هو

العنبر ، وعطفه عليه لتفخيم الأمر وتمظيمه ، والعود والعنبر : معروفان ، والمعنى =

وَوَافَانَا غِلْمَانُهُمْ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِدَابَّةٍ أَوْ حِمَارٍ أَوْ بَقْلَةٍ ،
فَعَرَفْتَهُمْ أَنَّهُمْ عِنْدِي اللَّيْلَةَ بَائِتُونَ ، فَأَنْصَرَفُوا ، وَوَجَّهْتُ إِلَى بِلَالِ
الْمَزِينِ فَأَحْضَرْتُهُ ، وَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ طَعَامًا فَأَكَلَ ، وَسَقَيْتُهُ مِنَ الشَّرَابِ
الْقَطْرِ بِلَى (١) ، فَشَرِبَ حَتَّى تَمَلَّ (٢) ، وَجَعَلْتُ فِي فِيهِ دِينَارَيْنِ أَحْمَرَيْنِ (٣) ،
وَقُلْتُ : شَأْنُكَ وَالْقَوْمَ ، فَحَلَقَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ خَمْسَ عَشْرَةَ لِحْيَةً ،
فَصَارَ الْقَوْمُ جُرُذًا مُرْدًا ، كَأَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَجَعَلْتُ لِحْيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
مَضْرُورَةً فِي ثَوْبِهِ ، وَمَمَّهَا رُقْعَةً مَكْتُوبٌ فِيهَا : « مَنْ أَضْمَرَ بِصَدِيقِهِ
الْفَدْرَ وَتَرَكَ الْوَفَاءَ ، كَانَ هَذَا مُكَافَأَتُهُ وَالْجَزَاءُ » . وَجَعَلْتُهَا فِي جَنِبِهِ ،
وَشَدَّدْنَا فِي الصَّنَانِ ، وَوَأَى الْجَمَّالُونَ عِشَاءَ الْآخِرَةِ ، فَحَمَلُوهُمْ بِكَرَّةٍ
حَاسِرَةٍ (٤) ، فَحَصَلُوا فِي مَنَازِلِهِمْ (٥) ، فَلَمَّا أَضْبَحُوا رَأَوْا فِي نَفْسِهِمْ
هَمًّا عَظِيمًا ، لَا يَخْرُجُ مِنْهُمْ تَاجِرٌ إِلَى دُكَّانِهِ ، وَلَا كَاتِبٌ إِلَى دِيْوَانِهِ ،

== إني أمرت الخدام أن يسقيهم الخمر بمقدار كبير ، حتى تعمل في رؤوسهم عملا
عظيما ؛ فلا يستطيعون أن يعرفوا ما نضع بهم بعد ، ولا يمكنهم أن يدفعوا
عن أنفسهم .

(١) القطر بلى : نسبة إلى قطريل ، وهي قرية بالعراق شهيرة بصناعة الخمر

وإجادتها ، قال أبو نواس :

قَطْرُبُلٌ مَرَبِيْعِي ، وَلِي بِقُرَى آلِ كَرْخٍ مَصِيْفٌ ، وَأُمِّي الْعِنَبُ

(٢) تَمَلَّ : سكر ، وترنح ، وتمايل .

(٣) جعلت في فيه : أعطيته ليسكت على ما يرى ، ويستتر ما ينظر ،

ويفعل ما أمره دون امتناع كرشوة مثلا .

(٤) الكرَّة : الرِّجْمَة ، والأوْبَة ، والخاسرة : التي شملت الخزي والعار ،

واصطحبت بالفضيحة والحجل ، وفي التنزيل : (تِلْكَ إِذْ نَكَرَتْ حَاسِرَةً) .

(٥) حصلوا في منازلهم : صاروا فيها ، ووجدوا .

وَلَا يَظْهَرُ لِإِخْوَانِهِ (١) ، فَكَانَ كُلَّ يَوْمٍ يَأْتِي خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ خَوَلِهِمْ (٢) ،
 وَمِنْ نِسَاءِ وَغُلَامَانِ وَرِجَالٍ بِشْتُمُوْنِي وَيُزْتَمُونِي ، وَيَسْتَحْكِمُونَ اللَّهَ عَلَيَّ (٣) ،
 وَأَنَا سَاكِتٌ لَا أَرُدُّ عَلَيْهِمْ جَوَابًا ، وَلَا أَعْبَأُ بِمَقَالِهِمْ ، وَشَاعَ الْخَبْرُ بِمَدِينَةِ
 السَّلَامِ بِفِيْلِي مَعَهُمْ ، وَلَمْ يَزَلِ الْأَمْرُ يَزْدَادُ حَتَّى بَلَغَ الْوَزِيرَ الْقَاسِمَ بْنَ
 عُبَيْدِ اللَّهِ (٤) .

(١) رأواهما عظيمًا : أى اشتملت نفوسهم على الهم، وعمها الألم ، لما وجدوه
 من سوء حالهم وتغيير هندامهم ، فقَبَعُوا في بيوتهم ، ولزموا منازلهم ، ولم يَجْسُرُوا
 على مزاوله عملهم ؛ لثلا يكونوا عُرْضَةً لسخرية الناس واستهزائهم .

(٢) خَوَلُهُمْ : عبيدُهم وحاشيتهم .

(٣) يستحكمون الله : يطلبون من الله حكمه وتنفيذ عقوبته في .

(٤) قال الأستاذ الشارح : القاسم بن عبيد الله هو والد أبي جعفر محمد بن القاسم
 الذى استوزره الخليفة العباسى القاهر بعد عزل أبي على بن مُقَلَّة ، وأستوزر أبوه
 عبيدُ الله للخليفة المعتضد كما استوزر هو له أيضا سنة ٢٧٨ هـ ، ولعله كان استوزر
 للموفق قبل هذا التاريخ ، حتى يمكن لأبي العنيس أن يحكى عنه وزارته قبل
 موته ، فقد مات أبو العنيس سنة ٢٧٥ هـ ، ثم قال : ويمكن أن يكون المصنف وهم
 فى رواية القصة عن أبي العنيس ، ونقول : لم يستوزر القاسم للموفق ، وإنما استوزر
 للمعتضد والمكتفى ، واستوزر أبوه عبيد الله للمعتضد ، واستوزر جده سليمان بن
 وهب للمهتدى ، والقاسم أبناء الحسين وأبو جعفر محمد بن القاسم ؛ واستوزر
 الحسين بن القاسم للمعتدر ، ولذلك كان يقال للحسين هو أعرق الناس بالوزارة
 لغوارته لها عن آباءه ، وفى الحسين يقول الشاعر :

يَا وَزِيرَ ابْنِ وَزِيرِ ابْنِ وَزِيرِ ابْنِ وَزِيرِ
 نَسَقًا كَالدَّرِّ إِذْ نُظِّمَ فِي عِقْدِ النُّحُورِ =

وَذَلِكَ أَنَّهُ طَلَبَ كَاتِبًا لَهُ فَأَفْتَقَدَهُ^(١) ، فَقِيلَ : إِنَّهُ فِي مَنْزِلِهِ لَا يَقْدِرُ
عَلَى الْخُرُوجِ ، قَالَ : وَ لِمَ ؟ قِيلَ : مِنْ أَجْلِ مَا صَنَعَ أَبُو الْعَنْبَسِ ؛ لِأَنَّهُ
كَانَ أُمَّتْحِنَ بَعِشْرَتِهِ وَمُنَادِمَتِهِ ، فَضَحِكَ حَتَّى كَادَ يَبُولُ فِي

= وكان القاسم بن عبيد الله من ذهاة العالم، ومن أفضل الوزراء، وكان شهما،
فاضلا، لبيبا، محصلا، كريما، مهيبا، جبارا، وكان يظن في دينه، وهو الذي
قتل ابن الرومي بالسهم (كما أسلفنا في ترجمته بالقامة العراقية ص ١٩٣) وكان ابن الرومي
منقطعا إليهم يمدحهم، وكانوا يُقَصِّرون في حقه في بعض الأحيان، فهاجم -

وكان هجاء، لم يسلم من لسانه أحد - . . . وفي بني وهب يقول ابن المعتز :

لِإِلِّ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ صَنَائِعُ لَدَيْ ، وَمَعْرُوفٌ إِلَيَّ تَقَدَّمَا
مُهِمٌ ذَلَّلُوا لِي الدَّهْرَ بَعْدَ شِمَاسِهِ وَهُمْ غَسَلُوا مِنْ ثَوْبِ وَالِدِي الدِّمَاءَ

وفي هجائهم يقول بعض الشعراء :

إِذَا رَأَيْتَ بَنِي وَهْبٍ بِمَنْزَلَةٍ لَمْ تَدْرِ أَيُّهُمْ الْأُنثَى مِنَ الذَّكَرِ
فِيصُّ أَنْثَاهُمْ يَنْقَدُّ مِنْ قُبُلٍ وَقَمُصُّ ذَكَرَانِهِمْ تَنْقَدُّ مِنْ دُبُرِ

ولما مات المعتضد كان المكتفي بالرقعة؛ فقام القاسم بأخذ البيعة للمكتفي
القيام المرضي، وجهد في ذلك، ووجه إليه بالبردة والقضيب، فجاها المكتفي إلى
بغداد وأقره على الوزارة، ولقبه ألقابا عدة، وفي أيام المكتفي جل أمر القاسم،
وارتفع ذكره، وعظم شأنه، ونبه أمره، وعلا جده، فلما أدركته الوفاة أشار
على المكتفي بالعباس بن الحسن فاستوزره، وقال الصولي: من أغرب ما شاهدت
من تقلب الدنيا وتصاريف الأمور أني رأيت العباس بن الحسن في أول
الأربعماء - قبل أن يموت الوزير القاسم بن عبيد الله - حضر إلى داره وقبيل
يد ولده، ثم في آخر اليوم نفسه مات القاسم وخلع المكتفي على العباس بن الحسن
واستوزره فجاها ولد الوزير القاسم بن عبيد الله فقبل يده .

(١) افتقده : لم يجده .

سَرَ أَوِيلِهِ أَوْ بَالٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ أَصَابَ وَمَا أَخْطَأَ
خِيَابًا فِعْلًا ، ذَرُوهُ فَإِنَّهُ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِهِمْ ، ثُمَّ وَجَّهَ إِلَى خِلْعَةٍ سَنِيَّةٍ (١) ،
وَقَادَ فَرَسًا بِمَرْكَبٍ ، وَحَمَلَ إِلَى خَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، لاسْتِحْسَانِهِ فِعْلِي ،
وَمَكَثَتْ فِي مَنْزِلِي شَهْرَيْنِ أَنْفِقُ وَآكُلُ وَأَشْرَبُ ، ثُمَّ ظَهَرْتُ بَعْدَ
الْإِسْتِنَارِ ، فَصَالِحِي بَعْضُهُمْ لِعَالِمِهِ بِمَا صَنَعَ الْوَزِيرُ ، وَحَلَفَ بَعْضُهُمْ
بِالطَّلَاقِ الثَّلَاثِ وَبِعَيْتِي غَمَانِهِ وَجَوَارِيهِ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُنِي مِنْ رَأْسِهِ
أَبَدًا (٢) ، فَلَا وَاللَّهِ الْعَظِيمِ شَانُهُ ، الْعَلِيِّ بُرْهَانُهُ ، مَا أَكْتَرْتُ بِذَلِكَ ،
وَلَا بَالِيَتْ ، وَلَا حُكَّ أَضْلُ أُذُنِي ، وَلَا أُوجِعَ بَطْنِي ، وَلَا صَرَّيْ ، بَلْ
سَرَّيْ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَمْقُوبَ قَضَاهَا (٣) .

وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ هَذَا وَتَبَّهْتُ عَلَيْهِ لِيُؤْخَذَ الْحَذَرُ مِنْ أَبْنَاءِ الزَّمَنِ ،
وَتُرِكَ الثَّمَةُ بِالْإِخْوَانِ الْأَنْدَالِ السَّفَلِ ، وَبِفُلَانِ الْوَرَّاقِ التَّمَامِ الزَّرَافِ
الَّذِي يُنْكِرُ حَقَّ الْأَدْبَاءِ ، وَيَسْتَحِفُّ بِهِمْ ، وَيَسْتَعِيرُ كُتُبَهُمْ لَا يَرُدُّهَا
عَلَيْهِمْ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ .

(١) خِلْعَةٌ سَنِيَّةٌ : رَفِيْعَةُ الْقَدْرِ غَالِيَةُ الْقِيَمَةِ ، وَالْمَعْنَى : إِنَّهُ حِينَمَا عَلِمَ بِمَا فَعَلْتُ
مَعَهُمْ ، وَأَخْبَرُوهُ بِمَا حَمَلَنِي عَلَيْهِ وَدَقَّقَنِي إِلَيْهِ ، سَرَّهَ ذَلِكَ وَلَمْ يُغْضِبِهِ ، وَعَدَّرَنِي ،
وَزَادَ عَلَيَّ ذَلِكَ أَنَّهُ خَلَعَ عَلَيَّ وَكَافَأَنِي .

(٢) لَا يُكَلِّمُنِي مِنْ رَأْسِهِ : لَا يُوْجِّهُ الْخُطَابَ إِلَيَّ بِنَفْسِهِ طَوَّلَ الْأَبَدِ .

(٣) الْمَعْنَى : إِنِّي لَمْ أَتَأَثَّرْ ، وَلَمْ تَبْدَعْ عَلَيَّ عَلَامَةَ التَّأَلُّمِ ، وَلَا عَرَضَتْ لِي خَيَالَاتُ
الْحُزَنِ ، عَلَيَّ مَا فَتَقَدْتُ مِنْ عَشْرَتِهِمْ ، وَهَدَمْتُ مِنَ الْإِفْهِمِ وَمَوَدَّتِهِمْ ، بَلْ كَانَ الْأَمْرُ
بِعَكْسِ ذَلِكَ ؛ فَقَدْ سَرَّنِي انْقِطَاعُ صِلَتِهِمْ ، وَجَدَلْتُ بِاتِّهَامِ صُحْبَتِهِمْ ، وَكَذَلِكَ
صَحْبَةُ أُمَّثَالِ هَوْلَاءِ ، سَرِيْعَةُ الْانْقِطَاعِ ، وَشِبْكَةُ الضِّيَاعِ ، ثُمَّ لَاجِبٌ لَهَا وَلَا إِصْلَاحَ ،
كَالزُّجَاجَةِ كَسْرُهَا قَرِيبَ ، وَتَلْفَافُهَا سَرِيْعَ ، فَأَمَّا جَبْرُهَا فَبَعِيدَ ، وَأَمَّا إِصْلَاحُهَا
فَمِنْ الْمُسْتَحِيلِ .

إِنَّ الْقُلُوبَ إِذَا تَنَافَرَتْ وَوُدَّهَا مِثْلُ الزُّجَاجَةِ كَسْرُهَا لَا يُجْبَرُ

٤٣ - المَقَامَةُ الدِّينَارِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

اتَّفَقَ لِي نَذْرٌ نَذَرْتُهُ فِي دِينَارٍ أَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَى أَشْحَدِ رَجُلٍ يَبْغَدَادَ ،
وَسَأَلْتُ عَنْهُ ، فَدَلَّتْ عَلَى أَبِي الْفَتْحِ الْإِسْكَندَرِيِّ ، فَضَيْتُ إِلَيْهِ ،
لَأَتَصَدَّقَ [بِهِ] عَلَيْهِ ، فَوَجَدْتُهُ فِي رُفْقَةٍ ، قَدْ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ فِي حَلَقَةٍ ،
فَقُلْتُ : يَا ابْنَ سَاسَانَ ، أَتَيْكُمْ أُعْرَفُ بِسِلْعَتِهِ (١) ، وَأَشْحَدُ فِي صُنْعَتِهِ ،

(١) بنو ساسان : الشحاذون ، وأهل الاستجداء والمسألة ، ويزعمون أن
ساسان كان رجلاً فقيراً حاذقاً في الاستمطاء ، قال الغنجديهي : ساسان هو أستاذ
المكديين ومقدمهم ، وواضع طرائقهم ومعلمهم ، وقال أبو الفتح إسماعيل بن الفضل
ابن الإخشيد السراج المكدي في كتابه : حدثنا أبو بكر البطايرني المكدي ،
حدثنا محمد بن علي بن أحمد الفقيه المكدي ، حدثنا مليك بن صالح المكدي ،
قال : سمعت طرارة المكدي ، قال : قال ساسان : ألا أدلك على شجرة الخلاله
وملك لا يبلى ؟ قلت : بلى ، قال : هي الكديّة اه ، فأنت ترام يؤيدون مزاعمهم
بروايات وأسانيد ، حتى ليخيل إليك صدق ما ذهبوا إليه وزعموه ، ولكن الذي
يتراءى لنا هو أن هذا اللقب أعطى للمكدين والشحاذين بعد سقوط الدولة
الساسانية بالفرس على أيدي المسلمين وتميز يقمهم وتشيت شلمهم ، هُزُوا بهم ،
وسُخِّرِيه عليهم ؛ لأن المغلوب محتقر مهين ذليل في نظر الغالب دائماً ، وقال بعض
الرواة ما نصه : ومن بقايا آل ساسان من الفرس نشأت هذه الطائفة الخسيسه
أهل الكديه ، فكانوا يطوفون على البلدان ، ويقولون : نحن من بنى ساسان ،
فينتسبون إلى ملوكهم ، ثم يتدللون في السؤال ، ويذكرون تلاعب الدهر بهم ،
واقبال حال المملسكه إلى السؤال ، فيقع الإشفاق عليهم ، والميل بالرزق لهم ، =

فَأُعْطِيَهُ هَذَا الدِّينَارَ؟ فَقَالَ الإسْكَندَرِيُّ: أَنَا^(١)، وَقَالَ آخَرُ مِنَ الْجَمَاعَةِ: لا، بَلْ أَنَا. ثُمَّ تَنَاقَشَا وَتَهَارَشَا^(٢) حَتَّى قُلْتُ: لَيْشِمُ كُلُّ مِّنْكُمْ صَاحِبُهُ، فَمَنْ غَلَبَ سَلَبَ، وَمَنْ عَزَّ بَزَّ^(٣)، فَقَالَ الإسْكَندَرِيُّ: يَا بَرْدَ العَجُوزِ^(٤).

= حتى شعر الناس بمكرهم وخديعتهم فطردوا، وصار الناس إذا رأوا متمسكنا قالوا: ساساني... والسَّلَمَةُ: ما يُتَجَرُّ به من المتاع، وليس للشحاذ متاع يُتَجَرُّ فيه ويُفِيدُ من ربحه، اللهم إلا تزوير الكلام وتزييف الألفاظ الخلابَّة، في استدرار الألف واسترحام القلوب، ونحو هذا، وتلك هي سلفتهم التي يسألهم عن أغرَفهم بها وأطولهم باعا فيها.

(١) المعنى: إنهما اختلفا في الأعرَفِ منهما، وادَّعى كلُّ واحد أنه أقدرُ من صاحبه، وأفضَلُ في هذه الصناعة.

(٢) تَنَاقَشَا وَتَهَارَشَا: تخاصما وتَوَاتَبَا، وقام كل واحد منهما يُبْطِلُ دعوى الثاني، ويعززه عليها، ويثبتُ أَحَقِّيَّتَهُ عنه.

(٣) غَلَبَ: ظَهَرَ على صاحبه وقهره وأبطل دعواه، وسَلَبَ: أخذ الدينار دون أن يكون لصاحبه فيه حظ.

(٤) برد العجوز: أيام سَبْعَةِ في آخر الشتاء، أربعة من آخر شهر شباط الرومي، وثلاثة من أول آذار، وهي تسمى هكذا مرتبة: (صِنّ - بوزن جِخْل، وصِنْبِر - بوزن جِرْدَخَل - ووَبِر - بوزن تمر - والآير، والمؤتمر، والمعلم، ومُطْفِيء الجمر، أو مكفيء الظعن) وهذه أشدُّ الأيام برداً؛ لأنها تجمد حين يكون الناس على استعداد للملاقاة نسيم الربيع العليل، ويقول الحُطَيْمَةُ - قبحة الله - يهجو أمه:

لَحَاكَ اللهُ ثُمَّ لَحَاكَ حَقًّا وَتَلَّكَ المَقُوقَ مِنَ البَيْنِينَا
أَغْرُبَالًا إِذَا أُسْتُودِعَتْ سِرًّا وَكَانُونَا لَدَى المْتَحَدِّ بِنَا؟

يَا كُرْبَةَ تَمْوُزَ^(١) ، يَا وَسَخَ الْكُوزِ^(٢) ، يَا دِرْهَمًا لَا يَجُوزُ^(٣) ، يَا حَدِيثَ
الْمُعَنِّينِ^(٤) ، يَا سَنَةَ الْبُوسِ ، يَا كَوْ كَبَ النُّحُوسِ^(٥) ، يَا وَطْأَ الْكَابُوسِ^(٦) ،
يَا نُحْمَةَ الرَّؤُسِ^(٧) ، يَا أُمَّ حَبِيبِينَ^(٨) .

(١) الكُرْبَةُ : الشدة والضيق ، وتموز : أحد الشهور الرومية ، يحيى حين
يشند القيظ ، ويتعرض الناس فيه للهلاك .

(٢) وسخ الكوز : صدأه ، أو ما يبقى فيه من قَدَرِ الماء ووساخته ،
وذلك مما تنقزز منه النفس وتشمئز .

(٣) لا يجوز : أى لا يتعامل الناسُ به لرداءته وغشّه ، فإذا دَقَّه مالكة
ثمنا لشيء رَدَّه البائع عليه فينعكس أمله ويحيب رجاؤه ويجد ما لم يكن ينتظره
من الخسارة .

(٤) حديث المُعَنِّينِ : كلامهم أثناء الفناء ، ومن عادة الذى يسمعهم أن
يودَّ ألا ينقطع غناؤهم وأن يستمروا فيه ، فهو يجد من حديثهم ضيقا في نفسه وألما ،
ويحس بانقباض صدره لسكوتهم عن الفناء .

(٥) البوس : البؤس ، والشدة ، والجذب ، والفحط ، والقلاء ، والناس
يلقونَ في الأيام المُجْدِبَةِ شراً وألماً عظيماً ، وكوكب النحوس : النجم الذى
يظهر فنظير معه علائم النحس وسوء الطالع مثل زُحَل في الكواكب .

(٦) الكابوس : الذى يقعُ على الإنسان حال نومه بالليل ؛ فلا يطيق معه
حركة ، ولا يستطيع أن يجد لنفسه خلاصاً .

(٧) إذا أكل الإنسان طعاماً فاسداً أو كثيراً أو على طعام تعبت معدته
ويوجد آثار ذلك في رأسه ، فيحس بدُّوَارٍ وتعَبٍ شديدين ، وهذا هو المراد
بتخمة الرءوس .

(٨) أم حَبِيبِينَ : هى دويبة أكبر من الوزغة ، وقيل : هى دويبة قلساء =

يَا رَمَدَ الْعَيْنِ^(١) ، يَا غَدَاةَ الْبَيْنِ^(٢) ، يَا فِرَاقَ الْمُحِبِّينِ^(٣) ، يَا سَاعَةَ
الْحَيْنِ^(٤) .

= تشبه سَامَ أَبْرَصٍ ، وتسمى شحمة الأرض ، أو شحمة الرمل ، وهي على كل
حال كريهة المنظر بشعة .

(١) رَمَدُ الْعَيْنِ : قَدَّاهَا الَّذِي يَسِيلُ مِنْهُ دَمْعُهَا .

(٢) غَدَاةُ الْبَيْنِ : السَّاعَةُ الَّتِي يَبْتَعِدُ الْمَحَبُّ فِيهَا عَنْ حَبِيبِهِ وَيُغَادِرُهُ ، وَهِيَ
أَشْأَمُ السَّاعَاتِ وَأَقْسَاهَا وَأَصْعَبُهَا ، قَالَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ :

كَأَنِّي غَدَاةَ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا لَدَى سَمَرَاتِ الْحَيِّ نَاقِفُ حَمْظَلِ

وَأَرَادَ بِنَاقِفِ حَمْظَلٍ أَنَّهُ مِنْهُمْ الدَّمْعُ ، وَفِي ذِمِّهَا يَقُولُ النَّابِغَةُ :

نَعَبَ الْغُدَّافُ بَانَ رَحَلْتَنَا غَدَاً وَبِذَلِكَ تَنْعَابُ الْغُدَّافِ الْأَسْوَدِ
لَا مَرْحَبًا بِنَدِي وَلَا أَهْلًا بِهِ إِنْ كَانَ تَفْرِيقُ الْأَحِبَّةِ فِي غَدِ

وَقَالَ صَاعِدُ :

قُلْتُ لَهُ وَالرَّقِيبُ يُمَجِّلُهُ مُسْتَعْجِلاً لِلْفِرَاقِ : أَيْنَ أَنَا ؟
فَمَدَّ كَفًّا إِلَى تَرَائِبِهِ وَقَالَ : بِيْرَ آمِنًا فَأَنْتَ هُنَا

وَلِبَعْضِهِمْ :

لَا كَانَ يَوْمُ الْفِرَاقِ يَوْمًا لَمْ يُبْقِ لِلْمُقَلَّتَيْنِ نَوْمًا
شَدَّتْ مِنِّي وَمِنْكَ شَمْلًا فَسَرَّ قَوْمًا وَسَاءَ قَوْمًا
يَا قَوْمُ مَنْ لِي بِفَقْدِ خَلِّ يَسُومُنِي فِي الْعَذَابِ سَوْمًا
مَا لَأَمْنِي النَّاسُ فِيهِ إِلَّا بَسَكَيْتُ كَيْمَا أَزَادَ لَوْمًا

(٣) فِرَاقُ الْمُحِبِّينِ : مَتْنَاهُمْ وَتَبَاعَدُ مَا بَيْنَهُمْ ، وَفِيمَا ذَكَرْنَاهُ فِي غَدَاةِ الْبَيْنِ

مَا يَكُونُ عَنِ الْإِفَاضَةِ فِي هَذَا .

(٤) الْحَيْنِ - بَفَتْحِ أَوَّلِهِ - الْهَلَاكُ ، وَالْمَوْتُ ، وَسَاعَتُهُ مِنْ أَشَدِّ السَّاعَاتِ

أَلْمَا لِأَهْلِ الْمَيِّتِ وَالْمَيِّتِ نَفْسُهُ بِمَخْرُوجِ رُوحِهِ .

يَا مَقْتَلَ الْحُسَيْنِ ^(١) ، يَا ثِقَلَ الدِّينِ ^(٢) ، يَا سِمَةَ الشَّيْنِ ^(٣) يَا بَرِيدَ
 الشُّومِ ^(٤) ، يَا طَرِيدَ اللُّومِ ^(٥) ، يَا تَرِيدَ الثُّومِ ^(٦) ، يَا بَادِيَةَ الزَّقُومِ ^(٧) .
 يَا مَنَّعَ المَاعُونَ ^(٨) ،

(١) الحسين : هو سبطُ رسول الله ورَبِّحَانَتُهُ أبو محمد الحسينُ بن علي بن
 أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه ، وقتل بكرًا بلاءً في مَمْرَكَة سالت فيها دماء
 أهل بيت النبوة ظلماً وعدواناً وَبَغْيًا ، فكان ذلك اليومُ من أشأم الأيام التي
 لقيها الإسلام في نَضَارَة شبابه ورَبْعَانِ عمره ومَيِّعَة حياته .

(٢) الدِّينُ هُمُّ بالليل ومدَّةُ بالنهار ، ووَطْأته أشد على النفس من وطأة الحمى
 والمرض الناجس ، وثقلُهُ مما لا يقبلُ لإنسان ذى مروءة وعقل على احتماله .

(٣) السِّمَة : العلامة ، والشَّيْنُ : العَيْبُ وما يستحي المرء من الانتساب إليه
 ولو كان لإنسان علامة كلما نظرها أحد عرف أنه متصف بها ، ويب والمقابح لكان
 خليقاً بأن يذوب خَجَلًا ويموتَ حياءً كلما توجه نحوه نظر إنسان ما .

(٤) البريد : الرسول ، والشُّومُ : الشُّومُ والنَّحْسُ ، والمعنى إنه لو كان قد
 تهباً لامرئ أن يحمل به نحسٌ أو ينزل عليه بلاءٌ لكان المخاطبُ رسولَ النحس
 ونذير البلاء الذي يخبره بوقوعه ويحدثه بنزوله عليه .

(٥) طريد اللوم : المطرود من مجامع الناس ومحافلهم للؤمه ودنائه وخسئته .

(٦) ترديد الثوم : أشد ما يكون رائحة كريهة .

(٧) البادية : الصحراء ، أو هي -خلاف الحاضرة ، والزقوم : شجر مرَّ كَرِيه

يخرج بأراضى تهامة ، والمعنى إن المخاطبَ - لما فيه من دناءة النفس ولؤم
 الخصال ومعييب السجايا - كأنه بادية كل ما فيها من شجر هو ذلك النوع الكريه
 للمقوت .

(٨) الماعون : كل ما يُسْتَعَار من قيْدَر وفأس وقدم ومكئسة ونحوها من =

يَا سِنَّةَ الطَّاعُونَ^(١) ، يَا بَغْيَ الْعَبِيدِ^(٢) ، يَا آيَةَ الْوَعِيدِ^(٣) ، يَا كَلَامَ
 الْمُعِيدِ^(٤) ، يَا أَقْبَحَ مِنْ حَتَّى ، فِي مَوَاضِعَ شَتَّى^(٥) ، يَا دُودَةَ الْكَنِيفِ ،
 يَا فَرَوَةَ فِي الْمَصِيفِ^(٦) ، يَا تَنْخُنْحَ الْمُضِيفِ إِذَا كَسِرَ الرَّغِيفُ ، يَا جُشَاءَ
 الْمَخْمُورِ^(٧) ،

= منافع البيت ، وقيل : هو الزكاة ، وفي التنزيل من صفات الذين يكذبون بيوم
 الدين : (الَّذِينَ هُمْ بُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

(١) الطاعون : داء يستأصل شأفة البلد التي يحملها ، ويُفقر الأرض من
 سكانها ، فهو مشؤوم بفيض إلى الناس .

(٢) يقول حاتم الطائي وقد لطمته جارية : « لَوَذَاتُ سِوَارٍ لَطَمْتَنِي » أى
 لو أن التي بفتت على حرّة لما تألمت نفسى ، والعبد إذا ملك أمراً فبني على الناس
 كان وقع ذلك أشدّ على نفوسهم من وقع الصواعق وهطال النبال .

(٣) الوعيد : الوعد بالشر والعقوبة والتبكييل ، وسماع ما يدل عليه مما
 يؤلم نفس السامع ويحزنها .

(٤) المُعيد : الذى يقول لك الحادثة أو الخبر مرة بعد الأخرى ، وكلامه
 على نفسك من أتمج الأحاديث وأقبحها ، اللهم إلا أن يكون المتكلم حبيبا
 إليك ، فقد حسن في عينك كلامه كالتى يقول فيها الشاعر :

مِنَ الْخَفِرَاتِ الْبَيْضِ وَدَجَلِيسُهَا إِذَا مَا انْقَضَتْ أَحْدُوثةٌ لَوْ تُعِيدُهَا
 (٥) قال الفراء أحد أساطين النحاة : « أموت وفي نفسى شيء من حتى »

وحتى هى حرف الجر ، وفيه مسائل من عويص النحو ومشكلاته .

(٦) المصيف : هو الصيف نفسه ، أو المكان الذى تقضى فيه مدة
 الصيف ، وأنت إنما تطلب إذ ذاك هواء لطيفا ونسيا بليلا وربما عليلا ، فما أسمع
 الفروة وأقبحها حينئذ .

(٧) الجُشَاءُ - بوزن غراب ، ومثله الجُشَاءُ بوزان هَمَزَةٌ ، وَجُشَاءُ كَمُتَدَةٌ =

يَا نَسْكَهَ الْعُقُورِ (١) ، يَا وَتِدَ الدُّورِ (٢) ، يَا خُذْرُوفَةَ القُدُورِ ، يَا أَرْبُعَاءَ
لَا تَدُورُ (٣) ، يَا طَمَعَ الْمُقْمُورِ (٤) ، يَا ضَجَرَ اللِّسَانِ (٥) .

= الاسم من «تَجَشَّاتِ المَعِدَّةُ تَجَشَّوْا وَتَجَشَّتْ» إذا تنفست ، والخمور: شارب
الخمر الأكثر منها المفرط في تعاطيها ، وَجُشَاوُهُ خبيث متنن كرهه .

(١) النكهة: راحة الفم ، وقد نكَّه له وعليه - بوزنى ضرب ومنع -
إذا تنفس على أنفه ، أو أخرج نَفْسَهُ إلى أنف آخر ، والصقور: جمع صَقْر ، وهو
ما يَصْطَادُ من البُرَاةِ والشواهين ، ولأنها لا تأكل إلا اللحم ولا يكون غالباً
إلا مُنْتَدِماً - فهي أنتن الحيوانات نكهة وأخبثها ربحاً .

(٢) الوتيدُ: ما يُدَقُّ في الحائط أو الأرض من الخشب ، وَيُضْرَبُ به المثلُ
في تحمل للضميم ، والرضا بالأذى ، والإقامة على الذلِّ ، قال الشاعر:

وَلَا يُقِيمُ عَلَى ضَمِيمٍ يُرَادُ بِهِ إِلَّا الأَذْلَانَ عَيْرُ الحَيِّ وَالْوَتِيدُ

(٣) الأربُعاء: اليوم المعروف ، وبارؤه مُثَلَّثَةٌ ، ومعنى عدم دورانها أنها
الأربعاء التي في آخر كل شهر إذ هي لا تعود ، ور بما كان المراد آخر أربعاء من
شهر صفر وحده ؛ إذ هي مشهورة عند العامة بِنَحْسِ طالعها وشؤمه ، فلا ينجح
فيها عمل البتة ، ولا يُفْلِحُ فيها تديبر ، ومعنى عدم دَوْرانها حينذاك أنها لا تحول
عما عُهِدَ فيها ، ولا تتغير عما عرفه الناس عنها .

(٤) القمور: الذي لزمته واستوات عليه الغلبة في القمار ، وطَمَعُهُ شائن قبيح
مرذول؛ لأنه لا يستند إلى علة معقولة ، ولأنه لا يزال يهوى به إلى الإفلاس والعُدْمِ
حتى يفقد آخر قرش معه .

(٥) ضجر اللسان: تعبهِ وعيِّه وانحباسه ، وهو إذا بلغ هذه الحالة لم يأمن
صاحبه العثرة والزلل ، فإذا عثر أوردته موارد التهلكة ، وأزداه ، وهوى به إلى
الهوان والحطة ، قال الشاعر:

يَمُوتُ الفَتَى مِنْ عَثْرَةٍ بِلِسَانِهِ وَلَيْسَ يَمُوتُ المَرءُ مِنْ عَثْرَةِ الرَّجْلِ

يَا بَوَّلَ الْخُصِيَّانِ^(١) ، يَا مُوَاكَلَةَ الْمُعْمِيَانِ^(٢) ، يَا شَفَاعَةَ الْعُرْيَانِ^(٣) .

(١) الْخُصِيَّانِ : المخبو بو الخصيتين، وبَوَّلُ أمتال هؤلاء ينتشر فيلوث البدن جدا، وهو مع هذا سريع متواصل، لا يقدر على حبسه، ولا يستطيعون الإبقاء عليه حتى يستعدوا لإزالته.

(٢) الْمُعْمِيَانِ حين أكلهم لا يبألون أى موضع نزلت يدم عليه، ولا يتخرجون من كثرة ما يعلو أيديهم من الطعام، ولم في تناوله شراحة، ولا يخلو من يلمس معهم من تقزز النفس واشتمزازها ونفرتها، ويروى «يَادْفَعُ الْعِيَانِ» والعِيَان - بكسر أوله - المشاهدة، وهي مما لا يمتور الشك فيها أحدا، ودفعها: أى إنكارها، وإنكارها من أشنع المنكرات وأفظعها.

(٣) المراد بالعيان الذى لا يجد ما يستتر به من الفقر والعوز وسوء الحال، ومثل هذا لا يعرض نفسه للشفاعة، وإذا تعرض كان ثقيلًا مُسْتَقْبَحًا، ثم لا يقبل أحد شفاعته ولا يعتمدها.

ومما نذكره بمناسبة شفاعاة العُرْيَانِ ما حَدَّثُوا به عن الفرزدق أن النَّوَارَ بنت أعين بن ضبيعة المُجَاشَعِي خَطَبَهَا رجل من قُرَيْش بعد مَقْتَل أبيها، فَبَعَثَتْ إلى الفرزدق تقول: أَنْتَ ابْنُ عَمِي، وَأَوْلَى النَّاسِ بِي (تريد أن بَقْبَلْ خِطْبَتَهَا، ويتولى عقد زواجها) فأجابها: إن بالشام من هو أقرب إليك مني، ولا آمن أن يقدّم منهم قادم فينكر ذلك، فإن كان ماتقولينه حقًا فأشهدي على نفسك أنك جعلت أمرك إلى، ففعلت، فخرج بالشهود من عندها إلى مجمع كبار قومها، فقال: إن نوار بنت أعين قد جمعت أمرها إلى، وإني أشهدكم أني قد تزوجتها على مهر مائة ناقة حمراء الوبر، سوّءاء الخلدق، فاشمّزت من ذلك، واستعمرت عليه غيظًا؛ فخرجت إلى ابن الزبير (والحجاز والمراق يومئذ بيده) وسار الفرزدق خلفها، فنزل على حمزة بن عبد الله بن الزبير، ونزلت النوار على خولة بنت منظور بن زبّان بن سيار الفزاري أم حمزة وامرأة =

يَا سَبْتَ الصَّبِيَّانِ (١) ، يَا كِتَابَ التَّعَاذِي (٢) ، يَا قَرَارَةَ الْمَخَاذِي (٣) .

= عبد الله ، فقال الفرزدق في حمزة :

أَصْبَحْتُ قَدْ نَزَلْتُ بِحَمْزَةٍ حَاجَتِي إِنَّ الْمُنْوَةَ بِاسْمِهِ الْمَوْثُوقُ
بِأَبِي عِمَارَةَ خَيْرٍ مَنْ وَطِيءَ الْحَصَى ذُخِرَتْ لَهُ فِي الصَّالِحِينَ عُرُوقُ
بَيْنَ الْخَوَارِيِّ الْأَعْرَى وَهَاشِمٍ ثُمَّ الْخَلِيفَةَ بَعْدُ وَالصَّدِيقُ
فَوَعَدَهُ الشَّفَاعَةَ إِلَى أَبِيهِ ، ثُمَّ أَعْلَمَ أُمَّهُ خَوْلَةَ بِذَلِكَ ، وَكَلَّفَهَا أَنْ تَعْطِفَ نَوَارَ
عَلَى الْفَرَزْدَقِ ، فَفَعَلَتْ ، وَرَقَّتْ قَلْبَهَا عَلَيْهِ ، ثُمَّ شَفَعَتْ بِهِ عِنْدَ بَنِيهَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
الزَّيْبِرِ ، فَتَجَبَّحَتْ شَفَاعَتُهَا ، فَأَمَرَ عَبْدُ اللَّهِ بِأَخْذِ النُّوَارِ وَالْأَبْتَرِ بِهَا حَتَّى يَصِيرَ إِلَى
الْبَصْرَةِ فَيَصْحَبُهَا مَرَّهَا عِنْدَ عَامِلِهِ عَلَيْهَا ، فَخَرَجَ الْفَرَزْدَقُ بِنَوَارٍ إِلَى الْبَصْرَةِ وَفِي
ذَلِكَ قَوْلُهُ :

أَمَّا بَنُوهُ فَلَمْ يُقْبَلْ شَفَاعَتُهُمْ وَشَفَعْتُ بِنْتُ مَنْظُورٍ بِنِ زَبَّانَا
لَيْسَ الشَّفِيعُ الَّذِي يَأْتِيكَ مُؤْتَرِّرًا مِثْلَ الشَّفِيعِ الَّذِي يَأْتِيكَ عُرْيَانَا
وليس معنى البيت مما نحن فيه ، ولا يتفق مع ما في القامة في شيء ، بل هو
على ضد قصة الفرزدق .

(١) يوم السبت يأتي دائماً بعد يوم عطلة وهو يوم الجمعة ، ولذلك يستنقله
الصبيان ؛ لأنهم يذهبون فيه إلى دور التعليم .

(٢) ما أشنع ذلك الكتاب الذي يحيثك حاملاً خبر فقد عزيز لديك ،
وما أثقل ظله ، وما أكثر ما يجلبه عليك من ألم النفس والحزن العميق ، وربما
كان المراد بكتاب التعزية الكتاب الذي تُسَطَّرُهُ لأحد آلافك تسلياً لخطأه
من غير أن يكون لك شعور بالحزن والألم ، وكم تجمد في هذا من ثقل الوطأة
وعسر التأديبة ، وصعوبة التكلف ، وشدة العناء .

(٣) القَرَارَةُ : القاعُ المستدير الذي يجتمع فيه المطر والسيل ونحوهما ، والتَّخَاذِي =

يَا بُحْلَ الْأَهْوَازِي (١) ، يَا فُضُولَ الرَّازِي (٢) ، وَاللَّهِ تَوَّ وَصَّغْتَ إِحْدَى
رُجْلَيْكَ عَلَى أَرْوَنْدَ (٣) ، وَالْأُخْرَى عَلَى دُنْبَاوَنْدَ (٤) ، وَأَخَذْتَ بِيَدِكَ
قَوْسَ قَرْحَ (٥) .

= جمع واحده مُخْرَازَة ، وهي الأمر الذي إذا فعلته جَلَبَ عليك الخزي والعار والهوان
من النقائص العملية والنفسية ، والمعنى : إن المخاطب قد اجتمعت النقائص فيه ،
وأثقت المعاييب عصاها لديه ، وأزست الشرور سفينها عنده ، فهو حافل بكل
ما يشين ، جامع لكل ذي مَقْتٍ ودناءة .

(١) الأهوازي : نسبة إلى الأهواز ، وقد تقدّم أنها بلاد واقعة بين البصرة
وفارس ، وهي تسع كور لكل كورة منها اسم ، والأهواز يجمعهم ، ولأهلها
شهرة بالبخل الشديد والإمساك القبيح .

(٢) الرازي : المنسوب إلى الري - وهي إحدى مدن الديلم - والنضول :
المراد به الزيادة من الكلام الذي لاخير فيه ، ولأهل الري شهرة بالثرثرة ،
وكثرة القول بلا جدوى .

(٣) أروند : جبل تزيّة أخضر ناضر مُطَلَّ على همدان ، ومعدود من
محاسنها ، ولشعرائها ولع بدّ كره والإشادة به ، ومنهم ذلك الذي يقول :
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَرَى الْعَيْنُ مَرَّةً ذَرَى قُلْتِي أَرْوَنْدَ مِنْ هَمْدَانَ
بِلَادٍ بِهَا نَيْطَتْ عَلَيَّ تَمَائِي وَأُضِغْتُ مِنْ عِقَانِهَا بِلَبَانَ
(٤) دُنْبَاوَنْدَ : جبل شهير بناحية الري ، قال عنه القزويني : يناطح
النجوم ارتفاعا ، ويحكىها امتناعا ، لا يعلوه النيم في ارتفاعه ، ولا الطير في
تحليقه ، وكان فيه بركان يقذف النار ، ومنابع كثيرة للمياه الكبريتية .

(٥) قوس قرح : هو ذو الألوان الذي يظهر في السحاب غيب المطر ، وفي
وصفه يقول بعض الملوك ، وهو سيف الدولة الحمداني بمدوح أبي الطيب المتنبي :
وَسَاقٍ صَبِيحٍ لِلصَّبُوحِ دَعْوَتُهُ فَقَامَ وَفِي أَجْفَانِهِ سِنَّةُ الفُغْمُضِ =

وَنَدَفَتِ النِّعَمَ فِي حِجَابِ الْمَلَائِكَةِ (١) ، مَا كُنْتَ إِلَّا حَلَاجًا (٢) .
وَقَالَ الْآخَرُ : يَا قَرَادَ الْقُرُودِ (٣) ، يَا لَبُودَ الْيَهُودِ (٤) ،

= يَطُوفُ بِكَاسَاتِ الْعُقَارِ كَأَجْمٍ
وَقَدْ نَشَرَتْ أَيْدِي الْجَنَابِ مَطَارِفًا
يُطَرِّزُهَا فَوْقَ السَّحَابِ بِأَضْفَرٍ
كَأَذْيَالِ خَوْدِ أُقْبَلَتْ فِي غَلَائِلِ
فَمِنْ بَيْنِ مُنْقَضِ عَلَيْنَا وَمُنْقَضِ
عَلَى الْجَوْدِ كُنَّا وَالْحَوَاشِي عَلَى الْأَرْضِ
عَلَى أَحْمَرٍ فِي أَخْضَرٍ تَحْتَ مُبْيَضِ
مُصْبَغَةٍ وَالْبَعْضُ أَقْصَرُ مِنْ بَعْضِ
قيل : وهو من التشبيهات الملوكية التي لا يكاد يحضر مثلها للسوقة .

(١) نَدَفَ الْقَطْنَ يَنْدِفُهُ - من باب ضرب - أى ضربه بالمندف
(والمندفة كذلك) وهى خشبته التى يطرق بها الوتر ليرق القطن ، والقطن
مندوف ونديف ، وفى حجاب الملائكة : يعنى جعلت فراشك التى تضع عليها
القطن أو تلتقيه بها حجاب الملائكة (جمع جبة وهى معروفة) .

(٢) المعنى : إنك مهما بلغت فى التعظيم والتعالى ، ومهما فعلت فى سبيل
ذلك ، ومهما بدأت من قوة ، واستنفدت من عظمة وكبرياء ، حتى لو جعلت
إحدى رجلك على جبل دُنْبَاوَنْدَ وجعلت الثانية على جبل أَرْوَنْدَ مع ما بينهما من
بعد المسافة وطويل الشقة ، ولو خُرِقَتْ لك العادات ، وجاز من أجلك ما لم يكن
يجوز ، فأمكنك أن تتخذ السحاب نديفاً ، وأن تلتقيه بحجاب الملائكة -
لو حصل لك كل هذا وتمكنت من جميعه لما دعاك الناس إلا حَلَاجًا ، ولما جهلوا
أمرك ، ولا خفيت عليهم حقيقتك ، ولا كنت إلا ذاك ، ولا سترت أياك .

(٣) الْقُرُودُ ، ومثلها الْقَرْدَةُ - بفتح القاف وكسر الراء ، أو بالعكس -
وَأَقْرَادٌ وَقِرَادٌ : جمع قِرْدٍ ، وهو حَيَوَانٌ معروف ، والقَرَادُ : سائسه ، وهى صناعة
من أخط الصناعات وأرذلها ، وحرفة دينئة خسيصة .

(٤) اللَّبُودُ - بفتح أوله - ومثله الْقُرَادُ - بوزن عُرَابٍ - : دُوبِيَّةٌ
تنشأ من الوساخة تشبه القمل ، ومنه قيل : بعير قِرْدٍ - بوزن كتف - إذا كان =

يَانَكْهَةَ الْأُسُودِ^(١) ، يَاعَدَمَا فِي وُجُودٍ ، يَأَكْلِبَا فِي الْهَرَّاشِ^(٢) ، يَأَقْرَدَا
فِي الْفِرَّاشِ^(٣) ، يَأَقْرَعِيَّةَ بَمَاشِ^(٤) ، يَأَأَقْلَّ مِنْ لَاشِ^(٥) ، يَأَدُخَانَ النَّفْطِ^(٦) ،
يَأَصْنَانَ الْإِبْطِ^(٧) ، يَأَزْوَالَ الْمَلِكِ^(٨) ، يَأَهْلَالَ الْهَلِكِ^(٩) ،

= فيه ذلك ، ولليهود شهرة بالسآخة والنتن ، ومنهما يتولد القراد .

(١) مضى أن النكهة : ريحُ الفم ، ولكون الأسود لا تتغذى بغير اللحوم
تجدها أردأ الحيوانات نكهة ، وأنتنهما رائحة .

(٢) الهِرَّاش : تمرُّشُ الكلاب بعضها ببعض ، وموائبها .

(٣) إذا حلَّ قرد بالفراش لم يسكن من الحركة ، ولم يترك الفساد والتمزيق
لكل ما يقع إليه ، وفي ذلك من إقلاق الراحة وضياح السكينة ما فيه .

(٤) القرعية : طعام يتخذ من القرع ، والمماش : حب أشبه بحب الباقلاء
ومذاقه قريب من العدس ، وإذا طبخ هذا بذاك فما أكرهه .

(٥) لاش : أى لا شيء ، وإذا كان أقلَّ من لا شيء فماذا يكون !!؟

(٦) النَّفْطُ - بالكسر ، وربما فتح - دُهْن معدني على نوعين منه أبيض
ومنه أسود ، وهو خبيث الرائحة ، كربه الدخان ، مضر مؤذٍ .

(٧) صُنَّان الْإِبْطِ - بضم الصاد - ومثله الصننة - بكسر أوله - ذفره ،
ورائحة عرقه ، وهو ردى خبيث الرائحة .

(٨) لا أصعب على النفس ، ولا أفنك بها من ضياع الملك ، وفقدان
العزة ، وذهاب العظمة ، إن نفوس الحريصين عليها لتجد في ذلك ضيقاً وألماً ،
فهو يرمى مخاطبه بأنه أمرٌ على النفس من زوال الملك ، وأشأم من فوات
الجبروت والمجد .

(٩) الْهَلِكُ - بوزن قفل - هو الهلاك ، والموت ، والخبث ، والمعنى : لأن

مطلعه مشثوم ومرآه ينفذ بالنحس ؛ فهو تنقوت مكروه كقطع الموت .

يَا أَخْبَثَ مِمَّنْ بَاءَ بَذَلِّ الطَّلَاقِ ، وَمَنْعَ الصَّدَاقِ ^(١) ، يَا وَحَلَ الطَّرِيقِ ^(٢) ،
 يَا مَاءَ عَلَى الرَّيْقِ ^(٣) ، يَا مَحْرَكَ العَظْمِ ^(٤) ، يَا مَسْجَلَ الهَضْمِ ^(٥) ، يَا قَلْحَ
 الأَسْنَانِ ^(٦) ، يَا وَسَخَ الآذَانِ ^(٧) ، يَا أَجْرَ مِنَ القَلْسِ ^(٨) ، يَا أَقْلَ مِنْ

(١) بَاءَ فُلَانٍ بِكَذَا : أَى اعْتَرَفَ بِهِ ، أَوْ حَقَّ عَلَيْهِ وَاسْتَوْجِبَهُ ، وَالطَّلَاقُ :
 انْقِضَاءُ مَا بَيْنَ الرَّجُلِ وَالرَّأَةِ مِنْ اتِّصَالِ الحَبْلِ وَتَمَاسُكِ عُرَى الوَاقِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ
 ذَلِكَ لِمَدَمِ رِضَائِهِ عَنِ مَعَاشَرَتِهَا وَغَضَبِهِ عَلَيْهَا ، وَفِي ذَلِكَ مِنْ سُوءِ سَمْعَتِهَا وَتَحْقِيرِهَا
 مَا فِيهِ ؛ فَالطَّلَاقُ عَلَى ذَلِكَ ذَلٌّ وَإِهَانَةٌ ، وَإِنَّمَا لَتَنَقَلِبُ إِلَى أَهْلِهَا خَجَلَةٌ مَحْزُونَةٌ ،
 لِأَسِيَا إِذَا كَانَ الزَّوْجُ قَدْ حَرَمَهَا مَا تَأَجَّلَ فِي ذِمَّتِهِ مِنْ صَدَاقِهَا .

(٢) كَمْ فِي أَوْحَالِ الطَّرِيقِ مِنْ أَذَى المَارَةِ بِتَطْلِيخِ ثِيَابِهِمْ وَتَعَطِيلِ شَأْنِهِمْ ؟
 (٣) يَقُولُ عُلَمَاءُ الطَّبِّ الحَدِيثُ : إِنْ المَاءُ وَخَاصَّةً البَارِدُ عَلَى الرَّيْقِ نَافِعٌ
 مُفِيدٌ مَجْدِّدٌ لِلنَّشَاطِ ، فَعَمَلُ الطَّبِّ القَدِيمِ كَانَ عَلَى ضِدِّ هَذَا ، أَوْ لَعَلَّ المَعْنَى إِنَّهُ يَشْبَهُ
 المَاءَ فِي هَذِهِ الحَالِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَشْرَبُهُ كَذَلِكَ إِلَّا مَنْ لَا يَجِدُ طَعَامًا يَبْدَأُ بِهِ غَالِبًا .
 (٤) إِذَا اشْتَدَّ بِالرَّءِ عَرَضُ الحُمَّى اقشَعَرَّ بَدَنُهُ وَاضْطَرَبَتْ أَعْضَاؤُهُ ، فَلَعَلَّهُ
 أَرَادَ مِنْ مَحْرَكِ العَظْمِ صِلَابَةَ الحُمَّى وَشِدَّتِهَا .

(٥) مَعْجَلُ الهَضْمِ : المَسْهَلُ ، وَالإِنْسَانُ يَنَالُهُ مِنْ تَعَاطَى المَسْهَلَاتِ
 اسْتِرْخَاءً فِي أَعْصَابِهِ ، وَفَتُورًا فِي قُوَاهِ ، وَتَخَاذُلًا فِي هِمَّتِهِ .
 (٦) قَلْحُ الأَسْنَانِ : وَسَخُهَا ، وَدَرْنُهَا ، وَمَا يعلُوهَا مِنْ صُفْرَةٍ أَوْ اخْضِرَارٍ ،
 وَذَلِكَ مِنْ سُوءِ الطَّعَامِ أَوْ سُوءِ الهَضْمِ .

(٧) وَسَخُ الآذَانِ رَبْمَا أَدَّى إِلَى إِضْعَافِ السَّمْعِ .

(٨) القَلْسُ - بفتح أوله - حبل يتخذ من ليف أو نحوه لتربط به السفن
 أو تجرُّ منه ، فهو دائماً على الأرض لكثرة ما يجذب به ، والمعنى : إنه بلغ من
 مِنَ الحِطَّةِ وَالهُوَانِ دَرَجَةً فَوْقَ دَرَجَةِ الحَبْلِ الذِي لَا يَزَالُ مَطْرُوحًا ، وَلَا يَفْعًا
 مُسْتَعْمَلًا لِلجَذْبِ مِنْهُ .

فلس^(١) ، يا أفصح من عبّرة^(٢) ، يا أنبى من إبرة^(٣) ، يا مهّب الخف^(٤) ،
يا مدرجة الأكف^(٥) ، يا كلمة ليت^(٦) .

(١) الفلّسُ : معروف ، وهو أقل ما يتعامل الناسُ به قيمةً ، والمعنى : إن قيمته وضيعة جداً .

(٢) العبّرة - بفتح أوله - دَمْعَة العين ، ولا يزال الحبُّ مستوراً لا يخاف الأمر حتى يبكي ، فإذا فعل افتضح أمره ، وظهر للناس سره .

لَا جَزَى اللَّهُ دَمْعَ عَيْنِي خَيْرًا وَجَزَى اللَّهُ كُلَّ خَيْرٍ لِسَانِي
كُنْتُ مِثْلَ الْكِتَابِ أَخْفَاهُ طَيُّ فَاسْتَدْتُوْا عَلَيْهِ بِالْمُنَوَانِ

(٣) الإبرة تتخذ للوخز ؛ فن كان يخز الناس مثلها فهو ظالم باغ عات .

(٤) يقال : فلان في مهّب الريح ، أى فى الناحية التى تجمىء الريح منها ،

فمعنى أنه فى مهب الخف أن الخف لطول مُلازمة قفاه للصّنع والأذى إذا طُلب لا يوجد إلا عنده ، ويقال أيضاً : هبّ فلان من نومه ، إذا انبعث نشطاً ، والمعنى حينئذ إن قفاه هو المكان الذى يهبّ له الخف وينشط إليه لطول ما تردّد عليه وعرفه ، ويقال : هبّت الريحُ ، إذا انطلقت ، والمعنى عليه إن ريجه تشبه ريح الخف تنناً وكراهة .

(٥) يقال : درج الصبيُّ ، إذا ابتدأ يمشى ، والمدرجة : مكان الدروج ، ومعنى كونه مدرجة الأكف : أنه مكان سيرها ، كناية عن إهائته وتحقيره لكثرة ما يضر به الناسُ ويؤذونه .

(٦) ليت : حُرْفٌ وُضِعَ للتمنى ، وهو : طلب المستحيل أو ما فيه عسر ،

وهى - ومثلها لَوُ - لا تقال إلا عند الحسرة على فائت والطمع فى رجوعه ، أو عند اليأس من إدراك المأمول ، أو نحو ذلك ، وانظر إلى قول الشاعر :

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ

وانظر إلى قول الآخر :

لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَمَا قَدْ بَدَأِي فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ أَرْعَى الوُعُولَا =

يَا وَكَفَ الْبَيْتِ^(١) ، يَا كَيْتَ وَكَيْتَ ، وَاللَّهِ لَوْ وَصَفْتَ اسْتَكْتَكَ عَلَى الشُّجُومِ ،
وَدَلَيْتَ رَجُلَكَ فِي الشُّجُومِ^(٢) ، وَأَتَّخَذْتَ الشُّعْرَى خُفًا ، وَالثَّرِيَا رَفًا^(٣) ،
وَجَعَلْتَ السَّمَاءَ مَنَوَالًا^(٤) ، وَحَكَمْتَ الْهَوَاءَ سِيرًا بِاللَّيَالِ^(٥) ، فَسَدَّيْتَهُ بِالنَّسْرِ
الطَّائِرِ^(٦) ، وَأَلْحَمْتَهُ بِالْفَلَكَ الدَّائِرِ^(٧) ، مَا كُنْتَ إِلَّا حَائِكًا .

قال عيسى بن هشام : قوالله ما علمتُ أيَّ الرجلين أوثرُ !! وما منهما
إلا بديع الكلام ، عجيب المقام ، ألدُّ الخِصام ، فتركتهما ، والدينارُ مُشاعِرُ
بينهما ، وانصرفتُ وما أدري ما صنعَ الدهرُ بهما^(٨) .

= وقول الآخر :

الأمُّ عَلَى لَوِّ ، وَلَوْ كُنْتُ عَالِمًا بِأَفْئَابِ لَوِّ لَمْ تَفْتِنِي أَوَائِلُهُ

وقول الآخر :

إِنَّ لَيْعًا وَإِنْ لَوًّا عَنَاءَ

(١) وَكَفَ الْبَيْتِ : تقاطر الماء من سقفه عند المطر ، ولمرك أي أذى

يلحق الإنسان حينئذ .

(٢) الشُّجُومِ - ومثله التُّخْمُ - بضمتين - : جمع تَخْمٌ - بوزن فُلْسٍ - وهو

كل قرية أو أرض .

(٣) الشُّعْرَى : كوكب ، والثريا : مجموعة كواكب متضامة ، والرف : الثوب .

(٤) المنوال : آلة النسيج والحياكة .

(٥) السربال : الثوب .

(٦) سُدَى الثوب - بضم أوله - ما امتد من خيوطه ، وسدَّاه بالتضعيف :

اتخذ سدَّاه .

(٧) لَحْمَةُ الثوب - بالضم ، وبالفتح - ما كان من خيوطه عرضًا .

(٨) المعنى : إنني لم أستطع التفضيل بينهما ، فتركت لها الدينار ، ولم أدري

ما كان منها بعد .

٤٤ - المقامة الشعرية*

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

كُنْتُ بِيَلَادِ الشَّامِ ، وَأَنْصَمُ إِلَى رُقَّةَ ، فَاجْتَمَعْنَا ذَاتَ يَوْمٍ فِي حَلَقَةٍ ، فَجَعَلْنَا نَتَذَكَّرُ الشُّعْرَ فَنُورِدُ أُبْيَاتَ مَعَانِيهِ ، وَنَتَحَاجِي بِمَعَانِيهِ (١) ، وَقَدْ وَقَفَ عَلَيْنَا فَتَى يَسْمَعُ وَكَأَنَّهُ يَفْهَمُ ، وَيَسْكُتُ وَكَأَنَّهُ يَنْدَمُ ، فَقُلْتُ : يَا فَتَى قَدْ آذَانَا وَقُوفُكَ ؛ فَإِنَّمَا أَنْ تَقْعُدَ ، وَإِنَّمَا أَنْ تَبْعُدَ ، فَقَالَ : لَا يُمَكِّنِي الْقُعُودُ ، وَلَكِنْ أَذْهَبُ فَأَعُودُ ، فَالزَّمُوا مَكَانَكُمْ هَذَا ، قُلْنَا : نَفْعَلُ وَكَرَامَةً ، ثُمَّ غَابَ بِشَخْصِيهِ ، وَمَا لَيْتَ أَنْ عَادَ لَوْ قَتَيْتَهُ ، وَقَالَ : أَيْنَ أَنْتُمْ مِنْ تِلْكَ الْأُبْيَاتِ ؟ وَمَا فَعَلْتُمْ بِالْمَعْنِيَاتِ ؟ سَلُونِي عَنْهَا ، فَمَا سَأَلْنَاهُ عَنْ بَيْتِ الْإِبْرَاهِيمِ ، وَلَا عَنْ مَعْنَى إِلَّا أَصَابَ ، وَلَمَّا تَفَضَّلْنَا السَّكَنَانِ (٢) ، وَأَفْنَيْدِنَا الْخَزَائِنَ ، عَطَفَ عَلَيْنَا سَائِلًا ، وَكَّرَّ مُبَاحِيثًا ، فَقَالَ : عَرَّفُونِي أَيُّ بَيْتِ شَطْرُهُ يَرْفَعُ وَشَطْرُهُ يَدْفَعُ (٣) ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ كَلُّهُ يَضْفَعُ ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ نِصْفُهُ يَغْضَبُ ، وَنِصْفُهُ

* نظرماد ذكره المؤلف من أمثال هذه الأحاجي في المقامة العراقية (ص ١٨٦

وما بعدها).

(١) تتذكروا ، يروى في مكانه « تتذكروا » ، وتحتاجي : يمتحن كلُّ منا

حجبا صاحبه ، أى عَقَلَهُ ، بَعْرَضِ بَيْتٍ مِنْ أُبْيَاتِ الشُّعْرِ عَلَيْهِ مِمَّا قَدْ خَفِيَ مَعْنَاهُ عَلَى

مَنْ لَا رُوبِيَّةَ لَهُ فِي رِوَايَتِهِ ، وَلَا نَفُودَ لِقْرِيحَتِهِ فِي فَهْمِ دِقَاتِهِ ، فَإِذَا أَصَابَ الْمَعْنَى

المراد دل على أنه من فرسانه والجللين في ميدانه .

(٢) السكنان : جمع كنانة ، وهى وعاء السهام ، ونفضوها : أفرغوها ،

يمثل بذلك تفادى ما عندهم من الأحاجي والمعانيات ، واتهامهم فى المذاكرة إلى حد

أن لم يبقَ عندهم شيء يتذاكرونه ، ومثل ذلك فى المراد قوله « أفنينا الخزان »

(٣) هذه الأوصاف التى يذكرها للأبيات ريجاجى بها إنما هى اعتبارات =

يَلْعَبُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ كُلُّهُ أَجْرَبُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ عَرُوضُهُ يُجَارِبُ، وَصَدْرُهُ يُقَارِبُ؟

= يَصَوِّرُهَا الذَّهْنُ مِنْ جَوَامِعِ الْبَيْتِ وَالْأَلْفَاظِ الَّتِي يَتَأَلَّفُ مِنْهَا، وَالْمَعَانِي الَّتِي شِيرَ إِلَيْهَا، وَتَرِدُ إِلَى الْحَيْلَةِ عِنْدَ سَمَاعِهِ، وَذَلِكَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ أَهْلِ الذَّوْقِ فِي الْقَرِيضِ، وَيُمْكِنُ لِقَارِيءِ دِيْوَانٍ وَاحِدٍ مِنْ شِعْرِ شَاعِرٍ أَنْ يَجِدَ جَمِيعَ مَا جَاءَ بِهِ، وَهَذَا لَا نَصْرَفِ الْوَقْتِ فِي الْإِتْيَانِ بِجَمِيعِ مَا عَمِيَ بِهِ، وَلَسْكَنَا نَذَكُرُكَ طَرَفًا تَقْبِسُ عَلَيْهِ أَمَثَالَهُ كَمَا جَاءَ الْمَصْنَفُ بِمِثْلِ ذَلِكَ.

مثلا البيت الذي نصفه يرفع ونصفه يدفع - بصيغة المبني للفاعل في الفعلين :
يدفع ويرفع - كقول بعضهم :

وَاللَّهُ عِنْدِي بَجَانِبٍ لَا أُضِيمُهُ وَ لِلَّهِ عِنْدِي وَالْخَلَاعَةَ بَجَانِبٍ .
فالنصف الأول يشير إلى التقوى التي ترفع صاحبها إلى منزلة الكرامة التي يختص بها ، والنصف الثاني يدفع صاحبه عن تلك المقامات الرفيعة ويحرمه منزلة أهل مقامات الرقي .

والبيت الذي نصفه يفضب ونصفه يلعب كقوله :

كَأَنَّ سَيْوْفَنَا مِنَّا وَمِنْهُمْ مَخَارِقٌ بِأَيْدِي لَّا عَيْنَا
والبيت الذي أوله يهتب وآخره ينهب كقول بعضهم :
قَرِينَاكُمْ فَعَجَّلْنَا قِرَاكُمْ قُبَيْلَ الشُّبُوحِ مِرْدَاةَ طَحُونَا
فإن الشطر الأول قرى وإحسان ، والشطر الثاني ردى وطحن أجساد
تتهب منها الأرواح وتسلب معها الأموال .

والبيت الذي لا يمكن نقضه كقوله :

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتًا دَعَايْمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

والبيت الذي إذا أفلتناه أضلناه كقوله :

أَلَا إِنِّي بَالٍ ، عَلَى جَمَلٍ بَالٍ يَقُودُ بِنَا بَالٍ ، وَيَتَّبِعُنَا بِأَلٍ =

وَأَيُّ بَيْتٍ كَلَّهُ عَقَارِبُ ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ سَمَّجَ وَضَعُهُ ، وَحَسَنَ قَطْعُهُ ؟ وَأَيُّ

= والبيت الذي قام ثم سقط ونام كقوله :

أَلَا أَيُّهَا النُّوَامُ وَيَحْكُمُ هُجُبُوا أَسْأَلِكُمْ هَلْ يَقْتُلُ الرَّجُلُ الحُبَّ

والبيت الذي إذا حرك غصنه ذهب حسنه كقوله :

لَكَ قَدْ لَوْلَا جَوَارِحُ عَيْنَيْكَ لَكَ لَفَنَتْ عَلَيْهِ وُزُقُ الحَمَامِ

فلو حركت القدَّ اطارت الجوارح بمنناها المشهور - وهى جوارح الطير -

والجوارح فى البيت عَيْنَاهُ ؛ فإذا طارت عينه ذهب حسنه البتة .

والبيت الذى أوله يطلب وآخره يهرب كقوله :

بِجَهْلِ كَجَهْلِ السَّيْفِ وَالسَّيْفُ مُنْتَضِي

وَحِلْمِ كَحِلْمِ السَّيْفِ وَالسَّيْفُ مُغْمَدُ

والبيت الذى كاد يذهب فعاد كقوله :

وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّعَامُ

والبيت الذى مدحه ذم كقوله :

فَإِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَا أَنَا

والبيت الذى ضاق ووسع الآفاق كقوله :

لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنَكِرٍ أَنْ يَجْمَعَ العَالَمَ فِي وَاحِدٍ

والبيت الذى أصلح حتى صلح كقوله :

لَا تَقُلْ بُشْرَى وَلَكِنْ بُشْرِيَانُ غُرَّةُ الدَّاعِي وَيَوْمُ المِهْرَجَانِ

فإنه أصلح وحول عن مطلعه الشؤم إلى قوله :

إِنْ تَقُلْ بُشْرَى فَعِنْدِي بُشْرِيَانُ غُرَّةُ الدَّاعِي وَيَوْمُ المِهْرَجَانِ

وطى هذا النمط يمكنك أن تحقق جميع الاعتبارات بذوقك ، ولكن من

هذه الاعتبارات ما لا يعد من الأبيات ؛ فلا حاجة بنا إلى الإطالة ، والله أعلم .

بَيْتٍ لَا يَرْقَا دَمْعُهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ يَأْبِقُ كُلَّهُ، إِلَّا رَجُلُهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ لَا يُعْرِفُ
 أَهْلَهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ هُوَ أَطْوَلُ مِنْ مِثْلِهِ، كَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ
 لَا يُمَكِّنُ نَفْسَهُ، وَلَا تُحْتَفَرُ أَرْضُهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ نِصْفُهُ كَامِلٌ، وَنِصْفُهُ
 سَرَائِلٌ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ لَا تُحْصَى عِدَّتُهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ يُرِيكَ مَا يُسْرِبُهُ؟ وَأَيُّ
 بَيْتٍ لَا يَسَعُهُ الْعَالَمُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ نِصْفُهُ يَضْحَكُ وَنِصْفُهُ يَأْلَمُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ
 إِنْ حُرِّكَ غَضِنُهُ، ذَهَبَ حُسْنُهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ إِنْ جَمَعْنَاهُ، ذَهَبَ مَعْنَاهُ؟ وَأَيُّ
 بَيْتٍ إِنْ أَفْلَتْنَاهُ، أَضَلَّانَاهُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ شَهِدَهُ سَمٌّ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ مَدَحُهُ
 دَمٌّ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ لَفْظُهُ حُلُوٌّ وَتَحْتَهُ غَمٌّ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ حَلَهُ عَقْدٌ، وَكُلَّهُ نَفْدٌ؟
 وَأَيُّ بَيْتٍ نِصْفُهُ مَدٌّ، وَنِصْفُهُ رَدٌّ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ نِصْفُهُ رَفْعٌ، وَرَفْعُهُ
 صَنْعٌ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ طَرَدَهُ مَدْحٌ؟ وَعَكْسُهُ قَدْحٌ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ هُوَ فِي طَوْفٍ
 صَلَاةِ الْخَوْفِ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ يَأْكُلُهُ الشَّاهُ، مَتَى شَاءَ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ إِذَا أَصَابَ
 الرَّاسَ، هَشِمَ الْأَضْرَاسَ، وَأَيُّ بَيْتٍ طَالَ، حَتَّى بَلَغَ سِتَّةَ أَرْطَالٍ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ
 قَامَ، ثُمَّ سَقَطَ وَنَامَ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ أَرَادَ أَنْ يَنْقُصَ فَزَادَ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ كَادَ
 يَذْهَبُ فَعَادَ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ حَرَبَ الْعِرَاقَ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ فَتَحَ الْبَصْرَةَ؟
 وَأَيُّ بَيْتٍ ذَابَ، تَحْتَ الْعَذَابِ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ شَابَ، قَبْلَ الشَّبَابِ؟
 وَأَيُّ بَيْتٍ عَادَ، قَبْلَ الْبِعَادِ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ حَلَّ، ثُمَّ اضْتَحَلَ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ
 أَمِرٌ، ثُمَّ اسْتَمَرَّ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ أَصْلَحَ، حَتَّى صَلَحَ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ أَسْبَقُ مِنْ سَهْمِ
 الطَّرْمَاحِ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ خَرَجَ مِنْ عَيْنِهِمْ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ ضَاقَ، وَوَسِعَ الْآفَاقَ؟
 وَأَيُّ بَيْتٍ رَجَعَ، فَهَاجَ الْوَجَعُ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ نِصْفُهُ ذَهَبٌ، وَبَاقِيهِ ذَنْبٌ؟
 وَأَيُّ بَيْتٍ بَمَضُهُ ظِلَامٌ، وَبَعْضُهُ مُدَامٌ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ جُعِلَ فَاعِلُهُ مَعْمُولًا،
 وَعَاقِلُهُ مَعْمُولًا؟ وَأَيُّ بَيْتٍ كُلُّهُ حُرْمَةٌ؟ وَأَيُّ بَيْتَيْنِ مَآ كَقَطَارِ الْإِبِلِ؟
 وَأَيُّ بَيْتٍ يَنْزِلُ مِنْ عَالٍ؟ وَأَيُّ بَيْتٍ طِيرَتْهُ فِي الْفَالِ؟ وَأَيُّ

بَيْتِ آخِرُهُ يَهْرُبُ ، وَأَوَّلُهُ يَطْلُبُ ؟ وَأَيُّ بَيْتِ أَوَّلُهُ يَهَبُ ، وَآخِرُهُ يَنْهَبُ ؟

قال عيسى بن هشام : فَسَمِعْنَا شَيْئًا لَمْ نَكُنْ سَمِعْنَاهُ ، وَسَأَلْنَاهُ التَّفْسِيرَ فَمِعْنَاهُ ، وَحَسِينَاهَا أَلْفَاظًا قَدْ جَوَدَتْحَتَهَا ، وَلَا مَعَانِي تَحْتَهَا ، فَقَالَ : اخْتَارُوا مِنْ هَذِهِ الْمَسَائِلِ خَمْسًا لِأَفْسَرَهَا ، وَأَجْتَهِدُوا فِي الْبَاقِي أَيَّامًا ، فَلَعَلَّ إِيَّاءَكُمْ يَرَشِحُ ، وَلَعَلَّ حَاطِرَكُمْ يَسْمَعُ ، ثُمَّ إِنْ عَجَزْتُمْ فَاسْتَأْنِفُوا التَّلَاقَ ، لِأَفْسَرِ الْبَاقِي ، وَكَانَ يَمَّا اخْتَرْنَا الْبَيْتَ الَّذِي سَمِعَ وَضَعَهُ وَحَسَنَ قَطْعَهُ ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْهُ فَقَالَ : هُوَ قَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ :

فَبِتْنَا يَرَانَا اللَّهُ شَرَّ عِصَابَةٍ تَجُرُّرُ أَذْيَالِ الْفُسُوقِ وَلَا فَخْرُ (١)
قُلْنَا : فَالْبَيْتُ الَّذِي حَلَّهُ عَقْدٌ ، وَكُلُّهُ نَقْدٌ (٢) ، فَقَالَ : قَوْلُ الْأَعْشى :

دَرَاهِمُنَا كُلُّهَا جَيِّدٌ فَلَا تَحْبِسُنَا بِتَنْقَادِهَا
وَحَلَّهُ أَنْ يُقَالَ * دَرَاهِمُنَا جَيِّدٌ كُلُّهَا * وَلَا يَخْرُجُ بِهَذَا الْحَلِّ عَنْ وَزْنِهِ
قُلْنَا : فَالْبَيْتُ الَّذِي نِصْفُهُ مَدٌّ ، وَنِصْفُهُ رَدٌّ ، قَالَ : قَوْلُ الْبَكْرِى :
أَتَاكَ دِينَارٌ صِدْقٍ يَنْقُصُ سِتِينَ فَلَسَا (٣)

(١) انظر ما سبق في ص ١٩٣ .

(٢) كله نقد : يريد كله دراهم وما يتعلق بنقدها ، والنقد : الذهب والفضة

المسكوكان ، سُمِّيَا بذلك لما يغلب فيهما من نقد الجيد من الرديء ، وانظر ص ١٩١

(٣) فإنه لما قال « دينار صدق » حصل في الذهن جميع ما احتوى عليه من

الفلوس وامتد إلى نهايتها وهي ستون ، فلما قال « ينقص ستين فلسا » رد الذي

مدّه أولاً ، وفي قوله « من أكرم الناس » مدّ فضله حتى تجاوز في الكرم ما وراء

كل كرم ، ولما نفي الكرم من أصله وفرعه ونفسه استرد جميع أفراد النوع حتى

لم يبق له شيئاً من الكرم .

مِنَ أَكْرَمِ النَّاسِ إِلَّا أَضَلَّ وَفَزَعًا وَنَفْسًا
 قُلْنَا: فَالْبَيْتُ الَّذِي يَا كُفْلَهُ الشَّاهِدُ، مَتَى شَاءَ، قَالَ: بَيْتُ الْغَائِلِ:
 فَمَا لِلنَّوَى؟ جُذَّ النَّوَى، قُطِعَ النَّوَى
 رَأَيْتُ النَّوَى فَطَاءَةً لِلْقَرَائِنِ^(١)
 قُلْنَا: فَالْبَيْتُ الَّذِي طَالَ، حَتَّى بَلَغَ سِتَّةَ أَرْطَالٍ، قَالَ: بَيْتُ
 ابْنِ الرَّوْمِيِّ^(٢):

إِذَا مَنْ لَمْ يَمُنْ بِمَنْ يَمُنُّ وَقَالَ لِنَفْسِي: أَيُّهَا النَّفْسُ أُمِّهِلِي
 قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَعَلِمْنَا أَنَّ الْمَسَائِلَ، لَيْسَتْ عَوَاطِلَ، وَاجْتَهَدْنَا،
 قَبِضْهَا وَجَدْنَا، وَبَعْضُهَا اسْتَفَدْنَا، فَقُلْتُ عَلَى أَثَرِهِ وَهُوَ عَادٍ:
 تَفَاوَتَ النَّاسُ فَضْلًا وَأَشْبَهَ الْبَعْضُ بَعْضًا
 لَوْلَاهُ كُنْتُ كَرَضَوِي طُولًا وَعُمُقًا وَعَرَصًا^(٣)

(١) النوى: البعد، ينكر الشاعر إلحاح البعد عليه بمفارقة أحببته، يقول:
 ما للنوى؟ وأي غرض لها في مُلازمتي؟ ثم يدعو عليها فيقول: جُذَّ النوى،
 أي قُطِعَ ومُحِق، وقوله «قطاعة للقرائن» إما أن يريد من القرائن الأرواح
 وقطاعتها هي المهلكة لها بشدة، وإما أن يريد منها الصلوات بين الأحبة التي
 لا تفرق بينهم بالميل والوداد، وهذا البيت بما فيه من تكرار ذكر النوى أحضر
 في الخيلة نوى التمر والبلح وهو ما تأكله الشاء.

(٢) تقدم هذا البيت في المقامة المراقية (ص ١٩٤) فليرجع إليه هناك.
 (٣) لولا هذا الفتى وما أظهره من البراعة وسعة الاطلاع وحسن الانتقاد
 لكان عيسى بن هشام يمدُّ نفسه في العظم المعنوي كجَبَلِ رَضَوِي في عظمه
 الحسى، وهو جبل في بلاد العرب مشهور يتمثل به في أشعارهم، قال المعري:

وَيَبْتَقِلُ رَضَوِي دُونَ مَا أَنَا حَامِلٌ

لِكَيْ تَجَلِّدْتُ^(١) فَوَقَفْتُ وَقُلْتُ : أَرْضَكَ لَا أُمَّ لَكَ^(٢) ، فَدُونِي مَشْرُطُ
 الْحِدَادِ^(٣) ، وَخَرَطُ الْقَتَادِ^(٤) ، وَحَمِيَّةُ أَرْذِيَّةَ^(٥) ، وَأَنَا سَلِمٌ إِنْ كُنْتُ^(٦) ،
 فَمَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ : سَلِمًا أَصَبْتَ ، وَرَفِيقًا كَمَا أُحْبِبْتَ^(٧) ، فَقُلْتُ : خَيْرًا
 أُجِبْتَ ، وَسِرْنَا فَلَمَّا تَخَالَيْنَا^(٨) ، وَحِينَ تَجَالَيْنَا^(٩) ، أَجَلَّتِ الْقِصَّةُ عَنِ
 أَبِي الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيِّ^(١٠) ، وَسَأَلَنِي عَنْ أَكْرَمِ مَنْ لَقِيْتُهُ مِنَ الْمُلُوكِ ،
 فَذَكَرْتُ مُلُوكَ الشَّامِ ، وَمَنْ بِهَا مِنَ الْكِرَامِ ، وَمُلُوكَ الْعِرَاقِ وَمَنْ بِهَا
 مِنَ الْأَشْرَافِ ، وَأَمْرَاءِ الْأَطْرَافِ ، وَسُقْتُ الذِّكْرَ ، إِلَى مُلُوكِ مِصْرَ ،

(١) تجللت : تصبرت ، وقويت نفسي ، وشددت عزمي .

(٢) أرضك لأم لك : أي قف مكانك والزم أرضك فكلت أمك .

(٣) شرط الحداد : جراح السيوف وإعمالها .

(٤) القتاد : شجر له شوك كأصلب ما يكون ، وخرطه : أن تجذب ورفه

بيدك لتقطعه ، وذلك من أشد ما يؤلم الإنسان ويتعبه ويغيبه ، والمعنى : إن
 السبيل إلى لا يتأني لك ، ولا تستطيع الوصول إليه ؛ لأنه محفوف بالخطار ،
 محوط بالأهوال والشدائد .

(٥) الحمية : الأنفة والعزة ، والأردية : المنسوبة إلى الأزدي قبائل من

العرب مشهورة ، والمعنى إن من أسباب عدم وصولك إلى أنفة عرفها الناس
 أجمعون عن الأزدي الذين أنتسب إليهم .

(٦) سلم : أي مسالم لك ، لا أعتدى عليك ، والمعنى إنك إن نهجت

معى طريق الموادة فساكون مثلك لا أعتدى عليك ، ولا أنتهك حرمتك .

(٧) المعنى : إنني عند ظنك ، وستحمدني إن اتخذتني رفيقك ومؤنسك .

(٨) تخالينا : خلا كل منا بأخيه ، وانفرد به .

(٩) تجالينا : أي كشف كل واحد سره ، وأفضى أمره ، وعرف الثاني بنفسه

(١٠) أجلت : أي انكشفت ووضحت ، والمعنى : إنني وجدت ذلك

الفارس أبا الفتح الإسكندري ، وتبينت ذلك بعد أن خلا كل واحد منا بالآخر .

٤٥ - المَقَامَةُ المُلُوكِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

كُنْتُ فِي مُنْصَرَفِي مِنَ اليمَنِ ، وَتَوَجَّهْتُ إِلَى نَحْوِ الوَطَنِ ، أُسْرِي ذَاتَ
لَيْلَةٍ لَا سَافِحَ بِهَا إِلَّا الضَّبُعُ ^(١) ، وَلَا بَارِحَ إِلَّا السَّبُعُ ، فَلَمَّا انْتَهَيْ نَصْلُ
الصَّبَاحِ ^(٢) ، وَبَرَزَ جَبِينُ المِصْبَاحِ ^(٣) ، عَنَّا لِي فِي البَرَّاحِ ^(٤) ، رَاكِبٌ
شَاكِي السَّلَاحِ ^(٥) ، فَأَخَذَنِي مِنْهُ مَا يَأْخُذُ الأَعْرَلُ ، مِنْ مِثْلِهِ إِذَا أُقْبِلَ ^(٦) ،

(١) السوايح من الطير والظباء وغيرها : التي تجيء من مياسرك فتوليك
ميامنها ، وأهل نجد يقيمون بها ، والبوارح : التي تجيء من ميامنك فتوليك
مياسرها ، وأهل نجد يتشاءمون بها ، وأهل الحجاز بعكسهم يتشاءمون بالسوايح ،
وهي عندهم في صفة البوارح عند أهل نجد ، وانظر ما ذكرناه في شرح المقامة الفزارية
ص ٧٨ ، وانظر بعد ذلك مروج الذهب للمسعودي ٢ / ١٦٥ و ٣ / ١٤٩ .

وقال أبو ذؤيب :

وَجَرَّتْ بِهَا طَيْرُ السَّنِيحِ ؛ فَإِنْ يَكُنْ هَوَاكَ الَّذِي تَهْوَى بُصْبِكَ اجْتِنَا بِهَا

وقال النابغة الذبياني :

زَعَمَ البُورِاحُ أَنَّ رِحْلَتَنَا غَدًا وَبِذَلِكَ تَنْعَابُ القُرَابِ الأَسْوَدِ

والمعنى إنه كان يسير وحيداً لا رفيق له غير الوحوش من السباع والضبعا

(٢) شَبَّةُ الصَّبَاحِ بسيف استلَّ من عِمْدِهِ وهو الليل .

(٣) المصباح : الشمس ، وجبينها : حاجبها الأعلى .

(٤) عَنَّا : ظَهَرَ ، والبَرَّاح : الواسع من الأرض

(٥) شاكي السلاح : حديده تأمه .

(٦) الأعرل : الذي لا سلاح له ، وهو يرتجف ويأخذه الرعب إذا لقي

من شكا سلاحه وحدَّده .

فَرَوَيْتُ مَارَأَيْتُ ، وَحَدَّثْتُهُ بِعَوَارِفِ مُلُوكِ الْيَمَنِ ^(١) ، وَلَطَائِفِ مُلُوكِ الْأَطَائِفِ ،
وَحَتَمْتُ الْجُمْلَةَ ، بِذِكْرِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، فَأَنْشَأُ يَقُولُ ^(٢) :

يَاسَارِيَا بِنَجُومِ اللَّيْلِ بِمَدْحِهَا

وَلَوْ رَأَى الشَّمْسَ لَمْ يَعْرِفْ لَهَا خَطَرًا ^(٣)

وَوَاصِفًا لِلسَّوَاقِي هَبَكَ لَمْ تَزُرْ إِلَّا بَحْرَ الْمُحِيطِ أَلَمْ تَعْرِفْ لَهُ خَبْرًا ^(٤)

مَنْ أَبْصَرَ الدَّرَّ لَمْ يَعْدِلْ بِهِ حَجْرًا وَمَنْ رَأَى خَلْقًا لَمْ يَذْكُرِ الْبَشْرًا ^(٥)

(١) العوارف : جمع عَارِفَة ، وهى الإحسان والمروءة والمعروف والنجدة

والشهادة .

(٢) سيف الدولة على بن حمدان : تقدمت ترجمته (انظر شرح المقامة

الحدانية فى ص ٢٠٤) .

(٣) السارى : الذاهب فى الأرض ليلا ، والخطر : القيمة والتدبر ، والمعنى :

إِنْ مَنْ مَشَى فِي الْأَرْضِ يَتَمَدَّحُ بِضَوْءِ النُّجُومِ وَأَلْأَلِهَا ، وَلَوْ بَزَغَ لَهُ قَرْنُ الشَّمْسِ
وَأَبْصَرَ شِعَاعَهَا وَنَظَرَ إِلَى ضَوْئِهَا لَصَفَرَتْ النُّجُومُ فِي عَيْنِهِ ، وَلَمْ تَعْدِلْهَا قِيَمَةً فِي نَظَرِهِ

وَأَيْنَ الثَّرِيَّاءُ ؟ وَأَيْنَ الثَّرَى ؟ وَأَيْنَ مُعَاوِيَةًَ مِنْ عَلِيٍّ ؟

(٤) السواقي : جمع ساقية ، ومن معانيها الصغيرة من القنوات ، وهى فوق

الجدول ودون النهر ، والمعنى : أيهذا الذى انطلق لسانك فى مدح السواقي ووصفها
أفرض أنك لم تسعد برؤية البحر المحيط ، فهل خفى عليك ذكره فاشتغلت

بالسواقي ونفتها ؟ .

(٥) خَلَفَ : هو خَلَفَ بن أحمد ، أحد الأمراء الذين مَدَحَهُمُ البديع ،

وَجَرَّتْ عَلَيْهِ مِنْحُهُمْ وَعَطَايَاهُمْ ، وَقَدْ أَسْلَفْنَا لَكَ شَيْئًا مِنْ كَلَامِهِ فِيهِ ، (انظر

ص ٢٩٥) ثم انظر المقامة الخلفية وشرحها . (ص ٢٩٨ وما بعدها) والمعنى :

إِنَّ الَّذِي يُسَمِّعُهُ الدَّهْرُ بِرُؤْيَةِ ذَلِكَ الْمَدْحِ يَنْسَى الْأَنْامَ جَمِيعَهُمْ ، بِفَضْلِ الَّذِي يَجِدُهُ

عِنْدَهُ مِنْ كَرِيمِ الطَّبَاعِ ، فَلَمْ يَعُدْ لِلنَّاسِ أَدْنَى قِيَمَةً عِنْدَهُ ، وَمَثَلُ ذَلِكَ مِثْلُ

الَّذِي يَجِدُ حَبَّةَ مِنَ اللُّزْؤِ فَإِنَّهُ يَنْفَى بِالنَّظَرِ إِلَيْهَا عَنْ جَمِيعِ الْأَحْجَارِ .

زُرُهُ تَرَزُّ مَلِكًا يُعْطَى بِأَرْبَعَةٍ (١) لَمْ يَجْوَها أَحَدٌ، وَأَنْظَرُ إِلَيْهِ تَرَى (١)
 أَيَّامَهُ غُرَرًا ، وَوَجْهَهُ قَمَرًا ، وَعَزَمَهُ قَدْرًا ، وَسَيْبَهُ مَطْرًا (٢)
 مَا زِلْتُ أَمْدَحُ أَقْوَامًا أَظَنَّهُمْ صَفْوَ الزَّمَانِ؛ فَكَا نُوا عِنْدَهُ كَدْرًا (٣)
 قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : قَعَلْتُ : مَنْ هَذَا الْمَلِكُ الرَّحِيمُ الْكَرِيمُ ؟ فَقَالَ :
 كَيْفَ يَكُونُ ، مَا لَمْ تَبَالِغْهُ الظَّنُّونُ (٤) ؟ وَكَيْفَ أَقُولُ ، مَا لَمْ تَقْبَلْهُ
 الْعُقُولُ (٥) ؟

(١) يعطى بأربعة : مُفسَّر في البيت الذي بعده .

(٢) أيامه : مفعول لترى في البيت الذي قبل هذا ، وَغُرَرٌ : جمع غُرَّة ،
 وَأَصْلُهَا الْبَيَاضُ فِي جَبْهَةِ الْفَرَسِ ، ثُمَّ اسْتَعْمَلَ فِي كُلِّ ظَاهِرٍ نَابِهِ الشَّانِ مَرْفُوعٍ
 الْقِيَمَةَ ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ «أَنَا قَائِدُ الْفُرِّ الْمُحَجَّجِينَ» وَوَجْهَهُ قَمَرًا : أى شبيهه به
 فِي وَسَامَةِ الطَّلَاعِ وَهَدَايَةِ الْخَائِرِ إِلَى سَبِيلِهِ ، وَعَزَمَهُ قَدْرًا : أى يشبهه في المضاء
 وَالنَّفَازِ ، وَتَشْبِيهِ الْعَزْمِ بِالْقَدْرِ أَكْثَرُ مَبَالِغَةٍ مِنْ تَشْبِيهِهِ بِتَوَاقِبِ النُّجُومِ وَإِنْ كَانَ
 أَبْلَغَ مِنْ تَشْبِيهِهِ الْبَدِيعِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

عَزَمَانُهُ مِثْلُ النُّجُومِ تَوَاقِبًا لَوْ لَمْ يَكُنْ لِلنَّاقِبَاتِ أَقُولُ
 وَالسَّيْبُ : الْعَطَاءُ وَالنَّفْحَةُ ، وَمَطْرًا : أى مثله في الغزارة والشمول .

(٣) المعنى إننى مدحت كثيراً من الناس قبل ذلك الأمير ، وكنت
 أظنهم حين مدحتهم صَفْوَ الزَّمَانِ ، فَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَى ذَرَاهِ ؛ وَتَشْرَفْتُ بِالْمَثُولِ
 بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَدَحْتَهُ عَرَفْتُ أَنَّنِي كُنْتُ مَخْطُئًا فِي ظَنِّي ؛ إِذْ أَنَّهُمْ لَوْ قَسَمُوا إِلَيْهِ
 لَكَانُوا كَدْرًا .

(٤) المعنى : ما الذى أقوله لك وأحدثك به من صفاته وبديع سجاياه ،
 وهى فوق متناول الظن ، وأعلى مما تسمو إليه المدارك ، ومما لا يمكن أن يصل إليه
 فكرك ؟ وأنا إن أنباتك لم آمن عليك أن تتوهم عدم صحة كلامى وصدق حديثى .
 (٥) هذا كالإيضاح لما قبله .

وَمَتَّى كَانَ مَلِكٌ يَأْتِيهِ الْأَكْرَامُ ، إِنْ بَعَثَتْ بِالْدَّرَاهِمِ ^(١) ؟ وَالذَّهَبُ ، أَيْسَرُ مَا يَهَبُ ^(٢) ، وَالْأَلْفُ ، لَا يُعْمَهُ إِلَّا الْخَلْفُ ^(٣) ، وَهَذَا جَبَلُ السُّكْحَلِ قَدْ أَضْرَبَ بِهِ الْمَيْلُ ، فَكَيْفَ لَا يُؤَثِّرُ ذَلِكَ الْعَطَاءُ الْجَزِيلُ ^(٤) ؟ وَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَلِكٌ يَرْجِعُ مِنَ الْبَدَلِ إِلَى سَرَفِهِ ^(٥) ، وَمِنْ الْخُلُقِ إِلَى سَرَفِهِ ^(٦) ، وَمِنْ الدِّينِ إِلَى كَلْفِهِ ^(٧)

(١) يقال : أُنْفَهُ يَأْنْفُهُ ، إِذَا ضَرَبَ أُنْفَهُ ، وَالْأَكْرَامُ : جَمْعُ أَكْرَمٍ وَهُوَ الْبَالِغُ مِنَ الْكِرْمِ حَدًّا عَظِيمًا ، وَالْمَعْنَى : إِنْ هَذَا الْأَمِيرُ الَّذِي حَدَّثْتِكَ بِشَأْنِهِ يَسْتَزِرُّ الْكِرْمَاءَ وَيَحُطُّ مِنْ شَأْنِهِمْ ، وَيُزْجِرُهُمْ إِذَا مَنَحُوا الدَّرَاهِمَ ؛ لِأَنَّهَا - فِي تَقْدِيرِهِ - خَسِيسَةٌ لَا تَلِيقُ بِالْعَطَاءِ ، وَلَا تَجْمَلُ بِالْمُنْحَةِ .

(٢) الْمَعْنَى : إِنَّهُ يَعْطَى الثَّمِينَ الْعَالِي ، وَأَهْوَنُ مَا يَعْطِيهِ وَأَيْسَرُهُ وَأَقْلَهُ قِيَمَةً وَأَزْهَدُهُ قَدْرًا هُوَ الذَّهَبُ ، وَلِذَلِكَ فَهُوَ يَرْدَعُ الْمَانِحِينَ وَيَرْغَمُهُمْ .

(٣) الْخَلْفُ : الْفَأْسُ الْعَظِيمَةُ ، وَالْمَعْنَى : إِنَّهُ مِثْلَافٌ لِأَمْوَالِهِ ، مُضِيعٌ لَهَا ، بِسَبَبِ مَا يَعْطَى مِنَ الْعَطَايَا الْعَالِيَةِ وَيَهَبُ مِنَ الْهَبَاتِ النَّفِيسَةِ ، فَثَلَّ أَمْوَالَهُ كَثَلُ الْخَائِطِ لَا يَأْتِي عَلَى جَمِيعِهَا غَيْرَ الْفَأْسِ ، وَهُوَ كَذَلِكَ لَا يَأْتِي عَلَى مَالِهِ غَيْرَ الْكِرْمِ .

(٤) السُّكْحَلُ : مَعْرُوفٌ ، وَالْمَيْلُ : مَا يَسْكُتُحَلُّ بِهِ ، وَأَخْفَ شَيْءٍ حَمَلَاهُو الْمَيْلُ ، وَلَكِنَّهُ إِذَا اسْتَمَرَّ أَقْنَى مِنَ السُّكْحَلِ جَبَالًا ، وَالْمَعْنَى : إِنْ الْمَيْلَ لَا يَأْخُذُ مِنَ السُّكْحَلِ إِلَّا قَلِيلًا جَدًّا ، وَلَكِنَّهُ لَوْ تَسَلَّطَ عَلَى جَبَلٍ لِأَفْنَاءِهِ وَأَضَاعَهُ ، فَقَلَّ لِي بَرَكٌ كَيْفَ لَا تُؤَثِّرُ عَلَى مَالِهِ هَذِهِ الْهَبَاتُ الْمُتَوَاتِرَةُ الْعَظِيمَةُ ؟

(٥) الْمَعْنَى : إِنَّهُ لَا يَعْقِلُ أَنْ أَحَدًا مِنَ الْمُلُوكِ تَكُونُ خَصَلَةُ الْعَطَاءِ عِنْدَهُ وَاصِلَةً غَايَةً حَدَّ السَّرْفِ وَالتَّضْيِيعِ مِثْلَ مَا وَصَلَ بِهَا ذَلِكَ الْأَمِيرُ .

(٦) أَيْ أَنَّهُ لَيْسَ يَتَأْتَى أَنْ يَتَصَفَّ وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ مِنَ الْأَخْلَاقِ بِشَرِيفَةٍ وَمِنْ الْخِصَالِ بِكَرِيمَةٍ مِثْلَ الَّذِي أَتَصَفَّ بِهِ ذَلِكَ الْأَمِيرُ الَّذِي أَحَدَّثَكَ عَنْهُ .

(٧) كَلْفَهُ : أَيْ حَبَبَهُ ذَلِكَ الْحُبَّ الشَّدِيدَ ، أَوْ هُوَ بِمَعْنَى إِحْتِمَالِ تَكَالِيفِهِ وَمَشَقَاتِهِ

وَمِنَ الْمَلِكِ إِلَى كَنَفِهِ^(١) ، وَمِنَ الْأَصْلِ إِلَى سَلْفِهِ^(٢) ، وَمِنَ النَّسْلِ إِلَى
خَلْفِهِ :

فَلَيْتَ شِعْرِي مَنْ هَدَى مَآثِرُهُ مَاذَا الَّذِي يَبْلُوغُ النُّجْمَ يَنْتَظِرُ^(٣) ۱٤

(١) كَنَفُهُ : حِضْنُهُ ، وَهُوَ الصَّدْرُ وَالْمَعْدَانُ .

(٢) السلف : الآباء ، والمعنى : أترى أن أحدا بلغ الانتساب إلى أفاضل
الناس وأكرمهم وأحسنهم خلقا مثلما بلغ هذا المدوح ؟ .

(٣) ليت شعري : كلمة تدل على التعجب ، والمعنى : إن الأمر غريب جدا ؛
لأن من كانت تلك سجاياه وهذه أوصافه ونعوته فأى شيء يرنجى من وصوله إلى
النجم وارتقائه فوق مناطِ الثريا ؟ أى أنه بلغ غاية الكمال التي لا يمكن المزيد
عليها قط .

٤٦ - الْمَقَامَةُ الصُّفْرِيَّةُ

حدثنا عيسى بن هشام قال :

لَمَّا أَرَدْتُ الْقُفُولَ مِنَ الْحَجِّ (١) ، دَخَلْتُ إِلَى فَتَى فَقَالَ : عِنْدِي رَجُلٌ
مِنْ نِجَارِ الصُّفْرِ (٢) ، يَدْعُو إِلَى الْكُفْرِ (٣) ، وَيُرْقِصُ عَلَى الظُّفْرِ (٤) ، وَقَدْ أَدْبَتُهُ
الْغُرْبَةُ (٥) ، وَأَدَّتْنِي الْحِسْبَةُ لِأَيْتِكَ ، لِأُمْتَلَّ حَالُهُ لَدَيْكَ (٦) ، وَقَدْ خَطَبَ

(١) قَفَلَ يَقْفُلُ - من باب دخل - رجع ، والقُفُولُ من السفر : العودُ
والرجوعُ منه ، ومنه سميت القافلة - وهي الجماعة التي تتكآف على السفر - سَمَوُهَا
بذلك وهي ذاهبة تفتاؤلا لها بالرجوع .

(٢) النَّجَّارُ - بكسر أوله ووضمه - ومثلهما النَّجْرُ - بوزن قلس - الأضلُ ،
ومنه المثل « كلُّ نِجَارٍ إِبِلٍ نِجَارُهَا » يضرب لمن يَتَلَوَّنُ ، أى فيه كل لون من
الأخلاق ، ولا يثبت على رأى ، والصُّفْرُ : جمع أصفر . ، وقد صار لقباً للدنانير ،
والمعنى : إن عندى ديناراً .

(٣) الكفرُ فى الأصل : السُّتْرُ ، والمعنى : إنه يحمل صاحبه على ستره
وإخفائه ؛ ضنَّاه به ، وخَوْفاً عليه ، ويصح أن يراد منه الكفر بالمعنى الشائع
المعروف ، ومعنى أن الدينار دافع إليه أن صاحبه لا يأمن على نفسه الوقوع فى
مَهَاوِي الزيغ والضلال .

(٤) من عادة الصيارفة ونقّدة الأموال أن يَنْقُرُوها على أظفارهم ليتبينوا
جيدها من رديئها ، وذلك هو المراد بكونه يرقص على الظفر .

(٥) المعنى : إنه فى يد غير صاحبه .

(٦) الْحِسْبَةُ : فِعْلُ الأَمْرِ غير منظور عند عمله غير وجه الله ، وَأُمْتَلَّ حَالُهُ :
أصورها لك وأعلمك حقيقتها ، والمعنى : إن شفقتى بذلك الفتى جعلتنى أتقدّم
إليك واصفاً حاله ، محتسباً فى ذلك الأجر عند الله .

مِنْكَ جَارِيَةً صَفْرَاءَ تُعْجِبُ الْحَاضِرِينَ ، وَتَسْرُّ النَّاطِرِينَ (١) ، فَإِنْ أُجِبْتَ
يَنْجِبُ مِنْهَا وَلَدٌ يِعْمُ الْبِقَاعَ وَالْأَسْمَاعَ (٢) ، فَإِذَا طَوَيْتَ هَذَا الرَّيْطَ (٣) ،
وَتَنَيْتَ هَذَا الْخَيْطَ ، يَكُونُ قَدْ سَبَقَكَ إِلَى بَلَدِكَ (٤) ، فَرَأَيْكَ فِي نَشْرِ مَا فِي
يَدِكَ (٥) .

قال عيسى بن هشام : فَعَجِبْتُ مِنْ إِرَادِهِ ، وَأُطْفِئِ فِي سُؤَالِهِ (٦) ،
وَأُجِبْتُهُ بِمُرَادِهِ ، فَأَنْشَأُ يَقُولُ :
الْمَجْدُ يُخَدَعُ بِالْيَدِ السُّفْلَى وَيَدُ الْكَرِيمِ وَرَأْيُهُ أَعْلَى (٧)

(١) جارية : اسمُ الفاعل فعله « جَرَى يَجْرِي » وأراد قطعة منطلقة
سائرة ، وأراد بكونها صفراء تبين أنها من نوع الذهب .

(٢) ينجب منهما ولد : أى يجيء له من هذه الجارية ولد نجيب ، وأراد
بالولد الثناء عليه وإطراءه ومدحه ، ولذلك قال « يعم الأسماع والبقاع » أى أنه
ينتشر انتشاراً عظيماً ، حتى لا يبقى سمع إلا وصله ، ولا بقعة إلا دخلها .

(٣) الرَيْطُ : جمع رَيْطَةٍ ، وهى الملاءة إذا كانت قطعة واحدة ، ولم تكن
لقتين ، والمعنى : إذا قطعت أيامَ الفراق ووصلتَ وطنك وَحَلَّتْ بِنَادِيكَ .

(٤) أى أن ذلك الولد ستجدُه حلَّ وطنك قبلك ، ووصل الدار قبل
وصولك . (٥) أى : لك أن ترى - بعد ما ذكرت لك من الكلام -

رَأَيْكَ فى أن تجيئنى إلى ما أملتُ أو تردنى خائباً .

(٦) إِرَادِهِ : أى طريق حكايته لى وتحديثه إياى بحاجته ، والمعنى : إننى قد
أخذنى العجب من حديثه ولطافته مع جميل سؤاله ؛ فلم أخيب ظنه ولم أضئع رجاءه .

(٧) اليد السفلى : التى تطلب العطاء وتستجدى أ كُفَّ النَّاسِ ، واليد العليا :
المعطية والمأتمة ، وفى الحديث : « الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى » ، والمعنى :

إن المستمنح يمدح للمأتمين ويحتلبهم ، بما يلقيه إليهم من الحديث ، وما يمدده
نحوهم من شِراكِ الاسترفاد ، ولكن ذلك ليس دليلاً على ضَعْفِ الْمُعْطَى ، ولا حجة
على خياله ؛ لأنه لا يزال صاحب اليد العليا والرأى الناضج والفكر السديد .

٤٧ - التَّحَامَةُ السَّارِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

بَيْنَمَا نَحْنُ بِسَارِيَّةٍ^(١) ، عِنْدَ وَالِيهَا ، إِذْ دَخَلَ عَلَيَّ فَتَى بِهِ رَدْعُ صُفَّارٍ^(٢) ، فَانْتَفَضَ الْمَجْلِسُ لَهُ قِيَامًا ، وَأَجْلَسَ فِي صَدْرِهِ إِعْظَامًا^(٣) ، وَمَتَّعَنِي الْحِشْمَةَ لَهُ مِنْ مَسَأَتِي إِبَاهُ عَنْ أَسْمِهِ^(٤) ، وَابْتَدَأَ فَقَالَ لِلْوَالِي : مَا قَعَلْتَ فِي الْحَدِيثِ الْأَمْسِيِّ ، لَعَلَّكَ جَمَلْتَهُ فِي الْأَمْسِيِّ^(٥) ؟ فَقَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ ، وَلَكِنْ عَاقَبَنِي عَنْ بُلُوغِهِ عُدْرًا لَا يُمَكِّنُ شُرْحُهُ^(٦) ، وَلَا يُؤْمِسُ جُرْحُهُ^(٧) ، فَقَالَ الدَّاخِلُ :

(١) سارية : إحدى بلاد طبرستان .

(٢) الرَّدْعُ : أثرُ الطَّيْبِ ، وَالصُّفَّارُ - بضم أوله وبقاء - أراد منه اللون الأصفر ، والمعنى : أن ذلك الفتى كان بجسده آثار طيب أصفر كالزعفران مثلاً .

(٣) للمعنى : إن جميع مَنْ كان بالمجلس قد تحرك مسرعاً للقيام ، ثم إنهم أجلسوه في صدر المكان تعظيماً له وتوقيراً .

(٤) الحِشْمَةُ لَهُ : الإِجْلَالُ ، وَالكَفُّ عَمَّا يثير غَضَبَهُ أَوْ يُعْنِتُهُ .

(٥) الْأَمْسِيُّ : نسبة إلى الْأَمْسِ ، وهو اليوم الذي قبل يومك ، والمعنى : ماذا صنعت بشأن ذلك الحديث الذي جرى بيننا بالأمس ؟ ثم عطف إليه قائلاً : إنني أشفق من أن تكون قد نسيت .

(٦) للمعنى : إنني لم أنس ذلك الحديث ؛ لأن النسيان علامة عدم الاكتران ، وأنت ممن يخطر بالبال دائماً ، ولكنني لم أستطع قضاؤه ، لأعذار طويلة لا آتمكن من بسطها لك .

(٧) يُؤْمِسُ : يُطَيِّبُ وَيُعَالِجُ ، والمعنى : إن الذي نالني من عدم الوفاء بما وهدتك أشدُّ على نفسي من الجرح الذي لا يُعَالِجُ ولا يُلْتَمِ .

يلهَذَا قَدْ طَالَ مِطَالُ هَذَا الْوَعْدِ^(١) ، فَمَا أُجِدُّ غَدَكَ فِيهِ إِلَّا كَيَوْمِكَ ،
وَلَا يَوْمَكَ فِيهِ إِلَّا كَأَمْسِكَ^(٢) ، فَمَا أَشْبَهُكَ فِي الْإِخْلَافِ ، إِلَّا بِشَجَرِ
الْإِخْلَافِ^(٣) ، زَهْرُهُ يَمْلَأُ الْعَيْنَ ، وَلَا ثَمَرُ فِي الْبَيْنِ^(٤) .

قال عيسى بن هشام : فَلَمَّا بَلَغَ هَذَا الْمَكَانَ قَطَعْتُ عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ :
حَرَسَكَ اللَّهُ ! أُنْسْتَ الْإِسْكَانْدَرِيَّ ؟ فقال : وَأَدَامَ حِرَاسَتِكَ ، مَا أَحْسَنَ
فِرَاسَتِكَ^(٥) ! فَقُلْتُ : مَرَّحَبًا بِأَمِيرِ الْكَلَامِ ، وَأَهْلًا بِضَالَّةِ الْكِرَامِ^(٦) ،

(١) المِطَالُ - ومثله اللَّطْلُ - التسوية وإرجاء الوفاء من يوم إلى آخر ،
والمعنى : إنه قد طال تسويةك وإرجاؤك ، وأنا أنتظر وفاءك ، ولسكنك لا تفعل ،
فتى يكون الوفاء ؟

(٢) أى : أن حالك معي لا يتغير ؛ فالذى تقوله اليوم هو ما ستقوله غداً ،
وهو بعينه الذى قلته أمس .

(٣) شَجَرُ الْإِخْلَافِ : هو شجر الصَّنِصَافِ ، أو هو نوع منه ، وبه يضرب
المثل فى حسن الظاهر ، من غير أن يكون وراءه جدوى ولا نفع ، وفيه يقول
للشاعر ابن لسكك :

فِي شَجَرِ الشَّرْوِ مِنْهُمْ مَثَلٌ لَهُ رُؤَاةٌ وَمَالُهُ ثَمَرٌ

(٤) (ولا ثمر فى البين : أى بين أغصان ذلك الشجر ، أو هى كلمة مستعملة
فى معنى هناك ، وهو استعمال مؤلّد ، وهذا هو وجه التماسل بين الوالى وشجر
الْإِخْلَافِ ، والمعنى : إنه يمدحك منظره وتفرُّك رؤيته ، ولسكنك إذا قنَّسَتْ فى
أثنائه وجهَدَتْ نفسك أن تجد ثمرة فلن تجد السبيل إلى ذلك .

(٥) فِرَاسَتِكَ : تَفَرُّسِكَ لاسْتِطْلَاعِ حَقِيقَتِي ، والمعنى : إن ظنك لم يجب

فأنا جو .

(٦) الضالّة : مَاشَرَدَ مِنْكَ فَأَنْتَ تَبْحَثُ عَنْهُ ، أو هو أكرم مالك عليك =

لَقَدْ نَشَدْتُهَا ، حَتَّى وَجَدْتُهَا ، وَطَلَبْتُهَا ، حَتَّى أَصْبْتُهَا^(١) ، ثُمَّ تَرَأَقْنَا حَتَّى
أَجْتَذَبْنِي نَجْدًا^(٢) ، وَلَقِمَهُ وَهْدًا^(٣) ، وَصَعِدْتُ وَصَوَّبًا^(٤) ، وَشَرَقْتُ
وَعَرَّبًا ، فَكَلْتُ عَلَى أَثَرِهِ :

يَالَيْتَ شِعْرِي عَنْ أَخْرَضَاتِ يَدَاهُ وَطَالَ صَبِيئُهُ^(٥)
قَدْ بَاتَ بَارِحَةً لَدَى فَايِنَ لَيْلَتَنَا مَبِيئُهُ^(٦)

= وآثره لديك ، ومعنى هذا أن الإسكندري رجل يطلبه كرام الناس ليتعرفوا
أدبه الجم وُيفيدوا من حسن بيانه وجميل خطابه وفصيح مقاله .

(١) نَشَدَ الضَّلَّةَ : طَلَبَهَا وَجَدَّ فِي الْبَحْثِ عَنْهَا ، وَالْمَعْنَى : إِنَّهُ طَالَ عَلَى الْأَمْدِ
وَأَنَا أَتَمَسُّ لُقْمِيكَ وَأَرْجُو الْوَصُولَ إِلَيْكَ ، حَتَّى أَسْقِنِي الدَّهْرَ بِمَا رَجَوْتُ .

(٢) النَّجْدُ : مَا ارْتَفَعَ وَعَلَا مِنَ الْأَرْضِ ، وَجَدَّ بِهِ : رَفَعَهُ إِلَيْهِ .

(٣) الْوَهْدُ : مَا تَطَامَنُ وَانْخَفُضَ مِنَ الْأَرْضِ ، وَلَقِمَهُ - مِنْ بَابِ فَهَمَ -

ابْتَلَعَهُ ، وَالْمَعْنَى : إِنَّهُمَا مَازَا الرَّافِقَيْنِ حَتَّى وَصَلَا إِلَى مَسْكَانِ افْتِرَاقِهِمَا ؛ فَسَارَ
عَيْسَى نَحْوَ سَجِسْتَانَ يَوْمَ خَلَفَ بِنَ أَحْمَدَ فَعَمَلًا فِي نَجَادِ الْأَرْضِ ، وَسَارَ الْإِسْكَانْدَرِيُّ
نَحْوَ الْعِرَاقِ فَهَبَّطَ فِي وَهَادَهَا .

(٤) صَعِدْتُ : سَرْتُ مَرْتَفَعًا بِمَا يَنْسَبُ لِلنَّجْدِ ، وَصَوَّبًا : سَارَ مُنْخَفِضًا

بِمَا يَتَّفَقُ مَعَ الْوَهْدِ .

(٥) لَيْتَ شِعْرِي عَنْهُ : أَيْ لَيْتَ خَبَرِي عَنْهُ حَاصِلٌ عِنْدِي ، وَأَصْلُ الشَّعْرِ

فِي مِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ بِمَعْنَى الْعِلْمِ ، فَاسْتَعْمَلَ فِي الْخَبَرِ هُنَا ، لِأَنَّهُ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِهِ ،
وَالْمَعْنَى : لَيْتَنِي أَعْلَمُ شَيْئًا عَنْ ذَلِكَ الْأَخِ الَّذِي قَصُرَتْ يَدُهُ وَضَاقَتْ عَنِ الْإِنْفَاقِ وَلَمْ
تَقْدِرْ عَلَى الْبَسْطَةِ وَوَفَّرَ الْغَنَى ، مَعَ عُلُوكَيْهِ وَارْتِفَاعِ ذِكْرِهِ وَطُولِ شَهْرَتِهِ وَامْتِدَادِ
صَبِيئِهِ وَبَعْدَ مَدَّاهُ .

(٦) بَارِحَةٌ : أَرَادَ مِنْهَا اللَّيْلَةَ الْمَاضِيَةَ ، وَلَيْلَتُنَا : أَيْ هَذِهِ اللَّيْلَةُ ، وَالْمَعْنَى :

إِنَّهُ قَضَى مَعِيَ اللَّيْلَةَ الْمُنْصَرِمَةَ ، فَأَيْنَ يَقْضِي هَذِهِ اللَّيْلَةَ الْآتِيَةَ يَا تَرَى ؟

لَا دَرَّ دَرُّ الْفَقْرِ فَهَوَ طَرِيدُهُ وَبِهِ رُزِيَّتُهُ^(١)
لَا سَلْطَنَ عَلَيْهِ مِنْ خَلْفِ بْنِ أَحْمَدَ مِنْ يَمِينَتِهِ^(٢)

(١) الدر: اللبن، ودرّ - من باب شدّ - درًا ودرورا - كثر، ويقال في الدم: لا درّ درّه، أى لا كثر خيره، ويقال في اللدح: لله دره، أى عمله، والله درّه من رجلى، والله درّه رجلاً، وطريده: مطروده، ورزيتته: أضله رزيتته، فحفف بتسهيل الهمة وقلبيها ياء بسبب انكسار ما قبلها مع كونها ساكنة، والمعنى الدعاء على الفقر بأن يحفّ ضرع من تعذّبه بلبنها ليموت، وليس المقصود حقيقة ذلك، ولكن المراد أن يقول: إن الفقر أمر يُقصّر الجاه، ويضعف المروءة، ويقلل من العزيمة، ويُقلّ شباتها؛ لأنه كان سببا في رزى بالإسكندري، في حين أنى لا أحب غير لقائه والسير معه، فحبذا لو لم يكن، وأراد عيسى فقّر نفسه، أى أنه لو كان مؤسرا لتحمل نفقاته ولم يقبل فراقه.

(٢) المعنى: أقسم يمينا لا أحدث فيه أننى لا بدّ أن أساط على الفقر من خلف شخصاً يميت هذا الفقر بمنحه وعطاياه، وخاف هو الذى سيفعل ذلك، ولكنه أراد التجريد نحو «لقيت من زيد أسدا» ولمل في هذا البيت دليلا على أنه أراد فقر نفسه، وذلك أنه كان متصلا به، وقد أسلفنا لك من كلام البديع ومدائح في خلف بن أحمد شيئا ليس بالقليل، فانظر ص ٢٩٥ ثم انظر للمقامة الخلفية (ص ٢٩٨) التى وضعها البديع فيه خاصّة.

عَلَى عَمَلِ الْبَرِيدِ (١)

= الأرفعَ منها ما كانت الإعانة فيه عامةً فيما تحت يد السلطان من ذلك الصنف؛ إذ هو يقتضى مباشرة السلطان دائماً ومشاركته في كل صنف من أحوال ملكه، وأما ما كان خاصاً ببعض الناس أو بعض الجهات فيسكون دون الرتبة الأخرى، كقيادة ثغر، أو ولاية جباية خاصة، أو النظر في أمر خاص كحسبة الطعام، وما زال الأمر في الدول قبل الإسلام هكذا حتى جاء الإسلام وصار الأمر خلافةً فذهبت تلك الخطط كلها بذهاب رسم الملك إلى ما هو طبيعي من المعاونة بالرأى والمفاوضة فيه، ثم أفاض في تطور الأحوال وانتقالها من عصر إلى عصر، وتقسيم الوزارة، وتنوعها، وتحديد عملها ورسومها في كل زمان.

(١) البريد : أصله أن تجعل خيل مُضَمَّرَاتٍ في عِدَّةِ أَمَاكِنَ ، فإذا وصل صاحبُ الخيل المُسْرِعِ إلى مكانٍ منها - وقد تَعَبَ فَرَسُهُ - ركب فرساً غيره مستريحاً ، وكذلك يفعل في المكان الآخر والآخر حتى يصل مقصده بسرعة، وأما معناه اللغوي فالبريد هو اثنا عشر ميلاً ، وأظن أن الغاية التي قدَّروها بين بريد و بريد هي هذا القَدْرُ ، وقال الصاحب علاء الدين عطاء ملك في جهان كشاي : ومن جملة الأشياء وَضَعَهُمُ الْبَرِيدَ بِكُلِّ مَكَانٍ ، طلباً لحفظ الأموال وسُرْعَةِ وصول الأخبار ومتجددات الأحوال ، وأول من وضعه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، طلباً للسرعة في وسول الأخبار ، وعمل البريد من أكبر الأعمال في الدول الإسلامية ، فقد كان صاحبه يتولى تَفَقُّدَ أحوال الثغور والبلدان النائية ، ويحدث السلطان عنها ، ويشير عليه بما يراه أعدل لها ، وله عمال كثيرون يستخدمهم في النواحي والأطراف في فروع عمله ، وكانت له مكانة سامية عند السلاطين ؛ لأنه الذي يَتَفَقَّدُ الأحوال ، ويستكشف خبيثات الأمور ، ويُنْخِرُ الخليفة بما يحيط به علمه ، وكان كلُّ ما يَرِدُ من ولاة الأقاليم وعمال البلدان يعطى لعامل البريد ليطلع عليه أولاً ، ثم هو يذهب به إلى الخليفة ، ولذلك كان مأذوناً له بالدخول إلى مجلسه من غير مُنْأَمَةٍ في بعض العصور .

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

وَلَيْتُ بَعْضَ الْوَلِيَّاتِ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ ، وَوَرَدَهَا سَعْدُ بْنُ بَدْرٍ أَخُو
فَزَارَةَ ، وَقَدْ وُلِّيَ الْوِزَارَةَ (١) ، وَأَخَذُ الْوَلِيدِ ،

(١) فزارة : إحدى قبائل العرب ، وأخوها : أحد رجالها الذين تتصل نسبتهم إليها ، والوزارة كانت في عصر البديع تجمع بين السلاحين السيف والقرم ، وكان لا يتولاها إلا من يحوز الصفتين جميعا الفروسية والكتابة ، غير أن حال الوزير كانت تختلف من جهة إطلاق يده في التصرفات كلها وغلُّ يده عن بعضها ، قال ابن خلدون عن الوزارة : هي أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية ، لأن اسمها يدلُّ على مطلق الإعانة ، فإن الوزارة مأخوذة إما من المُوَازَرَة وهي المعاونة ، أو من الوِزْرِ وهو الثقل ، كأنه يحمل مع مفاعله أوزارَهُ وأثقاله ، وهو راجع إلى المعاونة المطلقة ، وأحوال السلطان لاتعدو أربعة أمور ؛ لأنها إما أن تكون في أمور حماية الكافة وأسبابها من النظر في الجند والسلاح والحروب وسائر أمور الحماية والمطالبة ، وصاحبُ هذا هو الوزير المتعارفُ في الدول القديمة بالمشرق ولهذا العهد بالمغرب ، وإما أن تكون في أمور مُحَاظَبَاتِهِ لمن بَعْدَ عنه في المسكان أو في الزمان وتنفيذه الأوامرَ فيمن هو محبوب عنه ، وصاحب هذا هو الكاتب ، وإما أن تكون في أمور جباية المال وإنفاقه وضَبْط ذلك من جميع وجوهه أن يكون بِمَضِيَّة ، وصاحبُ هذا هو صاحب المال والجباية ، وهو المسمى بالوزير لهذا العهد بالمشرق ، وإما أن يكون في مُدَاقَعَةِ النَّاسِ ذَوِي الْحَاجَاتِ عنه أن يزدحموا عليه فيشْتَلُوهُ عن قَهْرِهِ ، وهذا راجع لصاحب الباب الذي يَحْجُبُهُ ؛ فلا تَعْدُو هذه الأربعة ، بوجهِ ، وكل خطة أو رتبة من رتب الملك أو السلطان فإنها يرجع ، إلا أن =

وَنَخَلَفُ بْنُ سَالِمٍ ، عَلَى عَمَلِ الْمَظَالِمِ ^(١) وَبَعْضُ بَنِي ثَوَابَةِ ، وَقَدْ وُلِيَ الْكِتَابَةَ

(١) قال ابن خلدون في عمل المظالم: إنه ولاية ممتزجة من سطوة لسله ونصفة القضاء ، وكأنه يُمضَى ما عجز القضاء وغيرهم عن إمضائه ، ويكون نف صاحبه في البيّنات والتقرير ، واعتماد الأمارات والقرائن ، وتأخير الحكم إلى استتجلاء الحق ، ونحل الخصمين على الصلح ، واستحلاف الشهود ؛ فهي أومع من دائرة نظر القاضي ، وكان الخلفاء الراشدون يتولون هذا العمل بأنفسهم في صدر الإسلام ، وكانوا ربما تركوها للقضاة ، ثم صارت ولاية مستقلة .

(٢) ثَوَابَةِ : قبيلة من قبائل العرب ، والكتابة : ديوان الرسائل ولا بأس بأن نورد لك رأى ابن خلدون فيها مع شيء من الإجمال ، قال : هذه الوظيفة غير ضرورية في الملك ؛ لاستغناء كثير من الدول عنها رأساً كما في الدول العريقة في البداوة التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع ، وإنما أكد الحاجة إليها في الدولة الإسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد ؛ فصار الكاتب يؤدي الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية في الأكثر ، وكان الكاتب للأمير يكون من أهل نَسَبِهِ ومن عظماء قبيلته ، كما كان للخلفاء وأمراء الصحابة بالشام والعراق ؛ لعظم أمانتهم وخصوص أسرارهم ، فلما فسد اللسان وصار صناعةً اختصَّ بمن يُحْسِنُهُ ، وكانت عند بني العباس ربيعة ، وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقاً ، ويكتب في آخرها اسمه ، ويختم عليها بخاتم السلطان (وهو طابَعٌ مَنْقُوشٌ فيه اسم السلطان أو إشارته ، يُعْمَسُ في طين أحمر مُدَابَبٌ بالماء ، ويسمى طين الخاتم ، ويُطَبَعُ به على طرفي السجل عند طيه وإصاقه) ثم صارت السجلات من بعدم تَصَدُّرُ باسم السلطان ، ويضع الكاتب فيها علامته أولاً وآخرها على حسب الاختيار في محلها وفي لفظها ، ثم قد تنزل هذه الخطة بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبها من أهل المراتب في الدولة أو استبداد الوزير عليه ؛ فتصير علامة =

بِتَعَمَلُ الزَّمَامِ ، إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ (١) ،

هذا الكتاب مُلغاة الحكم بعلامة الرئيس عليه يستدل بها؛ فيكتب صورة لاملته المعهودة والحكم لعلامة ذلك الرئيس ، كما وقع في آخر الدولة الخفصية لما ارتفع شأنُ الحجابة وصار أمرها إلى التفويض ثم الاستبداد صار حكم العلامة التي للكتاب مُلغى وصورة ثابتة اتباعاً لما ساف من أمرها ، فصار الحاجبُ يرسم للكتاب إمضاء كتابه ذلك بخط يَصْنَعُه ويتخيرُ له من صيغ الإنفاذ ماشاء ، فيأتمر الكاتبُ له ويَصْعُ العلامة المعتادة ، وقد يختص السلطان نفسه بوضع ذلك إذا كان مستبداً بأمره قائماً على نفسه ، فيرسم الأمر للكتاب ليضع علامته. ومن خُطَط الكتابة التوقيع ، وهو : أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفضله ، ويوقِّع على التخصيص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها مُتلقاةً من السلطان بأوجز لفظٍ وأبلغ ، فإما أن تصدر كذلك ، وإما أن يجذو الكاتبُ على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة ، ويحتاج الموقِّعُ إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه ، وقد كان جعفر بن يحيى يوقع في القصاص بين يدي الرشيد ، ويرى بالقصة لصاحبها ، فكانت توقيعاته يتنافس البلقاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها ، حتى قيل : إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار ، وهكذا كان شأن الدول .

(١) لا ندرى ما الذي أراد بولاية الزمام ؛ لأننا لم نعرف ولاية خاصة بهذا الاسم في ذلك العصر ، غير أن الذي يتبادر إلى الذهن أنه أراد منها ولاية الأعمال والجبايات ، وفيها يقول العلامة ابن خلدون : اعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك ، وهي القيام على أعمال الجبايات ، وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج ، وإحصاء العساكر بأسمائهم ، وتقدير أرزاقهم ، وصرف أعطياتهم في إبانائهم ، والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قومة تلك الأعمال وقهارة الدولة ، وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك =

فَصَارَتْ تَحْفَةً الْفَضْلَاءِ^(١) ، وَحَطَّ رَحَاهِمُ ، وَلَمْ يَزَلْ يَرِدُ الْوَاحِدُ بَعْدَ الْوَاحِدِ ، حَتَّى امْتَلَأَتِ الْعُيُونُ مِنَ الْخَاضِرِينَ ، وَتَقَلُّوا عَلَى الْقُلُوبِ^(٢) ،

= على ترتيب الأنساب مبتدأ من قرآبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما بعدها الأقرب فالأقرب ، هكذا كان ابتداء ديوان الجيش .

أما ديوان الخراج والجبایات فبقي بعد الإسلام كما كان قبله : العراق بالفارسية ، والشام بالرومية ، وكتاب الدواوين من أهل العهد من الفريقين ، ولما جاء عبد الملك بن مروان ، واستحال الأمر مُلْكًا ، وانتقل القوم من غضاضة البدأوة إلى روثق الحضارة ، ومن سداجة الأمية إلى حذق الكتابة ، وظهر في العرب ومواليهم مهرة من الكتاب والحساب ، فأمر عبد الملك سليمان بن سعد والى الأردن لعهدة أن ينقل ديوان الشام إلى العربية ، فأكملة لسنة من يوم ابتدائه ، ووقف عليه سرحون كاتب عبد الملك فقال لكتاب الروم : اطلبوا العيش في غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم ، وأما ديوان العراق فأمر الحجاج صالح بن عبد الرحمن - وكان يكتب بالعربية والفارسية - أن ينقل الديوان من الفارسية إلى العربية ، ففعل ، ورغم لذلك كتاب الفرس ، وكان عبد الحميد ابن يحيى يقول : لله در صالح ، ما أعظم مُنتَه على الكتاب ، ثم جمعت هذه الوظيفة في دولة بني العباس مُضَافَةً إلى مَنْ كان له النظر فيه ، كما كان شأن بني برمك وبني سهل بن نوبخت وغيرهم من وزراء الدولة .

(١) التحفة : النفيس الذى يتقدم به الفضلاء بعضهم إلى بعض ، والمعنى : إن هذه الولاية التى وليها سعد بن بدر قد جمعت الأفاضل ووجوه الكتاب وخيرتهم ؛ فهى بذلك قد أصبحت زاهرة حتى إنه ليتها دأها كرام الناس .

(٢) ثقلوا على القلوب : لكثرة تواردهم وكثرة ما يكلفون أهل المجلس من التوقير لهم واحترامهم ؛ لأنهم من أهل الفضل وأرباب الحجج الذين تجب كرامتهم وبذل النفاية في احترامهم ، وذلك من أثقل التكاليف على النفس .

وَوَرَدَ فِيمَنْ وَرَدَ أَبُو النَّدَى التَّمِيمِيُّ ، فَلَمْ تَقِفْ عَلَيْهِ الْعُيُونُ^(١) ، وَلَا صَفَتْ لَهُ
الْقُلُوبُ ، وَدَخَلَ يَوْمًا إِلَى فَقَدَرْتَهُ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَأَقْعَدَتْهُ مِنَ الْمَجْلِسِ فِي صَدْرِهِ ،
وَقُلْتُ : كَيْفَ يُرَجِّي الْأُسْتَاذُ عُمْرَهُ ؟ وَكَيْفَ يَرَى أَمْرَهُ^(٢) ؟ فَنَظَرَ ذَاتَ
الْيَمِينِ وَذَاتَ الْبَسَارِ^(٣) ، فَقَالَ : بَيْنَ الْخُسْرَانِ وَالْخُسَارِ^(٤) ، وَالذَّلِّ وَالصَّغَارِ^(٥)
وَقَوْمٍ كَرَوْثِ الْحِمَارِ ، بِشْمُهُمُ الْإِقْبَالُ وَهُمْ مُنْتَنُونَ^(٦) ، وَيُحْسِنُ إِلَيْهِمْ
فَلَا يُحْسِنُونَ ، أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ وَرَدْتُ مِنْهُمْ كُلِّي قَوْمٍ مَا يُشْبِهُهُمْ مِنَ النَّاسِ ،

(١) يقال : وقفت العيون على وجه فلان ، إذا حدقت إليه طويلا ،
وأثبتت النظر فيه ، وتتابع ذلك منها ، وهذا كناية عن احترامه وأخذه بلبك ،
وهو يقول : إن العيون لم تتجه إليه ؛ فهو يريد التكنية عن أنهم احتفروه
ولم يحفلوا به .

(٢) المعنى : أي شيء تؤمل في حياتك ؟ وما الذي ترجوه من دهرك ؟
وما رغباتك في هذا الوجود ؟ ولما كان الأمل يسوق العمل وجه إليه السؤال عن
الأمل ، في حين أنه يريد أعماله وأحواله .

(٣) إنما التفت يمينا وشمالا ليرى هل يحسُّ به أحدٌ ، وهل هناك من يسمع
كلامه فيتحاشى أن يذكر عيبا أو يخبر عنهم بقبيح ؟

(٤) الخسران : الخيبة والحُرمان وضياع الرجاء وفقدان الآمال ، والخسار :
أصله الملاكُ ، ويُشبهه أن يكون قد أراد به ههنا اللؤم ودناءة الطبع وسفالة
الأصل ، والمعنى : إنه يقضى أوقاته كلها بين أمل ضائع ورجاء مسلوب وإخوان
سفلة وعشراء لثام .

(٥) الصَّغَارُ : الحطة وضعف الشأن .

(٦) الإقبال : السعادة ، والحظ ، والبيختُ ، ويمين الطالع ، والمعنى : إن السعد
يأتيهم ، واليمين ينزل بساحتهم ، والثراء والجاه يلزمانهم ، في حين أنهم لا يستحقون
من ذلك كله شيئا .

غَيْرُ الرَّأْسِ وَاللَّبَاسِ^(١) ، وَجَعَلَ يَقُولُ :

فِدَى لَكَ يَا سَجِسْتَانُ الْبِلَادِ وَالْمَلِكِ الْكَرِيمِ بِكَ الْعِبَادِ^(٢)
 هَبِ الْأَيَّامَ تُسْعِدُنِي وَهَبْنِي تَبْلَغْنِيهِ رَاحِلَةً وَزَادُ
 فَن لِي بِالَّذِي قَدْ مَاتَ مِنْهُ وَبِالْعُمْرِ الَّذِي لَا يُسْتَعَادُ؟^(٣)

(١) المعنى : إنني اضطررتُ للفرار من هؤلاء الذين حَدَّثْتُكَ عنهم فلقيت جماعة لا يصلحهم بالناس ولا يماثلهم بهم غير لباسهم وهيئة رؤوسهم ، فأما أفعالهم وخلقهم فهي بميدة جداً عن أفعال الإنسان وأخلاقه .

(٢) سجستان : مدينة من مدن فارس الشرقية ، والمعنى : إن هذه البلدة هي خير البلاد وأطيبُ الأماكن ، وإن المَلِكَ الَّذِي يَحِلُّ بِهَا هو أكرم من فوق التراب ، ولذلك أتمنى أن تكون بلاد الدنيا كلها فداء لسجستان ، وجميع العباد فداء لذلك الملك الكريم المقيم بها .

(٣) المعنى : أفرض أنه أمكن لي أن أسعدَ بالذهاب إلى حضرته ، وأتمتع بالمتول بين يديه والتشرف بلاقائه ، وأفرض أن في مقدور الرواحل أن تصلَ بي إلى ساحته ، فهل ينفعني ذلك اللقاء في ردِّ الأيام الماضية والعمر المنصرم والحياة الفائتة التي غَبَرَتْ عَلَيَّ دون تمتع به ولا تشرف بالورود عليه والوصول إليه ؟ .

٤٩ - المقامة الخمرية

حدَّثنا عيسى بن هشام قال :

اتَّفَقَ لِي فِي عُنُقُونِ الشَّبِيبةِ خُلُقٌ سَجِيحٌ^(١) ، وَرَأَى صَحِيحَةً^(٢) مِيزَانَ عَقْلِي^(٣) ، وَعَدَلْتُ بَيْنَ جِدِّي وَهَزْلِي^(٤) ، وَأَتَّخَذْتُ إِيقَةَ^(٥) ،
وَأَخْرَيْتُ لِلنَّفَقَةِ^(٥) ،

(١) عُنُقُونِ الشَّبِيبةِ : أولُ الشباب ، وَمَيْقَتُهُ ، وَحدةُ العمرِ وَعَضْرَتُهُ ، وَخُلُقٌ سَجِيحٌ : سَهْلٌ لِينٌ هَادِيٌّ ، وَالْمَعْنَى : إِنِّي لَمْ الطَّيِّشِ وَالرُّعُونَةَ وَالْحَقِي وَالْجُنُونَ مِثْلَ عَادَةِ الشَّبَابِ ، بَلْ فَطَّرَنِي اللهُ بِالنَّبَاتِ وَالسَّكِينَةِ ، فَتَخَلَّقْتُ بِكَامِلِ الْأَخْلَاقِ ، وَتَحَلَّيْتُ بِفَضَائِلِ الصَّنِشَاتِ عَلَى عَظِيمِ الْأَفْعَالِ مِنْذُ عَهْدِي الْأَوَّلِ فِي الْحَيَاةِ .

(٢) عَدَلْتُ مِيزَانَ عَقْلِي : جَعَلْتُ كِفْتِيهِ مِثْقَالَ بَلْبَحٍ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ، فَلَا أَنَا تَرَكْتُ كِفَةَ الشَّهْوَةِ - وَهِيَ فِي الشَّبَابِ مِتْوَجَةٌ - تَتَغَلَّبُ عَلَى كِفَةِ الْفَضِيلَةِ ، وَلَا أَنَا تَرَكْتُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً .

(٣) عَدَلْتُ : سَوَّيْتُ وَمَاثَلْتُ ، وَالْمَعْنَى : إِنِّي لَمْ أَعُدِّ الْأَمْرَيْنِ رُجْحَانًا عَلَى الْآخَرِ فَيُعْلِبُهُ فَيُتَمِيلُ كِفَتَهُ ، بَلْ أَرَدْتُ الْمُهْمَا وَالْمَسَاوَاةَ فِيهِمَا ، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِ الشَّاعِرِ :

وَلِلَّهِ عِنْدِي جَانِبٌ لَا أُضِيئُهُ وَلِلَّهِ عِنْدِي وَجَانِبٌ

(٤) الْإِيقَةُ : الْحَبَّةُ ، وَقَدْ وَمِيقَةٌ يَمِيقُهُ - بِكَسْرِ الْمِيمِ ، أَحِبُّهُ ، فَهُوَ وَامِقٌ ، وَإِخْوَانُ الْمِيقَةِ : هُمُ أَصْدِقَاءُ الْحَبَّةِ وَالْوَدَادِ ، وَالْآفُ الْإِلْدَيْنِ يَسْتَنْصِرُ بِهِمْ ، وَيَسْتَصْرِخُهُمْ فِي الشَّدَةِ ، وَيَدْعُوهُمْ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ أَهْلٌ كَارِثَةٌ .

(٥) الْمَعْنَى : إِنَّهُ جَمَلَ أَخْلَاءَهُ نَوْعَيْنِ : نَوْعَ تَجْمَعَةِ الْأَكِيدَةِ =

وَجَعَلَهُ لِلنَّاسِ ، وَاللَّيْلَ لِلْكَاسِ^(١) .
 جَتَمَعَ إِلَيَّ فِي بَعْضِ لَيَالِي إِخْوَانِ الْخُلُوةِ ، ذَوُو الْمَعَانِي الْخُلُوةِ^(٢) ،
 فَتَازَلَنِي نُجُومُ الْأَقْدَاحِ^(٣) ، حَتَّى نَفَدَ مَا مَعَنَا مِنْ

= والنضُ وأدخره للنوازل والخطوب ، ووع تدعوه إليهم بمجالس الأُنس
 وأوقات من أهل الظرف والمروءة ووداعة الأخلاق ، ليتشاركوا في
 المأكل ونحوها من دواعي الطرب وبواعث الارتياح .

(١) : إن قسمة وقته وتسويته بين جدّه وهزله كانت هكذا ،
 فيقضى : الناس متحشما وقوراً قائماً بجليل الأعمال مؤدياً منها مالا قبيل
 لغيره عليهم ندمائه يستقون العقار ويحيلون القداح .

(٢) جماعة الندامى الذين يشاركونه النفقة والأُنس .

(٣) أقداح : أى الخمر التى تشبه النّجم فى الضياء والبريق ، ومن

نعوتهم لها الصفاء ، والوميض مع اللاأء ، وفى الأول يقول الشاعر :

رَقٌّ وَرَاقَتِ الْخَمْرِ فَتَشَابَهَا وَتَشَاكَلِ الْأَمْرُ
 فَكَبْرٌ وَلَا قَدَحٌ وَكَأَنَّهَا قَدَحٌ وَلَا خَمْرُ

ويقول أبو

نُجَيْمِ الْجُومِ وَقَفَ لَمْ يَتَمَكَّنْ بِهَا الْمَدَارُ
 فَلَمْ تَأْكُلِ اللَّيَالِي جُمَانَهَا مَا بِهَا أَنْتِصَارُ
 حَتَّى يَرُمَهَا تَلَائِي وَخَلَصَ السَّرُّ وَالنَّجَارُ
 آتٍ وَهَرٍ لَطِيفٍ عَيَانَ مَوْجُودِهِ ضِمَارُ
 لَا يَنْبُ حَيْثُ حَلَّتْ فَدَهْرُ شُرَابِهَا نَهَارُ

ويقول صريعم بن الوليد :

كَأَنَّهَا وَحَتَاءَ يَفْرَعُهَا
 تَكَادُ أَنْ كَلَّمَا مُرِجَتَ
 دُرٌّ تَحْدَرُ مِنْ سِلْكٍ مِنَ الذَّهَبِ
 فِي الْكَاسِ لَوْلَا بَقَايَا الرِّيحِ وَالْحَبِيبِ =

الزَّاح^(١).قَالَ: وَأَجْتَمَعَ رَأْيُ الدِّمَّانِ ، عَلَى فَصْدِ الدَّنَانِ^(٢) ،

= ويقول البحترى وقد ضمن بيتاً لأبي تمام :

فَأَشْرَبَ عَلَى زَهْرِ الرِّيَاضِ بِشَوْبِهِ زَهْرُ الْخُدُودِ وَزَهْرَةُ الصَّهْبَاءِ
 مِنْ قَهْوَةٍ تُنْسِي الْأَهْمُومَ وَتَبْعَثُ الْ- شَوْقَ الَّذِي قَدْ ضَلَّ فِي الْأَحْيَاءِ
 يُخْفِي الزُّجَاجَةَ لَوْنَهَا فَكَأَنَّهَا فِي الْكَفِّ قَائِمَةٌ بِغَيْرِ إِنَاءِ

وأحسن من هذا كله قول أبي نواس :

جَفَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يَلَائِمُهَا لَطَافَةٌ ، وَجَفَا عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءُ

وفي الثاني يقول :

فَلَوْ مَزَجْتَ بِهَا نُورًا لِمَارَجِهَا حَتَّى تَوْلَدَ أَنْوَارٌ وَأَضْوَاءُ

ويقول :

جَاءَتْ كَشْمَسٌ ضَحَى فِي يَوْمِ أَسْعَدِهَا مِنْ بُرُوجِ لَهْوٍ إِلَى آفَاقِ سَرَاءِ
 كَأَنَّهَا وَلِسَانُ الْمَاءِ بِقَرَعِهَا نَارٌ تَأْجِجُ فِي آجَامِ قَصَبَاءِ

ويقول :

كَأَنَّهَا فِي زُجَاجِهَا قَبَسٌ يَذْكَو بِلَا سَوْرَةٍ وَلَا لَهَبِ
 فَهِيَ بِغَيْرِ الْمِزَاجِ مِنْ شَرِّرٍ وَهِيَ إِذَا صُفِّقَتْ مِنَ الذَّهَبِ

(١) نغد : فنى وذهب ، والراح : من أسماء الخمر ، والمعنى : إننا ظلمنا نتحمسى

حتى لم يبق ما كان معنا شىء .

(٢) الفصد في الأصل : قطع العرق ليسيل منه الدم ، والدنان : جمع دن ،

وهو راقود الخمر وخابيته العظيمة ، والمراد من فصدها فتحها لأخذ ما فيها من الخمر ،

والمعنى : إنهم بعد أن أنفدوا ما معهم طلبت نفوسهم المزيد منها ، فاتفقوا على

فض الدنان لينالوا بغيتهم ويصلوا إلى ما أرادوا

فَأَسَلْنَا نَفْسَهَا^(١) ، وَبَقِيَتْ كَالصَّدْفِ بِلَا دُرٍّ^(٢) ، أَوِ الْمِصْرِ بِلَا حُرٍّ^(٣) .
 قَالَ : وَلَمَّا مَسْتَنَا حَائِنًا تَلَكَ دَعْتَنَا دَوَاعِي الشُّطَارَةِ^(٤) ، إِلَى حَائِنِ
 الْخَمْرَةِ^(٥) ، وَاللَّيْلِ أَخْضَرَ الدِّيَابِاجِ^(٦) ، مُعْتَلِمُ الْأَمْوَاجِ^(٧) ، فَلَمَّا أَخَذْنَا فِي

(١) النفس ، هنا : الدم ، والخمر تشبه الدم في اللون ونحوه .

(٢) الصَّدْفُ : جمع صَدْفَةٍ ، وهي غشاء الدرّة ، والمعنى إنهم بعد أن فَضُّوا
 ختم الروايق تركوها خالية لا قيمة لها كما تترك الصَّدْفَةُ بعد أخذ ما فيها من ثمين
 الجواهر ، وهذا كناية عن استيعابهم لجميع ما كان فيها ، ومن تشبيه الخمر بالدرّ :
 كَانَ صُغْرَى وَكُؤْبَرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا حَضْبَاءَ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ
 (٣) إذا دخلت المصّر من الحرّ والجريء المقدم فأئى فرق بينها وبين
 الصحارى المُجْدِبَةِ والديار البَلَّاقِ ؟ فهو يقول : إننا تركنا الدَّانَ ولا قيمة لها
 وهي لا تساوى شيئاً .

(٤) مستنا : أَلْجَأْنَا ، واضْطَرَّتْنَا ، والشطارة : الخبث الشديد ، والميل إلى
 الدَّعَاةِ والفسق .

(٥) الحان والحانة : حانوت الخمار ، ومنه سميت الخمر : بِنْتُ الحان ، والخمارة :
 مكان ابتياع الخمر وتمسّيتها ، والإضافة من باب إضافة الشيء إلى نفسه ، كقولهم :
 مسجدُ الجامع ، والمعنى : إن حالتنا الأولى عند ما فرَغَتِ الخمر التي كانت لدينا
 اضطرتنا إلى الذهاب للبحانٍ لمتابعة الشرب فيها ومواصلته .

(٦) الديباج في الأصل : الثوبُ إذا كان سُدَّاه ولحمته من حرير ، واللون
 الأخضر إذا اشتدَّ كان أَدْ كَنَّ مُظْلَمًا ، والمراد وصف الليل بشدة سواده .

(٧) اغتلام الأمواج : ثَوْرَتُهَا ، وهياجها ، وكثرة اضطرابها ، وذلك تأكيد
 لسابقه في نعمت اسوداد الليل وظلامه ، ولأبي العلاء المرعّئى في وصف ليل أنسٍ
 ما يقرب من ذلك ، وذلك قوله :

رُبَّ لَيْلٍ كَأَنَّهُ الصَّبِيحُ فِي الحُسْنِ وَإِنْ كَانَ أسودَ الطَّيْلَسَانِ =

السَّبْحِ (١) ، ثَوَّبَ مُنَادِي الصُّبْحِ (٢) ، فَخَسَّ شَيْطَانُ الصَّبُورَةِ (٣) ، وَتَبَادَرْنَا إِلَى الدَّعْوَةِ (٤) ، وَقَمْنَا وَرَاءَ الْإِمَامِ ، قِيَامَ الْبَرَّةِ الْكِرَامِ ، بِوَقَارٍ وَسَكِينَةٍ ،

== قَدْ رَكَضْنَا فِيهِ إِلَى اللَّهِوَمَا لَمَّا وَفَفَ النَّجْمُ وَقَفَةَ الْخَيْرَانِ
 لَيْلَتِي هَذِهِ عَرُوسٌ مِنَ الزَّيْجِ عَلَيْهَا قَلَانِدٌ مِنْ جُمَانِ
 هَرَبَ النَّوْمُ عَن جُنُونِي فِيهَا هَرَبَ الْأَمْنُ عَن فُؤَادِ الْجَبَانِ
 وَكَأَنَّ الْهَلَالَ يَهْوَى الثَّرِيًّا فَمَا لِلْوَدَاعِ مُقْتَرِنَاتِ
 وَسُهَيْلٌ كَوَجَنَةِ الْحَبِّ فِي اللَّوْنِ وَقَلْبِ الْحَبِّ فِي الْخَفَقَانِ
 مُسْتَبِدًّا كَأَنَّهُ الْعَارِسُ الْمُعْلَمُ يَبْدُو مُعَارِضَ الْفُرْسَانِ
 يُسْرِعُ اللَّامِحَ فِي أَحْمَرَارِ كَمَا تُسْرِعُ فِي اللَّامِحِ مُقَلَّةُ الْغَضْبَانِ
 ضَرَجَتْهُ دَمًا بِسُيُوفِ الْأَعَادِي فَبَكَتْ رَحْمَةً لَهُ الشُّعْرِيَانِ
 قَدَمَاهُ وَرَاءَهُ وَهُوَ فِي الْعَجْزِ كَسَاعِ لَيْسَتْ لَهُ قَدَمَانِ
 ثُمَّ شَابَ الدُّجَى وَخَافَ مِنَ الْهَجْرِ فَعَطَى الْمَشِيبَ بِالزَّعْفَرَانِ
 وَنَضًا فَجَرَّهُ عَلَى نَسْرِهِ الْوَا قِعَ سَيْفًا فَهَمَّ بِالطَّيْرَانِ

(١) السَّبْحُ فِي الْأَصْلِ : السَّيْرُ فِي الْمَاءِ ، وَلَمَّا كَانَ قَدْ شَبِهَ اللَّيْلَ بِالْبَحْرِ ذِي

الأمواج المتسكئة المتوازية فقد سُمِّيَ سيرهم إلى الحرارة سَبْحًا .

(٢) منادى، الصبح : المؤذن الذي يدعو الناس إلى الصلاة ، وأصل التشويب

في اللغة : الاجتماع والحجى ، وهو في عرف الشرع أن يقول المؤذن لصلاة الصبح :

« الصلاة خير من النوم » مرتين ، ولعل أصل التسمية الشرعية من ذلك ؛ لأن

هذا الكلام معناه الدعوة لاجتماع الناس ومجيئهم ، وربما صح أن تكون لأنه

يشبه التبشير بالثواب لمن حضر .

(٣) خَسَّ : انخزل وانقبض ، وفي التنزيل : (مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ

الْخَنَّاسِ) أى الذى يُبْلِغُ بِالْوَسْوَسَةِ ثم يفر هاربا .

(٤) تبادرنا إلى الدعوة : سِرْنَا لتلبيتها مبادرين مسرعين ، والدعوة هى =

وَحَرَكَاتٍ مَوْزُونَةٍ^(١) ، فَلِكُلِّ بِيضَاعَةٍ وَقْتٌ^(٢) ، وَلِكُلِّ صِنَاعَةٍ سَمْتٌ^(٣) ، وَإِمَامُنَا يَجِدُ فِي خَفْضِهِ وَرَفْعِهِ^(٤) ، وَيَدْعُونَا بِإِطَالَتِهِ إِلَى صَفْعِهِ^(٥) ، حَتَّى إِذَا رَاجَعَ بِصِيرَتِهِ^(٦) ،

= الأذان ، والمعنى : إنا لم نكذب نعتزم السير إلى الحان حتى نفدنا ذلك العزم وأخذنا في طريقها ، فما سرنا قليلا حتى سمعنا المؤذن ينادى لدعوة العباد إلى الصلاة ، ولم يقرع أسمعنا صوته حتى ذهب عنا الشيطان ، وغادرتنا دواعي التصابي ، وفارقنا نزع الشباب ، فذهبنا نحو المسجد مُسْرِعِينَ لتأدية فريضة الصلاة .

(١) المعنى : إنا حين قامت الصلاة دَخَلْنَا صفوفها ؛ فوقفنا وقوف العباد مع الخضوع لجبروت الله سبحانه والوقار والأدب ، وكان الذي كنا فيه لم يكن .
(٢) أى : أن كل سَاعَةٍ لها وَقْتُ تَمَرُّضٍ فيه ، لا يناسبه غيرها ، ولا يناسبها غيره ، والبضاعة هنا هي الوقار والسكينة وتوازن الحركات والخشوع ، ووقتها هو وَقْتُ الصلاة التي تؤدى فيه .

(٣) السَّمْت : الجهة ، والمراد هنا الهيئة والحال ، والمعنى : إن كل حرفة وصناعة لها هيئة خاصة لا يليق فيها غيرها .

(٤) الخفض والرفع : المراد بهما هنا الركوع والسجود ، ومعنى جِدَّ الإمام فيهما اجتهاده وتشديده في تأديتهما .

(٥) الصَّفْعُ : الضربُ على التقا خاصة ، ومعنى دعوته أيام إلى ذلك أنه يُطِيلُ إطالةً تجعلهم يَمَكُونُ الصلاة ويسأمونها فلا يجدون لأنفسهم تَحَرُّحًا غير صَفْعِهِ واستنهاضه للسرعة والإنجاز .

(٦) البصيرة : الفطنة ، والحزم ، والعقل ، والتدبير ، ومُرَاجَعَتُهُ لها : طلبه منها الرجوع إليه ، وكأنما كان قد افتقدَها بسبب إطالته ، فلما اعتزم على الانتهاء كأنه قد أعادها إلى نفسه ورجعها .

وَرَفَعَ بِالسَّلَامِ عَقِيرَتَهُ^(١) ، تَرَبَّعَ فِي رُكْنٍ مَحْرَابِهِ^(٢) ، وَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ عَلَى أَصْحَابِهِ ، وَجَعَلَ يُطِيلُ إِطْرَاقَهُ ، وَيُدِيمُ اسْتِنشَاقَهُ^(٣) ، ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ خَاطَ فِي سِيرَتِهِ^(٤) ، وَابْتَلَى بِقَاذُورَتِهِ^(٥) ، فَلَيْسَ لَهُ دِيْمَاسُهُ^(٦) ، دُونَ أَنْ تُنَجِّسَنَا أَنْفُسَهُ ، إِنِّي لَأَجِدُ مِنْذُ الْيَوْمِ ، رِيحَ أُمَّ الْكِبَائِرِ مِنْ بَعْضِ

(١) عَقِيرَتُهُ : صَوْتُهُ ، وَالصَّلَاةُ خَتَامُهَا التَّسْلِيمُ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : وَلَمَّا خَتَمَ

الصَّلَاةَ وَانْتَهَى مِنْ أَعْمَالِهَا .

(٢) الْحَرَابُ : مُقَامُ الْإِمَامِ مِنَ الْمَسْجِدِ ، وَتَرَبَّعَ : جَلَسَ .

(٣) الْإِطْرَاقُ : السَّكُوتُ مَعَ إِرْخَاءِ الْعَيْنَيْنِ نَحْوِ الْأَرْضِ ، وَالِاسْتِنشَاقُ :

اسْتِثْمَامُ الرِّيحِ ، وَإِدْمَانُهُ : الْإِكْتَارُ مِنْهُ ، وَكَأَنَّهُ كَانَ قَدْ شَمَّ رَائِحَةَ الْحَجْرِ ، فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَبِتَ مِنْهَا لِيَقْدَّمَ إِلَى الْجَمَاعَةِ نَصِيحَتَهُ الَّتِي سَيَذْكُرُهَا بَعْدَ ، وَقَالَ الْأَسْتَاذُ الْإِمَامُ : إِنْ مَعْنَى اسْتِنشَاقِهِ شِمُّهُ النَّشُوقَ ، وَذَلِكَ مَعْنَى يَبَاهُ الذُّوقِ الْأَدْبِيِّ وَنَجَّهَ الطَّبِيعَ ، وَلَا يَلْتَمُّ مَعَ سِيَاقِ الْكَلَامِ الْإِلْتِمَامَ الْمَرْغُوبَ فِيهِ .

(٤) خَلَطَ فِي سِيرَتِهِ : أَتَى بِمَنْسُكِرِ الْأَعْمَالِ وَشَنِيعِهَا ، وَارْتَكَبَ فِظَائِحَ

الْأُمُورِ وَخَبِيثَاتِهَا ، مَعَ كَوْنِهِ يُوَدِّي بَعْضَ أَعْمَالِ الصَّلَاحِ وَالتَّقْوَى ، وَفِي التَّنْزِيلِ (خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) .

(٥) الْقَاذُورَةُ فِي الْأَصْلِ : مَا تَقَدَّرُ مِنْهُ النَّفْسُ ، وَتَشْمُزُ ، وَتَفْرِئُ ، وَالْمُرَادُ

هَذَا السَّيِّئَةُ ، سَمَّاهَا بِذَلِكَ كَمَا سَمِيَتْ فِي الْحَدِيثِ : « مَنْ ابْتَلَى بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ فَلَيْسَتْ تَرِي بِسِتْرِ اللَّهِ » لِأَنَّ مَرْتَكِبَهَا يَتَلَطَّخُ كَمَا يَتَلَطَّخُ مِنَ تَعْلُوهِ الْأَدْنَسِ وَالْأَفْذَارِ ، وَلِأَنَّ النَّفُوسَ تَبْتَعِدُ عَنْهُ ، وَتَنْفِرُ مِنْهُ كَمَا تَنْفِرُ مِنَ الْقَدْرِ الْمُنْتَنِ .

(٦) الدِّيْمَاسُ : الْمَنْزِلُ ، وَالْبَيْتُ ، وَالْمَعْنَى مَنْ كَانَ مِنْكُمْ قَدْ ابْتَلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى

بِشَيْءٍ مِنَ الْمَعَاصِي فَعَلَيْهِ أَنْ يَقْبَعَ فِي دَارِهِ وَيَلْزِمَ بَيْتَهُ ؛ فَإِنْ التَّسْتَرَّ عَلَى النَّفْسِ مَمْدُوبٌ إِلَيْهِ ، وَالْعِقَابُ عَلَى الْجُرْمِ مَعَ الْمَجَاهِرَةِ أَشَدُّ مِنَ الْعِقَابِ عَلَيْهِ مَعَ الْإِسْتِتَارِ ؛ لِأَنَّ الْمَجَاهِرَةَ أَمَارَةٌ عَدَمِ الْإِكْتِرَافِ ، ثُمَّ هِيَ تَحْرِيفُ لَغْوِهِ عَلَى الْإِثْبَانِ بِمِثْلِ فَعَلَهُ

الْقَوْمِ (١) ، فَمَا جَزَاهُ مَنْ بَاتَ صَرِيحَ الطَّاغُوتِ (٢) ، ثُمَّ ابْتَسَرَ إِلَى هَذِهِ
الْبُيُوتِ (٣) ، الَّتِي أذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ (٤) ، وَبِدَائِرِ هَؤُلَاءِ أَنْ يُقَطَعَ (٥) ،
وَأَشَارَ إِلَيْنَا ، فَتَأَلَّبَتِ الْجَمَاعَةُ عَلَيْنَا (٦) ، حَتَّى مُزِّقَتِ الْأُرْدِيَةُ (٧) ،

(١) أم الكباثر: هي الحجر ، وبذلك سميت في الحديث ، وهي تبعث إلى
الشر ، وتذكي لهيبَ الفَسَادِ ، وتوجِّعُ نيرانَ المعصية ، فمن شَرِبَهَا هَانَ عَلَيْهِ بَعْدَهَا
أَنْ يَفْعَلَ كُلَّ شَيْءٍ ؛ لِأَنَّهُ حَيْثُ يُذَكَّرُ بِمَسَلُوبِ الْعَقْلِ ، قَائِدَ الرَّشْدِ ، ضَائِعَ
الْتِمِيزِ ؛ فَيُرْتَكَبُ الْكَبِيرَةُ ، وَيَتَدَنَّسُ بِالْخَاذِرِيِّ وَالْآثَامِ ، وَمِنْ أَجْلِ هَذَا أُطْلِقُ
عَلَيْهَا ذَلِكَ الْأَسْمَ .

(٢) الطاغوت: الشيطان ، وصريعه: المقهور له ، المغلوبُ بوسواسه .

(٣) ابتسَرَ: جاء مبكراً ، والمراد بالبيوت المساجد .

(٤) أذن الله أن ترفع: أعلم عباده بوجوب العمل على رفعها والمغلاة
في احترامها ، وقد أخذ هذا من قوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ
وَيُذَكَّرُ فِيهَا مِنْهُمْ ﴾ .

(٥) دابر القوم: آخر من بقي منهم ، وأصله الدبر - بالتخفيف والتثقيب
معاً - وهو الظَّهْر ، كناية عن استئصال شأقتهم ، والقضاء على جميعهم ، وفي
التنزيل: ﴿ فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، والمعنى:
أى عقوبة تقدرونها على هؤلاء الجماعة التي تقطع ليلها كله متلبسة بالمآثم
والخطايا مستنمية للشيطان يُلْقِي إليها وينفخ فيها من رُوحه الفاسدة الشريرة ،
ثم تبيئنا في هذه المساجد التي لم تجعل للفسدة والمرتكبين ، وإنما أقيمت للعباد
الصالحين ؟ وكأنه يريد بهذا الاستفهام إنكار أمر الشاربيين وتفظيحه في نظر
جماعته .

(٦) تألَّبت: اجتمعت ، وتناصرت في ضررهم والتنكيل بهم وإهاتهم .

(٧) الأردية: جمع رداء ، وهو الثوب .

وَدَمِيَّتِ الْأَفْصِيَّةُ^(١) ، وَحَتَّى أَقْسَمْنَا لَهُمْ لِأَعْدَانَا ، وَأَفْلَتْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ وَمَا كِدْنَا ،
 وَكُلْنَا مُفْتَقِرِينَ لِلْسَّلَامَةِ ، مِثْلَ هَذِهِ الْأَقْفَةِ^(٢) ، وَسَأَلْنَا مَنْ مَرَّ بِنَا مِنْ
 الصَّبِيَّةِ^(٣) ، عَنْ إِمَامِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ ، فَقَالُوا : الرَّجُلُ التَّيُّ ، أَبُو الْفَتْحِ
 الْإِسْكَانْدَرِيُّ ، فَقُلْنَا : سُبْحَانَ اللَّهِ ! رُبَّمَا أَبْصَرَ عَمِيَّتٌ^(٤) ، وَآمَنَ
 عَفْرِيَّتٌ^(٥) ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَقَدْ أَسْرَعَ فِي أَوْبَتِهِ^(٦) ، وَلَا حَرَمَنَا اللَّهُ مِثْلَ

(١) دَمِيَّتٌ : سال دَمَهَا ، والمعنى : إن الضرب الذي أنزلوه بنا كان
 شديداً جداً حتى لقد أسال دماء أقفيتنا (وهذا هو أثر الصَّفْعِ) ومَزَقَ ثيابنا
 بسبب المجاذبة .

(٢) المعنى : إننا ما كنا نظن أننا سنخرج من تحت أيديهم وفي واحد
 من رَمَقِ الْحَيَاةِ ، فلما أذن الله بالسلمة واختارها لنا عفوناً عن كل ما نالنا .

(٣) الصبية : الصبيان ، جمع صَبِيٍّ .

(٤) عَمِيَّتٌ - بوزن سَكَيْت - السكران ، والجاهل الضعيف ، وَمَنْ
 لَا يَهْتَدِي إِلَى جِهَةٍ ، والمعنى : إننا عهدناه على زيف عن الحق ، وميل إلى الفجور ،
 وانحراف عن الجادة ، فاعله استهدى بنور اليقين؛ فوضح له الطريق البين ، وظهر
 لعينه فجر الصواب .

(٥) العفريت : الشيطان ، والناس تنسب كلَّ فعلٍ غريبٍ نادرٍ الوقوع
 شاقٍّ على الفاعل إلى الشياطين ، ويقولون : فلان عفريت ، أو شيطان ، على
 التشبيه ، يريدون أنه يأتي بالأفعال التي تكون شاقَّةً على أكثر الناس ، والمعنى :
 إننا نعرف أبا الفتح سادراً في اللهو ، آتياً بشنيع الأعمال ، فاعلا لفظيها ، فاعل
 جَذْوَةِ الْإِيمَانِ قَدْ اتَّقَدَّتْ بقلبه فأحرقت شعاب الباطل ، ولعل برَّد الطاعة قد
 أُنلَجَ صَدْرَهُ فاطفاً نار العصيان .

(٦) الأوبة : الرجوع ، والمراد رجوعه إلى الله تعالى والعمل بأوامره .

تَوَيْبَتِهِ^(١) ، وَجَعَلْنَا بَقِيَّةَ يَوْمِنَا نَعَجِبُ مِنْ نُسُكِهِ^(٢) ، مَعَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ فِسْقِهِ^(٣) .

قَالَ : وَلَمَّا حَشَرَ جَ النَّهَارُ أَوْ كَادَ^(٤) ، نَظَرْنَا فَإِذَا بِرَايَاتِ الْحَانَاتِ أَمْثَالِ النُّجُومِ ، فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ^(٥) ، فَتَهَادَيْنَا بِهَا السَّرَّاءَ^(٦) ، وَتَبَاشَرْنَا بِبَلِيَّةٍ

(١) المعنى : إنا نحمد الله جَلَّتْ قُدْرَتُهُ الَّذِي وَفَّقَهُ إِلَى الْهَدَايَةِ ، وَنَشْكُرُهُ سُبْحَانَهُ إِذْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا فَرَجَمَهُ إِلَى صَالِحِ الْأَعْمَالِ قَبْلَ أَنْ يَنْصَرِمَ الْعَمْرُ وَيَضِيعَ الْأَمَلُ ، وَنَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يُعَجِّلَ لَنَا مَا عَجَّلَهُ لَهُ .

(٢) النُّسُكُ : الْعِبَادَةُ ، وَقَدْ نَسَكَ يَنْسُكُ - بِالضَّمِّ - نُسُكًا - بوزن رُشِدٍ - أَيْ تَعَبَّدَ ، وَنُسُكًا - مِنْ بَابِ ظَرْفٍ - صَارَ نَاسِكًا .

(٣) الْفِسْقُ : الْفُجُورُ ، وَالخُرُوجُ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ ، وَقَدْ فَسَقَ الرَّجُلُ يَفْسُقُ بِالضَّمِّ - فِسْقًا ، وَفِيهِ لَفَةٌ أُخْرَى مِنْ بَابِ جَلَسَ جُلُوسًا ، وَمَعْنَاهُ خَرَجَ ، وَفِي التَّنْزِيلِ ﴿ فَفَسَقَ عَنِ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ أَيْ خَرَجَ ، وَالْمَعْنَى : إِنَّا ظَلَلْنَا عَامَةً يَوْمِنَا وَالْعَجَبُ بِأَخْذِنَا مِنْ عِبَادَةِ أَبِي الْفَتْحِ ، وَوَرَعِهِ ، وَزَهْدِهِ فِي اللَّذَائِدِ وَالشَّهَوَاتِ ؛ لِأَنَّا عَرَفْنَاهُ وَهُوَ لَا يَعْمَلُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَلَا يَرْضَخُ لِعِبَادَتِهِ .

(٤) يُقَالُ : حَشَرَ الرَّجُلُ حَشْرَجَةً ؛ إِذَا غَرَّغَرُ عِنْدَ الْمَوْتِ ، وَحِينَئِذٍ تَكُونُ حَيَاتُهُ مَوْشِكَةً أَنْ تَنْتَهِيَ ، وَعَلَيْهِ حَشْرَجَةُ النَّهَارِ هُنَا ، أَيْ اتِّهَامُهُ أَوْ قُرْبُ ذَلِكَ .

(٥) رَايَاتِ الْحَانَاتِ : أَعْلَامُهَا ، وَاللَّيْلِ الْبَهِيمِ : الَّذِي اشْتَدَّتْ حُلُوكَتُهُ وَظِلَامُهُ ، وَالْمَعْنَى : إِنَّهُ حِينَمَا أَوْشَكَ النَّهَارُ أَنْ يَنْصَرِمَ - أَوْ انْصَرَمَ فَعَلًا - نَظَرْنَا فَإِذَا نَحْنُ نَرَى الْأَعْلَامَ قَدْ نَشِرَتْ فَوْقَ الْحَانَاتِ وَهِيَ أَمَا كُنَّا الْخَمْرَ ، فَبَدَتْ لِأَعْيُنِنَا كَأَنَّهَا النُّجُومُ تَسْطَعُ فِي الدَّجَى فَتَنْبِيرُ ظِلَامِهِ وَتَنْزِيلُ غَيَاهِبِهِ .

(٦) تَهَادَيْنَا : أَهْدَى بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ ، وَالسَّرَّاءُ : الْمَسْرَّةُ وَالْحُبُورُ .

غَرَاءٌ^(١) ، وَوَصَلْنَا إِلَى أَفْخَمِهَا بَابًا^(٢) ، وَأَضْخَمَهَا كِلَابًا ، وَقَدْ جَعَلْنَا الدِّينَارَ
إِمَامًا^(٣) ، وَالِاسْتِهْتَارَ لِرِزَامًا^(٤) ، فَدَفَعْنَا إِلَى ذَاتِ شَكْلِ وَدَلِّ^(٥) ، وَوِشَاحٍ
مُنْحَلِّ^(٦) ،

(١) تباشرنا : بَشَّرَ بَعْضُنَا بَعْضًا ، وليلة غراء : أصلُ معناها ليلة بيضاء ،
وذلك لسكثرة الأنوار فيها ، والمراد أنها ذات بهجة وجمال ، والمعنى : إننا حين
نظرنا هذه الآيات صار كل واحد منا يُهْدِي إلى الثاني السرور ، ويبشره بسعادة
ليلتنا وجمالها ، وما سنلقاه فيها من لذة وأنس .

(٢) أراد من أفخمها بابا السكناية عن أن الحانة التي وصلوا إليها أكبر
الحنات ، وأكثرها جمعا لأسباب المسرة ودواعي الانشراح .

(٣) الدينار : المراد منه جنسه ، أى النقد ، والإمام : المرادُ منه هنا القيم
الذى يقوم بالشؤون ويدبر الأمور ، والمعنى : إن الدينار هو الذى يُنِيلُهُمْ ما يريدون ،
ويأتيهم بكل ما يحبون ، ويوفِّيهم لذتهم ، ويوفر لهم سعادتهم .

(٤) الاستهتار : اتباع الشهوات ، والسير مع الأهواء من غير مبالاة
ولا اكتراث ، ولزَامًا : أى مُلَازِمًا لا يفارقنا ولا يرحل عنا ، والمعنى : إننا
جعلنا السير وفق أغراضنا وطوع شهواتنا وديدنا لنا ، وصفة ملازمة لا تفارقنا
ولا نَحِيدُ عنها قط .

(٥) دفننا : أى أدانا سيرنا ، وذات شكل : أى ربة حسن وغزل ،
والدَلُّ : هو مزج الرضا بالغضب ، والجَمْعُ بين البذل والتمتع .

(٦) الوشاح : شبه علاقة السيف ، يتخذ من أديم عريض ويرصع باللؤلؤ
والجواهر ، ثم تجعله المرأة بين عاتقها وكشْحِها ، ومُنْحَلِّ : أى لا يكاد يمسك
بخصرها لا تساعه ونحافة الخصر ، والمعنى : إننا سرنا للحنانة ، فلما وصلناها دَفَعْنَا
الباب ، فإدانا هذا إلى فتاة تأخذ بالألباب ، وتفتك بالعقول ، وتأسرُ النَّهْيَ ،
وتسلب الحبا ؛ لما هى عليه من صباحة الوجه ، ولطافة الحيا ، ولين الأعطاف ،
ونحولة الخصر .

إِذَا قَتَلْتَ الْخَاطِظَ ، أَحْيَيْتَ الْفَاطِظَ^(١) ، فَأَحْسَنْتَ تَلَقِّيْنَا ،

(١) يشبهون الألفاظ بالسحر ، والألحاظ بالسيوف المصلّنة ، وبالقيسيّ المعطّفات ، وبالنصال ، وينسبون إليها القتل ، وتجد ذلك في كلامهم كثيراً ؛ فنه قول جرير :

إِنَّ الْهُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ قَتَلْنَا مُمَّ لَمْ يُنْحَيْنِ قَتْلَانَا
يَصْرَعَنَّ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ وَهَنَّ أَضْعَفُ خَلَقِ اللَّهِ إِنْسَانًا

وقول الآخر :

نَحْنُ قَوْمٌ تُدَيِّبُنَا الْأَعْيُنُ النَّجْلُ عَلَى أَنَّنَا نَذِيبُ الْحَدِيدَا

وقول البحترى :

أَيْنَ الَّتِي كَانَتْ لَوَاحِظُ طَرْفِهَا يَضْبُو إِلَيْهَا الْقَلْبُ وَهِيَ سِهَامٌ ؟

وقول ابن الرومي :

لَيْتَ شِعْرِي أَسْحَرُ عَيْنَيْكَ ذَاهِ إِذَا قَلْبِ أَمْ نَارُ خَدِّكَ أَوْ هَاجِ ؟
أَيُّهَا النَّاسُ وَنِحْمُكُمْ هَلْ مُنِيتُ لَشِجٍ يَسْتَفِيثُ مِنْ ظُلْمِ شَاجِ ؟
مَنْ مُجِيرِي مِنْ أَضْعَفِ النَّاسِ رُكْنَا وَلِعَيْنَيْهِ سَطْوَةُ الْحَجَاجِ ؟؟؟

و بديع قول أبي تمام :

يَاجِفُونَا سَوَاهِرَا أَعْدَمَتَهَا لَذَّةُ النَّوْمِ وَالرُّقَادِ جُفُونُ
بَلَى الْجِسْمُ لَكِنَّ الشَّوْقُ حَتَّى لَيْسَ يَنْبَلَى ، وَلَيْسَ تَنْبَلَى الشُّجُونُ
إِنَّ اللَّهَ فِي الْعِبَادِ مَنَابَا سَلَطْنَهَا عَلَى الْفُلُوبِ الْعُيُونُ

وللتهايم :

فَتَوَقَّ أَعْيُنَ عَامِرٍ وَسُيُوفَهَا كُلُّ - وَجَدَّكَ - صَارِمٍ بَتَّارُ
وما أبدع قول أبي نُوَاس :

وَأَسْرَعَتْ تُقَبَّلُ رُؤُوسَنَا وَأَيْدِينَا^(١)، وَأَسْرَعَ مَنْ مَعَهَا مِنَ الْعُلُوجِ، إِلَى حَطِّ
الرِّحَالِ وَالذُّبْرُوجِ^(٢)، وَسَأَلْنَاهَا عَنْ خَرِّهَا، فَقَالَتْ:

خَرَّ كَرِيْقِي فِي الْعَدُوِّ بَقْرَةَ وَاللَّذَاذَةَ وَالْحَلَاوَةَ^(٣)

= لَوْ نَظَرْتَ عَيْنَاهُ إِلَى حَجَرٍ وَوَلَدَ فِيهِ فُتُورُهَا سَقَمًا

ومعنى ما في المقامة أن لهذه الفتاة عيونًا قاتلات ، وجفونا ساحرات ،
ولكنها تقتل بعينها ثم تُحْيِي موتاها بَعْدُوبِهِ أَلْفَاظَهَا ، ومثلُ هذا تقريبا قولُ
ابن الرومي :

حُورٌ سَحَرْنَ وَمَا نَفَثْنَ بِرِيقِيَةِ قَبْلَفْنَ مَا لَا يَبْلُغُ النَّفَاثُ
لَحَظَاتُهُنَّ إِذَا رَنَوْنَ إِلَى الْقَتَى بَلَوِي ، وَلَكِنْ رِيْقُهُنَّ عِيَاثُ
مَا فِي حَبَائِلِ كَنِيْدِهِنَّ رَنَائِمَةٌ لَكِنْ حِبَالُ وَصَالِهِنَّ رِثَاثُ

(١) تَلَقَّيْنَا : مُقَابِلَتْنَا ، وَلَقِيَانَا ، وَلِلْمَعْنَى : إِنهَا لَقِيْتْنَا لِقَاءَ حَسَنًا ، وَرَفَعْت
مَنْزِلَتْنَا ، وَزَادَتْ فِي احْتِرَامِنَا .

(٢) الْعُلُوجُ : جَمْعُ عُلُوجٍ ، وَهُوَ الرَّجُلُ الضَّخْمُ مِنْ كِفَارِ الْعِجْمِ ، أَوْ هُوَ
الْكَافِرُ مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ مُطْلَقًا ، وَالرِّحَالُ : جَمْعُ رَحْلٍ ، وَهُوَ مَا يَسْتَصْحِبُهُ الرَّجُلُ
مِنَ الْأَنْثَاءِ ، أَوْ هُوَ رَحْلُ الْبَعِيرِ ، وَلَكِنَّهُ بَعِيدٌ هُنَا ، وَالسُّرُوجُ : مَعْرُوفَةٌ ،
وَالْمَعْنَى : إِنْ مَنْ كَانَ مَعَ هَذِهِ الْفَتَاةِ مِنَ الرِّجَالِ حِينَ رَأَى حِفَاوَتَهَا بِنَا تِسَادَرَ
إِلَى إِنْزَالِ مَا عَلَى رِكَابِنَا مِنَ الْمَتَاعِ إِجْلَالًا لَنَا وَحِفَاوَةً بِنَا .

(٣) أَيْ أَنَّ هَذِهِ الْجَمْرَ الَّتِي عِنْدِي تُشْبِهُ رِيْقِي - وَالرِّيْقُ مَاءُ الْفَمِ - مِنْ
وَجْهِهِ ثَلَاثَةٌ : الْأُولَى عَذُوبَتُهَا ، وَالثَّانِي لَذَّةُ مَا تَجِدُونَ مِنْ تَذْوِقِهَا ، وَالثَّلَاثُ - .
مَذَاقُهَا .

تَذَرُ الحَلِيمَ وَمَا عَلَيَّ - هـ لِحْمِهِ أَذْنِي طَلَاوَةً^(١)
 كَأَنَّما اعْتَصَرَهَا مِنْ خَدِّي^(٢) ، أَجْدَادُ جَدِّي^(٣) .

(١) تَذَرُ : تَدَعُ ، وَتَتْرِكُ ، وَالطَّلَاوَةُ - بِتَثْنِيتِ الطَّاءِ - : الْبَهْجَةُ ، وَالْحَسَنُ ، وَالرَّوَاءُ ، وَالْمِنْظَرُ ، وَالْمَعْنَى : إِنْ هَذِهِ الْحَمْرُ مَتَى شَرِبَهَا الْحَلِيمُ تَجْعَلُهُ يَتْرِكُ حَلْمَهُ وَيَنْسَى سَكُونَهُ ، وَيَفَارِقُ وَقَارَهُ ، فَيَصْبِحُ وَلَا أَثَرَ لِلْحَلْمِ عِنْدَهُ ، وَلَا رُؤَاةَ لَهُ لَدَيْهِ ، وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ :

وَبِنْتِ مَجُوسِيٍّ أَبُوهَا حَلِيمٌ إِذَا نُسِبَتْ لَمْ تَعُدْ نَسِبَتَهَا النَّهْرَا
 قُلُوبُ النَّدَامِيِّ فِي يَدَيْهَا رَهِينَةٌ يَصِيدُونَهَا قَهْرًا وَتَقْتُلُهُمْ مَكْرًا
 إِذَا مَا تَحَسَّاهَا الْحَلِيمُ أَخُو النَّهْبِيٍّ أَسْرَبَهَا كَثِيرًا وَأَبْدَى بِهَا كَبْرًا

(٢) اعْتَصَرَهَا مِنْ خَدِّي : كِنْيَاةٌ عَنْ كُونِهَا حَمْرَاءَ اللَّوْنِ أَوْ صَفْرَاءَهُ ، - وَالصُّفْرَةَ مِنْ أَلْوَانِ النِّسَاءِ الْمُسْتَحْسِنَةِ أَيْضًا ، وَفِي كَلَامِ الْأَعْشَمِ مَيْمُونُ بْنُ قَيْسٍ يَصِفُ حَسَنَاءَ :

بَيْضَاءُ ضَخَّوَتْهَا وَصَفْرَاءُ الْعَشِيَّةِ كَالْعَرَارَةِ

وهذا التشبيه نفسه أخذه الشاعر المصري حافظ إبراهيم بك وزاد عليه فقال:

اسْتَقْنَا يَا غِلَامُ حَتَّى تَرَانَا لَا نُنْطِيقُ السَّكَّامَ إِلَّا بِهَمْسِ
 خَمْرَةٍ قِيلَ : إِنَّهُمْ عَصَرُوهَا مِنْ خُدُودِ الْمَلَّاحِ فِي يَوْمِ عُرْسِ

(٣) أَجْدَادُ جَدِّي : كِنْيَاةٌ عَنْ قِدَمِ الْعَهْدِ وَطُولِ احْتِبَاسِهَا فِي الدُّنْيَا ، وَهِيَ

مُعْتَدَحُونَ مِنَ الْحَمْرِ مَا كَانَ كَذَلِكَ ، قَالَ أَبُو نُؤَاسٍ :

عُتِقْتُ حَتَّى لَوْ اتَّصَلْتُ بِلِسَانِ نَاطِقٍ وَفَمٍ
 لَأَحْتَبْتُ فِي الْقَوْمِ مَا نِلْتَهُ ثُمَّ قَصَّتْ قِصَّةَ الْأُمِّ

وقال :

أَلَا خُذْهَا كَيْصَبَاحِ الظَّلَامِ - سَلِيلَةَ أَسْوَدٍ جَعَدٍ سُنْجَامِ

وَسَرَّ بُلُوهَا مِنَ الْقَارِ، بِمَثَلِ هَجْرِي وَصَدِّي^(١)، وَدَيْعَةُ الدُّهُورِ^(٢)،
وَخَيْبَتُهُ جَيْبِ الشَّرُورِ^(٣)، وَمَا زَالَتْ تَتَوَارَتْهَا الْأَخْيَارُ، وَيَأْخُذُ مِنْهَا اللَّيْلُ
وَالنَّهَارُ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْجٌ وَشُمَاعٌ^(٤)،

= مَعْتَقَةٌ كَمَا أَوْفَى لِنُوحٍ سِوَى تَحْسِينِ عَامَا أَلْفِ عَامٍ

أَقَامَتْ فِي الدَّنَانِ فَلَمْ يَضِرْهَا وَلَكِنْ زَانَهَا طُلُوقُ الْمَقَامِ

(١) سر بلوها: كسوها، والقار، ومثله القيْرُ: شيء أسود تطلّى به السفن

والإبل، وقيل: هما الزفت، والمراد أن لونها يضرب إلى السواد، وهو لون محمود
في الحجر عندهم، قال شيخ السكاري ومقدم حلبتهم أبو نُوَاس:

إِذَا امْتَنَحَتْ أَلْوَانُهَا مَالَ صَفْوُهَا إِلَى الْحَوِّ إِلَّا أَنْ أَوْبَارَهَا خُضِرُ

(٢) ودَيْعَةُ الدهر: أي أنها لم تزل من القرون الماضية كلما مضى قرن

استودعها الذي يليه، حتى وصلت إلينا؛ فهذا زيادة في تأكيد تفتيحها.

(٣) المعنى: إن السرور أخفاها لديه، وأبى أن يطلع عليها سوى

من هو لها أهل.

وَأَتْلَعَرُ قَدْ يَشْرِبُهَا مَغْشَرُهُ لَيْسُوا إِذَا عُدُّوا بِأَكْفَانِهَا

(٤) المعنى: إن الزمان قد لطفها وصرفاها وبالغ في ذلك حتى لم يبق منها

سوى أَرْجِيَّتَا (وهو الرائحة) والشَّمَاعُ، وقريب من هذا قوله:

فَلَمْ تَزَلْ تَأْكُلُ اللَّيَالِي جُمَانَهَا مَا يَبَا انْتِصَارُ

حَتَّى إِذَا جُرْمُهَا تَلَاثَى وَخَلَصَ السَّرُّ وَالنَّجَارُ

آلَتْ إِلَى جَوْهَرٍ لَطِيفٍ عَيَانُ مَوْجُودِهِ ضِمَارُ

لَا يَنْزِلُ الدَّهْرُ حَيْثُ حَلَّتْ فَدَهْرُ شَرَابِهَا نَهَارُ

وقوله:

فَجَوْزَهَا عَنِ سُلَاقًا تَرَى لَهَا إِلَى الْأَفْقِ الْأَعْلَى شُعَاعًا مُطَلَّبَنَا

وقول ابن الزيات:

وَوَهَجُ الدَّاعِ (١) ، رِيحَانَةُ النَّفْسِ (٢) ، وَضَرَّةُ الشَّمْسِ (٣) ، فَتَاةُ الْبَرْقِ (٤) ،

= وَصَهْبَاءُ كَرَحِيَّةٍ عُنْتَقَتْ فَطَالَتْ بِهَا فِي الدَّنَانِ الطَّيْلَانَ

فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا سِوَى لَوْنِهَا وَنَسَكَمَتْ رِيحًا لَهَا لَمْ تَزَلْ

(١) الوَهَجُ : الحرارة ، والدَّاعُ : المُخْرِقُ ، وأراد أن هذه الحر حارة

ولكن لا تظهر حرارتها في اللسان - كما هو مدلول الداع - بل في تنبيه الدم

وتحريكه ، وفي هياج الروح وإثارتها ، وقريبٌ من مثل هذا المعنى يقول الغزالي :

وَبَدْرُ قَبَاءِ زَارَ وَالْفَجْرَ غَيْرَةً يُرِينَا قَيْصَ اللَّيْلِ وَهُوَ قَبَاءُ

أَنِّي يَشْتَكِي هَزَّ الشَّمَالَ وَأَزَّهَا وَمَا عِنْدَنَا غَيْرَ الشَّمُولِ صَلَاةُ

فَقُلْنَا: أَدْرَاهَا فَهِيَ فِي الكَأْسِ جَمْرَةٌ تَلْطَى ، وَمِنْ فَرْطِ اللِّطَافَةِ مَاةُ

وما أبدع قول ابن الرومي في نفس المعنى الذي ذكره البديع :

وَشَمُولُ أَرْقَبَهَا الدَّهْرُ حَتَّى مَا تُوَارِي قَدَاتَهَا بِلَبُوسِ

وَرْدَةِ اللَّوْنِ فِي خُدُودِ النَّدَامَى وَهِيَ صَفْرَاهُ فِي خُدُودِ الكُؤُوسِ

سَهْلَةٌ فِي الخُلُوقِ لَا غَوْلَ فِيهَا وَهِيَ خَشْنَاءُ صَعْبَةٌ فِي الرَّهْوسِ

وَكَأَنَّ الشَّمَاعَ مِنْهَا عَلَى الكَفِّ جِسَادٌ عَلَى مَدَاكِ عَرُوسِ

تُتَلَقَّى بِالْبَسِ وَهِيَ تُحَيِّي بِنَسِيمِ فِيهِ حَيَاةُ النَّفُوسِ

(٢) الريحان : معروف ، والمعنى : إن هذه الحمر للنفس كالريحان تنعمشها

وتظهر عليها المسرة ، ولأبي نواس :

أَعْطَنَكَ رِيحَانَهَا العُقَارُ وَحَانَ مِنْ لَيْلِكَ انْسِفَارُ

(٣) الضرة : الزوجة على زوجة أخرى ، ويكون بينهما الشقاق الدائم

والنزاع الذي لا يتناهى ، والحسد الباقى ، وإنما ينشأ ذلك عن مزيد تفضيل

بين واحدة منهما والأخرى ، والمعنى : إن هذه الحمر تحسدها الشمس لأفضليتها

عليها وتفوقها عنها .

(٤) يقال : بَرَقَتِ الفَتَاةُ بَرَقًا ؛ إذا تحسنت وظهرت على أتم ما يكون =

عَجُوزُ الْمَلَقِ (١) ، كَاللَّهَبِ فِي الْعُرُوقِ (٢) ، وَكَبَرِدِ النَّسِيمِ فِي الْخُلُوقِ (٣) ،
مِضْبَاحُ الْفِكْرِ (٤) ، وَتَرْيَاقُ سَمِّ الدَّهْرِ (٥) ، بِمِثْلِهَا عَزَزَ الْمَيِّتُ
فَأَنْتَشَرَ (٦) ،

= من البهجة والجمال، والمعنى: إن هذه الخمر تأخذ بألباب شاربها وعقولهم، مثل ما تأخذ الفتاة إذا ظهرت في زينتها وتبرَّجت أمام عاشقها .

(١) دواعي الميل إلى العجوز غير موجودة ، وانصراف النفوس عنها إلى الخِرَادِ الفاعسات اللدان ، وكل هذا يضطرها إلى التلق للرجال واستعمال الحيلة لتسحرهم وتستميلهم نحوها ، فهو يقول : إن هذه الخمر تستميل بالدَّهَاءِ والخديعة والمَلَقِ كما تستميل العجوز أفئدة الناس إليها .

(٢) المعنى : إنها تعمل في العروق عمَل اللهب فتذكيها ، وتثير الدم غالباً ، ومثل هذا قول أبي نُوَاس :

تَلْتَهَبُ الْكُفَّ مِنْ تَلْتَهَبِهَا وَتَحْسِرُ الْعَيْنُ أَنْ تَقْصَاهَا
كَأَنَّ نَارًا بِهَا مُحْرَشَةٌ نَهَايَهَا تَارَةً وَنَفْسَاهَا

(٣) المعنى : لأنها لم تكن على حرارتها وتلمبها مما يلذع في الفم أو يشتد فعلها فيه ، بل إنها تشبه برُوداً في الخلق ، فهي سائفة منمشة .

(٤) أى أن شاربها يجد في فكره نورا يستضيء به في حلّ المشاكل ، ويترسّمه كلما غمضت عليه المسائل .

(٥) التَّرياقُ : دواء السموم الذي يشفي منها ، وأراد منه الدواء مجرداً ، بدليل إضافته إلى السَّمِّ ، وسم الدهر : نوازله وكروبه ، وأحزانه ، وشدائده ، ومن عادة الخمر أنها تُنسيك ما تكون فيه من هموم وأرزاء وتشلحك عما يحيط بك من ويل وعناء ، فهي بهذا ترياق لسموم الدهر .

(٦) عَزَزَ - بالبناء للمجهول - أَعِينَ وَأَمِدَّ ، وانتشر : بُعِثَ بعد موته ، والمعنى : إن مثل تلك الخمر لو يمدُّ به الميت لبعث من موته وعاد حياً . =

وَدُووِي الْأَكْمَهُ فَأَبْصَرَ^(١) ، قُلْنَا : هَذِهِ الضَّالَّةُ وَأَبِيكَ^(٢) ، فَمِنْ الْمَطْرِبِ
فِي نَادِيكَ^(٣) ؟

= ويقول ابن الفارض في هذا المعنى :

وَلَوْ وَضَعُوا فِي فِيهِ حَائِطٍ كَرَمَهَا - عَلِيلاً - وَقَدْ أَشْفَى - لِفَارَقَهُ الشُّمُّ
وَلَوْ نَضَحُوا مِنْهَا ثَرَى قَبْرِ مَيِّتٍ - لَعَادَتْ إِلَيْهِ الرُّوحُ وَانْتَعَشَ الْجِسْمُ
(١) الْأَكْمَهُ : الذي وُلِدَ أَعْمَى ، والمعنى : إن الخمر التي عندى لو يداوى

بها من وُلِدَ أَعْمَى ليعودَنَّ إليه البصر ، وقد جاء هذا المعنى في قول ابن الفارض :

وَلَوْ جُلِّيتَ مِيرًا هَلَى أَكْمَهُ غَدَاً - بَصِيرًا ، وَمِنْ رَاوُوقِهَا تَسْمَعُ الصَّمُّ
وَلَوْ أَنَّ رَكْبًا يَمْمُوا تُرْبَ أَرْضِهَا - وَفِي الرِّكْبِ مَلْسُوعٌ لَمَا ضَرَّهُ الشَّمُّ
وَلَوْ ضُضِبَتْ مِنْ كَأْسِهَا كَفَّ لَامِسٍ - لَمَا ضَلَّ فِي لَيْلٍ وَفِي يَدِهِ النَّجْمُ
وَلَوْ قَرَّبُوا مِنْ حَائِهَا مُقْعَدًا مَشَى - وَيَنْطِقُ مِنْ ذِكْرَى مَذَاقِنَهَا الْبُكْمُ
وَلَوْ رَتَمَ الرَّاقِي حُرُوفَ انْمِيهَا عَلَى - جَبِينِ مُصَابِ خَنْ أَبْرَاهُ الرِّسْمُ

(٢) الضَّالَّةُ : الأمر الذي فقَدته وأنت تبحث عنه ، والمعنى : إن الخمر

بهذه الأوصاف التي ذكَّرت هي بغيثنا وضالَّتنا التي ننشُدُها .

(٣) المطرب : المعنى ، وجماعة الشاربين لا يرون أن يشربوا على غير غناء .

قال أبو نُوَاس :

قَدْ أَسْحَبُ الرِّيقَ يَا بَابِي وَأَكْرَهُهُ - حَتَّى لَهْ فِي أَدِيمِ الْأَرْضِ أَخْدُودُ
لَا أُرْحَلُ الرِّيحَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهَا - حَادٍ بِمَنْتَخَلِ الْأَشْجَارِ غَرِيدُ
فَأَسْتَنْطِقُ الْعُودَ قَدْ طَالَ الشُّكُوتُ بِهِ - لَنْ يَنْطِقَ اللَّهُوَ حَتَّى يَنْطِقَ الْعُودُ

وقال من قطعة في وصف مجلس من مجالس لهو :

وَأَقْبَلَ نَحْسُودَ الْجَمَالِ مُقْرَطِقٌ - إِلَيَّ كَأْسِهَا لِأَعْيَبَ فِيهِ أَرِيْبُ
يَشْمُ النَّدَامَى الْوَرْدَ مِنْ وَجَنَاتِهِ - وَلَيْسَ بِهِ غَيْرَ الْمَلَاخَةِ طَيْبُ
فَمَا زَالَ يَسْتَقِينَا بِكَأْسِ نَجْدَةٍ - تَوَلَّى ، وَأَخْرَى بَعْدَ ذَلِكَ تَوُوبُ

وَأَعْلَمًا تُشْمَعُ لِلشَّرْبِ^(١) ، بِرَيْقِكَ الْعَذْبِ ، قَالَتْ : إِنْ لِي شَيْخًا ظَرِيفَ
الطَّبْعِ^(٢) ، ظَرِيفَ الْمُجُونِ^(٣) ، مَرَّ بِي يَوْمَ الْأَحَدِ فِي دَيْرِ الْمَرْبَدِ^(٤) ،
فَسَارَنِي حَتَّى سَرَّيَنِي^(٥) ،

== وَغَنَى لَنَا صَوْتًا بِحُسْنِ تَرْجُوعِ « سَرَى الْبَرَقُ غَرَبِيًّا فَحَنَّ غَرِيبٌ »

(١) تشمّع : تخطط بالماء ، والشرب : جمع شارب كصخب وصاحب ،

ومن عادتهم أن يخلطوها بالماء ، وتسمى مُشَمَّعَةً ، قال :

مُشَمَّعَةٌ كَأَنَّ الْحَصَّ فِيهَا إِذَا مَا الْمَاءُ خَالَطَهَا سَخِينًا

وقال مسلم بن الوليد صريعُ الغواني :

وَلَرُبَّ صَاحِبٍ لَذَّةً نَادَمْتُهُ فِي رَوْضَةِ أَنْفِ كَرِيمِ الْمَغْطِسِ

صَفْرَاءَ مِنْ حَلَبِ الْكُرُومِ كَسَوْتُهَا بَيْنَاضَاءِ مِنْ ثَوْبِ الْغُيُومِ الْبُجَسِ

مُزَجَّتْ وَلَا وَذَهَا الْحَبَابُ فَحَاكَهَا فَكَأَنَّ حَلِيئَهَا جَنِيَّ النَّزْجِسِ

وَكَأَنَّهَا - وَالْمَاءُ يَطْلُبُ حَلْمَهَا - لَهْبٌ تَلَاطَمَهُ الصَّبَا فِي مَقْبَسِ

جِهَلْتِ ، فَذَارَى جَهْلَهَا ، فَتَبَسَّمتْ عَن مَشْرَبِ لَوْنِ الشُّهُولَةِ أَعْبَسِ

وبعضهم بشر بها خالصة غير مخلوطة ، ويسمونها صرّفا ، قال سبط بن التعاويذي :

فَأَسْتَجْلِيهَا كَرْنِخِيَّةً بِنْتِ الشَّمَامِسِ وَالْأَسَاقِفِ

خَمْرَاءَ صِرْفًا لَا يَطْوُ فُ بِرَحْلِيهَا لِلَّهِمَّ طَائِفِ

كَدَمِ الْغَزَالِ ، إِذَا بَكَى رَاوُوقَهَا خِلْنَاهُ رَاعِفِ

(٢) ظريف الطبع : دمث الخلق ، طيب الأفعال ، كريم الخصال ،

مألوف الطباع ، كيس السجايا .

(٣) « ظريف المجون » المجنون : المزاح والهزل ، وطريفه : أي غريبه

ملاححة ولفظا .

(٤) المربد : منزله بالبصرة .

(٥) سارني : ألقى إليّ بسره ، وسرّني : شرح قلبي ، وأثلج صدرى .

(٢٨ - شرح مقامات البديع)

فَوَقَعَتِ الْخُلَاطَةَ^(١)، وَتَكَرَّرَتِ الْغَبِطَةُ^(٢)، وَذَكَرَ لِي مِنْ وَفُورِ عِرْضِهِ^(٣)،
وَشَرَفِ قَوْمِهِ فِي أَرْضِهِ، مَا عَطَفَ بِهِ وَدَّى^(٤)، وَحَظَى بِهِ عِنْدِي،
وَسَيَكُونُ لَكُمْ بِهِ أُنْسٌ، وَعَلَيْهِ حِرْصٌ^(٥)، قَالَ: وَدَعَتُ بَشِيخَهَا فَإِذَا
هُوَ إِسْكَندَرِيثًا أَبُو الْفَتْحِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الْفَتْحِ، وَاللَّهِ كَأَنَّمَا نَظَرَ إِلَيْكَ،
وَنَطَقَ عَن لِسَانِكَ الَّذِي يَقُولُ:

كَانَ لِي فِيمَا مَضَى عَقْلٌ وَدِينٌ وَاسْتِقَامَةٌ^(٦)

(١) ووقعت الخلاطة: أى أنه أفضى إلى بما فى نفسه وأفضيت له بما عندي،
فراق فى نظرى وأعجب بى، فداآلفنا وامتزج فوادى بفواده .
(٢) وتكررت الغبطة: أى المسرة، وذلك بتكرار اجتماعنا وكثرة تلاقينا
فى عفة ونزاهة .

(٣) وفور عرضه: بقاؤه على نقائه وطهارته، واحتماؤه من كل ما ينقصه أو يشينه .
(٤) عطف ودى: حبيبى فيه واستمانى إليه، والمعنى: إنه أخبرنى بماله
واقومه من المنزلة السامية فى قلوب جيرانهم ومواطنيهم، حتى ملتُ إليه وأحببته،
وأرادت أنه لم يعطفها عليه ولم يجذبها نحوه سوى ما ذكره لها من ذلك الشرف
الرفيع، والأخلاق الكريمة، والسجايا الحميدة .
(٥) المعنى: إنكم ستطربون بالجلوس معه، وتأنسون بمجلسه، وتودون
ألا يفارقكم، وأن يبقى معكم دائما؛ لما اشتمل عليه من الوداعة والظرف
وطيب الأفعال .

(٦) المعنى: إننى كنت فيما غبر من الأزمان ذا عقلٍ راجحٍ يميز بين
طيب الأفعال ورديثها، وغث الطباع وسمينها، ورفيع الأخلاق وسافلها،
ودينٍ يرُدُّعنى عن ارتكاب المقابح وإتيان الحمازى وفعل المنكرات والإقبال
على السفاسف، واستقامة تكفل لى الفوز برضا الله والنجاة من حسابه،
وتضمن لى المنزلة الرفيعة والمسكنة السامية عند الناس .

مُمٌ قَدْ بَعْنَا بِحَمْدِ اللَّهِ قَهْمًا بِحِجَامَةٍ (١)
 وَابْنِ عَشْنَا قَلِيلًا نَسَأُلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ (٢)
 قَالَ : فَنَخَرَ نَخْرَةَ الْمُعْجَبِ (٣) ، وَصَاحَ وَزَمَهَرَ (٤) ، وَضَحِكَ حَتَّى
 قَهَقَ (٥)

مُمٌ قَالَ : أَلِمِثْلِي يُقَالُ ، أَوْ بِمِثْلِي تُضْرَبُ الْأَمْثَالُ (٦) ؟ ؟

(١) الفقه : معرفة الأحكام الشرعية ، والحجامة : المراد منها الحلاقة أو كل حرفة دينية خبيثة ، والمعنى : إنني تركت ما كنت عليه من الصفات الفاضلة واشتغلت بالمفاسد والشرور والآثام .

(٢) نَسَأُلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ : نتوب ، ونضرع إلى الله تعالى أن يخلصنا مما نحن فيه ، والمعنى : لئن طال بنا الزمن وامتدَّ الأجل لَنَطْلُبَنَّ من الله تعالى الْخَلَاصَ من ربة المعصية وذل الفجور ، يريد أنه سيظل على هذا شَطْرًا من العمر ، وربما صح أن يقال : إن المراد من قوله : « نَسَأُلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ » أي أننا سنزداد مما نحن فيه ، ونفتقر أكثر مما ترانا عليه ، وترتكب فوق هذا الذي تشاهده ، حتى إن حالنا ستكون مما يُضْرَعُ إلى الله وتَسَأَلُ منه السلامة .

(٣) يقال : نَخَرَ الرَّجُلَ وَالْفَرَسَ جَمِيعًا ، يَنْخَرُ نَخْرًا وَنَخِيرًا ؛ إِذَا مَدَّ صَوْتَهُ فِي خِيَاشِيمِهِ ، وَالنَّخْرَةُ - بِكسْرِ النون - اسم الهيمية منه .

(٤) صَاحَ : رفع صوته عاليًا ، وَزَمَهَرَ : شَدَّدَ النَّظَرَ بِعَيْنِهِ وَحَمَلَتْ كَثِيرًا حَتَّى لَكَانَ يَبُودُ أَنْ يَخْرُجَهَا

(٥) ضَحِكَ حَتَّى قَهَقَ : أي استغرق في الضحك والإعجاب جدًا .

(٦) المعنى : هل ترانى من الذين تقال لهم النصائح والتعاريض ؟ وهل أنا ممن تضرب لهم الأمثال فتقول : إن مِثْلِي مِثْلُ ذَلِكَ الَّذِي أَنشَدَ هَذَا الشَّعْرَ ؟ وَكَأَنَّهُ يَرَى نَفْسَهُ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ .

دَعَّ مِنَ اللُّؤْمِ ، وَلَكِنْ أَيْ دَكَّكَ تَرَانِي (١)
 أَنَا مَنْ يَعْرِفُهُ كُلُّ تَهَامٍ وَيَمَانِي (٢)
 أَنَا مِنْ كُلِّ غُبَارٍ أَنَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ (٣)
 سَاعَةً أَلْزَمُ مِحْرًا بَاءً ، وَأُخْرَى يَبْتَ حَانَ (٤)

(١) دَعَّ : أترك ، والدكك : أصله الهدم ، وأراد منه هنا المحتمل ، لأنه بحيلته يهدم كل بناء ترفع الأمانة صراحةً وتُغلي الثقة ذراه ، والمعنى : خلني من لؤمك وأتركني من عتبك ، ولا تذكر لي تقربك وتأنيبك ؛ فإني محتمل أي محتمل .

(٢) التهامي : المنسوب إلى تيهامة ، وهي عبارة عما امتد إلى البحر من سفح جبال الحجاز ، ويمان : منسوب إلى اليمن ، والمعنى : إنني لا أخفي على أحد ولا ينكرني إنسان ، فأنا مشهور ، ذائع الصيت ، مرفوع الذكر ، قد عرفني الناس جميعاً .

(٣) الغبار : أصله التراب ، وأراد منه البقعة من الأرض ، والمعنى : إنني أنزل بكل أرض ، وأحطُّ رحلي بكل مكان ؛ فلا أجد في نفسي نفوراً عنها ، ولا تأيياً منها ، بل بالعكس توافقي وتلائم مزاجي كأنما قد خلقتُ منها ، فتسهل على المعيشة في كل أرض ، وإنفاذ حيلتي بأى مكان ، مهما اختلفت طبائع الناس وتباينت أحوالهم .

(٤) المحراب : مكان الإمام من المسجد ، وبيت الحان : الخمارة ومكان معاقره الخمر ، والمعنى : إنني لا ألزم حالة واحدة من النسك والعبادة أو المعاقره والمعصية ، بل تجددني طوراً أعمل عمل الزهاد والمتنسكين ، وأسير سير العباد والمستقيمين ، وطوراً أترك هذا إلى بيت الحان ، وقصد الدنان ، وسماع الألحان ، ومنادمة الحسان .

وَكذَّا يَفْعَلُ مَنْ يَفْعَلُ فِي هَذَا الزَّمَانِ (١)

قال عيسى بن هشام : فَأَسْتَعَدْتُ بِاللَّهِ مِنْ مِثْلِ حَالِهِ ، وَعَجِبْتُ لِقُعودِ
الرَّزَقِ عَنْ أُمَّثَالِهِ ، وَطَبِينَا مَعَهُ أَسْبُوعَنَا ذَلِكَ ، وَرَحَلْنَا عَنْهُ (٢) .

(١) أى : أن هذه الحال يتّصف بها كل عاقل أريب في هذا الزمان وذلك لأن زماننا هذا زمان فاسد ، ومن فساد أنه لا يروج فيه إلا من كان فاسدا مثله ؛ فهو يرفع الأسافل ، ويهبط بالأعلى ، فإن كنت تريد أن تعيش عيشة ناعمة رافهة فسكن مثل زمانك ، وإلا فاستعدّ للعناء والشقاء الدائمين .

(٢) المعنى : إننا قضينا معه أسبوعاً طيباً بما اشتمل عليه من أنس ومسرة ،

ثم تفارقنا .

٥٠ - المَقَامَةُ الْمَطْلَبِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :

اجْتَمَعَتْ يَوْمًا بِجَمَاعَةٍ كَأَنَّهُمْ زَهْرُ الرَّبِيعِ (١) ، أَوْ نُجُومُ اللَّيْلِ بَعْدَ
هَزِيحٍ (٢) ، بِوُجُوهِهِ مُضِيَّةٍ ، وَأَخْلَاقٍ رَضِيَّةٍ (٣) ، قَدْ تَنَاسَبُوا فِي الزَّمَى
وَالْحَالِ (٤) ، وَتَشَابَهُوا فِي حُسْنِ الْأَحْوَالِ ، فَأَخَذْنَا نَتَجَادَبُ أَذْيَالِ
الْمَذَاكِرَةِ (٥) ، وَانْفَتَحَ أَبْوَابُ الْمُحَاضِرَةِ ، وَفِي وَسْطِنَا شَابٌ قَصِيرٌ مِنْ بَيْنِ

(١) الربيع : فصل من فصول السنة الأربعة ، تُعْشِبُ فِيهِ الْأَرْضُ وَتَزْهَرُ ، وَيَكْسُوهَا الْبِهَاءُ حُلَّتُهُ ، وَتَحْتَمَلُ مِنَ الْحُسْنِ فِي أَبِيهِ رِءَاءٌ وَأَجْمَلُهُ ، وَتَهْتَدِلُ الْأَغْصَانُ وَتُورِقُ ، وَتَذْكُرُ الْأَزْهَارُ ، وَتَتَأَرَّجُ الْبَسَاتِينُ ، وَتَفْرُدُ الطَّيُورُ ، وَتَصْدَحُ الْمَصَافِيرُ ، فَلَا غَرْوَ أَنْ يَكُونَ فَضْلَ الزَّهْرِ ، وَأَيَّامُ النَّوْرِ ، وَلَا عَجَبَ أَنْ يُسَبِّهَ بَزْهَرِهِ مَنْ طَابَتْ أَخْلَاقُهُ ، وَطَهَّرَتْ أَعْرَاقُهُ ، وَكَرَمَتْ أَصُولُهُ ، وَشَرَفَتْ مَحْتَدُهُ .

(٢) الهزيع : الطائفة من الليل : رُبْعُهُ ، أَوْ ثَلَاثُهُ ، أَوْ نِصْفُهُ ، وَالنَّجُومُ حِينَ تَطْلُعُ لَا يَكُونُ لِأَلْوَانِهَا سَاطِعًا وَلَا نُورًا مُتَكَامِلًا ، فَإِذَا مَضَتْ مَدَّةَ أَزْهَرَتْ وَتَسْكُفُّ ضَوْوَهَا وَتَأَلَّقَ نُورُهَا .

(٣) المعنى : إِنْهُمْ اسْتَكَلُوا النِّعْمَتَيْنِ ، وَاسْتَوْفَوْا التَّسْطِينِ : نِعْمَةُ الْبِهَاءِ وَحُسْنُ الْمَنْظَرِ وَوَسَامَةُ الْحَيَاةِ وَإِشْرَاقُ الْوَجْهِ ، وَنِعْمَةُ الْأَخْلَاقِ الْكَامِلَةِ وَالْحِصَالُ الشَّرِيفَةُ .

(٤) الزمى : الشكّل والدل والهيمته والهندام ، والحال : أَرَادَ مِنْهُ الْأَحْوَالُ الْمَعْنَوِيَّةَ مِنْ شَرَفِ النَّفْسِ وَعُلُوِّ الْهَمَّةِ وَطَيْبِ الْعِشْرَةِ وَحُسْنِ الْوَفَادَةِ ، وَالْمَعْنَى : إِنْ هَذِهِ الْجَمَاعَةُ مَتَّفِقَةٌ الْمَشْرَبِ ، مَتَّحِدَةٌ الْمَبْدَأِ ، لَا يَفْتَرِقُ أَحَدُهُمْ عَنِ الْآخَرِ فِي شَيْءٍ .

(٥) جعل المذاكرة كتب فضفاض لبسته خوّد بارعة الجمال متأنقة ذات حسن ودل ، وقد تطوّرات أعناقهم إليها واشترأبت نحوها ، فطففوا يجذبونها من ذئب ثوبها لتعطف عليهم وتميل إليهم .

أَوْ حَضَرَ بَعْدَ غَيْبَةٍ^(١) ، وَفَتَحَ دِيْوَانَهُ ، وَأَطْلَقَ لِسَانَهُ^(٢) ، فَقَالَ : صَهْ لَقَدْ
عَجَزْتُمْ عَنْ شَيْءٍ عَدِمْتُمُوهُ^(٣) ، وَقَصَّرْتُمْ عَنْ طَلِبِهِ فَمَجَنَّتُمُوهُ^(٤) ، وَخُدِعْتُمْ
عَنِ الْبَاقِيِ بِالْفَاقِيِ^(٥) ، وَشَغِلْتُمْ عَنِ الدَّائِيِ بِالدَّائِيِ^(٦) ،

(١) لم يتكلم حين جَدَّ بِنَا الحديثُ وجَدَّ بِنَاهُ فيما مضى ، وتكلم الساعة ،
فكانه لم يكن حاضرنا ولا في مجلسنا ، ثم جاء .

(٢) ديوانه : المراد بالديوان هنا مجتمع كلامه من شعر ونثر ، ومجتمعه :
هو قرِيحته وفكرته ، وأصل الديوان هو ديوان الجند الذي يجمع أسماءهم وأنسابهم
وعَدَدَم وأَعْطِيَاتِهِمْ ، والمعنى : إنه اندفع في الكلام ، وأطلق لسانه العنان .

(٣) صَهْ : اسكتوا ، وأراد بالذي عَدِمُوهُ الغنى بالعمل الصالح وكال
الأرواح ، والمعنى : إنكم انطلقتم تمتدحون الغنى وجمع الأموال ، وتذنون عليه ،
في حين أنكم تركتم تَطَرِيَةَ أعمال البر ومدحها ، وليس ذلك إلا لأنكم قد قدَّمتُمُ
الخير ، وليس في وسعكم أن تحصلوه .

(٤) هَجَنَّتُمُوهُ : وصفتموه بالهُجَنَةِ وعَيْبَتُمُوهُ ، وهم لم يتعرضوا له مدحا
ولا ذمًا ، فجعل سكوتهم عنه وعَدَمَ حديثهم في شأنه كالذم له والقذح فيه ؛ لأن
من الواجب عليهم ألا يَنْسُوهُ ، وأن يجعلوه نُصَبَ أعينهم .

(٥) الباقي : غِذَاءُ الأرواح والعمل للآخرة والتفاني في صالح الأعمال ،
والفاني : غِذَاءُ الجُسُومِ والعمل للدنيا والتكالب على تحصيلها ، والمعنى : إنكم
غَرَّزْتُمْ بأنفسكم ، وخذعتموها ، وكذبتهم عليها ، بما حَسَبْتُمْ لها في الدنيا ، وزَيَّدْتُمْ
لغاظريها ما فيها من طِلاء خادع وبَهْرَجَ كاذب .

(٦) الغائي ، في الأصل : البعيد ، والدائي بحسب وَضْعِهِ : القريب ،
وأراد بالأول الآخرة ، وبالثاني الدنيا ، والمعنى : إنكم أَجْهَدْتُمْ نفوسكم ،
وأَنْصَبْتُمْ أبدانكم في العمل للحياة الفانية لقربها منكم ، وتجاهلتم الحياة الباقية
لأنكم لا ترونها .

الرَّجَالِ ، مَخْفُوفُ السَّبَالِ^(١) ، لَا يَنْبِسُ بِمَجْرَفٍ^(٢) . وَلَا يَخْوُضُ مَعْنَا فِي وَضْفٍ^(٣) ، حَتَّى أَنْتَهَى بِنَا الْكَلَامُ إِلَى مَدْحِ الْغَنِيِّ وَأَهْلِهِ ، وَذِكْرِ الْمَالِ وَفَضْلِهِ^(٤) ، وَأَنَّ زِينَةَ^(٥) الرِّجَالِ ، وَغَايَةَ الْكَمَالِ ، فَكَأَنَّمَا هَبَّ مِنْ رُقْدَةٍ^(٦) ،

(١) قصير بين الرجال : المراد الكناية عن كونه صغير السن ، لم يبلغ درجة الرجل عمراً ، ومَخْفُوفٌ : مَقْصُوصٌ ، وَالسَّبَالُ : جمع سَبَلَةٍ - بالتحريك - وهو للشارب وما عليه من الشعر ، وَخَفَّ الشَّوَارِبِ كَانَ يُعْتَبَرُ مِنْ عِلَامَاتِ الصَّلَاحِ وَسِمَاتِ الْوَرَعِ ، وَكَانَ النَّاسُ يَتَّخِذُونَهُ إِشْعَاراً بِالزَّهْدِ وَدَلِيلَا عَلَى التَّقْوَى ، وَلَا يَزَالُ بَعْضُ الْقَوْمِ إِلَى الْيَوْمِ يَفْعَلُ ذَلِكَ .

(٢) نَبَسَ كضَرَبَ يَنْبِسُ نَبْسًا وَنُبْسَةً - بِالضَّم - تَكَلَّمَ فَمَسْرَعٌ ، وَأَكْثَرُ مَا يَسْتَعْمَلُ فِي الْغَنِيِّ يُقَالُ : مَا نَبَسَ ، وَلَمْ يَنْبِسْ ، وَالنُّبْسُ - بِضَمَّتَيْنِ - النَّاطِقُونَ وَالْمَسْرَعُونَ ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتَكَلَّمُ قَطُّ ، وَلَمْ يَتَفَوَّهْ بِمَجْرَفٍ وَاحِدٍ .

(٣) أَصْلُ الْخَوْضِ : السَّيْرُ فِي الْمَاءِ ، وَفَعْلُهُ خَاضَ - عَلَى مِثَالِ قَالَ - خَوْضًا وَخِيَاضًا أَيْضًا ، ثُمَّ قِيلَ مِنْهُ «خَاضَ النَّاسُ فِي الْحَدِيثِ ، وَتَخَاوَضُوا» إِذَا أَفَاضُوا فِيهِ وَتَفَاوَضُوا ، وَقَدْ تَفَاوَضَ هَؤُلَاءُ فِي أَوْصَافِ جِسْمَانِيَّةِ أَوْ رُوحَانِيَّةِ ، فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الشَّابُّ لِيَخْوُضَ مَعَهُمْ فِيمَا يَخْوُضُونَ فِيهِ .

(٤) الْمَعْنَى : إِنَّهُ ظَلَّ سَاكِتًا إِلَى أَنْ افْتَتَحْنَا الْكَلَامَ فِي شَأْنِ الْغَنِيِّ ، وَأَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِمَّا يُطْرِبُهُ وَيَمْدَحُهُ ، وَيَذَكِّرُ لَهُ مِنَ الْفَضَائِلِ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ .

(٥) أَيْ أَنَا قُلْنَا : إِنَّ الْمَالَ لِلرِّجَالِ زِينَةٌ أَيْ زِينَةٌ ؛ فَهُوَ الَّذِي يُنْطِقُ أَلْسِنَتَهُمْ ، وَيَقْوَى حُجَّتَهُمْ ، وَيَرْفَعُ شَاوِمَهُمْ ، وَيُغْلِي ذِكْرَهُمْ ، وَيَنْهَضُ بِهِمْ ، وَيُقِيلُ عَثْرَاتَهُمْ ، وَيَمْحُو سَيِّئَاتَهُمْ ، وَيَغْفِرُ زَلَّاتَهُمْ ، وَيَسْتَرْعِيو بِهِمْ ، وَيُدَارِي عَوَارِمَهُمْ .

(٦) يُقَالُ : هَبَّ مِنْ نَوْمِهِ ، إِذَا اسْتَيْقِظَ . وَالْمَعْنَى : لَمَّا الْفَتَى حِينَ سَمِعَ ذِكْرَ الْمَالِ وَحَدِيثَ الْغَنِيِّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا نَشِيطًا لِيَحَادِثَنَا ، وَكَأَنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ الصَّمْتِ الْمَاءِ كَانَ نَامًا فَاسْتَيْقِظَ .

هَلِ الدُّنْيَا إِلَّا مَنَاحُ رَاكِبٍ^(١) ، وَتَعَلَّةٌ ذَاهِبٌ^(٢) ؟ وَهَلِ أَمَالٌ إِلَّا عَارِيَةٌ
مُرْتَجَعَةٌ ، وَوَدِيعَةٌ مُنْتَزَعَةٌ^(٣) ؟ يُنْقَلُ مِنْ قَوْمٍ إِلَى آخَرِينَ ، وَتَخْزَنُهُ
الْأَوَائِلُ لِلآخَرِينَ ، هَلِ تَرَوْنَ أَمَالًا إِلَّا عِنْدَ الْبُخْلَاءِ ، دُونَ الْكِرْمَاءِ^(٤) ،
وَالْجُهَالِ دُونَ الْعُلَمَاءِ^(٥) ؟ إِيَّاكُمْ وَالْإِنْحِدَاعَ فَلَيْسَ الْفَخْرُ إِلَّا فِي إِحْدَى

(١) أَنَاخُ رَاحِلَتِهِ يُنِيخُهَا : أَى أَبْرَكَهَا لِيَسْتَرْجِحَ وَيُرِيحَهَا ، وَالْمَنَاحُ : مَوْضِعُ
ذَلِكَ ، وَالْمَعْنَى : إِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي خَدَعْتَكُمْ لَيْسَتْ إِلَّا مَكَانًا يَنْزِلُ إِلَيْهِ الْمَسَافِرُ رِيثًا
يَأْخُذُ رَاحَتَهُ ، ثُمَّ يَتْرَكُهَا عَنْهَا لِيَتِمَّ رِحْلَتَهُ ؛ فَالْأَحْيَاءُ فِيهَا عَلَى سَفَرٍ .

(٢) التَّعَلَّةُ : مَا يَتَعَلَّلُ بِهِ مِنْ طَعَامٍ وَمَحْوٍ ، وَالْمَعْنَى : إِنْ دُنْيَاكُمْ لَيْسَتْ
إِلَّا كَفِذَاءٍ يَتَنَاوَلُهُ الْمَرْءُ لِيَسُدَّ عَادِيَةَ الْجُوعِ ، وَيُدْفِعَ عَنْ نَفْسِهِ شَرَّهَ ، وَكَالْأُبْدُ لِلْمَتَعَلِّلِ
مَنْ أَنْ يَأْكُلَ كَذَلِكَ لَا بَدَلَ لِمَنْ عَلَى هَذِهِ الدُّنْيَا أَنْ يَتَرْتَمُوا خَطُوتِ أَسْلَافِهِمْ .

(٣) الْعَارِيَةُ : مَا تُعْطِيهِ غَيْرِكَ لِيَنْتَفِعَ بِهِ مَعَ بَقَاءِ عَيْنِهِ ثُمَّ يَرُدُّهُ إِلَيْكَ ،
وَالْوَدِيعَةُ : الْأَمَانَةُ تَتْرَكُهَا عِنْدَ مَنْ تَتَّقَى بِهِ لِيَحْفَظَهَا لَكَ حَتَّى تَطْلُبَهَا ، وَالْمَعْنَى :
إِنَّ أَمَالَكُمْ الَّتِي تَحْكُمُونَ عَنْهُ وَدَائِعُ سَتُؤَدُّونَهَا لِصَاحِبِهَا حِينَ يَطْلُبُهَا مِنْكُمْ وَعَوَارِ
لَا تَحْيِصَ لَكُمْ عَنْ إِعَادَتِهَا لِأَرْبَابِهَا ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِ لَبِيدِ بْنِ رَبِيعَةَ :

وَمَا أَمَالٌ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وَدَائِعُ وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ

وقد قلت من كلمة لي :

وَإِنَّمَا هِيَ هَذِي الْحَيَاةُ عَارَةٌ وَهَلِ رَأَيْتَ عَارَةً لَا تُسْتَرَدُّ ؟

(٤) الْمَعْنَى : إِنْ الْبَخِيلُ الَّذِي يَضُنُّ بِالْمَالِ وَيَشْحُ بِهِ وَيَمْسِكُ عَلَيْهِ هُوَ الَّذِي
تَجِدُونَ لَهُ فِي الثَّرْوَةِ وَالْفَنَى وَالْوَفْرِ ، فَأَمَّا الَّذِي تَجُودُ نَفْسُهُ وَتَبْدُلُ يَدَهُ فَلَا يُمْكِنُ
لَكُمْ أَنْ تَجِدُوا عِنْدَهُ شَيْئًا ، وَإِنْ فِي شِدَاعَةِ الْبَخْلِ وَوَضَمَّتِهِ لِرَادِعَا لَكُمْ عَنْ طَلْبِ
الْمَالِ وَالسَّعْيِ إِلَيْهِ .

(٥) يَرِيدُ أَنْ يَبِينُ أَخْصَ نَقَائِصِ الْمَالِ ، وَهِيَ مَلَازِمَتُهُ لِأَهْلِ الْخِسَّةِ ،
فَهُوَ لَا يَتَوَفَّرُ إِلَّا عِنْدَ الْأَنْذَالِ ، وَلَا يَهِنُ بِهِ إِلَّا الْجُهَالُ ، وَكُنِيَ بِهِ خِسَّةً أَنَّهُ =

الْجَهَنَّتَيْنِ ، وَلَا التَّقَدُّمُ إِلَّا بِإِحْدَى الْقِسْمَتَيْنِ : إِمَّا نَسَبٌ شَرِيفٌ ، أَوْ عِلْمٌ مُنِيفٌ^(١) ، وَأَكْرَمُ شَيْءٍ يُحْمَلُ عَلَى الرَّؤُوسِ حَامِلُهُ^(٢) ، وَلَا يَبْتَاسُ مِنْهُ أَمَلُهُ^(٣) ، وَاللَّهُ لَوْلَا صَيَانَةُ النَّفْسِ وَالْعَرِضِ ، لَسَكُنْتُ أَغْنَى أَهْلِ الْأَرْضِ^(٤) ، لِأَنِّي أَعْرِفُ مَطْلَبَيْنِ^(٥) ، أَحَدُهُمَا بِأَرْضِ طَرْسُوسِ^(٦) ،

= لا يوجد إلا عند أهل الخسة ، وما ينسب إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضى الله عنه :

رَضِينَا قِسْمَةَ الْجَبَّارِ فِينَا لَنَا عِلْمٌ وَلِلْجَبَّالِ مَالٌ

(١) احذروا أن يأخذكم الاعتزاز فيحملكم على الثقة بفائدة المال ونفعه ، ويخدعكم بأن شرفه يداني الشرف بالعلم أو النسب ، فإنه لا يُقْبَلُ الفخر من إنسان حتى يكون فخره بإحدى جهتي الشرف الحقيقي : العلم ، والنسب ، ولا يحمل بإنسان أن يتقدم على أقرانه أو يبرم بغير واحدٍ من سبيلي التقدم .

(٢) المراد بالشئ الذي يُحْمَلُ حَامِلُهُ على الرؤوس العِلْمُ ، وما أكرم العلم وأفضله ، وهو الذي يكرم صاحبه ويُعززه ، ويرفع من قدره ويجله .

(٣) المعنى : إن مَنْ يَأْمَلُ أن ينال العلم أو يطلب تحصيله لا يزال يَدَابُ على ذلك ويجتهد فيه ؛ فلا يعتريه المللُ ، ولا تعترضه السامة ، ولا يعتوره اليأس ، مهما شقَّ عليه أو تعب فيه .

(٤) أى : أنه لولا ما يداخلى من وجوب الاحتفاظ بنفسى وصيانة عرضى أن تمضغه السنة الناس لعلت عملا يجعلنى أكثر الناس ثراءً ، وأوفرهم مالا ، وأفضلهم عدَّةً وعديدا .

(٥) المَطْلَبَانِ : السكِّزَانِ ، وإنما سمي السكِّز بالمطلب لأنه من أعظم ما يتعلق به المطلب ، وتتوجه إليه الرغبة ، وتتحوَّل نحوه الآمال .

(٦) طرسوس : هي المدينة القديمة التي كانت قصبَة كيليكيا ، وبينها وبين أذنة نحو ثمانية عشر ميلاً ، وهي في ولاية أذنة من الممالك العثمانية .

تَشْرَهُ فِيهِ النَّفُوسُ^(١) ، مِنْ ذَخَائِرِ الْعَمَالِقَةِ^(٢) ، وَخَبَايَا الْبَطَارِقَةِ ، فِيهِ مِائَةُ أَلْفٍ مِثْقَالٍ ، وَأَهْلًا الْآخِرُ فَهَنُوا مَا بَيْنَ سُورَا وَالْجَامِعِينَ^(٣) ، فِيهِ مَا يَمُتُّ أَهْلَ الثَّقَلَيْنِ ، مِنْ كُنُوزِ الْأَكْسِرَةِ^(٤) ، وَعُدَدِ الْجَبَابِرَةِ ، أَكْثَرُهُ يَأْقُوتُ أَحْمَرُ ، وَدُرٌّ وَجَوْهَرٌ ، وَتَبِيجَانٌ مُرْصَعَةٌ ، وَبِدْرٌ مُجْمَعَةٌ^(٥) ، فَلَمَّا أَنْ سَمِعْنَا ذَلِكَ أَقْبَلْنَا عَلَيْهِ ، وَمِائَةً إِلَيْهِ^(٦) ، وَأَخَذْنَا نَسْتَعِجِزُ رَأْيَهُ ، فِي الْقَنْوَعِ بِيَسِيرِ

(١) الشَّره: الرغبة المُفْرِطَة مع الحرص الشديد ، وقد شَرِهَ - من باب طرب - فهو شَرِهٌ ؛ إذا اندفع في حرص شديد ، وإنما تندفع النفوسُ إلى ذلك الحد إذا كان ما تسمو إليه نفيساً عظيم النفع كثير الفائدة .

(٢) الْعَمَالِقَةُ : هم الذين مَلَكَوا في الشام وأجنادها ومشارفها وما يليها من بلاد آسيا الصغرى ، قيل : وهم أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام ، قيل : ومن نسلهم السكتعيانيون .

(٣) سُورَى : من بلاد السور يانمين القديمة في أرض بابل ، والجامعين : اسم لمدينة تسمى الحلة الزيدية بأرض بابل ، قال ياقوت في المشترك : كان أول من نزلها واختطَّ بها المنازل وعظَّمها سيفُ الدولة صَدَقَةَ بن منصور بن ديبس ابن علي بن مزيد الأسدي في سنة ٤٩٥ هجرية ، وكان موضعها يسمى قبل ذلك بالجامعين .

(٤) الْأَكْسِرَةُ : هم ملوك الفرس ، وكانوا كثيرين ، وكل واحد منهم يسمى كسرى ، وأشهرهم قبادز وكسرى سابور الذي كان يُلقَّب بذي الأكتاف وكسرى أنوشروان الملك العادل الذي يقال : إن في عهده وُلد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) البِدْرُ : جمع بَدْرَةٍ ، وهي كيس فيه عشرة آلاف درهم أو ألف درهم أو سبعة آلاف دينار .

(٦) المَعْنَى : إننا حين سَمِعْنَاهُ يَذْكَرُ السُّكُنُوزَ وَيُؤَكِّدُ مَعْرِفَتَهُ بِهَا وَقَدْرَتَهُ عَلَى اسْتِخْرَاجِهَا أَخَذَ مِنْهَا الطَّمَعُ ، وَلَعَبَ بِرَأْسِنَا حُبُّ الْمَالِ ، فَلَمَّا نَحْوَهُ نَسْتَمِعُ لِكَلَامِهِ وَتَتَفَهَّمُ مَقَالَهُ .

المكاسب ، مع أنه عارفٌ بهذه المطالب^(١) ، فأشارَ إلى أنه يفزعُ من
السلطان^(٢) ، ولا يثقُ إلى أحدٍ من الإخوان^(٣) ، فقلنا له : قد سمعنا حجتك ،
وقبلنا معذرتك^(٤) ، فإن رأيت أن تحسن إلينا ، وتؤمن علينا ، وتعرفنا أحد
هذين المطالبين ، على أن لك الثلثين ؛ ففعلت^(٥) ،

(١) نستعجز رأيه : نصفه بالعجز ، ونرميه بضعف العزيمة وخورها ،
والمعنى : إنه كثر تعنيفنا له ولومنا عليه ؛ لكونه راضياً بما هو فيه من رقة الحال ،
وقلة المال ، وضعف الميسرة ، مع قدرته على استخراج كنوز الأرض ومحبباتها ،
ومعرفته بما يعود عليه بالبسطة وسعة اليد .

(٢) السلطان : النفوذ ، والقدرة ، والتمكن من الدنيا ، ويفزع : يخاف
ويخشى ، والمعنى : إنه أخبرنا بضعفه عن قبول الفنى ؛ لأنه يخشى من سعة النفوذ ،
وقوة السطوة ، وبعد القدرة ؛ لأن هذا طريق الطغيان ، وهو طريق الردى
والهلاك .

(٣) لا يثق إلى أحد : أى لا تطمئن نفسه الله ، ولا يستريح ضميره ،
والمعنى : إن الذى يمنعه من الحصول على ما فى هذين المطالبين أمران : الأول أنه
يخاف من طغيان السلطان ، والثانى أنه لا بدله فى الحصول عليه من الأشتراك مع
أحدٍ والاستعانة به ، وهو لا يأمن إنساناً ، ولا يجد فى نفسه طمأنينة إلى أحد .

(٤) المعنى : إن الذى ذكرته من الأسباب الحاملة لك على القعود
عن استخراج أحد الكنزين مقبول لا نجد فيه شيئاً يردّ به عليك ، وليس لنا
مساغ بعد ذلك لتقريمك أو الرجوع باللاممة عليك .

(٥) المعنى : إنا نتقدم إليك لتسدى إلينا جيلاً ، وتصنع بنا خيراً ؛ فتكون
لك اليد علينا ، وذلك بأن تدلنا على موضع واحد من هذين الكنزين ، ولسنا
نُخْلِكُكَ من المكافأة على ذلك ، والجزاء الحسن ؛ فإننا نجعل لك الثلثين
لدلائلك ، ولنا الثلث فقط لاستخراجنا .

فَأَمَالَ إِيْنَيْنَا يَدَهُ^(١) ، وَقَالَ : مَنْ قَدَّمَ شَيْئًا وَجَدَهُ^(٢) ، وَمَنْ عَرَفَ مَا يُنَالُ ،
هَانَ عَلَيْهِ بِذَلِّ أُمَالِ^(٣) ، فَكُلُّ مِنَّا حَبَاهُ بِمَا حَضَرَ^(٤) ، وَتَشَوَّقَ إِلَى
مَا ذَكَرَ ، فَلَمَّا مَلَأْنَا كَفَّهُ ، رَفَعَ إِلَيْنَا طَرْفَهُ^(٥) ، وَقَالَ : لَا بُدَّ أَنْ نَقْضِيَ
عَلَقًا^(٦) ،

(١) أمال يده : أى حرّكها على هيئة الطالب ، يشير بها إلى طلب جُمل
على إرشاده ، واستراحة جائزة في نظير أن يدلّم على مكانه قبل أن يتحصّلوا منه
على شيء ، وكأنه بذلك يقول لهم : لا آمن أن تقدروا بى فعجلوا لى بشيء منه
(٢) مَنْ قَدَّمَ شَيْئًا وَجَدَهُ : أى من عمل عملا وجد عاقبته ولقى غيبه ، وأتم
إذا أعطيتونى ما طلبت منكم ثمّا لهدايتكم فلا شك أنكم ستجدون عقيبى ما أنفقتم ،
وسيرتد إليكم ما نالنى منكم ، فلا تبطئوا علىّ ، ولا تسوفونى .

(٣) المعنى : إذا وثق الإنسان بأنه سيبدل ماله وينفقه فى شيء يعود عليه
نفع منه ويأتيه من ورائه خير فلا ريب فى أنه يبذل عن رضا وينفق بلرتياح ،
والمراد حثهم على إعطائه بسخاء ومنحه عن قبول ورضا ؛ ليكون حظه عظيما
ونصيبه وفيرا .

(٤) حباه : أعطاه ، ومنحه ، والمعنى : إننا بعد سماعنا لسكلامه هانت
علينا الأموال ، واستصغرنا النفقات ، فلم نمنعه شيئا مما بأيدينا ، بل أعطيناها
ما تهيأ لنا .

(٥) مَلَأْنَا كَفَّهُ : أعطيناها كثيرا حتى امتلأت يده بالمال ، ورفع إلينا
طَرْفَهُ : نظر إلينا ليتخلص مما ذكر ، ويفر من دلالتنا على ما قال .

(٦) العلق فى الأصل : ما تتبلىغ به المشية من الشجر ليسد رمقها ،
ويطفيء حرارة جوعها ، وأراد منه هنا مطلق البلغة ، والمعنى : إنه لا بد لنا
من تناول شيء من الطعام .

وَنَنَالَ مَا يُمْسِكُ رَمَقًا^(١) ، وَقَدْ ضَاقَ وَقْتُنَا ، وَالْمَوْعِدُ غَدًا هَهُنَا^(٢) ،
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : فَلَمَّا تَفَرَّقَتْ تِلْكَ الْجَمَاعَةُ ، قَعَدْتُ بَعْدَهُمْ
سَاعَةً ، ثُمَّ تَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ ، وَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَقُلْتُ وَقَدْ رَغِبْتُ فِي مَعْرِفَتِهِ ،
وَتَأَقَّتْ نَفْسِي إِلَى مُحَادَثَتِهِ^(٣) : كَأَنِّي عَارِفٌ بِنَسَبِكَ ، وَقَدْ اجْتَمَعْتُ بِكَ^(٤) !
فَقَالَ : نَعَمْ ، صَمِنَا طَرِيقًا ، وَأَنْتَ لِي رَفِيقٌ^(٥) ، فَقُلْتُ : قَدْ غَيَّرَكَ عَلَيَّ
الزَّمَانُ^(٦) ،

(١) الرَّمَقُ : بقية الحياة ، والذي يُمْسِكُهُ - أى يحتفظ به ، ويُبْقِي عَلَيْهِ -
هو الطعام ، والمعنى : إننا في حاجة لما يقيم أودنًا ويحفظ علينا حياتنا ؛ لما نالنا
من شدة الجوع ، وما كابدناه من ألم الإمساك عن الطعام .

(٢) المعنى : ليس في الوقت مُتَسَعٍ لأخبركم عن مكان الكنزين أو أحدهما
وسأخبركم بعد تناول ما نحتاجه من الطعام ، فأحرى بنا أن نُوَجِّلَ ذلك إلى الغد ،
على أن نلتقى في هذا المكان نفسه ، لِنُتِمَّ الحديث ، وهو يريد بذلك أن يُفِلِتَ
من أيديهم ، ثم لا يَرَوْنَهُ بعد ذلك ؛ فيفوز بما أخذه منهم .

(٣) المعنى : إنه لم يَحْدِثْ عَنِّي بِحِيلَتِهِ ، ولا استطاع أن يَعْتَبِرَ بِمَا أَلْقَاهُ إِلَيْنَا ،
ولذلك تَخَلَّفَتْ عَنِ الْجَمَاعَةِ ، وَأَبَيْتُ الْمَسِيرَ مَعَهُمْ ، لا تَثَبَّتْ مِنْهُ ، وأعرف حقيقة
أمره ، فلما انطلقوا دَنَوْتُ مِنْهُ وَأَخَذْتُ فِي الْحَدِيثِ مَعَهُ .

(٤) المعنى : إنه يَحْتَمِلُ إِلَى أَنَّهُ قَدْ سَبَقَ بَيْنَنَا تَعَارُفٌ قَبْلَ الْيَوْمِ ، وَأَنْتَى
أَعْرَفُكَ وَأَعْرَفَ نَسَبَتِكَ ، وَأَنْتَى تَلَاقَيْتَ بَكَ قَبْلَ هَذِهِ السَّاعَةِ .

(٥) المعنى : إن ظنك صحيح ، وفراستك لم تَعُدْ الْحَقِيقَةَ ؛ فَإِنِّي قَدْ سَرْتُ
مَعَكَ فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ ، وَأَنْتَ صَدِيقِي وَخَلِيلِي .

(٦) أراد أن هَيْئَتِكَ لَيْسَتْ عَلَى مَا كُنْتَ أَعْهَدَ مِنْ قَبْلِ ، وَلِهَذَا كَانَ
لِي الْمَعْذِرُ فِي عَدَمِ مَعْرِفَتِكَ ، وَفِي تَقْدِيمِي لِلسُّؤَالِ مِنْكَ .

وَمَا أَنَسَانِيكَ إِلَّا الشَّيْطَانُ^(١) ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

أَنَا جَبَّارُ الزَّيْمَانِ لِي مِنَ السُّخْفِ مَعَانِي^(٢)
وَأَنَا الْمُتَنَفِّقُ بَعْدَ الْـ مَالِ مِنْ كَيْسِ الْأَمَانِي^(٣)
مَنْ أَرَادَ الْقَصْفَ وَالْفَرْغَ فَ عَلَى عَزْفِ الْمَثَانِي^(٤)

(١) أى : وقد استولى الشيطان على ذاكرتى فأخذ يُضعِفُ فيها بكثرة ما يلقى إلى من المشاغل ، ولولا ذلك لما نسييتك ، ولا تطرَّقَ إلى ذهني الجَهْلُ بك
(٢) السُّخْفُ - بوزن قُفْل - الحق ، ورقة العقل ، وضعف المدركة ، وبابه ظُرْف ، تقول : سَخَفَ فهو سَخِيفٌ ، وأراد من معاني السخف هنا أطوار السخف ، وما ينشأ عنه ، ولا يكون منه إلا الأفاعيل والأقوابيل ، فهو في الحقيقة متساختف لا سخييف ، مُتَغَابٍ وليس بِنَبِيٍّ ، والمعنى : إني الجَبَّارُ الذي تفرَّغْتُ في زمانى هذا بما أصنع من الحيل وغرائب الأمور ، وبما أرتكب من الشعبذة التي لا تَنْظَلِي إلا على ضعاف العقول .

(٣) المعنى : إني لا أبالي بالإففاق ، ولا أكرث بالبذل ، بل أنا أنفق عن سَعَةٍ وأبذل من غير تفتير ؛ لأنه لو فرَغَ ما معى من المال فلست أعدم كَيْسِ الأمانى أنفق منه ، وهو لا يأتى عليه الإففاق ، ولا يستنفده البذل ، لأن لى فى كل لحظة مئات الأمانى وما لا عدوله منها ، والمراد أن عنده من الأمانى ما يسليه عن المال عند فقده ، وقد يكون المعنى أنه كما يُعْطَى المال ثمنا لما يأخذ من السَّلْعِ يُعْطَى من الأمانى ما يقوم مقام المال ؛ فإنه بِحِدَاةٍ يمنح القلب أمانة تقوم عنده مقام ما كان يأخذ من الثمن أو تزيد ، وقد صدَّقَ فى دعواه هذه ، أو ايس هو الذى أخذ نفود هذه الجماعة بما مَنَّاهم المطلبين ووعدهم بالسكنزين ؟

(٤) الْقَصْفُ : العكوف على ملاذِّ الطعام والشراب ، والقَرْفُ - بالفين المعجمة بعدها راء - المرادُ به غَرْفُ الطعام ، وبكى به عن الإكثار من شرب الخمر ، فهو يغترف ولا يرتشف ، والقَرْفُ - بعين مهملة فزاي - الرنين ، والمثانى ، من ذوات الأوتار المطربة : ماله وَتَرَانِ .

وَأَصْطَفَى الْمُرْدَانَ جَهْلًا مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانٍ (١)
صَارَ مِنْ مَالٍ وَإِقْبَالٍ لِ تَرَاهُ فِي أَمَانٍ (٢)

(١) أصطفى : اختار ، وانتقى ، واستحسن ، والمردان : جمع أمرد ، وهو من لم تنبت لحيته ولا خطاً شاربه .

(٢) إما أن يكون قد أراد أن يزين القصف والعزف واصطفاء المردان ، ويحبب الناس فيها ، ويذكر حسناتها ، ويدعو إليها ، فهو - على هذا - يقول : من أراد ذلك ونزع إليه وشغف به أقبلت الدنيا إليه ، وتكالت عليه ، واجتمع عنده المال الوفير ، وكثر لديه الدرهم والدينار ، وامتلاً من حظ الحياة ومتاعها جرابه ، فهو بسبب كل ذلك آمن مطمئن لا يخشى الفقر ولا يخافه ، ولا ينتظر حلوله بناديه ، وإما أن يكون مراده أن من نزع إلى هذه الأمور ورغب فيها وأحبها فقد أمن من المال والإقبال ، وكأنهما شيء يخشى منه أو تخاف بادرته ، ومن كان منهما في أمان بهذا المعنى كان الفقر له ملازماً ، والإملاق له حليفاً ، وكان التقى أبعد شيء منه ، وكلا المعنيين له حظ من دلالة اللفظ عليه ، وإن كانا مختلفين ويشبه أن يكونا متضادين .

٥١ - المَقَامَةُ الدِّشْرِيَّةُ

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ :
كَانَ بَشِيرُ بْنُ عَوَانَةَ الْعَبْدِيُّ ضَمْلُوكًا (١) .

(١) ضَمْلُوكًا : أَيْ لِيصًا فَاتِكَا ، وَأَصْلُ الضَّمْلُوكِ : الْفَقِيرُ الْعَدِمُ ، ثُمَّ سَمُوا
ذُو بَانَ الْعَرَبِ لِأَصْوَحِهَا : ضَمَالِكَةَ ، وَضَمَالِيكَ ؛ لِأَنَّ الْعَقْرَ كَثِيرًا مَا يَحْمَلُ
عَلَى السَّرْقَةِ ؛ إِذْ هُوَ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهَا ، وَيَكُونُ سَبِيحًا فِيهَا غَالِبًا ، وَفِي كَلَامِهِمْ :
« الْخَلَّةُ تَدْعُو إِلَى السَّلَّةِ » أَيْ الْفَقْرُ يَدْعُو إِلَى التَّسَلُّ وَالسَّرْقَةِ .
وَضَمَالِكَةُ الْعَرَبِ وَفُتْنَا كَهَا وَذُو بَانَهَا كَثِيرٌ ، مِنْهُمْ الْمُنْتَشِرِينَ وَهَبِ الْبَاهِلِي ،
وَأَوْفَى بْنِ مَطَرٍ الْمَلْزَمِي . وَمِنْهُمْ الشَّنْفَرِيُّ ، وَتَأَبَّطَ شِرَا ، وَعَمْرُو بْنُ بَرَّاقٍ . وَكَانَ
مِنْ حَدِيثِ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ - فِيمَا ذَكَرَ أَبُو عَمْرٍو الشَّيْبَانِيُّ - أَنَّهُمْ خَرَجُوا فَأَغَارُوا
عَلَى بَجِيلَةَ ، فَوَجَدُوا لَهُمْ رَصْدًا عَلَى الْمَاءِ ، فَلَمَّا مَالُوا لَهُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ قَالَ لَهُمَا
تَأَبَّطَ شِرَا : إِنْ بِالْمَاءِ رَصَدًا ، وَإِنِّي لِأَسْمَعُ وَجِيبَ قُلُوبِ الْقَوْمِ ، فَقَالَا :
مَا نَسْمَعُ شَيْئًا ، وَمَا هُوَ إِلَّا قَلْبُكَ يَجِبُ ؛ فَوَضَعَ أَيْدِيهِمَا عَلَى قَلْبِهِ وَقَالَ : وَاللَّهِ
مَا يَجِبُ وَمَا كَانَ وَجَابًا ، قَالُوا : فَلَا بُدَّ لَنَا مِنْ رُؤُودِ الْمَاءِ ، فَخَرَجَ الشَّنْفَرِيُّ ، فَلَمَّا
رَأَاهُ الرَّصَدُ عَرَفُوهُ فَتَرَكَوهُ ، حَتَّى شَرِبَ مِنَ الْمَاءِ وَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ
مَا بِالْمَاءِ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْحَوْضِ ، فَقَالَ تَأَبَّطَ شِرَا لِلشَّنْفَرِيِّ : بَلَى ،
وَلَكِنِ الْقَوْمَ لَا يَرِيدُونَكَ ، وَإِنَّمَا يُرِيدُونَنِي ، ثُمَّ ذَهَبَ ابْنُ بَرَّاقٍ فَشَرِبَ وَرَجَعَ
وَلَمْ يَعْرِضْ وَالَهُ ، فَقَالَ تَأَبَّطَ شِرَا لِلشَّنْفَرِيِّ : إِذَا أَنَا كَرَعْتُ فِي الْحَوْضِ فَإِنَّ
الْقَوْمَ سَيَشُدُّونَ عَلَيَّ فَيَأْسِرُونِي ، فَاذْهَبْ كَأَنَّكَ تَهْرَبُ ، ثُمَّ كُنْ فِي أَصْلِ ذَلِكَ
الْقَرْنِ ، فَإِذَا سَمِعْتَنِي أَقُولُ : خَدُوا ، خَدُوا ، فَتَمَالَ فَاطْلِقْنِي ، وَقَالَ لابن بَرَّاقٍ :
إِنِّي سَأَمُرُّكَ أَنْ تَسْتَأْسِرَ لِلْقَوْمِ ؛ فَلَا تَتَنَا عَنْهُمْ ، وَلَا تَمَكَّنْهُمْ مِنْ نَفْسِكَ ، ثُمَّ مَرَّ =
(٢٩ - شرح مقامات البديع)

== تأبط شرأ حتى وَرَّهَ اللهُ، فبين كَرَعَ في الحوض شَدُّوا عليه، فأخذوه وكتفوه
 بوندٍ، وطار الشنفرى فأتى حيث أمره، وانحاز ابن براق بحيث يَرَوْنَهُ، فقال تأبط
 شرا : يامعشر بجيلة هل لكم في خير أن تياسرونا في الغداء ويستأمر لكم
 ابن براق ؟ قالوا : نعم ، فقال : وَبِئْسَ يابن براق ، أما الشنفرى فقد طار ، وهو
 يصطلي نار بنى فلان ، وقد عَلِمْتَ ما بيننا وبين أهلِكَ ، فهل لك أن تستأمر
 ويياسرونا في الغداء ؟ قال : لا والله حتى أروى نفسي شَوْطاً أو شَوْطَيْنِ ، فجعل يَسْتَنُّ
 نحو الجبل ويرجع ، حتى إذا رأوا أنه قد أعيا طمعوا فيه فأتبعوه ، ونادى تأبط
 شرا : خُدُوا، خُدُوا، فَخَالَفَ الشنفرى إلى تأبط شرا فقتل وَتَأَقَّهَ، فلما رآه ابن بَرَّاقِ
 وقد خرج من وَتَأَقَّهَ مَالَ إلى ناحيته ، فناداهم تأبط شرا : يامعشر بجيلة أعجبكم
 عَدُوُّ ابن بَرَّاقِ ؟ أما والله لأعدونَّ لكم عَدُوًّا يُدْسِيكُمْ عَدُوَّهُ ، ثم أحضروا
 ثلاثهم ، فنجَّوْا ، وفي ذلك يقول تأبط شرا :

لَيْلَةَ صَاحُوا لِي وَأَعْرَوْا بِي سِرَاعَهُمْ بِالْعَيْبَتَيْنِ لَدَى مَعْدَى ابْنِ بَرَّاقِ
 كَأَنَّ حَنَحْتُمْ حُصًّا قَوَادِمُهُ أَوْ أُمَّ خَشْفٍ بِذِي شَثٍ وَطُبَّاقِ
 لَا شَيْءَ أَسْرَعُ مِنِّي غَيْرُ ذِي عَدْرِ أَوْ ذِي جَنَاحٍ يَجْنُبُ الرَّيْدَ حَفَّاقِ

ومن الذُّوبَانِ السُّلَيْكِ بنِ السُّلَيْكَةِ التَّمِيعِي ، ومن حديثه - فيما زعم أبو عبيدة
 أيضا - أنه رآه طلائعُ جيش لبكر بن وائل جاهوا متجرِّدين على تميم ، فقالوا :
 إن علم السليك بنا أنذر قومَه ، فبمئوا إليه فارسين على جوادين ، فلما هاجاه خرج
 يمحص كأنه ظبي ، فطار داه سحابة نهاره ، ثم قال : إذا كان الليلُ أعيا فسقط
 فناخذه ، فلما أصبح وجد أئمره قد عثر بأصل شجرة فنزا ونذرت قوسه فأنحطمت
 فوجدنا قصدة منها فدارت في الأرض ، فقالوا : لعل هذا كان أول من الليل
 ثم فتر ، فتبعاه ، فإذا أثره وقد بال في الأرض وخدَّ فيها ، فقالوا : ماله قاتله الله ! =

== ما أشدَّ مَنته ! والله لا تبغته ، وانصرفا ، فتم السَّليكَ إلى قومه ، فأندَرهم ، فكذبوه لبعده الغاية ، فقال :

يُكَذِّبُنِي الْعَمْرَانِ عَمْرُو بْنُ جُنْدُبٍ وَعَمْرُو بْنُ سَعْدٍ، وَالْمُكَذِّبُ أَكْذَبُ
سَعَيْتُ - لَعَمْرِي - سَعَى غَيْرَ مُعْجَزٍ وَلَا أَنَا لَوْ أَنَّنِي لَا أَكْذَبُ
ثَكَلْتُكُمْ إِنْ لَمْ أَكُنْ قَدْ رَأَيْتُهَا كَرَادِيسَ يُهْدِيهَا إِلَى الْحَيِّ مُؤَكَّبُ
كَرَادِيسَ فِيهَا الْخَوْفَزَانُ، وَحَوْلَهُ فَوَارِسُ هَامٍ مَتَى يَدْعُ يَرْكَبُوا
وجاء الجيش فأغاروا ، والسَّلكة : أمه ، وكانت سوداء ، وإليها ينسب ،
وأصل السَّلكة ولذَّ الجمل .

وكان عُرْوَةَ بن الوَرْدِ في قوم إذا أصابتهم سَنَةٌ شديدة تركوا في دارهم المر يرض والكبير والضعيف ؛ فكان عُرْوَةَ يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشرته في الشدة ويحضر لهم الأسراب ويكنف عليهم الكنف (وهي الحظائر من الشجر تحظر عليهم كما تحظر على الإبل فتقيهم من الريح والبرد) ويكسبهم ، ومن قوَى منهم - إما مريض يبرأ من مرضه ، أو ضعيف تثوب إليه قوته - خرجَ به معه فأغار وجعل لأصحابه الباقيين في ذلك نصيباً ، حتى إذا أخصب الناسُ ، وألبنوا ، وذهبت السنَّة ، ألحق كلَّ إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمته إن كانوا غنمواها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى ، فلذلك سمي « عُرْوَةَ الصَّعَالِيك » وهو الذي يقول وقد ضاقت حاله وأقصرت يده في بعض السنين :

أَعَلَّ ارْتِيَادِي فِي الْبِلَادِ وَبُغْيَتِي وَشَدَى حَيَازِيمِ الْمَطِيَّةِ بِالرَّحْلِ
سَيِّدُ فَعْنِي يَوْمًا إِلَى رَبِّ هَجْمَةٍ يَدَافِعُ عَنْهَا بِالْمُقُوقِ وَبِالْبِخْلِ

ويقول بعد أن انكشفت غماؤهم ، وزال كربهم بسببه :

أَلَا إِنَّ أَصْحَابَ الْكَيْفِ وَجَدْتُهُمْ كَمَا النَّاسِ لَمَّا أَمْرَعُوا وَتَمَوَّلُوا =

فَأَغَارَ عَلَى رَكْبٍ فِيهِمْ أَمْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ ، فَتَزَوَّجَهَا ^(١) ، وَقَالَ : مَا رَأَيْتُ
كَالْيَوْمِ ^(٢) ، فَقَالَتْ :

أَعْجَبَ بَشْرًا حَوْرًا فِي عَيْنِي وَسَاعِدًا أَبْيَضًا كَاللَّجَيْنِ ^(٣)

وَإِنِّي لَمَدْفُوعٌ إِلَى وَلَاؤِهِمْ وَإِنِّي وَإِيَّاهُمْ كَذِي الْأَمِّ إِذْ هَمَّتْ
بِمَاوَانَ إِذْ تَمْشِي وَإِذْ تَتَمَلَّلُ لَهُ مَاءَ عَيْنَيْهَا تَفْدَى وَتَحْمِلُ
فَبَاتَتْ تَحْدُ الْمَرْقَقَيْنِ كِلَيْهِمَا تَوْحُوحُ مِمَّا نَالَهَا وَتُوَلُّوْلُ
تَخَيَّرُ مِنْ أَمْرَيْنِ لَيْسَا بِغَبْطَةٍ هُوَ الشُّكْلُ إِلَّا أَنَّهَا قَدْ تَجَمَّلُ

(١) أغار : سطا ، والاسم : الغارة ، والركب : جماعة الراكبين ، ويقال لأصحاب الإبل في السفر دون سائر الدواب ، وهم العشرة فما فوقها ، والركبان : الجماعة منهم ، والركاب : الإبل التي يسار عليها ، الواحدة راحلة ، ولا واحد لها من لفظها .

(٢) ويروى « هل رأيت أحسن منك » والمعنى : إن بشرا ذلك الفَتَّاك قد سطا على جماعة آخذة في طريقها ، فاتهب منهم امرأة ، فأخذها فبني بها ، ولما تم له ذلك أخذته العجب من حُسنها ، واستولى عليه جمالها وصباحة وجهها ، فشكر يومه ، وحمد ما ناله فيه .

(٣) الحور في العين : اتساعها ، مثله في عين الظباء ، وقيل : هو أن يشتد بياض بياض العين وسواد سوادها وتستدير حدقتها وترق جفونها وبييض ما حولها ، وقيل : الحور أن تسود العين كلها ، كما في البقر والظباء ، ولا يكون ذلك في الناس ، ولكنه قد يقال للنساء « حور العيون » على التشبيه لمن بالظباء والمها ، وإذا شبهوهن بالمهاة أو الظبية فهم يريدون ذلك ، ومما ينسب لابن دريد :

يَا ظَبِيَّةَ أَشْبَهَ شَيْءٌ بِالْمَهَا تَرَعَى الْخَزَامِيَّ بَيْنَ أَشْجَارِ النَّقَا =

= وقال الشريف الرضى :

يَا ظَنِيَّةَ الْبَانِ تَرَعَى فِي حَمَائِلِهِ لِيَهْنِكَ الْيَوْمَ أَنَّ الْقَلْبَ مَرَعَاكَ
ومن محاسن العين : الدعجُ ، وهو أن تكون العينُ شديدة السواد مع سعة
المُقَلَّةِ ، والبرجُ ، وهو شدة سوادها وشدة بياضها ، والنَّجَلُ ، وهو سعتها ،
والسَّجَلُ ، وهو سواد جُفونها من غير كُحْل ، والوَطْفُ ، وهو طولُ أشْفارها
وتمامها ، وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم « كَانَ فِي أَشْفَارِهِ وَطْفٌ » ،
والشُّهْلَةُ ، وهي حمرة في سوادها ، وكل ذلك أصله من صفات الطباء والبقر ،
يقولونه للنساء على التشبيه ، قال السرى الرفاء :

تَصَدَّتْ لَنَا وَالْهَوَى أَنَّهُ فَصَدَّتْ وَقَدْ غَادَرْتَهُ زَفِيرًا
وَكَانَتْ ظِبَاءَ تَرُودُ اللَّوَى فَأَضَحَتْ شُمُوسًا تَرُودُ الْخُدُورًا
فِرَاقٌ أَصَابَ جَوَى سَاكِفًا فَكَانَ لَهُ يَوْمَ سَلَعٍ مُثِيرًا
وَسَاجِي الْجُنُونِ إِذَا مَا سَجَا أَعَارَ أَلْمَهَا دَعَجًا أَوْ فُتُورًا
أَغْرُرُ بِالنَّفْسِ فِي حُبِّهِ وَالْأَفُ مِنْهُ غَزَالًا غَرِيرًا
وَأَعْتَدَ زُورَتَهُ فِي الْكَرَى نَوَالًا لَدَى وَإِنْ كَانَ زُورًا

وقال الشريف الرضى :

يَا وَقْفَةَ بَوْرَاءِ اللَّيْلِ أَعْهَدُهَا كَأَنْتَ نَدِيجَةَ صَبْرٍ عَافِرِ الْوَطْرِ
وَالْوَجْدُ يَفْضُبُنِي قَلْبًا أَضْنُ بِهِ وَالِدَمْعُ يَمْنَعُ عَيْنِي لَذَّةَ النَّظْرِ
وَفِي الْخِبَاءِ الَّذِي هَامَ الْوُؤَادُ بِهِ نَجْلَاهُ مِنْ أَعْيُنِ الْغِزَالَانِ وَالْبَقْرِ
أَبْرَزْتُهَا فَتَخَاصَرْنَا مُبَاعِدَةً عَنِ الْخَلِيَامِ نَعْنَى الْخَطْوِ بِالْأُزْرِ
نَمْ أَنْشَيْتُ وَلَمْ أَدْنِسْ سِوَى عَبْقِ عَلَى جَنُوبِي لَرَبًّا بَرْدَهَا الْعَطْرِ

وقال البحترى :

سَقَى الْغَيْثُ أَجْرَامًا عَمِدَتْ بِجَوْهَا غَزَالًا تَرَاعِيهِ الْجُنَادِرُ أَغْيَدًا
إِذَا مَا السَّكْرَى أَهْدَى إِلَيَّ حَيَالَهُ شَفَى قُرْبَهُ التَّهْرِيحُ أَوْ نَعَمَ الصَّدَى =

وَدُونَهُ مَسْرَحَ طَرْفِ الْعَيْنِ حَمَّصَانَةٌ تَرْفُلُ فِي حِجَابَيْنِ (١)
أَحْسَنُ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ (٢) لَوْ ضَمَّ بَشْرٌ بَيْنَهَا وَبَيْنِي

= والخور خيرها وأكثرها جمعا للمحاسن واشتمالا على جميل الصفات، والساعد : معروف ، واللجج : الفضة ، والمعنى : إنه قد راق في عين بشر ذلك الخور الذي يراه في عيني ، وهذا البياض الذي يجده في ساعدي .

(١) يقال : فلان تحت عيني فلان ، إذا كان قريبا منه دانيا إليه بحيث يراه وتقع عينه عليه ، ومنه قيل : « القوم منك معان » أي بحيث تراهم بعينك « وهذا معان الحى » أي بحيث يروته ، وطرف العين : نظرها ، والحمصانة : الضامرة السكشع ، الخفيفة البطن ، وأصله الحمص وهو الجوع ؛ لأن به يضم البطن ويخف ، يقال : خصص بطنه - بتثايت الميم - خصصا ، إذا خلا ، وهو خميص البطن ، وهي خميصة البطن ، وهو خصصان وهي خصصانة ، وهم خصاص وهن خصائص ، والحجلان : تثنية حجل ، وهو الخخال ، وترفل فيه : تمشى متعاجبة به وتختال زهواً وكبرا ، والمعنى : إن بشرا ليس بصيب في هيأته بنى وإعجابه ، في حين أن خر يده جميلة وكاعبا وقورا وبضة لغوبا بالقرب منه وفي منطلق بصره .

(٢) المعنى : إنها أحسن النساء جميعا ، بل أحسن الناس كلهم ، فإن

من يمشى على رجلين أعم من جميع بنى آدم .

ومما يمدح في النساء خصص البطون ، قال ابن الرومي :

كَيْفَ السَّبِيلِ إِلَى افْتِنَاصِ عَرَائِرِ يَدْعِي بِأَسْمِهِمْ لِحْظَهَا الْقَنَاصُ
بِيضِ السَّوَالِفِ عَذْبَةَ أَفْوَاهِهَا رِيًّا الرَّوَادِفِ ، وَالْبَطُونَ خِصَاصُ
يَجْرَحْنَغَنَّا بِنَوَاطِرِ مَا إِنْ لَمَّا مِنْهُنَّ عِنْدَ جِرَاحِنَ قِصَاصُ

وقال ابن المعتز :

سَقَى اللَّهُ تَمَسًّا بِالْمَحْرَمِ دَارَهَا يَهُونُ عَلَيْهَا مِنِّي الْعَيْثُ وَالْهَجْرُ =

أَدَامَ هَجْرِي وَأَطَالَ بَيْدِي (١)
 وَلَوْ بَقِيسُ زَيْنَهَا زَيْنِي
 وَدَحَلَتْهَا عَلَيْنَا رِيحُ بَيْنِ كَوَاعِبِ
 وَقَدْ كَتَمْتُمُنَّ الْمَقَانِيعُ وَالْأَزْرُ
 وَرُمَانُ صَدْرِ مَا لِيَانِعِهِ هَضْرُ
 وَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمَتْنَبِيُّ :

عَمْرَكَ اللَّهُ ! هَلْ رَأَيْتَ بُدُورًا
 رَامِيَاتٍ بِأَسْنَمٍ : رِيشَهَا الْهَيْدُ بُ ، تَشْقُ الْقُلُوبَ قَبْلَ الْجُلُودِ
 كُلَّ حَخْصَانَةٍ أَرْقَ مِنْ الْخَمْرِ بِقَلْبِ أَقْسَى مِنَ الْجُلُودِ
 تَحْمِلُ الْمِسْكَ عَنْ غَدَائِرِهَا الرِّيْحُ ، وَتَنْفَتِرُ عَنْ شِدْتِ بَرُودِ
 جَعَتْ بَيْنَ جِسْمِ أَحْمَدَ وَالشَّعْرِ وَبَيْنَ الْجُفُونِ وَالتَّسْمِيْدِ
 وَقَالَ ابْنُ نَبَاتَةَ السَّعْدِيُّ :

قَدْ غَلِمَتْ حُسْنًا عَلَى عَقْلِهِ
 جَرِيَةٌ تَفْضَحُ شَمْسَ الضَّحَى
 ضَعِيفَةٌ الْخَضِرُ لَوْ أَسْتَنْشَقَتْ
 بِاللَّحْمِ فِي أَنْفَاسِهِ مَا اشْتَقَى
 جُمَلَتَهَا تَشْبَهُ تَفْصِيلَهَا
 فَاكَلْ جُزْءَ حُسْنِهِ مُنْتَهَى
 يَلُومُنِي الْعَاذِلُ فِي حُبِّهَا
 لَا بَرِحَ الْعَاذِلُ أَوْ يُدْبِتَلِي
 وَقَالَ الشَّرِيفُ الرَّضِيُّ :

وَضَبِيَّةٌ مِنْ ظَبْيَاءِ الْإِنْسِ عَاطِلَةٌ
 تَسْتَوْقِفُ الْعَيْنَ بَيْنَ الْخَمْرِ وَالْهَضْمِ
 لَوْ أَنَّهَا بِنَاءُ الْبَيْتِ سَانِحَةٌ
 لَصَدَّتْهَا وَأَبْتَدَعَتْ الصَّيْدَ فِي الْحَرَمِ

(١) الهجر : الإعراض ، والبين : الفراق ، والمعنى : إنه لو جمع بشرى بيني وبينها ، ونظر إلى وإليها ، وقارن بين محاسني ومحاسنها ، وأراد الموازنة بين ما أعجبه مني وما غفل عنه منها - لهجرتني هجراً طويلاً ، وفارقتني فراقاً دائماً ؛ لأنه يستعجب منظرى لدى منظرها ، ويكره رؤيتي عند رؤيتها ، ويمقت بقاى عنده ، وإقامتي لديه ، حين يظهر له عظيم ما بيننا من الفرق .

لَأَسْفَرَ الصُّبْحُ لَدِي عَيْنَيْنِ (١)

قَالَ بَشْرٌ: وَيَحْكُ مِنْ عَنَيْتِ (٢)؟ فَقَالَتْ: بَدَتْ عَمَّكَ فَاطِمَةً، فَقَالَ:
أَهِيَ مِنَ الْحُسْنِ بِحَيْثُ وَصَفْتِ (٣)؟ قَالَتْ: وَأَزِيدُ وَأَكْثُرُ (٤)، فَأَنْشَأُ يَقُولُ:
وَيَحْكُ يَاذَاتِ الثَّنَائِيَا الْبَيْضِ مَا خِلْتَنِي مِنْكَ بِمُسْتَعْيِضِ (٥)

(١) الزَّيْنُ: الْحَاسِنُ، وَالْمَعْنَى: إِنَّهُ لَوْ قَدَّرَ مَا بَيْنَ حَاسِنِهَا وَحَاسِنِي مِنْ
الْفَرْقِ لَظَهَرَ لَهُ كَمَا يَظْهَرُ الصُّبْحُ لَدِي عَيْنَيْنِ سَلِيمَتَيْنِ، فَكَمَا لَا يَرْتَابُ صَاحِبُ
الْبَصْرِ الصَّحِيحُ فِي ضَوْءِ الصَّبَاحِ لَا يَرْتَابُ بَشْرٌ فِي الْفَرْقِ بَيْنِي وَبَيْنِهَا، وَ«أَسْفَرَ
الصُّبْحُ لَدِي عَيْنَيْنِ» مَثَلٌ جَاءَتْ بِهِ فِي مَوْضِعِ جَوَابِ لَوْ، مِبَالِغَةٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى تَحْقِيقِهِ
(٢) وَيَحْكُ: كَلِمَةٌ رَحْمَةٌ، وَوَيْلٌ: كَلِمَةٌ عَذَابٌ، وَقِيلَ: هَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ،
تَقُولُ: وَيَحْكُ لَزِيدٍ، وَوَيْلٌ لَهُ، فَتَرْفَعُهُمَا عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، وَلَكِ أَنْ تَنْصِبَهُمَا بِفِعْلِ
مَضْمَرٍ، تَقْدِيرُهُ أَلْزَمَهُ اللَّهُ وَبِحَا وَوَيْلًا، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَكَذَا وَيَحْكُ وَوَيْلًا،
وَوَيْحُ زَيْدٍ، وَوَيْلُ زَيْدٍ، مَنْصُوبٌ بِفِعْلِ مَضْمَرٍ، وَأَمَّا قَوْلُهُمْ «تَعَسَّأَلَهُ، وَبُعْدَالَهُ»
وَنَحْوَهُمَا فَمَنْصُوبٌ أَبَدًا؛ لِأَنَّهُ لَا تَصِحُّ إِضَافَتُهُ بِغَيْرِ لَامٍ فَيَقَالُ تَعَسَّأَهُ وَبُعْدَاهُ، وَمَنْ
هَاهُنَا افْتَرَقَا، وَعَنَيْتِ: قَصَدَتْ، وَالْمَعْنَى: أَيُّ امْرَأَةٍ تَرِيدِينَ بِكَلَامِكَ هَذَا؟
(٣) الْمَعْنَى: هَلْ تَبْلُغُ ابْنَتُ عَمِّي فِي الْحَسَنِ تِلْكَ الدَّرَجَةَ الَّتِي وَصَفْتَهَا فِي
كَلَامِكَ؟

(٤) وَأَزِيدُ وَأَكْثُرُ: خَبْرٌ لِمَبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ: هُوَ (أَيُّ حَسِنِهَا) أَزِيدُ
وَأَكْثَرُ مِنْ حَسِنِي، أَوْ هِيَ أَزِيدُ مَنِي حَسِنًا وَأَكْثَرُ جَمَالًا، وَالْمَعْنَى إِنْ حَسِنُ
ابْنَةِ عَمِّكَ وَجَمَالُهَا بَلَّغًا دَرَجَةً فَوْقَ الدَّرَجَةِ الَّتِي سَمِعْتَهَا مِنِّي.

(٥) الثَّنَائِيَا مِنَ الْأَسْنَانِ: الْأُرْبَعَةُ فِي مَقْدَمِ الْفِعْلِ، ثَنَتَانِ مِنْ فَوْقٍ وَثَنَتَانِ
مِنْ أَسْفَلَ، وَبَيَاضُهَا مِنْ مُتَمَّاتِ الْجَمَالِ، وَمَكْمَلَاتِ الْحَسَنِ، وَ«مَا خِلْتَنِي - الْخِ»
مَعْنَاهُ: لِإِنِّي مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ أَسْتَبْدِلَكَ، أَوْ أَخَذَ امْرَأَةً عَوَضًا عَنْكَ، أَوْ تَمِيلُ =

فَالآنَ إِذْ لَوَّحْتَ بِالتَّعْرِيبِ خَلَوْتَ جَوًّا فَأُضْفِرِي وَبِيضِي (١)

= نفسى إلى أن أخلف بمدك على أخرى؛ لأننى ما كنت أتوهم أن فى النساء من تماثلك حسنا أو تدنو منك روثقا وبهاء ، فضلا عن أن أظن فىهن أجمل منك أو أعتقد ذلك .

(١) لَوَّحْتَ: عَرَّضْتَ ، وهى قد عَرَّضْتَ بأنه يطلب النساء الأبعد وتتوق نفسه إلى مواصلة الغريبات ، فى حين أن بنت عمه فى مسرح عينه وقريب منه ، وهى به أولى ، وهو بها أحق وأجدر ، وخلق به الأيتام الأبعدين يتطلبونها ، فرما تزوج بها من هو دونه بأسا وشجاعة وشدة ، وهذا من أقيح المثالب التى لاتليق به وبأمثاله ؛ فهذا التعريض قد فعل فى نفسه ، فصمم على ترك هذه التى ظن أنها أجمل النساء ، وقال لها «خَلَوْتَ جَوًّا» أى خلا جوك من القرين - وأصله من قول كليب وائل حين رأى قنبرة اتخذت عشا فى جماء ، وكان يحمى ما يحمل بجاه من طير ونحوه فلا يمكن ليد أن تتناول لصيده ، فدخل فيه يوما ، فطارت القنبرة بين يديه ، فقال :

يَاللَّكِ مِنْ قُنْبَرَةٍ مَعَهَرِ
قَدْ ذَهَبَ الصَّيَّادُ عَنكَ فَأَبْشِرِي
لَا تَرَهِي خَوْفًا وَلَا تَسْتَنْكِرِي
وَرُفِيعَ الْفَخِّ فَأَذَا تَحْذَرِي
خَلَاكَ الْجَوُّ فَبِيضِي وَأُضْفِرِي
وَنَقْرِي مَا شَدَّتْ أَنْ تُنْقَرِي
فَأَنْتِ جَارِي مِنْ صُرُوفِ الْحَذَرِ
إِلَى بُلُوغِ يَوْمِكَ الْمُقَدَّرِ
وخرج يوما إلى الحمى فوجد بيض القنبرة قد وطئها سراب (ناقة البوس التى

مضى ذكرها فى ص ٣١٨) فَعَمَّرَهَا ، وقال :

يَا طَيْرَةَ بَيْنَ نَبَاتِ أَخْضَرِ
جَاءَتْ عَلَيْهَا نَاقَةٌ بِمُنْكَرِ
إِنَّكَ فِي حِمِّي كَلَيْبِ الْأَزْهَرِ
حَمِيَّتِهِ مِنْ مَذْحِجِ وَحْمِيرِ
فَسَكَيْفَ لَا أَمْنَعُهُ مِنْ مَعْشَرِي؟!

لَا ضَمَّ جَفْنَائِي عَلَى تَغْمِيضٍ مَا لَمْ أَشُلْ عِرْضِي مِنَ الْخَضِيضِ^(١)
فَقَاتَتْ :

كَمْ خَطْبٍ فِي أَمْرِهَا أَلْحَا وَهِيَ إِيَّاكَ ابْنَةُ عَمِّ لَحَا^(٢)
ثُمَّ أَرْسَلَتْ إِلَى عَمِّهِ يَخْطُبُ ابْنَتَهُ ، وَمَتَعَهُ الْعَمُّ أَمْنِيَّتَهُ^(٣) ، فَآلَى

(١) « لا ضمَّ جفناي - إلخ » : أى لا ذُقتُ النومَ ، ولا استقرَّ جنبي ، ولا هداً مضجعي ، ولا استراج خاطري ، والمراد : لأخضرون ، ولأسهَّدنَّ جفني ، ولألتزمنَّ هذه الحالة ، حتى يكون ما أردتُ ، وتقول : « شلتُ بالجرَّة » - بالضم - « أشولُ بها شولاً » إذا رفعتها ، ولا تقل « شلتُ » بالكسر ، ويقال أيضاً « أشلتُ الجرَّة » ، فأنشأت هي ، و « شال الميزان » أى ارتفعت إحدى كفتيه ، ومنه « شالَ عِرْضَهُ » رَفَعَهُ ، والخضيض : أصله القَرَار من الأرض عند منقطع الجبل وأسفله ، وفي الحديث أنه أُهديَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هدية فلم يجد شيئاً يضعه عليه ، فقال : « ضَوْهُ بِأَخْيَيسِ ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ » يعنى صَعَبَهُ بِالْأَرْضِ ، والمراد هنا : الضعة والهوان والدلَّة ، والمعنى : إنني لا أنام ولا تغمضُ عيني ؛ فلا ينفضمُ لى جفن على جفن حتى أطلب ابنة عمى وأتزوج بها ؛ فأدفعَ عن نفسى ذلك العار الذى لزمنى ، وأنفى هذه الوسخة التى لحقت بى .

(٢) المعنى : إن كثيراً من الخطَّاب وعدداً عديداً من الرجال ألحوا فى طلب زواجها ، وألحفوا فى سؤال أبيها أن يعقد لهم عليها ، ولا بد أن يُفِضِيَ الإلحاح بأحدهم إلى تَبِيلِ طَلَبِهِ ، وينتهى سؤال واحد منهم بإجابته ، فَمُتَّفَاتٍ من يدك ، وتضع عليك الفرصة ، وهى فى نسبتها إليك ابنة عم لاحقة النسب بك ، قريبته منك ، ويقال : « هو ابن عمِّ لحا » إذا كان نسبه لاحقاً وأبوه أقرب الناس اتصالاً بأبيه .

(٣) الأمنية : واحدة الأمانى ، ويقال فى جمعها : أمان ، وأمانى - بالتخفيف =

أَلَّا يُرْعَى عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ إِنْ لَمْ يُرَوْجْهُ ابْنَتَهُ (١) ، ثُمَّ كَثُرَتْ مَضْرَأَتُهُ فِيهِمْ (٢) ، وَاتَّصَلَتْ مَعْرَأَتُهُ إِلَيْهِمْ (٣) ؛ فَاجْتَمَعَ رِجَالُ الْخَيْ إِلَى عَمِّهِ ، وَقَالُوا : كَفَّ عَنَّا مَجْنُونَكَ (٤) ،

= والتشديد - وتقول منه: تَمَنَّى الشيء، وَمَنَّا غيره، وَمَنَّى به تَمَنِيَّةً، وفي السكاتب (إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْتَقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) والمعنى: إن بشرا ترك هذه المرأة، وذهب إلى قومه، معتزما أن يطلب من عمه ابنته لنفسه، فلما وصل أرسل إليه في ذلك، فحرمه منها، ولم يُجِبْه إلى رغبته.

(١) آلى: حَلَفَ، وَأَفْسَمَ، وَتَأَلَى، وَاتَّسَلَى مثله، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالْأَلِيَّةُ﴾ واليمين، وجمعها أَلْيَاءُ، قال الشاعر: تَأَلَى ابْنُ قَيْسٍ حَلْفَةً لِيُرِدَّنِي إِلَى نِسْوَةٍ كَانَهُنَّ مَفَاوِدُ وقال المجنون:

عَلَى أَلِيَّةٍ إِنْ كُنْتُ أَدْرِي أَيْتَقُصُّ حُبَّ لَيْلَى أَمْ يَزِيدُ
« وَلَا يُرْعَى عَلَى أَحَدٍ » معناه: لَا يُبْقَى عَلَيْهِ، بل يقتله حيث يجده، ويفتك به أُنَى لَقِيهِ، والمعنى: إنه حَلَفَ أَنْ يُعْمَلَ فِيهِمْ سَيْفُهُ، وَيَفْتَكَ بِهِمْ حَتَّى يَرُدُّوا عَمَّهُ عَزْمَةً، وَيَكْلَفُوهُ أَنْ يُرَوِّجَ ابْنَتَهُ بِشْرًا.

(٢) يروي قبل هذه الفقرة: « ثُمَّ دَبَّتِ الْأَيَّامُ، وَدَرَجَتِ اللَّيَالِي، وَتَصَرَّمَتِ الشُّهُورُ، وَتَجَرَّمَتِ السَّنُونَ، وَبِشْرٌ يَفْتِكُ فِي مَنْ لَقِيَهُ مِنْهُمْ، وَكَثُرَتْ مَضْرَأَتُهُ فِيهِمْ - إلخ ».

(٣) مَعْرَأَتُهُ: جمع مَعْرَةٌ، وهي الأذى والمساءة والشر، والمعنى: إنه أنفذ إرادته، وَعَمِلَ بوعيده، فلم يزل يُوقِعُ بِهِمُ الشُّرُورَ، وَيَأْتِيهِمُ بِالْأَذَى، وَيُرْمِيهِمُ بِالْمَسَاءَةِ، وَيَجْرُ عَلَيْهِمُ الْوَيْلَ وَالْهَوَانَ.

(٤) كَفَّهُ عَنَّا: أي أُرْدَعَهُ عَن أَفْعَالِهِ، وَيُقَالُ: كَفَّهُ عَنِ الشَّيْءِ فَكَفَّ - فَبِهِو يَتَعَدَّى وَيَلْزَمُ - وَبَابُهُ رَدٌّ، والمعنى: زَوَّجَهُ ابْنَتَكَ، وَاحْتَمَأَ شَرَّهُ، =

فَقَالَ: لَا تُبَسُّوْنِي عَارًا^(١)، وَأَمْهَلُونِي حَتَّىٰ أَهْلِكَهُ بِيَعْمُضِ الْحَيْلِ^(٢)، فَقَالُوا:
أَنْتَ وَذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ مَعَهُ: إِنِّي آلَيْتُ أَنْ لَا أُزَوِّجَ ابْنَتِي هَذِهِ إِلَّا بِمَنْ
يَسُوقُ إِلَيْهَا أَلْفَ نَاقَةٍ مَهْرًا^(٣)، وَلَا أَرْضَاهَا إِلَّا مِنْ نَوْقِ خَزَاعَةٍ^(٤)
- وَغَرَضُ أَلْفِ نَاقَةٍ كَانَ أَنْ يَسْلُكَ بِبَشَرِ الطَّرِيقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَزَاعَةٍ فَيَقْتَرِسَهُ

= وادفع عنا كيدك ، فقد نالنا منه ما هو خليق من أجله بمصانفته، ويروى بدل
هذا : « إِمَّا أَنْ تَكْفِينَا أَمْرَةً أَوْ تَنْدِيلَهُ مُرَادَهُ » والمعنى : أقتله أو تحمّل لذلك ،
فإن لم تستطع فزوجه ابنتك ليسكت عنا .

(١) لو أنه رَضَخَ لمشورتهم وأذعن لما رآوه فتكفل لهم بدفع شره
لما استطاع إلى ذلك سبيلا ؛ لأن بشراً أكثر منه جراءة ، وأشدّ إقداماً ،
وأوفر شجاعة ، ولو أنه زوجه ابنته لكان مقسوراً على ذلك مُرَعَمًا إليه مجبوراً
فيه ، وكان مثل ذلك جديراً بأن يُسَمَّى بِالضَّيْمِ وَخُنُوعًا إِلَى الدَّلَّةِ ،
وفي كلا الأمرين عار شديد ، وهما أمران أحلاهما مر ، لهذا طلب منهم المَهَلَّةُ .
(٢) أمهلوني : أعطوني مهلة ، وأمهلته : أنظره ، ومهلته تمهّلاً ، والاستمهال :
الاستنظار ، وتمهّل في أمره : اتأدّ وترتّب ، والمعنى : أعطوني وقتاً أتمكن فيه
من التؤدة والتروية ، والحيل : جمعٌ واحد حيلة ، وهي الأسم من الاحتيال
الذي هو الخداع والمُخَانَلَةُ .

(٣) آليت : خلّفت ، وقوله « إِلَّا مَنْ يَسُوقُ إِلَيْهَا أَلْفَ نَاقَةٍ » أى :
لا أزوجه إلا للذي يُعْطِينِي مَهْرَهَا أَلْفَ نَاقَةٍ ، فعبر بسوقها عن إعطائها ، والمهر :
هو ما يجب على الرجل أن يدفع لمن يريد التزوج بها ، وكأنه في نظير ما تبدّل له
من نفسها ، ولا يجوز في الشريعة الإسلامية أن يقع زواج بدون مهر ، ويجب أن
يكون من جهة الزوج .

(٤) خَزَاعَةٌ : إحدى قبائل العرب ، والمعنى : إنني جعلتُ من قسَمِي
تحديد نوع الإبل بكونها من النوق التي ترعاها خَزَاعَةٌ .

الْأَسَدُ ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ قَدْ كَانَتْ تَحَامَتُ عَنْ ذَلِكَ الطَّرِيقِ ^(١) ، وَكَانَ فِيهِ
أَسَدٌ يُسَمَّى دَادًا ، وَحِيلَةٌ تُدْعَى شُجَاعًا ، يَقُولُ فِيهِمَا قَائِلُهُمْ :

أَفْتَكُ مِنْ دَادٍ وَمِنْ شُجَاعٍ إِنْ يَبُكُ دَادٌ سَيِّدَ السَّبَاعِ
فَإِنَّهَا سَيِّدَةُ الْأَفَاعِي ^(٢)

نُحْمٌ إِنْ بَشَرًا سَلَكَ ذَلِكَ الطَّرِيقَ ، فَمَا نَصَفَهُ حَتَّى لَبِيَ الْأَسَدَ ^(٣) ، وَوَقَّصَ
مُهْرُهُ ^(٤) ،

(١) تحامت العرب عنه : تباعدت عنه في سيرها إلى أما كن منافعها ،
وسدكت غيره ، ونهجت طريقاً سواه ، حذراً من الحية والأسد ، والمعنى :
إن الغرض لم يكن حقيقة الذهاب إلى مساكن خزاعة وجلب النياق من هناك ،
واسكنه كان يرمى بذلك إلى غرض بعيد ، وحيلة غريبة ، ذلك أن يسلك بشر
الطريق إلى مكانها ، ويسير إليها - وليس لها غير مسلك واحد امتنعت العرب
كافة عن السير فيه لمكان التهلكة منه - فيهلك دون الوصول إلى غرضه ،
ويموت قبل أن يحصل على مُشْتَهَاهُ ؛ فيكفيهم أذاه ، ويدفع عنهم كيده ،
ويرد شروره .

(٢) أفتك : أفضل تفضيل من قولهم « فتك فلان بفلان » أى بطش به
أو اتهمز منه فرصة فقتله ، أو أخذَه على غفلة فأزهق روحه ، وفي الفتك معنى
التمزيق والقطع .

(٣) نَصَفَهُ : بلغ نصفه ، والمعنى : إنه أخذ في طريقه غير مُبَالٍ بما علم أنه
فيه من الشدائد ؛ فلم يكذب يبلغ نصفه حتى كان قد جاء إلى مكان الأسد وطلع
له الأسد من عَرَبِيته

(٤) قَمَصَ الْفَرَسُ وَغَيْرَهُ يَقْمِصُ - من بابي نصر وضرب - قَمَصًا وَقِمَاصًا
كَقِيَامٍ - وَقِمَاصًا - كزُ كَامٍ - أى رفع يديه معاً وطرحهما معاً ونجس برجليه ،
ولا يكون ذلك من الفرس المروض إلا إذا عرض له ما يُفْرِزُهُ أَشَدَّ الْفَرْعِ ،
وطراً عليه ما يخافه أعظم الخوف .

فَنَزَلَ وَعَقَرَهُ^(١) ، ثُمَّ اخْتَرَطَ سَيْفَهُ إِلَى الْأَسَدِ ، وَأَعْرَضَهُ ، وَقَطَّهَ^(٢) ،
ثُمَّ كَتَبَ بِدَمِ الْأَسَدِ عَلَى قَمِيصِهِ إِلَى ابْنَةِ عَمِّهِ :

أَفَاطِمُ لَوْ شَهِدْتِ بَبْطَانَ خَبْتٍ وَقَدْ لَاقَى الْهَزْبُزُ أَخَاكِ بِشِرَا^(٣)

(١) عَقَرَهُ : قَطَعَ قِوَامَهُ حَصْدًا بِالسَّيْفِ ، عِقَابًا لَهُ عَلَى خَوْرِهِ ، وَجَزَاءً

لَمَا كَانَ مِنْهُ مِنَ الذَّعْرِ ، وَمَتَمَعًا لِنَفْسِهِ مِنْ أَنْ تَحْدُثَهُ بِالْفِرَارِ عَلَيْهِ ، وَإِرْغَامًا لَهَا عَلَى
مُنَازَلَةِ الْأَسَدِ .

(٢) اخْتَرَطَ سَيْفَهُ إِلَى الْأَسَدِ : سَلَّهَ وَدَآفَ بِهِ إِلَيْهِ ، وَقَطَّهَ : أَيَّ قِطْعَةٍ

عَرَضًا ، وَيُظْهِرُ مِنَ الْعِبَارَةِ أَنَّهُ لَمْ يَسْلُ السَّيْفَ إِلَّا لِتَقَدُّمِ بِهِ إِلَى الْأَسَدِ مَعَ أَنَّهُ
لَمْ يَعْقِرِ الْمَهْرَ إِلَّا بِهِ ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ عَقَرَ الْمَهْرَ تَقَدَّمَ إِلَى الْأَسَدِ مَخْتَرِطًا
سَيْفَهُ ، لِأَنَّهُ جَدَّدَ الْاِخْتِرَاطَ أَوْ ابْتَدَأَهُ بَعْدَ الْعَقْرِ ، وَرَبَّمَا أَرَادَ مِنَ الْعَقْرِ التَّقْيِيدَ
وَالْحَبْسَ ، وَكَثِيرًا مَا يُطَلَقُونَهُ عَلَيْهِمَا ؛ لِأَنَّهُمَا أَشْبَهَ بِحَصْدِ الْقِوَامِ فِي أَنْ كَلَا
مِنْهُمَا يَمْنَعُ مِنَ الْمَشْيِ .

(٣) الهمزة حرف وضع لنداء القريب : الحاضر معك ، الداني مكانه

منك بحيث يَسْمَعُكَ ، وَقَدْ يُبَادَى بِهِ الْبَعِيدُ تَنْزِيلًا لِلْحُضُورِ فِي ذَهْنِكَ ، وَتَمَكَّنَهُ
مِنْ نَفْسِكَ ، وَعَدَمَ غَيْبِيَّتِهِ عَنِ فِكْرِكَ ، وَاسْتِجَاعَكَ لِحَاصِئِهِ وَأَوْصَافِهِ ، مَنْزِلَةً
قُرْبِ الْمَكَانِ وَدُنُوِّ جِسْمِهِ مِنْكَ ، وَانْخَلَبْتُ : الْمَطْمَئِنُّ مِنَ الْأَرْضِ فِيهِ رَمْلٌ ،
وَبَطْنٌ كُلُّ شَيْءٍ : جَوْفُهُ ، وَرَبَّمَا كَانَ بَطْنٌ خَبْتٌ عَلِمًا لِمَكَانِ بَعِيْنِهِ ، وَلَيْسَ
ذَلِكَ مَوْجُودًا فِي أَحَدِ كُتُبِ الْمَعَاجِمِ الَّتِي بَأَيْدِينَا وَلَا فِي كُتُبِ الْبُلْدَانِ وَالْأَمَاكِنِ ،
وَأَمَا خَبْتٌ - بَدُونَ بَطْنٍ - فَقَدْ قَالَ فِي الْمَشْتَرِكِ : إِنَّهُ عِلْمٌ لِأَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ : خَبْتٌ
الْجَيْشِ ، وَهِيَ صَحْرَاءٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، وَخَبْتٌ الْبَرْزَوَاءُ لِمَكَانِ قُرْبِ الْجُحْفَةِ
بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ أَيْضًا ، وَخَبْتٌ : قَرْيَةٌ مِنْ قَرْيِ زَبِيدٍ وَهِيَ بَلَدَةٌ بِالْيَمَنِ ، وَخَبْتٌ :
مَاءٌ مَعْرُوفٌ لِكَلْبٍ ، وَهُوَ هُنَا أَحَدُ الْأَوَّلِينَ ، وَالْهَزْبُزُ : الْأَسَدُ .

وقد نسب بعض الرواة هذه الأبيات لعمر بن مفضل يكره الزبيدي - ولعله

ارتسكن في ذلك إلى أن خبنا إحدى قرى زبيد ، وفهم أن نسبة عمرو إليها ، وهو =

إِذَا بَرَأْتِ لَيْثًا زَارَ لَيْثًا هَزَبْرًا أَغْلَبًا لَاقَى هَزَبْرًا^(١)

= خطأ، فإن نسبته إلى جماعة من العرب كان يطلق عليهم: بنو زبيد - كتبَ بها إلى أخته كَبْشَةَ ، وكان له ابنة عم أسماها لميس ، ويقول فيها :

تَظُنُّ لَمَيْسُ أَنْ اللَّيْثَ مِثْلِي وَأَقْوَى هِمَّةً وَأَشَدُّ صَبْرًا
لَقَدْ خَابَتْ ظُنُونُ لَمَيْسٍ فِيهِ وَأُضْحَى الْبَرَّ خَالِي مِنْهُ قَفْرًا

ومطلع القصيدة على زعم هؤلاء الرواة :

أَكْبَشَةُ لَوْ شَهِدْتَ بَيْطَانَ خَيْتٍ وَقَدْ لَاقَى الْهَزَبْرُ أَخَاكَ عَمْرًا

والصحيح أن الواقعتين مختلفتان ، فوقع بينهما الاشتباه ، وخلطت إحداهما بالأخرى ، وقد حصل توارُد الخاطِر بين الشعارين في بعض الأبيات فقط ، والمعنى: إنه لو تبسّر لك أن تشهدى مُصَارَعِي الْأَسَدِ ، وتهبأ لعينك أن ترى ابن عمك وقد حملَ عليه حَمَلَتَهُ الشَّعْوَاءِ لَوَجَدْتَ مشهدا عظيما ، ونظرت إلى حادثٍ خطير .

(١) اللَّيْثُ : الأسد ، ومثله الْهَزَبْرُ ، وللأسد فوق الثلاثمائة اسم ، أصلُ معظمها صفات منها : الْبَيْهَسُ ، وَالْبَهْتَسُ ، وَالْعَرَبُصُ ، وَالْمُرْمِلُ ، وَالشَّيْطَمُ ، وَالْمَجِيدُ ، وَالْبَسُورُ ، وَالْحَيْدَرُ ، وَالْحَيْدَرَةُ ، وَالْمُضَجِرُ ، وَالْعَضَنْفَرُ ، وَالْمُهْتَصِرُ ، وَالْجُهْمُ ، وَالْعَضُوبُ ، وَالْأَغْلَبُ ، وَالْقَرَضَابُ ، وَالْقَرِشْبُ ، ومن كُنَاهُ : أَبُو الْعَبَّاسِ ، وَأَبُو ضَيْعَمَ ، وَأَبُو الْأَشْبَالِ ، وَأَبُو الْأَبْطَالِ ، والمبالغة هنا في تلقيب نفسه بالليث ، وليست في تلقيب الهزبر بالليث كما ظانه بعض من لا يعرف خواصَّ الأساليب ؛ فظن أن الهزبر في البيت حَيَوَانٌ غير الأسد ، واستدلَّ بهذين البيتين توهُمًا مفه أن البيت الثاني يشبه الهزبر بالليث كما يشبه بشرًا به ، وهزبرا في الأصل : وصفٌ لا اسمٌ ، وهو الغليظ الضخم والشديد الصلاب ، والأغلب : من ألقاب الأسد ، ذكره وصفًا كأنه قال : من شأنه أن يغلب أقرانه ، أو هو =

تَبَهَّنَسَ إِذْ تَقَاعَسَ عَنْهُ مُهْرِي مُحَاذَرَةً ، فَقُلْتُ : عُقِرْتَ مُهْرًا^(١)

= باقى على اسميته، وذَكَرَ للبدل أو للبيان، و« لاقى هزبراً » تابعٌ للصفات المتقدمة وكلها صفات لليث الثانى؛ فالليث الأول بشر زار الليث الذى اسمه داذ، وداذ هز بر أغلب لاقى هز بر مثله، فالهز بر الأخير هو بشر أيضاً، ويروى بدل زار « أم آيتنا » أى قصده وتوجه إليه، ويروى « رام ليثاً » أيضاً أى طلبه، والمعنى: إنك، حين تُقدَّر لك مشاهدة ذلك المَنظَر العجيب ستنظرين إلى ليثين قد أُقْبِلَ كل منهما على الآخر وتوجه إليه بطلبه ويريد مُنَازلته، وستشاهدن أسدين عظيمين متكافئين شجاعةً وإقداماً متماثلين جِزَاءً وشدةً، قد زار كل واحدٍ منهما ليخيف قريبه وينزل الرعب فى جوف صاحبه، وقد يَمِّمُ كلامها الآخر وأراد به السوء وورغب فى إهلاكه، وليس أعجبُ منظرًا من هذا، ولا أغربُ منه، بحيث يَرُوقُكَ منظره وتمجيبك مشاهدته، و« لو » فى البيت الأول للتمنى، وكأنه كان يرجو لها أن تراه افتخاراً بشهامته وتمدحاً بقوته وإقدامه.

(١) تَبَهَّنَسَ: تَبَخَّرَ، واختال فى مشيته - صفة للأسد الذى لاقاه -
وتقاعس: أحجم وتأخر، ويروى « ثم أحجم عنه مهري » وإحجام المهر:
تقاعده عن لقائه حذراً منه وخوفاً، ولهذا قال « محاذرة » أى من أجل الحذر،
وعُقِرْتَ مُهْرًا: أى قَطَعْتَ قوائمك التى أَخْرَنَكَ وأخرتنى عن ملاقاته الأسد،
وكان قوله هذا مقروناً بالفعل، فإنه عَقَرَهُ كما تقدم، وقال ابن الرومى فى وصف
الأسد:

| | |
|---|---|
| لِيَأْمَنَ سِقَاطِي فِي الْخُطُوبِ وَتَبَوَّنِي | جَنَانُ الَّذِي يَخْشَى عَلَيَّ وَيَحْذَرُ |
| فَمَا أَسَدٌ جَهْمٌ الْحَيَا ، شَيْمُهُ | خَبِيثَةٌ ، وَرَدُّ السَّبَالِ ، غَضَنْفَرُ |
| مُسَمَّى بِأَسْمَاءٍ ؛ فَمِنْهُمْ ضَيْغَمٌ ، | وَمِنْهُمْ ضِرْعَامٌ ، وَمِنْهُمْ قَسُورُ |
| لَهُ جِنَّةٌ لَا تُسْتَعَارُ وَشَكَّةٌ | هُوَ الدَّهْرُ فِي هَذَا وَهَذَا مُكْفَرُ = |

أَنْزَلَ قَدَمِيَّ ظَهَرَ الْأَرْضِ ؛ إِيَّيْ رَأَيْتُ الْأَرْضَ أَنْبَتَ مِنْكَ ظَهْرًا (١)
وَقَلْتُ لَهُ وَقَدْ أَبَدَى نِصَالًا مُحَدَّدَةً وَوَجْهًا مُكْفَهَرًا (٢)

== إهاب كمتجفاف الكمي حصانة
وحجن كإنصاف الأهله لآبني
تظل له غلب الأسود خواضعا
له ذمرات حين يوعد قرنه
يراه سرة الليل - والدؤونه -
يدبر إذا جن الظلام حجاجه
خبثنة جاب البضيع كأنه
له كلكل رخب اللبان وكاهل
شديد القوى ، عبيل الشوى ، مؤجد القرا

ملاحق أطباق الفقار ، مضرب
إذا ما هلا متن الطريق بيزكه
أخو وحدة تغنيه عن كل منجد
مخوف الشدايمشى الضراء لصيده
بأربي على الأقران مئى صولة
محمى ظهره الركبان فالسفر أزور
له نجدة منها ونصر مؤزر
ويبرز للقرن المناوى فيضجر
وقد أنذر التجريب من كان ينذر

(١) بعد أن قال لمهره « عقرت مهرأ » قال له : انه سكن حتى أنزل عنك فتصل قدماي إلى ظهر الأرض فأنرجل ، فإن رأيت الأرض أصلب ظهراً وأنبتت منك ، و « أنال قدمه ظهر الأرض » : مكنها منه وأوصله إليها ، وليس يخاف أن الشطر الثاني من البيت حقيقة بيته ، وهو تعليل لما في الشطر الأول .

(٢) أبدي : أظهر ، وأبان ، والنصال : جمع نصل ، وهو حديدة السيف ، والسهم ، والرمح ، والسكين ، وأراد بها هنا أنياب الأسد وتخالبه ، =

يُكْفِكُ غِيْلَةً إِحْدَى يَدَيْهِ وَيَبْسُطُ لِلْوُثُوبِ عَلَى أُخْرَى (١)

= على التشبيه، وإدائها منه : تكشيره عنها، والوجه المكفهر : القليل اللحم ،
الغليظ الجلدة ، والمابس : الكثير التَّقْطِيب من الغضب ، ومقول القول سيأتي
بعد أبيات .

ولابن المعتز يصف أسداً :

| | |
|--|--|
| وَمَا لَيْتُ غَابَ يَهْرِمُ الْجَبِشَ خَوْفُهُ | بِمِشِيَةِ وَثَابٍ عَلَى النَّهْيِ وَالزَّجْرِ |
| يَجْرُ إِلَى أَشْبَالِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ | عَفِيرَةً وَحَشِيًّا أَوْ قَتِيلًا مِنَ السَّفْرِ |
| إِذَا مَارَأُوهُ طَارَ جَمْعُهُمْ مَعًا | كَمَا طَافَ النَّفْخُ التُّرَابَ عَنِ الْجُرِّ |
| جَرَى، أَبِي بِحَسْبِ الْأَلْفِ وَاحِدًا | بَعِيدًا إِذَا مَا كَرَّ يَوْمًا مِنَ الْفَرِّ |
| يُرْعَزَعُ أَحْشَاءَ الْبِلَادِ زَبِيرُهُ | وَيُذْهِلُ أَبْطَالَ الرَّجَالِ مِنَ الذُّعْرِ |
| إِذَا ضَمَّ قَرْنَا بَيْنَ كَفَيْهِ خَلْتَهُ | يُعَانِي عُرُوسًا فِي غَلَانِهَا الْمُجْرِ |
| فَحَرَمَ أَرْضَ الْخَائِرِينَ وَمَاءَهَا | فَهَيْبَاتٍ مَنْ بَعْدُ وَعَلَيْهِمْ أَوْ مَنْ بَسْرِي |
| بِأَجْرًا مِنْهُ حَدَّ بَأْسٍ وَعَزَمَةَ | إِذَا مَا نَزَا قَلْبُ الْجَبَانِ إِلَى النَّخْرِ |

(١) يُكْفِكُ : هو في الأصل بمعنى يمنع ويكف ، لكنه هنا بمعنى

يقبض ، وغيلة : إما بمعنى خدعة أو بمعنى اغتيال ، فإن كان الأول فقد أراد
أن الأسد قد استعظم شأنه ، وقوى عنده أمره ، واستفحل خطره ، فهو
لا يجسر أن ينازله مجاهرة ، ولا يقوى على مصارحته ظاهراً ، لهذا فإنه يقبض
إحدى يديه ليغرته ويخدعه بإيهامه أنه لا يريد الوُثُوبَ عليه ، ثم يبسط يده
الأخرى للانقضاض عليه ، وعلى الثاني يصف هيئة الأسد - في توثبه للقتال ،
واستمداده للمنازلة ، وتأهبه للاقتتال - بأنه يقبض إحدى يديه ويبسط
الأخرى ، شأن كل موائب من الحيوان ، وقال أبو الطيب المتنبى يصف أسداً
= قتله بدر بن عمار :

يُدِلُّ بِمِخْلَبٍ وَبِحَدِّ نَابٍ
وَبِالْحِظَاتِ تَحْسَبُهُنَّ جَمْرًا (١)

= أَمْعَفَرُ اللَّيْثِ الْمِزْبَرِ بِسَوِّطِهِ
وَقَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْهُ سَبِيلِيَّةٌ
وَرَدُّ إِذَا وَرَدَ الْمُبْحِرَةَ شَارِبًا
مُتَخَضِّبٌ بِدَمِ الْفَوَارِسِ لَا بَسَّ
مَا قُوِبِلَتْ عَيْنَاهُ إِلَّا ظُنُنْتَا
فِي وَحْدَةِ الرَّهْبَانِ ، إِلَّا أَنَّهُ
يَطَأُ الْبَرَى مُتَرَقِّمًا مِنْ تَبِيهِ
وَيَرُدُّ عَفْرَتَهُ إِلَى يَأْفُوخِهِ
وَتَظْنُهُ مِمَّا يَزُجِرُ نَفْسَهُ
قَصْرَتْ مَخَافَتُهُ الْخَطِيءَ ، فَكَأَنَّمَا
أَلْقَى فَرِيَسْتَهُ وَبَرَبَرَ دُونَهَا
فَنَشَابَهُ الْخُلُقَانِ فِي إِقْدَامِهِ
وَيَدُقُّ بِالصَّدْرِ الْحِجَارَ كَأَنَّهُ
فَكَأَنَّهُ غَرَزَهُ عَيْنُ فَادِي
سَبَقَ النِّقَاءَ كَهُ بَوْتَبَهُ هَاجِمٌ
قَبِضَتْ مَنِيَّتَهُ يَدِيهِ وَعُنُقَهُ

لَمَنْ أَدَّخَرْتَ الصَّارِمَ الْمَصْقُولَا؟
نُضِدَتْ بِهَا هَامُ الرَّفَاقِ تُلَوَّلَا
وَرَدَ الْفِرَاتَ زَيْبُهُ وَالنِّيْلَا
فِي غَيْبِهِ مِنْ لِبْدَتَيْهِ غِيْلَا
تَحْتَ الدُّجَى نَارَ الْفَرِيقِ حُلُولَا
لَا يَعْرِفُ التَّحْرِيمَ وَالتَّحْلِيلَا
فَكَأَنَّهُ آسٍ يَجْسُ عَلِيْلَا
حَتَّى تَصِيرَ لِرَأْسِهِ إِكْلِيلَا
عَنْهَا بِشِدَّةٍ غَيْظُهُ مَشْغُولَا
رَكِبَ الْكَمِيَّ جَوَادَهُ مَشْكَوْلَا
وَقَرَبَتْ قَرْبَا خَالَهُ تَطْفِيلَا
وَتَخَالَفَا فِي بَدَلِكِ الْمَا كُولَا
يَبْغِي إِلَى مَا فِي الْحَضِيضِ سَبِيلَا
لَا يَبْصُرُ الْخُطْبَ الْجَلِيلَ جَلِيلَا
لَوْ لَمْ تُصَادِمَهُ بِلْجَارِكَ مِيلَا
فَكَأَنَّمَا صَادَفْتَهُ مَقُولَا

(١) يُدِلُّ : يَبْدِيهِ ، وَيُظْهِرُ تَكْبِيرَهُ ، وَالْمَعْنَى : يَرِيدُ أَنْ يَظْهَرَ لِنَفْسِهِ

- من القوة، والبطش، وشدة الجراءة - ماتتضائل أمامه قوتي، ويتلاشى عزمي،
وتفتت همتي ، فأضعف عن ملاقاته ، وأنهزم أمام صَوْلته ، ويجترىء بكل ذلك
على ، وما منشأ هذا سوى الإدلال بمِخْلَبِهِ والإعجاب بحَدِّ نَابِهِ والصِّلَفِ بِعَيْنِيهِ
اللتين تتوقدانِ كأنهما من تَلْطَى الجمر ، وتلتهبانِ كأنهما من قطع النيران ، =

وَفِي يُمْنَايَ مَاضِيِ الْخَدِّ أَبْقَى بِمَضْرِبِهِ قِرَاعُ الْمَوْتِ أَمْرًا^(١)

= وللشريف الرضى فى وصف الأسد :

نَهَيْتِكَ عَنْ شَمْبِ عَسِيرٍ وَوَجْهِ
وَبَيْتِ كَلِيبِ الْبُرَى لَا تَسْتَطِيعُهُ
فَلَا تَقْرَبَنَّ الْغَابَ يَجْمِعُهُ لَيْتُهُ
كَأَنَّ عَلَى الْأَطْوَادِ مِنْ جَزَعِ بَيْشَةٍ
نَفَعَ فِي ثِنْتَيْ عِبَاءٍ مُشْبَرْقِ
قُضَا قِضَّةً مَا بَاتَ إِلَّا عَلَى دَمٍ
أَخُو قَنْصٍ : كَفَاهُ كِفَّةً صَيْدِهِ
يُشَقِّقُ عَنْ حَبِّ الْقُلُوبِ بِمُخَصَّفِ
قَلِيلُ ادِّخَارِ الزَّادِ ، يَعْلَمُ أَنَّهُ

بِذِي الرَّمْثِ قَدْ أَعْيَا عَلَى النَّاسِ صَلَّهُ
صُدُورُ الطَّوَالِ الزَّاعِيَّاتِ نَحْلُهُ
وَدَعَّ جَانِبًا وَعَرًّا عَلَى مَنْ يَحْلُهُ
رَصِيدِ طَرِيقِ ضَلٍّ مَنْ بَسْتَدَلَّهُ
أَصَابِيغُ أَلْوَانِ الدَّمَاءِ تَبَلُّهُ
تَمَّصَمَصَ مِنْهُ عِرْسُهُ ثُمَّ شَبَلُهُ
إِذَا جَاعَ يَوْمًا ، وَالذَّرَاعَانَ حَبَلُهُ
أَزَلَّ كَمَا جَلَّى عَنِ الرُّمَحِ نَضْلُهُ
مَتَى مَا يُعَايِنُ مَطْعَمًا فَهَوَّ أَكْلُهُ

(١) بعد أن بين آلة الأسد التي يتيه بها عليه ويظهر له كبره من أجلها أراد أن يبين آلة نفسه وهي السيف ، فوصفه بأنه ماضى الحد ، وأنه قد تعود الضرب ، وألف النزال ، وعرك المقارعة ، وراض نفسه على الكسر والحطم ، كما يظهر من الندوب والثلوم التي أبقاها فيه نزال الأبطال ، وتركاها به قراع الفوارس فى الحروب ، والأثر - بالضم - أثر الجرح بعد البره ، استعاره هنا لما بقى فى السيف من الندوب ، وما تخلف فيه من القلول ، استعاره رقيقة ، ومثل هذا المعنى فى قول الشاعر :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سُوِّفَتْهُمْ بِهِنَ قُلُوبٍ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَائِبِ

ويروى بدل أبقى « أبغى ، وأنفى » ، وكلتا الروايتين لا معنى لها ، ولا يستقيم مفرزاها ، والصواب هو ما ذكرنا ، وبما قيل فى وصف السيف
= قول البحرى :

بَطَلٍ ، وَمَصْقُولٌ وَإِنْ لَمْ يُصْقَلِ
 مِنْ حَدِّهِ ، وَالذَّرْعُ لَيْسَ بِمَعْقِلِ
 لَمْ يَلْتَفِتْ ، وَإِذَا قَضَى لَمْ يَعْدِلِ
 مَا أَدْرَكَتْ وَلَوْ أَنَّهَا فِي يَدْبُلِ
 وَإِذَا أَصِيبَ فَمَالَهُ مِنْ مَقْتَلِ
 دَبَّتْ بِأَيْدِي فِي قَرَاهُ وَأَرْجُلِ
 فِي الرَّوْعِ بَعْضِي بِالسَّمَاكِ الْأَغْزَلِ
 مِنْ عَهْدِ عَادٍ غَضَّةٌ لَمْ تَدْبُلِ

ذَكَرَهُ حَدُّهُ أَنْيْتُ السَّهَرِ
 أَرْعَدَتْ صَفْحَتَاهُ مِنْ غَيْرِ هَزِّ
 عِ فَعَالَى بِهِ عَلَى كُلِّ بَزِّ
 فِي مَحَزِّ أَوْ جَارَانَا بِنَ مَحَزِّ

سَرِيعٌ فِي ضَرِيْبَتِهِ ذَرِيعُ
 إِلَى أَنْ يَسْبِطَرَ لَهُ صَرِيعُ
 كَرِيْعَانِ السَّرَابِ زَهَاهُ رِيعُ
 : لِأَمْرِ مَا تَقُولِيتِ الذَّرُوعُ ؟

فَمَا يُنْتَضَى إِلَّا لِسْفِكِ دِمَاءِ
 بِقِيَّةِ غَيْمِ رَقِّ دُونَ سَمَاءِ =

= مَاضٍ وَإِنْ لَمْ تَمُضِهِ يَدُ فَارِسِ
 يَغْشَى الْوَعْيَى ؛ فَالْتَّرْسُ لَيْسَ بِجُنَّةِ
 مُضْغِ إِلَى حُكْمِ الرَّدَى ؛ فَإِذَا مَضَى
 مُتَأَلِّقٌ يَغْرِمِي بِأَوَّلِ ضَرْبَةٍ
 وَإِذَا أَصَابَ فَكُلُّ شَيْءٍ مَقْتَلِ
 وَكَأَنَّمَا سُودَ الذَّمَالِ . وَحُمْرُهَا
 وَكَأَنَّ شَاهِرَهُ إِذَا اسْتَعْصَى بِهِ
 سَحَلَتْ حِمَالُهُ الْقَدِيمَةَ بَقْلَةَ

ولابن الرومي :

خَيْرُ مَا اسْتَعْصَمْتَ بِهِ الْكَفَّ عَضْبُ
 مَا تَأَمَّلْتَهُ بَعِيْدِيكَ إِلَّا
 مِنْهُ أَفْزَعَ الشُّجَاعَ إِلَى الدَّرِّ
 مَا يُبَالِي أَصَمَّتْ شَفْرَتَاهُ

وله أيضا :

حَسَامٌ لَا يَلِيْقُ عَلَيْهِ جَفْنُ
 تَرَى وَقَعَاتِهِ أَبَدًا خَطَايَا
 وَيُرْعَدُ مَتْنُهُ مِنْ غَيْرِ هَزِّ
 يَقُولُ الْقَائِلُونَ إِذَا رَأَوْهُ

وانظر إلى قول ابن المعتز :

وَلِي صَارِمٌ فِيهِ الْمَنَايَا كَوَامِنُ
 تَرَى فَوْقَ مَتْنِيهِ الْفِرْنِدَ كَأَنَّهُ

أَلَمْ يَبْلُغَكَ مَا قَعَلَتْ ظُبَاهُ بِكَاطِمَةٍ غَدَاةً لَقِيَتْ عَمْرًا^(١)

= وللمتنبي :

تَحْسِبُ الْمَاءَ خَطًّا فِي لَهَبِ النَّارِ رِ أَدَقَّ الْخُلُوطِ فِي الْأَحْرَازِ
كُلَّمَا رُمَتْ لَوْنُهُ مَنَعَ النَّارَ ظَرَ مَوْجٌ كَأَنَّهُ مِنْكَ هَازِ
وَدَقِيقٌ ، قَدَى الْهَبَاءِ أَنْيَقُ مُتَوَالٍ فِي مُسْتَوٍ هَزْ هَازِ
وَرَدَ الْمَاءُ ؛ فَالْجَوَانِبُ قَدْرًا مَرَبَّتْ ، وَالَّتِي تَلِيهَا جَوَازِ
حَمَاتُهُ حَمَائِلُ الدَّهْرِ حَتَّى هِيَ مُحْتَاجَةٌ إِلَى خِرَازِ
وَهُوَ لَا تَأْتِيحُ الدَّمَاءُ غِرَازِي - - - وَلَا عَرِضَ مُنْتَضِيهِ الْمَخَارِي
سَلَهُ الرِّكْضُ بَعْدَ وَهْنٍ يَنْجِدُ فَتَصَدَّى لِلْفَيْثِ أَهْلُ الْحِجَازِ

وللمعري :

كَانَ أَرَقِيًّا نَفَثَتْ سَمَامًا عَجَلِيهِ فَعَادَ مُبَيِّضًا نَحِيلًا
وَمَنْ تَعَلَّقَ بِهِ حُمَةُ الْأَفَاعِي يَعْشَن - إِنْ فَانَهُ أَجَلٌ - عَجِيلًا
تَرَدَّدَ مَأْوُهُ عَلْوًا وَسُفْلًا وَهَمَّ فَمَا تَمَكَّنَ أَنْ يَسِيلًا
يَكَادُ سَنَاهُ يَحْرِقُ مَنْ فَرَاهُ وَيُفْرِقُ مَنْ نَجَا مِنْهُ كُؤُولًا

وله أيضا :

يُذِيبُ الرُّعْبُ مِنْهُ كُلَّ عَضْبٍ فَلَوْلَا الْعِمْدُ يُمَسِّكُهُ لَسَالًا

(١) ألم يبلغك : هذا مقول القول السابق، يريد أنه قال للأسد وهو على تلك الهيئة التي وصفتها ومعه سيفه : كيف تدل على ، وتظاهر لي جراتك وإقدامك ؟ وكيف تتيه بأنيابك وتخلبك ولحظانك ؟ ألم يبلغك ما فعلت ظبي سيفي ؟ وهل غاب عنك خبر فتكهم ومضائه فكنت تخفض من تشاخصك ، وتقل من إدلالك ، وتنهت من حدتك ، والظبي : جمع ظبية وهي حد السيف ، وإنما جاء بصيغة الجمع - مع أن السيف له ظبية واحدة - تخيما لها ، وإفهاما. لاسماع أن =

وَقَلْبِي مِثْلُ قَلْبِكَ لَيْسَ يَخْشَى مُصَاوَلَةَ فَكَيْفَ يَخَافُ ذَعْرًا؟ (١)
وَأَنْتَ تَرُومُ لِلْأَشْبَالِ قُوْتًا وَأَطْلُبُ لِابْنَةِ الْأَعْمَامِ مَهْرًا (٢)

= حَدَسِيْفَه وَإِنْ كَانَ وَاحِدًا لَهُ أَفَاعِيلُ لَا تُصْدَرُ إِلَّا عَنِ الْكَثِيرِ وَلَا تَقَعُ مِنْ غَيْرِ جَمَاعَةٍ ، وَكَاطِمَةٌ : اسْمٌ لِمَوْضِعَيْنِ ، الْمَعْرُوفُ مِنْهُمَا هُوَ الَّذِي عَلَى سَاحِلِ بَحْرِ فَارَسٍ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَصْرَةِ مَرَّحَلَتَانِ لِقَاصِدِ الْبَحْرَيْنِ ، وَلَمَلْ هُنَاكَ مَوْضِعًا اسْمُهُ كَاطِمَةٌ بِالقَرَبِ مِنَ الْمَدِينَةِ يَقُولُ فِيهِ الْأَبُوصَيْرِيُّ :

أَمِنْ تَذَكَّرَ جِيرَانَ بِيَدِي سَلِمَ مَزَجَتْ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقَلَّةٍ بِدَمٍ
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تَلْقَاءِ كَاطِمَةٍ وَأَوْ مَضَّ الْبَرْقُ فِي الظُّلْمَاءِ مِنْ إِصْمِ ؟

و «غَدَاة لقيت عمرا» يروى بدلا منه «غداة قتلت عمرا» كما أنه يروى بدلا من قوله ما فعلت ظباه «ما فعلته كفى» وليس يخفى عليك أن الرواية التي بأيدينا أفضل .

(١) المعنى : لا تُظْهِرِ صِلْفَكَ ، وَلَا تَأْخُذْكَ الْكِبْرِيَاءُ ، وَأَقْبَلِ مِنْ غُلُوَاتِكَ ؛

فَإِنْ لِي سِلَاحًا مِثْلَ سِلَاحِكَ أَوْ أَمْضَى ، وَإِنْ لِي قَلْبًا مِثْلَ قَلْبِكَ : كَأَنَّمَا قَدْ مِنْ صَخْرٍ ، لَا يَخْشَى الْمَوَاتِبَةَ ، وَلَا يَخَافُ النِّزَالَ ، وَلَا يَرْهَبُ الْمُصَاوَلَةَ ، فَكَيْفَ تَأْمَلُ أَنْ يَنْفَلَ مِنْهُ الذُّعْرُ ؟ وَالذُّعْرُ - بفتح أوله - : الإخافة والترهيب ، تقول «ذَعْرَهُ يُذَعْرُهُ ذَعْرًا» أَيْ أَخَافُهُ وَأَفْزَعُهُ ، وَالذُّعْرُ - بضم الذال - هُوَ الْخَوْفُ وَالْفَزَعُ ، وَفَعَلَهُ ذَعِرَ - مَبْنِيًا لِلْجَمْعِ - هُوَ مَذْعُورٌ ، يَقُولُ : إِذَا كَانَ قَلْبِي لِإِيْهَابِ الْمِصَاوَلَةِ ، وَلَا يَزْعِجُهُ الْقِتَالُ ، وَلَا تَحْرِكُهُ الْمِنَاوَاتُ ، فَكَيْفَ تَظُنُّ أَنَّهُ يَخْشَى التَّخْوِيفَ وَالتَّهْوِيلَ وَإِنْ هَا إِلَّا تَهْدِيدُ أَجْرَفٍ وَوَعِيدٌ دُونَ إِتْقَاعٍ ؟

(٢) تَرُومُ : تَبَغِيثٌ وَتَطْلُبُ ، وَالْأَشْبَالُ : جَمْعُ شَيْبَلٍ - بِكسْرٍ أَوَّلِهِ - وَهُوَ وَلَدُ الْأَسَدِ ، وَيَجْمَعُ عَلَى أَشْبِيلٍ - بزنة أفلس - أَيْضًا ، وَاللَّغْنَى : إِذْكَ قَدْ خَرَجْتَ إِلَيَّ ، وَتَعَرَّضْتَ فِي طَرِيقِي مَسْتَهِينًا بِي وَمَسْتَعْدًّا بِشَأْنِي غَيْرَ مَكْتَرِثٍ بِمَاسَعَلِقَائِهِ مِنْي =

فَفِيمَ تَسُومُ مِثْلِي أَنْ يُوَلِّيَ وَيَجْعَلَ فِي يَدَيْكَ النَّفْسَ قَسْرًا (١)؟

= لأنك تأمل أن تفترسني فتأخذني طُعْمَةً لأولادك، وتقدّمني لهم قوتًا، وأنا سأمر إلى غَرَضٍ أسمى من غرضك، ومَقْصِدٍ خَلِيقٍ بأن يكلفني عناء وجهدا فوق ما يكلفك مَقْصِدُكَ وهو الإتيان بمهر ابنة عمي، فإذا كنت قد فعلت كل ذلك في سبيل مَأْرَبِكَ فما أحراني بأن أفوقك قوة وإقداما وبسالة ونجدة على مقدار ما أريد من المَطَالِبِ، فمن خَطَبِ الحُسْنَاءِ لم يغلبها مهر، ولا بدّ دون الشَّهِيدِ من لَمْبَرِ النحل، ومن لم يضربْ على الكيِّدِ ساعة تحمل ذل الدهر، وللشريف الرضي في وصف الأسد:

| | |
|--|--|
| أَقُولُ إِذَا سَأَلْتَ مَعَ اللَّيْلِ رُفْقَةً | تَقَاذِفُهَا حَتَّى الصَّبَاحِ الْمَخَارِمُ |
| دَعَى جَنَبَاتِ الْوَادِيَيْنِ؛ فَدُونَهَا | أَشْمُ طَوِيلُ السَّاعِدَيْنِ ضُبَارِمُ |
| إِذَا هَمَّ لَمْ تَقْعُدْ بِهِ عِزْمَاتُهُ | وَإِنْ نَارَ لَا تَعْمِيَا عَلَيْهِ الْمَطَاعِمُ |
| كَأَنَّ عَلَى شِدْقَيْهِ نَقْرًا وَرَاءَهُ | ذَوَابِلُ مِنْ أَنْيَابِهِ وَصَوَارِمُ |
| وَمَا جَذَبَ الْأَقْرَانُ مِنْهُ فَرِيَسَةً | وَلَا عَادَ يَوْمًا أَنْفُهُ وَهُوَ رَاغِمُ |
| لَهُ كُلُّ يَوْمٍ غَارَةٌ فِي عَدُوِّهِ | تُشَارِكُهُ فِيهَا النَّسُورُ الْقَشَاعِمُ |
| كَأَنَّ الْمَنَابِيَا - إِنْ تَوَسَّدَ بَاعَهُ - | تَيَقِّظُ فِي أَنْيَابِهِ وَهُوَ نَائِمُ |

(١) فِيمَ: استفهامٌ عن السبب مثل «لِمَ» وتسوم: إما أن يكون من قولهم: سَامَهُ بِعَيْرِهِ وَسَاوَمَهُ سِوَامًا - بالكسر - واشتاقَ عَلَيْهِ، وَتَسَاوَمَاهُ، أَيْ ذَكَرَ لَهُ قِيَمَتَهُ وَفَارَضَهُ فِي بَيْعِهِ، وإما أن يكون من قولهم: سَامَهُ الْخُسْفَ، أَيْ أَوْلَاهُ إِيَّاهُ وَأَرَادَهُ عَلَيْهِ، وعلى الأول يكون المعنى: إذا كان لي سلاح كسلاحك وقاب كقلبك وأنا مستعدُّ استعدادك للمنازلة والصراع، وعلى أهية كاملة للمناوأة والقرع، ولى مَطَالِبٍ يحتم على قَتْلِكَ وَالْفَتْكَ بِكَ، فلا مئى الأسباب تُرْعِغُنِي فِي الْفِرَارِ وَتَجْبِبُ إِلَى الْهَرَبِ بِمَا تُبْدِيهِ مِنْ حَرَكَاتِ الْاِغْتِيَالِ وَتُظْهِرُهُ مِنْ مَخَابِلِ =

نَصَحْتُكَ فَالْتَمِسْ بِالْيَيْتِ غَيْرِي طَعَامًا ؛ إِنَّ لِحْمِي كَانَ مُرًّا (١)
فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّ الْعِشَّ نُصِحِي وَخَالَفَنِي كَأَنِّي قُلْتُ هُجْرًا (٢)

= الصلاف ؟ وعلى الثاني كأنه يقول له : لا تَطْمَعْ في أن تسكرهني على النجاة بالفِرَار منك ، ولا تُصَدِّقْ أَنِّي سأوليك ظهري فتنتفض على فتفترسني ، ويروى « قهرا » بدلا عن « قسرا » ومعناها واحد .

(١) يروى بدلا عن « بِالْيَيْتِ » : يَاوَيْكَ ، وَيُؤْيِكَ : كلمة دعاء مثل وَيَبْحَكَ وَيُؤْيَبِكَ وَيُؤْيَبِكَ ، والمنادى حينئذٍ محذوف تقديره : يَا هَذَا وَيُؤْيَبِكَ ، كما حذف في قول أبي صخر الهذلي :

أَلَا يَا أَسْلَمِي يَا دَارِمِي عَلَى الْبَيْتِ وَلَا زَالَ مُنْهَلًا بِجَرَاعَتِكَ الْقَطْرُ

ويروى البيت هكذا :

نَصَحْتُكَ نُصِحَ ذِي شَفَقٍ فَحَازِرُ مَرَامِي ؛ لَا تَسْكُنْ بِالْمَوْتِ غِرًّا

والشَّفَقُ : الشفقة ، ومعنى « لَا تَسْكُنْ غِرًّا بِالْمَوْتِ » لَا تَسْكُنْ جاهلا بأسبابه غير عالم بعلاه التي من بينها لقاء بيثلي ، ومعنى البيت : إني أنصح لك بالأبَّ تتوهمني فر يستك التي تأكل منها اليوم وتفذي أشبالك ، فإنك لو طمعت في ذلك فستجوع وتجوع معك هذه الأولاد - وكفى بمرارة اللعيم عن هدم القدرة على الحصول عليه - فأولى لك أن تبحث عن غيري لتردَّ به عنك جاذبة الجوع .

(٢) الهُجْر - بالضم - التهذيان والخرافة كما يكون من الأبله والنائم في نومه والمريض في بُحْران الحمى وحده مرضه ومن لا يعقل ولا يضبط ما يقول ، ويروى بدلا عن الشطر الثاني : « وَخَالَ مَقَالَتِي زُورًا وَهُجْرًا » والمعنى : إنه لم يقتنع بما ألقى إليه من الكلام ، ولم يُصَدِّقْ ما أسندتُ له من النصيحة ، بل اعتمد على قوته وصلابة عُودِهِ ، وارتكن على ما فيه من بطش ، فتوهم أنني أهذي ، فلما ثبتت عنده هذه الظنَّة وقوى في نظره ذلك ، الوهم كان منه كيت وكيت .

مَشَى وَمَشَيْتُ مِنْ أَسَدَيْنِ رَامَا مَرَامًا كَانَ إِذْ طَلَبَاهُ وَعَرَا^(١)
 هَزَزْتُ لَهُ الْحَسَامَ فَخَلَّتْ أُنَى سَلَّتْ بِهِ لَدَى الظُّلَمَاءِ فَجَرَا^(٢)
 وَجُدْتُ لَهُ بِجَائِشَةٍ أَرْتُهُ بَانَ كَذَّبَتْهُ مَا مَنَنْتُهُ غَدْرًا^(٣)

(١) لما نَصَحَهُ ولم يَسْتَكُنْ لنصيحتته ، واستهداه فلم يقبل ، تقدّم الأسدُ إليه اغترارا منه بقوته ، وسار نحوه احتمالا بصلايقه ، وتقدّم بشرُّ إليه اعتماداً على شجاعته ، وركونا إلى ما فيه من حَمِيَّةٍ وإباء ، فيالهما من أَسَدَيْنِ طلبا مطلباً كان وَعَرَا صَغَبَ المنال بعيدَ التحقق عسير الوُقُوعِ ؛ إذ أن كلَّ واحد منهما كان يطلب من صاحبه مالا سبيل له إلى تحقيقه ولا قدرة عنده على تحصيله ، وقوله « من أَسَدَيْنِ » واقع موقع البيان للضميرين في مَشَى وَمَشَيْتُ ، تغنياً لشأن كل منهما وتعظيماً لما عاد إليه كل واحد منهما .

(٢) هَزَّ الْحَسَامَ : حَرَّكَه في يده كأنه يُجَرِّبُهُ ليتبيهاً للضرب ، وقد تخيل بَرِيْقَهُ ولمآنه كأنه فجرٌ سُلٌّ في الظلماء ، ويروى بدلا عن « سالت » : شققت ، ويمبر عن طلوع الفجر بقلقه وفي التنزيل : (فَالِقِ الإِصْبَاحِ) والمعنى : إني حينما تأكدت من عدم أروعائه ، ونفوره من قبول نصيحتي ، تقدّمتُ إليه باسطاً يدي بالحسام الذي يشبه الفجر في إشراقه ، ويمثله في صَوْنِهِ ، ولا يفترق عنه في لمآنه ، ومثل هذا التشبيه قول بشار بن برد :

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُءُوسِنَا وَأَشْيَانَنَا تَلِيلُ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

(٣) الجائشة : النفس ، قال الشاعر ، وهو عمرو بن الإطنابة :

أَبْتُ لِي هِمَّتِي وَأَبَى بِلَائِي وَأَخَذِي الْحَمْدَ بِالثَّمَنِ الرِّبِيحِ
 وَقَوْلِي كَأَمَّا جَشَّاتُ وَجَاشَتْ مَكَانَكَ تُحَمِّدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي

وبشر يتهكم على الأسد ، ويُعلن الزُّرَايةَ به ، والتهوين من شأنه ، وتضعيف أمره ، ويقول : إني تَكْرَمْتُ عليه بنفسي أعلمته وأظهرت له أنها قد غَدَرَتْ =

وَأَطْلَقْتُ الْمُهَنْدَ مِنْ يَمِينِي فَقَدَّ لَهُ مِنَ الْأَضْلَاحِ عَشْرًا (١)

= به فيما منته وأطمعته، أثباتها بين يديه، إذ كذبت تلك الأمانة، وضيعت عليه ذلك الرجاء، وأفلتت من يده أمله الضائع ففتسكت به وقهرته وصرعته، وقد يراد من الجائشة هنا المعنى الوصفي: أي بضربة هائلة مضطربة، وقد كانت تلك الضربة بمنته خبيثتها وأوهمته عدم إصابتها بهيجان ضاربها، فظن عجزا وأخطأ التقدير؛ إذ كان ذلك كله مُحَاتَلَه وتَغْرِيْرًا، ويروى بدلًا عن «أرته»: رآها، كما يروى بعد هذا البيت:

وَجُدْتُ بِضَرْبَةٍ جَاءَتْهُ شَفْعًا بِسَاعِدِ مَاجِدٍ تَرَكَتُهُ وَتَرَا
فإذا أردنا من الجائشة المعنى الثاني كان ذلك البيت تفسيرًا لسابقه، وإن أردنا المعنى الأول كان لهذا البيت معنى مستقل، وكأنه تفصيل لما أجمل في قوله «أرته بأن كذبت مامنته غدرا» وشفعا: حال من ضمير الأسد في جأته، وإنما كان الأسد شفعا لأنه حين هوت إليه الضربة كان مع أسدٍ آخر وهو بشر، وإطلاق الشفع على كل من الاثنين جائز؛ لأن الشفع يتم بكل منهما، والضمير في تركته يعود على الماجد، والمعنى: إن الضربة لما قتلت الأسد تركت الماجد وهو بشر أسدا فردا وهو الوتر، ويروى هذا البيت:

بِضَرْبَةٍ تَنِيصَلُ تَرَكَتُهُ شَفْعًا لَدَيْ وَقَلْبَهَا قَدْ كَانَ وَتَرَا
أي أنها شطرتة نصفين، فصار اثنين بعد أن كان واحدا، وأضحى شفعا بعد أن كان وترا، وهو ظاهر:

(١) المهند: السيف الصارم، والحسام النافذ في ضربته، وكانت مواضي السيوف ترد إلى العرب من الهند، كما كانوا يجلبون رماحهم من الخبط، ولذلك نسبوا ما كان من السيوف بتأرا قاطعا إلى الهند، فقالوا: الهندي، واشتقوا له من هذا اللفظ اسما؛ فقالوا: المهند. وربما كان هذا اللفظ (المهند) نسبة أيضا =

فَفَخَّرَ مُجْدَلًا بِدَمٍ كَأَنِّي هَدَمْتُ بِهِ بِنَاءً مُسَخَّرًا^(١)
وَقُلْتُ لَهُ : يِعِزُّ عَلَيَّ أَنِّي قَتَلْتُ مُنَاسِي جَدًّا وَفَخَّرًا^(٢) ؟

= إذ أن صيغة فَعَّلَ (بالتضعيف) تدلُّ على النسبة، مثل ما قالوه في قول العجاج :

أَزْمَانٌ أَبَدَتْ وَاضِحًا مُفَلِّجًا أَغْرَ بَرًّا أَقَا وَطَرَفًا أَدْعَجَا
وَفَاحِمًا وَمَرَسِنًا مُسَرَّجَا

فإنهم يقولون : إن مُسَرَّجَا (بصيغة اسم المفعول من المضمت كهتد) نسبة إلى سُرَيْجٍ ، وهو حداد كان يُجيدُ صنع السيوف ؛ وقد : قطع ، والمعنى إنني بعثت إليه سيفي فأنفذته في أضلعه فقطع منها عشرة .

(١) خَرَّ : سقط ، ومجدلا : مصروعا على الجدالة ، وهي الأرض ، وأصل ما أخذ الكلمة منها ، ويروى « مُضَرَّجًا بِدَمٍ » وهي أوضح معنى وأظهر ، وذلك لأن الرواية الأولى تخوِّجنا إلى توضيح في الكلام وتقدير في نظمه ، فيقال : خر صريعا مصحوبا بدم ، أو ملطخا به ، ونحو ذلك ، والبناء المُسَخَّرُ : الشامخ ، العالى الذرى ، المرتفع ، والمعنى : إنني أنفذت فيه سيفي ، وقطعت أضلعه ؛ فلم تبق فيه قوة يستطيع أن يتماسك بها ، أو يتمالك نفسه من الصرعة والانطراح على الأرض ، فخارت قواه ، وضعفت همته ، وفترت شدته ، فهوى إلى الأرض ملطخا بما سال من دمه ، مضرجا بالذى أخرجه منه حدُّ سيفي ، وكأنه حين وقوعه وتهاوى جنبته بيتُ عالٍ قد تهتَّم فأنت تسمع له دويًا وصوتا ، يريد بذلك أن يقول : إن الأسد كان ضخم الجثة عبل الشوى صلب الأضلاع ، وإنما وصفه بالقوة وتوابعها ليكون فخاره بقتله ذامرية وفضل جديرين بالذكر والإشادة بهما ، وأمل في هذا نوعا من استتباع ذكر صفة لصفة أخرى ، فإن وصف الأسد بما ذكر يستتبع وصفه بالتهاوى في الشجاعة وبلوغ الغاية في الإقدام .

(٢) بعد أن قتله وأوقعه صريعا وتركه مضرجا بدمائه أخذت تذمر له ، =

وَلَكِنْ رُمْتَ شَيْئًا لَمْ يَرْمُهُ سِوَاكَ ، فَلَمْ أُطِقْ بِأَلَيْتُ صَبْرًا^(١)
نَحَاوِلُ أَنْ تُعَلِّمَنِي فِرَارًا ! لَعَمْرُأُ بِيكَ قَدْ حَاوَلْتُ نُسْكَرًا^(٢) !

= ويذكر الأسباب التي تحمّته على التنكيل به ، ويتنصّل من تبيّة مارقع منه ، ويعاتبه على المبادرة له بالعدوان ، وكأنه يريد أن يفهمه أنه لم يفعل به ذلك إلا اضطراراً ، ونزولاً على حكم الدفاع عن النفس ، وسيراً مع الأنفة من الذل وإياء الضيم ، ولولا أن في مُصانفته له وعفوه عنه وتركه ضيماً عليه ومذلة له وإهانة لقدره لسكان العفو أيسر ما يفعل معه ، و « يعز على » : يصعب ، ويشتد على نفسى . ومُناسي : مُشابهى ومشاكل فى الجلد والثبات وشدة الصريمة وصعوبة المراس . وفخراً : أراد ما يفخر به من أسباب الفخار ودواعيه كالشجاعة والقوة ونحوهما ، ويروى « قسراً » بدلا عن « فخرا » والقسر هو القهر ، ويروى أيضاً : « قهراً » والمعنى : إنه لعزير على نفسى وشديد أن أحتمل ما لعله يقال من أننى قتلت أشبه العالمين بى وأنسبهم لى فى صفى الجلد وقهر النفوس واغتيالها .

(١) المعنى : إنك طلبت شيئاً لم يستطع أحدٌ فى الدنيا أن يطلبه منى ، وقصدت أمراً ما كان يدورُ بخلدى أن يحسر على قَصده غيرك ، وابتغيت أن تفترسنى ، وهذا شىء لم يطلبه سواك منى ، ولهذا وحده كنتُ مسوقاً بحكم الضرورة إلى قَتلك ، إذ أنى لم أستطع الصبر على هذا الطلب الجائر ، وكيف أصبر على ما لم أعوده .

وَسَيِّفِي كَانَ فِي الْهَيْجَا طَيِّبًا يُدَاوِي رَأْسَ مَنْ يَشْكُو الصَّدَاعَا
وَلَوْ أُرْسَاتُ رُنْحِي مَعَ جَبَانٍ لَكَانَ يَهَيَّبُنِي يَهْمَى السَّبَاعَا

(٢) النُّسْكُ - بضم أوله - المنسكر والذي لم تألفه النفس ، وإذا عُرِضَ عليها لم تُفِرّه ولم تدرفه ، وفى التنزيل : (لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا نُكْرًا) ، والمعنى : إنك كنت تطلب وتجتهد فى طلبك هذا بكل وهائل التهديد أن تُعلِّمَنِي =

فَلَا تَجْزَعُ ؛ فَقَدْ لَاقَيْتَ حُرًّا يُحَازِرُ أَنْ يُعَابَ ؛ فَمِتَّ حُرًّا (١)
فَإِنْ نَكَ قَدْ قُنَيْتَ فَلَيْسَ عَارًا . فَقَدْ لَاقَيْتَ ذَا طَرَفَيْنِ حُرًّا (٢)

= التولَّى ، وتعوّذنى على الفرار ، وتعلمنى آلفُ الهزيمة ، وأنت فى كل هذا الطلب وفى كل هذه المحارلة يستحيل أن تُفْلح ، ولا يمكن أن تنال رَغبتك ؛ إذ أن هذا الطلب غيرُ مؤلفٍ لى ، وليست لى به سابقة .

(١) الْجَزَعُ : الخلاج القلب وتألُّم النفس من حادث فظيع ، أو أمر شنيع ينزل بالمرء فيُفْقِدُهُ صوابه ويضيع عليه تجلده وصره ، ويحاذر : يَخْشَى ، ويعمل جَهْدَ طاقته وبمقدار وَسْعِهِ لئلا يقع ، والمعنى : لا يؤمك ، ولا تذهب نفسك حَسَمَاتٍ ، ولا نخزن على ما نالك منى ، وأصابك من حَدِّ حَسَامَى ؛ فَإِنْ كُنْتَ قَدْ هَوَيْتَ فَإِنَّ الَّذِي فَعَلَ بِكَ ذَلِكَ ، وَالَّذِي اصْطَدَمْتَ بِهِ هُوَ رَجُلٌ حُرٌّ كَرِيمٌ خِيَارِ أَبِي الضَّمِيمِ وَلَا يَقْبَلُ الضَّعَةَ وَيَرْهَبُ الْاِسْتِكَاةَ ، فَتَّ بِيَدِهِ حِرًّا كَمَا يَمُوتُ الشَّرِيفُ الْأَبَى النَّفْسِ وَالْمَقْدَامِ الْجَرِيءِ ، وَيُرْوَى بَدَلًا عَنْ « فَلَا تَجْزَعُ » وَ « فَلَا تَغْضَبُ » وَ « فَلَا تَبْعُدُ » .

(٢) كَأَنَّهُ يُسَلِّيهُ عَمَّا أَصَابَهُ ، وَيَهْوُونَ عَلَيْهِ مَا أَقْبَاهُ مِنْهُ ، فَيَقُولُ لَهُ : إِنْ كُنْتُ قَدْ قُنَيْتَ أَوْ يَكُنُ الْمَقْدُورُ قَدْ ابْتَلَكَ بِي ، فَمَا ذَلِكَ بَعَارٍ عَلَيْكَ ، وَلَا هُوَ أَمْرٌ تَدْحَقُكَ مِنْ أَجْلِ الضَّعَةِ ، إِذْ لَيْسَ مِنَ الشَّيْنِ بِكَ وَالْحِطَّةُ مِنْ قَدْرِكَ أَنْ تَقْتُلَ يَدِي ، أَوْ تَحْرَجَّ مِنْ ضَرْبَةٍ كُنْتُ أَنَا الَّذِي تَقَدَّمُ بِهَا إِلَيْكَ ، فَإِنِّي - وَأَنَا قَاتِلُكَ - رَجُلٌ ذُو طَرَفَيْنِ - أَيْ أَبُوَيْن - مَعْرُوفَيْنِ أَصِيلَيْنِ ؛ فَأَنَا عَرِيقٌ فِي النَّسَبِ ، شَرِيفٌ الْحَسَبِ ، كَرِيمٌ النَّجْرِ ، طَيِّبٌ الْأَصْلِ ، حُرٌّ ، وَإِنَّمَا الْعَارُ وَالشَّيْنُ أَنْ يُؤْخَذَ الْمَرْءُ بِيَدِ رَجُلٍ ذِيءٍ ، وَمَا دَمْنَا مَتَكَفَيْنِ شَجَاعَةً وَإِقْدَامًا ، مِمَّا تَلِينُ شِدَّةَ وَجْرَامَةٍ ، فَأَيُّ ضَمِيمٍ يَلْحَقُكَ ؟ وَأَيُّ أَدَى يَنَالُكَ ؟ وَالْحَرْهَنَا : الصَّرِيحُ النَّسَبِ الَّذِي لَمْ يَدْخُلْ فِي نَسَبِهِ رِقٌّ وَلَا شَبَهَةٌ .

فَلَمَّا بَلَغَتِ الْأَنْبِيَاءُ عَمَّهُ نَدِمَ كُلِّي مَا مَنَعَهُ تَزْوِيجَهَا^(١) ، وَخَشِيَ أَنْ
تَغْتَابَهُ الْحَيَّةُ ، فَقَامَ فِي أَثَرِهِ ، وَبَلَغَهُ وَقَدْ مَلَكَتَهُ سُورَةُ الْحَيَّةِ^(٢) ، فَلَمَّا رَأَى
عَمَّهُ أَخَذَتْهُ حَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَجَعَلَ يَدُهُ فِي فَمِ الْحَيَّةِ وَحَكَّمَ سَيْفَهُ فِيهَا^(٣) ،
فَقَالَ :

بَشْرٌ إِلَى الْمَجْدِ بَعِيدٌ هُمُّهُ لَمَّا رَأَاهُ بِالْعَرَاءِ عَمُّهُ^(٤)
قَدْ تَشَكَّلَتْهُ نَفْسُهُ وَأُمُّهُ جَاشَتْ بِهِ جَانِشَةٌ تَهْمُهُ^(٥)
قَامَ إِلَى ابْنِ الْفَلَاةِ يَوْمُهُ فَنَابَ فِيهِ يَدُهُ وَكَمَّهُ^(٦)

- (١) « ما » مصدرية أى على منعه تزويجها . وفي نسخة : « من تزويجها » .
(٢) سُورَةُ الْحَيَّةِ : سَطَوْتَهَا .
(٣) يظهر من الأبيات الآتية أنه لفَّ يَدَهُ فِي كَمِّهِ وَأَدْخَلَهَا فِي فَمِ الْحَيَّةِ ،
وَيُرْوَى بَعْدَ فَمِ الْحَيَّةِ « وَقَبِضَ عَلَى لِسَانِهَا ، وَحَكَّمَ سَيْفَهُ فِيهَا ، فَقَتَلَهَا » .
(٤) الهمُّ هنا : الهمَّةُ ، وَيُقَالُ : « فُلَانٌ بَعِيدُ الْهَمَّةِ » إِذَا كَانَ طَلَابًا لِمَعَالِي
الْأُمُورِ ، وَالْعَرَاءُ - بِالْفَتْحِ - الْفَضَاءُ لَا يُسْتَتَرُ فِيهِ بِشَيْءٍ .

(٥) هذا البيت يشتمل على حالين من ضمير « رآه » ؛ فالحال الأولى « قَدْ
تَشَكَّلَتْهُ نَفْسُهُ وَأُمُّهُ » أى رآه وَقَدْ أَشْرَفَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَكَانَ قَدْ تَشَكَّلَتْهُ نَفْسُهُ
أى فَقَدَتْهُ هِيَ وَأُمُّهُ ، وَالْحَالُ الثَّانِيَّةُ « جَاشَتْ بِهِ - إلخ » وَجَاشَتْ : أى هَاجَتْ ،
وَالْجَانِشَةُ : وَضْفٌ لِحَذُوفٍ ، أى الْحَيَّةُ الْمَهَابَةُ ، وَقَوْلُهُ « تَهْمُهُ » أى تَوَدَّعَ الْمَمَّ
وَالنَّمَّ قَلْبَهُ بِمَا تَوَقَّعُ بِهِ مِنَ الشَّرِّ .

(٦) قَوْلُهُ « قَامَ إِلَى ابْنِ الْفَلَاةِ » هُوَ جَوَابٌ « لَمَّا رَأَاهُ عَمَّهُ » وَابْنُ الْفَلَاةِ : هُوَ الْحَيَّةُ ،
وَالْفَلَاةُ : جَمْعُ فَلَاةٍ ، وَهِيَ الصَّحْرَاءُ الْوَاسِعَةُ أَوْ الْمَقَاذِرُ لِأَمَامِ فِيهَا ، وَالْحَيَاتُ الْعَظِيمَةُ
قَلْبًا تَوْجِدُ إِلَّا فِي الْفَلَوَاتِ ، لِهَذَا سَمَّوْهَا أَبْنَاءَ الْفَلَاةِ ، وَبَيِّنُهُ : يَقْصِدُهُ ، وَقَوْلُهُ
« فَنَابَ فِيهِ » أى فِي فَمِهِ .

وَنَفْسُهُ نَفْسِي وَسَمِي سَمُهُ (١)

فَلَمَّا قَتَلَ الْحَيَّةَ قَالَ عَمُّهُ : إِنِّي عَرَّضْتُكَ طَمَعًا فِي أَمْرٍ قَدْ ثَنَى اللَّهُ عَنَّا بِي
عَنْهُ (٢) ، فَازْجِيعْ لِأَزْوَاجِكَ ابْنَتِي ، فَلَمَّا رَجَعَ جَعَلَ بِشَرِّهِ يَمْلَأُ قَمَهُ فَخَرًّا ،
حَتَّى طَاعَ أَمْرُدُ كَشِيقَ الْقَمَرِ (٣) عَلَى قَرَسِهِ مُدَجِّجًا فِي سِلَاحِهِ ، فَقَالَ
بِشَرِّهِ : يَا عَمُّ إِنِّي أَسْمَعُ حِسَّ صَيْدٍ ، وَخَرَجَ فَإِذَا بِغَلَامٍ عَلَى قَيْدٍ (٤) ، فَقَالَ :
نَسَكَلْتِكَ أُمُّكَ يَا بَشْرُ ! أَنْ قَتَلْتَ دُودَةً وَبَهِيمَةً تَمْلَأُ مَاضِغِيكَ فَخَرًّا (٥) ؟

(١) ضمير المتكلم لبشر؛ لأنه المتكلم بالأبيات ، أى أنه حية مثله ، فنفسه
شبيهة بنفس الحية ، وَسَمُهُ شَبِيه بِسَمِّهِ ، وَسَمُّهُ هُنَا سَيْفُهُ الَّذِي قَتَلَ الْحَيَّةَ بِهِ ،
فَكَمَا أَنَّهُ كَانَ مَعَ الْأَسَدِ أَسَدًا آخَرَ كَذَلِكَ هُوَ مَعَ الْحَيَّةِ حَيَّةٌ .

(٢) أى أنى كنتُ عَرَّضْتُكَ لِنَظَرِ الْمَلَائِكَةِ حَتَّى لَا أَزْوَاجِكَ بِنْتِي ، وَقَدْ
عَظَمَنِي اللَّهُ عَنَّا بِذَلِكَ كَمَا يُثَنِّي عِنَّا الْجَوَادُ إِلَى وَجْهِ غَيْرِ الَّذِي كَانَ يَسِيرُ إِلَيْهِ .
(٣) أى كأنه فى بهائه وجماله فُلُقَّةٌ مِنَ الْقَمَرِ ، وَقَوْلُهُ « مُدَجِّجًا فِي سِلَاحِهِ »
أى أَنَّهُ لَا يَبْسُ سِلَاحَهُ وَكَأَنَّهُ مُسْتَمِرٌّ بِهِ لَا تَرَى الْعَيْنُ مِنْهُ إِلَّا السِّلَاحَ ، وَذَلِكَ مِنْ
كَلِّ الْفَرُوسِيَّةِ .

(٤) أى أَنَّهُ خَرَجَ لَطَلْبِ الصَّيْدِ الَّذِي سَمِعَ حِسَّهُ ، فَإِذَا ذَلِكَ الْغَلَامُ عَلَى
قَيْدٍ رُمَحٍ مِنْهُ ، أَيْ مَقْدَارِ طُولِ الرَّمْحِ ، يَعْنُونَ بِذَلِكَ الْقُرْبَ ، وَحَذَفَ الرَّمْحَ
لِأَنَّ السَّكْمَةَ مَشْهُورَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، وَيُرْوَى بَدَلُ « فُخْرَجَ فَإِذَا بِغَلَامٍ - الْخ » فَقَالَ
الْغَلَامُ : مَدَدْتَ رِجْلَكَ إِلَى قَيْدِي ، وَهُوَ جَوَابُ مَنْ الْغَلَامُ لِقَوْلِ بَشْرٍ : إِنِّي أَسْمَعُ
حِسَّ صَيْدٍ ، وَهُوَ إِمَّا دَعَاءٌ عَلَيْهِ بِالْأَسْرِ وَالْوُقُوعِ فِي قَبْضَةِ قَوْمٍ يُقَيِّدُونَهُ ، أَوْ
خَبْرٌ : أَيْ إِنْ مَاظَنْتَهُ صَيْدًا لَيْسَ بِصَيْدٍ ، بَلْ هُوَ صَائِدٌ ، فَأَنْتَ بِقَوْلِكَ هَذَا قَدْ
مَدَدْتَ رِجْلَكَ إِلَى الْقَيْدِ ، وَقَوْلُهُ : « نَسَكَلْتِكَ أُمُّكَ » يَرْوَى : نَسَكَلْتِكَ نَفْسَكَ
(٥) الْمَاضِغَانِ : أَصُولُ اللَّحْيَيْنِ عِنْدَ مَنَابِتِ الْأَسْنَانِ ؛ لِأَنَّهُمَا يَتَمَحَرَّكَانِ
عِنْدَ الْمَضْغِ ، بَلْ هُمَا آلَتُهُ ، وَيَمْلَأُ الْمَاضِغِينَ أَيْ مَا بَيْنَهُمَا وَهُوَ الْقَمُّ ، وَقَوْلُهُ : =

أنتَ في أمانٍ إن سَأَمْتَ عَمَّكَ ، فَقَالَ بَشْرٌ : مَنْ أَنْتَ لَا أُمَّ لَكَ ؟ قَالَ :
 الْيَوْمُ الْأَسْوَدُ وَالْمَوْتُ الْأَحْمَرُ ، فَقَالَ بَشْرٌ : تَسَكَّلْتِكَ مِنْ سَلَحَتِكَ (١) ،
 فَقَالَ : يَا بَشْرُ وَمَنْ سَلَحَتِكَ ، وَكَرَّرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ ، فَلَمْ يَتِمَكَّنْ
 بَشْرُ مِنْهُ ، وَأَمْسَكَنَ الْغُلَامَ عَشْرُونَ طَعْنَةً فِي كُلِّ يَدَيْهِ بَشْرٌ ، كَمَا مَسَّهُ شَبَابُ
 السَّنَانِ حَمَاهُ عَنْ بَدَنِهِ إِقْبَاءً عَلَيْهِ (٢) ، ثُمَّ قَالَ : يَا بَشْرُ كَيْفَ تَرَى ؟ أَلَيْسَ
 لَوْ أَرَدْتُ لِأَطْعَمْتُكَ أَنْيَابَ الرُّمَحِ (٣) ؟ ثُمَّ أَلْقَى رُمْحَهُ وَأَسْتَلَّ سَيْفَهُ فَضَرَبَ
 بِشْرًا عَشْرِينَ ضَرْبَةً بَعْرَضِ السَّيْفِ ، وَلَمْ يَتِمَكَّنْ بَشْرُ مِنْ وَاحِدَةٍ ، ثُمَّ قَالَ :
 يَا بَشْرُ سَلِّمْ عَمَّكَ وَادْهَبْ فِي أَمَانٍ ، قَالَ : نَعَمْ ، وَلَكِنْ بِشْرٍ يَطِقُ أَنْ تَقُولَ
 ٢٠ مَنْ أَنْتَ ، فَقَالَ : أَنَا أُبْنُكَ ، فَقَالَ : يَا سُبْحَانَ اللَّهِ مَا قَارَنْتُ عَقِيلَةً

= « أَنْ قَتَلْتَ » - بفتح همزة أن - متعلق بتعلاً : أى إنك تملأ فمك فخراً ،
 لأن قتل دودةً وهى الحية ، وهيممةً وهى الأسد ، وقوله : « أنت في أمان »
 إلخ « مطالبة له بما لا يمكن أن تسمح به حقيقته ، كيف يسلم عمه بدون قتال ؟ !
 (١) سَلَحَتِكَ : رَمَتْ بِكَ مِنْ بطنها وقذفتك ، وهى أمك ، فأجابه
 الغلام بشتم مثل شتمه ، فقال : وَمَنْ سَلَحَتِكَ يَا بَشْرُ ، أى وثـكلتكَ من
 سلحتك أيضاً .

(٢) أى أن الغلام قد تمكّن من قتل بشر بعشرين طعنة كلها تصيب
 كليلته ، لكنه كان يمسُّ بَدَنَهُ بِشَبَابِ السَّنَانِ أى طرفه ، ثم يحميه : أى يبعده
 عنه ، ويقيه منه ، إقباء عليه ، أى رحمة له واستبقاء لحياته .

(٣) أَلَيْسَ : الحال والأمر أى لو أردت أن أجعلك طعاماً لأنياب الرمح
 لأطعمتك إياها ؟ وليس للرمح إلا ناب واحد - وهو السنان - لكنه جمعها
 باعتبار تمثّل الطعّانات ، كأن للرمح فى كل طعنة ناباً ، أو أنه شبه الرمح بمفترسٍ
 له أنياب ، وطوّاه وأشار إليه بالأنياب ، فهى تجميل محض .
 = (٣١ - شرح مقالمات البديع)

قَطُّ^(١) فَأَنَّى لِي هَذِهِ الْمِنْجَعَةُ ؟؟ فَقَالَ: أَنَا أُنُّ الْمَرْأَةَ الَّتِي دَلْتِكَ عَلَى ابْنَتِكَ عَمَّكَ ،
فَقَالَ بِشْرٌ :

تِلْكَ الْعَصَا مِنْ هَذِهِ الْعُصَيَّةِ هَلْ تَلِدُ الْحَيَّةُ إِلَّا الْحَيَّةَ^(٢) ؟

(١) ما قارنت عقيلة : ما تزوجت امرأة كريمة حتى تانى بفلام كريم

مثل هذا .

(٢) تلك العصا من هذه العصية : مثل من أمثال العرب ، أضله « إن »

العَصَا مِنَ الْعُصَيَّةِ « قال الأصمى : وأنا أحسبه « الْعُصَيَّةُ مِنَ الْعَصَا » إلا أن
يُرَادُ أَنْ الشَّيْءَ الْجَلِيلَ يَكُونُ فِي بَدَأِ أَمْرِهِ صَغِيرًا ، كَمَا قَالُوا : « إِنَّ الْقَرَمَ مِنَ
الْأَفِيلِ » ، فَيَجُوزُ حِينَئِذٍ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى أَنْ يُقَالَ : « الْعَصَا مِنَ الْعُصَيَّةِ » .

قال المفضل : أول من قال ذلك الأفعى الجرهمي ، وذلك أن نزاراً حين

حَضَرَته الوفاة جَمَعَ بنيه : مُضَرَ ، وإياداً ، وربيعةً ، وأنماراً ؛ فقال : يَا بَنِيَّ

هَذِهِ الْقَبَّةُ الْحُمْرَاءُ - وَكَانَتْ مِنْ أَدَمٍ - لِمُضَرَ ، وَهَذَا الْفَرَسُ الْأُدْهُمُ ، وَالْخِلْبَاءُ

الْأَسْوَدُ لِرَبِيعَةَ ، وَهَذِهِ الْخَادِمُ - وَكَانَتْ سَمَطَاءً - لإيادٍ ، وَهَذِهِ الْبَدْرَةُ

وَالْمَجْلِسُ لِأَنْمَارٍ ، يَجْلِسُ فِيهِ ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكُمْ كَيْفَ تَقْتَسِمُونَ فَاتُوا الْأَفْعَى

الْجَرْمِيَّ ، وَمَنْزِلُهُ بَنْجَرَانٍ ، فَتَشَاجَرُوا فِي مِيرَاثِهِ ، فَتَوَجَّهُوا إِلَى الْأَفْعَى الْجَرْمِيَّ ،

فَبَيْنَمَا هُمْ فِي مَسِيرِهِمْ إِلَيْهِ إِذْ رَأَى مُضَرَ أَنْزَرَ كَلًّا قَدِ رُعِيَ ؛ فَقَالَ : إِنَّ الْبَعِيرَ الَّذِي

رَهَى هَذَا لِأَعْوَرُ ، قَالَ رَبِيعَةُ : إِنَّهُ لِأَزْوَرُ ، قَالَ إِيَادُ : إِنَّهُ لِأَبْتَرُ ، قَالَ أَنْمَارُ :

إِنَّهُ لِشَرُودُ ، فَسَارُوا قَلِيلًا فَإِذَا هُمْ بِرَجُلٍ يَنْشُدُ جَمَلَهُ ، فَسَأَلَهُمْ عَنِ الْبَعِيرِ ؛ فَقَالَ

مُضَرَ : أَهْوُ أَعْوَرُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ رَبِيعَةُ : أَهْوُ أَزْوَرُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ

إِيَادُ : أَهْوُ أَبْتَرُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ أَنْمَارُ : أَهْوُ شَرُودُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَهَذِهِ

- وَاللَّهُ - صِفَةٌ بِعَيْرِي ؛ فَدَلُّونِي عَلَيْهِ ، قَالُوا : وَاللَّهُ مَا رَأَيْنَاهُ ، قَالَ : هَذَا - وَاللَّهُ -

الْكَذِيبُ ، وَتَمَلَّقَ بِهِمْ ، وَقَالَ : كَيْفَ أَصَدَّقْتُمْ وَأَنْتُمْ تَصِفُونَ بِعَيْرِي بِصِفَتِهِ ؟ =

== فساروا حتى قدموا نجران ، فلما نزلوا نادى صاحب البعير : هؤلاء أخذوا جلي
ووصفوا لي صفته ، ثم قالوا : لم نره ، فاخصموا إلى الأفي - وهو حكم
العرب - فقال الأفي : كيف وصفتموه ولم تروه ؟ قال مضر : رأيت رعى
جانبا وترك جانبا ، فعلت أنه أعور ، وقال ربيعة : رأيت إحدى يديه ثابتة
الأثر والأخرى فاسدته فعلت أنه أزور ؛ لأنه أفسده لشدة وطئه لأزوراره ،
وقال إياد : عرفت أنه أبترباجتماع بعره ، ولو كان ذبباً لاصع به ، وقال أنمار :
عرفت أنه شرود ؛ لأنه كان يرعى في المكان الملتف نبتة ثم يحوزه إلى مكان
أرق منه وأخبث نبتة فعلت أنه شرود ؛ فقال للرجل : ليسوا بأصحاب بعيرك
فاطلبه ، ثم سألهم : من أتم ؟ فأخبروه ، فرحب بهم ، ثم أخبروه بما جاء بهم ،
فقال : أحتاجون إلي وأتم كما أرى ؟ ثم أنزلهم ، فدبج لهم شاة ، وأتاهم بجمر ،
وجلس لهم يبيت لا يرونه وهو يسمع كلامهم ، فقال ربيعة : لم أر كاليوم لحما
أطيب منه لولا أن شاته غذيت بلبن كلبية ! فقال مضر : لم أر كاليوم خرا
أطيب منه لولا أن حبلته نبت على قبر ! فقال إياد : لم أر كاليوم رجلا أسرى
منه لولا أنه ليس لأبيه الذي يدعى له ! فقال أنمار : لم أر كاليوم كلاماً أنفع
في حاجتنا من كلامنا - وكان كلامهم بأذنه - فقال : ما هؤلاء إلا شياطين ،
ثم دعا القهرمان ، فقال : ما هذه الحجر ؟ وما أمرها ؟ قال : هي من حيلة
غرستها على قبر أبيك ، ولم يكن عندنا شراب أطيب من شرابها ! وقال للراعي :
ما أمر هذه الشاة ؟ قال : هي عناق أرضعتها بلبن كلبية ، وذلك أن أمها قد
ماتت ، ولم يكن في الغنم شاة ولدت غيرها ، ثم أتت أمها فسألها عن أبيه ، فأخبرته
أنها كانت تحت ملك كثير المال - وكان لا يولد له - قالت : فحفت أن يموت
ولا ولد له فيذهب الملك ، فأمكننت من نفسي ابن عم له كان نازلاً عليه ، ==

وَحَلَفَ لَا رَكِبَ حِصَانًا، وَلَا تَزَوَّجَ حِصَانًا^(١). ثُمَّ زَوَّجَ ابْنَةَ عَمِّهِ لِابْنِهِ.

= فخرج الأفعى إليهم ، فقص القوم قصتهم ، وأخبروه بما أوصى به أبومهم ، فقال : ما أشبه القبة الحمراء من مالٍ فهو لمضر ، فذهب مضر بالدنانير والإبل الحجر ، فسُمِّيَ «مُضَرَّ الحِمْراءِ» لذلك ، وقال : وأما صاحبُ الفرسِ الأدمِ والحِباءِ الأسودِ فله كل شيء أسودٌ ، فصارت لربيعة الخليلُ الدُّهُمُ ، فقيل له : «رَبِيعَةُ الفَرَسِ» وما أشبه الخادمَ الشَّمْطَاءَ فهو لإياد ، فصار له الماشية البُلْقُ من الخليلِ والنقد ، فسُمِّيَ «إيادِ الشَّمْطَاءِ» وقضى لأثمارٍ بالدرهم وبما فضل ، فسُمِّيَ «أثمارِ الفضلِ» فصَدَرُوا من عنده على ذلك ، فقال الأفعى : «إِنَّ العَصَا من العَصِيَّةِ ، وَإِنْ خَشِينَا من أَخْشَنَ ، وَمُسَاعَدَةُ الخاطِلِ تُعَدُّ من الباطلِ» فأرسلهن مُثْلًا ، وَخُشِينِ وَأَخْشَنِ : جَبَلَانِ أَحَدُهُمَا أَصْفَرُ من الآخر ، والخطلُ : الجاهل ، والخطلُ في الكلام : اضطرابه ، والعصية : تصغير تكبير ، مثل : «أَنَا عَدُوُّ يَاقُهَا المَرْجَبُ ، وَجُذَيْلُهَا المَحَكُّ» ، والمراد أنهم يُشبهون أباهم في جَوَدَةِ الرأى ، وأصالة الفكر ، وسَدَّادِهِ ، وقيل : إن العصا اسمُ فرسٍ كانت لجذيمة بن مالك ابن نصر الذي يقال له : جَذِيمَةُ الأَبْرَشِ ، وجذيمة الوصاح ، والعصية : اسمُ أمه ، يراد أنه يحكى أمه في كرم العرِّق وشرف العتق ، وقوله في المقامة «هَلْ تَلِدُ الحيةَ إِلَّا الحيةَ» نص مثل آخر ، والمعنى : إنه لا يلد مثل ذلك الغلام الجرىء والفتى الفاتك الشجاع إلا مثلُ الأمِّ التي ولدت بشرًا ، فليس ما رآه منه عجبياً ولا غريب الوقوع ، ومثل هذا قوله :

إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ مَيِّتٌ سَرَقَ ابْنُهُ
وَمِنْ عَضِهِ مَا يَذْبَتَنَّ شَكِيرُهَا

أى إذا مات أحد هؤلاء القوم قام ابنه مقامه ، وأخذ خِلالَهُ عنه ، وفقاً أثره ، ومثله - أو قريب منه - قول زهير :

وَهَلْ يَنْبُتُ الخَطِيُّ إِلَّا وَشَيْجُهُ
وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ

(١) الحِصَان - بوزن كتاب - الفرس ، والحِصَان - بزنة سَحَابٍ - =

.. .. .

== المرأة العفيفة، وإذا كان لا يريد أن يتزوج العفيفة فهو خاليق بالآلا يتزوج غيرها، والمعنى: إنه حلف أن يُحَرِّمَ على نفسه لذّة الدنيا، ويمنعها من التمتع بطيب الحياة؛ ليأخذُ ابنه من ذلك بنصيب وفير.

* * *

والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم ، وصَلَّى اللهُ على سيدنا محمد خاتم الرسل وإمام المتقين ، وعلى آله وصحبه وسلم .

وهذا آخر ما تيسر لنا من التعليق على مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمداني ، والله المستول أن يجعله عملاً مقبولاً ، وأن يُحَسِّنَ جزاءنا عليه ، إنه وحده الذي عنده الجزاء ، والحمد لله رب العالمين ، وسلامٌ على المرسلين ، ولا عُدْوَانَ إلا على الظالمين .

وكان الفَرَاغ من تبييضه في ليلة الاثنين منتصف شهر
 بُحَادَى الثانية سنة اثنتين وأربعين وثلثمائة وألف من
 الهجرة النبوية ، على صاحبها صلاة الله وسلامه
 الأتمان الأكلان إلى يوم الدين